

الحافظ ابن كثير
الدمشقي المتوفى ٧٧٤هـ

الْبَدَائِيَّةُ وَالنَّهْسَائِيَّةُ

٥٣٥٣

الجزء العاشر

الطبعة الثامنة

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

بيروت - لبنان

ضبطت وصححت هذه الطبعة على عدة نسخ وذهبت بشروح
قامت بها هيئة باشراف الناشر

مكتبة المحاراف
بيروت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

خلفه الوليد بن يزيد بن عبد الملك

قال الواقدي : بويغ له بالخلافة يوم مات عمه هشام بن عبد الملك يوم الأربعاء لست خلون من ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة . وقال هشام بن الكلبي : بويغ له يوم السبت في ربيع الآخر ، وكان عمره إذ ذاك أربعاً وثلاثين سنة . وكان سبب ولايته أن أباه يزيد بن عبد الملك كان قد جعل الأمر من بعده لأخيه هشام ثم من بعده لولده الوليد هذا ، فلما ولي هشام أكرم ابن أخيه الوليد حتى ظهر عليه أمر الشراب وخطاء السوء ومجالس اللهو ، فأراد هشام أن يقطع ذلك عنه فأمره على الحج سنة ست عشرة ومائة ، فأخذ معه كلاب الصيد خفية من عمه ، حتى يقال إنه جعلها في صناديق فسقط منها صندوق فيه كلب فسمع صوته فأحالوا ذلك على الجبال فضرب على ذلك . قالوا : واصطنع الوليد قبة على قدر الكعبة ، ومن عزمه أن ينصب تلك القبة فوق سطح الكعبة ويجلس هو وأصحابه هنالك ، واستصحب معه الخمر والآلات الملامى وغير ذلك من المنكرات ، فلما وصل إلى مكة هاب أن يفعل ما كان قد عزم عليه ، من الجلوس فوق ظهر الكعبة خوفاً من الناس ومن إنكارهم عليه ذلك ، فلما تحقق عمه ذلك منه نهاه مراراً فلم يفته ، واستمر على حاله القبيح ، وعلى فعله الرديء ، فعزم عمه على خلعته من الخلافة - وليته فعل - وأن يولي بعده مسleme بن هشام ، وأجابه إلى ذلك جماعة من الأمراء ، ومن أخواله ، ومن أهل المدينة ومن غيرهم ، وليت ذلك تم . ولكن لم ينتظم حتى قال هشام يوماً للوليد : ويحك ! والله ما أدرى أعلى الأسلام أنت أم لا ، فانك لم تدع شيئاً من

المنكرات إلا أتيته غير متحاش ولا مستتر . فكتب إليه الوليد :

يا أيها السائلُ عن ديننا * ديني على دين أبي شاكر

نشرها صرفاً ومزوجة * بالسخن أحياناً وبالفتار

فغضب هشام على ابنه مسلمة ، وكان يسمى أبا شاكر ، وقال له : تشبه الوليد بن يزيد وأنا أريد أن أرقبك إلى الخلافة ، وبعثه على الموسم سنة تسع عشرة ومائة فأظهر النسك والوقار ، وقسم بمكة والمدينة أموالاً ، فقال مولى لأهل المدينة :

يا أيها السائلُ عن ديننا * نحن على دين أبي شاكر

الواهب الجرد بأرسلها * ليس بزنديق ولا كافر

ووقعت بين هشام وبين الوليد بن يزيد وحشة عظيمة بسبب تعاطي الوليد ما كان يتعاطاه من الفواحش والمنكرات ، فنكر له هشام وعزم على خلعه وتولية ولده مسلمة ولاية العهد ، ففر منه الوليد إلى الصحراء ، وجهلا يتراسلان بأقبح المراسلات ، وجعل هشام يتوعده وعيداً شديداً ، ويتهدهده ، ولم يزل كذلك حتى مات هشام والوليد في البرية ، فلما كانت الليلة التي قدم في صبيحتها عليه البرد بالخلافة ، قاتق الوليد تلك الليلة قلقاً شديداً ، وقال لبعض أصحابه : ويحك قد أخذني الليلة قلق عظيم فاركب لعلنا نبسط ، فسارا ميلين يتكلمان في هشام وما يتعلق به ، من كتبه إليه بالتهديد والوعيد ، ثم رأيا من بعد رجها وأصواتها وغباراً ، ثم انكشف ذلك عن برده صدونه بالولاية ، فقال لصاحبه : ويحك ! إن هذه رسل هشام ، اللهم اعطنا خيرها ، فلما اقتربت البرد منه وتبينوه ترجلوا إلى الأرض وجاؤا فسلوا عليه بالخلافة ، فبهت وقال : ويحكم أمات هشام ؟ قالوا : نعم ، قال : فن بعثكم ؟ قالوا : سالم بن عبد الرحمن صاحب ديوان الرسائل ، وأعطوه الكتاب فقرأه ثم سألهم عن أحوال الناس وكيف مات عمه هشام ، فأخبروه . فكتب من فوره بالاحتياط على أموال هشام وحواصله بالرصافة وقال :

ليت هشاماً عاش حتى يرى * مكيلاً الأوفر قد طبعاً

كانه بالصاع الذي كاله * وما ظلمناه به إصبعا

وما أتينا ذاك عن بدعة * أحله الفرقان لي أجمعا

وقد كان الزهري يحث هشاماً على خلع الوليد هذا ويستبضيه في ذلك ، فيحجم هشام عن ذلك خوف الفضيحة من الناس ، ولثلاث تنكر قلوب الأجناد من أجل ذلك ، وكان الوليد يفهم ذلك من الزهري ويبغضه ويتوعده ويتهدهده ، فيقول له الزهري : ما كان الله ليسلطك على يافاسق ، ثم مات الزهري قبل ولاية الوليد ، ثم فر الوليد من عمه إلى البرية فلم يزل بها حتى مات ، فاحتاط على أموال

عنه ثم ركب من فوره من البرية وقصد دمشق، واستعمل العمال وجاءته البيعة من الآفاق، وجاءته الوفود، وكتب إليه مروان بن محمد - وهو إذ ذاك نائب أرمينية - بيارك له في خلافة الله له على عباده والتمكين في بلاده، وبعثه بموت هشام وظفروه به، والتحكم في أمواله وحواصله، ويذكر له أنه جدد البيعة له في بلاده، وأنهم فرحوا واستبشروا بذلك، ولولا خوفه من الثغر لاستتاب عليه وركب بنفسه شوقاً إلى رؤيته، ورغبة في مشافهته، ثم إن الوليد سار في الناس سيرة حسنة بادی الرأي وأمر باعطاء الزمى والمجنومين والعريان لكل إنسان خادماً، وأخرج من بيت المال الطيب والتحف لعبالات المسلمين، وزاد في أعطيات الناس، ولاسيما أهل الشام والوفود، وكان كريماً ممدحاً شاعراً مجيداً، لا يسأل شيئاً قط فيقول لا، ومن شعره قوله بمدح نفسه بالكرم:

ضمنت لكم إن لم تمقني عوائق * بأن ساء الضر عنكم ستقلع
سيوشك الحاقق ممّا وزيادة * وأعطيه مني إليكم تبرع
محرمكم ديوانكم وعطاؤكم * به يكتب الكتاب شهراً وتطبع

وفي هذه السنة عقد الوليد البيعة لابنه الحكم ثم عثمان، على أن يكونا ولي العهد من بعده، وبعث البيعة إلى يوسف بن عمر أمير العراق وخراسان، فأرسلها إلى نائب خراسان نصر بن سيار، فخطب بذلك نصر خطبة عظيمة بليغة طويلة، ساقها ابن جرير بكاملها، واستثنى الوليد المالك في المشارق والمغارب، وأخذت البيعة لولديه من بعده في الآفاق، وكتب الوليد إلى نصر بن سيار بالاستقلال بولاية خراسان، ثم وفد يوسف بن عمر على الوليد فسأله أن يرد إليه ولاية خراسان فردّها إليه كما كانت في أيام هشام، وأن يكون نصر بن سيار ونوابه من تحت يده، فكتب عند ذلك يوسف بن عمر إلى نصر بن سيار يستوفده إلى أمير المؤمنين بأهله وعياله، وأن يكثر من استصحاب الهدايا والتحف. فحمل نصر بن سيار ألف مملوك على الخيل، وألف وصيفة وشيئا كثيراً من أباريق الفضة والذهب، وغير ذلك من التحف، وكتب إليه الوليد يستحثه سريعاً ويطلب منه أن يحمل معه طنابيراً وبرايط ومغنيات وبازات وبراذين فره، وغير ذلك من آلات الطرب والفسق، فكره الناس ذلك منه وكرهوه. وقال المنجمون لنصر بن سيار: إن الفتنة قريباً ستقع بالشام، فحمل يتناقل في سيره، فلما أن كان ببعض الطريق جاءتته البرد فأخبروه بأن الخليفة الوليد قد قتل وهاجت الفتنة العظيمة في الناس بالشام، فدل بما معه إلى بعض المدن فأقام بها، وبلغه أن يوسف بن عمر قد هرب من العراق واضطربت الأمور، وذلك بسبب قتل الخليفة على ماسند كره، وبالله المستعان.

وفي هذه السنة ولي الوليد يوسف بن محمد بن يوسف الثقفى ولاية المدينة ومكة والطائف، وأمره أن يقيم إبراهيم ومحمداً ابني هشام بن إسماعيل الخزومي بالمدينة مهانين لكونهما خالي هشام، ثم يبعث

٥
بهما إلى يوسف بن عمر نائب العراق فبعثهما إليه . فما زال يعذبهما حتى ماتا وأخذ منهما أموالا كثيرة .
وفي هذه السنة ولى يوسف بن محمد بن يحيى بن سعيد الانصارى قضاء المدينة ، وفيها بعث الوليد بن
يزيد إلى أهل قبرص جيشا مع أخيه وقال : خيرهم فمن شاء أن يتحول إلى الشام ، ومن شاء أن
يتحول إلى الروم ، فكان منهم من اختار جوار المسلمين بالشام ، ومنهم من انتقل إلى بلاد الروم .

قال ابن جرير : وفيها قدم سليمان بن كثير ومالك بن الهيثم ولاهز بن قريظ وقحطبة بن شبيب
فلقوا - في قول بعض أهل السير - محمد بن علي فأخبروه بقصة أبي مسلم فقال : أحر هو أم لا ؟ فقالوا :
أما هو فيزعم أنه حر ، وأما ولده فيزعم أنه عبده ، فاشتروه فأعتقوه ، ودفعوا إلى محمد بن علي مائتي
ألف درهم وكسوة بثلاثين ألفا ، وقال لهم : لعلكم لا تلقوني بعد عامكم هذا ، فان مات فان صاحبكم
إبراهيم بن محمد - يعني ابنه - فانه ابني ، فأوصيكم به . كومات محمد بن علي في مستهل ذي القعدة في
هذه السنة بعد أبيه بسبع سنين . وفيها قتل يحيى بن زيد بن علي بخراسان . وحج بالناس فيها يوسف
ابن محمد الثقفي أمير مكة والمدينة والطائف . وأمير العراق يوسف بن عمر ، وأمير خراسان نصر بن
سيار ، وهو في همة الوفود إلى الوليد بن يزيد أمير المؤمنين بما معه من الهدايا والتحف ، قتل الوليد
قبل أن يجتمع به . ومن توفى فيها من الأعيان :

محمد بن علي

ابن عبد الله بن عباس أبو عبد الله المدني ، وهو أبو السفاح والمنصور ، روى عن أبيه وجده
وسعيد بن جبير وجماعة ، وحدث عنه جماعة منهم ابنه الخليفة ، أبو العباس عبد الله السفاح ،
وأبو جعفر عبد الله المنصور ، وقد كان عبد الله بن محمد بن الحنفية أوصى إليه بالأمر من بعده
وكان عنده علم بالأخبار ، فبشره بأن الخلافة ستكون في ولدك ، فدعا إلى نفسه في سنة سبع
وثمانين ، ولم يزل أمره يتزايد حتى توفى في هذه السنة ، وقيل في التي قبلها ، وقيل في التي بعدها ،
عن ثلاث وستين سنة ، وكان من أحسن الناس شكلا ، فأوصى بالأمر من بعده لولده إبراهيم ، فسا
أبرم الأمر إلا لولده السفاح ، فاستلب من بني أمية الأمر في سنة ثنتين وثلاثين كما سيأتي .

وأما يحيى بن يزيد

ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب فانه لما قتل أبوه زيد في سنة إحدى وعشرين ومائة ،
لم يزل يحيى مختفيا في خراسان عند الحريش بن عمرو بن داود ببلخ ، حتى مات هشام ، فكتب
عند ذلك يوسف بن عمر إلى نصر بن سيار يخبره بأمر يحيى بن زيد ، فكتب نصر بن سيار إلى
نائب بلخ مع عقيل بن معقل العجلي ، فأحضر الحريش فعاقبه ستائة سوط فلم يدل عليه ، وجاء ولد
الحريش فدلهم عليه فجلس ، فكتب نصر بن سيار إلى يوسف بذلك ، فبعث إلى الوليد بن يزيد

يخبره بذلك ، فكتب الوليد إلى نصر بن سيار يأمره باطلاقه من السجن وإرساله إليه محبة أصحابه ، فأطلقهم وأطلق لهم وجههم إلى دمشق ، فلما كانوا ببعض الطريق توسم نصر منه غدرآ ، فبعث إليه جيشا عشرة آلاف فكسروهم يحيى بن زيد ، وإنما معه سبعون رجلا ، وقتل أميرهم واستلب منهم أموالا كثيرة ، ثم جاءه جيش آخر فقتلوه واحتزوا رأسه وقتلوا جميع أصحابه رحمهم الله ثم دخلت سنة ست وعشرين ومائة

فيها كان مقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك وهذه ترجمته

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، أبو العباس الأموي الدمشقي ، بويبع له بالخلافة بعد عمه هشام في السنة الخالية بعهد من أبيه كما قدمنا . وأمه أم الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفي . وكان مولده سنة تسعين ، وقيل ثنتين وتسعين ، وقيل سبع وثمانين ، وقتل يوم الخميس لليلتين بقيتا في جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة ، ووقعت بسبب ذلك فتنة عظيمة بين الناس بسبب قتله ، ومع ذلك إنما قتل لفسقه ، وقيل وزندقته . وقد قال الامام أحمد : حدثنا أبو المنيرة ثنا بن عباس حدثني الأوزاعي وغيره عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب قال : ولد لاختي أم سلمة زوج النبي (س) ، غلام فسموه الوليد ، فقال النبي (س) : « سميتموه باسم فراعيسكم ، ليكون : في هذه الأمة رجل يقال له الوليد ، هو أشد فسادا لهذه الأمة من فرعون لقومه » . قال الحافظ ابن عساكر : وقد رواه الوليد بن مسلم ومعاقل بن زياد ومحمد بن كثير وبشر بن بكر عن الأوزاعي فلم يذكر وا عمر في إسناده وأرسلوه ، ولم يذكر ابن كثير سعيد بن المسيب ، ثم ساق طريقه هذه كلها بأسانيدها وألفاظها . وحكى عن البيهقي أنه قال : هو مرسل حسن ، ثم ساق من طريق محمد بن محمد بن عمر بن عطاء عن زينب بنت أم سلمة عن أمها قالت : « دخل النبي (س) ، وعندي غلام من آل المنيرة اسمه الوليد ، فقال : من هذا يا أم سلمة ؟ قالت : هذا الوليد ، فقال النبي (س) : قد اتخذتم الوليد خنانا (حسانا) غيروا اسمه ، فانه سيكون في هذه الأمة فرعون يقال له الوليد » . وروى ابن عساكر من حديث عبد الله بن محمد بن مسلم ثنا محمد بن غالب الأنطاكي ثنا محمد بن سليمان بن أبي داود ثنا صدقة عن هشام بن الغاز عن مكحول عن أبي ثعلبة الخشني عن أبي عبيدة ابن الجراح عن النبي (س) ، قال : « لا يزال هذا الأمر قائما بالتسقط حتى ينلهم رجل من بني أمية » .

مقتله وزوال دولته

كان هذا الرجل مجاهرا بالفواحش مصرا عليها ، منتهكا محارم الله عز وجل ، لا يتحاشى من مصيبة . وربما اتهمه بعضهم بالزندقة والانحلال من الدين ، والله أعلم ، لكن الذي يظهر أنه كان عاضيا شاعرا ما جنا متعاطيا للمعاصي ، لا يتحاشاها من أحد ، ولا يستعفى من أحد ، قبل أن يلي

الخلافة وبعد أن ولي ، وقد روى أن أخاه سليمان كان من جملة من سعى في قتله ، قال : أشهد أنه كان شروباً للخمر ما جئنا فاسقا ، ولقد أرادني على نفسي الفاسق . وحكى المعافى بن زكريا عن ابن دريد عن أبي حاتم عن العتيبي أن الوليد بن يزيد نظر إلى نصرانية من حسان نساء النصارى اسمها سفري فأحبها ، فبعث يرادها عن نفسها فأبت عليه ، فألح عليها وعشقها فلم تطاوعه ، فاتفق اجتماع النصارى في بعض كنائسهم لعيد لهم ، فذهب الوليد إلى بستان هناك فتنكر وأظهر أنه مصاب ، فخرج النساء من الكنيسة إلى ذلك البستان ، فرأينه فأحدقن به ، فجعل يكلم سفري ويحادثها وتضحكه ولا تعرفه ، حتى اشتق من النظر إليها ، فلما انصرفت قيل لها : ويحك أتدريين من هذا الرجل ؟ فقالت : لا ! فقيل لها هو الوليد . فلما تحققت ذلك حنت عليه بعد ذلك وكانت عليه أحرص منه عليها قبل أن تحن عليه . فقال الوليد في ذلك أبياتا :

أضحك فؤادك يا وليدُ عميلاً * صباً قديماً للحسان صيودا
في حبٍ واضحة العوارض طفلة * برزت لنا نحو الكنيسة عيدا
مازلت أرمقها بعيني وامي * حتى بصرتُ بها تقبلُ عودا
عود الصليب فويح نفسي من رأى * منكم صليبا مثله معبودا
فسألتُ ربي أن أكون مكانه * وأكون في لب الجحيم وقودا
وقال فيها أيضا لما ظهر أمره وعلم بحاله الناس . وقيل إن هذا وقع قبل أن يلي الخلافة :
الأحبذا سزى وإن قيل إنني * كلفت بنصرانية تشرب الخرا
يهون علينا أن نفل نهارنا * إلى الليل لاظهر أنصلي ولا عصرا

قال القاضي أبو الفرج المعافى بن زكريا الجريري المعروف بابن طرار النهرواني بعد إبراده هذه الأشياء : لا وليد في نحو هذا من الخلاعة والمجون وسخافة الدين ما يطول ذكره ، وقد ناقضناه في أشياء من منظوم شعره المتضمن ريك ضلالة وكفره . وروى ابن عساكر بسنده أن الوليد سمع بخمار صلف بالحيرة فقصدته حتى شرب منه ثلاثة أرتال من الخمر ، وهو راكب على فرسه ، ومعه اثنان من أصحابه ، فلما انصرف أمر للخمار بخمسة دنانير . وقال القاضي أبو الفرج : أخبار الوليد كثيرة قد جمعها الأخباريون مجموعة ومفردة ، وقد جمعت شيئا من سيرته وأخباره ، ومن شعره الذي ضمنه ما فجر به من جرأته وسفاهته وحقه وهزله ومجونه وسخافة دينه ، وما صرح به من الإلحاد في القرآن العزيز ، والكفر بمن أنزل عليه ، وقد عارضت شعره السخيف بشعر حصيف ، وباطله بحق نبهه شريف ، وترجيت رضاء الله عز وجل واستيجاب مغفرته .

وقال أبو بكر بن أبي خيثمة : ثنا سليمان بن أبي شيخ ثنا صالح بن سليمان ، قال : أراد الوليد

ابن يزيد الحليج وقال : أشرب فوق ظهر الكعبة الخمر ، فبهوا ان يفتسكوا به إذا خرج ، فجاؤا إلى خالد ابن عبد الله القسري فسألوه أن يكون معهم فأبى ، فقالوا له : فآكتم علينا ، فقال : أما هذا فنعم ، فجاء إلى الوليد فقال : لا تخرج فاني أخاف عليك ، فقال : ومن هؤلاء الذين يخافهم على ؟ قال : لا أخبرك بهم . قال : إن لم تخبرني بهم بعثت بك إلى يوسف بن عمر ، قال : وإن بعثت بي إلى يوسف ابن عمر ، فبعثه إلى يوسف فعاقبه حتى قتله . وذكر ابن جرير أنه لما امتنع أن يعلمه بهم سجنه ثم سلمه إلى يوسف بن عمر يستخلص منه أموال العراق فقتله ، وقد قيل إن يوسف لما وفد إلى الوليد اشترى منه خالد بن عبد الله القسري بخمسين ألف ألف بخلصها منه ، فما زال يعاقبه ويستخلص منه حتى قتله ، ففضبت أهل اليمن من قتله ، وخرجوا على الوليد .

قال الزبير بن بكار : حدثنا مضعب بن عبد الله قال سمعت أبي يقول : كنت عند المهدي فذكر الوليد بن يزيد فقال رجل في المجلس : كان زنديقاً ، فقال المهدي : خلافة الله عنده أجبل من أن يجعلها في زنديق . وقال أحمد بن عمير بن حوصاء الدمشقي : ثنا عبد الرحمن بن الحسن ثنا الوليد ابن مسلم ثنا حصين بن الوليد عن الأزهر بن الوليد قال : سمعت أم الدرداء تقول : إذا قتل الخليفة الشاب من بني أمية بين الشام والعراق مظلوماً لم يزل طاعة مستخف بها ودم مسفوك على وجه الأرض بغير حق . قال الامام أبو جعفر بن جرير الطبري :

قتل يزيد بن الوليد الناقص للوليد بن يزيد

قد ذكرنا بعض أمر الوليد بن يزيد وخلاعه وبجائته وفسقه وما ذكر عن تهاونه بالصلوات واستخفافه بأمر دينه قبل خلافته وبعدها . فانه لم يزد في الخلافة إلا شراً ولها ولثة وركوباً للصيد وشرب المسكر ومزادة الفساق ، فزادته الخلافة على ما كان قبلها إلا تمادياً وغروراً ، فقتل ذلك على الأمراء والرعية والجند ، وكرهوه كراهة شديدة ، وكان من أعظم ما جنى على نفسه حتى أورثه ذلك هلاكه ، إفساده على نفسه بنى عميه هشام والوليد بن عبد الملك مع إفساده البمانية ، وهي أعظم جند خراسان ، وذلك أنه لما قتل خالد بن عبد الله القسري وسلمه إلى غريمه يوسف بن عمر الذي هو نائب العراق إذ ذاك ، فلم يزل يعاقبه حتى هلك ، انقلبوا عليه وتنكروا له وساءم قتله كما سنذكره في ترجمته . ثم روى ابن جرير بسنده أن الوليد بن يزيد ضرب ابن عمه سليمان بن هشام مائة سوط وحلق رأسه ولحيته وغربه إلى عمان فحبسه بها ، فلم يزل هناك حتى قتل الوليد ، وأخذ جارية كانت لآل عمه الوليد بن عبد الملك ، فسكره فيها عمر بن الوليد فقال : لا أردّها ، فقال : إذا تسكّر لصواهل حول عسكرك . وحبس الأقمم يزيد بن هشام ، وبائع لولديه الحكم وعثمان ، وكانا دون

البلوغ ، فشق ذلك على الناس أيضا ونصحوه فلم ينتصح ، ونهوه فلم يرتدع ولم يقبل .
قال المدائني في روايته : ثقل ذلك على الناس ورماه بنو هاشم وبنو الوليد بالكفر والزندقة
وغشيان أمهات أولاد أبيه ، وبالألواط وغيره ، وقالوا : قد اتخذ مائة جامعة على كل جامعة اسم رجل
من بني هاشم ليقتله بها ، ورموه بالزندقة ، وكان أشدهم فيه قولا يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وكان
الناس إلى قوله أميل ، لأنه أظهر النسك والتواضع ، ويقول ما يسعنا الرضا بالوليد حتى حمل الناس
على الفتك به ، قالوا : وانتدب للقيام عليه جماعة من قضاة والباقية وخلق من أعيان الأمراء وآل
الوليد بن عبد الملك ، وكان القائم بأعباء ذلك كله والداعي إليه يزيد بن الوليد بن عبد الملك ،
وهو من سادات بني أمية ، وكان ينسب إلى الصلاح والدين والورع ، فبايعه الناس على ذلك ، وقد
نهاه أخوه العباس بن الوليد فلم يقبل ، فقال : والله لولا أني أخاف عليك لقيدتك وأرسلتك إليه ،
واتفق خروج الناس من دمشق من وباء وقع بها ، فكان ممن خرج الوليد بن يزيد أمير المؤمنين
في طائفة من أصحابه نحو المائتين ، إلى ناحية مشارف دمشق ، فانتظم إلى يزيد بن الوليد أمره وجعل
أخوه العباس ينهاه عن ذلك أشد النهي ، فلا يقبل ، فقال العباس في ذلك :

إني أعيذكم بالله من فتن * مثل الجبال تسامى ثم تندفع
إن البرية قد ملئت سياستكم * فاستمروا بعهود الدين وارتدعوا
لا تلجمن ذئاب الناس أنفسكم * إن الفباب إذا ما ألحمت رتعوا
لا تبقرن بأيديكم بطونكم * قم لأحسرة تغنى ولا جزع

فلما استوثق ليزيد بن الوليد أمره ، وبايعه من بايعه من الناس ، قصد دمشق فدخلها في غيبة
الوليد فبايعه أكثر أهلها في الليل ، وبلغه أن أهل المزة قد بايعوا كبيرهم معاوية بن مصاد ، فضى
إليه يزيد ماشيا في نفر من أصحابه ، فأصابهم في الطريق خطر شديد ، فأنوه فطرقوا بابه ليلا ثم دخلوا
فكلمه يزيد في ذلك فبايعه معاوية بن مصاد ، ثم رجع يزيد من ليلته إلى دمشق على طريق القناة
وهو على حمار أسود ، فخلف أصحابه أنه لا يدخل دمشق إلا في السلاح ، فلبس سلاحا من تحت ثيابه
فدخلها ، وكان الوليد قد استناب على دمشق في غيبته عبد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف
الثقفي ، وعلى شرطتها أبو العاج كثير بن عبد الله السلمي ، فلما كان ليلة الجمعة اجتمع أصحاب يزيد
بين العشائين عند باب الفرديس ، فلما أذن العشاء الآخرة دخلوا المسجد ، فلما لم يبق في المسجد
غيرهم بعثوا إلى يزيد بن الوليد فجاءهم فقصوا باب المقصورة ففتح لهم خادم ، فدخلوا فوجدوا أبا العاج
وهو سكران ، فأخذوا خزائن بيت المال وتسلموا الخواصل ، وتقووا بالأسلحة ، وأمر يزيد باغلاق
أبواب البلد ، وأن لا يفتح إلا لمن يعرف ، فلما أصبح الناس قدم أهل الخواضر من كل جانب

فدخلوا من سائر أبواب البلد ، كل أهل محلة من الباب الذي يليهم ، فكثرت الجيوش حول يزيد ابن الوليد بن عبد الملك في نصرته ، وكلهم قد بايعه بالخلافة : وقد قال فيه بعض الشعراء في ذلك : -

فجاءتهم أنصارهم حين أصبحوا * سكاسكها أهل البيوت الصناديد
وكلب فجأزم بجبل وعدة * من البيض والابدان ثم السواعد
فأكرم بها أحياء أنصار سنم * هم منعو حرمتها كل جاحد
وجاءتهم شينان والازد شرعاً * وعبس ونلم بين حام وذائد
وغسان والحيان قيس وتقلب * واحجم عنها كل وان وزاهد
فما أصبحوا إلا وهم أهل ملكها * قد استوتقوا من كل عاب ومارد

و بعث يزيد بن الوليد عبد الرحمن بن مصاد في مائتي فارس إلى قطنا ليأتوه بعبد الملك بن محمد ابن الحجاج نائب دمشق وله الأمان ، وكان قد تحصن هناك ، فدخلوا عليه فوجدوا عنده خرجين في كل واحد منهما ثلاثون ألف دينار ، فلما مروا بالمرزة قال أصحاب ابن مصاد : خذ هذا المال فهو خير من يزيد بن الوليد ، فقال : لا والله لا تحدث العرب أني أول من خان ، ثم أتوا به يزيد بن الوليد فاستخدم من ذلك المال جندا للقتال قريباً من ألفي فارس ، و بعث به مع أخيه عبدالعزيز بن الوليد بن عبد الملك خلف الوليد بن يزيد ليأتوا به ، وركب بعض موالى الوليد فرسا سابقا فساق به حتى انتهى إلى موله من الليل ، وقد نفق الفرس من السوق ، فأخبره الخبر فلم يصدقه وأمر بضربه ، ثم تواترت عليه الأخبار فأشار عليه بعض أصحابه أن يتحول من منزله ذاك إلى حصص فاتها حصينة . وقال الأبرش سعيد بن الوليد الكلبي : انزل على قومي بتدمر ، فأبى أن يقبل شيئا من ذلك ، بل ركب بمن معه ، وهو في مائتي فارس ، وقصد أصحاب يزيد فالتقوا بشقلة في أثناء الطريق فأخنفوه ، وجاء الوليد فنزل حصن البخراء الذي كان للنعان بن بشير ، وجاءه رسول العباس بن الوليد إني آتيك - وكان من أنصاره - فأمر الوليد بإبراز سريره فجلس عليه وقال : أعلى يتوئب الرجال وأنا أثب على الأسد وأنخصر الأفاعي ؟ وقدم عبد العزيز بن الوليد بمن معه ، وإنما كان قد خلص معه من الألفي فارس ثمانمائة فارس ، فتصافوا فاقتتلوا قتالا شديدا ، فقتل من أصحاب العباس جماعة حملت رؤسهم إلى الوليد ، وقد كان جاء العباس بن الوليد لنصرة الوليد بن يزيد ، فبعث إليه أخوه عبد العزيز فجئ به قهرا حتى بايع لأخيه يزيد بن الوليد ، واجتمعوا على حرب الوليد بن يزيد ، فلما رأى الناس اجتماعهم فروا من الوليد إليهم ، وبقي الوليد في ذل وقل من الناس ، فلجأ إلى الحصن فجاءوا إليه وأحاطوا به من كل جانب محاصرونه ، فدنا الوليد من باب الحصن فنادى ليكلمني رجل شريف ، فكلمه يزيد بن عنبسة السكسكي ، فقال الوليد : ألم أدفع الموت عنكم ؟

ألم أعط قفراءكم؟ ألم أخدم نساءكم؟ فقال يزيد: إنما ينقم عليك انتهاك المحارم وشرب الخمر ونكاح أمهات أولاد أبيك، واستغفارك بأمر الله عز وجل. فقال، حسبك يا أبا السكاسك، لقد أكرنت وأغرقت، وإن فيما أحل الله لي لسمة عما ذكرته. ثم قال: أما والله لئن قتلتموني لارتعن فنتسكم ولا يلم شعنكم ولا تجتمع كلتكم. ورجع إلى القصر فجلس ووضع يمين يديه مصحفا فشره وأقبل يقرأ فيه وقال: يوم كيوم عثمان، واستسلم، وتسور عليه أولئك الحائط، فكان أول من نزل إليه يزيد بن عنبسة، فتقدم إليه وإلى جانبه سيف فقال: نحه عنك، فقال الوليد: لو أردت القتال به لكان غير هذا، فأخذ بيده وهو يريد أن يجبسه حتى يبعث به إلى يزيد بن الوليد، فبادره عليه عشرة من الأمراء فأقبلوا على الوليد يضربونه على رأسه ووجهه بالسيف حتى قتلوه، ثم جروه برجله ليخرجوه، فصاحت النسوة فتركوه، واحتز أبو علاقة القضاعي رأسه، واحتاطوا على ما كان معه مما كان خرج به في وجهه ذلك، وبعثوا به إلى يزيد مع عشرة نفر، منهم منصور بن جمهور وروح بن مقبل وبشر مولى كنانة من بني كلب، وعبد الرحمن الملقب بوجه الفليس، فلما انتهوا إليه بشروه بقتل الوليد وسلوا عليه بالخلافة، فأطلق لكل رجل من العشرة عشرة آلاف، فقال له روح بن بشر بن مقبل: أبشر يا أمير المؤمنين بقتل الوليد الفاسق، فسجد شكرا لله ورجعت الجيوش إلى يزيد، فكان أول من أخذ يده للمبايعة يزيد بن عنبسة السكسكي فانتزع يده من يده وقال: اللهم إن كان هذا رضى لك فأعني عليه، وكان قد جعل لمن جاءه برأس الوليد مائة ألف درهم، فلما جرى به - وكان ذلك ليلة الجمعة وقيل يوم الأربعاء - الليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة. فأمر يزيد بنصب رأسه على رمح وأن يطاف به في البلد، فقيل له إنما ينصب رأس الخارجى، فقال: والله لأنصبه، فشهره في البلد على رمح ثم أودعه عند رجل شهراً ثم بعث به إلى أخيه سليمان بن يزيد، فقال أخوه بعداً له: أشهد أنك كنت شروباً للخمر ماجناً فاسقاً ولقد أراذني على نفسى هذا الفاسق وأنا أخوه، لم يأنف من ذلك. وقد قيل إن رأسه لم يزل معلقاً بمحائط جامع دمشق الشرقى مما يلي الصحن حتى انقضت دولة بني أمية، وقيل إنما كان ذلك أنزله، وكان عمره يوم قتل ستاً وثلاثين سنة، وقيل ثمانياً وثلاثين، وقيل إحدى وثلاثين، وقيل ثنتان وقيل خمس، وقيل ست وأربعون سنة. ومدة ولايته سنة وستة أشهر على الأشهر، وقيل ثلاثة أشهر. قال ابن جرير: كان شديد البطش طويل أصابع الرجلين، كانت تضرب له سكة الحديد في الأرض ويربط فيها خيط إلى رجله ثم يثب على الفرس فيركبها ولا يمس الفرس، فتنتقل تلك السكة من الأرض مع وثبته.

خلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان

وهو الملقب بالناقص لنتقصه الناس من أعطيتهم ما كان زاده الوليد بن يزيد في أعطيهم،

وهي عشرة عشرة ، ورده إياهم إلى ما كانوا عليه في زمن هشام ، ويقال إن أول من لقبه بذلك مروان بن محمد ، بويع له بالخلافة بعد مقتل الوليد بن يزيد ، وذلك ليلة الجمعة لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة من هذه السنة - حتى سنة ست وعشرين ومائة - وكان فيه صلاح وورع قبل ذلك ، فأول ما عمل انتقاصه من أرزاق الجند ما كان الوليد زادهم ، وذلك في كل سنة عشرة عشرة ، فسمى الناقص لذلك ، ويقال في المثل الأشج والناقص أعدا خلفاء بني مروان - يعني عمر بن عبد العزيز وهذا - ولكن لم تطل أيامه ، فانه توفي من آخر هذه السنة ، واضطربت عليه الأمور ، وانتشرت الفتن واختلفت كلمة بني مروان فنهض سليمان بن هشام ، وكان معتقلا في سجن الوليد بعمان فاستحوز على أموالها وحواصلها ، وأقبل إلى دمشق فجعل يلعن الوليد ويصيه ويرميه بالكفر ، فأكرمه يزيد ورد عليه أمواله التي كان أخذها من الوليد ، وتزوج يزيد أخت سليمان ، وهي أم هشام بنت هشام ، ونهض أهل حمص إلى دار العباس بن الوليد التي عندهم فهدموها ، وحبسوا أهلها وبنيها ، وهرب هو من حمص فالحق يزيد بن الوليد إلى دمشق ، وأظهر أهل حمص الأخذ بدم الوليد بن يزيد ، وأغلقوا أبواب البلد ، وأقاموا النوايح والبواكي على الوليد ، وكتبوا الأجناد في طلب الأخذ بالنار ، فأجابهم إلى ذلك طائفة كبيرة منهم ، على أن يكون الحكم بن الوليد بن يزيد الذي أخذ له العهد هو الخليفة ، وخلصوا فاتهم ، وهو مروان بن عبد الله بن عبد الملك بن مروان ، ثم قتلوه وقتلوا ابنه وأمرؤا عليهم معاوية بن يزيد بن حصين ، فلما انتهب خبرهم إلى يزيد بن الوليد كتب إليهم كتابا مع يعقوب بن هاني ، ومضمون الكتاب أنه يدعو إلى أن يكون الأمر شوري ، فقال عمرو ابن قيس : فإذا كان الأمر كذلك فقد رضينا بولي عهدنا الحكم بن الوليد ، فأخذ يعقوب بلحيته وقال : ويحك ! لو كان هذا الذي تدعو إليه يقيم تحت حجرك لم يحل لك أن تدفع إليه ماله ، فكيف أمر الأمة ، فوثب أهل حمص على رسل يزيد بن الوليد فطردوهم عنهم وأخرجوهم من بين أظهرهم . وقال لهم أبو محمد السفياي : لو قدمت دمشق لم يختلف على منهم اثنان ، فركبوا معه وساروا نحو دمشق وقد أمرؤا عليهم السفياي ، فتلقاهم سليمان بن هشام في جيش كثيف قد جهزهم معه يزيد ، وجهاز أيضا عبد العزيز بن الوليد في ثلاثة آلاف يكونون عند ثنية العقاب ، وجهاز هشام بن مصاد المزني في ألف وخمسمائة ليكونوا على عقبة السامية ، فخرج أهل حمص فساروا وتركوا جيش سليمان ابن هشام ذات اليسار وتعمدوه ، فلما سمع بهم سليمان ساق في طلبهم فلحقهم عند السليمانية فجعلوا الزيتون عن أيامهم والجلل عن شمالكهم والحيات من خلفهم ، ولم يبق نخلص إليهم إلا من جهة واحدة ، فاقتتلوا هنالك في قبالة الحر قتالا شديدا ، فقتل طائفة كثيرة من الفريقين ، فبينما هم كذلك إذ جاء عبد العزيز بن الوليد بمن معه فدخل على أهل حمص فاخترق جيشهم حتى ركب التل الذي

في وسطهم ، وكانت الهزيمة ، فهرب أهل حصص وتفرقوا ، فاتبعهم الناس يقتلون ويأسرون ، ثم تنادوا بالكف عنهم على أن يبايعوا يزيد بن الوليد ، وأسروا منهم جماعة ، منهم أبو محمد السفيناني ويزيد ابن خالد بن معاوية ، ثم ارتحل سليمان وعبد العزيز فترلا عفرأ ومعهما الجيوش وأشراف الناس ، وأشراف أهل حصص من الأسارى ومن استجاب من غير أسر ، بعد ما قتل منهم ثلاثمائة نفس ، فدخلوا بهم على يزيد بن الوليد ، فأقبل عليهم وأحسن إليهم وصفح عنهم ، وأطلق الأعتيات لهم ، لاسيما لأشرافهم ، وولى عليهم الذي اختاروه وهو معاوية بن يزيد بن الحصين ، وطابت عليه أنفسهم ، وأقاموا عنده في دمشق سامعين مطيعين له .

وفيها بايع أهل فلسطين يزيد بن سليمان بن عبد الملك ، وذلك أن بنى سليمان كانت لهم أملاك هناك ، وكانوا يتركونها يبدلون لها ، وكان أهل فلسطين يحبون مجاورتهم ، فلما قتل الوليد بن يزيد كتب سعيد بن روح بن زنباع - وكان رئيس تلك الناحية - إلى يزيد بن سليمان بن عبد الملك يدعوهم إلى المبايعة له ، فأجابوه إلى ذلك . فلما بلغ أهل الأردن خبرهم بايعوا أيضا محمد بن عبد الملك ابن مروان ، وأمره عليهم ، فلما انتهى خبرهم إلى يزيد بن الوليد أمير المؤمنين بعث إليهم الجيوش مع سليمان بن هشام في الدماشقة وأهل حصص الذين كانوا مع السفيناني ، فصالحهم أهل الأردن أولا ورجعوا إلى الطاعة ، وكذلك أهل فلسطين . وكتب يزيد بن الوليد ولاية الامرة بالرملة وتلك النواحي إلى أخيه إبراهيم بن الوليد ، واستقرت الممالك هنالك ، وقد خطب أمير المؤمنين يزيد ابن الوليد الناس بدمشق فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

أما بعد أيها الناس ، أما والله ما خرجت أشرا ولا بطرا ولا حرصا على الدنيا ، ولا رغبة في الملك ، وما بي إطرأ نفسي إلى لظوم نفسي ، إن لم يرحمني ربي فاني هالك ، ولكنى خرجت غضبا لله ولرسوله ولدينه ، وداعيا إلى الله وكتابه وسنة نبيه محمد (ص) ، لما هدمت معالم الدين ، وأطغى نور أهل التقوى ، وظهر الجبار العنيد المستحل لكل حرمة ، والراكب كل بدعة ، مع أنه والله ما كان مصدا بالكتاب ، ولا مؤمنا بيوم الحساب ، وإنه لابن عمي في النسب ، وكفوى في الحسب ، فلما رأيت ذلك استخرت الله في أمره ، وسألته أن لا يكلني إلى نفسي ، ودعوت إلى ذلك من أجابني من أهل ولايتي ، وصعبت فيه حتى أراح الله منه العباد والبلاد ، بحول الله وقوته لا بحولي ولا بقوة . أيها الناس ! إن لكم على أن لا أضع حجرا على حجر ، ولا لبنة على لبنة ، ولا أكرى نهرا ولا أكثر مالا ولا أعطيه زوجة ، ولا ولدا . ولا أنقل مالا من بلد إلى بلد حتى أسد ثمر ذلك البلد ، وخصاصة أهله بما يفتنهم ، فإن فضل عن ذلك فضل نقلته إلى البلد الذي يليه من هو أحوج إليه ، ولا أجتركم في نوركم فأتسكم وأفتن أهليكم ، ولا أغلق بابي دونكم فيأكل قويمكم ضعيفكم ، ولا أحمل على أهل

جزيتكم ما يجلبهم عن بلادهم ويقطع سبلهم ، وإن لكم عندي أعطيائكم في كل سنة ، وأر زانكم في كل شهر ، حتى تستندر المعيشة بين المسلمين ، فيكون أقصاهم كأدناهم ، فإن أنا وفيت لكم بما قلت فعليكم السمع والطاعة وحسن المؤازرة ، وإن أنا لم أوف لكم فلكم أن تخلموني وإلا أن تستتيبوني ، فإن ثبت قبلتم مني ، وإن علمتم أحدا من أهل الصلاح والدين يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيكم فأردتم أن تبايعوه فأنا أول من يبايعه ويدخل في طاعته . أيها الناس ! إنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، إنما الطاعة طاعة الله فمن أطاع الله فأطيعوه ما أطاع الله ، فإذا عصى أو دعا إلى معصية فهو أهل أن يعصى ولا يطاع ، بل يقتل ويهان ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

وفي هذه السنة عزل يزيد بن الوليد يوسف بن عمر عن إمرة العراق لما ظهر منه من الخلق على البغائية ، وهم قوم خالد بن عبد الله القسري ، حتى قتل الوليد بن يزيد ، وكان قد سجن غالب من ببلاده منهم ، وجعل الأرصاد على الثغور خوفاً من جند الخليفة ، فمزله عنها أمير المؤمنين يزيد بن الوليد ، وولى عليها منصور بن جمهور مع بلاد السند وسجستان وخراسان ، وقد كان منصور بن جمهور أعرابياً جلفاً ، وكان يدين بذهب الفيلانية القدرية ، ولكن كانت له آثار حسنة ، وعناء كثير في مقتل الوليد بن يزيد ، فخطى بذلك عند يزيد بن الوليد ، ويقال إنه لما فرغ الناس من الوليد ذهب من فوره إلى العراق فأخذ البيعة من أهلها إلى يزيد ، وقرر بالأقاليم نواباً وعمالاً وكر راجعاً إلى دمشق في آخر رمضان ، فلذلك ولاه الخليفة ما ولاه والله أعلم .

وأما يوسف بن عمر فانه فر من العراق فلحق ببلاد البلقاء ، فبعث إليه أمير المؤمنين يزيد فأحضره إليه ، فلما وقف بين يديه أخذ بلحيته - وكان كبير اللحية جداً ، ربما كانت تجاوز سترته وكان قصير القامة - فوبخه وأنبه ثم سجنه وأمر باستخلاص الحقوق منه . ولما انتهى منصور بن جمهور إلى العراق قرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين إليهم في كيفية مقتل الوليد ، وأن الله أخذه أخذ عزيز مقتدر ، وأنه قد ولى عليهم منصور بن جمهور لما يعلم من شجاعته ومعرفته بالحرب ، فبايع أهل العراق ليزيد بن الوليد ، وكذلك أهل السند وسجستان .

وأما نصر بن سيار نائب خراسان فانه امتنع من السمع والطاعة لمنصور بن جمهور ، وأبى أن ينقاد لأوامره ، وقد كان نصر هذا جهر هدايا كبيرة للوليد بن يزيد فاستمرت له . وفي هذه السنة كتب مروان الملقب بالحمار كتاباً إلى عمر بن يزيد أخى الوليد بن يزيد ، يحثه على القيام بطلب دم أخيه الوليد ، وكان مروان يومئذ أميراً على أذربيجان وأرمينية ، ثم إن يزيد بن الوليد عزل منصور ابن جمهور عن ولاية العراق وولى عليها عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ، وقال له : إن أهل العراق يحبون أباك فقد وليتكم ، وذلك في شوال ، وكتب له إلى أمراء الشام الذين بالعراق بوصيهم به

خشية أن يمتنع منصور بن جمهور من تسليم البلاد إليه ، فسلم اليه وسمع وأطاع وسلم . وكتب الخليفة إلى نصر بن سيار باستمراره بولاية خراسان مستقلاً بها ، فخرج عليه رجل يقال له الكرماني ، لأنه ولد بكرمان ، وهو أبو علي جديع بن علي بن شبيب المغني ، واتبعه خلق كثير بحيث إنه كان يشهد الجمعة في نحو من ألف وخمسمائة ، وكان يسلم على نصر بن سيار ولا يجلس عنده ، فتحير نصر بن سيار وأمرأؤه فيما يصنع به ، فاتفق رأيهم بعد جهد على سجنه ، فسجن قريباً من شهر ، ثم أطلقه فاجتمع إليه ناس كثير ، وجم غفير ، وركبوا معه ، فبعث إليهم نصر من قائلهم فقتلهم وقهرهم وكسرم واستخف جماعات من أهل خراسان بنصر بن سيار وتلاشوا أمره وحرمة ، وألحوا عليه في أعطياتهم وأسمعه غليظ ما يكره وهو على المنبر ، بسفارة سلم بن احوز أدى إليه ذلك ، وخرجت الباعة من المسجد الجامع وهو يخطب ، وانفض كثير من الناس عنه ، فقال لهم نصر فيما قال : والله لقد نشرتمكم وطويتكم وطويتكم ونشرتمكم فما عندى عشرة منكم على دين ، فاتقوا الله فوالله لئن اختلف فيكم سيفان ليمتدنين الرجل منكم أن ينخلع من أهله وماله وولده ، ولم يكن رأها ، ثم تمثل بقول النابغة :

فإن يغلب شقاؤكم عليكم * فاني في صلاحكم سميت

وقال الحارث بن عبد الله بن الحشر بن الورد بن المغيرة الجعد :-

أبيت أرمي النجوم مرتقياً * إذا استقلت نحوى أوائلها
من فتنه أصبحت بحلة * قد عم أهل الصلاة شاملها
من بخراسان والعراق ومن * بالشام كل شجاة شاغلها
يمشى السفينة الذي يعتف بال * جبل سواء فيها وعافها
فالناس منها في لون مظلمة * دهاء ملتجة غياطلها
والناس في كربة يكاد لها * تنبذ أولادها حواملها
يفدون منها في كل مبهمة * عياء تمنى لهم غوائلها
لا ينظر الناس من عواقبها * إلا التي لا يبين قائلها
كرغوة البكر أو كصيحة ج * لي طرقت حولها قوابلها
فجاء فينا تزدري بوجهته * فيها خطوب حمز زلازلها

وفي هذه السنة أخذ الخليفة البيعة من الأمراء وغيرهم بولاية العهد من بعده لأخيه إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك ، ثم من بعد إبراهيم لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك بن مروان ، وذلك بسبب مرضه الذي مات فيه . وكان ذلك في شهر الحجة منها ، وقد حرصه على ذلك جماعة من الأمراء والأكابر والوزراء . وفيها عزل يزيد عن إمرة الحجاز يوسف بن محمد الثقفي وولى عليها

عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ، فقدمها في أو آخر ذى القعدة منها ، وفيها أظهر مروان الحمار الخلاف ليزيد بن الوليد ، وخرج من بلاد أرمينية يظهر أنه يطلب بدم الوليد بن يزيد ، فلما وصل إلى حران أظهر الموافقة وبايع لأمير المؤمنين يزيد بن الوليد . وفيها أرسل إبراهيم بن محمد بن علي ابن عبد الله بن عباس أبا هاشم بكر بن ماهان إلى أرض خراسان ، فاجتمع بمجموعة من أهل خراسان بمرور ، فقرأ عليهم كتاب إبراهيم بن محمد الامام إليه وإليه ، ووصيته ، فتلقوا ذلك بالقبول ، وأرسلوا معه ما كان عندهم من النفقات . وفي سلخ ذى القعدة ، وقيل في سلخ ذى الحجة ، وقيل لشهر مضين منه ، وقيل بعد الأضحى منها كان وفاة أمير المؤمنين .

يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان

هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاصي بن أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف بن قصي . أبو خالد الأموي ، أمير المؤمنين ، بويع له بالخلافة أول ما بويع بها في قرية المزة ، من قرى دمشق ، ثم دخل دمشق فغلب عليها ، ثم أرسل الجيوش إلى ابن عمه الوليد بن يزيد قتلته ، واستحوذ على الخلافة في أواخر جمادى الآخرة من هذه السنة ، وكان يلقب بالناقص لنقصه الناس العشرات التي زادهم إيها الوليد بن يزيد ، وقيل إنما سماه بذلك مروان الحمار ، وكان يقول : الناقص ابن اليد ، وأمه شاهنرند بنت فيروز بن يزدجرد بن كسرى ، كسروية .

وقال ابن جرير : وأمه شاه آفرید بنت فيروز بن يزدجرد بن شهر يار بن كسرى ، وهو القائل :

أنا ابن كسرى وأبي مروان * وقيصر جدّي وجدّي خاقان

وإنما قال ذلك لأن جده فيروز ، وأم أمه بنت قيصر ، وأمه شيرويه وهي بنت خاقان ملك الترك ، وكانت قد سباها قتيبة بن مسلم ، هي وأخت لها فبعتهما إلى الحجاج ، فأرسل بهذه إلى الوليد واستبقى عنده الأخرى ، فولدت هذه الوليد بن يزيد الناقص هذا ، وهذه أخذها الحجاج فكانت عنده بالعراق ، وكان مولده في سنة تسعين ، وقيل في سنة ست وتسعين ، وقد روى عنه الأوزاعي مسألة السلم . وقد ذكرنا كيفية ولايته فيها سلف في هذه السنة ، وأنه كان عادلاً ديناً محباً للخير مبغضاً للشر . قاصداً للحق . وقد خرج يوم عيد الفطر من هذه السنة إلى صلاة العيد بين صفين من الخيالة والسيوف مسللة عن يمينه وشماله ، ورجع من المصلى إلى الخضراء كذلك ، كان رجلاً صالحاً ، يقال في المثل الأشج والناقص أعدلا بني مروان ، والمراد عمر بن عبد العزيز وهذا . وقد قال أبو بكر بن أبي الدنيا حدثني إبراهيم بن محمد المروزي عن أبي عثمان الليثي قال قال يزيد بن الوليد الناقص : يا بني أمية إياكم والفناء فانه ينقص الحياء ويزيد في الشهوة ويهدم المروءة ، وإنه لينوب عن الحر ويفعل ما يفعل المسكر ، فان كنتم لابد فاعلين فجنّبوه النساء فانه داعية الزنا . وقال ابن عبد الحكم

عن الشافعي : لما ولي يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان الذي يقال له الناقص دعا الناس إلى القدر وحملهم عليه وقرب غيلان . قاله ابن عساكر . قال : ولعله قرب أصحاب غيلان ، لأن غيلان قتله هشام بن عبد الملك . وقال محمد بن المبارك : آخر ما تكلم به يزيد بن الوليد الناقص واحزنه واشقاآه . وكان نقش خاتمه العظيمة لله . وكانت وفاته بالخضراء من طاعون أصابه ، وذلك يوم السبت لسبع مضين من ذى الحجة ، وقيل يوم الاضحى منه ، وقيل بعده بأيام ، وقيل لعشر بقين منه ، وقيل في سابعه ، وقيل في سلخ ذى القعدة من هذه السنة . واكثر ما قيل في عمره ست وأربعون سنة ، وقيل ثلاثون سنة ، وقيل غير ذلك فالحق أعلم . وكانت مدة ولايته ستة أشهر على الأشهر ، وقيل خمسة أشهر وأيام . وصلى عليه أخوه إبراهيم بن الوليد ، وهو ولي العهد من بعده رحمه الله . وذكر سعيد بن كثير بن عفير أنه دفن بين باب الجابية وباب الصغير ، وقيل إنه دفن بباب الفاراديس ، وكان أسمر نحيفا حسن الجسم حسن الوجه . وقال علي بن محمد المديني : كان يزيد أسمر طويلا صغير الرأس بوجهه خال ، وكان جميلا ، في فمه بعض السعة وليس بالمفرط . وحج بالناس فيها عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز وهو نائب الحجاز ، وأخوه عبد الله نائب العراق ، ونصر بن سيار على نيابة خراسان ، والله سبحانه أعلم . ومن توفي في هذه السنة من الأعيان :

خالد بن عبد الله بن يزيد

ابن أسد بن كرز بن عامر بن عبقري ، أبو الهيثم البجلي الفسري الدمشقي ، أمير مكة والحجاز للوليد ثم لسليمان ، وأمير العراقيين لهشام خمس عشرة سنة . قال ابن عساكر : كانت داره بدمشق في أربعة القز وتعرف اليوم بدار الشريف اليزيدي ، وإليه ينسب الحمام الذي داخل باب توما ، روى عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « يا أسد ^(١) أتحب الجنة ؟ » قال : نعم ! قال : فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك . رواه أبو يعلى عن عثمان بن أبي شيبة عن هيثم عن سيار عن أبي الحكم أنه سمعه على المنبر يقول ذلك . ومن روى عنه إسماعيل بن أوسط وإسماعيل بن أبي خالد ، وحبيب بن أبي حبيب ، وحميد الطويل . وروى أنه روى عن جده عن النبي (ص) في تكفير المرض الذنوب . وكانت أمه نصرانية ، وذكره أبو بكر بن عياش في الأشراف ، فيمن أمه نصرانية . وقال المدائني : أول ما عرف من رياسته أنه وطأ صبيا بدمشق بفرسه فحمله فأشهد طائفة من الناس أنه هو صاحبه ، فان مات فعليه دية ، وقد استنابه الوليد على الحجاز من سنة تسع وثمانين إلى أن توفي الوليد ثم سليمان ، وفي سنة ست ومائة استنابه هشام على العراق إلى سنة عشرين ومائة ، وسلمه إلى يوسف بن عمر الذي ولاه مكانه فعاقيه وأخذ منه أموالا ثم أطلقه ، وأقام بدمشق إلى الحريم من هذه السنة فسلمه الوليد بن يزيد إلى يوسف بن عمر يستخلص منه خمسين ألف ألف ، فلت تحت

(١) في تاريخ ابن عساكر (٥ : ٦٧) : « يا يزيد بن أسد » .

العقوبة البليغة ، كسر قدميه ثم ساقيه ثم فخذيه ، ثم صدره ، فمات ولا يتكلم كلمة واحدة ، ولا تأوه حتى خرجت روحه رحمه الله .

قال الليثي عن أبيه : خطب خالد القسري يوما فأرتج عليه فقال : أيها الناس ! إن هذا الكلام يحمي أحيانا ويعزب أحيانا ، فيتسبب عند مجيئه سببه ويتعذر عند عزوبه مطلبه ، وقد يرد إلى السلبط بيانه ويثيب إلى الحصر كلامه ، وسيعود إلينا ما نحبون ، ونعود لكم كما تريدون . وقال الأصمعي وغيره : خطب خالد القسري يوما بواسط فقال : يا أيها الناس تنافسوا في المسكارم وسارعوا إلى المغائن واشتروا الحمد بالجود ، ولا تكتسبوا بالمطل ذما ، ولا تعتدوا بمعروف لم تعجلوه ، ومهما تكن لأحد منكم نعمة عند أحد لم يبلغ شكرها فإله أحسن له جراً ، وأجزل عطاء ، واعلموا أن حوائج الناس إليكم نعم فلا تملوها فتحول نقما ، فإن أفضل المال ما كسب أجراً وأورث ذكراً ، ولورأيتم المعروف لرأيتموه رجلاً حسناً جميلاً يسر الناس إذا نظروا إليه ، ويفوق العالمين . ولورأيتم البخل لرأيتموه رجلاً مشوهاً قبيحاً تنفر منه القلوب وتغض دونه الأبصار . إنه من جاد ساد ومن بخل ذل ، وأكرم الناس من أعطى من لا يرجوه ، ومن عفا عن قسرة ، وأفضل الناس من وصل عن قطيعة ، ومن لم يطب حرته لم يرك نبتة ، والفروع عند مغارسها تنمو ، وبأصولها تسمو . وروى الأصمعي عن عمر ابن الميثم أن أعرابياً قدم على خالد فأنشده قصيدة امتدحه بها يقول فيها :

إليك ابن كرزٍ أختيرتُ رغباً * لتجبرني ما وها وتبدداً
إلى الماجد البهلول ذي الحلم والندی * واكرم خلق الله فرعاً ومحتداً
إذا ما أناسٌ قصرُوا بفعالهم * نهضت فلم تلقِ هنالك مقمداً
فيالك بجرّاً يغمرُ الناسَ موجةً * إذا يسألُ المعروف جاش وأزبداً
بلوتُ ابنَ عبدِ الله في كلِّ موطنٍ * فألفيتُ خيرَ الناسِ نفساً وأمجداً
فلو كان في الدنيا من الناسِ خالداً * لجودَ بمعروفٍ لكنتُ مخلداً
فلا تحرمني منك ما قد رجوتُ * فيصبحُ وجهي كالخِ اللونِ أربداً

قال : فحفظها خالد ، فلما اجتمع الناس عند خالد قام الأعرابي ينشد ما ابتدره إليها خالد فأنشدها قبله وقال : أيها الشيخ إن هذا شعر قد سبقناك إليه . فنهض الشيخ فولى ذاهباً فأتبعه خالد من بسمع ما يقول فاذا هو ينشد هذه الابيات .

ألا في سبيل الله ما كنتُ أرتجى * لديه وما لاقيتُ من نكد الجهد
دخلتُ على بحرٍ يجودُ بماله * ويعطي كثير المال في طلب الحمد
نخالفني الجد المشوم لشقوتي * وقاربني نحسى وفارقني سعدى

فلو كان لي رزقٌ لديه لنته * ولكنه أمره من الواحد الفرد

فرده إلى خالد وأعلمه بما كان يقول فأمر له بعشرة آلاف درهم . وقال الأصمعي : سأل أعرابي خالداً القسري أن يملأ له جرابه دقيقاً فأمر بملئه له دراهم ، فقيل للأعرابي حين خرج : ما فعل مالك ؟ فقال : سألته بما أشتهى فأمر لي بما يشتهي هو . وقال بعضهم : بينما خالد يسير في موكبه إذ تلقاه أعرابي فسأله أن يضرب عنقه ، فقال ويحك ولم ؟ أقطعت السبيل ؟ أخرجت يدا من طاعة ؟ فكل ذلك يقول لا ! قال : فلم ؟ قال : من الفقر والفاقة . فقال : سل حاجتك ، قال ثلاثين ألفاً . فقال خالد : ما ربح أحد مثل ما ربحك اليوم ، إني وضعت في نفسي أن يسألني مائة ألف فسأل ثلاثين فربحت سبعين . ارجعوا بنا اليوم ، وأمر له بثلاثين ألفاً . وكان إذا جلس بوضع [المال] بين يديه ويقول : إن هذه الأموال ودائع لا بد من تفرقتها . وسقط خاتم لجاريته رابعة يساوي ثلاثين ألفاً ، في بالوعة الدار ، فسألت أن تؤتى بمن يخرجها ، فقال : إن يدك أكرم على من أن تلبسه بعد ما صار إلى هذا الموضع القدر ، وأمر لها بخمسة آلاف دينار بدله . وقد كان رابعة هذه من الحلى شئ عظيم ، من جملة ذلك ياقوتة وجوهرة ، كل واحدة بثلاثة وسبعين ألف دينار .

وقد روى البخاري في كتاب أفعال العباد ، وابن أبي حاتم في كتاب السنة ، وغير واحد ممن صنف في كتب السنة أن خالد بن عبد الله القسري خطب الناس في عيد أضحي فقال : أيها الناس ، ضحوا يقبل الله ضحاياكم ، فاني مضح بالجمع بن درهم ، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى تكليماً ، تعالى الله عما يقول الجعد بن درهم علواً كبيراً . ثم نزل فذبحه في أصل المنبر . قال غير واحد من الأئمة : كان الجعد بن درهم من أهل الشام ، وهو مؤدب مروان الحمار ، ولهذا يقال له مروان الجعدي ، فنسب إليه ، وهو شيخ الجهم بن صفوان الذي تنسب إليه الطائفة الجهمية الذين يقولون إن الله في كل مكان بذاته ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً . وكان الجعد بن درهم قد تلقى هذا المذهب الخبيث عن رجل يقال له أبان بن سحمان ، وأخذته أبان عن طالوت ابن أخت لبيد ابن أعصم ، عن خاله لبيد بن أعصم اليهودي الذي سحر النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مشط وماشطة وجف طلعة ذكر له ، ونحت راعوفة بيثر ذي اروان الذي كان مأوها نقاعة الحناء . وقد ثبت الحديث بذلك في الصحيحين وغيرهما . وجاء في بعض الأحاديث أن الله أنزل بسبب ذلك سورتي المودتين .

وقال أبو بكر بن أبي خيثمة : حدثنا محمد بن يزيد الرافعي سمعت أبا بكر بن عياش قال : رُببت حالماً القسري حين أتني بالمغيرة وأصحابه ، وقد وضع له سرير في المسجد ، فجلس عليه ثم أمر برجل من أصحابه فضربت عنقه ثم قال للمغيرة : أحبيه . وكان المغيرة يزعم أنه يحبي الموتى . فقال : والله صلحك الله ما أحبي الموتى . قال : لتحيينه أولاً ضرب بن عنقك . قال : والله ما أقدر على ذلك . ثم أمر

بطن قصب فأضرموا فيه ناراً ثم قال المنيرة : اعتنقه ، فأبى ، فعدا رجل من أصحابه فاعتنقه ، قال أبو بكر : فرأيت النار تأكله وهو يشير بالسبابة . قال خالد : هذا والله أحق بالرياسة منك . ثم قتله وقتل أصحابه . وقال المدائني : أتى خالد بن عبد الله رجل تنبأ بالكوفة فقيل له ما علامة نبوتك ؟ قال : قد نزل على قرآن ، قال : إنا أعطيناك الكهاهر ، فصل لربك ولا تجاهر . ولا تطع كل كافر وفاجر . فأمر به فصلب فقال وهو يصلب : إنا أعطيناك العمود ، فصل لربك على عود ، فأنا ضامن لك ألا تعود . وقال المبرد : أتى خالد بشاب قد وجد في دار قوم وادعى عليه السرقة ، فسأله فاعترف فأمر بقطع يده فتقدمت حسناء فقالت :

أخالد قد أوطأت والله عثرة * وما العاشق المسكينُ فينا بسارق
أقر بما لم يجنوَ غيرُ أنه * رأى القطعُ أولى من فضيحة عاشق

فأمر خالد باحضار أبيها فزوجها من ذلك الغلام وأمهرها عنه عشرة آلاف درهم . وقال الأصمعي : دخل أعرابي على خالد فقال : إني قد مدحتك بيتين واست أنشدما إلا بعشرة آلاف وخادم ، فقال : نعم فأنشأ يقول :

لُزمتَ نعمَ حتى كأنك لم تكن * سمعتَ من الأشياء شيئاً سوى نعم
وأنكرتَ لا حتى كأنك لم تكن * سمعتَ بها في سالف الدهر والأهم

قال : فأمر له بعشرة آلاف درهم وخادم يحملها . قال : ودخل عليه أعرابي فقال له : سل حاجتك فقال : مائة ألف . فقال : أكثرت حظ منها . قال : أضع تسعين ألفاً ، فتمعجب منه خالد فقال : أيها الأمير سألتك على قدرك ووضعت على قدرى ، فقال له : لن تغلبني أبداً ، وأمر له بمائة ألف ، قال : ودخل عليه أعرابي ، فقال : إني قد قلت فيك شعراً وأنا أستصغره فيك ، فقال : قل فأنشأ يقول :

تعرضت لي بالجودِ حتى نعمتني * وأعطيني حتى ظننتك تلعبُ
فأنت الندى وابنُ الندى وأخو الندى * حليفُ الندى ما للندى عنك مذهبُ

فقال : سل حاجتك . قال : على خمسون ألف دينار ، فقال : قد أمرت لك بها وأضعفتها لك ، فأعطاه مائة ألف . قال أبو الطيب محمد بن إسحاق بن يحيى الوسائي : دخل أعرابي على خالد القسري فأنشده

كتبْتُ نعمَ ببابك فهي تدعو * اليك الناسُ مسفرةً النقابِ
وقلتُ لا عليكِ ببابٍ غيري * فانك لن ترى أبداً ببابي

قال فأعطاه على كل بيت خمسين ألفاً . وقد قال فيه ابن معين : كان رجل سوء يقع في علي بن أبي طالب رضى الله عنه .

ودكر الأصمعي عن أبيه : أن خالداً حفر بئراً بمكة ادعى فضلها على زمزم ، وله في رواية عنه

تفضيل الخليفة على الرسول ، وهذا كفر إلا أن يريد بكلامه غير ما يبدو منه والله أعلم .
[والذي يظهر أن هذا لا يصح عنه ، فإنه كان قائماً في إطفاء الضلال والبدع كما قدمنا من قتله للجمد
ابن درهم وغيره من أهل الالحاد ، وقد نسب إليه صاحب العقد أشياء لا تصح ، لأن صاحب العقد
كان فيه تشيع شنيع ومغلاة في أهل البيت ، وربما لا ينهم أحد من كلامه ما فيه من التشيع ، وقد
اغتر به شيخنا الذهبي فدحه بالحفظ وغيره] (١) .

وقد ذكر ابن جرير وابن عساكر وغيرهما أن الوليد بن يزيد كان قد عزم على الحج في إمارته
فمن نيته أن يشرب الخمر على ظهر الكعبة ، فلما بلغ ذلك جماعة من الأمراء اجتمعوا على قتله وتولية
غيره من الجماعة ، فحذر خالد أمير المؤمنين منهم ، فسأله أن يسميهم فأبى عليه فعاقه عقاباً شديداً ،
ثم بعت به إلى يوسف بن عمر فعاقه حتى مات شر قتلة وأسوئها ، وذلك في محرم من هذه السنة - أعني
سنة ست وعشرين ومائة - وذكره القاضي ابن خلكان في الوفيات وقال : كان منهما في دينه ، وقد
بنى لأمه كنيسة في داره ، قال فيه بعض الشعراء وقال صاحب الأعيان كان في نسبه يهود فانتصروا
إلى القرب ، وكان يقرب [من] شق وسطيح . قال القاضي ابن خلكان : وقد كانا ابني خالة ،
وعاش كل منهما ستائة ، وولدا في يوم واحد ، وذلك يوم ماتت طريفة بنت الحر بعد ما تفلت في فم
كل منهما وقالت : إنه سيقوم مقامى في الكهانة ، ثم ماتت من يومها .

ومن توفي في هذه السنة جيلة بن سحيم ودراج أبو السمح وسعيد بن مسروق في قول ، وسليمان
ابن حبيب الحاربي ، قاضي دمشق ، وعبد الرحمن بن قاسم شيخ مالك وعبيد الله بن أبي يزيد
وعمر بن دينار . وقد ذكرنا تراجمهم في كتابنا التكميل .

ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومائة

استهلت هذه السنة والخليفة إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك بوصية أخيه يزيد الناقص إليه ، وبايعه
الأمراء بذلك ، وجميع أهل الشام إلا أهل حمص فلم يبايعوه ، وقد تقدم أن مروان بن محمد الملقب
بالحمار كان نائباً بأذربيجان وأرمينية ، وتلك كانت لأبيه من قبله ، وكان نعم على يزيد بن الوليد في
قتله الوليد بن يزيد ، وأقبل في طلب دم الوليد ، فلما انتهى إلى حران أناب وبايع يزيد بن الوليد ،
فلم يلبث إلا قليلاً حتى بلغه موته ، فاقبل في أهل الجزيرة حتى وصل قنسرين فحاصر أهلها فقتلوا على
طاعته ، ثم أقبل إلى حمص وعليها عبيد العزيز بن الحجاج من جهة أمير المؤمنين إبراهيم بن الوليد
فحاصروا حتى يبايعوا إبراهيم بن الوليد ، وقد أصروا على عدم مبايعته ، فلما بلغ عبد العزيز قرب
مروان بن محمد ترحل عنها ، وقدم مروان إليها فبايعوه وساروا معه قاصدين دمشق ، ومعهم جنود

(١) وجدت هذه العبارة في نسخة ثانية بالاستانة .

الجزيرة وجند قفسرين ، فتوجه مروان إلى دمشق في ثمانين ألفا ، وقد بعث إبراهيم بن الوليد بن هشام بن عبد الملك في مائة وعشرين ألفا ، فالتقى الجيشان عند عين الجر من البقاع ، فدعاهم مروان إلى الكف عن القتال وأن يتخلوا عن ابني الوليد بن يزيد وهما الحكم وعثمان اللذان قد أخذ العهد لهما ، وكان يزيد قد سجنهما بدمشق ، فأبوا عليه ذلك ، فاقتلوا قتالا شديدا من حين ارتفاع النهار إلى العصر ، وبعث مروان سرية تأتي جيش ابن هشام من ورائهم ، قم لهم ما أرادوه ، وأقبلوا من ورائهم يكبرون ، وحمل الآخرون من تلقاهم عليهم ، فسكانت الهزيمة في أصحاب سليمان ، فقتل منهم أهل حصن خلعا كثيرا ، واستبيح عسكرهم ، وكان مقدار ما قتل من أهل دمشق في ذلك اليوم قريبا من سبعة عشر ألفا أو ثمانية عشر ألفا وأسروا منهم مثلهم ، فأخذ عليهم مروان البيعة للغلامين ابني الوليد ، الحكم وعثمان ، وأطلقهم كلهم سوى رجلين وهما يزيد بن العقار والوليد ابن مصاد الكلبيان ، فضر بهما بين يديه بالسياط وجبسهما فساتا في السجن ، لأنهما كانا ممن باشر قتل الوليد بن يزيد حين قتل . وأما سليمان وبقية أصحابه فانهم استمروا منهزمين ، فلما أصبح لهم الصبح إلا بدمشق فأخبروا أمير المؤمنين إبراهيم بن الوليد بما وقع ، فاجتمع معهم رؤس الأمراء في ذلك الوقت وهم عبد العزيز بن الحجاج ويزيد بن خالد بن عبد الله القسري ، وأبو علفة السكسكي ، والاصبح بن ذؤالة الكلبي ونظراؤهم ، على أن يعمدوا إلى قتل ابني الوليد الحكم وعثمان ، خشية أن يلجأ الخلافة فيهلكا من عاداهما وقتل أباهما ، فبعثوا إليهما يزيد بن خالد بن عبد الله القسري ، فعمد إلى السجن وفيه الحكم وعثمان ابنا الوليد وقد بلغا ، ويقال وولدا لهما ولد فشدخا بالعند ، وقتل يوسف بن عمر - وكان مسجوننا معهما - وكان في سجنهما أيضا أبو محمد السفيناني فهرب فدخل في بيت داخل السجن وجعل وراء الباب ردما ، فحاصروه فامتنع ، فأتوا بنار ليحرقوا الباب . ثم اشتغلوا عن ذلك بقدم مروان بن محمد وأصحابه إلى دمشق في طلب المنهزمين .

دخول مروان الحمار دمشق وولايته الخلافة

لما أقبل مروان بن ميم من الجنود من عين الجر واقترب من دمشق وقد انهزم أهلها بين يديه بالأمس ، هرب إبراهيم بن الوليد وعمد سليمان بن هشام إلى بيت المال ففتح وأنفق ما فيه على أصحابه ومن اتبعه من الجيوش ، وفار موالى الوليد بن يزيد إلى دار عبد العزيز بن الحجاج فقتلوه فيها وانتهبوها ونشوا قبر يزيد بن الوليد وصلبوه على باب الجابية ، ودخل مروان بن محمد دمشق فقتل في أعاليها وأتى بالغلامين الحكم وعثمان وهما مقتولان وكذلك يوسف بن عمر فدفنوه . وأتى بأبي محمد السفيناني وهو في حبسه فسلم على مروان بالخلافة فقال مروان : مه ، فقال : إن هذين الغلامين جملاها لك من بعدهما ثم أنشد قصيدة قالها الحكم في السجن وهي طويلة منها قوله :

ألا من مبلغ مروان عني * وعني الغمر طال بذنا حنيننا
باني قد ظلمت وصار قومي * على قتل الوليد متابعينا
فان أهلك أنا وولي عهدي * فروان أمير المؤمنيننا

ثم قال أبو محمد السفيناني لمروان : ابسط يدك ، فكان أول من بايعه بالخلافة ، فعاوية بن يزيد بن حصين بن نعيم ثم بايعه رؤس أهل الشام من أهل دمشق وحمص وغيرهم ، ثم قال لهم مروان : اختاروا أمراء نوابهم عليكم ، فاختار أهل كل بلد أميراً فولاه عليهم ، فعلى دمشق زامل بن عمرو والجبراني ، وعلى حمص عبد الله بن شجرة الكندي ، وعلى الأردن الوليد بن معارية بن مروان ، وعلى فلسطين ثابت بن نعيم الجندامي . ولما استوت الشام لمروان بن محمد رجع إلى حران وعند ذلك طلب منه إبراهيم بن الوليد الذي كان خليفة وابن عمه سليمان بن هشام الأمان فأمنهما ، وقدم عليه سليمان بن هشام في أهل تدمر فبايعوه ، ثم لما استقر مروان في حران أقام فيها ثلاثة أشهر فانتقض عليه ما كان انبرم له من مبايعة أهل الشام ، فنقض أهل حمص وغيرهم ، فأرسل إلى أهل حمص جيشاً فوافوهم ليلة عيد الفطر من هذه السنة ، وقدم مروان إليها بعد الفطر بيومين ، فنازلها مروان في جنود كثيرة ، ومعه يومئذ إبراهيم بن الوليد الخلويع ، وسليمان بن هشام ، وهما عنده مكرمان خصيصان لا يجلس إلا بهما وقت الغداء والعشاء ، فلما حاصر حمص نادوه إنا على طاعتك ، فقال : افتحوا باب البلد ففتحوه . ثم كان منهم بعض القتال فقتل منهم نحو الخمسمائة أو الستمائة ، فأمر بهم فصلبوا حول البلد ، وأمر بهدم بعض سورها . وأما أهل دمشق فأما أهل الغوطة فحاصروا أميرهم زامل بن عمرو وأمروا عليهم يزيد ابن خالد القسري وثبت في المدينة نائبا ، فبعث إليه أمير المؤمنين مروان من حمص عسكراً نحو عشرة آلاف ، فلما اقتربوا من دمشق خرج النائب فيمن معه والتقوا والعسكر بأهل الغوطة فهزموهم وحرقوا المزة وقرى أخرى معها ، واستجار يزيد بن خالد القسري وأبو علاقة الكلبي برجل من أهل المزة من نخم ، فدل عليهم زامل بن عمرو وقتلهم وأبعث برأسيهما إلى أمير المؤمنين مروان وهو بحمص . وخرج ثابت بن نعيم في أهل فلسطين على الخليفة وأتوا طبرية فحاصروها ، فبعث الخليفة إليهم جيشاً فأجلوهم عنها واستباحوا عسكرهم ، وفر ثابت بن نعيم هارباً إلى فلسطين فاتبعه الأمير أبو الورد فهزمه ثانية وتفرق عنه أصحابه ، وأسر أبو الورد ثلاثة من أولاده فبعث بهم إلى الخليفة وهم جرحى فأمر بمدawatهم ، ثم كتب أمير المؤمنين إلى نائب فلسطين وهو الرماحس بن عبد العزيز الكنانى يأمره بطلب ثابت بن نعيم حيث كان ، فإزال يتلطف به حتى أخذه سيراً ، وذلك بعد شهرين ، فبعثه إلى الخليفة وأمر بقطع يديه ورجليه ، وكذلك جماعة كانوا معه ، وبعث بهم إلى دمشق فأقيموا على باب مسجدها ، لأن أهل دمشق كانوا قد أرجفوا بأن ثابت بن نعيم ذهب

إلى ديار مصر فتغلب عليها وقتل نائب مروان فيها ، فأرسل إليهم مقطع اليدين والرجلين ليعرفوا بطلان ما كانوا به أرجفوا . وأقام الخليفة مروان بدير أيوب عليه السلام مدة حتى بايع لابنه عبد الله ثم عبيد الله وزوجهما ابنتي هشام ، وهما أم هشام وعائشة ، وكان مجرماً حافلاً وعقداً هائلاً ، ومبايعة عامة ، ولكن لم تكن في نفس الأمر قامة . وقدم الخليفة إلى دمشق وأمر بثابت وأصحابه بعد ما كانوا تقطعوا أن يصلبوا على أبواب البلد ، ولم يستبق منهم أحداً إلا واحداً وهو عمرو بن الحارث الكلبي ، وكان عنده فيما زعم علم بودايع كان نائب بن نعيم أودعها عند أقوام . واستوسق أمر الشام لمروان ماعدا تدمر ، فسار من دمشق فنزل القسطل من أرض حمص ، وبلغه أن أهل تدمر قد غوروا ما بينه وبينهم من المياه ، فاشتد غضبه عليهم ومعه جحافل من الجيوش ، فتكلم الأبرش بن الوليد وكانوا قومه فسأل منه أن يرسل إليهم أولاً ليعذر إليهم ، فبعث عمرو بن الوليد أخا الأبرش ، فلما قدم عليهم لم يلتفتوا إليه ولا سمعوا له قولاً فرجع ، فهم الخليفة أن يبعث الجنود فسأله الأبرش أن يذهب إليهم بنفسه فأرسله ، فلما قدم عليهم الأبرش كلمهم واستألمهم إلى السمع والطاعة ، فأجابوه أكثرهم وامتنع بعضهم ، فكتب إلى الخليفة يعلمه بما وقع ، فأمره الخليفة أن يهدم بعض سورها ، وأن يقبل بمن أطاعه منهم إليه ، ففعل . فلما حضروا عنده سار بمن معه من الجنود نحو الرصافة على طريق البرية ، ومعه من الرؤس إبراهيم بن الوليد الخلويع ، وسليمان بن هشام ، وجماعة من ولد الوليد ويزيد وسليمان ، فأقام بالرصافة أياماً ثم شخص إلى البرية ، فاستأذنه سليمان بن هشام أن يقيم هناك أياماً ليستريح ويجم ظهره فأذن له ، فأنحدر مروان فنزل عند واسط على شط الفرات فأقام ثلاثاً ثم مضى إلى قرقيسيا ، وابن هبيرة بها ليعينه إلى العراق لمحاربة الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي الحروري ، واشتغل مروان بهذا الأمر ، وأقبل عشرة آلاف فارس ممن كان مروان قد بعثهم في بعض السرايا ، فاجتازوا بالرصافة وفيها سليمان بن هشام بن عبد الملك الذي كان استأذن الخليفة في المقام هناك للراحة ، فدعوه إلى البيعة له وخلع مروان بن محمد ومحاربه ، فاستزله الشيطان فأجابهم إلى ذلك ، وخلع مروان وسار بالجيوش إلى قنسرين ، وكاتب أهل الشام فانفضوا إليه من كل وجه ، وكتب سليمان إلى ابن هبيرة الذي جهزه مروان لقتال الضحاك بن قيس الخارجي يأمره بالمسير إليه ، فالتف إليه نحو من سبعين ألفاً ، وبعث مروان إليهم عيسى بن مسلم في نحو من سبعين ألفاً فالتقوا بأرض قنسرين فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وجاء مروان والناس في الحرب فقاتلهم أشد القتال فهزهم وقتل يومئذ إبراهيم بن سليمان بن هشام ، وكان أكبر ولده ، وقتل منهم نيفا وثلاثين ألفاً ، وذهب سليمان مغلوباً فأتى حمص فالتف عليه من انهزم من الجيش فمسك بهم فيها ، وبني ما كان مروان هدم من سورها . فجاءهم مروان فحاصرهم بها ونصب عليهم نيفا وثمانين

منجنيقا ، فكث كذلك ثمانية أشهر يرميهم ليلاً ونهاراً ، ويخرجون إليه كل يوم ويقاتلون ثم يرجعون . هذا وقد ذهب سليمان وطائفة من الجيش معه إلى تدمر وقد اعترضوا جيش مروان في الطريق وهما بالفتك به وأن يذهبوه فلم يمكنهم ذلك ، ونهياً لهم مروان فقاتلهم فقتلوا من جيشه قريباً من ستة آلاف وهم تسعمائة ، وانصرفوا إلى تدمر ، ولزم مروان محاصرة حمص كال عشرة أشهر ، [فلما تتابع عليهم البلاء ، ولزمهم النذل ، سألوهم أن يؤمنهم فأبى إلا أن ينزلوا على حكمه ، ثم سألوهم الأمان على أن يمكنوه من سعيد بن هشام] ^(١) وابنيه مروان وعثمان ومن السكسكى الذى كان حبس معه ، ومن حبشى كان يفترى عليه ويشتبه فأجابهم إلى ذلك فأمنهم وقتل أولئك ، ثم سار إلى الضحاك ، وكان عبد الله بن عمر بن عبد العزيز نائب العراق قد صالح الضحاك الخارجى على ما بيده من الكوفة وأعمالها ، وجاءت خيول مروان قاصدة إلى الكوفة ، فتلقاهم نائبها من جهة الضحاك - ملحان الشيباني - فقاتلهم فقتل ملحان ، واستناب الضحاك عليها المثنى بن عمران من بنى عائدة ، وسار الضحاك في ذى القعدة إلى الموصل ، وهما ابن هبيرة إلى الكوفة فانزعها من أيدي الخوارج ، وأرسل الضحاك جيشاً إلى الكوفة فلم يجد شيئاً .

وفي هذه السنة خرج الضحاك بن قيس الشيباني ، وكان سبب خروجه أن رجلاً يقال له سعيد بن بهدل - وكان خارجياً - اغتتم غفلة الناس واشتغلهم بمقتل الوليد بن يزيد ، فثار في جماعة من الخوارج بالعراق ، فالتف عليه أربعة آلاف - ولم تجتمع قبلها لخارجي - فقصدتهم الجيوش فاقبلوا معهم ، فثارة يكسرون وثارة يكسرون ، ثم مات سعيد بن بهدل في طاعون أصابه ، واستخلف على الخوارج من بعده الضحاك بن قيس هذا ، فالتف أصحابه عليه ، والتقى هو وجيش كثير فغلبت الخوارج وقتلوا خلقاً كثيراً ، منهم عاصم بن عمر بن عبد العزيز - أخو أمير العراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز - فرأه بأشعار . ثم قصد الضحاك بطائفة من أصحابه مروان فاجتاز بالكوفة ، فنهض إليه أهلها فكسروهم ودخل الكوفة فاستحوذ عليها ، واستناب بها رجلاً اسمه حسان ، ثم استناب ملحان الشيباني في شعبان من هذه السنة ، وسار هو في طلب عبد الله بن عمر بن عبد العزيز نائب العراق ، فالتقوا فحرت بينهم حروب كثيرة يطول ذكرها وتفصيلها .

وفي هذه السنة اجتمعت جماعة من الدعاة إلى بنى العباس عند إبراهيم بن محمد الإمام ومعهم أبو مسلم الخراساني ، فدفعوا إليه فقتلوا كثيرة ، وأعطوه خمس أموالهم ، ولم ينتظم لهم أمر في هذه السنة لكثرة الشرور المنتشرة ، والفتن الواقعة بين الناس . وفي هذه السنة خرج بالكوفة معاوية ابن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، فدعا إلى نفسه وخرج إلى محاربة أمير العراق عبد الله بن عمر

ابن عبد العزيز، فجرت بينهما حروب يطول ذكرها، ثم أجلاه عنها فلحق بالجلال فتغلب عليها. وفي هذه السنة خرج الحارث بن سريج الذي كان لحق ببلاد الترك وملاًهم على المسلمين فمن الله عليه بالهداية ووقفه حتى خرج إلى بلاد الشام، وكان ذلك عن دعاء يزيد بن الوليد إلى الرجوع إلى الاسلام وأهله فأجابته إلى ذلك، وخرج إلى خراسان فأكرمه نصر بن سيار نائب سورة^(١)، واستمر الحارث ابن سريج على الدعوة إلى الكتاب والسنة وطاعة الامام، وعنده بعض المناوأة لنصر بن سيار.

قال الواقدي وابو معشر: وحج بالناس في هذه السنة عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز أمير الحجاز ومكة والمدينة والطائف، وأمير العراق نصر بن سعيد الحرشي، وقعد خرج عليه الضعك الحورري، وعبد الله بن عمر بن عبد العزيز. وأمير خراسان نصر بن سيار، وقد خرج عليه الكرماني والحارث بن سريج. ومن توفي في هذه السنة:

بكر بن الأشج وسعد بن إبراهيم وعبد الله بن دينار وعبد الملك بن مالك الجزري وعمير بن هاني ومالك بن دينار وهب بن كيسان وأبو إسحاق السبيعي.

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين ومائة

فيها كان مثل الحارث بن سريج، وكان سبب ذلك أن يزيد بن الوليد الناقص كان قد كتب إليه كتاب أمان، حتى خرج من بلاد الترك وصار إلى المسلمين ورجع عن موالاته المشركين إلى نصره الاسلام وأهله. وأنه وقع بينه وبين نصر بن سيار نائب خراسان وحشة ومنافسات كثيرة يطول ذكرها، فلما صارت الخلافة إلى مروان بن محمد استوحش الحارث بن سريج من ذلك. وتولى ابن هبيرة نيابة العراق، وجاءت البيعة لمروان، فامتنع الحارث من قبولها وتكلم في مروان، وجاءه مسلحة بن أحوز أمير الشرطة، وجماعة من رؤس الأجناد والأمرأ، وطلبوا منه أن يكف لسانه ويده، وأن لا يفرق جماعة المسلمين، فأبى وبرز فاحية عن الناس، ودعا نصر بن سيار إلى ما هو عليه من الدعوة إلى الكتاب والسنة فلمتنع نصر من موافقته، واستمر هو على خروجه على الاسلام. وأمر الجهم بن صفوان مولى بني راسب ويكنى بأبي محرز - وهو الذي نسبت إليه الفرقة الجهمية - أن يقرأ كتاباً فيه سيرة الحارث على الناس، وكان الحارث يقول أنا صاحب الرايات السود. فبعث إليه نصر يقول: لئن كنت ذاك فلمعري إنكم الذين تخرجون سور دمشق وتزيلون بني أمية، نخذمني خمائة رأس ومائة بعير، وإن كنت غيره فقد أهلكك عشرينك. فبعث إليه الحارث يقول: لمعري إن هذا لا يكفل. فقال له نصر: فابدأ بالكرماني أولاً، ثم سر إلى الري، وأنا في طاعتك إذا وصلتها. ثم تناظر نصر والحارث ورضيا أن يحكم بينهما مقاتل بن حيان والجهم بن صفوان فحكما

(١) كذا. وادل فيه فخر يفا صوابه (نائب خراسان).

أن يعزل نصر ويكون الأمر شوري . فامتنع نصر من قبول ذلك ، ولزم الجهم بن صفوان ^(١) وغير قراءة سيرة الحارث على الناس في الجامع والطرق ، فاستجاب له خلق كثير ، وجم غفير فعند ذلك انتدب لقتاله جماعات من الجيوش عن أمر نصر بن سيار ، قصدوه فخارب دونه أصحابه ، فقتل منهم طائفة كثيرة منهم الجهم بن صفوان ، طعنه رجل في فيه فقتله ، ويقال بل أسر الجهم فأوقف بين يدي سلم بن أحوز فأمر بقتله ، فقال : إن لي أمانا من أهلك ، فقال : ما كان له أن يؤمنك ، ولو فعل ما أمنتك ، ولو ملأت هذه الملاة كواكب ، وأنزلت عيسى بن مريم ، ما نجوت ، والله ولو كنت في بطني لشققت بطني حتى أقتلك . وأمر ابن ميسر فقتله . ثم اتفق الحارث بن سريج والكرماني على نصر ومخالفته ، والدعوة إلى الكتاب والسنة واتباع أئمة الهدى وتحريم المنكرات إلى غير ذلك مما جاءت به الشريعة ، ثم اختلفا فيما بينهما واقتلانا شديدا ، فغلب الكرماني وانهمزم أصحاب الحارث . وكان راكبا على بغل فتحول إلى فرس فحزنت أن تمشي ، وهرب عنه أصحابه ولم يبق معه منهم سوى مائة ، فأدركه أصحاب الكرماني فقتلوه تحت شجرة زيتون ، وقيل تحت شجرة عبيرا . وذلك يوم الأحد لست بقين من رجب من هذه السنة ، وقتل معه مائة من أصحابه ، واحتاط الكرماني على حواصله وأمواله ، وأخذ أموال من خرج معه أيضاً ، وأمر بصلب الحارث بلا رأس على باب مرو ، ولما بلغ نصر بن سيار مقتل الحارث في ذلك :

يا مدخل الذل على قومه * بعداً وسحقاً لك من هالك
شؤمك أردى مضراً كلها * وغض من قومك بالحارك
ما كانت الازد وأشباعها * قطع في عمرو ولا مالك
ولا بني سعد إذ ألجوا * كل طير لونه حالك

وقد أجاهه عباد ^(٢) بن الحارث بن سريج فيما قال :

ألا يا نصر قد برح الخفاء * وقد طال التقي والرجاء
وأصبحت المزون بأرض مرو * تقضى في الحكومة ما تشاء
يجوز قضاؤها في كل حكم * على مضر وإن جار القضاء
وحجير في مجالسها قعود * تفرق في رقابهم الدماء
فإن مضرباً رضى وذلت * فطال لها المنلة والشقاء
وإن هي أعنت فيها وإلا * فخل على عساكرها العفاء

وفي هذه السنة بعث إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أباسم الخراساني إلى خراسان

(١) زيادة من المصرية (٢) في المصرية عتاب وفي نسخه القسطنطينية غياث وصحناه من

تاريخ ابن جرير الطبري ٩ : ٧٤

وكتب معه . كتبنا إلى شيعتهم بها : إن هذا أبا مسلم فاسمعوا له وأطيعوا ، وقد وليته على ماغلب عليه من أرض خراسان . فلما قدم أبو مسلم خراسان وقرأ على أصحابه هذا الكتاب ، لم يلتفتوا إليه ولم يعملوا به وأعرضوا عنه ونبذوه وراء ظهورهم ، فرجع إلى إبراهيم بن محمد أيام الموسم ، فاشتكاكم إليه وأخبره بما قابله من المخالفة ، فقال له : يا عبد الرحمن ! إنك رجل منا أهل البيت ، إرجع إليهم وعليك بهذا الحى من الدين فأكرمهم وانزل بين أظهرهم فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم . ثم حذره من بقية الأحياء وقال له : إن استطعت أن لاتدع بتلك البلاد لسانا عربيا فافعل ، ومن بلغ من أبنائهم خمسة أشبار واتهمته فاقتله ، وعليك بذلك الشيخ فلا تقصه - يعنى سليمان بن كثير - وسبأنى ما كان من أمر أبى مسلم الخراسانى فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وفى هذه السنة قتل الضحاك بن قيس الخارجي في قول أبى مخنف ، وكان سبب ذلك أن الضحاك حاصر عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بواسط وواقفه على محاصرته منصور بن جمهور ، فكتب عبد الله بن عمر بن عبد العزيز إليه : إنه لافائدة لك في محاصرتى ولكن عليك بمرwan بن محمد فسر إليه ، فان قتلته اتبعتك . فاصطالحا على مخالفة مروان بن محمد أمير المؤمنين ، فلما اجتاز الضحاك بالموصل كاتبه أهلها قال إليهم فدخلها ، وقتل نائبها واستحوذ عليها ، وبلغ ذلك مروان وهو محاصر حص ، ومشغول بأهلها وعدم مبايعتهم إياه ، فكتب إلى ابنه عبد الله بن مروان - وكان الضحاك قد النف عليه مائة ألف وعشرون ألفا لحاصروا نصيبين - وساق مروان في طلبه فالتقى هنالك ، فاقتتلا قتالا شديداً فقتل الضحاك في المعركة وحجز الليل بين الفريقين ، وقد أصحاب الضحاك الضحاك وشكوا في أمره حتى أخبرهم من رآه قد قتل ، فبكوا عليه وناحوا ، وجاء الخبر إلى مروان فبعث إلى المعركة بالمشاعل ومن يعرف مكانه بين القتلى ، وجاء الخبر إلى مروان وهو مقتول ، وفى رأسه ووجهه نحو من عشرين ضربة ، فأمروا برأسه فطيف به في مدائن الجزيرة . واستخلف الضحاك على جيشه من بعده رجلا يقال له الخبيري ، فالتف عليه بقية جيش الضحاك ، والتف مع الخبيري سليمان ابن هشام بن عبد الملك وأهل بيته ومواليه ، والجيش الذين كانوا قد بايعوه في السنة الماضية على الخلافة ، وخلصوا مروان بن محمد عن الخلافة لأجله ، فلما أصبحوا اقتتلوا مع مروان ، فحمل الخبيري في أربعمائة من شجعان أصحابه على مروان ، وهو في القلب ، فكر منهزما واتبعوه حتى أخرجه من الجيش ، ودخلوا عسكره وجلس الخبيري على فرشه ، هذا وميمنة مروان ثابتة وعليها ابنه عبد الله ، وميسرته أيضا ثابتة وعليها إسحاق بن مسلم العقيلي . ولما رأى عبد الله العسكر فارين مع الخبيري ، وأن الميمنة والميسرة من جهتهم باقيتان طمعوا فيه فأقبلوا إليه بعمد الخيام فقتلوه بها ، وبلغ قتله مروان وقد سار عن الجيش نحواً من خمسة أميال أو ستة ، فرجع مسرورا وانهمز أصحاب الضحاك ،

وقد ولوا عليهم شيبان ، فقصدهم مروان بعد ذلك ، فكان يقال له الكراديس فهزمهم .
وفيها بعث مروان الحمار على إمارة العراق يزيد بن عمر بن هبيرة ليقا تل من بها من الخوارج .
وفي هذه السنة حج بالناس عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز وهو نائب المدينة ومكة والطائف ،
وأمر العراق يزيد بن عمر بن هبيرة ، وأمر خراسان نصر بن سيار .
ومن توفي في هذه السنة بكر بن سودة وجابر الجعفي والجهم بن صفوان ، مقتولا كما تقدم ، والحارث
ابن سريج أحد كبراء الأمراء ، وقد تقدم شئ من ترجمته ، وعاصم بن عبدلة ، وأبو حصين عثمان بن
عاصم ، ويزيد بن أبي حبيب ، وأبو التياح يزيد بن حميد ، وأبو حمزة النعيمي ، وأبو الزبير المكي
وأبو عمران الجوني وأبو قبيل المغافري . وقد ذكرنا تراجمهم في التكميل .
ثم دخلت سنة تسع وعشرين ومائة

فيها اجتمعت الخوارج بعد الخبيري على شيبان بن عبد العزيز بن الحليس اليشكري الخارجي
فأشار عليهم سليمان بن هشام أن يتحصنوا بالموصل ويجعلوها منزلا لهم ، فتحولوا إليها وتبعهم مروان
ابن محمد أمير المؤمنين ، فمسكروا بظاهرها وخندقوا عليهم مما يلي جيش مروان . وقد خندق مروان
على جيشه أيضا من ناحيتهم ، وأقام سنة يحاصروهم ويقتلون في كل يوم بكرة وعشية ، وظفر مروان
بابن أخ لسليمان بن هشام ، وهو أمية بن معاوية بن هشام ، أسره بعض جيشه ، فأمر به فقطعت
يداه ثم ضرب عنقه ، وعمره سليمان والجيش ينظرون إليه . وكتب مروان إلى نائبه بالعراق يزيد بن
عمر بن هبيرة يأمره بقتال الخوارج الذين في بلاده . فخرجت له معهم وقعات عديدة ، فظفر بهم
ابن هبيرة . وأباد خضراءهم ولم يبق لهم بقية بالعراق ، واستنقذ الكوفة من أيدي الخوارج ، وكان
عليها المنفى بن عمران العائذي - عائذة قریش - في رمضان من هذه السنة ، وكتب مروان إلى ابن
هبيرة لما فرغ من الخوارج أن يمد بهمار بن صبارة - وكان من الشجمان - فبعثه إليه في سبعة آلاف
أو ثمانية آلاف ، فأرسلت إليه سرية في أربعة آلاف فاعترضوه في الطريق فهزمهم ابن صبارة
وقتل أميرهم الجون بن كلاب الشيباني الخارجي ، وأقبل نحو الموصل ، ورجع فل الخوارج إليهم .
فأشار سليمان بن هشام عليهم أن يرتحلوا عن الموصل ، فانه لم يكن يمكنهم الإقامة بها ، ومروان من
أمامهم وابن صبارة من ورائهم ، قد قطع عنهم الميرة حتى لم يجدوا شيئا يأكلونه ، فارتحلوا عنها
وساروا على حلوان إلى الأهواز ، فأرسل مروان ابن صبارة في آثارهم في ثلاثة آلاف ، فاتبعهم يقتل
من تخلف منهم ويلحقهم في مواطن فيقاتلهم ، وما زال وراءهم حتى فرق شملهم شتم مذر ، وهلك
أميرهم شيبان بن عبد العزيز اليشكري بالأهواز في السنة القابلة ، قتله خالد بن مسعود بن جعفر بن
خليد الأزدي . وركب سليمان بن هشام في مواليه وأهل بيته السفن وساروا إلى السند ، ورجع

مروان من الموصل فأقام بمنزله بجران وقد وجد سروراً بزوال الخوارج ، ولكن لم يتم سروره ، بل أعقبه القدر من هو أقوى شوكة وأعظم أتباعاً ، وأشد بأساً من الخوارج ، وهو ظهور أبي مسلم الخراساني الداعية إلى دولة بني العباس .

أول ظهور أبي مسلم الخراساني

وفي هذه السنة ورد كتاب من إبراهيم بن محمد الامام العباسي بطلب أبي مسلم الخراساني من خراسان ، فسار إليه في سبعين من النقباء ، لا يمرون ببلد إلا سألوه إلى أين تذهبون ؟ فيقول أبو مسلم : نريد الحج . وإذا توسم أبو مسلم من بعضهم ميلاً إليهم دعاهم إلى ما هم فيه فيجيبه إلى ذلك ، فلما كان ببعض الطريق جاء كتاب فان من إبراهيم الامام إلى أبي مسلم : إني بعثت إليك راية النصر فارجع إلى خراسان وأظهر الدعوة ، وأمر قحطبة بن شبيب أن يسير بما معه من الأموال والتحف إلى إبراهيم الامام فيوافيه في الموسم ، فرجع أبو مسلم بالكتاب فدخل خراسان في أول يوم من رمضان فرفع الكتاب إلى سليمان بن كثير وفيه : أن أظهر دعوتك ولا تتر بص . فقدموا عليهم أبا مسلم الخراساني داعياً إلى بني العباس ، فبعث أبو مسلم دعاته في بلاد خراسان ، وأمير خراسان - نصر بن سيار - مشغول بقتال الكرماني ، وشيبان بن سلمة الحروري ، وقد بلغ من أمره أنه كان يسلم عليه أصحابه بالخلافة في طوائف كثيرة من الخوارج ، فظهر أمر أبي مسلم وقصده الناس من كل جانب ، فكان ممن قصده في يوم واحد أهل ستين قرية ، فأقام هناك اثنين وأربعين يوماً ، ففتحت على يديه أقاليم كثيرة . ولما كان ليلة الخميس لحس بقين من رمضان في هذه السنة ، عقد أبو مسلم اللواء الذي بعثه إليه الامام ، ويدعى الظل ، على رمح طوله أربعة عشر ذراعاً ، وعقد الراية التي بعث بها الامام أيضاً ، وتدعى السحاب ، على رمح طوله ثلاثة عشر ذراعاً ، وهما سوداوان ، وهو يتلو قوله تعالى [أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير] ولبس أبو مسلم وسليمان بن كثير ومن أجابهم إلى هذه الدعوة ، السواد ، وصارت شعارهم ، وأوقدوا في هذه الليلة نارا عظيمة يدعون بها أهل تلك النواحي ، وكانت علامة بينهم فتجمعوا . ومعنى تسمية إحدى الرايتين بالسحاب أن السحاب كما يطبق جميع الأرض كذلك بنو العباس تطبق دعوتهم أهل الأرض ، ومعنى تسمية الأخرى بالظل أن الأرض كما أنها لا تخلو من الظل فكذلك بنو العباس لا تخلو الأرض من قائم منهم . وأقبل الناس إلى أبي مسلم من كل جانب ، وكثر جيشه .

ولما كان يوم عيد الفطر أمر أبو مسلم سليمان بن كثير أن يصلي بالناس ، ونصب له منبراً ، وأن يخالف في ذلك بني أمية ، ويعمل بالسنة ، فنودي للصلاة جامعة ، ولم يؤذن ولم يقيم خلافاً

لهم ، وبدأ بالصلاة قبل الخطبة ، وكبر ستاً في الأولى قبل القراءة ، لا أربعاً . وخساً في الثانية لا ثلاثاً ، خلافاً لهم . وابتدأ الخطبة بالذكر والتكبير وختمها بالقراءة ، وانصرف الناس من صلاة العبد وقد أعد لهم أبو مسلم طعاماً فوضعه بين أيدي الناس ، وكتب إلى نصر بن سيار كتاباً بدأ فيه بنفسه ثم قال إلى نصر بن سيار . بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد فإن الله غير أقواماً في كتابه فقال [وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم] إلى قوله [تحملاً] فمظلم على نصر أن قدم اسمه على اسمه ، وأطال الفكر ، وقال : هذا كتاب له جواب .

قال ابن جرير : ثم بعث نصر بن سيار خيلاً عظيمة لمحاربة أبي مسلم ، وذلك بعد ظهوره بثمانية عشر شهراً ، فأرسل أبو مسلم إليهم مالك بن الهيثم الخزاعي ، فالتقوا ، فدعاهم مالك إلى الرضا عن آل رسول الله ص ، فأبوا ذلك ، فتصافوا من أول النهار إلى العصر ، فجاء إلى مالك مدد فقوى فظفر بهم مالك ، وكان هذا أول موقف اقتتل فيه جند بني العباس وجند بني أمية .

وفي هذه السنة غلب خازم بن خزيمه على مرو الروذ وقتل عاملها من جهة نصر بن سيار ، وهو بشر بن جعفر السعدي ، وكتب بالفتح إلى أبي مسلم ، وكان أبو مسلم إذ ذاك شاباً حدثاً قد اختاره إبراهيم لدعوتهم . وذلك لشهامته وصرامته ، وقوة فهمه وجودة ذهنه ، وأصله من سواد الكوفة ، وكان مولى لادريس بن معقل المعجلي ، فاشتراه بعض دعاة بني العباس بأربعمائة درهم ، ثم أخذه محمد بن علي ثم آل ولاؤه لآل العباس ، وزوجه إبراهيم الامام بابتة أبي النجم إسماعيل بن عمران ، وأصدقها عنه وكتب إلى دعاةهم بخراسان والعراق أن يسمعوا منه ، فامتثلوا أمره ، وقد كانوا في السنة الماضية قبل هذه السنة ردوا عليه أمره لصغره فيهم ، فلما كانت هذه السنة أكد الامام كتابه إليهم في الوصاية وطاعته ، وكان في ذلك الخير له ولهم [وكان أمر الله قدراً مقدوراً] ولما فشا أمر أبي مسلم بخراسان تعاقدت طوائف من العرب الذين بها على حربه ومقاتلته ، ولم يكره الكرمانى وشيبان لأنهما خرجا على نصر وأبو مسلم مخالف لنصر كعالمهما ، وهو مع ذلك يدعو إلى خلع مروان الحمار ، وقد طلب نصر من شيبان أن يكون معه على حرب أبي مسلم ، أو يكف عنه حتى ينفرغ لحره ، فإذا قتل أبا مسلم عادا إلى عداوتهما ، فأجاباه إلى ذلك ، فبلغ ذلك أبا مسلم فبعث إلى الكرمانى يعلمه بذلك فلام الكرمانى شيبان على ذلك ، وثنائه عن ذلك ، وبعث أبو مسلم إلى هراة النضر بن نعيم فأخذهما من عاملها عيسى بن عقيل اللثبي ، وكتب إلى أبي مسلم بذلك ، وجاء عاملها إلى نصر هارباً ، ثم إن شيبان وادع لنصر بن سيار سنة على ترك الحرب بينه وبينه ، وذلك عن كره من الكرمانى ، فبعث ابن الكرمانى إلى أبي مسلم إني معك على قتال نصر ، وركب أبو مسلم في خدمة الكرمانى فاتفقا على حرب نصر ومخالفته ، وتحول أبو مسلم إلى موضع فسيح وكثر جنده وعظم جيشه ، واستعمل على الحرس والشرط

والرسائل والديوان وغير ذلك مما يحتاج إليه الملك عمالا ، وجعل القاسم بن مجاشع التميمي - وكان أحد النقباء - على القضاء وكان يصلي بأبي مسلم الصلوات ، ويقص بعض القصص فيذكر محاسن بني هاشم ويذم بني أمية . ثم تحول أبو مسلم إلى قرية يقال لها بالين ، وكان في مكان منخفض ، فخشي أن يقطع عنه نصر بن سيار الماء ، وذلك في سادس ذي الحجة من هذه السنة ، وصلى بهم يوم النحر القاضي القاسم بن مجاشع ، وصار نصر بن سيار في جحافل كالحجاب قاصدا قتال أبي مسلم ، واستخلف على البلاد نوابا وكان من أمرهما ما سئد كره في السنة الآتية .

مقتل ابن الكرماني

ونشبت الحرب بين نصر بن سيار وبين ابن الكرماني - وهو جديع بن علي الكرماني - فقتل بينهما من الفريقين خلق كثير ، وجعل أبو مسلم يكتب كلاما من الطائفتين ويستميلهم إليه ، يكتب إلى نصر وإلى ابن الكرماني : إن الامام قد أوصاني بكم خيرا ولست أعدو رأيهم فيكم ، وكتب إلى الكور يدعو إلى بني العباس فاستجاب له خلق كثير وجم غفير ، وأقبل أبو مسلم فقتل بين خندق نصر وخندق ابن الكرماني ، فهابه الفريقان جميعا ، وكتب نصر بن سيار إلى مروان يعلمه بأمر أبي مسلم ، وكثرة من معه ، وأنه يدعو إلى إبراهيم بن محمد ، وكتب في جملة كتابه :

أرى بين الرمادِ وميضَ جمرٍ * وأحرى أن يكونَ له ضرامُ
فإن النارَ بالعيدينِ تذكي * وإنَّ الحربَ مبدؤها الكلامُ
فقلتُ من التعجبِ ليتَ شعري * أيقاظُ أميةُ أمْ نيامُ
فكتب إليه مروان : الشاهد يرى ما لا يراه الغائب ، فقال نصر : إن صاحبكم قد أخبركم أن لا نصر عنده . وبعضهم يرونها بلفظ آخر : -

أرى خللَ الرمادِ وميضَ نارٍ * فيوشكُ أن يكونَ لها ضرامُ
فإنَّ النارَ بالعيدينِ تذكي * وإنَّ الحربَ أولها كلامُ
فإن لم يطفها عقلاءُ قومٍ * يكونُ وقودها جنثٌ وهامُ
أقولُ من التعجبِ ليتَ شعري * أيقاظُ أميةُ أمْ نيامُ
فإن كانوا لحينهمُ نياماً * فقل قوموا فقد حانَ القيامُ

قال ابن خلدكان : وهذا كما قال بعض علوية الكوفة حين خرج محمد وإبراهيم ابنا عبد الله بن الحسين على المنصور أخي السفاح :

أرى ناراً تشبُّ على بقاعٍ * لها في كلِّ ناحيةٍ شعاعُ
وقد رقت بنو العباسِ عنها * وباتتْ وهي آمنةٌ رناعُ
كما رقتْ أميةٌ ثم هبت * تدافعُ حين لا يفي الدفاعُ

وكتب نصر بن سيار أيضا إلى نائب العراق يزيد بن عمر بن هبيرة يستمده وكتب إليه :
أبلغ يزيد وخير القول أصدق * وقد تحققت أن لا خير في الكذب
بأن أرض خراسان رأيت بها * بيضا إذا أفرخت حدثت بالمعجب
فراخ عالمين إلا أنها كبرت * ولم يظن وقد سر بلن بالزغب
فإن يظن ولم يحتل لمن بها * يلهن نيران حرب أيما لهب

فبعث ابن هبيرة بكتاب نصر إلى مروان ، واتفق في وصول الكتاب إليه أن وجدوا رسولا
من جهة إبراهيم الامام ومعه كتاب منه إلى أبي مسلم ، وهو يشتمه فيه ويسبه ، ويأمره أن يناهض
نصر بن سيار وابن الكرماني ، ولا يترك هناك من يحسن العربية . فعند ذلك بعث مروان وهو مقيم
بحران كتابا إلى نائبه بدمشق وهو الوليد بن معاوية بن عبد الملك ، يأمره فيه أن يذهب إلى الحيمة ،
وهي البلدة التي فيها إبراهيم بن محمد الامام ، فيقيمه ويرسله إليه . فبعث نائب دمشق إلى نائب
البلقاء فذهب إلى مسجد البلدة المذكورة فوجد إبراهيم الامام جالسا فقيده وأرسل به إلى دمشق ،
فبعثه نائب دمشق من فوره إلى مروان ، فأمر به فسجن ثم قتل كما سيأتي .

وأما أبو مسلم فإنه لما توسط بين جيش نصر وابن الكرماني ، كاتب ابن الكرماني : إني ملك فل
إليه ، فكتب إليه نصر ويحك لا تغتر فانه إنما يريد قتلك وقتل أصحابك ، فسلم حتى نكتب كتابا
بيننا بالموادعة ، فدخل ابن الكرماني داره ثم خرج إلى الرحبة في مائة فارس ، وبعث إلى نصر هلم
حتى تتكاتب ، فأبصر نصر غرة من ابن الكرماني فنهض إليه في خلق كثير ، فحملوا عليه فقتلوه
وقتلوا من جماعته جماعة ، وقتل ابن الكرماني في المعركة ، طعنه رجل في خصره فخر عن دابته ، ثم
أمر نصر بصلبه وصلب معه جماعة ، وصلب معه سمكة ، وانضاف ولده إلى أبي مسلم الخراساني ومعه
طوائف من الناس من أصحاب ابن الكرماني ، فصاروا كتفا واحدا على نصر .

قال ابن جرير : وفي هذه السنة تغلب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر على فارس وكورها ،
وعلى حلوان وقومس واصبهان والري ، بعد حرب يطول ذكرها ، ثم التقى عامر بن ضبارة معه باصطخر
فهزمه ابن ضبارة وأسر من أصحابه أربعين ألفا . فكان منهم عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس ،
فنسبه ابن ضبارة وقال له : ما جاء بك مع ابن معاوية وقد علمت خلافه لأمر المؤمنين ؟ فقال : كان
على دين فأتيته فيه . فقام إليه [حرب بن] قطن بن وهب الهلالي فاستوهبه منه وقال : هو ابن أختنا
فوهبه له ، وقال : ما كنت لأقدم على رجل من قريش ، ثم استعلم ابن ضبارة منه أخبار ابن معاوية
فندمه ورماه هو وأصحابه باللواط ، وجيء من الأسارى بمائة غلام عليهم الثياب المصبغة ، وقد كان
يعمل معهم الفاحشة ، وحمل ابن ضبارة عبد الله بن علي على البريد لابن هبيرة ليخبره بما أخبر به

ابن ضبارة عن ابن معاوية . وقد كتب الله عز وجل أن زوال ملك بني أمية يكون على يدى هذا الرجل ، وهو عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس ، ولا يشعر واحد منهم بذلك .
قال ابن جرير : وفي هذه السنة ولى الموسم أبو حمزة الخارجي فأظهر التحكم والمخالفة لمروان ، وتبرأ منه . فراسلهم عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ أمير مكة والمدينة والطائف ، وإليه أمر الحجيج في هذه السنة ، ثم صالحهم على الأمان إلى يوم النفر ، فوقفوا على حدة بين الناس بعرفات ، ثم تميزوا عنهم ، فلما كان يوم النفر الأول تعجل عبد الواحد وترك مكة فدخلها الخارجي بغير قتال ، فقال بعض الشعراء في ذلك : -

زار الحجيج عصابة قد خالفوا * دين الاله ففر عبد الواحد
ترك الحلائل والامارة هارباً * ومضى يخط كالبعير الشارد
لو كان والده تنصل عرقه * لصفته موارد بقر الوارد

ولما رجع عبد الواحد إلى المدينة شرع في تجهيز السرايا إلى قتال الخارجي ، وبذل النفقات وزاد في أعطية الأجناد ، وسيرهم سريعاً . وكان أمير العراق يزيد بن هبيرة ، وأمير خراسان نصر بن سيار ، وقد استحوذ على بعض بلاده أبو مسلم الخراساني . ومن توفى فيها من الأعيان :
سالم أبو النصر ، وعلي بن زيد بن جدعان ، في قول ، وبجى بن أبي كثير . وقد ذكرنا تراجعهم في التكميل والله الحمد .

سنة ثلاثين ومائة

في يوم الخميس لتسع خلون من جمادى الأول منها ، دخل أبو مسلم الخراساني مرو ، ونزل دار الامارة بها ، وانزعها من يد نصر بن سيار ، وذلك بمساعدة علي بن الكرماني ، وهرب نصر بن سيار في شزيمة قليلة من الناس ، نحو من ثلاثة آلاف ، ومعه امرأته المرزبانة ، حتى لحق سرخس وترك امرأته وراه ، ونجا بنفسه ، واستفحل أمر أبي مسلم جداً ، والتفت عليه المساكر .

مقتل شيان بن سلمة الحروري

ولما هرب نصر بن سيار بقي شيان وكان ممالئاً له على أبي مسلم ، فبعث إليه أبو مسلم رسلاً فحبسهم فأرسل أبو مسلم إلى بسام بن إبراهيم مولى بني ليث يأمره أن يركب إلى شيان فيقاتله ، فسار إليه فاقتلا فهزمه بسام فقتله واتبع أصحابه يقتلهم ويأسرهم ، ثم قتل أبو مسلم عليا وعثمان ابني الكرماني ، ثم وجه أبو مسلم أبا داود إلى بلخ فأخذها من زياد بن عبد الرحمن القشيري ، وأخذ منهم أموالاً جزيلة . ثم إن أبا مسلم اتفق مع أبي داود على قتل عثمان بن الكرماني في يوم كذا ، وفي ذلك اليوم بعينه يقتل أبو مسلم على بن جديع الكرماني ، فوقع ذلك كذلك .

وفي هذه السنة وجه أبو مسلم قحطبة بن شبيب إلى نيسابور لقتال نصر بن سيار، ومع قحطبة جماعة من كبار الأمراء، منهم خالد بن برمك. فالتقوا مع تميم بن نصر بن سيار وقد وجهه أبوه لقتالهم بطوس، فقتل قحطبة من أصحاب نصر نحواً من سبعة عشر ألفاً في المعركة، وقد كان أبو مسلم بعث إلى قحطبة مديناً نحو عشرة آلاف فارس، عليهم على بن معقل، فاقتتلوا فقتلوا من أصحاب نصر خلقاً كثيراً، وقتلوا تميم بن نصر، وغنموا أموالاً جزيلة جداً، ثم إن يزيد بن عمر بن هبيرة نائب مروان على العراق بعث سرية مديناً لنصر بن سيار، فالتقى معهم قحطبة في مستهل ذي الحجة، وذلك يوم الجمعة، فاقتتلوا قتالاً شديداً فانهمز جند بني أمية، وقتل من أهل الشام وغيرهم عشرة آلاف، منهم نباتة بن حنظلة عامل جرجان، فبعث قحطبة برأسه إلى أبي مسلم.

ذكر دخول أبي حمزة الخارجي المدينة النبوية واستلاته عليها

قال ابن جرير: وفي هذه السنة كانت وقعة بقديد بين أبي حمزة الخارجي الذي كان عام أول في أيام الموسم، فقتل من أهل المدينة من قریش خلقاً كثيراً، ثم دخل المدينة وهرب فأتى بها عبد الواحد ابن سليمان، فقتل الخارجي من أهلها خلقاً، وذلك لتسع عشرة ليلة خلت من صفر من هذه السنة، ثم خطب على منبر رسول الله (ص)، فوبخ أهل المدينة، فقال: يا أهل المدينة إني مرت بك أيام الأحوال - يعني هشام بن عبد الملك - وقد أصابكم عاهة في تماركم فكتبتم إليه تسألونه أن يضع الخرص عنكم فوضعه، فزاد غنيكم غنى وزاد فقيركم فقراً، فكتبتم إليه جزاك الله خيراً، فلا جزاه الله خيراً. في كلام طويل. فاقام عندهم ثلاثة أشهر بقية صفر وشهر ربيع وبعض جمادى الأول فيما قال الواقدي وغيره. وقد روى المدائني أن أبا حمزة رقى يوماً منبر رسول الله (ص)، ثم قال: تعلمون يا أهل المدينة أنا لم نخرج من بلادنا بطراً ولا أشراً، ولا لدولة نريد أن نخوض فيها النار، وإنما أخرجنا من ديارنا أنا رأينا مصابيح الحق طمست، وضمف القائل بالحق، وقتل القائم بالقسط، فلما رأينا ذلك ضاقت علينا الأرض بما رحبت، وسمعنا داعياً يدعو إلى طاعة الرحمن، وحكم القرآن، فأجبنا داعي الله [ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض] أقبلنا من قبائل شتى، النفر منا على بعير واحد عليه زادهم وأنفسهم، يتعاورون لحافاً واحداً قليلون مستضعفون في الأرض، فأوأانا الله وأيدنا بنصره، فأصبحنا والله بنعمة الله إخواناً، ثم لقينا رجالكم بقديد فدعوناهم إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن، ودعونا إلى طاعة الشيطان وحكم بني مروان، فشتان لعمر الله بين النى والرشد، ثم أقبلوا نحونا يهرعون قد ضرب الشيطان فيهم بجرانه وغلت بدمائهم مراجله، وصدق عليهم ظنه فاتبعوه، وأقبل أنصار الله عصائب وكتائب، بكل مهند ذى رونق، فدارت رحاها واستدارت رحاهم، بضرب يرثاب منه المبطلون، وأنتم يا أهل المدينة إن تنصروا مروان يسحقكم الله بعذاب من عنده أو

بأيدنا ، ويشف صدور قوم مؤمنين ، يا أهل المدينة أولكم خير أول ، وآخركم شر آخر ، يا أهل المدينة الناس منا ونحن منهم ، إلا مشركا عابدا وثن أو كافرا أهل كتاب ، أو إماما جارا . يا أهل المدينة من زعم أن الله يكلف نفسا فوق طاقتها ، أو يسألها ما لم يؤتها ، فهو لله عدو ، وأنا له حرب . يا أهل المدينة أخبروني عن ثمانية أسهم فرضها الله في كتابه على القوى والضعيف ، فجاء تاسع ليس له منها ولا سهم واحد ، فأخفها لنفسه ، مكابرا محاربا لربه ، يا أهل المدينة بلغني أنكم تنقصون أصحابي قتلهم شباب أحداث ، وأعراب جفاة أجلاف ، ويحكم فهل كان أصحاب رسول الله (ص) ، إلا شبابا أحداثا ، شبابا والله مكتملون في شبابهم ، غضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن السعي في الباطل أقدامهم ، قد باعوا لله أنفسا تموت بأنفس لا تموت ، قد خالطوا كلامهم بكلامهم ، وقيام ليلهم بصيام نهارهم ، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مروا بآية خوف شهقوا خوفا من النار ، وإذا مروا بآية شوق شهقوا شوقا إلى الجنة . فلما نظروا إلى السيوف قد انتضيت ، وإلى الرماح قد شرعت ، وإلى السهام قد فوقت ، وارعدت الكتيبة بصواعق الموت ، استخفوا والله وعيد الكتيبة لوعيد الله في القرآن ، ولم يستخفوا وعيد الله لوعيد الكتيبة ، فطوبى لهم وحسن مآب ، فكم من عين في مناقير الطير طال ما فاضت في جوف الليل من خشية الله ، وطال ما بكت خالية من خوف الله ، وكم من يد زالت عن مفصلها طال ما ضربت في سبيل الله وجاهدت أعداء الله . وطال ما اعتمد بها صاحبها في طاعة الله . أقول قولي هذا وأستغفر الله من تقصيري ، وما توفيقي إلا بالله .

ثم روى المدائني عن العباس عن هارون عن جده قال : كان أبو حمزة الخارجي قد أحسن السيرة في أهل المدينة فالوا إليه حتى ممهوه [يقول] برح اخفا أين عن بابك نذهب [ثم قال] من زنا فهو كافر ، ومن سرق فهو كافر ، فمنذ ذلك أبفضوه ورجعوا عن محبته . وأقام بالمدينة حتى بعث مروان الحمار عبد الملك بن محمد بن عطية أحد بني سعد في خيل أهل الشام أربعة آلاف ، قد انتخبها مروان من جيشه ، وأعطى كل رجل منهم مائة دينار وفرسا عربية ، وبغلا لنقله ، وأمره أن يقاتله ولا يرجع عنه ، ولو لم ينلحه إلا باليمن فليتبعمه إليها ، وليقاتل نائب صنعاء عبد الله بن يحيى . فسار ابن عطية حتى بلغ وادي القرى فلتقاه أبو حمزة الخارجي قاصدا قتال مروان بالشام ، فاقتنلا هناك إلى الليل ، فقال له : ويحك يا ابن عطية ! إن الله قد جعل الليل سكنا فأخر إلى غد ، فأبى عليه أن يقلع عن قتاله ، فما زال يقاتلهم حتى كسروهم فولوا ورجع فلمهم إلى المدينة ، فنهض إليهم أهل المدينة فقتلوا منهم خلقا كثيرا ، ودخل ابن عطية المدينة ، وقد انهزم جيش أبي حمزة عنها ، فيقال إنه أقام بها شهرا ثم استخلف عليها ، ثم استخلف على مكة وسار إلى اليمن ففرج إليه عبد الله ابن يحيى نائب صنعاء ، فاقتنلا فقتله ابن عطية وبعث برأسه إلى مروان وجاء كتاب مروان إليه

يأمره بإقامة الحج للناس في هذه السنة ، ويستعجله في السير إلى مكة . تخرج من صنعاء في اثني عشر راكبا ، وترك جيشه بصنعاء ، ومعه خرج فيه أربعون ألف دينار ، فلما كان ببعض الطريق نزل منزلا إذ أقبل إليه أميران يقال لهما ابنا جانة من سادات تلك الناحية ، فقالوا ويحكم أنتم لصوص . فقال : أنا ابن عطية وهذا كتاب أمير المؤمنين إلى بأرة الحج ، فذعن نعل السير لنسرك الموسم ، فقالوا : هذا باطل ، ثم حملوا عليهم فقتلوا ابن عطية وأصحابه ولم يفلت منهم إلا رجل واحد ، وأخذوا مامعهم من المال .

قال أبو معشر : وحج بالناس في هذه السنة محمد بن عبد الملك بن مروان ، وقد جعلت إليه إمرة المدينة ومكة والطائف ، ونائب العراق ابن هبيرة ، وإمارة خراسان إلى نصر بن سيار ، غير أن أبا مسلم قد استحوذ على مدن وقرى كثيرة من خراسان ، وقد أرسل نذر إلى ابن هبيرة يستمده بعشرة آلاف قبل أن لا يكفيه مائة ألف ، وكتب أيضا إلى مروان يستمده ، فكتب مروان إلى ابن هبيرة بمده بما أراد .

ومن توفي فيها من الأعيان شعيب بن الحبحاب ، وعبد العزيز بن صهيب ، وعبد العزيز بن رفيع ، وكعب بن علقمة ، ومحمد بن المنكدر . والله سبحانه أعلم .

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين ومائة

في المحرم منها وجه قحطبة بن شبيب ولده الحسن إلى قوميس لقتال نصر بن سيار ، وأردفه بالامداد ، فخامر بعضهم إلى نصر وارتحل نصر فقتل الرى ، فأقام بها يومين ثم مرض فصار منها إلى همدان . فلما كان بساوه قريبا من همدان توفي لمضى ثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من هذه السنة ، عن خمس وثمانين سنة . فلما مات نصر تمكن أبو مسلم وأصحابه من بلاد خراسان ، وقويت شوكتهم جدا ، وسار قحطبة من جرجان ، وقدم أمامه زياد بن زرارة القشيري ، وكان قد ندم على اتباع أبي مسلم ، فترك الجيش وأخذ جماعة معه وسلك طريق أصبهان ليأتى ابن ضبارة ، فبعث قحطبة وراءه جيشا فقتلوا عامة أصحابه ، وأقبل قحطبة وراءه فقدم قومس وقد افتتحها ابنه الحسن فأقام بها ، وبعث ابنه بين يديه إلى الرى ثم ساق وراءه فوجده قد افتتحها فأقام بها وكتب إلى أبي مسلم بذلك . وارتحل أبو مسلم من مرو فقتل نيسابور واستفحل أمره ، وبعث قحطبة بعد دخوله الرى ابنه الحسن بين يديه إلى همدان ، فلما اقترب منها خرج منها مالك بن أدم وجماعة من أجناد الشام وخراسان ، فقتلوا نهاوند ، فافتتح الحسن همدان ثم سار وراءهم إلى نهاوند ، وبعث إليه أبوه بالامداد فحاصروهم حتى افتتحها .

وفي هذه السنة مات عامر بن ضبارة ، وكان سبب ذلك أن ابن هبيرة كتب إليه أن يسير إلى

قحطبة وأمه بالمساركر ، فسار ابن ضبارة حتى التقى مع قحطبة في عشرين ألفاً ، فلما تواجه الفريقان رفع قحطبة وأصحابه المصاحف ونادى المنادى : يا أهل الشام ، إنا ندعوكم إلى ماني هذا المصحف ، فشتوا المنادى وشتوا قحطبة ، فأمر قحطبة أصحابه أن يحملوا عليهم ، فلم يكن بينهم كبير قتال حتى انهزم أصحاب ابن ضبارة ، واتبعهم أصحاب قحطبة فقتلوا منهم خاقا كثيرا ، وقتلوا ابن ضبارة في العسكر [لشجاعته فانه لم يول] وأخذوا من عسكرهم مالا يحد ولا يوصف .

وفيها حاصر قحطبة نهاوند حصارا شديداً حتى سأل أهل الشام الذين بها أن يميل أهلها حتى يفتحوا له الباب ، ففتحوا له الباب وأخذوا لهم منه أماناً ، فقال لهم من بها من أهل خراسان : ما فعلتم ؟ فقالوا : أخذنا لنا ولكم أماناً ، فخرجوا ظانين أنهم في أمان ، فقال قحطبة للامراء الذين معه : كل من حصل عنده أسير من الخراسانيين فليضرب عنقه وليأتنا برأسه ، ففعلوا ذلك ولم يبق ممن كان حرب من أبي مسلم أحد ، وأطلق الشاميين وأوفى لهم عهدهم وأخذ عليهم الميثاق أن لا يمالئوا عليه عدواً . ثم بعث قحطبة أبا عون إلى شهر زور ، عن أمر أبي مسلم في ثلاثين ألفاً فافتتحها ، وقتل نائبها عثمان بن سفيان . وقيل لم يقتل بل تحول إلى الموصل والجزيرة وبعث إلى قحطبة بذلك ، ولما بلغ مروان خبر قحطبة وأبي مسلم وما وقع من أمرهما ، تحول مروان من حران فترز بمكان يقال له الزاب الأكبر .

وفيها قصد قحطبة في جيش كثيف نائب العراق يزيد بن عمر بن هبيرة . فلما اقترب منه تقهر ابن هبيرة إلى ورائه ، وما زال يتقهقر إلى أن جاوز الفرات ، وجاء قحطبة فجازها ورايه ، وكان من أمرهما ما سنده كره في السنة الآتية إن شاء الله تعالى .

ثم دخلت سنة ثنتين وثلاثين ومائة

في المحرم منها جاز قحطبة بن شبيب الفرات ومعه الجنود والفرسان ، وابن هبيرة مخيم على قم الفرات مما يلي الفلوجة ، في خلق كثير وجم غفير ، وقد أمده مروان بجنود كثيرة ، وانضاف إليه كل من انهزم من جيش ابن ضبارة . ثم إن قحطبة عدل إلى الكوفة ليأخذها ، فاتبعه ابن هبيرة . فلما كانت ليلة الأربعاء لثمان مضي من المحرم اقتتلوا قتالاً شديداً وكثراً القتل في الفريقين ، ثم ولى أهل الشام منهزمين واتبعهم أهل خراسان ، وقد قحطبة من الناس فأخبرهم رجل أنه قتل وأوصى أن يكون أمير الناس من بعده ولده الحسن ، ولم يكن الحسن حاضراً ، فبايعوا حميد بن قحطبة لأخيه الحسن وذهب البريد إلى الحسن ليحضر . وقتل في هذه الليلة جماعة من الأمراء . والذي قتل قحطبة مع ابن زائدة ، ويحيى بن حصين . وقيل بل قتله رجل ممن كان معه آخذاً بثار ابني نصر بن سيار فآله أعلم . ووجد قحطبة في القتلى فدفن هنالك ، وجاء الحسن بن قحطبة فسار نحو الكوفة ، وقد خرج بها

محمد بن خالد بن عبد الله القسري ودعا إلى بني العباس وسوء ، وكان خروجه ليلة عاشوراء المحرم من هذه السنة ، وأخرج عاملها من جهة ابن هبيرة ، وهو زياد بن صالح الحارثي ، وتحول محمد بن خالد إلى قصر الامارة فقصده حوثة في عشرين ألفاً من جهة ابن هبيرة ، فلما اقترب من الكوفة أصحاب حوثة يذهبون إلى محمد بن خالد فيبايعونه لبني العباس ، فلما رأى حوثة ذلك ارتحل إلى واسط ، ويقال بل دخل الحسن بن قحطبة الكوفة ، وكان قحطبة قد جعل في وصيته أن تكون وزارة الخلافة إلى أبي سلمة حفص بن سليمان مولى السبيع الكوفي الخلال ، وهو بالكوفة ، فلما قدموا عليه أشار أن يذهب الحسن بن قحطبة في جماعة من الأمراء إلى قتال ابن هبيرة بواسط ، وأن يذهب أخوه حميد إلى المدائن ، وبعث البعث إلى كل جانب يفتتحونها ، وفتحوا البصرة ، افتتحها مسلم بن قتيبة لابن هبيرة ، فلما قتل ابن هبيرة جاء أبو مالك عبد الله بن أسيد الخزاعي فأخذ البصرة لأبي مسلم الخراساني .

وفي هذه السنة ليلة الجمعة لثلاث عشرة خلت من ربيع الآخر منها ، أخذت البيعة لأبي العباس السفاح ، وهو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب . قاله أبو معشر وهشام بن الكلبي . وقال الواقدي : في جمادى الأولى من هذه السنة قاله أعلم .

ذكر مقتل إبراهيم بن محمد السام

قد ذكرنا في سنة تسع وعشرين ومائة أن مروان اطلع على كتاب من إبراهيم الامام إلى أبي مسلم الخراساني ، يأمره فيه بأن لا يبقى أحداً بأرض خراسان ممن يتكلم بالعربية إلا أباده ، فلما وقف مروان على ذلك سأل عن إبراهيم فقيل له هو بالبقاء ، فكتب إلى نائب دمشق أن يحضره فبعث نائب دمشق بريدًا ومعه صفته ونعته ، فذهب الرسول فوجد أخاه أبا العباس السفاح ، فاعتقد أنه هو فأخذه قتيلاً له : إنه ليس به ، وإنما هو أخوه ، فدل على إبراهيم فأخذه وذهب معه بأم ولد له كان يحبها ، وأوصى إلى أهله أن يكون الخليفة من بعده أخوه أبو العباس السفاح ، وأمرهم بالسير إلى الكوفة ، فارتحلوا من يومهم إليها ، منهم أعمامه الستة وهم : عبد الله ، وداود ، وعيسى ، وصالح ، وإسماعيل ، وعبد الصمد ، بنوا علي ، وأخوه أبو العباس السفاح ، ومحمد ابنا محمد بن علي ، وابناه محمد وعبد الوهاب ابنا إبراهيم الامام الممسوك ، وخلق سوام . فلما دخلوا الكوفة أنزلهم أبو سلمة الخلال دار الوليد بن سعد ، مولى بني هاشم ، وكنتم أسرم نحواً من أربعين ليلة من القواد

والأمراء ، ثم ارتحل بهم إلى موضع آخر ، ثم لم يزل ينقلهم من مكان إلى مكان حتى فتحت البلاد . ثم بويج للسفاح . وأما إبراهيم بن محمد الامام فانه سير به إلى أمير المؤمنين في ذلك الزمان مروان ابن محمد وهو بخران لحبسه ، وما زال في السجن إلى هذه السنة ، فمات في صفر منها في السجن ، عن ثمان وأربعين سنة . وقيل إنه غمّ بمرقعة وضمت على وجهه حتى مات عن إحدى وخمسين سنة ، وصلى عليه رجل يقال له بهلول بن صفوان ، وقيل إنه هدم عليه بيت حتى مات ، وقيل بل سقى لبناً مسموماً فمات ، وقيل إن إبراهيم الامام شهد الموسم عام إحدى وثلاثين ، واشتهر أمره هنالك لأنه وقف في أبهة عظيمة ، ونجائب كثيرة ، وحرمة وافرة ، فأنهى أمره إلى مروان وقيل له : إن أبا مسلم يدعو الناس إلى هذا ويسمونه الخليفة ، فبعث إليه في الحرم من سنة ثنتين وثلاثين وقتله في صفر من هذه السنة ، وهذا أصح مما تقدم : وقيل إنه إنما أخذه من الكوفة لامن حمية البلقاء فأنه أعلم . وقد كان إبراهيم هذا كريماً جواداً له فضائل وفواضل ، وروى الحديث عن أبيه عن جده ، وأبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ، وعنه أخواه عبد الله السفاح ، وأبو جعفر عبد الله المنصور ، وأبو سلمة عبد الرحمن بن مسلم الخراساني ، ومالك بن هاشم . ومن كلامه الحسن : الكامل المروءة من أحرز دينه ، ووصل رحمه ، واجتنب ما يلام عليه .

خليفة أبي العباس السفاح

لما بلغ أهل الكوفة مقتل إبراهيم بن محمد ، أراد أبو سلمة الخلال أن يحول الخلافة إلى آل علي ابن أبي طالب ، فقلبه بقية النقباء والأمراء ، وأحضروا أبا العباس السفاح وسلخوا عليه بالخلافة ، وذلك بالكوفة ، وكان عمره إذ ذاك ستاً وعشرين سنة . وكان أول من سلم عليه بالخلافة أبو سلمة الخلال ، وذلك ليلة الجمعة ثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر من هذه السنة ، فلما كان وقت صلاة الجمعة خرج السفاح على برذون أبلق ، والجنود ملبسة معه ، حتى دخل دار الامارة ، ثم خرج إلى المسجد الجامع وصلى بالناس ، ثم صعد المنبر وبايعه الناس وهو على المنبر في أعلاه ، وعنه داود ابن علي واقف دونه بثلاث درج ، وتكلم السفاح ، وكان أول ما نطق به أن قال : الحمد لله الذي اصطفى الاسلام لنفسه ديناً ، وكرمه وشرفه وعظمه ، واختاره لنا ، وأيده بنا ، وجعلنا أهله وكهفه والقوام به والذابين عنه والناصرين له ، وأزمننا كلمة التقوى وجعلنا أحق بها وأهلها ، خصنا برحم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرباته ، ووضعنا بالاسلام وأهله في الموضع الرفيع ، وأنزل بذلك على أهل الاسلام كتاباً ينل عليهم . فقال تعالى [إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً] وقال [قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى] وقال : [وأنذر عشيرتكم

الآقر بين [وقال: ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذی القربى والیتامى والمساكين] الآية . فأعلمهم عز وجل فضلنا وأوجب عليهم حقنا ومودتنا ، وأجزل من القى والغنيمة نصيبنا تكرمه لنا ، وتفضلة علينا ، والله ذو الفضل العظيم . وزعمت السبابة الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا ، فشاعت وجوههم . أيها الناس بنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم ، ونصرهم بعد جهالتهم ، وأنقذهم بعد هلكتهم وأظهر بنا الحق وأدحض بنا الباطل ، وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً ، ورفع بنا الخسيسة ، وأنم النقيصة وجمع الفرقه ، حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر ومواساة فى دنياهم ، وإخوانا على سرر متقابلين فى آخرهم ، فتح الله علينا ذلك منة ومنحة بمحمد (ص) ، فلما قبضه إليه قام بذلك الأمر بعده أصحابه ، وأمرهم شورى بينهم ، فخورا مواريث الأمم فمدلوا فيها ، ووضعوها مواضعها ، وأعطوها أهلها ، وخرجوا خلاصا منها . ثم وثب بنو حزب مروان فابتزوها لأنفسهم ، وتداولوها . فجاروا فيها واستأثروا بها ، وظلموا أهلها ، فأملى الله لهم حيناً [فلما آسفونا انتقمنا منهم] فانزع منهم ما بأيديهم بأيدينا ، ورد الله علينا حقنا ، وتدارك بنا أمتنا ، وتولى أمرنا والقيام بنصرنا لئلا بنا على الذين استضعفوا فى الأرض ، وختم بنا كما افتتح بنا ، وإني لأرجو [أن] لا يأتىكم الجور من حيث جاءكم الخير ، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح ، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله . يا أهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا ، وأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا ، وقد زدتم فى أعطياتكم مائة درهم ، فاستعدوا فانا السفاح الهاجم والنار المبير . وكان به وعك فاشتد عليه حتى جلس على المنبر ونهض عنه داود فقال : الحمد لله شكراً الذى أهلك عدونا وأصار إلينا ميراثنا من بيتنا . أيها الناس الآن انقشعت حنادس الظلمات وانكشف غطاؤها ، وأشرقت أرضها وسماؤها ، فطلعت شمس الخلافة من مطالعها ، ورجع الحق إلى نصابه ، إلى أهل نبيكم أهل الرأفة والرحمة والعطف عليكم ، أيها الناس إنا والله ما خرجنا لهذا الأمر لنكسر لجينا ولا عقياناً ولا لنحفر نهراً ولا لنبنى قصراً ولا لنجمع ذهباً ولا فضة ، وإنما أخرجنا الأنفة من انتزاع حقنا والغضب لبني عمنا ، ولسوء سيرة بنى أمية فيكم ، واستذلناهم لكم ، واستثنائهم بفيشكم وصدقاتكم ، فلكم علينا ذمة الله وذمة رسوله وذمة العباس ، أن نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونعمل بكتاب الله ، ونسير فى العامة والخاصة بسيرة رسول الله ، تبا تبا لبني أمية وبني مروان ، آثروا العاجلة على الآجلة ، والدار الفانية على الدار الباقية ، فركبوا الآثام وظلموا الأثام ، وارتكبوا المحارم ، وغشوا الجرائم ، وجاروا فى سيرتهم فى العباد ، وسفهم فى البلاد التى بها استلذوا تسربل الأوزار ، وتجللب الآصار ، ومرحوا فى أعنة المعاصي ، وركضوا فى ميادين النى ، جهلا منهم باستدراج الله ، وعميا عن أخذ الله ، وأمنا لمكر الله ، فآثام بأس الله بيانا وهم نائمون ، فأصبحوا أحاديث ومزقوا كل ممزق ،

فبعدا للقوم الظالمين . وأدان الله من مروان ، وقد غره بالله الغرور ، أرسل عدو الله في عنائه حتى عثر جواده في فضل خطامه ، أظن عدو الله أن لن يقدر عليه أحد ؟ فنادى حزبه وجميع جنده ورمى بكتائبه فوجد أمامه ووراءه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته من مكر الله وبأسه ونقمته ما أمات باطله ، ومحق ضلاله ، وأحل دائرة السوء به ، وأحاط به خطيئته ، ورد إلينا حقنا وآوانا . أيها الناس ! إن أمير المؤمنين نصره الله نصراً عزيزاً ، وإنما عاد إلى المنبر بعد صلاة الجمعة لأنه كره أن يخلط بكلام الجمعة غيره ، وإنما قطعه عن استتمام الكلام شدة الوعك ، فادعوا الله لأمر المؤمنين بالعافية ، فقد أبدلكم الله بمروان عدو الرحمن ، وخليفة الشيطان ، المتبع للأسفلة الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون المتوكل على الله المتقدم بالأبرار الأخيار الذين أصلحوا الأرض بعد فسادها بمالم الهدى ، ومناهج التقى . قال فمعج الناس له بالدعاء ثم قال : واعلموا يا أهل الكوفة أنه لم يصعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله (ص) ، إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأمير المؤمنين هذا - وأشار بيده إلى السفاح - واعنوا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج عنا ، حتى نسله إلى عيسى بن مريم عليه السلام ، والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا . ثم نزل أبو العباس وداود حتى دخلا القصر . ثم دخل الناس يبايعون إلى العصر ، ثم من بعد العصر إلى الليل . ثم إن أبا العباس خرج فمسك بظاهر الكوفة واستخلف عليها عمه داود ، وبعث عمه عبد الله ابن علي إلى أبي عون بن أبي يزيد ، وبعث ابن أخيه عيسى بن موسى إلى الحسن بن قحطبة . وهو يومئذ بواسط بمحاصر ابن هبيرة ، وبعث يحيى بن [جعفر بن] تمام بن العباس إلى حميد بن قحطبة بالمدائن ، وبعث أبا اليقظان عثمان بن عروة بن محمد بن عمار بن ياسر إلى بسام بن إبراهيم بن بسام بالأهواز ، وبعث سلمة بن عمرو بن عثمان إلى مالك بن الطواف . وأقام هو بالعسكر أشهراً ، ثم ارتحل فتنزل المدينة الهاشمية في قصر الامارة ، وقد تنكر لأبي سلمة الخلال ، وذلك لما كان بلغه عنه من العدول بالخلافة عن ابن العباس إلى آل علي بن أبي طالب والله سبحانه وتعالى أعلم .

مقتل مروان بن محمد بن مروان

آخر خلفاء بني أمية ، وتحول الخلافة إلى بني العباس مأخوذ من قوله تعالى [والله يؤتي ملكه من يشاء] وقوله [قل اللهم مالك الملك] الآية . وقد ذكرنا أن مروان لما بلغه خبر أبي مسلم وأتباعه وما جرى بأرض خراسان ، تحول من حران فتنزل على نهر قريب من الموصل ، يقال له الزاب من أرض الجزيرة ثم لما بلغه أن السفاح قد بويع له بالكوفة والتفت عليه الجنود ، واجتمع له أمره ، شق عليه جداً ، وجمع جنوده فتقدم إليه أبو عون بن أبي يزيد في جيش كثيف وهو أحد أمراء السفاح ، فنازله على الزاب وجاءته الأمداد من جهة السفاح ، ثم ندب السفاح الناس ممن يلي القتال من أهل

بيته ، فانتدب له عبد الله بن علي فقال : سر على بركة الله ، فسار في جنود كثيرة فقدم على أبي عون فتحول له أبو عون عن سرادقه وخلاه له وما فيه ، وجعل عبد الله بن علي على شرطته حياش ابن حبيب الطائي ، ونصير بن المحتفز ، ووجه أبو العباس موسى بن كعب في ثلاثين رجلا على البريد إلى عبد الله بن علي يحثه على مناجزة مروان ، والمبادرة إلى قتاله ونزاله قبل أن تحدث أمور ، وتبرد نيران الحرب . فتقدم عبد الله بن علي بجنوده حتى واجه جيش مروان ، ونهض مروان في جنوده وتضاف الفريقان في أول النهار ، ويقال إنه كان مع مروان يومئذ مائة ألف وخمسون ألفا ، ويقال مائة وعشرون ألفا ، وكان عبد الله بن علي في عشرين ألفا . فقال مروان لعبد العزيز بن عمر ابن عبد العزيز : إن زالت الشمس يومئذ ولم يقاتلونا كنا نحن الذين نندفعها إلى عيسى بن مريم ، وإن قاتلونا قبل الزوال فانا لله وإنا إليه راجعون . ثم أرسل مروان إلى عبد الله بن علي يسأله المودة ، فقال عبد الله : كذب ابن زريق ، لا تزول الشمس حتى أوطئه الخليل إن شاء الله ، وكان ذلك يوم السبت لاحدى عشر ليلة خلت من جمادى الآخرة من هذه السنة ، فقال مروان : قفوا لا تبدؤن بقتال ، وجعل ينظر إلى الشمس نخالفة الوليد بن معاوية بن مروان - وهو ختن مروان على ابنته - فحمل ، فغضب مروان فشتمه فقاتل أهل الميمنة فأنحاز أبو عون إلى عبد الله بن علي ، فقاتل موسى بن كعب لعبد الله بن علي ، فأمر الناس فقتلوا ونودي الأرض الأرض ، فزلا وأشرعوا الرماح وجثوا على الركب وقاتلهم ، وجعل أهل الشام يتأخرون كأنما يدفعون ، وجعل عبد الله يمشي قدما ، وجعل يقول : يارب حتى متى تقتل فيك ، ونادى : يا أهل خراسان ، ياشارات إبراهيم الامام ، يا محمد يا منصور ، واشتد القتال جدا بين الناس ، فلا تسمع إلا وقعا كالمرابز على النحاس ، فأرسل مروان إلى قضاة يأمرهم بالتزول فقالوا : قل لبني سليم فليزلوا ، وأرسل إلى السكاسك أن يحملوا فقالوا : قل لبني عامر أن يحملوا ، فأرسل إلى السكون أن يحملوا فقالوا : قل إلى غطفان فليحملوا . فقال لصاحب شرطته : انزل فقال لا والله لا أجمل نفسي غرضا . قال : أما والله لأسوءئك . قال : وددت والله لو قدرت على ذلك .

ويقال : إنه قال ذلك لابن هبيرة . قالوا : ثم انهزم أهل الشام واتبعهم أهل خراسان في أدبارهم يقتلون ويأسرون ، وكان من غرق من أهل الشام أكثر ممن قتل وكان في جملة من غرق إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك الخلع ، وقد أمر عبد الله بن علي بعقد الجسر ، واستخراج من غرق في الماء ، وجعل يتلو قوله تعالى [إذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون] وأقام عبد الله ابن علي في موضع المعركة سبعة أيام ، وقد قال رجل من ولد سعيد بن العاص في مروان وفراره يومئذ :
لج الفرار بمروان فقلت له * عاد الظلوم ظلما هم الهرب

أَبْنُ الْفِرَارِ وَتَرَكَ الْمَلِكُ إِذْ ذَهَبَتْ * عَنْكَ الْهُوَيْنَا فَلَا دِينَ وَلَا حِسْبَ
فِرَاشَةَ الْحَلَمُ فِرْعَوْنُ الْعَقَابِ وَإِنَّ * تَطْلُبُ نَدَاهُ فَكَلْبُهُ دُونَهُ كَابُ

واحتاز عبد الله مافي معسكر مروان من الأموال والامتعة والحواصل ، ولم يجد فيه امرأة سوى جارية كانت لعبد الله بن مروان ، وكتب إلى أبي العباس السفاح بما فتح الله عليه من النصر ، وما حصل لهم من الأموال . فصلى السفاح ركعتين شكراً لله عز وجل ، وأطلق لكل من حضر الوقعة خمسمائة خمسمائة ، ورفع في أرزاقهم إلى ثمانين ، وجعل يتلو قوله [فلما فصل طالوت بالجنود] الآية

صفة مقتل مروان

لما انهزم مروان سار لايلى على أحد ، فأقام عبد الله بن علي في مقام المعركة سبعة أيام ، ثم سار خلفه بمن معه من الجنود ، وذلك عن أمر السفاح له بذلك ، فلما مر مروان بحران اجتازها وأخرج أبا محمد السفيناني من سجنه ، واستخلف عليها أبان بن يزيد - وهو ابن أخته ، وزوج ابنته أم عثمان - فلما قدم عبد الله على حران خرج إليه أبان بن يزيد مسوداً فأمنه عبد الله بن علي وأقره على عمله ، وهدم الدار التي سجن فيها إبراهيم الامام ، واجتاز مروان قنسرين قاصداً حصص ، فلما جاءها خرج إليه أهلها بالأسواق والمعاش ، فأقام بها يومين أو ثلاثة ثم شخص منها ، فلما رأى أهل حصص قلة من معه اتبعوه ليقتلوه ونهبوا ماله ، وقالوا : مرعوب مهزوم ، فأدركوه بواد عند حصص فأكن لهم أميرين ، فلما تلاحقوا بمروان عطف عليهم فنأشدهم أن يرجعوا فأبوا إلا مقاتلته ، فنار القتال بينهم ونار الكينان من ورائهم ، فانهزم المحاصيون ، وجاء مروان إلى دمشق وعلى نيابتهما من جهته زوج ابنته الوليد ابن معاوية بن مروان ، فتركها بها واجتاز عنها قاصداً إلى الديار المصرية ، وجعل عبد الله بن علي لا يمر ببلد وقد سودوا فيبايعونه ويعطيهم الأمان ، ولما وصل إلى قنسرين وصل إليه أخوه عبد الصمد ابن علي في أربعة آلاف ، قد بعثهم السفاح مدداً له ، ثم سار عبد الله حتى أتى حصص ، ثم سار منها إلى بعلبك ، ثم منها حتى أتى دمشق من ناحية المزة فنزل بها يومين أو ثلاثة ، ثم وصل إليه أخوه صالح ابن علي في ثمانية آلاف مدداً من السفاح ، فنزل صالح بمرج عنراء ، ولما جاء عبد الله بن علي دمشق نزل على الباب الشرقي ، ونزل صالح أخوه على باب الجابية ، ونزل أبو عون على باب كيسان ، ونزل بسام على الباب الصغير ، وحيد بن قحطبة على باب توما ، وعبد الصمد ويحيى بن صفوان والعباس بن يزيد على باب الفرديس ، فحاصرها أياماً ثم افتتحها يوم الأربعاء لعشر خلون من رمضان هذه السنة ، فقتل من أهلها خلقاً كثيراً وأباحها ثلاث ساعات ، وهدم سورها ، ويقال إن أهل دمشق لما حاصروا عبد الله اختلفوا فيما بينهم ، ملابن عباسي وأموي ، فاقتتلوا فقتل بعضهم بعضاً ، وقتلوا نائبيهم ثم سلموا البلد ، وكان أول من صعد السور من ناحية الباب الشرقي رجل يقال له عبد الله الطائي ، ومن

ناحية الباب الصغير بسام بن إبراهيم ، ثم أبيحت دمشق ثلاث ساعات حتى قيل إنه قتل بها في هذه المدة نحواً من خمسين ألفاً .

وذكر ابن عساكر في ترجمة عبيد بن الحسن الأعرج من ولد جعفر بن أبي طالب ، وكان أميراً على خمسة آلاف مع عبد الله بن علي في حصار دمشق ، أنهم أقاموا محاصرها خمسة أشهر ، وقيل مائة يوم ، وقيل شهراً ونصفاً ، وأن البلد كان قد حصنه نائب مروان تحصيناً عظيماً ، ولكن اختلف أهلها فيما بينهم بسبب البغائية والمضرية ، وكان ذلك سبب الفتح ، حتى إنهم جعلوا في كل مسجد محرابين للقبلتين حتى في المسجد الجامع منبرين ، وإمامين يخطبان يوم الجمعة على المنبرين ، وهذا من عجيب ما وقع ، وغريب ما اتفق ، وقطيع ما أحدث بسبب الفتنة والهوى والعصبية ، نسأل الله السلامة والعافية . وقد بسط ذلك ابن عساكر في هذه الترجمة المذكورة ، وذكر في ترجمة محمد بن سليمان بن عبد الله النوفلي قال : كنت مع عبد الله بن علي أول ما دخل دمشق ، دخلها بالسيف ، وأباح القتل فيها ثلاث ساعات ، وجعل جامعها سبعين يوماً اسطبلًا لدوابه وجماله ، ثم نبش قبور بني أمية فلم يجد في قبر معاوية إلا خيطاً أسود مثل الهباء ، ونبش قبر عبد الملك بن مروان فوجد جمجمة ، وكان يجد في القبر العضو بعد العضو ، إلا هشام بن عبد الملك فإنه وجده صحيحاً لم يبل منه غير أرنبة أنفه ، فضربه بالسياط وهو ميت وصلبه أياماً ثم أحرقه ودق رماده ثم ذره في الريح ، وذلك أن هشاماً كان قد ضرب أخاه محمد بن علي ، حين كان قد اتهم بقتل ولده صغير ، سبعمئة سوط ، ثم نفاه إلى الحيمة بالبلقاء . قال : ثم تتبع عبد الله بن علي بني أمية من أولاد الخلفاء وغيرهم ، فقتل منهم في يوم واحد اثنين وتسعين ألفاً عند نهر بالرملة ، و بسط عليهم الأنطاع ومد عليهم سماً طافاً كل وهم يخلجون تحتها ، وهذا من الجبروت والظلم الذي يجازيه الله عليه ، وقد مضى ولم يدم له ما أرادته ورجاه ، كما سيأتي في ترجمته . وأرسل امرأة هشام بن عبد الملك وهي عبدة بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية صاحبة الخال ، مع نفر من الخراسانية إلى البرية ماشية حافية حاسرة عن وجهها وجسدها عن ثيابها ثم قتلوها . ثم أحرق ما وجده من عظم ميت منهم . وأقام بها عبد الله خمسة عشر يوماً .

وقد استدعى بالأوزاعي فأوقف بين يديه فقال له : يا أبا عمرو ما تقول في هذا الذي صنعناه ؟ قال قلت له : لا أدري ، غير أنه قد حدثني يحيى بن سعيد الأنصاري عن محمد بن إبراهيم عن علقمة عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله (ص) : « إنما الأعمال بالنيات » فذكر الحديث . قال الأوزاعي : وانتظرت رأسي أن يسقط بين رجلي ثم أخرجت ، وبعثت إلى بمائة دينار . ثم سار

وراء مروان فنزل على نهر الكسوة ووجه يحيى بن جعفر الهاشمي نائبا على دمشق ، ثم سار فنزل مرج الروم ، ثم أتى نهر أبي فطرس فوجد مروان قد هرب فدخل مصر ، وجاءه كتاب السفاح : ابعث صالح بن علي في طلب مروان وأقم أنت بالشام نائبا عليها ، فسار صالح يطلب مروان في ذى القعدة من هذه السنة ، ومعه أبو عمرو وعامر بن إسماعيل ، فنزل على ساحل البحر وجمع ما هناك من السفن وبلغه أن مروان قد نزل الفرما ، وقيل الفيوم ، فجعل يسير على الساحل والسفن تقاد معه في البحر حتى أتى العريش ، ثم سار حتى نزل على النيل ثم سار إلى الصعيد ، فعبر مروان النيل وقطع الجسر وحرق ما حوله من الملف والطعام ، ومضى صالح في طلبه . فالتقى بخيل لمروان فهزمهم ، ثم جعل كلما التقوا مع خيل لمروان يهزمونهم حتى سألوا بعض من أسروا عن مروان فدلهم عليه ، وإذا به في كنيسة أبو صير ، فوافوه من آخر الليل فانهزم من معه من الجند وخرج إليهم مروان في نفر يسير معه فأحاطوا به حتى قتلوه ، طعنه رجل من أهل البصرة يقال له معود ، ولا يعرفه حتى قال رجل صرع أمير المؤمنين . فابتدره رجل من أهل الكوفة كان يبيع الرمان فاحتز رأسه ، فبعث به عامر بن إسماعيل أمير هذه السرية إلى أبي عون ، فبعث به أبو عون إلى صالح بن علي ، فبعث به صالح مع رجل يقال له خزيم بن يزيد بن هاني كان على شرطته ، لأمير المؤمنين السفاح .

وكان مقتل مروان يوم الأحد لثلاث بقين من ذى الحجة ، وقيل يوم الخميس لست مضين منها سنة ثنتين وثلاثين ومائة ، وكانت خلافته خمس سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام على المشهور ، واختلفوا في سنة فقيل أربعون سنة ، وقيل ست وقيل ثمان وخمسون سنة ، وقيل ستون وقيل اثنتان وقيل ثلاث وقيل تسع وستون سنة ، وقيل ثمانون والله أعلم .

ثم إن صالح بن علي سار إلى الشام واستخلف على مصر أبا عون بن أبي يزيد والله سبحانه أعلم .

وهذا شيء من ترجمة مروان الحمار

وهو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية ، القرشي الأموي ، أبو عبد الملك أمير المؤمنين آخر خلفاء بني أمية ، وأمه أمة كردية يقال لها لبابة ، وكانت لإبراهيم بن الأشتر النخعي ، أخذها محمد بن مروان يوم قتله فاستولدها مروان هذا ، ويقال إنها كانت أولا لمصعب بن الزبير ، وقد كانت دار مروان هذا في سوق الأكافين ، قاله ابن عساكر . بويع له بالخلافة بعد قتل الوليد بن يزيد ، وبعد موت يزيد بن الوليد ، ثم قدم دمشق وخلع إبراهيم بن الوليد ، واستمر له الأمر في نصف صفر سنة سبع وعشرين ومائة . وقال أبو معشر : بويع له بالخلافة في ربيع الأول سنة تسع وعشرين ومائة ، وكان يقال له مروان الجعدي ، نسبة إلى رأى الجعد بن درهم ، وتلقب بالحمار ، وهو آخر من ملك من بني أمية ، وكانت خلافته خمس سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام ، وقيل

خمس سنين وشهراً ، وبقى بعد أن بويع للسفاح تسعة أشهر ، وكان أبيض مشرباً حجرة ، ارق العنين ، كبير اللحية ، ضخيم الهامة ، ربة ، ولم يكن يخضب . ولاء هشام نيابة أذر بيجان وأرمينية والجزيرة ، في سنة أربع عشرة ومائة ، ففتح بلاداً كثيرة وحصوناً متعددة في سنين كثيرة ، وكان لا يفارق الغزو في سبيل الله ، وقاتل طوائف من الناس الكفار ومن الترك والخزر واللان وغيرهم ، فكسبهم وقهرهم ، وقد كان شجاعاً بطلاً مقداماً حازم الراي ، لولا أن جنده خذلوه بتقدير الله عز وجل لما له في ذلك من حكمة سلب الخلافة لشجاعته وصرامته . ولكن من يخذل الله يخذل ، ومن يهن الله فانه من مكرم .

قال الزبير بن بكار عن عمه مصعب بن عبد الله : كان بنو أمية يرون أنه تذهب منهم الخلافة إذا وليها من أمه أمة ، فلما وليها مروان هذا أخذت منهم في سنة ثنتين وثلاثين ومائة . وقد قال الحافظ ابن عساكر : أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن بن أبي الحسين أخبرنا سهل بن بشر أنبا الخليل ابن هبة الله بن الخليل أنبا عبد الوهاب الكلبي حدثنا أبو الجهم أحمد بن الحسين أنبا العباس ابن الوليد بن صبيح ثنا عباس بن يحيى أبو الحارث حدثني الهيثم بن حميد حدثني راشد بن داود عن أسماء عن ثوبان قال . قال رسول الله (ص) : « لا تزال الخلافة في بني أمية يتلقفونها تلقف الغلمان السكر ، فإذا خرجت من أيديهم فلا خير في عيش » . هكذا أورده ابن عساكر وهو منكسر جداً ، وقد سأل الرشيد أبا بكر بن عياش : من خير الخلفاء نحن أو بنو أمية ؟ فقال : هم كانوا أنفع للناس ، وأنتم أقوم للصلاة ، فأعطاه ستة آلاف . قالوا وقد كان مروان هذا كثير المروءة كثير العجب ، يعجبه الله والطرب ، ولكنه كان يشتغل عن ذلك بالحرب .

قال ابن عساكر : قرأت بخط أبي الحسين علي بن مقلد بن نصر بن منقذ بن الأمير في مجموع له : كتب مروان بن محمد إلى جارية له تركها بالرملة عند ذهابه إلى مصر منهزماً :

وما زال يدعوني إلى الصبر ما أرى * فأبى ويدنيني الذي لك في صدري
وكان عزيزاً أن تبتي وبيننا * حجاب قد أمسى مني على عشري
وأنكاهما والله للقلب فاعلى * إذا زدت مثليها فصرت على شجري
وأعظم من هذين والله أننى * أخاف بأن لانتلقى آخر الدهر
سأبكيك لامستقبياً فيض عبدة * ولا طالباً بالصبر عاقبة الصبر

وقال بعضهم : اجتاز مروان وهو هارب يراهب فاطم عليه الراهب فسلم عليه فقال له : ياراهب هل عندك علم بالزمان ؟ قال : نعم ! عندي من تلونه أنوان . قال : هل تبلغ الدنيا من الانسان أن نجعله مملوكا بعد أن كان مالكا ؟ قال : نعم ! قال : فكيف ؟ قال : يحبه لها وحرصه على نيل شهواتها

وتضييع الحزم وترك انتهاز الفرس . فان كنت تحبها فان عبدها من أحبها قال فما السبيل إلى العتق ؟ قال : يبغضها والتجافى عنها . قال : هذا مالا يكون . قال الراعب : اما إنه سيكون ، فبادر بالحرب منها قبل أن تسلبها . قال : هل تعرفني ؟ قال : نعم ! أنت ملك العرب مروان ، تقتل في بلاد السودان : وتدفن بلا أكفان ، فلو أن الموت في طلبك لدلتك على موضع هربك . قال بعض الناس : كان يقال في ذلك الزمان يقتل ع بن ع بن ع م بن م بن م يعنون يقتل عبد الله بن علي بن عباس مروان بن محمد بن مروان .

وقال بعضهم : جلس مروان يوماً وقد أحيط به وعلى رأسه خادم له قائم ، فقال مروان لبعض من يخاطبه : ألا ترى مانحن فيه ؟ لهفي على أيد ماذكرت ، ونعم ماشكرت ، ودولة مانصرت . فقال له الخادم : يا أمير المؤمنين من ترك القليل حتى يكثر ، والصغير حتى يكبر ، والخفي حتى يظهر ، وآخر فعل اليوم لغد ، حل به أكثر من هذا . فقال مروان : هذا القول أشد على من فقد الخلافة . وقد قيل إن مروان قتل يوم الاثنين لثلاث عشرة خلت من ذى الحجة سنة ثنتين وثلاثين ومائة ، وقد جاوز الستين وبلغ الثمانين . وقيل إنما عاش أربعين سنة . والصحيح الأول . وهو آخر خلفاء بني أمية به انقضت دولتهم .

ما ورد في انقضاء دولة بني أمية وابتداء بني العباس من الأخبار النبوية

قال العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال قال رسول الله (ص) : « إذا بلغ بنو العاص أربعين رجلاً اتخذوا دين الله دغلاً ، وعباد الله خولاً ، ومال الله دولا » . ورواه الأعمش عن عطية عن أبي سعيد مرفوعاً بنحوه ، وروى ابن لهيعة عن أبي قبيل عن ابن وهب أنه كان عند معاوية فدخل عليه مروان بن الحكم فتكلم في حاجة فقال : اقض حاجتي فاني لأبوعشرة ، وأخوعشرة وعم عشرة . فلما أدبر مروان قال معاوية لابن عباس وهو معه على السرير : أما تعلم أن رسول الله (ص) قال : « إذا بلغ بنو الحكم ثلاثين رجلاً اتخذوا مال الله بينهم دولا ، وعباد الله خولاً ، وكتاب الله دغلاً ، فإذا بلغوا سبعة وتسعين وأربعمائة ، كان هلاكهم أسرع من لوك نمرة » . فقال ابن عباس : اللهم نعم ؟ فلما أدبر مروان قال معاوية : أنشدك بالله يا ابن عباس أما تعلم أن رسول الله (ص) ذكر هذا فقال : « أبو الجبابرة الأربعة » . فقال ابن عباس : اللهم نعم . وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا القاسم بن الفضل ثنا يوسف بن مازن الراسبي قال : قام رجل إلى الحسين بن علي فقال : يا مسود وجوه المؤمنين ! فقال الحسين : لا تؤذيني رحمك الله ، فان رسول الله (ص) رأى بني أمية يخطبون على منبره رجلاً رجلاً ففساه ذلك فترلت [إنا أعطيناك الكوثر] وهو نهر في الجنة ، ونزلت [إنا أنزلناه

في ليلة القدر [السورة إلى قوله [خير من ألف شهر] مملكة بني أمية . قال : فحسبنا ذلك فإذا هو كما قال لا يزيد ولا ينقص . وقد رواه الترمذي عن محمود بن غيلان عن أبي داود الطيالسي ثم قال : غريب لا نعرفه إلا من حديث القاسم بن الفضل ، وهو ثقة وثقه يحيى القطان وابن مهدي . قال : وشيخه يوسف بن سعد ويقال يوسف بن مازن ، رجل مجحول ، ولا يعرف هذا بهذا اللفظ إلا من هذا الوجه . وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث القاسم بن الفضل الحداني ، وقد تكلمت على نكارة هذا الحديث في التفسير بكلام مبسوط ، وإنما يكون متجها إذا قيل إن دولتهم ألف شهر بأن نسقط منها أيام ابن الزبير ، وذلك أن معاوية يبيع به مستقلا بالملك في سنة أربعين ، وهي عام الجماعة حين سلم إليه الحسن بن علي الأمر بعد ستة أشهر من قتل علي ، ثم نالت الخلافة عن بني أمية في هذه السنة ، وهي سنة ثنتين وثلاثين ومائة ، وذلك ثنتان وتسعون سنة ، وإذا أسقط منها تسع سنين خلافة ابن الزبير بقي ثلاث وثمانون سنة ، وهي مباينة لما ورد في هذا الحديث ، ولكن ليس هذا الحديث مرفوعاً إلى النبي (ص) ، أنه فسر هذه الآية بهذا العدد ، وإنما هذا من قول بعض الرواة ، وقد تكلمنا على ذلك مطولا في التفسير ، وتقدم في الدلائل أيضا تقريره والله أعلم .

وقال علي بن المديني عن يحيى بن سعيد عن سفیان الثوري عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب أن رسول الله (ص) قال : « رأيت بني أمية يصعدون منبري فشق ذلك علي فأنزلت . إنا أنزلناه في ليلة القدر » فيه ضعف وإرسال . وقال أبو بكر بن أبي خيثمة : ثنا يحيى بن معين ثنا عبد الله بن نمير عن سفیان الثوري عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب في قوله [وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس] قال : رأى ناساً من بني أمية على المنابر فساء ذلك ، فقبل له : إنما هي دنيا يعطونها وتضمحل عن قليل فمضى عنه . وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع قال : لما أسرى برسول الله (ص) رأى فلاناً وهو من بعض بني أمية على المنبر يخطب الناس فشق ذلك عليه فأنزل الله [وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين] وقال مالك بن دينار : سمعت أبا الجوزاء يقول والله كبرن الله ملك بني أمية كما أعز ملك من كان قبلهم ، ثم لينزل ملكهم كما أذل ملك من كان قبلهم ، ثم تلا قوله تعالى [وتلك الأيام نداولها بين الناس] . وقال ابن أبي الدنيا : حدثني إبراهيم بن سعيد ثنا أبو أسامة ثنا عمر بن حمزة أخبرني عمر بن سيف مولى لعثمان بن عفان قال سمعت سعيد بن المسيب وهو يقول لأبي بكر بن سليمان بن أبي خيثمة - وذكروا بني أمية - فقال : لا يكون هلاكهم إلا بينهم . قالوا كيف ؟ قال : يهلك خلفاؤهم ويبقى شرارهم فيقتافسونها ، ثم يكثر الناس عليهم فيهلكونهم . وقال يعقوب بن سفیان : أنبأ أحمد بن محمد الأزرق ثنا الزنجبي عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله (ص) قال : « رأيت في النوم بني أبي

الحكم أو بنى أبي العاص ينزون على منبرى كما تنزو القردة : قال فاروى رسول الله (ص)، مستجمعا ضاحكا بعدها حتى توفي . قال أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى [لعنه الدارمى] : حدثنا مسلم بن إبراهيم ثنا سعيد بن زيد - أخو حماد بن زيد - عن علي بن الحكم البنائى عن أبي الحسن هو الحصى عن عمرو بن مرة - وكانت له صحبة - قال : جاء الحكم بن أبي العاص يستأذن على رسول الله (ص)، فعرف كلامه فقال : « ائذنوا له صبت عليه لعنة الله وعلى من يخرج من صلبه إلا المؤمنين وقليل مأم ، يشرفون فى الدنيا ويوضعون فى الآخرة ، ذرو دهاه وخديعة ، يعطون فى الدنيا وما لهم فى الآخرة من خلاق » .

وقال أبو بكر الخطيب البغدادى : أنبأ أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن محمد أنبأ محمد بن المظفر الحافظ أنبأ أبو القاسم تمام بن خريم بن محمد بن مروان الدمشقى أنبأ أحمد بن إبراهيم بن هشام بن ملابس ثنا أبو النضر إسحاق بن إبراهيم بن يزيد [مولى أم الحكم بنت عبد العزيز ، حدثنا يزيد] ^(١) بن ربيعة حدثنا أبو الأشعث الصنعائى عن ثوبان قال : « كان رسول الله (ص)، نائماً واضعاً رأسه على نخذ أم حبيبة بنت أبى سفيان ، فحب ثم تبسم ، فقالوا : يا رسول الله رأيناك نجت ثم تبسمت ، فقال : رأيت بنى أمية يتعاورون على منبرى فساءنى ذلك ، ثم رأيت بنى العباس يتعاورون على منبرى فسررت ذلك » . وقال يعقوب بن سفيان : حدثنى محمد بن خالد بن العباس ثنا الوليد بن مسلم حدثنى أبو عبد الله عن الوليد بن هشام المعيطى عن أبان بن الوليد عن عقبة بن أبى معيط . قال : قدم ابن عباس على معاوية وأنا حاضر فأجازه فأحسن جائزته ، ثم قال : يا أبا العباس ! هل يكون لكم دولة ؟ فقال : اعفنى يا أمير المؤمنين ، فقال : لتخبرنى ، قال نعم ! قال فمن أنصاركم ؟ قال : أهل خراسان . ولبنى أمية من بنى هاشم نطحات .

وقال المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبیر : سمعت ابن عباس يقول : يكون منا ثلاثة أهل البيت السفاح ، والمنصور ، والمهدى . رواه البيهقى من غير وجه ، ورواه الأعمش عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعاً . وروى ابن أبى خيثمة عن ابن معين عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن أبى معبد عن ابن عباس قال : كما افتتح الله بأولنا فأرجو أن يفتحنا بنا . وهذا إسناد صحيح إليه ، وكذا وقع ويقع للمهدى إن شاء الله . وروى البيهقى عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن أبى معاوية عن الأعمش عن عطية عن أبى سعيد . قال قال رسول الله (ص) : « يخرج رجل من أهل بيتى عند انقطاع من الزمان وظهور من الفتن ، يقال له السفاح ، يعطى المال حثياً » . وقال عبد الرزاق : حدثنا الثورى عن خالد الحذاء عن أبى قلابة عن أبى أسماء عن ثوبان قال قال رسول

الله (س) : « يقتل عند حركتكم هذه ثلاثة كلهم ولد خليفة لا تصير إلى واحد منهم ، ثم تقبل الرايات من خراسان فيقتلونكم مقتلة لم ير مثلها . ثم ذكر شيئاً فإذا كان كذلك فأتوه ولو حبوا على الثلج ، فإنه خليفة الله المهدي » . ورواه بعضهم عن ثوبان فوقه وهو أشبه والله أعلم .

وقال الامام أحمد : حدثني يحيى بن غيلان وقتيبة بن سعيد قالا : ثنا راشد بن سعد حدثني يونس ابن يزيد عن ابن شهاب عن قبيصة هو ابن ذؤيب عن أبي هريرة عن رسول الله (س) : أنه قال : « يخرج من خراسان رايات سود لا بردها شيء حتى تنصب بابلها » . وقد رواه البيهقي في الدلائل من حديث راشد بن سعد المصري ، وهو ضعيف . ثم قال : قد روى قريباً من هذا عن كعب الأحبار وهو أشبه . ثم رواه عن كعب أيضاً قال : « تظهر رايات سود لبني العباس حتى ينزلوا الشام ، ويقتل الله على أيديهم كل جبار وعدو لهم » . وروى إبراهيم بن الحسين عن ابن أبي أويس عن ابن أبي ذؤيب عن محمد بن عبد الرحمن العامري عن سهل عن أبيه عن أبي هريرة . أن رسول الله (س) قال للعباس : « فيكم النبوة وفيكم المملكة » . وروى عبد الله بن أحمد عن ابن معين عن عبيد بن أبي قرة عن الليث عن أبي قبيل عن أبي ميسرة مولى العباس قال سمعت العباس يقول : كنت عند رسول الله (س) ذات ليلة فقال : « انظر هل ترى في السماء من شيء ؟ قلت : نعم ! قال : ما ترى ؟ قلت : الثريا ، قال : أما إنه سيملك هذه الأمة بعددها من صلبك » . قال البخاري : عبيد بن أبي قرة لا يتابع على حديثه . وروى ابن عدي من طريق سويد بن سعيد عن حجاج بن نعيم عن ميمون بن مهران عن ابن عباس قال : « مررت برسول الله (س) ، ومعه جبريل وأنا أظنه دحية الكلبي ، فقال جبريل لرسول الله (س) : إنه لو سخ الثياب ، وسيلبس ولده من بعده السواد » . وهذا منكر من هذا الوجه ، ولا شك أن بني العباس كان السواد من شعارهم ، أخذوا ذلك من دخول رسول الله (س) مكة يوم الفتح وعلى رأسه عمامة سوداء ، فأخذوا بذلك وجعلوه شعارهم في الأعياد والجمع والمحافل . وكذلك كان جندهم لا بد أن يكون على أحدهم شيء من السواد ، ومن ذلك الشربوش الذي يلبسه الأمراء إذا خلع عليهم . وكذلك دخل عبد الله بن علي دمشق يوم دخلها وعليه السواد ، فجعل النساء والعلمان يعجبون من لباسه ، وكان دخوله من باب كيسان . وقد خطب الناس يوم الجمعة وصلى بهم وعليه السواد . وقد روى ابن عساكر عن بعض الخراسانية قال : لما صلى عبد الله بن علي بالناس يوم الجمعة صلى إلى جاني رجل فقال : الله أكبر ، سبحانك اللهم وبمحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك ، أنظروا إلى عبد الله بن علي ما أقبح وجهه وأشنع سواده ! وشعارهم إلى يومك هذا كما تراه على الخطباء يوم الجمعة والأعياد .

استقهر أبي العباس السفاح

واستقلاله بالخلافة وما اعتمده في أيامه من السيرة الحسنة

قد تقدم أنه أول ما بويع له بالخلافة بالكوفة يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الآخر ، وقيل الأول من هذه السنة ، سنة ثنتين وثلاثين ومائة ، ثم جرد الجيوش إلى مروان فطردوه عن المملكة وأجلوه عنها ، وما زالوا خلفه حتى قتلوه ببوصير من بلاد الصعيد ، بأرض مصر ، في العشر الأخير من ذي الحجة من هذه السنة على ما تقدم بيانه ، وحينئذ استقل السفاح بالخلافة واستقرت يده على بلاد العراق وخراسان والحجاز والشام والديار المصرية ، خلا بلاد الأندلس ، فإنه لم يحكم عليها ولا وصل سلطانه إليها ، وذلك أن بعض من دخلها من بني أمية استحوذ عليها وملكها كما سيأتي بيانه . وقد خرج على السفاح في هذه السنة طوائف ، فمنهم أهل قنسرين بعد ما بایعوه على يدي عمه عبد الله بن علي وأقر عليهم أميرم مجزأة بن الكوثر بن زفر بن الحارث الكلبي ، وكان من أصحاب مروان وأمرائه ، نخلع السفاح ولبس البياض ، وحمل أهل البلد على ذلك فواقوه ، وكان السفاح يومئذ بالحيرة ، وعبد الله بن علي مشغول بالبلقاء يقاتل بها حبيب بن مرة المزني ومن واقفه من أهل البلقاء والبنية وحواران على خلع السفاح ، فلما بلغه عن أهل قنسرين ما فعلوا صالح حبيب بن مرة وسار نحو قنسرين ، فلما اجتاز بدمشق - وكان بها أهله وثقله - استخلف عليها أبا غانم عبد الحميد بن ربيعي الكناني في أربعة آلاف ، فلما جاوز البلد وانتهى إلى حصص ، نهض أهل دمشق مع رجل يقال له عثمان بن عبد الأعلى بن سراقه فخلعوا السفاح وبيضوا وقتلوا الأمير أبا غانم وقتلوا جماعة من أصحابه وانتهبوا ثقل عبد الله بن علي وحواصله ، ولم يتعرضوا لأهله . وتفانم الأمر على عبد الله وذلك أن أهل قنسرين ترأسوا مع أهل حصص وتزمروا واجتمعوا على أبي محمد السفياي ، وهو أبو محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، فبايعوه بالخلافة وقام معه نحو من أربعين ألفاً فقصدهم عبد الله بن علي فالتقوا بمرج الأخرم ، فاقتنلوا مع مقدمة السفياي وعليها أبو الورد فاقتنلوا قتلاً شديداً وهزموا عبد الصمد وقتل من الفريقين ألف ، فتقدم إليهم عبد الله بن علي ومعه حميد بن قحطبة فاقتنلوا قتلاً شديداً جداً ، وجعل أصحاب عبد الله يفرّون وهو ثابت هو وحميد . وما زال حتى هزم أصحاب أبي الورد ، وثبت أبو الورد في خمسمائة فارس من أهل بيته وقومه ، فقتلوا جميعاً وهرب أبو محمد السفياي ومن معه حتى لحقوا بتدمر ، وأمن عبد الله أهل قنسرين وسودوا وبايعوه ورجعوا إلى الطاعة ، ثم كر عبد الله راجعاً إلى دمشق وقد بلغه ما صنعوا ، فلما دنا منها تفرقوا عنها ولم يكن منهم قتال فأنسهم ودخلوا في الطاعة . وأما أبو محمد السفياي فإنه ما زال مضيقاً ومشتتاً حتى لحق بأرض الحجاز فقاتله

نائب أبي جعفر المنصور في أيام المنصور، قتلته وبث رأسه وبأذنين له أخذهما أسيرين فأطلقهما المنصور في أيامه. وقد قيل إن وقعة السفاح يوم الثلاثاء آخر يوم من ذى الحجة سنة ثنتين وثلاثين ومائة فله أعلم.

ومن خلع السفاح أيضا أهل الجزيرة حين بلغهم أن أهل قنسرين خلعوا، فواقفهم وبيضوا وركبوا إلى نائب حران من جهة السفاح - وهو موسى بن كعب - وكان في ثلاثة آلاف قد اعتصم بالبلد، فحاصروه قريبا من شهرين، ثم بث السفاح أخاه أبا جعفر المنصور فيمن كان بواسطة محاصري ابن هبيرة، فر في مسيره إلى حران بقرقيسيا وقد بيضوا فغلقوا أبوابها دونه، ثم مر بالركة وعليها بكار بن مسلم وهم كذلك، ثم مجازك وعليها إسحاق بن مسلم فيمن معه من أهل الجزيرة بمحاصرونها فرحل إسحاق عنها إلى الرها، وخرج موسى بن كعب فيمن معه من جند حران فتلقاه المنصور ودخلوا في جيشه، وقدم بكار بن مسلم على أخيه إسحاق بن مسلم بالرها فوجهه إلى جماعة ربيعة بدارا وماردين، ورئيسهم حروري يقال له بركة، فصارا حزبا واحداً، فقصده إليهم أبو جعفر فقاتلهم قتالا شديداً، فقتل بركة في المعركة، وهرب بكار إلى أخيه بالرها، فاستخلفه بها ومضى بمعظم العسكر [حتى نزل] سميساط وخذق على عسكره، وأقبل أبو جعفر فحاصر بكاراً بالرها، وجرت له معه وقعات. وكتب السفاح إلى عمه عبد الله بن علي أن يسير إلى سميساط وقد اجتمع على إسحاق بن مسلم ستون ألفاً من أهل الجزيرة، فسار إليهم عبد الله واجتمع إليه أبو جعفر المنصور، فكانتهم إسحاق وطلب منهم الأمان فأجابوه إلى ذلك، على إذن أمير المؤمنين. وولى السفاح أخاه أبا جعفر المنصور الجزيرة وأذربيجان وأرمينية، فلم يزل عليها حتى أفضت إليه الخلافة بعد أخيه، ويقال إن إسحاق بن مسلم العقيلي إنما طلب الأمان لما تحقق أن مروان قد قتل، وذلك بعد مضي سبعة أشهر وهو محاصر، وقد كان صاحباً لأبي جعفر المنصور قائماً.

وفي هذه السنة ذهب أبو جعفر المنصور عن أمر أخيه السفاح إلى أبي مسلم الخراساني وهو أميرها، ليستطلع رأيه في قتل أبي سلمة، لأنه كان يريد أن يصرف الخلافة عنهم، فيسأله هل ذلك كان عن مبالاة أبي مسلم لأبي سلمة في ذلك أم لا؟ فسكت القوم، فقال السفاح: لئن كان هذا عن رأيه إنا ليعمر بلاء عظيم، إلا أن يدفعه الله عنا. قال أبو جعفر فقال لي أخي: ما ترى؟ فقلت: الرأي رأيك. فقال: إنه ليس أحد أحص بأبي مسلم منك، فاذهب إليه فاعلم لي علمه، فإن كان عن رأيه احتلنا له، وإن لم يكن عن رأيه طابت أنفسنا. قال أبو جعفر: فخرجت إليه فاصداً على وجل. قال المنصور: فلما وصلت إلى الزرى إذا كتاب أبي مسلم إلى نائبها يستحثني إليه في المسير، فازددت وجلاً، فلما انتهيت إلى نيسابور إذا كتابه يستحثني أيضاً وقال لناثبها: لاندعه يفر ساعة

واحدة . فان أرضك بها خوارج ، فانشرحت لذلك فلما صرت من مرو على فرسخين ، خرج يتلقاني معه الناس ، فلما واجهني ترجل قبيل يدي ، فأمرته فركب . فلما دخلت مرو نزلت في داره فمكث ثلاثاً لا يسألني في أي شيء جئت ، فلما كان في اليوم الرابع سألني ما أقدمك ؟ فأخبرته بالأمر . فقال : أفعلمها أبو سلمة ؟ أنا أ كفيكموه . فدعا مرار بن أنس الضبي فقال : اذهب إلى الكوفة فحيث لقيت أبا سلمة فاقتله ، وافته في ذلك إلى رأى الامام . فقدم مرار الكوفة الهاشمية ، وكان أبو سلمة يسمر عند السفاح ، فلما خرج قتله مرار وشاع أن الخوارج قتلوه ، وغلقت البلد . ثم صلى عليه يحيى بن محمد بن علي أخو أمير المؤمنين ، ودفن بالهاشمية ، وكان يقال له وزير آل محمد . ويقال لأبي مسلم أمير آل محمد . قال الشاعر : -

إن الوزير وزير آل محمد * أودى فنّ يشنّك كان وزيراً

ويقال إن أبا جعفر إنما سار إلى أبي مسلم بعد قتل أبي سلمة وكان معه ثلاثون رجلاً على البريد ، منهم الحجاج بن أرقطاة ، وإسحاق بن الفضل الهاشمي ، وجماعة من السادات . ولما رجع أبو جعفر من خراسان قال لأخيه : لست بخليفة مادام أبو مسلم حياً حتى تقتله ، لما رأى من طاعة العساكر له ، فقال له السفاح : اكتبها فسكت . ثم إن السفاح بعث أخاه أبا جعفر إلى قتال ابن هبيرة بواسط ، فلما اجتاز بالحسن بن قحطبة أخذه معه ، فلما أحيط بابن هبيرة كتب إلى محمد بن عبد الله بن حسن ليبيّاع له بالخلافة فأبطأ عليه جوابه ، قال إلى مصالحة أبي جعفر ، فاستأذن أبو جعفر أخاه السفاح في ذلك فأذن له في المصالحة ، فكتب له أبو جعفر كتاباً بالصلح ، فمكث ابن هبيرة يشاور فيه العلماء أربعين يوماً . ثم خرج يزيد بن عمر بن هبيرة إلى أبي جعفر في ألف وثلاثمائة من البخارية ، فلما دنا من سرادق أبي جعفر همّ أن يدخل بفرسه فقال الحاجب سلام : انزل أبا خالد . فنزل . وكان حول السرادق عشرة آلاف من أهل خراسان ، ثم أذن له في الدخول فقال : أنا ومن معي ؟ قال : لا بل أنت وحدك ، فدخل ووضعت له وسادة فجلس عليها ، فحادثه أبو جعفر ساعة ثم خرج من عنده فأتبعه أبو جعفر بصره ، ثم جعل يأتيه يوماً بعد يوم في خمسمائة فارس وثلاثمائة راجل ، فشكوا ذلك إلى أبي جعفر فقال أبو جعفر للحاجب : مره فليأت في حاشيته ، فكان يأتي في ثلاثين نفساً ، فقال الحاجب : كأنك تأتي متأهباً^(١) ؟ فقال : لو أمرتموني بالمشي لمشييت إليكم ، ثم كان يأتي في ثلاثة أنفس . وقد خاطب ابن هبيرة يوماً لأبي جعفر فقال له في غبون كلامه : يا هناء - أو قال يا أيها المرء - ثم اعتذر إليه بأنه قد سبق لسانه إلى ذلك ، فأعفوه . وقد كان السفاح كتب إلى أبي مسلم يستشيريه في مصالحة ابن هبيرة فنهاه عن ذلك ، وكان السفاح لا يقطع أمراً دونه ، فلما وقع الصلح على يدي أبي جعفر لم يحب السفاح ذلك ولم يعجبه ، وكتب إلى أبي جعفر يأمره بقتله ، فراجعه أبو جعفر مراراً

لا يفيد ذلك شيئاً ، حتى جله كتاب السفاح أن اقتله لأمحالة لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم كيف يعطى الامان وينسك ؟ هذا فعل الجبارة وأقسم عليه في ذلك . فأرسل إليه أبو جعفر طائفة من الخراسانية فدخلوا عليه وعنده ابنه داود وفي حجره صبي صغير ، وحوله مواليه وحاجبه ، فدافع عنه ابنه حتى قتل وقتل خلق من مواليه ، وخلصوا إليه ، فألقى الصبي من حجره وخر ساجداً فقتل وهو ساجد ، واضطرب الناس ، فنادى أبو جعفر في الناس بالآمان إلا عبد الملك بن بشر وخاله ابن سلمة الخزومي وعمر بن ذر . فسكن الناس ثم استؤمن لبعض هؤلاء وقتل بعضاً .

وفي هذه السنة بعث أبو مسلم الخراساني محمد بن الأشعث إلى فارس وأمره أن يأخذ عمال أبي سلمة لخلال فيضرب أعناقهم ، ففعل ذلك . وفيها ولي السفاح أخاه يحيى بن محمد الموصل وأعمالها ، وولى عمه داود مكة والمدينة واليمن واليمامة ، وعزله عن الكوفة وولى مكانه عليها عيسى بن موسى ، وولى قضاءها ابن أبي ليلى ، وكان على نيابة البصرة سفيان بن معاوية المهلبى ، وعلى قضائها الحجاج ابن أرطاة ، وعلى السند منصور بن جمهور ، وعلى فارس محمد بن الأشعث . وعلى أرمينية وأذربيجان والجزيرة أبو جعفر المنصور ، وعلى الشام وأعمالها عبد الله بن علي عم السفاح ، وعلى مصر أبو عون محمد الملك بن يزيد . وعلى خراسان وأعمالها أبو مسلم الخراساني ، وعلى ديوان الخراج خالد بن برمك . وحج بالناس فيها داود بن علي .

ذكر من توفي فيها من الأعيان

مروان بن محمد بن مروان بن الحكم أبو عبد الملك الأموى ، آخر خلفاء بني أمية ، قتل في العشر الأخير من ذي الحجة من هذه السنة كما تقدم ذلك مبسوطاً ، ووزيره عبد الحميد بن يحيى بن سعد مولى بني عامر بن لؤى ، الكاتب البليغ الذى يضرب به المثل ، فيقال فتحت الرسائل بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد . وكان إماماً فى الكتابة وجميع فنونها ، وهو القدوة فيها . وله رسائل فى ألف ورقة ، وأصله من قيسارية ثم سكن الشام ، وتعلم هذا الشأن من سالم مولى هشام بن عبد الملك وكان يعقوب بن داود وزير المهدي يكتب بين يديه ، وعليه تخرج ، وكان ابنه إسماعيل بن عبد الحميد ماهراً فى الكتابة أيضاً ، وقد كان أولاً يعلم الصبيان ثم تقلبت به الأحوال أن صار وزيراً لمروان ، وقتله السفاح ومثل به ، وكان اللائق بمثله العفو عنه . ومن مستجاد كلامه : العلم شجرة ثمرها الألفاظ ، والفكر بحر لؤلؤه الحكمة . ومن كلامه وقد رأى رجلاً^(١) يكتب خطاً رديئاً فقال : أطل جلفة فلك وأمنها ، وحرّف قطنك وأمنها . قال الرجل : ففعلت ذلك فجاء خطى . وسأله رجل أن يكتب له كتاباً إلى بعض الأكارب بوصيه به ، فكتب إليه : حق موصل كتابى إليك كحقة على

(١) هو ابراهيم بن جبلة

إذ رآك موضعاً لأمله ، ورآني أهلاً لحاجته ، وقد قضيت أنا حاجته فصديق أنت أمله . وكان كثيراً ما ينشد هذا البيت : —

إذا خرج الكتابُ كانَ دويهمُ * قسيّاً وأقلامُ القسي لها نبلا
وأبو سلمة حفص بن سليمان ، هو أول من وُزر لآل العباس ، قتله أبو مسلم بالأندلس من أمر
السفاح ، بعد ولايته بأربعة أشهر ، في شهر رجب . وكان ذا هيئة فاضلة حسن المفاكة ، وكان السفاح
يأنس به ويحب مسامحته لطيب محضرته ، ولكن توم ميده لآل على فُدى أبو مسلم عليه من قتله
غيلة كما تقدم ، فأُشيد السفاح عند قتله :

إلى النارِ فليذهبْ ومن كانَ مثلهُ * على أي شيءٍ فأتينا منه نأسفُ
كان يقال له وزير آل محمد ، ويعرف بالخلال ، لسكناه بدرب الخلالين بالكوفة ، وهو أول من
مضى بالوزير ، وقد حكى ابن خلكان عن ابن قتيبة أن اشتقاق الوزير من الوزر وهو العمل ، فكان
السلطان عمله أنفقاً لاستناده إلى رأيه ، كما يلجأ الخائف إلى جبل يمتصم به .
ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين ومائة

فيها ولي السفاح عمه سليمان البصرة وأعمالها ، وكوردجلة والبحرين وعمان . ووجه عمه إسماعيل
ابن علي إلى كور الأهواز . وفيها قتل داود بن علي من بمكة والمدينة من بني أمية ، وفيها توفي داود
ابن علي بالمدينة في شهر ربيع الأول ، واستخلف ابنه موسى على عمله ، وكانت ولايته على الحجاز
ثلاثة أشهر ، فلما بلغ السفاح موته استناب على الحجاز خاله زياد بن عبيد الله بن عبد الدار الحارثي ،
وولي اليمن لابن خاله محمد بن يزيد بن عبيد الله بن عبد الدار ، وجعل إمرة الشام لعميه عبد الله
وصالح بن علي ، وأقر أبا عون على الديار المصرية نائباً ، وفيها توجه محمد بن الأشعث إلى إفريقية
فقاتلهم قتالاً شديداً حتى فتحها . وفيها خرج شريك بن شيخ المهرى ببخارى على أبي مسلم وقال :
ما على هذا يا بني آل محمد ، على سفك الدماء وقتل الأنفس ؟ واتبعه على ذلك نحو من ثلاثين ألفاً ،
فبعث إليه أبو مسلم زياد بن صالح الخزازي فقاتله فقتله .

وفيها عزل السفاح أخاه يحيى بن محمد عن الموصل ، وولى عليه عمه إسماعيل . وفيها ولي الصائفة
من جهة صالح بن علي بن سعيد بن عبيد الله وغزا ما وراء الدروب . وحج بالناس خال السفاح زياد
ابن عبيد الله بن عبد الدار الحارثي . ونواب البلاد هم الذين كانوا في التي قبلها سوى من ذكرنا أنه
عزل .
ثم دخلت سنة أربع وثلاثين ومائة

فيها خلع بسام بن إبراهيم بن بسام الطاعة وخرج على السفاح ، فبعث إليه خازم بن خزيمه
فقاتله فقتل عامة أصحابه ، واستباح عسكره . ورجع فريلاً من بني عبد الدار أحوال السفاح فسألم

عن بعض ما فيه أصره للخليفة ، فلم يردوا عليه ، واستهانوا به ، وأمر بضرب أعناقهم - وكانوا قريباً من عشرين رجلاً ومثلهم من مواليهم - فاستمدى بنو عبد الدار على خازم بن خزيمة إلى السفاح ، وقالوا : قتل هؤلاء بلا ذنب ، فهم السفاح بقتله فأشار عليه بعض الأمراء بأن لا يقتله ولكن ليبعته مبعثاً صعباً ، فإن سلم فذاك ، وإن قتل كان الذي أراد . فبعته إلى عمان وكان بها طائفة من الخوارج قد تمردوا وجيز معه سبعمائة رجل ، وكتب إلى عمه سليمان بالبصرة أن يحملهم في السفن إلى عمان ففعل ، فقاتل الخوارج فكسروهم وقهرهم وأستحوذ على ما هناك من البلاد ، وقتل أمير الخوارج الصفريه وهو الجلندي ، وقتل من أصحابه وأنصاره نحواً من عشرة آلاف ، وبعث برؤسهم إلى البصرة ، فبعث بها نائب البصرة إلى الخليفة . ثم بعد أشهر كتب إليه السفاح أن يرجع فرجع سالماً غانماً منصوراً .

وفيها غزا أبو مسلم بلاد الصغد وغزا أبو داود أحد نواب أبي مسلم بلاد كش ، فقتل خلقاً كثيراً وغنم من الأواني الصينية المنقوشة بالذهب شيئاً كثيراً جداً . وفيها بعث السفاح موسى ابن كعب إلى منصور بن جمهور وهو بالهند في اثني عشر ألفاً ، فالتقاه موسى بن كعب وهو في ثلاثة آلاف فهزمه واستباح عسكره . وفيها مات عامل اليمن محمد بن يزيد بن عبد الله بن عبد الدار ، فاستخلف السفاح عليها عمه ، وهو خال الخليفة . وفيها تحول السفاح من الحيرة إلى الأنبار وحج بالناس نائب الكوفة عيسى بن موسى ، ونواب الأقاليم هم م . وفيها توفي من الأعيان أبو هارون العبدي ، وعمارة بن جوين ، وبزید بن یزید بن جابر الدمشقي والله أعلم .

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين ومائة

فيها خرج زياد بن صالح من وراء نهر بليخ إلى أبي مسلم فأظفره الله بهم فبدد شملهم واستقر أمرهم بتلك النواحي . وحج بالناس فيها سليمان بن علي نائب البصرة . والنواب هم المذكورون قبلها . ومن توفي فيها من الأعيان : يزيد بن سنان ، وأبو عقيل زهرة بن معبد ، وعطاء الخراساني

ثم دخلت سنة ست وثلاثين ومائة

فيها قدم أبو مسلم من خراسان على السفاح ، وذلك بعد استئذانه الخليفة في القدوم عليه ، فكتب إليه أن يقدم في خمسمائة من الجند ، فكتب إليه : إني قد وترت الناس ، وإني أخشى من قلة الحسمائة . فكتب إليه أن يقدم في ألف ، فقدم في ثمانية آلاف ، فرقمهم وأخذ معه من الأموال والتحف والهدايا شيئاً كثيراً . ولما قدم لم يكن معه سوى ألف من الجند ، فقلقه القواد والأمراء إلى مسافة بعيدة . ولما دخل على السفاح أكرمه وعظمه واحترمه وأنزله قريباً منه ، وكان يأتي إلى

الخليفة كل يوم ، واستأذن الخليفة في الحج فأذن له ، وقال : لولا أني عيذت الحج لأخى أبي جعفر لأمرتك على الحج . وكان الذي بين أبي جعفر وأبي مسلم خراباً وكان يبغضه ، وذلك لما رأى ما هو فيه من الحرمة حين قدم عليه نيسابور في البيعة للسفاح والمنصور بعده ، فخاف في أمره لذلك ، فخذ عليه المنصور وأشار على السفاح بقتله ، فأمره بكتن ذلك . وحين قدم أمره بقتله أيضاً وحرضه على ذلك ، فقال له السفاح : قد علمت بلاءه معنا وخدمته لنا فقال أبو جعفر : يا أمير المؤمنين إنما ذلك بدواتنا ، والله لو أرسلت سنوراً لسمعوا لها وأطاعوا ، وإنك إن لم تتعش به تغدى بك هو ، فقال له : كيف السبيل إلى ذلك ؟ فقال : إذا دخل عليك فخادته ثم أجيء أنا من وراءه فأضربه بالسيف . قال : كيف بمن معه ؟ قال : هم أذل وأقل . فأذن له في قتله ، فلما دخل أبو مسلم على السفاح ندم على ما كان أذن لأخيه فيه ، فبعث إليه الخادم يقول له : إن ذاك الذي بينك وبينه ندم عليه فلا تفعله . فلما جاءه الخادم وجده محتبياً بالسيف قد تهيأ لما يريد من قتل أبي مسلم . فلما نهاه عن ذلك غضب أبو جعفر غضباً شديداً . وفيها حج بالناس أبو جعفر المنصور عن ولاية أخيه السفاح ، وسار معه إلى الحجاز أبو مسلم الخراساني عن أمر الخليفة ، وأذن له في الحج ، فلما رجعا من الحج وكانا بذات عرق جاء الخبر إلى أبي جعفر - وكان يسير قبل أبي مسلم بحملة - بموت أخيه السفاح ، فكتب إلى أبي مسلم أن قد حدث أمر فاجعل العجل ، فلما استعلم أبو مسلم الخبر عجل السير وراءه ، فلحقه إلى الكوفة . وكانت بيعة المنصور على ماسياتي بيانه وتفصيله قريباً والله سبحانه وتعالى أعلم .

ترجمة أبي العباس السفاح أول خلفاء بني العباس

هو عبد الله السفاح - ويقال له المرتضى ، والقاسم أيضاً - ابن محمد بن الامام ابن علي السجاد ابن عبد الله الحبر ابن العباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي أمير المؤمنين ، وأمه ريطة - ويقال رايطه - بنت عبيد الله بن عبد الله بن عبد الدار الحارثي ، كان مولد السفاح بالحيمية من أرض الشراء من البلقاء بالشام ، ونشأ بها حتى أخذ مروان أخاه إبراهيم الامام فانتقلوا إلى الكوفة . بويع له بالخلافة بعد مقتل أخيه في حياة مروان يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول بالكوفة كما تقدم . وتوفي بالجدرى بالأنبار يوم الأحد الحادي عشر ، وقيل الثالث عشر من ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة ، وكان عمره ثلاثاً ، وقيل ثنتين ، وقيل إحدى وثلاثين سنة ، وقيل ثمان وعشرين سنة . قاله غير واحد . وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر ، وكان أبيض جميلاً طويلاً ، أفتى الأنف ، جمع الشعر ، حسن اللحية ، حسن الوجه ، فصيح الكلام ، حسن الرأي ، جيد البديهة . دخل عليه في أول ولايته عبد الله بن حسن بن حسن بن علي ومعه مصحف وعند السفاح وجوه بني هاشم من أهل بيته وغيرهم ، فقال له : يا أمير المؤمنين اعطنا حقنا الذي جعله الله لنا في هذا

المصحف . قال : فأشفق عليه الحاضرون أن يجعل السفاح عليه بشئ أو يترك جوابه فيبقى ذلك مسبة عليه وعليهم . فأقبل السفاح عليه غير مغضب ولا منزعج ، فقال : إن جديك علياً كان خيراً مني وأعدل ، وقد ولي هذا الأمر فأعطى جديك الحسن والحسين وكانا خيراً منك ، شيناً قد أعطيتك وزدتك عليه ، فما كان هذا جزائي منك . قال : فما رد عليه عبد الله بن حسن جواباً ، وتعجب الناس من سرعة جوابه وجدته وجودته على البدئية .

وقد قال الإمام أحمد في مسنده : حدثنا عثمان بن أبي شيبة ثنا جرير عن الأعمش عن عطية الوفي عن أبي سعيد الخدري . قال قال رسول الله (ص) : « يخرج عند انقطاع من الزمان وظهور من الفتن رجل يقال له السفاح ، يكون إعطاؤه المال حشياً ، وكذا رواه زائدة وأبو معاوية عن الأعمش به . وهذا الحديث في إسناد عطية الوفي وقد تكلموا فيه . وفي أن المراد بهذا الحديث هذا السفاح نظر والله أعلم . وقد ذكرنا فيما تقدم عند زوال دولة بني أمية أخباراً وآثاراً في مثل هذا المعنى . وقال الزبير بن بكار : حدثني محمد بن سلمة بن محمد بن هشام أخبرني محمد بن عبد الرحمن المخزومي حدثني داود بن عيسى عن أبيه عن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس - وهو والد السفاح - قال : دخلت على عمر بن عبد العزيز وعنده رجل من النصارى فقال له عمر : من تجدون الخليفة بعد سليمان ؟ قال له : أنت . فأقبل عمر بن عبد العزيز عليه فقال له : زدني من بيانك . فقال ثم آخر ، إلى أن ذكر خلافة بني أمية إلى آخرها . قال محمد بن علي : فلما كان بعد ذلك جمعت ذلك النصراني في بالي فرأيت يوماً فأمرت غلامي أن يحبسه علي ، وذهبت إلى منزلي فسألته عما يكون في خلفاء بني أمية فذكرهم واحداً واحداً ، وتجاوز عن مروان بن محمد . قلت : ثم من ؟ قال : ثم ابن الحارثية ، وهو ابنك . قال : وكان ابني ابن الحارثية إذ ذاك حملاً . قال ووفد أهل المدينة على السفاح فبادروا إلى تقبيل يده غير عمران بن إبراهيم بن عبد الله بن مطيع العدوي ، فانه لم يقبل يده ، وإنما حياه بالخلافة فقط . وقال : والله يا أمير المؤمنين لو كان تقبيلها يزيدك رفعة ويزيدني وسيلة إليك ماسبقني إليها أحد من هؤلاء ، وإني لغني عما لا أجر فيه ، وربما قادنا عمله إلى الوزر ثم جلس . قال : فوالله ما نقصه ذلك عنده حظاً من حظ أصحابه ، بل أحبه وزاده . وذكر القاضي المعافى بن زكريا أن السفاح بعث رجلاً ينادي في عسكر مروان بهنين البيتين ليلاً ثم رجع :

يَا آلَ مروانَ إِنَّ اللهَ مهلككم * ومبديلُ أَمْنِكُمْ خوفاً وتشريداً

لا عمرَ اللهَ مِنْ أنْسالكم أحداً * وبشكم في بلادِ الخوفِ تطريداً

وروى الخطيب البغدادي أن السفاح نظر يوماً في المرأة - وكان من أجهل الناس وجها - فقال :

اللهم لا أقول كما قال سليمان بن عبد الملك : أنا الخليفة الشاب ؛ ولكن أقول : اللهم عمرني طويلاً في

طاعتك ممتناً بالعافية . فلما استتم كلامه حتى سمع غلاماً يقول لا آخر : الأجل بيني وبينك شهران وخمسة أيام . فتطير من كلامه وقال : حسبي الله لا قوة إلا بالله عليه توكلت وبه أستعين . فمات بعد شهرين وخمسة أيام . وذكر محمد بن عبد الله بن مالك الخزازي أن الرشيد أمر ابنه أن يسمع من إسحاق بن عيسى بن علي ما يرويه عن أبيه في قصة السفاح ، فأخبره عن أبيه عيسى أنه دخل على السفاح يوم عرفة بكرة فوجده صائماً ، فأمره أن يحادثه في يومه هذا ثم يختم ذلك بفطره عنده . قال : فحادثته حتى أخذته الزوم فقامت عنه . وقلت : أقبل في منزلي ثم أجيء بعد ذلك . فذهبت فتمت قليلاً ثم قمت فأقبلت إلى داره فإذا على بابه بشير يبشر بفتح السند ويبيعهم للخليفة وتسليم الأمور إلى نوابه . قال : فحمدت الله الذي وفقني في الدخول عليه بهذه البشارة ، فدخلت الدار فإذا بشير آخر معه بشارة بفتح إفريقية ، فحمدت الله فدخلت عليه فبشرته بذلك وهو يسرح لحيته بعد الوضوء ، فسقط المشط من يده ثم قال : سبحان الله ، كل شيء بآئد سواء ، نعمت والله إلى نفسي ، حدثني إبراهيم الإمام عن أبي هشام عن عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب عن رسول الله (ص) ، أنه قال : « يقدم على في مدينتي هذه وافدان وافتد السند والآخر وافتد إفريقية بسمعهم وطاعتهم ويبيعهم ، فلا يمضي بعد ذلك ثلاثة أيام حتى أموت . قال : وقد أتاني الوافدان فأعظم الله أجرك يا عم في ابن أخيك . فقلت : كلا ، يا أمير المؤمنين إن شاء الله . قال بلى إن شاء الله ! لئن كانت الدنيا حبيبة إلي فلا آخرة أحب إلي ، ولقاء ربي خير لي ، وصحة الرواية عن رسول الله بذلك أحب إلي منها ، والله ما كذبت ولا كُذبت . ثم نهض فدخل منزله وأمرني بالجلوس ، فلما جاء المؤذن يعلمه بوقت الظهر خرج الخادم يعلمني أن أصلي عنه ، وكذلك العصر والمغرب والعشاء ، وبث هناك ، فلما كان وقت السحر أتاني الخادم بكتاب معه يأمرني أن أصلي عنه الصبح والعيد ثم أرجع إلى داره ، وفيه يقول : يا عم إذا مت فلا تعلم الناس بموتى حتى تقرأ عليهم هذا الكتاب فيبأيعوا لمن فيه . قال : فصليت بالناس ثم رجعت إليه فإذا ليس به بأس ، ثم دخلت عليه من آخر النهار فإذا هو على حله غير أنه قد خرجت في وجهه جبتان صغيرتان ، ثم كبرتاه ، ثم صار في وجهه حب صفار بيض يقال إنه جدري ، ثم بگرت إليه في اليوم الثاني فإذا هو قد هجر وذهبت عنه معرفتي ومعرفة غيري ، ثم رجعت إليه بالعشي فإذا هو انتفخ حتى صار مثل الزق ، وتوفي اليوم الثالث من أيام التشريق ، فسجنته كما أمرني ، وخرجت إلى الناس فقرأت عليهم كتابه فلما فيه : من عبد الله أمير المؤمنين إلى الأولياء وجماعة المسلمين ، سلام عليكم أما بعد فقد قلد أمير المؤمنين الخلافة عليكم بعد وفاته أخاه فاسمعوا وأطيعوا ، وقد قلدها من بعده عيسى بن موسى كإن كان . قال : فاختلف الناس في قوله « إن كان » قيل إن كان أهلاً لها . وقال آخرون إن كان حياً . وهذا القول الثاني هو الصواب ، ذكره الخطيب

وابن عساكر مطولا . وهذا ملخص منه . وفيه ذكر الحديث المرفوع وهو منكر جداً . وذكر ابن عساكر أن الطبيب دخل عليه فأخذ بيده فأنشأ يقول عند ذلك :

انظر إلى ضعف الحرا * كـ وذله بعد السكون * ينبئك أن بيانه * هذا مقدمة المنون
فقال له الطبيب : أنت صالح . فأنشأ يقول :

يبدشني باني ذو صلاح * بين له وبى داء دفين * لقد أيقنت أنى غير باقر * ولا شك إذا وضع اليقين

قال بعض أهل العلم : كان آخر ما تكلم به السفاح : الملك لله الحى القيوم ، ملك الملوك ، وجبار الجبابرة . وكان نقش خاتمه الله ثقة عبد الله . وكان موته بالجدوى في يوم الأحد الثالث عشر من ذى الحجة سنة ست وثلاثين ومائة بالأبواب العتيقة ، عن ثلاث وثلاثين سنة . وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر على أشهر الأقوال . وصلى عليه عمه عيسى بن علي . ودفن في قصر الامارة من الأنبار . وترك تسع جبات وأربعة أقصه وخمس سراويلات وأربعة طيالة وثلاثة مطارف خز . وقد ترجمه ابن عساكر فذكر بعض ما أوردهاه والله أعلم .

ومن توفي فيها من الأعيان السفاح كما تقدم ، وأشعث بن سوار ، وجعفر بن أبي ربيعة ، وحصين ابن عبد الرحمن ، وزبيدة الراعي ، وزيد بن أسلم ، وعبد الملك بن عمير ، وعبد الله بن أبي جعفر ، وعطاء بن السائب . وقد ذكرنا تراجمهم في التكميل والله الحمد .

خلافة أبي جعفر المنصور

واسمه عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس

قد تقدم أنه لما مات السفاح كان في الحجاز قبلته موته وهو بذات عرق راجعا من الحج ، وكان معه أبو مسلم الخراساني ، فمجل السير وعزاه أبو مسلم في أخيه ، فبكي المنصور عند ذلك ، فقال له : أتبكي وقد جاءتك الخلافة ؟ أنا أكتفيكها إن شاء الله . فسرى عنه ، وأمر زياد بن عبيد الله أن يرجع إلى مكة واليا عليها ، وكان السفاح قد عزله عنها بالعباس بن عبد الله بن معبد بن عباس فأقره عليها . والنواب على أعمالهم حتى انساخت هذه السنة ، وقد كان عبد الله بن علي قدم على ابن أخيه السفاح الأنبار فأمره على الصائفة ، فركب في جيوش عظيمة إلى بلاد الروم ، فلما كان ببعض الطريق بلغه موت السفاح فكرر راجعا إلى حران ، ودعا إلى نفسه ، وزعم أن السفاح كان عهد إليه حين بعثه إلى الشام أن يكون ولي العهد من بعده ، فالتفت عليه جيوش عظيمة ، وكان من أمره ما سئله في السنة الآتية إن شاء الله تعالى .

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين ومائة

ذكر خروج عبد الله بن علي ابن أخيه المنصور

لما رجع أبو جعفر المنصور من الحج بعد موت أخيه السفاح ، دخل الكوفة فخطب بأهلها يوم

الجمعة وصلى بهم ، ثم ارتحل منها إلى الأنبار وقد أخذت له البيعة من أهل العراق وخراسان وسائر البلاد سوى الشام ، وقد ضبط عيسى بن علي بيوت الأموال والحواصل للمنصور حتى قدم ، فسلم إليه الأمر ، وكتب إلى عمه عبد الله بن علي يعلمه ب وفاة السفاح ، فلما بلغه الخبر نادى في الناس الصلاة جامعة ، فاجتمع إليه الأمراء والناس ، قرأ عليهم وفاة السفاح ، ثم قام فيهم خطيباً فذكر أن السفاح كان عهد إليه حين بعثه إلى مروان أنه إن كسره كان الأمر إليه من بعده ، وشهد له بذلك بعض أمراء العراق ، ونهضوا إليه فبايعوه ، ورجع إلى حران فسلمها من نائب المنصور بعد محاصرة أربدين ليلة ، وقتل مقاتل العنكي نائبها . فلما بلغ المنصور ما كان من أمر عمه بعث إليه أبا مسلم الخراساني ومعه جماعة من الأمراء وقد تحصن عبد الله بن علي بخران ، وأرصد عنده مما يحتاج إليه من الأطعمة والسلاح شيئاً كثيراً جداً ، فسار إليه أبو مسلم الخراساني وعلى مقدمته مالك بن هيثم الخزاعي ، فلما تحقق عبد الله قدوم أبي مسلم إليه خشى من جيش العراق أن لا يناصره ، فقتل منهم سبعة عشر ألفاً ، وأراد قتل حميد بن قحطبة فهرب منه إلى أبي مسلم ، فركب عبد الله بن علي فتزل نصيبين وخندق حول عسكره ، وأقبل أبو مسلم فتزل ناحية وكتب إلى عبد الله : إني لم أؤمر بقتالك ، وإنما بعثني أمير المؤمنين واليا على الشام فأنا أريدها . فخاف جنود الشام من هذا الكلام فقالوا : إنا نخاف على ذرارينا وديارنا وأموالنا ، فنحن نذهب إليها نمنعهم منه . فقال عبد الله : ويحكم ! والله إنه لم يأت إلا لقتالنا . فأبوا إلا أن يرتحلوا نحو الشام ، فتحول عبد الله من منزله ذلك وقصد ناحية الشام ، فنهض أبو مسلم فتزل موضعه وغور ما حوله من المياه - وكان موضع عبد الله الذي تحول منه موضعاً جيداً جداً - فاحتاج عبد الله وأصحابه فتزلوا في موضع أبي مسلم فوجدوه منزلاً رديئاً ، ثم أنشأ أبو مسلم القتال فخاربهم خمسة أشهر ، وكان على خيل عبد الله أخوه عبد الصمد بن علي ، وعلى ميمنته بكار بن مسلم العقيلي ، وعلى ميسرته حبيب بن سويد الأسدي . وعلى ميمنة أبي مسلم الحسن بن قحطبة ، وعلى ميسرته أبو نصر خازم بن خزيم ، وقد جرت بينهم وقعتات وقتل منهم جماعات في أيام نحسات ، وكان أبو مسلم إذا حمل يرتجز ويقول :

مَنْ كَانَ يَنْوِي أَهْلَهُ فَلَا رَجْعَ * فَرُّ مِنَ الْمَوْتِ وَفِي الْمَوْتِ وَقَعُ

وكان يعمل له عرش فيكون فيه إذا التقى الجيشان فما رأى في جيشه من خلل أرسل فأصلحه . فلما كان يوم الثلاثاء أو الأربعاء لسبع خلون من جمادى الآخرة التقوا فاقتتلوا قتالاً شديداً ، ففكر بهم أبو مسلم ! بعث إلى الحسن بن قحطبة أمير الميمنة فأمره أن يتحول بمن معه إلا القليل إلى الميسرة ، فلما رأى ذلك أهل الشام انحازوا إلى الميمنة بازاء الميسرة التي تعمرت ، فأرسل حينئذ أبو مسلم إلى القلب أن يحمل بمن بقي في الميمنة على ميسرة أهل الشام لمخطومهم ، فجاء أهل القلب

والمينة من الشاميين فحمل الخراسانيون على أهل الشام وكانت الهزيمة ، وانهرم عبد الله بن علي بعد تلوم ، واحتاز أبو مسلم ما كان في معسكرهم ، وأمن أبو مسلم بقية الناس فلم يقتل منهم أحداً ، وكتب إلى المنصور بذلك ، فأرسل المنصور مولاة أبا الخصيب ليحصى ما وجدوا في معسكر عبد الله ، فنضب من ذلك أبو مسلم الخراساني . واستوسقت الممالك لأبي جعفر المنصور ، ومضى عبد الله بن علي وأخوه عبد الصمد على وجهيهما ، فلما مرا بالرصافة أقام بها عبد الصمد ، فلما رجع أبو الخصيب وجده بها فأخذه معه مقيداً في الحديد فأدخله على المنصور فدفعه إلى عيسى بن موسى فاستأن له المنصور ، وقيل بل استأن له إسماعيل بن علي . وأما عبد الله بن علي فإنه ذهب إلى أخيه سليمان ابن علي بالبصرة فأقام عنده زماناً مختفياً ، ثم علم به المنصور فبعث إليه فسجنه [في بيت بني أسامة على الملح ثم أطلق عليه الماء فذاب الملح وسقط البيت على عبد الله فمات . وهذه من بعض دواهي المنصور والله سبحانه أعلم] ^(١) . فلبث في السجن سبع سنين ثم سقط عليه في البيت الذي هو فيه فمات كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى .

مرسلات أبي مسلم الخراساني

في هذه السنة أيضاً لما فرغ أبو مسلم من الحج سبق الناس بمرحلة فجاءه خبر السفاح في الطريق فكتب إلى أبي جعفر يعزيه في أخيه ولم يهنئه بالخلافة ، ولا رجع إليه . فنضب المنصور من ذلك مع ما كان قد أضمر له من سوء إذا أفضت إليه الخلافة ، وقيل إن المنصور هو الذي كان قد تقدم بين يدي الحج بمرحلة ، وأنه لما جاءه خبر موت أخيه كتب إلى أبي مسلم يستعجله في السير كما قدمنا . فقال لأبي أيوب : اكتب له كتاباً غليظاً ، فلما بلغه الكتاب أرسل يهنئه بالخلافة وانقمع من ذلك . وقال بعض الأمراء للمنصور : إنا نرى أن لا تجامعه في الطريق فإن معه من الجنود من لا يخالفه ، وهم له أهيب ، وعلى طاعته أحرص ، وليس معك أحد ، فأخذ المنصور برأيه ثم كان من أمره في مبايعته لأبي جعفر ما ذكرنا ، ثم بعثه إلى عمه عبد الله فكسره كما تقدم ، وقد بعث في غبون ذلك الحسن بن قحطبة لأبي أيوب كاتب رسائل المنصور يشافهه ويخبره بأن أبا مسلم منهم عند أبي جعفر ، فانه إذا جاءه كتاب منه يقرأه ثم يلوى شذقيه ويرى بالكتاب إلى أبي نصر ويضحكان استهزاء ، فقال أبو أيوب : إن تهمة أبي مسلم عندنا أظهر من هذا . ولما بعث أبو جعفر مولاة أبا الخصيب يقطن ليحتاط على ما أصيب من معسكر عبد الله من الأموال والجواهر الثمينة وغيرها ، غضب أبو مسلم فشم أبا جعفر ومم بأبي الخصيب ، حتى قيل له : إنه رسول فتركه ورجع . فلما قدم أخبر المنصور بما كان وبما تم به أبو مسلم من قتله ، فنضب المنصور وخشى أن يذهب أبو مسلم إلى

خراسان فيشق عليه تحصيله بعد ذلك ، وأن تحدث حوادث ، فكتب إليه مع يقطين إني قد ولنتك الشام ومصر وهما خير من خراسان . فابعث إلى مصر من شئت وأقم أنت بالشام ، لتكون أقرب إلى أمير المؤمنين ، إذا أراد لقاءك كنت منه قريباً . فغضب أبو مسلم وقال : قد ولاني الشام ومصر ، ولي ولاية خراسان ، فإذا أذهب إليها وأستخلف على الشام ومصر . فكتب إلى المنصور بذلك قلق المنصور من ذلك كثيراً . ورجع أبو مسلم من الشام قاصداً خراسان وهو عازم على مخالفة المنصور . فخرج المنصور من الأنبار إلى المدائن وكتب إلى أبي مسلم بالمسير إليه ، فكتب إليه أبو مسلم وهو على الزاب عازم على الدخول إلى خراسان : إنه لم يبق لأمر المؤمنين عدو إلا أمكنه الله منه ، وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء . فتحن نافرون من قربك ، حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت ، حريون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيد حيث يقارنها السلامة . فان أرضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك ، وإن أبيت إلا أن تعطى نفسك إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضنا بنفسى عن مقامات الذل والاهانة . فلما وصل الكتاب إلى المنصور كتب إلى أبي مسلم : قد فهمت كتابك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء المنشئة إلى ملوكهم الذين يتمنون اضطراب جبل الدولة لكثرة جرائمهم ، وإنما راحتهم في تبدد نظام الجماعة ، فلم سويت نفسك بهم وأنت في طاعتك ومناصحتك واضطلاعت بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به ، وليس مع الشريطة التي أوجبت منك سمع ولا طاعة ، وقد حمل أمير المؤمنين عيسى بن موسى إليك رسالة ليسكن إليها قلبك إن أصغيت إليها ، وأسأله أن يحول بين الشيطان ونزغاته وبينك ، فانه لم يجد باباً يفسد به نيتك أوكد عنده من هذا ولا أقرب من طبه من الباب الذي فتحه عليك . ويقال إن أبا مسلم كتب إلى المنصور : أما بعد فاني اتخنت رجلاً إماماً ودليلاً على ما افترض الله على خلقه ، وكان في محلة العلم نالاً وفي قرابته من رسول الله (ص) قريباً ، فاستجھلني بالقرآن فخره عن مواضع طمعاً في قليل قد تماهاه الله إلى خلقه ، وكان كالذي دلى بنرور ، وأمرني أن أجرد السيف وأرفع الرحمة ولا أقبل المندرة ولا أقبل العثرة ، ففعلت توطيداً لسلطانكم حتى عرفكم الله من كان يجهلهم ، وأطاعكم من كان عدوكم ، وأظهركم الله بي بعد الاخفاء والحقارة والذل ، ثم استغفرتني الله بالتوبة . فان يعف عني فقد عفا عني به ونسب إليه ، وإن يعاقبني فبما قدمت يداي ، وما الله بظلام للعبيد . ذكره المدائني عن شيوخه .

وبعث المنصور إليه جرير بن يزيد بن جرير بن عبد الله البجلي - وقد كان أوحده أهل زمانه - في جماعة من الأمراء ، وأمره أن يكلم أبا مسلم بالابن كلاماً يقدر عليه ، وأن يكون في جملة ما يكلمه به

انه يريد رفع قدرك وعلو منزلتك والاطلاقات لك ، فان جاء بهذا فذاك ، وإن أبى قتل هو برئ من العباس إن شقت العصا وذهبت على وجهك ليسدركك بنفسه وليقاتلك دون غيره ، ولو خضت البحر الخضم لخاضه خلفك حتى يدركك فيقتلك أو يموت قبل ذلك . ولا تفل له هذا حتى تئأس من مرجوعه بالتى هى أحسن فلما قدم عليه أمراء المنصور يحملون دخلوا عليه ولاموه فيما هم به من منابذة أمير المؤمنين ، وما هو فيه من مخالفته ، ورغبوه فى الرجوع إلى الطاعة ، فشاور ذوي الرأي من أمراء فكلهم نهاه عن الرجوع إليه ، وأشاروا بأن يقيم فى الرى فتكون خراسان تحت حكمه ، وجنوده طوعاً له ، فان استقام له الخليفة وإلا كان فى عز ومنة من الجند . فعند ذلك أرسل أبو مسلم إلى أمراء المنصور فقل لهم : ارجعوا إلى صاحبكم فليست ألقاه . فلما استأسوا منه قالوا له ذلك الكلام الذى كان المنصور أمرهم به . فلما سمع ذلك كسره جداً وقال قوموا عنى الساعة .

وكان أبو مسلم قد استخلف على خراسان أبا داود إبراهيم بن خالد ، فكتب إليه المنصور فى غيبة أبى مسلم حين اتهم : إن ولاية خراسان لك ما بقيت ، فقد وليتها وعزلت عنها أبا مسلم . فعند ذلك كتب أبو داود إلى أبى مسلم حين بلغه ما عليه من منابذة الخليفة : إنه ليس يليق بنا منابذة خلفاء أهل بيت رسول الله (ص) ، فارجع إلى إمامك سامعاً مطيعاً والسلام . فزاده ذلك كسراً أيضاً فبعث إليهم أبو مسلم : إني سأبعث إليه أبا إسحاق وهو ممن أثق به . فبعث أبا إسحاق إلى المنصور فأكرمه ووعدته بنبابة العراق إن هو رده . فلما رجع إليه أبو إسحاق قال له : ما وراءك ؟ قال : رأيتهم معظمين لك يعرفون قدرك . ففره ذلك وعزم على الذهاب إلى الخليفة ، فاستشار أميراً يقال له نيزك ، فنهاه ، فصمم على الذهاب ، فلما رآه نيزك عازماً على الذهاب تمثل بقول الشاعر : -

ما للرجال مع القضاء محالة * ذهب القضاء بحيلة الأقسام

ثم قال له : احفظ عنى واحدة . قال : وما هى ؟ قال : إذا دخلت عليه فاقتله ثم بايع من شئت بالخلافة فان الناس لا يخالفونك . وكتب أبو مسلم إلى المنصور يعلمه بقدمه عليه . قال أبو أيوب كاتب الرسائل : فدخلت على المنصور وهو جالس فى خباء شعر جالس فى مصلاه بعد العصر ، وبين يديه كتاب فالتقاء إلى فاذا هو كتاب أبى مسلم يعلمه بالقدوم عليه ، ثم قال الخليفة : والله لئن ملأت عيني منه لأقتله . قال أبو أيوب : قتل إنا لله وإنا إليه راجعون . وبت تلك الليلة لا يأتينى نوم ، أفكر فى هذه الواقعة ، وقلت : إن دخل أبو مسلم خائفاً ربما يبدو منه شر إلى الخليفة ، والمصلحة تقتضى أن يدخل آمنأ لئتمكن منه الخليفة . فلما أصبحت طلبت رجلاً من الأمراء وقلت له : هل لك أن تتولى مدينة كسكر فانها مغلّة فى هذه السنة ؟ فقال : ومن لى بذلك ؟ فقلت له : فاذهب إلى أبى مسلم فتلقاه فى الطريق فاطلب منه أن يولىك تلك البلد ، فان أمير المؤمنين يريد أن يولى ما وراء بابه

ويستريح لنفسه . واستأذنت المنصور له أن يذهب إلى أبي مسلم فأذن له ، وقال له : سلم عليه وقل له : إنا بالاشواق إليه . فسار ذلك الرجل - وهو سلمة بن فلان - ^(١) إلى أبي مسلم فأخبره بأشتياق الخليفة إليه ، فسرره ذلك وأشرح ، وإنما هو غرور ومكر به ، فلما سمع أبو مسلم بذلك عجل السير إلى منيته ، فلما قرب من المدائن أمر الخليفة القواد والأمراء أن يتلقوه ، وكان دخوله على المنصور من آخر ذلك اليوم ، وقد أشار أبو أيوب على المنصور أن يؤخر قتله في ساعته هذه إلى الغد ، فقبل ذلك منه . فلما دخل أبو مسلم على المنصور من العشي أظهر له الكرامة والتعظيم ، ثم قال : اذهب فأرح نفسك وادخل الحمام ، فإذا كان الغد فأتني . فخرج من عنده وجاءه الناس يسلمون عليه ، فلما كان الغد طلب الخليفة بعض الأمراء فقال له : كيف بلائي عنده ؟ فقال : والله يا أمير المؤمنين لو أمرتني أن أقتل نفسي لقتلتها . قال : فكيف بك لو أمرتك بقتل أبي مسلم ؟ قال : فوجم ساعة ثم قال له أبو أيوب : مالك لا تتكلم ؟ فقال قولة ضعيفة : أقتله . ثم اختار له من عيون الحرس أربعة فحرضهم على قتله ، وقال لهم : كونوا من وراء الرواق فإذا صفقت بيدي فاخرجوا عليه فاقتلوه . ثم أرسل المنصور إلى أبي مسلم رسلاً تترى يتبع بعضها بعضاً ، فأقبل أبو مسلم فدخل دار الخلافة ثم دخل على الخليفة وهو يتنسم ، فلما وقف بين يديه جعل المنصور يعاتبه في الذي صنع واحدة واحدة ، فيعتذر عن ذلك كله . ثم قال : يا أمير المؤمنين أرجو أن تكون نفسك قد طابت علي . فقال المنصور : أما والله ما زادني هذا إلا غيظاً عليك . ثم ضرب باحدى يديه على الأخرى فخرج عثمان وأصحابه فضربوه بالسيوف حتى قتلوه ولفوه في عباءة ثم أمر بالقائه في دجلة ، وكان آخر العهد به ، وكان مقتله في يوم الأربعاء لأربع بقين من شعبان سنة سبع وثلاثين ومائة .

وكان من جملة ما عاتبه به المنصور أن قال : كتبت إلى مرات تبدأ بنفسك ، وأرسلت تخطب عني أمينة ، وتزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن عباس إلى غير ذلك . فقال أبو مسلم : يا أمير المؤمنين لا يقال لي هذا وقد سمعت في أمركم بما علمه كل أحد . فقال : ويحك ! لو قامت في ذلك أمة سوداء لأئتمه الله لجدنا وحيطتنا . ثم قال : والله لأقتلك . فقال : استبقني يا أمير المؤمنين لأعدائك . فقال : وأي عدوى أعدى منك . ثم أمر بقتله كما تقدم : فقال له بعض الأمراء : يا أمير المؤمنين الآن صرت خليفة . ويقال إن المنصور أنشد عند ذلك :

فألفت عصاها واستقر بها النوى * كما قرَّ عينا بالاياب المسافر

وذكر ابن خلكان أن المنصور لما أراد قتل أبي مسلم تخير في أمره هل يستشير أحداً في ذلك أو يستبد هو به لتلاشييع وينشر ، ثم استشار واحداً من نصحاء أصحابه فقال : يا أمير المؤمنين

(١) كذا بالأصليين . وفي الطبري : سلمة بن سعيد بن جابر .

قال الله تعالى [لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدنا] فقال له : لقد أودعتها أذنًا واعية . ثم عزم على ذلك

زوجة النبي مسلم بن الحنفية

هو عبد الرحمن بن مسلم أبو مسلم صاحب دولة بني العباس ، ويقال له أمير آل بيت رسول الله ص ، وقال الخطيب : يقال له عبد الرحمن بن شيرون بن اسفنديار أبو مسلم المروزي ، صاحب الدولة العباسية ، بروى عن أبي الزبير وثابت البناني وإبراهيم وعبد الله ابني محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، زاد ابن عساكر في شيوخه محمد بن علي وعبد الرحمن بن حرملة وعكرمة مولى ابن عباس . قال ابن عساكر : روى عنه إبراهيم بن ميمون الصائغ ، وبشر والد مصعب بن بشر ، وعبد الله بن شبرمة وعبد الله بن المبارك وعبد الله بن منيب المروزي وقديد بن منيع صهر أبي مسلم . قال الخطيب : وكان أبو مسلم فاتكا ذا رأي وعقل وتدبير وحزم ، قتله أبو جعفر المنصور بالمدائن . وقال أبو نعيم الأصبهاني في تاريخ أصفهان : كان اسمه عبد الرحمن بن عثمان بن يسار ، قيل إنه ولد بأصفهان ، وروى عن السدي وغيره ، وقيل كان اسمه إبراهيم بن عثمان بن يسار بن سندوس ابن حوذون ، من ولد بزرجهر ، وكان يكنى أبا إسحاق ، ونشأ بالكوفة وكان أبوه أوصى به إلى عيسى ابن موسى السراج ، فحمله إلى الكوفة وهو ابن سبع سنين ، فلما بعثه إبراهيم بن محمد الامام إلى خراسان قال له : غير اسمك وكنيتك . فسمى عبد الرحمن بن مسلم ، واكتفى بأبي مسلم ، فسار إلى خراسان وهو ابن سبع عشرة سنة راكبا على حمار با كاف ، وأعطاه إبراهيم بن محمد نفقة ، فسفل خراسان وهو كذلك ، ثم آل به الحال حتى صارت له خراسان بأزمتها وحذافيرها ، وذكر أنه في ذهابه إليها عدا رجل من بعض الخانات فقطع ذنب حماره ، فلما تمكن أبو مسلم حمل ذلك المسكين دكا فكان بعد ذلك خرابا . وذكر بعضهم أنه أصابه سبي في صفرة وأنه اشتراه بعض دغاة بني العباس بأربعمائة درهم ، ثم إن إبراهيم بن محمد الامام استوهيه واشتراه فانتسب إليه وزوجه إبراهيم بنت أبي النجم إسماعيل الطائي ، أحد دعاةهم ، لما بعثه إلى خراسان ، وأصدقها عنه أربعمائة درهم فولدت لأبي مسلم بنتان إحداهما أسماء أعقت ، وفاطمة لم تعقب .

وقد تقدم ذكر كيفية استقلال أبي مسلم بأمور خراسان في سنة تسع وعشرين ومائة ، وكيف نشر دعوة بني العباس ، وقد كان ذا هيبة وصرامة وإقدام وتسرع في الأمور . وقد روى ابن عساكر بإسناده أن رجلا قام إلى أبي مسلم وهو يخطب فقال : ما هذا السواد الذي أرى عليك ؟ فقال . حدثني أبو الزبير عن جابر بن عبد الله « أن رسول الله ص ، دخل مكة يوم الفتح وعليه عمامة سوداء » . وهذه ثياب الهيبة وثياب الدولة . يا غلام اضرب عنقه . وروى من حديث عبد الله بن منيب عنه عن محمد بن علي عن أبيه عن جده عبد الله بن عباس . قال : قال رسول الله

« من أراد هوان قريش أهانه الله ». وقد كان إبراهيم بن ميمون الصائغ من أصحابه وجلسائه في زمن الدعوة ، وكان يعمده إذا ظهر أن يقيم الحدود ، فلما تمكن أبو مسلم ألح عليه إبراهيم ابن ميمون في القيام بما وعده به حتى أخرج ، فأمر بضرب عنقه ، وقال له : لم لا كنت تنكر على نصر بن سيار وهو يعمل أو اتى الخمر من الذهب فيبعثها إلى بنى أمية ؟ فقال له : إن أولئك لم يقر بوني من أنفسهم ويعمدوني منها ما وعدتني أنت . وقد رأى بعضهم لإبراهيم بن ميمون هذا منازل عالية في الجنة بصبره على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فانه كان آمراً ناهياً قائماً في ذلك ، فقتله أبو مسلم رحمه الله .

وقد ذكرنا طاعة أبي مسلم للسفاح واعتناؤه بأمره وامتناله مراسيمه ، فلما صار الأمر إلى المنصور استخف به واحتقره ، ومع هذا بعثه المنصور إلى عمه عبد الله إلى الشام فكسره واستنقذ منه الشام وردّها إلى حكم المنصور . ثم شمتت نفسه على المنصور وهم بقتله ، ففطن لذلك المنصور مع ما كان مبطناً له من البغضة ، وقد سأل أخاه السفاح غير مرة أن يقتله كما تقدم ذلك فأبى عليه ، فلما تولى المنصور مازال يماكره ويخادعه حتى قدم عليه فقتله . قال بعضهم : كتب المنصور إلى أبي مسلم أما بعد فانه يرين على القلوب ويطبع عليها المعاصي ، فع أيها الطائش ، وأفق أيها السكران ، وانقبه أيها النائم ، فانك مغرور بأضغاث أحلام كاذبة ، في برزخ دنيا قد غرت من كان قبلك وسم بها سواف القرون [هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا] وإن الله لا يمجزه من هرب ، ولا يفوته من طلب ، فلا تفتر بمن معك من شيعتي وأهل دعوتي ، فكأنهم قد صالوا عليك بعد أن صالوا معك ، إن أنت خلعت الطاعة وفارقت الجماعة وبدا لك من الله ما لم تكن تحتسب ، مهلاً ، احذر البغي أبا مسلم فانه من بغى واعتدى فحلى الله عنه ، ونصر عليه من يصصره لليدين والضم ، واحذر أن تكون سنة في الذين قد خلوا من قبلك ، ومثله لمن يأتي بعدك ، فقد قامت الحجة وأعذرت إليك ، وإلى أهل طاعتي فيك . قال تعالى [واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الفاوين]

فأجابه أبو مسلم : أما بعد فقد قرأت كتابك فرأيتك فيه للصواب مجانباً ، وعن الحق حائداً إذ تضرب فيه الأمثال على غير أشكالها ، وكتبت إلى فيه آيات منزلة من الله للكافرين ، وما يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، وإني والله ما انسلخت من آيات الله ، ولكنني يا عبد الله بن محمد كنت رجلاً متأولاً فيكم من القرآن آيات أوجبت لكم بها الولاية والطاعة ، فأعمت بأخوين لك من قبلك ثم بك من بعدهما ، فكنت لهما شيعة متدينين أحسبني هادياً مهتدياً ، وأخطأت في التأويل وقدماً أخطأ المتأولون ، وقد قال تعالى [وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على

نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم] وإن أخاك السفاح ظهر في صورة مهدي وكان ضالاً فأمرني أن أجرد السيف وأقتل بالظنة وأقدم بالشبهة وأرفع الرحمة ولا أقبل العثرة ، فوترت أهل الدنيا في طاعتكم ، وتوطئة سلطانكم ، حتى عرفكم الله من كان جهلكم . ثم إن الله سبحانه تداركني منه بالندم واستغفرتني بالتوبة ، فإن يدف عني ويصفرح فانه كان للأوابين غفورا ، وإن يعاقبني فبذنوبي وما ربك بظلام للعبيد .

فكتب إليه المنصور : أما بعد أيها المجرم العاصي ، فإن أخى كان إمام هدى يدعو إلى الله على بينة من ربه ، فأوضح لك السبيل ، وحملك على المنهج السديد ، فلو بأخي اقتديت لما كنت عن الحق حائداً ، وعن الشيطان وأوامره صادراً ، ولكنه لم يسبح لك أمران إلا كنت لأرشدكما تاركا ، ولأغواهما راكباً ، تقتل قتل الفراعنة ، وتبطش بطنش الجبابرة ، وتحكم بالجور حكم المفسدين ، وتبذر المال وتضعه في غير مواضعه فعل المسرفين ، ثم من خبرى أيها الفاسق أتى قد وليت موسى ابن كعب خراسان ، وأمرته أن يقيم بفسابور ، فإن أردت خراسان لتيك بمن معه من قوادى وشيعى ، وأنا موجه للقائك أقرانك ، فاجمع كيدك وأمرك غير مسدد ولا موفق ، وحسب أمير المؤمنين ومن اتبعه الله ونعم الوكيل .

ولم يزل المنصور يرأسه نارة بالرغبة وقارة بالرهبة ، ويستخف أحلام من حوله من الأمراء والزسل الذين يبعثهم أبو مسلم إلى المنصور ويمدحهم ، حتى حسنوا لأبى مسلم في رأيه القدوم عليه سوى أمير معه يقال له نيزك ، فانه لم يوافق على ذلك ، فلما رأى أبا مسلم وقد انقطع لهم أنشد عند ذلك البيت المتقدم ، وهو : بالرجال مع القضاء محالة * ذهب القضاء بحيلة الأقوام

وأشار عليه بأن يقتل المنصور ويستخلف بدله فلم يمكنه ذلك ، فانه لما قدم المدائن تلقاه الأمراء عن أمر الخليفة ، فما وصل إلا آخر النهار ، وقد أشار أبو أيوب كاتب الرسائل أن لا يقتله يومه هذا كما تقدم [فلما وقف بين يدى الخليفة أكرمه وعظمه وأظهر احترامه ، وقال : اذهب الليلة فأذهب عنك وعشاء السفر ثم ائتنى من الغد .] ^(١) فلما كان الغد أُرصد له من الأمراء من يقتله ، منهم عثمان بن نهيك ، وشبيب بن وراج ، فقتلوه كما تقدم . ويقال بل أقام أياماً يظهر له المنصور الاكرام والاحترام ، ثم نشق منه الوحشة فخاف أبو مسلم واستشفع بعيسى بن موسى واستجار به ، وقال : إني أخافه على نفسى . فقال : لا بأس عليك فانطلق فاني آت ورايك ، أنت في ذمتي حتى آتيك ، - ولم يكن مع عيسى خبر بما يريد به الخليفة - فجاء أبو مسلم يستأذن على المنصور فقالوا له : اجلس ههنا فان أمير المؤمنين يتوضأ ، فجلس وهو يود أن يطول مجلسه ليحجى عيسى بن موسى فأبطأ ، وأذن له الخليفة

فدخل عليه فجعل يعاتبه في أشياء صدرت منه فيعتذر عنها جيداً ، حتى قال له : فلم قتلتي سليمان بن كنيبر ، وإبراهيم بن ميمون ، وفلانا وفلانا ؟ قال : لأنهم عصوني وخالفوا أمرى . فغضب عند ذلك المنصور وقال : ويحك ! أنت تقتل إذا عصيت ، وأنا لا أقتلك وقد عصيتنى ؟ وصفق بيديه وكانت الإشارة بينه وبين المرصدين لقتله - ، فبادروا إليه ليقتلوه فضربه أحدهم فقطع حمائل سيفه ، فقال : يا أمير المؤمنين استبقنى لأعدائك ، فقال : وأى عدوى أعدي منك . ثم زجرهم المنصور فقطعوه قطعا ولفوه في عباءة ، ودخل عيسى بن موسى على إثر ذلك فقال : ما هذا يا أمير المؤمنين ؟ فقال : هذا أبو مسلم ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، فقال له المنصور : أحمد الله الذي هجمت على نعمة ، ولم تهجم على نعمة ، ففي ذلك يقول أبو دلالة : -

أبا مسلم ما غير الله نعمة * على عبدي حتى يغيرها العبد

أبا مسلم خوفتى القتل فانتخى * عليك بما خوفتى الأسد الورد

وذكر ابن جرير أن المنصور تقدم إلى عثمان بن نهيك وشبيب بن واثق وأبي حنيفة حرب بن قيس وآخر من الحرس أن يكونوا قريبا منه ، فإذا دخل عليه أبو مسلم وخطبه وضرب باحدى يديه على الأخرى فليقتلوه . فلما دخل عليه أبو مسلم قال له المنصور : ما فعل السيفان اللذان أصبتكما من عبد الله بن علي ؟ فقال : هذا أحدهما . فقال : أرنيه ، فناوله السيف فوضعه تحت ركبته ثم قال له : ما حملك على أن تكتب لأبي عبد الله السفاح تنهاه عن الموات ، أردت أن تعلمنا الدين ؟ قال : إني ظننت أن أخذه لا يحل ، فلما جاءني كتاب أمير المؤمنين علمت أنه وأهل بيته معدن العلم . قال : فلم تقدمت على في طريق الحج ؟ قال : كرهت اجتماعنا على الماء فيضر ذلك بالناس ، فتقدمت الناس الرفق . قال : فلم لا رجعت إلى حين أذاك خبر موت أبي العباس ؟ قال : كرهت التضيق على الناس في طريق الحج ، وعرفت أنا سنجتمع بالكوفة ، وليس عليك مني خلاف . قال : فجارية عبد الله بن علي أردت أن تتخذها لنفسك ؟ قال : لا ! ولكن خفت أن تضيع فحمتها في قبة ووكلت بها من يحفظها . ثم قال له : ألسنت الكاتب إلى تبدأ بنفسك والكاتب إلى تخطب آمنة بنت علي ؟ وزعم أنك ابن سليل بن عبد الله بن عباس ؟ هذا كله ويد المنصور في يده يمر كها ويقبلها ويمتد ، ثم قال له : فما حملك على مراغمتي ودخولك إلى خراسان ؟ قال : خفت أن يكون دخلك مني شيء فأردت أن أدخل خراسان وأكتب إليك بمنرى . قال : فلم قتلتي سليمان بن كنيبر وكان من نقبائنا ودعاتنا قبلك ؟ قال : أراد خلافي . فقال : ويحك وأنت أردت خلافي وعصيتنى ، قتلني الله إن لم أقتلك . ثم ضربه بعمود الخيمة وخرج إليه أولئك فضربه عثمان فقطع حمائل سيفه ، وضربه شبيب فقطع رجله ، وحمل عليه بقيتهم بالسيوف ، والمنصور يصيح : ويحكم اضربوه قطع الله أيديكم . ثم ذهبوه

وقطعوه قطعاً قطعاً ، ثم ألقى في دجلة . و يروى أن المنصور لما قتله وقف عليه فقال : رحمك الله أبا مسلم ، بايعتنا فبايعناك ، وعاهدتنا وعاهدناك ، ووفيت لنا فوفيناك ، وإنا بايعناك على أن لا يخرج علينا أحد في هذه الأيام إلا قتلناه ، فخرجت علينا فقتلناك ، وحكنا عليك حكك على نفسك لنا . ويقال إن المنصور قال : الحمد لله الذي أرانا يومك يا عدو الله . قال ابن جرير وقال المنصور عند ذلك : —

زعمت أن الدين لا يُقتضى * فاستوف بالكيل أبا مجرم
سقيت كأساً كنت تسقى بها * أمراً في الخلق من العلقم

ثم إن المنصور خطب في الناس بعد قتل أبي مسلم فقال : أيها الناس ، لا تنفروا أطيار النعم بترك الشكر ، فتحل بكم النقم ، ولا تسروا غش الأئمة فإن أحدا لا يسر منكم شيئا إلا ظهر في فلتات لسانه ، وصفحات وجهه ، وطوالع نظره وإنا لن نجعل حقوقكم ما عرقتم حقنا ، ولا ننسى الاحسان إليكم ما ذكرتم فضلنا ، ومن نازعنا هذا القميص أو طائنا أم رأسه ، حتى يستقيم رجالكم ، وترتدع عمالك . وإن هذا الغمر أبا مسلم بايع على أنه من ذكك بيعتنا وأظهر غشنا فقد أباحنا دمه ، فنكت وغدر وفجر وكفر ، فحكنا عليه لأنفسنا حكاه على غيره لنا ، وإن أبا مسلم أحسن مبتدياً وأساء منتهياً ، وأخذ من الناس بنا لنفسه أكثر مما أعطانا . ورجع قبيح باطنه على حسن ظاهره ، وعلمنا من خبث سريره وفساد نيته ما لو علم اللائم لنا فيه لما لام ، ولو اطلع على ما اطلعنا عليه منه لعذرنا في قتله ، وعنفنا في إمهاله ، وما زال ينقض بيعته ويخفر ذمته حتى أحل لنا عقوبته وأباحنا دمه ، فحكنا فيه حكاه في غيره من شق العصا ، ولم يمنعنا الحق له من إمضاء الحق فيه ، وما أحسن ما قال النابغة الذبياني للثعمان - يعني ابن المنذر :-

فإن أطاعك فأنعمه بطاعته * كما أطاعك والله على الرشدر
ومن عصاك فعاقبه معاقبة * تنهى الظلوم ولا تقعد على ضمير

وقد روى البيهقي عن الحاكم بسنده أن عبد الله بن المبارك سئل عن أبي مسلم أهو خير أم الحجاج ؟ فقال : لا أقول إن أبا مسلم كان خيراً من أحد ، ولكن كان الحجاج شراً منه ، قد اتهمه بعضهم على الاسلام ، ورموه بالزندقة ، ولم أرفيا ذكره عن أبي مسلم ما يدل على ذلك ، بل على أنه كان ممن يخاف الله من ذنوبه ، وقد ادعى التوبة فيما كان منه من سفك الدماء في إقامة الدولة العباسية والله أعلم بأمره .

وقد روى الخطيب عنه أنه قال : ارتديت الصبر ، وآثرت الكفاف ، وحالفت الأحزان والأشجان ، وشاخحت المقادير والأحكام ، حتى بلغت غاية همي ، وأدركت نهاية بغيي . ثم أنشأ يقول :

قد نلت بالعزم والكتان ما عجزت * عنه ملوك بني مروان إذ حشدوا
مازلت أضربهم بالسيف فاتقوا * من رقدة لم ينمها قبلهم أحد
وظفت أسمى عليهم في ديارهم * والقوم في ملكهم في الشام قد ردوا
ومن رعى غنماً في أرض مسبعة * ونام عنها تولى رعيها الأسد

وقد كان قتل أبي مسلم بالمداين يوم الأربعاء لسبع خلون ، وقيل لخمس بقين ، وقيل لأربع ،
وقيل لليلتين بقيتا من شعبان من هذه السنة - أعني سنة سبع وثلاثين ومائة - قال بعضهم : كان
ابتداء ظهوره في رمضان من سنة تسع وعشرين ومائة ، وقيل في شعبان سنة سبع وعشرين ومائة .
وزعم بعضهم أنه قتل ببغداد في سنة أربعين ، وهذا غلط من قائله ، فإن بغداد لم تكن بنيت بعد
كما ذكره الخطيب في تاريخ بغداد ، ورد هذا القول .

ثم إن المنصور شرع في تأليف أصحاب أبي مسلم بالأعطية والرغبة والرهبة والولايات ، واستدعى
أبا إسحاق - وكان من أعز أصحاب أبي مسلم - وكان على شرطة أبي مسلم ، وهم بضرب عنقه فقال : يا أمير
المؤمنين والله ما أمنت قط إلا في هذا اليوم ، وما من يوم كنت أدخل عليك إلا تحنطت ولبست
كفني . ثم كشف عن ثيابه التي تلى جسده فاذا هو محنط وعليه أذراع أكفان ، فرق له المنصور وأطلقه
وذكر ابن جرير أن أبا مسلم قتل في حروبه وما كان يتعاطاه لأجل دولة بني العباس ستائة ألف
صبراً زيادة عن من قتل بغير ذلك . وقد قال للمنصور وهو يماثبه على ما كان يصنعه : يا أمير المؤمنين
لا يقال لي هذا بعد بلائي وما كان مني . فقال له : يا ابن الخبيثة ، لو كانت أمة مكانك لأجرات
ناحيته ، إنما عملت ما عملت بدولتنا وبريحنا ، لو كان ذلك إليك لما وصلت إلى قبيل . ولما قتله
المنصور لف في كساء وهو مقطع إرباً إرباً ، فدخل عيسى بن موسى فقال : يا أمير المؤمنين أين أبو مسلم ؟
قال : قد كان هاهنا آنفاً . فقال : يا أمير المؤمنين قد عرفت طاعته ونصيحته ورأى إبراهيم الامام
فيه . فقال له : يا أنوك والله ما أعلم في الأرض عدواً أعدى لك منه ، هاهو ذاك في البساط . فقال :
إنا لله وإنا إليه راجعون . فقال له المنصور : خلع الله قلبك ! وهل كان لكم مكان أو سلطان أو أمر
أو نهى مع أبي مسلم ؟ ثم استدعى المنصور برؤس الأمراء فجعل يستشيرهم في قتل أبي مسلم قبل أن
يعلموا بقتله ، فكلهم يشير بقتله ، ومنهم من كان إذا تكلم أسر كلامه خوفاً من أبي مسلم لثلاثين قتله إليه ،
فلما أطلعهم على قتله أفرعهم ذلك وأظهروا سروراً كثيراً . ثم خطب المنصور الناس بذلك كما تقدم .
ثم كتب المنصور إلى نائب أبي مسلم على أمواله وحواصله بكتاب على لسان أبي مسلم أن
يقدم بجميع ما عنده من الحواصل والذخائر والأموال والجواهر ، وختم الكتاب بخاتم أبي مسلم
بكاله ، مطبوعاً بكل فص الخاتم ، فلما رآه الخازن استراب في الأمر ، وقد كان أبو مسلم تقدم إلى

خازنه أنه إذا جاءك كتابي فإن رأيته محتوماً بنصف الفص فامض لما فيه ، فإني إنما أختم بنصف فصه على كتيبي ، وإذا جاءك الكتاب محتوماً عليه بكامله فلا تقبل ولا تَمْض ما فيه . فامتنع عند ذلك خازنه أن يقبل ما بعث به المنصور ، فأرسل المنصور بعد ذلك إليه من أخذ جميع ذلك وقتل ذلك الرجل الخازن ، وكتب المنصور إلى أبي داود إبراهيم بن خالد بأمره خراسان كما وعده قبل ذلك عوضاً عن أبي مسلم .

وفي هذه السنة خرج سنباذ يطلب بدم أبي مسلم ، وقد كان سنباذ هذا مجوسياً تغلب على قومس وأصبهان ، ويسمى بغيروز اصبهيد ، فبعث إليه أبو جعفر المنصور جيشاً من عشرة آلاف فارس عليهم جهور بن مرار العجلي . فالتقوا بين همدان والري بالمقازة ، فهزم جهور لسنباذ وقتل من أصحابه ستين ألفاً وسبى ذراريهم ونساءهم ، وقتل سنباذ بعد ذلك فكانت أيامه سبعين يوماً . وأخذ ما كان استحوذ عليه من أموال أبي مسلم التي كانت بالري . وخرج في هذه السنة أيضاً رجل يقال له ملبد [بن حرملة الشيباني] في ألف من الخوارج بالجزيرة فجهز إليه المنصور جيوشاً متعددة كثيفة كلها تنفر منه وتنكسر ثم قاتله حميد بن قحطبة نائب الجزيرة ، فهزمه ملبد وتحصن منه حميد في بعض الحصون ثم صالحه حميد بن قحطبة على مائة ألف فدفعها إليه وقبلها ملبد وتقلع عنه . وحج بالناس في هذه السنة عم الخليفة اسماعيل بن علي بن عبد الله بن عباس قاله الواقدي . وكان نائب الموصل - يعني عم المنصور - وعلى نيابة الكوفة عيسى بن موسى ، وعلى البصرة سليمان ابن علي ، وعلى الجزيرة حميد بن قحطبة ، وعلى مصر صالح بن علي ، وعلى خراسان أبو داود إبراهيم ابن خالد ، وعلى الحجاز زياد بن عبد الله . ولم يكن للناس في هذه السنة صائفة لشغل الخليفة بسنباذ وغيره . ومن مشاهير من توفي فيها أبو مسلم الخراساني كما تقدم ، ويزيد بن أبي زياد أحد من تكلم فيه كما ذكرناه في التكميل ، والله سبحانه أعلم .

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين ومائة

فيها دخل قسطنطين ملك الروم ملطية عنوة فهدم سورها وعفا عن قدر عليه من مقاتلتها . وفيها غزا الصائفة صالح بن علي نائب مصر ، فبنى ما كان هدم ملك الروم من سور ملطية ، وأطلق لأخيه عيسى بن علي أربعين ألف دينار ، وكذلك أعطى لابن أخيه العباس بن محمد بن علي أربعين ألف دينار . وفيها بايع عبد الله بن علي الذي كسره أبو مسلم وانهزم إلى البصرة واستجار بأخيه سليمان بن علي ، حتى بايع للخليفة في هذه السنة ورجع إلى طاعته . ولكن حبس في سجن بغداد كما سيأتي . وفيها خلع جهور بن مرار العجلي الخليفة المنصور بعد ما كسر سنباذ واستحوذ على حواصله وعلى أموال أبي مسلم ، فقويت نفسه بذلك وظن أنه لا يقدر عليه بعد ، فأرسل إليه

الخليفة محمد بن الأشعث الخراساني في جيش كثيف فاقتلوا قتالا شديداً ، فهزم جهور وقتل عامة من معه ، وأخذ ما كان معه من الأموال والحواصل والذخائر ، ثم لحقوه فقتلوه . وفيها قتل الملبد الخارجي على يدي خازم بن خزيمه في ثمانية آلاف ، وقتل من أصحاب الملبد ما يزيد على ألف وانهمز بقيتهم .

قال الواقدي : وحج بالناس فيها الفضل بن علي ، والنواب فيها هم المذكورون بالتي قبلها

ومن توفي فيها من الأعيان زيد بن واقد ، والملاء بن عبد الرحمن ، وليث بن أبي سليم في قول ، وفيها كانت خلافة الداخل من بني أمية إلى بلاد الأندلس وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك بن مروان الهاشمي . قلت : ليس هو بهاشمي إنما هو من بني أمية ويسمى أمويا ، كان قد دخل إلى بلاد المغرب فراراً من عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس ، فاجتاز بمن معه من أصحابه الذين فروا معه يقوم يقتلون على عصبية البمانية والمضرية ، فبعث مولاه بدرأ إليهم فاستمالهم إليه فبايعوه ودخل بهم ففتح بلاد الأندلس واستحوذ عليها وانتزعها من نائبها يوسف بن عبد الرحمن ابن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري وقتله . وسكن عبد الرحمن قرطبة واستمر في خلافته في تلك البلاد من هذه السنة إلى سنة ثنتين وسبعين ومائة . فتوفي فيها وله في الملك أربع وثلاثون سنة وأشهر . ثم قام من بعده ولده هشام ست سنين وأشهر . ثم مات فولد بعده الحكم بن هشام ستا وعشرين سنة وأشهر . ثم مات . ثم ولي بعده ولده عبد الرحمن بن الحكم ثلاثا وثلاثين سنة ثم مات . ثم ولي بعده محمد بن عبد الرحمن بن الحكم ستا وعشرين سنة . ثم ابنه المنذر بن محمد ، ثم أخوه عبد الله بن محمد بن المنذر . وكانت أيامه بعد الثلاثمائة بدهر ، ثم زالت تلك الدولة كما سذكركم من زوال تلك السنون وأهلها وما قضوا فيها من النعيم والعيش الرغيد والنساء الحسان ثم انقضت تلك السنوات وأهلها كأنهم على ميعاد ، ثم أضحوا كأنهم ورق جف ألوت عليه الصبا والذبول

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين ومائة

فيها أكمل صالح بن علي بناء ملطية ثم غزا الصائفة على طريق الحدث ، فوغل في بلاد الروم ، وغزا معه أخته أم عيسى ولبابة ابنتا علي ، وكانتا نذرنا إن زال ملك بني أمية أن يجاهدا في سبيل الله عز وجل . وفيها كان الفداء الذي حصل بين المنصور وبين ملك الروم ، فاستنقذ بعض أسرى المسلمين ثم لم يكن للناس صائفة في هذه السنة إلى سنة ست وأربعين ، وذلك لاشتغال المنصور بأمر ابني عبد الله بن حسن كما سذكركم . ولكن ذكر بعضهم أن الحسن بن قحطبة غزا الصائفة مع عبد الوهاب بن إبراهيم الامام سنة أربعين فله أعلم .

وفيها وسع المنصور المسجد الحرام ، وكانت هذه السنة خصبة جداً - أي كثيرة الخصب فكان

يقال لها السنة الخصبية - وقيل إنما كان ذلك في سنة أربعين . وفيها غزل المنصور عمه سليمان عن إمرة البصرة ، فاخفى عبد الله بن علي وأصحابه خوفاً على أنفسهم ، فبعث المنصور إلى نائبه على البصرة ، وهو سفيان بن معاوية ، يستحثه في إحضار عبد الله بن علي إليه ، فبعثه في أصحابه فقتل بعضهم وسجن عبد الله بن علي عمه ، وبعث بقية أصحابه إلى أبي داود نائب خراسان فقتلهم هناك وحج بالناس فيها العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس . وفيها توفي عمرو بن مجاهد ، ويزيد بن عبد الله بن الهاد ، ويونس بن عبيد ، أحد العباد وصاحب الحسن البصري .

ثم دخلت سنة أربعين ومائة

فيها نار جماعة من الجند على أبي داود نائب خراسان ، وحاصروا داره ، فأشرف عليهم وجعل يستغيث بجنديه ليحضروا إليه ، واتكأ على آجرة في الحائط فانكسرت به فسقط فانكسر ظهره فأت ، فخلفه على خراسان عاصم ، صاحب الشرطة حتى قدم الأمير من جهة الخليفة عليها ، وهو عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي ، فسلم بلاد خراسان ، وقتل جماعة من الأمراء لأنه بلغه عنهم أنهم يدعون إلى خلافة آل علي بن أبي طالب ، وحبس آخرين ، وأخذ نواب أبي داود بمجباية الأموال المنكسرة عندهم .

وفيها حج بالناس الخليفة المنصور أحرم من الحيرة ورجع بعد انقضاء الحج إلى المدينة ، ثم رحل إلى بيت المقدس فزاره ، ثم سلك الشام إلى الرقة ، ثم سار إلى الهاشمية - هاشمية الكوفة - ونواب الأقاليم هم المذكورون في التي قبلها ، سوى خراسان فإنه مات نائبها أبو داود ، فخلفه مكانه عبد الجبار الأزدي . وفيها توفي داود بن أبي هند ، وأبو حازم سلمة بن دينار ، وسهيل بن أبي صالح ، وعمار بن غزية بن قيس السكوني .

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين ومائة

فيها خرجت طائفة يقال لها الراوندية على المنصور . ذكر ابن جرير عن المدائني أن أصلهم من خراسان ، وهم على رأي أبي مسلم الخراساني ، كانوا يقولون بالتناسخ ، ويزعمون أن روح آدم انتقلت إلى عثمان بن نهيك ، وأن ربهم الذي يطعمهم ويستقيهم أبو جعفر المنصور . وأن المهيم بن معاوية جبريل ، قبحهم الله .

قال ابن جرير : فأتوا يوماً قصر المنصور فجمعوا يطوفون به ويقولون : هذا قصر ربنا ، فأرسل المنصور إلى رؤسائهم فحبس منهم مائتين ، ففضبوا من ذلك وقالوا : علام تحبسهم ؟ ثم عمدوا إلى نعش فحملوه على كواهلهم وليس عليه أحد ، واجتمعوا حوله كأنهم يشيعون جنازة ، واجتازوا بباب السجن ، فألقوا النعش ودخلوا السجن قهراً واستخرجوا من فيه من أصحابهم ، وقصدوا نحو المنصور

وهم في سائمة ، فتبادى الناس وغلقت أبواب البلد ، وخرج المنصور من القصر ماشياً ، لأنه لم يجد دابة يركبها ، ثم جرى بدابة فركبها وقصد نحو الراوندية وجاء الناس من كل ناحية ، وجاء مع بن زائدة ، فلما رأى المنصور ترجل وأخذ بلجام دابة المنصور ، وقال : يا أمير المؤمنين ارجع ! نحن نكفيكم . فأبى وقام أهل الأسواق إليهم فقاتلهم ، وجاءت الجيوش فالتفوا عليهم من كل ناحية فخصدوم عن آخرهم ، ولم يبق منهم بقية . وجرحوا عثمان بن نهيك بسهم بين كتفيه ، فرض أياماً ثم مات ، فصلى عليه الخليفة ، وقام على قبره حتى دفن ودعاه ، وولى أخاه عيسى بن نهيك على الحرس ، وكان ذلك كله بالمدينة الهاشمية من الكوفة .

ولما فرغ المنصور من قتال الراوندية ذلك اليوم صلى بالناس الظهر في آخر وقتها ، ثم أتى بالطعام فقال أين معن بن زائدة ؟ وأمسك عن الطعام حتى جاء معن فأجلسه إلى جنبه ، ثم أخذ في شكره لمن بحضرته لما رأى من شهامته يومئذ . فقال معن : والله يا أمير المؤمنين لقد جئت وإني لوجل ، فلما رأيت استهانتك بهم وإقدامك عليهم قوى قلبي واطمأن ، وما ظننت أن أحداً يكون في الحرب هكذا ، فذاك الذي شجعتني يا أمير المؤمنين . فأمر له المنصور بعشرة آلاف ورضى عنه وولاه اليمن . وكان معن بن زائدة قبل ذلك مخنفياً ، لأنه قاتل السوداء مع ابن هبيرة ، فلم يظهر إلا في هذا اليوم . فلما رأى الخليفة صدقه في قتاله رضى عنه . ويقال : إن المنصور قال عن نفسه : أخطأت في ثلاث : قتلت أبا مسلم وأنا في جماعة قليلة ، وحين خرجت إلى الشام ولو اختلف سيفان بالعراق لذهبت الخلافة ، ويوم الراوندية لو أصابني سهم غرب لذهبت ضياعاً . وهذا من حزمه وصرامته .

وفي هذه السنة ولى المنصور ابنه محمداً العهد من بعده ودعاه بالمهدى وولاه بلاد خراسان وعزل عنها عبد الجبار بن عبد الرحمن ، وذلك أنه قتل خلقاً من شيعة الخليفة ، فشكاه المنصور إلى أبي أيوب كاتب الرسائل فقال : يا أمير المؤمنين اكتب إليه ليعيث جيشاً كثيفاً من خراسان إلى غزو الروم ، فإذا خرجوا بعثت إليه من شئت فأخرجوه من بلاد خراسان ذليلاً . فكتب إليه المنصور بذلك ، فرد الجواب بأن بلاد خراسان قد عاثت بها الأتراك ، ومتى خرج منها جيش خيف عليها وفسد أمرها . فقال المنصور لأبي أيوب : ماذا ترى ؟ قال : فكتب إليه : إن بلاد خراسان أحق بالمد لثغور المسلمين من غيرها ، وقد جهزت إليك بالجنود . فكتب إليه أيضاً : إن بلاد خراسان ضيقة في هذا العام أقواتها ، ومتى دخلها جيش أفسدها . فقال الخليفة لأبي أيوب : ماتقول ؟ فقال : يا أمير المؤمنين هذا رجل قد أبدى صفحته وخلع فلا تناظره . فحينئذ بعث المنصور ابنه محمداً المهدى ليقم بالرى ، فبعث المهدى بين يديه خازم بن خزيمه مقدمة إلى عبد الجبار ، فما زال به يخدعه ومن معه حتى هرب من معه وأخذوه هو فأركبوه بعيراً محولاً وجهه إلى ناحية ذنب البعير . وسيره كذلك

في البلاد حتى أقدموه على المنصور ومعه ابنه وجماعة من أهله ، فضرب المنصور عنقه وسير ابنه ومن معه إلى جزيرة في طرف اليمن ، فأسرتهم الهند بعد ذلك ، ثم فودى بعضهم بعد ذلك . واستقر المهدي نائباً على خراسان ، وأمره أبوه أن يغزو طبرستان ، وأن يحارب الأصبهين مع من معه من الجنود وأمره بجيش عليهم عمر بن العلاء ، وكان من أعلم الناس بحرب طبرستان ، وهو الذي يقول فيه الشاعر :

قُلْ لِلْخَلِيفَةِ إِنْ جِئْتُ * نَصِيحاً وَلَا خَيْرَ فِي الْمَنِّ
إِذَا أَيْقَظْتُكَ حُرُوبَ الْعَدَى * فَتَبَّ لَهَا عُمْراً نَمَّ نَمَّ
فَتَى لَا يَنَامُ عَلَى دِمْنَةٍ * وَلَا يَشْرَبُ الْمَاءَ إِلَّا يَدَمَّ

فلما توافقت الجيوش على طبرستان فتحوها وحصرها الأصبهين حتى ألقوه إلى قلعتها فصالحهم على ما فيها من الذخائر ، وكتب المهدي إلى أبيه بذلك ، ودخل الأصبهين بلاد الديلم فات هناك . وكسروا أيضاً ملك الترك الذي يقال له المصفغان ، وأسروا أمماً من الذراري ، فهذا فتح طبرستان الأول . وفيها فرغ بناء المصيصة على يد جبريل بن يحيى الخراساني ، وفيها رابط محمد بن إبراهيم الامام ببلاد ملطية . وفيها عزل المنصور زياد بن عبيد الله عن إمرة الحجاز وولى المدينة محمد بن خالد القسري وقبها في رجب . وولى مكة والطائف الهيثم بن معاوية المكي . وفيها توفي موسى بن كعب وهو على شرطة المنصور . وعلى مصر من كان عليها في السنة الماضية ، ثم ولى مصر محمد بن الأشعث ثم عزله عنها وولى عليها نوفل بن الفرات . وحج بالناس فيها صالح بن علي وهو نائب قنسرين وحصص ودمشق ، وبقية البلاد عليها من ذكرنا في التي قبلها والله أعلم .

وفيها توفي أبان بن تغلب ، وموسى بن عقبة ، صاحب المغازي ، وأبو إسحاق الشيباني في قول والله سبحانه أعلم .

ثم دخلت سنة ثنتين وأربعين ومائة فيها خلع عيينة بن موسى بن كعب نائب السند الخليفة ، فجهز إليه العساكر محبة عمر بن حفص ابن أبي صفرة ، وولاه السند والهند ، فخاربه عمر بن حفص وقهره على الأرض وتسلمها منه . وفيها نكث أصبهين طبرستان المهدي الذي كان بينه وبين المسلمين ، وقتل طائفة ممن كان بطبرستان ، فجهز إليه الخليفة الجيوش محبة خازم بن خزيمه ، وروح بن حاتم ، ومهم مرزوق أبو الخصيب ، مولى المنصور ، فحاصروه مدة طويلة ، فلما أعيام فتح الحصن الذي هو فيه احتالوا عليه ، وذلك أن أبا الخصيب قال : اضربوني واحلقوا رأسي ولحيتي ، ففعلوا ذلك ، فذهب إليه كأنه مغاضب للمسلمين قد ضربوه وحلقوا لحيته ، فدخل الحصن ففرح به الأصبهين وأكرمه وقربه ، وجعل أبو الخصيب يظهر له النصيح والخدمة حتى خدعه ، وحظى عنده جدا وجعله من جملة من يتولى فتح الحصن وغلقه ، فلما تمكن من ذلك كاتب المسلمين وأعلمهم أنه في الليلة القلانية يفتح لهم ، فاقربوا من الباب حتى

أفتحه لكم ، فلما كانت تلك الليلة فتح لهم باب الحصن فدخلوا فقتلوا من فيه من المقاتلة وسبوا الذرية وامنص الأصهبند خاتماً مسموماً فبات . وكان فيمن أسروا يومئذ أم منصور بن المهدي ، وأم إبراهيم ابن المهدي ، وكاتتا من بنات الملوك الحسان .

وفيها بنى المنصور لأهل البصرة قبلتهم التي يصلون عندها بالجبان ، وتولى بناءها سلمة بن سعيد ابن جابر نائب الفرات والأبلة . وصام المنصور شهر رمضان بالبصرة وصلى بالناس العيد في ذاك المصلى . وفيها عزل المنصور نوفل بن الفرات عن إمرة مصر وولى عليها حميد بن قحطبة . وحج بالناس فيها إسماعيل بن علي . وفيها توفي سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس عم الخليفة ونائب البصرة . كان ذلك يوم السبت لسبع بقين من جمادى الآخرة ، وهو ابن تسع وخمسين سنة ، وصلى عليه أخوه عبد الصمد . روى عن أبيه وعكرمة وأبي بردة بن أبي موسى . وعنه جماعة منهم بنوه جعفر ، ومحمد ، وزينب والأصمعي . وكان قد شاب وهو ابن عشرين سنة وخضب لحيته من الشيب في ذلك السن ، وكان كريماً جواداً ممدحاً . كان يعتق عشية عرفة في كل سنة مائة نسمة ، وبلغت صلاته ابني هاشم وسائر قریش والأنصار خمسة آلاف ألف واطلع يوماً من قصره فرأى نسوة يفرن في دار من دور البصرة ، فاتفق في نظره هذا اليهن أن قالت واحدة منهن : لو أن الأمير نظر إلينا واطلع على حالنا فأغنانا عن الغزل ؟ فنهض من فوره فجعل يدور في قصره ويجمع من حلى نسائه من الذهب والجواهر وغيرها ما ملأ به منديلاً كبيراً ، ثم دلاه إليهن ونثر عليهن من الدنانير والدرهم شيئاً كثيراً ، فانت إحداهن من شدة الفرح ، فأعطى ديتها وما تركته من ذلك لورثتها . وقد ولى الحج في أيام السفاح ، وولى البصرة أيام المنصور ، وكان من خيار بني العباس ، وهو أخو إسماعيل وداود وصالح وعبد الصمد وعبد الله وعيسى ومحمد ، وهو عم السفاح والمنصور .

ومن توفي فيها من الأعيان خالد الحذاء ، وعاصم الأحول ، وعمرو بن عبيد القدرى في قول . وهو عمرو بن عبيد بن ثوبان ، ويقال ابن كيسان ، التيمى مولاهم أبو عثمان البصرى ، من أبناء فارس ، شيخ القدرية والمعتزلة . روى الحديث عن الحسن البصرى وعبيد الله بن أنس ، وأبي العالية وأبي قلابة ، وعنه الحمادان وسفيان بن عيينة والأعمش . وكان من أقرانه . وعبد الوارث ابن سعيد ، وهارون بن موسى ، ويحيى القطان ، ويزيد بن زريع . قال الامام أحمد بن حنبل : ليس بأهل أن يحدث عنه . وقال علي بن المديني ويحيى بن معين : ليس بشيء ، وزاد ابن معين وكان رجل سوء وكان من الدهرية الذين يقولون إنما الناس مثل الزرع . وقال الفلاس : متروك صاحب بدعة . كان يحيى القطان يحدثنا عنه ثم تركه وكان ابن مهدي لا يحدث عنه . وقال أبو حاتم : متروك . وقال النسائي ليس بثقة . وقال شعبة عن يونس بن عبيد : كان عمرو بن عبيد يكنب في الحديث .

وقال حماد بن سلمة : قال لي حميد : لا تأخذ عنه فإنه كان يكذب على الحسن البصري . وكذا قال أيوب وعوف وابن عون . وقال أيوب : ما كنت أعده عقلاً ، وقال مطر الوراق : والله لا أصدقه في شيء . وقال ابن المبارك : إنما تركوا حديثه لأنه كان يدعو إلى القدر . وقد ضعفه غير واحد من أئمة الجرح والتعديل ، وأثنى عليه آخرون في عبادته وزهده وتقشفه . قال الحسن البصري : هذا سيد شباب القراء ما لم يحدث . قالوا : فأحدث والله أشد الحديث . وقال ابن حبان : كان من أهل الورع والعبادة إلى أن أحدث ما أحدث واعتزل مجلس الحسن هو وجماعة معه فسمعوا المعتزلة ، وكان يشتم الصحابة ويكذب في الحديث ، وهما لا يعمداً . وقد روى عنه أنه قال : إن كانت تبت يدا أبي لهب في اللوح المحفوظ فما تعد منه على ابن آدم حجة . وروى له حديث ابن مسعود : حدثنا الصادق المصدوق « ان خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً » حتى قال : « فيؤمر بأربع كلمات . رزقه وأجله ، وعمله ، وشقى أم سعيد » إلى آخره . فقال : لو سمعت الأعمش يرويه لكذبت ، ولو سمعته من زيد بن وهب لما أحببته ، ولو سمعته من ابن مسعود لما قبلته ، ولو سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لرددته ، ولو سمعت الله يقول هذا لقلت ما على هذا أخنت علينا الميثاق . وهذا من أقبح الكفر ، لعنه الله إن كان قال هذا . وإذا كان مكنوباً عليه فعلى من كذبه عليه ما يستحقه وقد قال عبد الله ابن المبارك رحمه الله :

أيها الطالبُ علماً * إيتِ حمادَ بنَ زَيْدٍ * نخذِ العِلْمَ بِعِلْمٍ * ثمَّ قِيدُهُ بَقِيْدٍ
وذُرِ البدعةَ من * آثارِ عمرو بنِ عبِيدٍ

وقال ابن عدي : كان عمرو يفر الناس بتقشفه ، وهو مذموم ضعيف الحديث جداً ، معلن بالبدع . وقال الدارقطني : ضعيف الحديث . وقال الخطيب البغدادي : جالس الحسن واشتهر بصحبته ثم أزاله [واصل بن عطاء عن منذهب أهل السنة وقال بالقدر ودعا إليه ، واعتزل أصحاب الحديث ، وكان له سمت وإظهار زهد . وقد قيل : إنه ^(١)] واصل بن عطاء ولدا سنة ثمانين ، وحكى البخاري أن عمر آت سنة ثنتين أو ثلاث وأربعين ومائة بطريق مكة ، وقد كان عمرو محظياً عند أبي جعفر المنصور ، كان المنصور يحبه ويعظمه لأنه كان يند على المنصور مع القراء فيعطيهم المنصور فيأخذون ، ولا يأخذ عمرو منه شيئاً ، وكان يسأله أن يقبل كما يقبل أصحابه فلا يقبل منه ، فكان ذلك مما يفر المنصور ويروج به عليه حاله ، لأن المنصور كان بخيلاً وكان يعجبه ذلك منه وينشد :

كلِّمُ بمشي رويدُ * كلِّمُ يطلبُ صيدُ * غيرُ عمرو بنِ عبِيدٍ
ولو تبصر المنصور لعم أن كل واحد من أولئك القراء خير من ملء الأرض مثل عمرو بن عبيد ،

والزهد لا يدل على صلاح ، فان بعض الرهبان قد يكون عنده من الزهد ما لا يطيقه عمرو ولا كثير من المسلمين في زمانه . وقد روينا عن إسماعيل بن خالد القعنبي قال : رأيت الحسن بن جعفر في المنام بعد ما مات بعبادان فقال لي : أيوب ويونس وابن عون في الجنة . قلت : فعمر وبن عبيد ؟ قال : في النار . ثم رآه مرة ثانية ويروي ثالثة ، فيسأله فيقول له مثل ذلك . وقد رؤيت له منامات قبيحة ، وقد أطل شيوخنا في تهذيبه في ترجمته وخلصنا حاصلها في كتابنا التكميل ، وأشرنا ههنا إلى نبذ من حاله ليعرف فلا يغتر به والله أعلم .

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين ومائة

فيها ندب المنصور الناس إلى غزو الديلم ، لأنهم قتلوا من المسلمين خلقا ، وأمر أهل الكوفة والبصرة من كان منهم يقدر على عشرة آلاف فصاعداً فليذهب مع الجيش إلى الديلم ، فانتدب خلق كثير وجم غفير لذلك . وحج بالناس فيها عيسى بن موسى نائب الكوفة وأعمالها . وفيها توفي حجاج الصواف ، وحيد بن رؤبة الطويل ، وصليمان بن طرخان التيمي ، وقد ذكرناه في التي قبلها ، وعمر وبن عبيد في قول ، وليث بن أبي سليم على الصحيح . ويحيى بن سعيد الأنصاري .

ثم دخلت سنة أربع وأربعين ومائة

فيها سار محمد بن أبي العباس السفاح عن أمر عمه المنصور إلى بلاد الديلم ومعه الجيوش من الكوفة والبصرة وواسط الموصل والجزيرة . وفيها قدم محمد بن جعفر المنصور المهدي على أبيه من بلاد خراسان ودخل بآبنة عمه رايدة بنت السفاح بالحيرة . وفيها حج بالناس أبو جعفر المنصور واستخلف على الحيرة والعسكر خازم بن خزيمة ، وولى رباح بن عثمان المزني المدينة وعزل عنها محمد بن خالد القسري ، وتلقى الناس أبا جعفر المنصور إلى أثناء طريق مكة في حجة في سنة أربع وأربعين ومائة . وكان في جملة من تلقاه عبد الله بن حسن بن حنن بن علي بن أبي طالب ، فأجلسه المنصور معه على السباط ، ثم جمل بمحدثه بأقبال زائد بحيث إن المنصور اشتغل بذلك عن عامة غدائه ، وسأله عن ابنه إبراهيم ومحمد لم لا جآآ مع الناس ؟ فحلف عبد الله بن حسن أنه لا يدرى أين صار من أرض الله . وصدق في ذلك ، وما ذاك إلا أن محمد بن عبد الله بن حسن كان قد بايعه جماعة من أهل الحجاز في أواخر دولة مروان الحمار بالخلافة وخلع مروان ، وكان في جملة من بايعه على ذلك أبو جعفر المنصور ، وذلك قبل تحويل الدولة إلى بني العباس ، فلما صارت الخلافة إلى أبي جعفر المنصور خاف محمد بن عبد الله بن الحسن وأخوه إبراهيم منه خوفاً شديداً .

وذلك لأن المنصور توم منهما أنهما لا بد أن يخرجاه عليه كما أراد أن يخرجاه على مروان ، والذي توم منه المنصور وقع فيه ، فذهب هرباً في البلاد الشاسعة فصارا إلى اليمن ، ثم سارا إلى الهند فاخفيا

بها ، فدل على مكانهما الحسن بن زيد فهربا إلى موضع آخر ، فاستدل عليه الحسن بن زيد ودل عليهما ، ثم كذلك . وانتصب إلباً عليهما عند المنصور . والمعجب منه أنه من أتباعهما . واجتهد المنصور بكل طريق على تحصيلهما فلم يتفق له ذلك ، وإلى الآن . فلما سأل أباهما عنهما حلف أنه لا يدري أين صارا من أرض الله ، ثم ألح المنصور على عبد الله في طلب ولديه فغضب عبد الله من ذلك وقال : والله لو كانا تحت قدمي مادلتك عليهما . فغضب المنصور وأمر بسجنه وأمر ببيع رقيقه وأمواله ، فلبث في السجن ثلاث سنين ، وأشاروا على المنصور بحبس بنى حسن عن آخرهم فحبسهم ، وجد في طلب إبراهيم ومحمد جدا ، هذا وهما يحضران الحج في غالب السنين ويكنان في المدينة في غالب الأوقات ، ولا يشعر بهما من يتم عليهما والله الحمد . والمنصور يعزل نائبا عن المدينة ويولى عليها غيره ويحرضه على إمساكهما والفحص عنهما ، وبذل الأموال في طلبهما ، وتعجزه المقادير عنهما لما يريد الله عز وجل .

وقد واطأهما على أمرهما أمير من أمراء المنصور يقال له أبو العساكر خالد بن حسان ، فغرموا في بعض الحجات على الفتنك بالمنصور بين الصفا والمروة ، فتهام عبد الله بن حسن لشرف البقعة . وقد اطلع المنصور على ذلك وعلم بما مالاها ذلك الأمير ، فعذبه حتى أفر بما كانوا تمالؤا عليه من الفتنك به . قال : وما الذي صرفكم عن ذلك ؟ قال : عبد الله بن حسن نهانا عن ذلك ، فأمر به الخليفة فنيب في الأرض فلم يظهر حتى الآن . وقد استشار المنصور من يعلم من أمرائه ووزرائه من ذوى الرأي في أمر ابني عبد الله بن حسن ، وبث الجواسيس والقصاد في البلاد فلم يقع لهما على خبر ، ولا ظهر لهما على عين ولا أثر ، والله غالب على أمره . وقد جاء محمد بن عبد الله بن حسن إلى أمه فقال يا أمه ! إني قد شقت على أبي وعموتي ، ولقد هممت أن أضع يدي في يدهؤلاء لأريح أهلي . فذهبت أمه إلى السجن فعرضت عليهما ما قال ابنها ، فقالوا : لا ولا كرامة ، بل نصبر على أمره فلعل الله أن يفتح على يديه خيراً ، ونحن نصبر وفرجنا بيد الله إن شاء فرج عنا ، وإن شاء ضيق . وتمالؤا كلهم على ذلك رحمهم الله .

وفيهما نقل آل حسن من حبس المدينة إلى حبس بالعراق وفي أرجلهم القيود ، وفي أعناقهم الأغلال . وكان ابتداء تقييدهم من الرينة بأمر أبي جعفر المنصور ، وقد أشخص معهم محمد بن عبد الله العثماني ، وكان أخا عبد الله بن حسن لأمه ، وكانت ابنته تحت إبراهيم بن عبد الله بن حسن ، وقد حملت قريباً ، فاستحضره الخليفة وقال : قد حلفت بالعناق والطلاق إنك لم تنفسي ، وهذه ابنتك حامل ، فإن كان من زوجها قد حبلت منه وأنت تعلم به ، وإن كان من غيره فأنت ديوث . فأجابته العثماني بجواب أحفظه به ، فأمر به فجردت عنه ثيابه فاذا جسمه مثل الفضة النقية ، ثم

ضربه بين يديه مائة وخسين سوطاً ، منها ثلاثون فوق رأسه ، أصاب أحدها عينه فسالته ، ثم رده إلى السجن وقد بقي كأنه عبد أسود من زرقة الضرب ، وتراكم الدماء فوق جلده ، فأجلس إلى جانب أخيه لأمه عبد الله بن حسن ، فاستسقى ماءً فما جسر أحد أن يسقيه حتى سقاه خراساني من جملة الجللازة الموكلين بهم . ثم ركب المنصور هودجه وأركبوا أولئك في محامل ضيقة ، وعليهم القيود والأغلال ، فجاز بهم المنصور وهو في هودجه ، فزاداه عبد الله بن حسن : والله يا أبا جعفر ما هكذا صنعنا بأسرائكم يوم بدر ، فأخسأ ذلك المنصور وقتل عليه ونفر عنهم . ولما انتهوا إلى العراق حبسوا بالهاشمية ، وكان فيهم محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن حسن ، وكان جميلاً فتياً ، فكان الناس يذهبون لينظروا إلى حسنه وجماله . وكان يقال له : الديباح الأصفر ، فأحضره المنصور بين يديه وقال له : أما لاقتلك قتلة ما قتلها أحدًا . ثم ألقاه بين أسطواناتين وسد عليه حتى مات . فعلى المنصور ما يستحقه من عذاب الله ولعنته . وقد هلك كثير منهم في السجن حتى فرج عنهم بعد هلاك المنصور على ما سنده . فكان فيمن هلك في السجن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب ، وقد قيل والأظهر أنه قتل صبراً ، وأخوه إبراهيم بن الحسن وغيرهما ، وقتل من خرج منهم من الحبس ، وقد جعلهم المنصور في سجن لا يسمعون فيه أذاناً ، ولا يعرفون فيه وقت صلاة إلا بالتلاوة ، ثم بعث أهل خراسان يشفعون في محمد بن عبد الله العنماني ، فأمر به فضربت عنقه وأرسل برأسه إلى أهل خراسان ، لا جزاء الله خيراً ، ورحم الله محمد بن عبد الله العنماني .

وهو محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان الأموي رحمه الله ، أبو عبد الله المدني المعروف بالديباح ، لحسن وجهه . وأمه فاطمة بنت الحسين بن علي ، روى الحديث عن أبيه وأمه وخارجه بن زيد وطاوس وأبي الزناد والزهرى ونافع وغيرهم ، وحدث عنه جماعة ، وثقه النسائي وابن حبان ، وكان أخا عبد الله بن حسن لأمه ، وكانت ابنته رقية زوجة ابن أخيه إبراهيم بن عبد الله ، وكانت من أحسن النساء ، وبسببها قتله أبو جعفر المنصور في هذه السنة . وكان كريماً جواداً ممدحاً . قال الزبير بن بكار : أنشدني سليمان بن عباس السعدي لأبي وجرة السعدي يمدحه .

وجدنا المحض الأبيض من قريش * فتى بين الخليفة والرسول
أماك المجد من هنا وهناك * وكنت له بمعتلج السيول
فما للمجد دونك من مبيت * وما للمجد دونك من مقيل
ولا يعضى وراءك يبتغى * ولا هو قابل بك من بديل

ثم دخلت سنة خمس وأربعين ومائة

فما كان فيها من الأحداث مخرج محمد بن عبد الله بن حسن بالمدينة وأخيه إبراهيم بالبصرة ،

على ما سنبينه إن شاء الله . أما محمد فانه خرج على أنزهاب أبي جعفر المنصور بأهله بنى حسن من المدينة إلى العراق على الصفة والذمت الذى تقدم ذكره ، وسجنهم فى مكان ساء مستقراً ومقاماً ، لا يسمونه فيه أذنانا ولا يعرفون فيه دخول أوقات صلوات إلا بالأذكار والتلاوة . وقد مات أكثر أكارهم هنالك رحمهم الله . هذا كله ومحمد الذى يطلبه مخنف بالمدينة ، حتى أنه فى بعض الأحيان اختفى فى بئر نزل فى مائه كله إلا رأسه ، وباقيه مغمور بالماء ، وقد تواعد هو وأخوه وقتاً معيناً يظهران فيه ، هو بالمدينة وإبراهيم بالبصرة ، ولم يزل الناس - أهل المدينة وغيرهم - يؤنبون محمد بن عبد الله فى اختفائه وعدم ظهوره حتى عزم على الخروج ، وذلك لما أضرب به شدة الاختفاء وكثرة إلحاح رياح نائب المدينة فى طلبه ليلاً ونهاراً ، فلما اشتد به الأمر وضاق الحال واعد أصحابه على الظهور فى الليلة الغلانية ، فلما كانت تلك الليلة جاء بعض الوشاة إلى متولى المدينة فأعلمه بذلك ، فضاق ذرعاً وانزعج لذلك انزعاجاً شديداً ، وركب فى جحافل فطاف بالمدينة وحول دار مروان ، وهم مجتمعون بها ، فلم يشعر بهم . فلما رجع إلى منزله بعث إلى بنى حسين بن على فجمعهم ومعهم رؤس من سادات قريش وغيرهم ، فوعظهم وأنبهم وقال : يا معشر أهل المدينة ، أمير المؤمنين يتطلب هذا الرجل فى المشارق والمغارب وهو بين أظهركم ، ثم ما كفاكم حتى بايعتموه على السمع والطاعة ؟ والله لا يبلغنى عن أحد منكم خرج معه إلا ضربت عنقه . فأنكر الذين هم هنالك حاضرون أن يكون عندهم علم أو شعور بشئ من هذا ، وقالوا : نحن نأتيك برجال مسلحين يقاتلون دونك إن وقع شئ من ذلك . فتهضوا فجأؤه بجماعة مسلحين فاستأذنوه فى دخولهم عليه ، فقال : لا إذن لهم ، إني أخشى أن يكون ذلك خديعة . فجلس أولئك على الباب ومكث الناس جلوساً حول الأمير وهو واجم لا ينسكلم إلا قليلاً حتى ذهب طائفة من الليل ، ثم ما فجئ الناس إلا وأصحاب محمد بن عبد الله قد ظهروا وأعلنوا بالتكبير ، فانزعج الناس فى جوف الليل ، وأشار بعض الناس على الأمير أن يضرب أعناق بنى حسين ، فقال أحدهم : سلام ونحن مقرون بالطاعة ؟ واشتغل الأمير عنهم بما فجأه من الأمر ، فاغتموا الغفلة ونهضوا سراغاً فتسوروا جدار الدار وألقوا أنفسهم على كناسة هنالك .

وأقبل محمد بن عبد الله بن حسن فى مائتين وخمسين ، فر بالسجن فأخرج من فيه ، وجاء دار الامارة فحاصرها فافتتحها ومسك الأمير رياح بن عثمان نائب المدينة فسجنه فى دار مروان ، وسجن معه ابن مسلم بن عقبة ، وهو الذى أشار بقتل بنى حسين فى أول هذه الليلة فنجوا وأحيط به . وأصبح محمد بن عبد الله بن حسن وقد استنظر على المدينة ودان له أهلها ، فصلى بالناس الصبح وقرأ فيها سورة إننا فتحنا لك فتحاً مبيناً . وأسفرت هذه الليلة عن مستهل رجب من هذه السنة . وقد خطب محمد بن عبد الله أهل المدينة فى هذا اليوم ، فتكلم فى بنى العباس وذكّر عنهم أشياء ذمهم

بها ، وأخبرهم أنه لم ينزل بلدًا من البلدان إلا وقد بايعوه على السمع والطاعة ، فبايعه أهل المدينة كلهم إلا القليل .

وقد روى ابن جرير عن الامام مالك أنه أفتى الناس بمبايعته ، فقيل له فان في أعناقنا بيعة للمنصور ، فقال : إنما كنتم مكرهين وليس لمكره بيعة . فبايعه الناس عند ذلك عن قول مالك ، ولزم مالك بيته . وقد قال له إسماعيل بن عبد الله بن جعفر حين دعاه إلى بيعته : يا ابن أخي إنك مقتول . فارتدغ بعض الناس عنه واستمر جمهورهم معه ، فاستناب عليهم عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير ، وعلى قضائها عبد العزيز بن المطلب بن عبد الله الخزومي ، وعلى شرطتها عثمان بن عبد الله ابن عمر بن الخطاب ، وعلى ديوان العطاء عبد الله بن جعفر بن عبد الله بن مسور بن مخزومة ، وتلقب بالمهدي طمعاً أن يكون هو المذكور في الأحاديث فلم يكن به ، ولا تم له ما رجاه ولا ما تمنه ، فانا لله . وقد ارتحل بعض أهل المدينة عنها ليلة دخلها ، فطوى المراحل البعيدة إلى المنصور في سبع ليال ، فورد عليه فوجده قائماً في الليل ، فقال للربيع الحاجب : استأذن على الخليفة ، فقال : إنه لا يوقظ في هذه الساعة . فقال : إنه لا بد من ذلك فأخبر الخليفة فخرج فقال : ويحك ! ما وراهك ؟ فقال : إنه خرج ابن حسن بالمدينة . فلم يظهر المنصور لذلك أكثرنا وانزعاجاً ، بل قال : أنت رأيته ؟ قال : نعم ! فقال : هلك والله وأهلك معه من اتبعه . ثم أمر بالرجل فسجن ، ثم جاءت الأخبار بذلك فتواترت . فأطلقه المنصور وأطلق له عن كل ليلة ألف درهم فأعطاه سبعة آلاف درهم .

ولما تحقق المنصور الأمر من خروجه ضاق ذرعاً ، فقال له بعض المنجمين : يا أمير المؤمنين لا عليك منه ، فوالله لو ملك الأرض بمحذا فيرها فانه لا يقيم أكثر من سبعين يوماً . ثم أمر المنصور جميع رؤس الأمراء أن يذهبوا إلى السجن فيجتمعوا بعبد الله بن حسن - والد محمد - فيخبروه بما وقع من خروج ولده ويسمعوا ما يقول لهم . فلما دخلوا عليه أخبروه بذلك فقال : ما ترون ابن سلامة فاعلا ؟ - يعني المنصور - فقالوا : لا ندري . فقال : والله لقد قتل صاحبكم البخل ينبغي له أن ينفق الأموال ويستخدم الرجال ، فان ظهر فاسترجاع ما أنفق سهل ، وإلا لم يكن لصاحبكم شيء في الخزائن وكان ماخزن لغيره . فرجموا إلى الخليفة فأخبروه بذلك ، وأشار الناس على الخليفة بمناجزته ، فاستدعى عيسى بن موسى فندبه إلى ذلك ، ثم قال : إني سأكتب إليه كتاباً أنذره به قبل قتاله فكتب إليه :

بسم الله الرحمن الرحيم ! من عبد الله بن عبد الله أمير المؤمنين ، إلى محمد بن عبد الله : [إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً] الآية إلى قوله [فاعلموا أن الله غفور رحيم] ثم قال : فلك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله ، إن أنت رجعت إلى الطاعة لأؤمنك

ومن اتبعك ، ولا عطيتك ألف ألف درهم ، ولا دعيتك تقيم في أحب البلاد إليك ، ولا قضيت لك جميع حوائجك ، في كلام طويل . فكتب إليه محمد جواب كتابه :

من عبد الله المهدي محمد بن عبد الله بن حسن : [بسم الله الرحمن الرحيم طسم تلك آيات الكتاب المبين ، تلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين ، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين] ثم قال : وإني أعرض عليك من الأمان مثل ما عرضت عليّ ، فأنا أحق بهذا الأمر منك ، وأنتم إنما وصلتم إليه بنا ، فإن علياً كان الوصي وكان الامام ، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء ؟ ونحن أشرف أهل الأرض نسباً ، فرسول الله خير الناس وهو جدنا ، وجدتنا خديجة وهي أفضل زوجاته ، وفاطمة ابنته أمنا وهي أكرم بناته ، وإن هاشم ولد عليا مرتين ، وإن حسنا ولده عبد المطلب مرتين ، وهو وأخوه سيّد شباب أهل الجنة ، وإن رسول الله (س) ولد أبي مرتين ، وإني أوسط بني هاشم نسباً ، [وأمرهم أباً ، لم تهرق في المعجم . ولم تنازع في أمهات الأولاد] ^(١) فأنا ابن أرفع الناس درجة في الجنة ، وأخفهم عذاباً في النار . فأنا أولى بالأمر منك ، وأولى بالمهد وأوفى به منك ، فإني أعطيت المهد ثم غدرت به ، ولا أشد عذاباً من إمام غادر ، وكذلك فعلت بمك عبد الله بن علي ، وأبي مسلم الخراساني . ولو أعلم أنك تصدق لأجبتك لما دعوتني إليه ، ولكن الوفاء بالمهد من مثلك لمنلي بعيد والسلام .

فكتب إليه أبو جعفر جواب ذلك في كتاب طويل حاصله : أما بعد فقد قرأت كتابك فاذا جل نفرك وإدلالك قرابة النساء لتضل به الجفأة والغواية ، ولم يجعل الله النساء كالمثومة والآباء ، ولا كالمصبية والأولياء ، وقد أنزل الله [وأنذر عشيرتلك الأقربين] وكان له حيفتد أربعة أعمام ، فاستجاب له اثنان أحدهما جدنا ، وكفر اثنان أحدهما أبوك - يعني جده أبا طالب - قطع الله ولايتهما منه ، ولم يجعل بينهما إلا ولاذمة ، وقد أنزل الله في عدم إسلام أبي طالب [إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء] وقد نفرت به وأنه أخف أهل النار عذاباً ، وليس في الشر خيار ، ولا ينبغي لمؤمن أن يفخر بأهل النار ، ونفرت بأن عليا ولده هاشم مرتين . وأن حسنا ولده عبد المطلب مرتين ، فهذا رسول الله (س) ، إنما ولده عبد الله مرة واحدة ، وقولك إنك لم تترك أمهات أولاد ، فهذا إبراهيم ابن رسول الله (س) ، من مارية ، وهو خير منك ، وعلي بن الحسن من أم ولد وهو خير منك ، وكذلك ابنه محمد بن علي ، وابن جعفر بن محمد ، جداتهما أمهات أولاد وهما خير منك ،

(١) زيادة من الطبري جئنا بها للناسبة .

وأما قولك بنو رسول الله (ص) فقد قال تعالى : [ما كان محمد أباً أحد من رجالكم] وقد جاءت السنة التي لا خلاف فيها بين المسلمين أن الجد أب الأم والخال والخاللة لا يورثون ، ولم يكن لفاطمة ميراث من رسول الله (ص) بنص الحديث : وقد مرض رسول الله (ص) وأبوك حاضر فلم يأمره بالصلاة بالناس ، بل أمر غيره . ولما توفي لم يعبد الناس بآبي بكر وعمر أحداً ، ثم قدموا عليه عثمان في الشورى والخلافة ، ثم لما قتل عثمان اتهمه بعضهم به ، وقاله طلحة والزبير على ذلك ، وامتنع سعد من مبايعته ثم بعد ذلك معاوية ، ثم طلبها أبوك وقاتل عليها الرجال ، ثم اتفق على التحكيم فلم يف به ، ثم صارت إلى الحسن فباعها بخرق ودرهم ، وأقام بالحجاز يأخذ مالا من غير حله ، وسلم الأمر إلى غير أهله ، وترك شيئته في أيدي بني أمية ومعاوية . فان كانت لكم فقد تركتموها وبعتموها بشئها . ثم خرج علك حسين على ابن مرجانة وكان الناس معه عليه حتى قتلوه وأتوا برأسه إليه ، ثم خرجتم على بني أمية فقتلوك وصلبوك على جذوع النخل ، وحرقوك بالنار ، وحملوا نساءكم على الابل كالسبايا إلى الشام ، حتى خرجنا عليهم نحن فأخذنا بنأركم ، وأدركنا بدمائكم ، وأورثناكم أرضهم وديارهم ، وذكرنا فضل سلفكم ، فجعلت ذلك حجة علينا ، وظننت أنا إنما ذكرنا فضله على أمثاله على حزة والعباس وجعفر ، وليس الأمر كما زعمت ، فان هؤلاء مضوا ولم يدخلوا في الفتن ، وسلموا من الدنيا فلم تنقصهم شيئاً ، فاستوفوا نوابهم كاملاً ، وابتلى بذلك أبوك . وكانت بنو أمية تلعننه كما تلعن الكفرة في الصلوات المكتوبات ، فأحيينا ذكره وذكرنا فضله وعنفناهم بما نالوا منه ، وقد علمت أن مكرمتنا في الجاهلية بسقاية الحجييج الأعظم ، وخدمة زمزم ، وحكم رسول الله (ص) لنا بها . ولما قحط الناس زمن عمر استسقى بأبينا العباس ، وتوسل به إلى ربه وأبوك حاضر ، وقد علمت أنه لم يبق أحد من بني عبد المطلب بعد رسول الله (ص) ، إلا العباس ، فالسقاية سقايته ، والوراثه وراثته ، والخلافة في ولده ، فلم يبق شرف في الجاهلية والاسلام إلا والعباس وارثه ومورثه ، في كلام طويل فيه بحث ومناظرة وفصاحة . وقد استقصاه ابن جرير بطوله والله سبحانه أعلم .

فَضْلُ مُحَمَّدٍ

مقتل محمد بن عبد الله بن حسن

بعث محمد بن عبد الله بن حسن في غبون ذلك رسولا إلى أهل الشام يدعوم إلى بيعته وخلافته فأبوا قبول ذلك منه ، وقالوا : قد ضجرتنا من الحروب وللنا من القتال . وجعل يستميل رؤس أهل المدينة ، فنههم من أجابه ومنهم من امتنع عليه ، وقال له بعضهم : كيف أبائك وقد ظهرت في بلد ليس فيه مال تستعين به على استخدام الرجال ؟ ولزم بعضهم منزله فلم يخرج حتى قتل محمد . وبعث محمد هذا الحسين بن معاوية في سبعين رجلا ونحواً من عشرة فوارس إلى مكة نائباً إن هو دخلها

فساروا إليها ، فلما بلغ أهلها قدومهم خرجوا إليهم في ألوف من المقاتلة ، فقال لهم الحسين بن معاوية علام تقتلون وقد مات أبو جعفر ؟ فقال السري بن عبد الله زعيم أهل مكة : إن برده جاءتنا من أربع ليال وقد أرسلت إليه كتاباً فأنا أنتظر جوابه إلى أربع ، فان كان ما تقولون حقاً سلمتكم البلد وعلى مؤنة رجالكم وخيلكم . فامتنع الحسن بن معاوية من الانتظار وأبى إلا المناجزة ، وحلف لا يبيت الليلة إلا بمكة ، إلا أن يموت . وأرسل إلى السري أن ابرز من الحرم إلى الحل حتى لا تراق الدماء في الحرم . فلم يخرج ، فتقدموا إليهم فصافوهم فحمل عليه الحسن وأصحابه حملة واحدة فهزموم وقتلوا منهم نحو سبعة ، ودخلوا مكة . فلما أصبحوا خطب الحسن بن معاوية الناس وأغرام بأبي جعفر ، ودعاهم إلى محمد بن عبد الله بن حسن المهدي .

خروج إبراهيم بن عبد الله بن حسن

وظهر بالبصرة أيضاً إبراهيم بن عبد الله بن حسن ، وجاء البريد إلى أخيه محمد فأنهى إليه ليلاً فاستؤذن له عليه وهو بدار مروان فطرق بابها . فقال : اللهم إني أعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن . ثم خرج فأخبر أصحابه عن أخيه فاستبشروا جداً وفرحوا كثيراً ، وكان يقول للناس بعد صلاة الصبح والمغرب : ادعوا لله لاخوانكم أهل البصرة ، وللعسرين ابن معاوية بمكة ، واستنصروه على أعدائكم .

وأما ما كان من المنصور فإنه جهز الجيوش إلى محمد بن عبد الله بن حسن ، محبة عيسى بن موسى عشرة آلاف فارس من الشجعان المنتخبين ، منهم محمد بن أبي العباس السفاح وجعفر بن حنظلة البهراني ، وحديد بن قحطبة ، وكان المنصور قد استشاره فيه فقال : يا أمير المؤمنين ادع بن شئت ممن تنق به من مواليك فابعث بهم إلى وادي القرى يمنعونهم من ميرة الشام ، فيموت هو ومن معه جوعاً ، فإنه يولد ليس فيه مال ولا رجال ولا كراع ولا سلاح . وقدم بين يديه كثير بن الحصين العبدي وقد قال المنصور لعيسى بن موسى حين ودعه : يا عيسى ! إني أبعثك إلى جنبي هذين ، فان ظفرت بالرجل فشم سيفك وناد في الناس بالأمان وإن تغيب فضمنهم إليهم حتى يأتوك به ، فانهم أعلم بمذاهبه . وكتب معه كتباً إلى رؤساء قریش والأَنْصار من أهل المدينة يدفعها إليهم خفية يدعوم إلى الرجوع إلى الطاعة . فلما اقترب عيسى بن موسى من المدينة بعث الكتب مع رجل فأخذه حرس محمد بن عبد الله بن حسن فوجدوا معه تلك الكتب فدفعوها إلى محمد فاستحضر جماعة من أولئك فعاقبهم وضربهم ضرباً شديداً وقيدهم قيوداً ثقالاً ، وأودعهم السجن . ثم إن محمداً استشار أصحابه بالقيام بالمدينة حتى يأتي عيسى بن موسى فيحاصرهم بها ، أو أنه يخرج بمن معه فيقاتل أهل العراق ؟ ففهم من أشار بهذا ، ومنهم من أشار بذلك ، ثم اتفق الرأي على المقام بالمدينة ، لأن رسول

الله (ص)، ندم يوم أحد على الخروج منها، ثم اتفقوا على حفر خندق حول المدينة كما فعل رسول الله (ص)، يوم الأحزاب، فأجاب إلى ذلك كله، وحفر مع الناس في الخندق بيده اقتداء برسول الله (ص)، وقد ظهر لهم لبننة من الخندق الذي حفره رسول الله (ص)، وفرحوا بذلك وكبروا وبشروه بالنصر. وكان محمد حاضراً عليه قباء أبيض وفي وسطه منطقة، وكان شكلاً ضخماً أنمر عظيم الهامة.

ولما نزل عيسى بن موسى الأعوص واقترب من المدينة، صعد محمد بن عبد الله المنبر فخطب الناس وحثهم على الجهاد - وكانوا قريباً من مائة ألف - فقال لهم في جملة ما قال: إني جعلتكم في حل من بيعتي، فمن أحب منكم أن يقيم عليها فعل. ومن أحب أن يتركها فعل. ففسل كثير منهم أو أكثرهم عنه، ولم يبق إلا شذمة قليلة معه، وخرج أكثر أهل المدينة بأهلهم منها لثلاث شهدوا القتال بها، فقتلوا الأعراض ورؤس الجبال. وقد بعث محمد أبا الليث ليردهم عن الخروج فلم يمكنه ذلك في أكثرهم، واستمروا ذاهبين. وقال محمد لرجل أناخذ سيفاً ورمحاً وترد هؤلاء الذين خرجوا من المدينة؟ فقال: نعم إن أعطيتني رمحاً أطعنهم وهم بالأعراض، وسيفاً أضربهم وهم في رؤس الجبال فعلت. فسكت محمد ثم قال لي: ويحك؟ إن أهل الشام والعراق وخراسان قد يبضوا - يعني لبسوا البياض - موافقة لي وخلصوا السواد. فقال: وما ذا ينفعني أن لو بقيت الدنيا زبدة بيضاء - وأنا في مثل صوفة الدواة، وهذا عيسى بن موسى نازل بالأعوص. ثم جاء عيسى بن موسى فقتل قريباً من المدينة، على ميل منها، فقال له دليله ابن الأصم: إني أخشى إذا كشفتموه أن يرجعوا إلى معسكرهم سريعاً قبل أن تدركهم الخيل. ثم ارتحل به فأنزله الجرف على سقاية سليمان بن عبد الملك على أربعة أميال من المدينة، وذلك يوم السبت لصبح اثنى عشرة ليلة خلت من رمضان من هذه السنة. وقال: إن الراجل إذا هرب لا يقدر على المرولة أكثر من ميلين أو ثلاثة فتدركه الخيل.

وأرسل عيسى بن موسى خمسمائة فارس فقتلوا عند الشجرة في طريق مكة، وقال لهم هذا الرجل إن هرب فليس له ملجأ إلا مكة، فحولوا بينه وبينها. ثم أرسل عيسى إلى محمد يدعوهم إلى السمع والطاعة لأمر المؤمنين المنصور، وأنه قد أعطاه الأمان له ولا هل بيته إن هو أجابه. فقال محمد للرسول: لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتك. ثم بعث إلى عيسى بن موسى يقول له: إني أدعوك إلى كتاب الله وسنة رسوله، فاحذر أن تمتنع فأقتلك فتكون شرقيلاً، أو تقتلني فتكون قتلت من دعاك إلى الله ورسوله. ثم جعلت الرسل تتردد بينهما ثلاثة أيام. هذا يدعو هذا، وهذا يدعو هذا. وجعل عيسى بن موسى يقف في كل يوم من هذه الأيام الثلاثة على الثنية عند سلع فينادي: يا أهل المدينة إن دماءكم علينا حرام فمن جاءنا فوقف تحت رايتنا فهو آمن، ومن خرج من المدينة فهو آمن، ومن دخل داره فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، فليس لنا في قتالكم أرب، وإنما نريد محمداً

وحده لنذهب به إلى الخليفة . فجمعوا يسبونه وينالون من أمه ، ويكلمونه بكلام شنيع ، ويخاطبونه مخاطبة فظيعة . وقالوا له : هذا ابن رسول الله (ص) ، معنا ونحن معه ، نقاتل دونه .

فلما كان اليوم الثالث أنعم في خيـل ورجال وسلاح ورماح لم ير مثلها ، فناداه يا محمد ! إن أمير المؤمنين أمرني أن لا أقاتلك حتى أدعوك إلى الطاعة ، فإن فلت أمتك وقضى دينك وأعطاك أموالاً وأراضى ، وإن أبيت قاتلتك فقد دعوتك غير مرة . فناداه محمد : إنه ليس لكم عندي إلا القتال . فنشبت الحرب حينئذ بينهم ، وكان جيش عيسى بن موسى فوق أربعة آلاف ، وعلى مقدمته حميد بن قحطبة ، وعلى يمينته محمد بن السفاح ، وعلى يسارته داود بن كرار ، وعلى الساقة الهيثم بن شعبة ، ومعهم عدد لم ير مثلها . وفرق عيسى أصحابه في كل قطر طائفة . وكان عهد وأصحابه على عدة أصحاب أهل بدر ، واقتتل الفريقان قتالاً شديداً جداً ، وترجل محمد إلى الأرض فيقال إنه قتل بيده من جيش عيسى بن موسى سبعين رجلاً من أبطالهم ، وأحاط بهم أهل العراق فقتلوا طائفة من أصحاب محمد بن عبد الله بن حسن ، فالتحموا عليهم الخندق الذي كانوا حفروه وعملوا أبواباً على قدره ، وقيل إنهم ردموه بمحاريج الجبال حتى أمكنهم أن يجوزوه ، وقد يكونون فعلوا هذا موضع منه ، وهذا في موضع آخر والله أعلم .

ولم تزل الحرب ناشبة بينهم حتى صليت العصر . فلما صلى محمد العصر نزلوا إلى مسيل الوادي بسلع فكسر جفن سيفه وعقر فرسه وفعل أصحابه مثله وصبروا أنفسهم للقتال وحيت الحرب حينئذ جداً ، فاستظهر أهل العراق ورفعوا راية سوداء فوق سلع ، ثم دنوا إلى المدينة فدخلوها ونصبوا راية سوداء فوق مسجد رسول الله (ص) .

فلما رأى ذلك أصحاب محمد تنادوا : أخنت المدينة ، هربوا وبقي محمد في شذمة قليلة جداً ثم بقي وحده وليس معه أحد ، وفي يده سيف صلت يضرب به من تقدم إليه ، فكان لا يقوم له شيء إلا أنامه ، حتى قتل خلقاً من أهل العراق من الشجعان ، ويقال إنه كان في يده يومئذ ذو الفقار ثم تكاثر عليه الناس فتقدم إليه رجل فضر به بسيفه تحت شحمة أذنه اليمنى فسقط لركبتيه وجعل يحمى نفسه ويقول : ويحكم ابن نبيكم مجروح مظلوم . وجعل حميد بن قحطبة يقول : ويحكم ادعوه لا تقتلوه ، فأحجم عنه الناس وتقدم إليه حميد بن قحطبة فخر رأسه وذهب به إلى عيسى بن موسى فوضعه بين يديه . وكان حميد قد حلف أن يقتله متى رآه ، فما أدركه إلا كذلك ولو كان على حاله وقوته لما استطاعه حميد ولا غيره من الجيش .

وكان مقتل محمد بن عبد الله بن حسن عند أحجار الزيت يوم الاثنين بعد العصر ، لا ربيع عشرة ليلة خلت من رمضان سنة خمس وأربعين ومائة ، وقال عيسى بن موسى لأصحابه حين وضع

رأسه بين يديه : ما تقولون فيه ؟ فقال منه أقوام وتكلموا فيه ، فقال رجل : كذبتم والله ! لقد كان صواما قواما ، ولكنه خالف أمير المؤمنين وشق عصي المسلمين فقتلناه على ذلك . فسكتوا حينئذ .
وأما سيفه ذو الفقار فانه صار إلى بني العباس يتوارثونه حتى جرب به بعضهم فضرب به كلباً فانقطع .
ذكره ابن جرير وغيره . وقد بلغ المنصور في غيـون هذا الأمر أن محمداً فر من الحرب فقال : هذا لا يكون ، فانا أهل بيت لا نفر .

وقال ابن جرير : حدثني عبد الله بن راشد حدثني أبو الحجاج قال : إني لقائم على رأس المنصور وهو يسألني عن مخرج محمد ، إذ بلغه أن عيسى بن موسى قد انهزم وكان متكئاً فجلس فضرب بقضيب معه مصلاه وقال : كلا وأين لعب صبياننا بها على المنابر ومشورة النساء ؟ ما أنى لذلك بعد .
وبعث عيسى بن موسى بالبشارة إلى المنصور مع القاسم بن الحسن وبالرأس مع ابن أبي الكرام ، وأمر بدفن الجثة فدفن بالبقيع ، وأمر بأصحابه الذين قتلوا معه فصلبوا صفين ظاهر المدينة ثلاثة أيام ثم طرحوا على مقبرة اليهود عند سلج . ثم نقلوا إلى خندق هناك . وأخذ أموال بني حسن كلها فسوغها له المنصور ، ويقال إنه ردها بعد ذلك إليهم ، حكاه ابن جرير . ونودي في أهل المدينة بالأمان فأصبح الناس في أسواقهم ، وترفع عيسى بن موسى في الجيش إلى الجرف من مطر أصاب الناس يوم قتل محمد ، وجعل يفتاب المسجد من الجرف ، وأقام بالمدينة إلى اليوم التاسع عشر من رمضان ، ثم خرج منها قاصداً مكة وكان بها الحسن بن معاوية من جهة محمد ، وكان محمد قد كتب إليه يقدم عليه ، فلما خرج من مكة وكان ببعض الطريق تلقته الأخبار بقتل محمد ، فاستمر فاراً إلى البصرة إلى أخي محمد إبراهيم بن عبد الله ، الذي كان قد خرج بها ثم قتل بعد أخيه في هذه السنة على ما سنده .
ولما جرى المنصور برأس محمد بن عبد الله بن حسن فوضع بين يديه أمر به فطيف به في طبق أبيض ثم طيف به في الأقاليم بعد ذلك ، ثم شرع المنصور في استدعاء من خرج مع محمد من أشراف أهل المدينة ، فنهـم من قتله ومنهم من ضربه ضرباً مبرحاً ، ومنهم من عفا عنه . ولما توجه عيسى إلى مكة استناب على المدينة كثير بن حصين ، فاستمر بها شهراً حتى بعث المنصور على نيايتها عبد الله بن الربيع ، فمات جنده في المدينة فصاروا إذا اشتروا من الناس شيئاً لا يعطونهم منه ، وإن طولبوا بذلك ضربوا المطالب وخوفوه بالقتل ، فثار عليهم طائفة من السودان واجتمعوا ونفخوا في بوق لهم فاجتمع على صوته كل أسود في المدينة ، وحملوا عليهم حملة واحدة وهم ذاهبون إلى الجمعة ، لسبع بقين من ذي الحجة من هذه السنة ، وقيل لخمس بقين من شوال منها ، فقتلوا من الجند طائفة كثيرة بالزاريق وغيرها ، وهرب الأمير عبد الله بن الربيع وترك صلاة الجمعة . وكان رؤس السودان : وثيق ويعقل ورمقة وحديا وعنقود ، ومسر ، وأبو النار . فلما رجع عبد الله بن الربيع ركب في جنوده

والتقى مع السودان فهزموه أيضا فلهقوه بالقيع فالتقى لهم رداه يشغلهم فيه حتى يحيا بنفسه ومن اتبعه ، فلهق بيطن نخل على ليلتين من المدينة ، ووقع السودان على طمام المنصور كان مخزونا في دار مروان قد قدم به في البحر قهيوه ونهبوا ما للجند الذين بالمدينة من دقيق وسويق وغيره ، وباعوا ذلك بأرخص ثمن . وذهب الخبر إلى المنصور بما كان من أمر السودان ، وخاف أهل المدينة من مرة ذلك ، فاجتمعوا وخطبهم ابن أبي سبرة - وكان مسجوناً - فصعد المنبر وفي رجله القيود ، فحثهم على السمع والطاعة للمنصور ، وخوفهم شر ما صنعه مواليهم ، فانفق رأيهم على أن يكفوا مواليهم ويفرقوهم وينهبوا إلى أميرهم فيردوه إلى عمله ، ففعلوا ذلك ، فسكن الأمر وهذا الناس وانطفت الشرور ، ورجع عبد الله بن الربيع إلى المدينة فقطع يد وثيق وأبى النار ويقتل ومعه .

ذكر خروج ابراهيم بن عبد الله بن حسن بالبصرة

كان إبراهيم قد هرب إلى البصرة فقتل في بني ضبيعة من أهل البصرة ، في دار الحارث بن عيسى ، وكان لا يرى بالنهار ، وكان قدومه إليها بعد أن طاف بلاداً كثيرة جداً ، وجرت عليه وعلى أخيه خطوط شديدة هائلة ، وانعد أسباب هلاكهما في أوقات متعددة ، ثم كان آخر ما استقر أمره بالبصرة في سنة ثلاث وأربعين ومائة ، بعد منصرف الحجيج . وقيل إن قدومه إليها كان في مستهل رمضان سنة خمس وأربعين ومائة ، بعثه أخوه إليها بعد ظهوره بالمدينة ، قاله الواقدي . قال : وكان يدعو في السر إلى أخيه ، فلما قتل أخوه أظهر الدعوة إلى نفسه في شوال من هذه السنة ، والمشهور أنه قدمها في حياة أخيه ودعا إلى نفسه كما تقدم والله أعلم .

ولما قدم البصرة نزل عند يحيى بن زياد بن حسان النبطي ، فاخفى عنده هذه المدة كلها ، حتى ظهر في هذه السنة في دار أبي فروة ، وكان أول من بايعه نعيمة بن مرة ، وعبيد الله بن سفيان ، وعبد الواحد بن زياد ، وعمر بن سلمة الهجيمي ، وعبيد الله بن يحيى بن حصين الرقاشي . وندبوا الناس إليه فاستجاب له خلق كثير فنحول إلى دار أبي مروان في وسط البصرة ، واستفحل أمره ، وبايعه فقام من الناس ، وتفاقم الخطب به ، وبلغ خبره إلى المنصور فازداد غماً إلى غمه بأخيه محمد ، وذلك لأنه ظهر قبل مقتل أخيه وإنما كان سبب تعجيله الظهور كتاب أخيه إليه فامتثل أمره ودعا إلى نفسه ، فانتظم أمره بالبصرة ، وكان نائبهما من جهة المنصور سفيان بن معاوية وكان ممالئاً لإبراهيم هذا في الباطن ، ويبلغه أخباره فلا يكثرث بها ، ويكنب من أخبره ويود أن يتضح أمر إبراهيم ، وقد أمده المنصور بأمرين من أهل خراسان معهما ألفا فارس وراجل ، فأنزلهما عنده ليتقوى بهما على محاربة إبراهيم ، وتحول المنصور من بغداد - وكان قد شرع في عمارتها - إلى الكوفة ، وجعل كلما اتهم رجلاً من أهل الكوفة في أمر إبراهيم بعث إليه من يقتله في الليل في منزله ، وكان الغرافصة

المجلى قدم بالوثوب بالكوفة فلم يمكنه ذلك لمكان المنصور بها ، وجعل الناس يقصدون البصرة من كل فج لمبايعة إبراهيم ، ويفدون إليها جماعات وفرادى ، وجعل المنصور يرصد لهم المسالح فيقتلونهم في الطريق ويأتونه برؤسهم فيصلبها بالكوفة ليتعظ بها الناس . وأرسل المنصور إلى حرب الراوندى - وكان مرابطاً بالجزيرة في أنفى فارس لقتال الخوارج - يستدعيه إليه إلى الكوفة ، فأقبل بمن معه فاجتاز ببلدة بها أنصار لا إبراهيم فقالوا له : لا ندعك تجتاز ، لأن المنصور إنما دعاك لقتال إبراهيم . فقال : ويحكم ! دعوني ، فأبوا فقاتلهم فقتل منهم خمسمائة وأرسل برؤسهم إلى المنصور . فقال : هذا أول الفتح . ولما كانت ليلة الاثنين مستهل رمضان من هذه السنة ، خرج إبراهيم في الليل إلى مقبرة بنى يشكر في بضعة عشر فارساً ، وقدم في هذه الليلة أبو حماد الأبرص في أنفى فارس مدداً سفيان ابن معاوية ، فأنزلهما الأمير في القصر ، ومال إبراهيم وأصحابه على دواب أولئك الجيش وأسلحتهم فأخذوها جميعاً ، فتقووا بها ، فكان هذا أول ما أصاب . وما أصبح الصباح إلا وقد استظهر جداً ، فصلى بالناس صلاة الصبح في المسجد الجامع ، والتف الخلائق عليه ما بين ناظر وناصر ، ونحس سفيان بن معاوية نائب الخليفة بقصر الامارة وحبس عنده الجنود فحاصروهم إبراهيم ، فطلب سفيان ابن معاوية من إبراهيم الأمان فأعطاه الأمان ، ودخل إبراهيم قصر الامارة فبسطت له حصير ليجلس عليها في مقدم إيوان القصر ، فهبت الريح فقلبت الحصير ظهراً لبطن ، فتطير الناس بذلك ، فقال إبراهيم : إنا لا تطير . وجلس على ظهر الحصير ، وأمر بحبس سفيان بن معاوية مقيداً وأراد بذلك براة ساحته عند المنصور ، واستحوذ على ما كان في بيت المال فاذا فيه ستمائة ألف ، وقيل ألفا ألف . أقوى بذلك جدا .

وكان في البصرة جعفر ومحمد ابنا سليمان بن علي ، وهما أبناعم الخليفة المنصور ، فركبا في ستمائة فارس إليه فهزمهما ، وأركب إبراهيم المضاء بن القاسم في ثمانية عشر فارساً وثلاثين راجلاً فهزم ستمائة فارس كانت لهما . وآمن من بقي منهم ، وبعث إبراهيم إلى أهل الأهواز فبايعوه وأطاعوه ، وأرسل إلى نائبها مائتي فارس عليهم المغيرة فخرج إليه محمد بن الحصين نائب البلاد في أربعة آلاف فارس فهزمه المغيرة واستحوذ على البلاد ، وبعث إبراهيم إلى بلاد فارس فأخذها ، وكذلك واسط والمدائن والسواد ، واستفحل أمره جداً ، ولكن لما جاءه نعي أخيه محمد انكسر جداً ، وصلى بالناس يوم العيد وهو مكسور . قال بعضهم : والله لقد رأيت الموت في وجهه وهو يخاطب الناس فنمى إلى الناس أخاه محمداً ، فازداد الناس حقاً على المنصور وأصبح فمسكر بالناس واستناب على البصرة نائلة وخلف ابنه حسنا معه .

ولما بلغ المنصور خبره تخير في أمره وجعل يتأسف على ما فرق من جنده في الممالك ، وكان قد

بعث مع ابنه المهدي ثلاثين ألفاً إلى الري ، وبعث مع محمد بن الأشعث إلى إفريقية أربعين ألفاً والباقيون مع عيسى بن موسى بالحجاز ، ولم يبق مع المنصور سوى ألفي فارس . وكان يأمر بالنيران الكثيرة فتوقد ليلاً ، فيحسب الناظر إليها أن ثم جنوداً كثيراً . ثم كتب المنصور إلى عيسى بن موسى : إذا قرأت كتابي هذا فأقبل من فورك ودع كل ما أنت فيه . فلم ينشب أن أقبل إليه فقال له : اذهب إلى إبراهيم بالبصرة ولا يهولتك كثرة من معه ، فانهم جملة بني هاشم المقتولون جميعاً ، فأبسط يدك وثق بما عندك وستذكر ما أقول لك فكان الأمر كما قال المنصور . وكتب المنصور إلى ابنه المهدي أن وجه خازم بن خزيمة في أربعة آلاف إلى الأهواز ، فذهب إليها فأخرج منها نائب إبراهيم - وهو المغيرة - وأباحها ثلاثة أيام ، ورجع المغيرة إلى البصرة ، وكذلك بعث إلى كل كورة من هذه الكور التي نقصت بيعته جنوداً يردون أهلها إلى الطاعة . قالوا : ولزم المنصور موضع مصلاه فلا يبرح منه ليلاً ونهاراً في ثياب بذلة قد اتسخت ، فلم يزل مقبياً هناك بضعا وخمسين يوماً حتى فتح الله عليه . وقد قيل له في غبون ذلك : إن نساءك قد خبثت أنفسهن لغيبك عنهن . فانهر القائل وقال : ويحك ليست هذه أيام نساء ، حتى أرى رأس إبراهيم بين يدي ، أو يحمل رأسي إليه . وقال بعضهم : دخلت على المنصور وهو مهوم من كثرة ما وقع من الشرور ، وهو لا يستطيع أن يتابع الكلام من كثرة همه ، وما تفتق عليه من الفتوق والخروق ، وهو مع ذلك قد أعد لكل أمر ما يسد خلله به ، وقد خرجت عن يده البصرة والأهواز وأرض فارس والمدائن وأرض السواد ، وفي الكوفة عنده مائة ألف مغمدة سيوفها تفتظر به صيحة واحدة ، فيثبون مع إبراهيم ، وهو مع ذلك يترك النوائب ويمررها ولم تقعد به نفسه وهو كما قال الشاعر :

نفسُ عصام سودتْ عصاما * وعلته الكرك والإقداما * فصيرته ملكاً هماما

وأقبل إبراهيم بعساكر من البصرة إلى الكوفة في مائة ألف مقاتل فأرسل إليه المنصور عيسى ابن موسى في خمسة عشر ألفاً ، وعلى مقدمته حميد بن قحطبة في ثلاثة آلاف . وجاء إبراهيم فنزل في باخرى في جحافل عظيمة ، فقال له بعض الأمراء : إنك قد اقتربت من المنصور فلو أنك سرت إليه بطائفة من جيشك لأخنت بقفاه فانه ليس عنده من الجيوش ما يردون عنه . وقال آخرون : إن الأولى أن نتاجز هؤلاء الذين بازائنا ، ثم هو في قبضتنا . فنظام ذلك عن الرأي الأول . ولو فعله لم لهم الأمر . ثم قال بعضهم : خندق حول الجيش . وقال آخرون : إن هذا الجيش لا يحتاج إلى خندق حوله ، فترك ذلك . ثم أشار بعضهم أن يبيت جيش عيسى بن موسى فقال إبراهيم : أنا لا أرى ذلك ، فتركه . ثم أشار آخرون بأن يجعل جيشه كراديس فان غلب كرادوس ثبت الآخر ، وقال آخرون : الأولى أن نقاتل صفوفاً لقوله تعالى [إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً

كانهم بنيان مرصوص] . والامر لله وما شاء فعل ولو ساروا إلى الكوفة وبيتوا الجيش أو جعل جيشه كراديس لم له الأمر مع تقدير الله تعالى

وأقبل الجيشان فتصافوا في باخرى وهي على ستة عشر فرسخاً من الكوفة فاقتتلوا بها قتالاً شديداً فانهمز حميد بن قحطبة بن معه من المقدمة ، فجعل عيسى يناشدهم الله في الرجوع والكره فلا يلوى عليه أحد ، وثبت عيسى بن موسى في مائة رجل من أهله ، فقيل له : لو تنحيت من مكانك هذا لثلا يحطملك جيش إبراهيم فقال : والله لا أزول منه حتى يفتح الله لي أو أقتل هاهنا . وكان المنصور قد تقدم إليه بما أخبره به بعض المنجمين أن الناس يكون لهم جولة عن عيسى بن موسى ثم يقومون إليه وتكون العاقبة له ، فاستمر المنهمزون ذاهبين فأنهوا إلى نهر بين جبلين فلم يمكنهم خوضه فكروا راجعين بأجمعهم ، وكان أول راجع حميد بن قحطبة الذي كان أول من انهزم . ثم اجنلوا هم وأصحاب إبراهيم فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وقتل من كلا الفريقين خلق كثير ، ثم انهزم أصحاب إبراهيم وثبت هو في خمسمائة ، وقيل في أربعمائة . وقيل في تسعين رجلاً ، واستظهر عيسى بن موسى وأصحابه ، وقتل إبراهيم في جملة من قتل واختلط رأسه مع رؤس أصحابه ، فجعل حميد يأتي بالرؤس إلى عيسى بن موسى حتى عرفوا رأس إبراهيم فبعثوه مع البشير إلى المنصور ، وكان نبيخت المنجم قد دخل على المنصور قبل مجيئ الرأس فأخبره أن إبراهيم مقتول فلم يصدقه ، فقال : يا أمير المؤمنين إن لم تصدقني فأحبسني فإن لم يكن الأمر كما ذكرت فاقتلني . فبينما هو عنده إذ جاء البشير بهزيمة جيش إبراهيم ، ولما جيئ الرأس تمثل المنصور ببيت معقر بن أوس بن حمار البارقى : فألقت عصاها واستقر بها النوى * كما قرئ عيناً بالاياب المسافر

وقيل إن المنصور لما رأى الرأس بكى حتى جعلت دموعه تسقط على الرأس وقال : والله لقد كنت لهذا كارها ، ولكنتك ابتليت بي وابتليت بك . ثم أمر بالرأس فنصب بالسوق . وأقطع نبيخت المنجم الكذاب ألفي جريب .

فهذا المنجم إن كان قد أصاب في قضية واحدة فقد أخطأ في أشياء كثيرة ، فهم كذبه كفره وقد كان المنصور في ضلال مع منجمه هذا ، وقد ورث الملوك اعتقاد أقوال المنجمين وذلك ضلال لا يجوز

وذكر صالح مولى المنصور قال : لما جيئ برأس إبراهيم جلس المنصور مجلساً عاماً وجعل الناس يدخلون عليه فيهنثونه وينالون من إبراهيم ويقبحون الكلام فيه ابتغاء مرضاة المنصور ، والمنصور ساكت متغير اللون لا يتكلم ، حتى دخل جعفر بن حنظلة البهراني فوقف فسلم ثم قال : أعظم الله

أجرك يا أمير المؤمنين في ابن عمك وغفر له ما فرط فيه من حقدك . قال فاصفر لون المنصور وأقبل عليه وقال له : يا أبا خالد مرحباً وأهلاً ، ههنا فاجلس . فعلم الناس أن ذلك وقع منه موقعاً جيداً . فجعل كل من جاء يقول كما قال جعفر بن حنظلة . قال أبو نعيم الفضل بن دكين : كان مقتل إبراهيم في يوم الخميس لخمس بقين من ذي الحجة من هذه السنة .

ذكر من توفي فيها من الأعيان

فمن أعيان أهل البيت عبد الله بن حسن وابناه محمد وإبراهيم ، وأخوه حسن بن حسن ، وأخوه لأمه محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان الملقب بالديباج . وقد تقدمت ترجمته . وأما أخوه عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي فتابعي ، روى عن أبيه وأمه فاطمة بنت الحسين وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وهو صحابي جليل ، وغيرهم . وروى عنه جماعة منهم سفيان الثوري والدرارودي ومالك ، وكان معظماً عند العلماء ، وكان عابداً كبير القدر . قال يحيى بن معين : كان ثقة صدوقاً ، وفد على عمر بن عبد العزيز فأكرمه ، ووفد على السفاح ففضله وأعطاه ألف ألف درهم ، فلما ولي المنصور عامله بعكس ذلك ، وكذلك أولاده وأهله ، وقد مضوا جميعاً والتقوا عند الله عز وجل ، وأخذه المنصور وأهل بيته مقيدين مغلولين مهانين من المدينة إلى الهاشمية ، فأودعهم السجن الضيق كما قدمنا ، فمات أكثرهم فيه ، فكان عبد الله بن حسن هذا أول من مات فيه بعد خروج ولده محمد بالمدينة ، وقد قيل إنه قتل في السجن عمداً . وكان عمره يوم مات خمسا وسبعين سنة ، وصلى عليه أخوه لأمه الحسن بن الحسن بن علي . ثم مات بعده أخوه حسن فصلى عليه أخوه لأمه محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان . ثم قتل بعدهما وحمل رأسه إلى خراسان كما تقدم .

وأما ابنه محمد الذي خرج بالمدينة فروى عن أبيه ونافع ، وعن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة في كيفية الهوى إلى السجود ، وحدث عنه جماعة ، ووثقه النسائي وابن حبان وقال البخاري : لا يتابع على حديثه . وقد ذكر أن أمه حملت به أربع سنين ، وكان طويلاً سمياً أسمر ضخماً ذا همة سامية ، وسطوة عالية وشجاعة باهرة ، قتل بالمدينة في منتصف رمضان سنة خمس وأربعين ومائة ، وله خمس وأربعون سنة . وقد حملوا برأسه إلى المنصور ، وطيف به في الأقاليم . وأما أخوه إبراهيم فكان ظهوره بالبصرة بعد ظهور أخيه بالمدينة وكان مقتله بعد مقتل أخيه في ذي الحجة من هذه السنة وليس له شيء في الكتب الستة ، وحكى أبو داود السجستاني عن أبي عوانة أنه قال : كان إبراهيم وأخوه محمد خارجين . قال داود : ليس كما قال ، هذا رأى الزيدية . قلت : وقد حكى عن جماعة من العلماء والأئمة أنهم مالوا إلى ظهورهما .

وفيه توفي من المشاهير والأعيان

الأجلح بن عبد الله ، وإسماعيل بن أبي خالد في قول ، وحبيب بن الشهيد ، وعبد الملك بن أبي سليمان ، وعمرو مولى عفرة ، ويحيى بن الحارث الذماري ، ويحيى بن سعيد أبو حيان التيمي ، ورؤبة بن المعجاج والمعجاج لقب واسمه أبو الشعثاء عبد الله بن رؤبة ، وأبو محمد التيمي البصري ، الراجز بن الراجز ، ولكل منهما ديوان رجز ، وكل منهما بارع في فنه لا يجاري ولا يمازي ، عالم بال لغة . وعبد الله بن المقفع الكاتب المفوه ، أسلم على يد عيسى بن علي عم السفاح والمنصور ، وكتب له ، وله رسائل وألغاز صحيحة ، وكان متبها بالزندقة ، وهو الذي صنف كتاب كيلة ودمنة ، ويقال : بل هو الذي عربها من المجوسية إلى العربية . قال المهدي : ما وجد كتاب زندقة إلا وأصله من ابن المقفع ، ومطيع بن إلياس ، ويحيى بن زياد . قالوا ونسى الجاحظ وهو رابعهم . وكان مع هذا فاضلا بارعا فصيحاً . قال الأصمعي : قيل لابن المقفع من أدبك ؟ قال : نفسي ، إذا رأيت من غيري قبيحاً أبيت ، وإذا رأيت حسناً أبيت . ومن كلامه : شربت من الخطب رياء ، ولم أضبط لها روياء ، ففاضت ثم فاضت ، فلهي نظاماً ، ولا نسيت غيرها كلاماً ،

وكان قتل ابن المقفع على يد سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب بن أبي صفرة نائب البصرة ، وذلك أنه كان يعث به ويسب أمه ، وإنما كان يسميه ابن المعلم ، وكان كبير الانف ، وكان إذا دخل عليه يقول : السلام عليكما - على سبيل التهم - وقال لسفيان بن معاوية مرة : ما ندمت على سكوت قط . فقال : صدقت ، الخرس لك خير من كلامك . ثم اتفق أن المنصور غضب على ابن المقفع فكتب إلى نائبه سفيان بن معاوية هذا أن يقتله ، فأخذ فأمحى له تنورا وجعل يقطعه إرباً إرباً ويلقيه في ذلك التنور حتى حرقه كله وهو ينظر إلى أطرافه كيف تقطع ثم تحرق ، وقيل غير ذلك في صفة قتله . قال ابن خلكان : ومنهم من يقول إن ابن المقفع نسب إلى بيع القفاح وهي من الجريد كالزنبيل بلا آذان ، والصحيح أنه ابن المقفع وهو أبو دارويه كان الحجاج قد استعمله على الخراج فخان فعاقبه حتى تقففت يداه والله أعلم .

وفيه خرج الترك والخزر بباب الأبواب قتلوا من المسلمين بأرمينية جماعة كثيرة . وحج بالناس في هذه السنة نائب المدينة عبد الله بن الربيع الحارثي . وعلى الكوفة عيسى بن موسى ، وعلى البصرة مسلم بن قتيبة ، وعلى مصر يزيد بن حاتم .

ثم دخلت سنة ست وأربعين ومائة

فيها تكامل بناء مدينة السلام ببغداد ، وسكنها المنصور في صفر من هذه السنة ، وكان مقبلاً قبل

ذلك بالهاشمية المتاخمة للكوفة ، وكان قد شرع في بنائها في السنة الخارجة ، وقيل في سنة أربع وأربعين ومائة فالله أعلم .

وقد كان السبب الباعث له على بنائها أن الراوندية لما وثبوا عليه بالكوفة ووقاه الله شرم ، بقيت منهم بقية نخشى على جنده منهم ، فخرج من الكوفة يرئد لهم موعدا لبناء مدينة ، فسار في الأرض حتى بلغ الجزيرة فلم ير موعداً أحسن لوضع المدينة من موضع بغداد الذي هي فيه الآن ، وذلك بأنه موضع يفداً إليه ويراح بخيرات ما حوله في البر والبحر ، وهو محصن بدجلة والفرات من ههنا وههنا ، لا يقدر أحد أن يتوصل إلى موضع الخليفة إلا على جسر ، وقد بات به المنصور قبل بنائه ليالي فرأى الرياح تهب به ليلاً ونهاراً من غير أنجمار ولا غبار ، ورأى طيب تلك البقعة وطيب هوائها ، وقد كان في موضعها قرى وديور لعماد النصارى وغيرهم - ذكر ذلك مفصلاً بأسماؤه وتعداد أبي جعفر ابن جرير - فحينئذ أمر المنصور باختطاطها فرمى حوله بالرماد فشى في طرقها ومسالكها فأعجب به ذلك ، ثم سلم كل ربيع منها لأمير يقوم على بنائه ، وأحضر من كل البلاد فعلاً وصناعاً ومهندسين ، فاجتمع عنده ألوف منهم ، ثم كان هو أول من وضع لبنة فيها بيته وقال : بسم الله والحمد لله ، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والمآب للمعتقين . ثم قال : ابنوا على بركة الله . وأمر بينائها مسدورة محكم سورها من أسفل خمسة أذراعاً ، ومن أعلاه عشرون ذراعاً ، وجعل لها ثمانية أبواب في السور للبراني ، ومثلها في الجواني ، وليس كل واحد تجاه الآخر ، ولكن جعله أزور عن الذي يليه ، ولهذا سميت ببغداد الزوراء ، لازورار أبوابها بعضها عن بعض ، وقيل سميت بذلك لانحراف دجلة عندها . وبنى قصر الإمارة في وسط البلد ليكون الناس منه على حد سواء ، واختط المسجد الجامع إلى جانب القصر ، وكان الذي وضع قبلته الحجاج بن أرطاة . وقال ابن جرير : ويقال إن في قبلته انحرافاً يحتاج المصلى فيه أن ينحرف إلى ناحية باب البصرة ، وذكر أن مسجد الرصافة أقرب إلى الصواب منه لأنه بنى قبل القصر ، وجامع المدينة بنى على القصر ، فاختلفت قبلته بسبب ذلك . وذكر ابن جرير عن سليمان بن مجاهد أن المنصور أراد أبا حنيفة النعمان بن ثابت على القضاء بها ثانياً وامتنع فحلف المنصور أن يتولى له ، وحلف أبو حنيفة أن لا يتولى له ، فولاه القيام بأمر المدينة وضرب اللين ، وأخذ الرجال بالعمل ، فتولى ذلك حتى فرغوا من استتمام حائط المدينة مما يلي الخندق ، وكان استتمامه في سنة أربع وأربعين ومائة . قال ابن جرير : وذكر عن الهيثم بن عدي أن المنصور عرض على أبي حنيفة القضاء والمظالم فامتنع ، فحلف أن لا يقلع عنه حتى يعمل له ، فأخبر بذلك أبو حنيفة فقاما بقهصة فمد اللين ليبر بذلك يمين أبي جعفر ، ومات أبو حنيفة ببغداد بعد ذلك . وذكر أن خالد ابن برمك هو الذي أشار على المنصور بينائها ، وأنه كان مستحثاً فيها للصناع ، وقد شاور المنصور

الأمراء في نقل القصر الأبيض من المدائن إلى بغداد لأجل قصر الإمارة بها ، فقالوا : لا تفعل فإنه آية في العالم ، وفيه مصلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب . فخالفهم ونقل منه شيئاً كثيراً فلم يف ما تحصل منه بأجرة ما يصرف في حمله فتركه ، ونقل أبواب قصر واسط إلى أبواب قصر الإمارة ببغداد . وقد كان الحجاج نقل حجارته من مدينة هناك كانت من بناء سليمان بن داود ، وكانت الجن قد عملت تلك الأبواب ، وهي حجارة هائلة . وقد كانت الأسواق وضجيجها تسمع من قصر الإمارة ، فكانت أصوات الباعة وهوسات الأسواق تسمع منه ، فعاب ذلك بعض بطارقة النصاري ممن قدم في بعض الرسائل من الروم ، فأمر المنصور بنقل الأسواق من هناك إلى موضع آخر ، وأمر بتوسعة الطرقات أربعين ذراعاً في أربعين ذراعاً ، ومن بنى في شيء من ذلك هدم .

قال ابن جرير : وذكر عن عيسى بن المنصور أنه قال : وجدت في خزائن المنصور في الكتب أنه أنفق على بناء مدينة السلام ومسجدها الجامع وقصر الذهب بها والأسواق وغير ذلك ، أربعة آلاف ألف وثماني مائة ألف وثلاثة وثمانين ألف درهم ، وكان أجرة الأستاذ من البنائين كل يوم قيراط فضة ، وأجرة الصانع من الحبتين إلى الثلاثة . قال الخطيب البغدادي : وقد رأيت ذلك في بعض الكتب ، وحكى عن بعضهم أنه قال : أنفق عليه ثمانية عشر ألف ألف فالف الله أعلم .

وذكر ابن جرير أن المنصور ناقص أحد المهندسين الذي بنى له بيتاً حسناً في قصر الإمارة فنقصه درهما عما ساومه ، وأنه حاسب بعض المستحثين على الذي كان عنده ففضل عنده خمسة عشر درهما فحبسه حتى جاء بها وأحضرها وكان شحيحاً . قال الخطيب : وبنائها مدورة ، ولا يعرف في أقطار الأرض مدينة مدورة سواها ، ووضع أساسها في وقت اختاره له نوبخت المنجم . ثم ذكر عن بعض المنجمين قال قال لي المنصور لما فرغ من بناء بغداد : خذ الطالع لها ، فنظرت في طالعها - وكان المشتري في القوس - فأخبرته بما تدل عليه النجوم ، من طول زمانها ، وكثرة عمارتها ، وانصباب الدنيا إليها وقرر الناس إلى ما فيها . قال : ثم قلت له : وأبشرك يا أمير المؤمنين أنه لا يموت فيها أحد من الخلفاء أبداً . قال : فرأيت أنه يبتسم ثم قال : الحمد لله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . وذكر عن بعض الشعراء أنه قال في ذلك شعراً منه :

قضى ربها أن لا يموت خليفة * بها إنه ما شاء في خلقه يقضي

وقد قرره على هذا الخطأ الخطيب وسلم ذلك ولم ينقصه بشيء بل قرره مع اطلاعه ومعرفته . قال : وزعم بعض الناس أن الأمين قتل بدرب الأنبار منها فذكر ذلك للقاضي أبي القاسم علي بن حسن التنوخي فقال : محمد الأمين لم يقتل بالمدينة ، وإنما كان قد نزل في سفينة إلى دجلة ليتنزه فقبض عليه في وسط دجلة وقتل هناك . ذكر ذلك الصولي وغيره .

وذكر عن بعض مشايخ بغداد أنه قال : اتساع بغداد مائة وثلاثون جريباً ، وذلك بقدر ميلين في ميلين ، قال الامام أحمد : بغداد من الصراة إلى باب التين . وذكر الخطيب أن بين كل بايين من أبوابها الثمانية ميلاً ، وقيل أقل من ذلك . وذكر الخطيب صفة قصر الامارة وأن فيه القبة الخضراء طولها ثمانون ذراعاً ، على رأسها تمثال فرس عليه فارس في يده رمح يدور به فأى جهة استقبلها واستمر مستقبلها ، علم الساطن أن في تلك الجهة قد وقع حدث فلم يلبث أن يأتي الخليفة خبره . [وهذه القبة وهي على مجلس في صدر إيوان المحكمة وطوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً . وقد سقطت هذه القبة في ليلة برد ومطر ورعد وبرق ، ليلة الثلاثاء لسبع خلون من شهر جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وثلاثمائة] .^(١)

وذكر الخطيب البغدادي أنه كان يباع في بغداد في أيام المنصور الكبيش الغنم بدرهم والحل بأربعة دوانق ، وينادي على لحم الغنم كل ستين طلا بدرهم ، ولحم البقر كل تسعين رطلا بدرهم ، والتمر كل ستين رطلا بدرهم ، والزيت ستة عشر رطلا بدرهم ، والسمن ثمانية أرطال بدرهم ، والعسل عشرة أرطال بدرهم . ولهذا الامن والرخص كثير ساكنوها وعظم أهلها وكثير الدارج في أسواقها وأزقتها ، حتى كان المار لا يستطيع أن يجتاز في أسواقها لكثرة زحام أهلها . قال بعض الأمراء وقد رجع من السوق : طال والله ما طردت خلف الأرناب في هذا المكان .

وذكر الخطيب أن المنصور جلس يوماً في قصره فسمع ضجة عظيمة ثم أخرى ثم أخرى فقال للربيع الحاجب : ما هذا ؟ فكشف فإذا بقرة قد نفرت من جازرها هاربة في الأسواق ، فقال الرومي : يا أمير المؤمنين إنك بنيت بناء لم يبنه أحد قبلك ، وفيه ثلاثة عيوب ، بعده من الماء ، وقرب الأسواق منه ، وليس عنده خضرة ، والعين خضرة تحب الخضرة . فلم يرفع بها المنصور رأساً ثم أمر بتغيير ذلك ، ثم بعد ذلك ساق إليها الماء وبني عندها البساتين ، وحول الأسواق من ثم إلى الكرخ . قال يعقوب بن سفيان : كل بناء بغداد في سنة ست وأربعين ومائة ، وفي سنة سبع وخمسين حول الأسواق إلى باب الكرخ وباب الشمير وباب الحول وأمر بتوسعة الأسواق أربعين ألفاً ، وبعد شهرين من ذلك شرع في بناء قصره المسمى بالخلد ، فكل سنة ثمان وخمسين ومائة .

وجعل أمر ذلك إلى رجل يقال له الوضاح ، وبني للعامة جامعاً للصلاة والجمعة لتلا يدخلوا إلى جامع المنصور ، فأما دار الخلافة التي كانت ببغداد بعد ذلك فأنها كانت للحسن بن سهل ، فانتقلت من بعده إلى بوران زوجة المأمون ، فطلبها منها المعتضد - وقيل المعتمد - فأعنت له بها ، ثم استنظرت أياها حتى تنتقل منها فأنظرها ، فشرعت في تلك الأيام في ترميمها وتبييضها وتحسينها ، ثم فرشتها

بأنواع الفرش والبسط ، وعلقت فيها أنواع الستور ، وأرصدت فيها ما ينبغي للخلافة من الجوارى والخدم ، وألبستهم أنواع الملابس ، وجعلت في الخزائن ما ينبغي من أنواع الأطعمة والمأكول ، وجعلت في بعض بيوتها من أنواع الأموال والذخائر ، ثم أرسلت بمفاتيحها إليه ، ثم دخلها فوجد فيها ما أرصدته بها ، فهاله ذلك واستعظمه جداً ، وكان أول خليفة سكنها وبني عليها سوراً . ذكره الخطيب .

وأما التاج فبناه المكتفى على دجلة وحوله القباب والمجالس والميدان والنريا وحير الوحوش . وذكر الخطيب صفة دار الشجرة التي كانت في زمن القادر بالله ، وما فيها من الفرش والستور والخدم والممالك والحشمة الباهرة ، والدنيا الظاهرة ، وأنها كان بها إحدى عشر ألف طواشي ، وسبعائة حاجب . وأما الممالك فألوف لا يحصون كثرة ، وسيأتي ذكر ذلك مفصلاً في أيامهم ودولتهم التي ذهبت كأنها أحلام نوم ، بعد سنة ثلثمائة . وذكر الخطيب دار الملك التي بالخرم ، وذكر الجوامع التي تقام فيها الجمعات ، وذكر الأنهار والجسور التي بها ، وما كان في ذلك في زمن المنصور ، وما أحدث بعده إلى زمانه ، وأئند لبعض الشعراء في جسور بغداد التي على دجلة :

يوم سرقنا العيش فيه خلصة * في مجلس بناء دجلة مفرد
رق الهواء برقة وقدامة * ففدوت رقاً للزمان المسعد
فكان دجلة طيلساناً أبيض * والجسر فيها كالطراز الأسود
يا حبذا جسر على متن دجلة * باتقان تأسيس وحسن وروني
جمال وحسن للعراق ونزهة * وسلوة من أضناه فرط التشوق
نراه إذا ما جنته متاملاً * كسطر عبير خط في وسط مهرق
أو العالج فيه الأبنوس مرقد * مثال فيول تحنها أرض زنبق

وذكر الصولي قال : ذكر أحمد بن أبي طاهر في كتاب بغداد أن ذرع بغداد من الجانبين ثلاثة وخمسون ألف جريب ، وأن الجانب الشرقي ستة وعشرون ألف جريب وسبعائة وخمسون جريباً وأن عدة حماماتها ستون ألف حمام ، وأقل ما في كل حمام منها خمسة نفر حمامي وقيم وزبال ووقاد وسقاء ، وأن بازاء كل حمام خمسة مساجد ، فذلك ثلثمائة ألف مسجد ، وأقل ما يكون في كل مسجد خمسة نفر - يعني إماماً وقيماً وأذوقاً ومأمومين - ثم تناقصت بعد ذلك ، ثم دثرت بعد ذلك حتى صارت كأنها خربة صورة ومعنى . على ما سيأتي بيانه في موضعه .

وقال الحافظ أبو بكر البغدادى : لم يكن لبغداد نظير في الدنيا في جلالة قدرها ، ونخامة أمرها ، وكثرة علمائها وأعلامها ، وتميز خواصها وعوامها ، وعظم أقطارها ، وسعة أطرافها ،

وكثرة دورها ودروبها ومنازلها وشوارعها ومساجدها وحماماتها وخاناتها ، وطيب هوائها وعذوبة ماؤها وبرد ظلالها واعتدال صيفها وشتائها ، وصحة ربيعها وخريفها ، وأكثر ما كانت عمارة وأهلا في أيام الرشيد ، ثم ذكرتنا قص أحوالها وهلم جرا إلى زمانه . قلت : وكذا من بعده إلى زماننا هذا ، ولا سيما في أيام هولاكو بن تولى بن جنكز بن خان التركي الذي وضع معالمها وقتل خليفتها وعالمها وخرّب دورها وهدم قصورها وأباد الخواص والعوام من أهلها في ذلك العام ، وأخذ الأموال والحواسل ، ونهب القدراري والأصائل ، وأورث بها حزنا يمدد به في المبكرات والأصائل ، وصيرها مثلة في الأقاليم ، وعبرة لكل معتبر عليم ، وتذكرة لكل ذي عقل مستقيم ، وبدلت بعد تلاوة القرآن بالنغمات والألحان ، وإنشاد الأشعار ، وكان . وكان . وبعد سماع الأحاديث النبوية بدرس الفلسفة اليونانية ، والمناهج الكلامية والتأويلات القرطبية ، وبعد العلماء بالأطباء ، وبعد الخليفة العباسي بشر الولاية من الاناسي ، وبعد الرياضة والنباهة بالخصاسة والسفاهة ، وبعد الطلبة المستغنين بالظلة والعيارين ، وبعد العلم بالفقه والحديث وتعبير الرؤيا ، بالموشح ودوييت ومواليا . وما أصابهم ذلك إلا ببعض ذنوبهم [وما ربك بظلام للعبيد] والتحول منها في هذه الأزمان لكثرة ما فيها من المنكرات الحسية والمعنوية ، وأكل الحشيشة ، والانتقال عنها إلى بلاد الشام الذي تكفل الله بأهلها أفضل وأكل وأجل . وقد روى الامام أحمد عن رسول الله (ص) ، أنه قال : « لا تقوم الساعة حتى يتحول خيار أهل العراق إلى الشام ، وشرار أهل الشام إلى العراق » .

ماورد في مدينة بغداد من الآثار وما فيها من الأخبار

فيها أربع لغات بغداد وبغداد بأهمال الذال الثانية وإعجمها ، وبغدان بالنون آخره وبالميم مع ذلك أولا مغدان ، وهي كلمة أعجمية قيل إنها مركبة من بغ وداد قيل بغ بستان وداد اسم رجل ، وقيل بغ اسم صنم وقيل شيطان وداد عطية أي عطية الصنم ، ولهذا كره عبد الله بن المبارك والأصمعي وغيرهما تسميتها ببغداد وإنما يقال لها مدينة السلام ، وكذا أسماها بأنها أبو جعفر المنصور ، لأن دجلة كان يقال لها وادي السلام ، ومنهم من يسميها الزوراء .

فروى الخطيب البغدادي من طريق عمار بن سيف - وهو منهم - قال : سمعت عاصم الأحول يحدث عن سفیان الثوري عن أبي عثمان عن جرير بن عبد الله قال قال رسول الله (ص) : « تبنى مدينة بين دجلة ودجيل وقطر بل والصرّة نجي إليها خزائن الأرض ، وملوكها جبابرة ، فلهي أسرع ذهابا في الأرض من الوند الحديد في الأرض الرخوة » . قال الخطيب : وقد رواه عن عاصم الأجل سيف ابن أخت سفیان الثوري ، وهو أخو عمار بن سيف . قلت : وكلاهما ضعيف منهم يرى بالكذب ، ومحمد بن جابر اليماني ضعيف ، وأبو شهاب الخنطلي ضعيف . وروى عن سفیان الثوري

عن عاصم من طرق ثم أسند ذلك كله . وأورد من طريق يحيى بن معين عن يحيى بن أبي كثير عن
عمار بن سيف عن الثوري عن عاصم عن أبي عثمان عن جرير عن النبي (ص) . وقال أحمد ويحيى :
يس لهذا الحديث أصل . وقال أحمد : ما حدث به إنسان ثقة ، وقد علاه الخطيب من جميع طرقه
وسقه أيضاً من طريق عمار بن سيف عن الثوري عن أبي عبيدة حميد الطويل ، عن أنس بن
مالك ، ولا يصح أيضاً . ومن طريق عمر بن يحيى عن سفيان عن قيس بن مسلم عن ربي عن حذيفة
مرفوعاً بنحوه ، ولا يصح . ومن غير وجه عن علي بن أبي طالب وابن مسعود وثوبان وابن عباس ،
وفي بعضها ذكر السفياني « وأنه يخرّبها » ولا يصح إسناد شيء من هذه الأحاديث . وقد أوردها
الخطيب بأسانيدھا وألفاظھا ، وفي كل منها نكارة ، وأقرب ما فيها عن كعب الأحبار وقد جاء في
آثار عن كتب متقدمة أن بانها يقال له مقلص وذو الدوانيق لبخله .

فَضَّلَ

محاسن بغداد ومساوئها وما روى في ذلك عن الأئمة

قال يونس بن عبد الأعلى الصدفي : قال لي الشافعي : هل رأيت بغداد ؟ قلت لا فقال : ما رأيت
الدنيا . وقال الشافعي : ما دخلت بلدا قط إلا عدته سفرا ، إلا بغداد فاني حين دخلتها عدتها
وطنا . وقال بعضهم : الدنيا بادية و بغداد حاضرتها . وقال ابن علية : ما رأيت أعقل في طلب
الحديث من أهل بغداد ، ولا أحسن دعة منهم . وقال ابن مجاهد : رأيت أبا عمرو بن العلاء في
النوم قلت : ما فعل الله بك ؟ فقال لي : دعني من هذا ، من أقام ببغداد على السنة والجماعة ومات
نقل من جنة إلى جنة . وقال أبو بكر بن عياش : الاسلام ببغداد ، وإنها لصيادة تصيد الرجال ،
ومن لم يرها لم ير الدنيا . وقال أبو معاوية : بغداد دار دنيا وآخرة . وقال بعضهم : من محاسن الاسلام
يوم الجمعة ببغداد ، وصلاة التراويح بمكة ، ويوم العيد بطرسوس . قال الخطيب : من شهد يوم
الجمعة بمدينة السلام عظم الله في قلبه محل الاسلام ، لأن مشايخنا كانوا يقولون يوم الجمعة ببغداد كيوم
العيد في غيرها من البلاد . وقال بعضهم : كنت أواظب على الجمعة بجامع المنصور فعرض لي شغل
فصليت في غيره فرأيت في المنام كأن قائلا يقول : تركت الصلاة في جامع المدينة وإنه ليصلي فيه
كل جمعة سبعون ولياً . وقال آخر : أردت الانتقال من بغداد فرأيت كأن قائلا يقول في المنام :
أنتقل من بلد فيه عشرة آلاف ولي لله عز وجل ؟ وقال بعضهم : رأيت كأن ملكين أتيا ببغداد
فقال أحدهما لصاحبه : اقلبها . فقد حق القول عليها : فقال الآخر كيف أقلب ببلد يختم فيها
القرآن كل ليلة خمسة آلاف ختم ؟ وقال أبو مسهر عن سعيد بن عبد العزيز بن سليمان بن موسى
قال : إذا كان علم الرجل حجازيا وخلقه عراقيا وصلاته شامية فقد كل . وقالت زبيدة لمنصور

الفرى قل شعرا تحبب فيه بغداد إلى . فقد اختار عليها الراققة فقال :
 ما ذا ببغداد من طيب الأفاين * ومن منازة الدنيا ولدين
 نحي الرياح بها المرضى إذا نسمت * وجوش بين أغصان الرياحين
 قال . فأعطته ألفي دينار . وقال الخطيب : وقرأت في كتاب طاهر بن مظفر بن طاهر الخازن
 بخطه من شعره :

سقى الله صوب الغاديات حلة * ببغداد بين الكرخ والخلد فالحجر
 هي البلدة الحسنة خصت لأهلها * بأشياء لم يجمعن مذكن في مصر
 هواء رقيق في اعتدال وصحة * وماء له طعم ألد من الخمر
 ودجلتها شيطان قد نظا لنا * بتاج إلى تاج وقصر إلى قصر
 تراها كسك والمياه كفضة * وحصاؤها مثل اليواقيت والدر

وقد أورد الخطيب في هذا أشعاراً كثيرة وقها ذكرنا كفاية . وقد كان الفراغ من بناء بغداد
 في هذه السنة - أعنى سنة ست وأربعين ومائة - وقيل في سنة ثمان وأربعين ، وقيل إن خندقها
 وسورها كلاً في سنة سبع وأربعين ، ولم يزل المنصور يزيد فيها ويتأنق في بنائها حتى كان آخر ما بنى
 فيها قصر الخلد ، فظن أنه يخلد فيها ، أو أنها تخلد فلا تخرب ، فعند كاله مات . وقد خربت بغداد
 مرات كما سيأتى بيانه .

قال ابن جرير : وفي هذه السنة عزل المنصور سلم بن قتيبة عن البصرة وولى عليها محمد بن
 سليمان بن علي ، وذلك لأنه كتب إلى سلم يأمره بهدم بيوت الذين بايعوا إبراهيم بن عبد الله بن حسن
 فتوانى في ذلك فعزله ، وبعث ابن عمه محمد بن سليمان فعاث بها فساداً ، وهدم دوراً كثيرة . وعزل
 عبد الله بن الربيع عن إمرة المدينة وولى عليها جعفر بن سليمان ، وعزل عن مكة السري بن
 عبد الله وولى عليها عبد الصمد بن علي . قال : وحج بالناس في هذه السنة عبد الوهاب بن إبراهيم
 ابن محمد بن علي قاله الواقدي وغيره . قال : وفيها غزا الصائفة من بلاد الروم جعفر بن حنظلة
 البهراني . وفيها توفي من الأعيان أشعث بن عبد الملك ، وهشام بن السائب الكلابي ، وهشام بن
 عروة . وبزيد بن أبي عبيد في قول .

ثم دخلت سنة سبع وأربعين ومائة

فيها أغار اشترخان الخوارزمي في جيش من الأتراك على ناحية أرمينية فدخلوا قنليس وقتلوا
 خلقاً كثيراً وأسروا كثيراً من المسلمين وأهل القمة ، ومن قتل يومئذ حرب بن عبد الله الراوندي
 الذي تنسب إليه الحربية ببغداد ، وكان مقباً بالموصل في ألفين لمقابلة الخوارج ، فأرسله المنصور

للساعدة المسلمين ببلاد أرمينية ، وكان في جيش جبريل بن يحيى ، فهزم جبريل وقتل حرب رحمه الله . وفي هذه السنة كان مهلك عبد الله بن علي عم المنصور .

وهو الذي أخذ الشام من أيدي بني أمية ، كان عليها واليا حتى مات السفاح ، فلما مات دعا إلى نفسه فبعث إليه المنصور أبا مسلم الخراساني فهزمه أبو مسلم وهرب عبد الله إلى عند أخيه سليمان ابن علي وإلى البصرة فاخفى عنده مدة ثم ظهر المنصور على أمره فاستدعى به وسجنه ، فلما كان في هذه السنة عزم المنصور على الحج فطلب عمه عيسى بن موسى - وكان ولي العهد من بعد المنصور عن وصية السفاح - وسلم إليه عمه عبد الله بن علي وقال له : إن هذا عدوى وعدوك ، فقتله في غيبتي عنك ولا تتواني . وسار المنصور إلى الحج وجعل يكتب إليه من الطريق يستحثه في ذلك ويقول له : ماذا صنعت فيما أودعت إليك فيه ؟ مرة بعد مرة . وأما عيسى بن موسى فإنه لما تسلم عمه حار في أمره وشاور بعض أهله فأشار بعضهم ممن له رأى أن المصلحة تقتضي أن لا تقتله وأبقه عندك وأظهر قتله فأفانحش أن يطالبك به جبهة فتقول : قتلته ، فيأمر بالقود فتدعى . أنه أمرك بقتله بالسريينك وبينه فتعجز عن إثبات ذلك فيقتلك به ، وإنما يريد المنصور قتله وقتلك ليستريح منكما معا . فتغير عيسى بن موسى عند ذلك وأخفى عمه وأظهر أنه قتله . فلما رجع المنصور من الحج أمر أهله أن يدخلوا عليه ويشفوا في عمه عبد الله بن علي ، وألحوا في ذلك فأجابهم إلى ذلك ، واستدعى عيسى بن موسى وقال له : إن هؤلاء شفوا في عبد الله بن علي وقد أجبتهم إلى ذلك فسلمه إليهم . فقال عيسى : وأين عبد الله ؟ ذاك قتلته منذ أمرتني . فقال المنصور : لم أدرك بملك ، وجحد ذلك وأن يكون تقدم إليه منه أمره في ذلك ، فأحضر عيسى الكتب التي كتبها إليه المنصور مرة بعد مرة في ذلك فأنكر أن يكون أراد ذلك ، وصمم على الإنكار ، وصمم عيسى ابن موسى أنه قد قتله ، فأمر المنصور عند ذلك بقتل عيسى بن موسى قصاصاً بعبد الله ، فخرج به بنو هاشم ليقتلوه ، فلما جاؤا بالسيف قال : ردوني إلى الخليفة ، فردوه إليه فقال له : إن عمك حاضر ولم أقتله ، فقال : هلم به . فأحضره فسقط في يد الخليفة وأمر بسجنه بدار جدرانها مبنية على ملح ، فلما كان من الليل أرسل على جدرانها الماء فسقط عليه البناء فهلك . ثم إن المنصور خلع عيسى بن موسى عن ولاية العهد وقدم عليه ابنه المهدي ، وكان يجلسه فوق عيسى بن موسى عن يمينه ، ثم كان لا يلتفت إلى عيسى بن موسى ويهينه في الأذن والمشورة والدخول عليه والخروج من عنده ، ثم ما زال يقصيه ويبعده ويتهده ويتوعده حتى خلع نفسه بنفسه ، وبايع لحمد بن منصور وأعطاه المنصور على ذلك نحواً من اثني عشر ألف ألف درهم ، وانصلح أمر عيسى بن موسى وبنيه عند

المنصور، وأقبل عليه بعدما كان قد أعرض عنه . وكان قد جرت . بينهم ما قبل ذلك مكاتبات في ذلك كثيرة جداً ، ومراودات في تمهيد البيعة لابنه المهدي وخلع عيسى نفسه ، وأن العامة لا يمدلون بالمهدي أحداً . وكذلك الأمراء والخواص . ولم يزل به حتى أجاب إلى ذلك مكرها ، فموضه عن ذلك ما ذكرنا ، وسارت بيعة المهدي في الآفاق شرقاً وغرباً ، وبعداً وقرباً ، وفرح المنصور بذلك فرحاً شديداً ، واستقرت الخلافة في ذريته إلى زماننا هذا ، فلم يكن خليفة من بني العباس إلا من سلالة [ذلك تقدير العزيز العليم] .

وفيهما توفي عبيد الله بن عمر العمري ، وهاشم بن هاشم ، وهشام بن حسان صاحب الحسن البصري .

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين ومائة

فيها بمث المنصور حميد بن قحطبة لغزو الترك الذين عاثوا في السنة الماضية ببلاد تغليس ، فلم يجد منهم أحداً فانهم انشروا إلى بلادهم . وحج بالناس فيها جعفر بن أبي جعفر ، ونواب البلاد فيها هم المذكورون في التي قبلها . وفيها توفي جعفر بن محمد الصادق المذسوب إليه كتاب اختلاج الأعضاء وهو مكذوب عليه . وفيها توفي سليمان بن مهران الأعشى أحد مشايخ الحديث في ربيع الأول منها وعمر بن الحارث ، والعوام بن حوشب ، والزبيدي ، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى . ومحمد بن عجلان .

ثم دخلت سنة تسع وأربعين ومائة

فيها فرغ من بناء سور بغداد وخندقها . وفيها غزا الصائفة العباس بن محمد فدخل بلاد الروم ومعه الحسين بن قحطبة ومحمد بن الأشعث . ومات محمد بن الأشعث في الطريق . وفيها حج بالناس محمد بن إبراهيم بن علي وولاه المنصور على مكة والحجاز عوضاً عن عمه عبد الصمد بن علي . وعمال الأمصار فيها هم الذين كانوا في السنة قبلها . وفيها توفي زكريا بن أبي زائدة ، وكهمس بن الحسن ، والمثنى بن الصباح . وعيسى بن عمر أبو عمرو الثقفي البصري النحوي شيخ سيويوه . يقال إنه من موالى خالد بن الوليد ، وإمام نزل في تقيف فنسب إليهم . كان إماماً كبيراً جليلاً في الفقه والتحرر والقراآت ، أخذ ذلك عن عبيد الله بن كثير وابن المحيص وعبد الله بن أبي إسحاق ، وسمع الحسن البصري وغيرهم . وعنه الخليل بن أحمد والأصمعي وسيويوه . ولزمه وعرف به وانتفع به ، وأخذ كتابه الذي سماه بالجامع فزاد عليه وبسطه ، فهو كتاب سيويوه اليوم ، وإمام هو كتاب شيخه ، وكان سيويوه يسأل شيخه الخليل بن أحمد عما أشكل عليه فيه ، فسأله الخليل أيضاً عما صنف عيسى بن عمر فقال : جمع بضعاً وسبعين كتاباً ذهب كلها إلا كتاب الاكال ،

وهو بأرض فارس . وهو الذى أشغل فيه وأسالك عن غوامضه ، فاطرق الخليل ساعة ثم أنشد :

ذهبَ النحْوُ جميعاً كله * غيرَ ما أحدثَ عيسى بن عمر

ذاكَ إكمالَ وهذا جامع * وهما للناسِ شمسٌ وقرْ

وقد كان عيسى يغرب ويتقعر في عبارته جداً . وقد حكى الجوهرى عنه في الصباح أنه سقط يوماً عن حمارة فاجتمع عليه الناس فقال : مالكم تكأ كأتكم على تكأ كؤمكم على ذى مرة ؟ افرقتموا عني . معناه : مالكم تجمعون على تجميعكم على مجنون ؟ انكشفوا عني . وقال غيره : كان به ضيق النفس فسقط بسببه فاعتقد الناس أنه مصروع . فجعلوا يعودونه ويقرؤن عليه ، فلما أفاق من غشيته قال ، ما قال . فقال بعضهم : إني حسبته - يتكلم بالفارسية - وذكر ابن خلكان أنه كان صاحباً لأبى عمرو بن العلاء ، وأن عيسى بن عمر قال يوماً لأبى عمرو بن العلاء : أنا أفصح من معدة بن عدنان . فقال له أبو عمرو كيف تقرأ هذا البيت .

قد كنَّ يخبأن الوجوه تسراً * فاليوم حينَ بدأنَ للنظارِ

أو بدين ؟ فقال بدين . فقال أبو عمرو : أخطأت ، ولو قال : بدأن لا خطأ أيضاً . وإنما أراد أبو عمرو تغليطه ، وإنما الصواب بدون من بداييد وإذا ظهر ، وبدأ يبدأ إذا شرع في الشيء .

ثم دخلت سنة خمسين ومائة من الهجرة

فيها خرج رجل من الكفرة يقال له استاذسيس في بلاد خراسان فاستحوذ على أكثرها ، والتف معه نحو من ثلاثمائة ألف ، وقتلوا من المسلمين هناك خلقاً كثيراً ، وهزموا الجيوش التي في تلك البلاد ، وسبوا خلقاً كثيراً ، وتحكم الفساد بسببهم ، وتفاقم أمرهم ، فوجه المنصور خازم بن خزيمه إلى ابنه المهدي ليوليّه حرب تلك البلاد ، ويضم إليه من الأجناد ما يقاوم أولئك . فنهض المهدي في ذلك نهضة هاشمية ، وجمع لخازم بن خزيمه الامرة على تلك البلاد والجيوش ، وبعثه في نحو من أربعين ألفاً ، فسار إليهم وما زال يراوغهم ويماكرهم ويعمل الخديعة فيهم حتى فاجأهم بالحرب ، وواجههم بالطنن والضرب ، فقتل منهم نحواً من سبعين ألفاً ، وأسر منهم أربعة عشر ألفاً ، وهرب ملكهم استاذسيس فتحرز في جبل ، فجاء خازم إلى تحت الجبل وقتل أولئك الأسرى كلهم ، ولم يزل يحاصره حتى نزل على حكم بعض الأمراء ، فحكم أن يقيد بالحديد هو وأهل بيته ، وأن يعتق من معه من الأجناد - وكانوا ثلاثين ألفاً - ففعل خازم ذلك كله وأطلق لكل واحد ممن كان مع استاذسيس ثوبين ، وكتب بما وقع من الفتح إلى المهدي ، فكتب المهدي بذلك إلى أبيه المنصور . وفيها عزل الخليفة عن إمرة المدينة جعفر بن سليمان وولاه الحسن بن زيد بن الحسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب . وفيها حج بالناس عبد الصمد بن علي عم الخليفة . وتوفي فيها

جعفر ابن أمير المؤمنين المنصور ودفن أولاً بمقابر بني هاشم من بغداد ، ثم نقل منها إلى موضع آخر .
وفيهما توفي عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج أحد أئمة أهل الحجاز ، ويقال إنه أول من جمع
السنن . وعثمان بن الأسود ، وعمر بن محمد بن زيد . وفيها توفي الإمام أبو حنيفة .

ذكر ترجمته

هو الإمام أبو حنيفة واسمه النعمان بن ثابت التيمي . ولام الكوفي ، فقيه العراق ، وأحد أئمة
الاسلام ، والسادة الأعلام ، وأحد أركان العلماء ، وأحد الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتنوعة ،
وهو أقدمهم وفاة ، لأنه أدرك عصر الصحابة ، ورأى أنس بن مالك ، قيل وغيره . وذكر بعضهم
أنه روى عن سبعة من الصحابة فأنه أعلم .

وروى عن جماعة من التابعين منهم الحكم وحماة بن أبي سليمان ، وسلمة بن كهيل ، وعاصم
الشعبي ، وعكرمة ، وعطاء ، وقتادة ، والزهرى ، ونافع مولى ابن عمر ، ويحيى بن سعيد الأنصارى
وأبو إسحاق السبيعي . وروى عنه جماعة منهم ابنه حماد وإبراهيم بن طهمان ، وإسحاق بن يوسف
الأزرق ، وأسد بن عمرو القاضي ، والحسن بن زياد اللؤلؤى ، وحزرة الزيات ، وداود الطائي ، وزفر ،
وعبد الرزاق ، وأبو نعيم ، ومحمد بن الحسن الشيباني ، وهشيم ، ووكيع ، وأبو يوسف القاضي . قال
يحيى بن معين : كان ثقة ، وكان من أهل الصدق ولم يتهم بالكذب ، ولقد ضربه ابن هبيرة على
القضاء فأبى أن يكون قاضياً . وقد كان يحيى بن سعيد يختار قوله في الفتوى ، وكان يحيى يقول :
لا نكذب الله ، أما سمعنا أحسن من رأى أبي حنيفة ، وقد أخذنا بأكثر أقواله . وقال عبد الله بن
المبارك : لولا أن الله أعانني بأبي حنيفة وسفيان الثوري لكنت كسائر الناس . وقال في الشافعي :
رأيت رجلاً لو كلمك في هذه السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته : وقال الشافعي : من أراد الفقه فهو
عيال على أبي حنيفة ، ومن أراد السير فهو عيال على محمد بن إسحاق ، ومن أراد الحديث فهو
عيال على مالك ، ومن أراد التفسير فهو عيال على مقاتل بن سليمان . وقال عبد الله بن داود الحريبي :
ينبغي للناس أن يدعوا في صلاتهم لأبي حنيفة ، لحفظه الفقه والسنن عليهم . وقال سفيان الثوري
وابن المبارك : كان أبو حنيفة أقره أهل الأرض في زمانه . وقال أبو نعيم : كان صاحب غوص في
المسائل . وقال مكى بن إبراهيم : كان أعلم أهل الأرض . وروى الخطيب بسنده عن أسد بن عمرو
أن أبا حنيفة كان يصلي بالليل ويقرأ القرآن في كل ليلة ، ويبكي حتى يرحمه جيرانه . ومكث أربعين
سنة يصلي الصبح بوضوء العشاء ، وختم القرآن في الموضع الذي توفي فيه سبعين ألف مرة ، وكانت
وفاته في رجب من هذه السنة - أعني سنة خمسين ومائة - وعن ابن معين سنة إحدى وخمسين .
وقال غيره : سنة ثلاث وخمسين . والصحيح الأول .

وكان مولده في سنة ثمانين قم له من العمر سبعون سنة ، وصلى عليه ببغداد ست مرات لكثرة الزحام ، وقبره هناك رحمه الله .

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين ومائة

فيها عزل المنصور عمر بن حفص عن السند وولى عليها هشام بن عمرو التغلبي ، وكان سبب عزله عنها أن محمد بن عبد الله بن حسن لما ظهر بمش ابنه عبد الله الملقب بالأشتر ومعه جماعة بهدية وخيول عتاق إلى عمر بن حفص هذا إلى السند قبلها ، فدعوه إلى دعوة أبيه محمد بن عبد الله بن حسن في السرفاجابهم إلى ذلك ولبسوا البياض . ولما جاء خبر مقتل محمد بن عبد الله بالمدينة سقط في أيديهم وأخذوا في الاعتذار إلى عبد الله بن محمد ، فقال له عبد الله : إني أخشى على نفسي . فقال : إني سأبعثك إلى ملك من المشركين في جوار أرضنا ، وإنه من أشد الناس تمظيا لرسول الله (ص) ، وإنه متى عرفك أنك من سلالة أحبك . فأجابه إلى ذلك ، وسار عبد الله ابن محمد إلى ذلك الملك وكان عنده آمناً ، وصار عبد الله يركب في موكب من الزيدية ويتصيد في جحفل من الجنود ، وانضم إليه خلق وقدم عليه طوائف من الزيدية .

وأما المنصور فإنه بعث يعنب على عمر بن حفص نائب السند ، فقال رجل من الأمراء ابشئ إليه واجمل القضية مسندة إلى ، فاني سأعتمر إليه من ذلك ، فان سلمت وإلا كنت فداءك وفداء من عندك من الأمراء . فأرسله سفيراً في القضية إلى المنصور ، فلما وقف بين يدي المنصور أمر بضرب عنقه ، وكتب إلى عمر بن حفص بعزله عن السند وولاه بلاد إفريقية عوضاً عن أميرها ، ولما وجه المنصور هشام بن عمرو إلى السند أمره أن يجتهد في تحصيل عبد الله بن محمد ، فجعل يتواني في ذلك ، فبعث إليه المنصور يستحثه في ذلك ، ثم اتفق الحال أن سيفاً أخاً هشام بن عمرو لقي عبد الله بن محمد في بعض الأماكن فاقتلوا قتل عبد الله وأصحابه جميعاً واشتبه عليهم مكانه في القتل فلم يقدروا عليه . فكتب هشام بن عمرو إلى المنصور يعلمه بقتله ، فبعث يشكره على ذلك ويأمره بقتال الملك الذي آواه ، ويعلمه أن عبد الله كان قد تسرى بجارية هنالك وأولدها ولماً أسماه محمداً ، فاذا ظفرت بالملك فاحتفظ بالغلام فنهض هشام بن عمرو إلى ذلك الملك فقاتله فغلبه وقهره على بلاده وأمواله وحواصله ، وبعث بالفتح والأخماس وبذلك الغلام والملك إلى المنصور ، ففرح المنصور بذلك وبعث بذلك الغلام إلى المدينة ، وكتب المنصور إلى نائبها يعلمه بصحة نسبه ، ويأمره أن يلحقه بأهله يكون عندهم لثلاً يضيع نسبه ، فهو الذي يقال له أبو الحسن بن الأشتر . وفي هذه السنة قدم المهدي بن المنصور على أبيه من خراسان فلقاه أبوه والأمراء والأكابر

إلى أثناء الطريق ، وقدم بعد ذلك نواب البلاد والشام وغيرها للسلام عليه وتهنئته بالسلامة والنصر .
وحمل إليه من الهدايا والتحف ما لا يحصى ولا يوصف .

بناء الرصافة

قال ابن جرير : وفي هذه السنة شرع المنصور في بناء الرصافة لابنه المهدي بعد مقدمه من خراسان ، وهي في الجانب الشرقي من بغداد ، وجعل لها سوراً وخندقاً ، وعمل عندها ميداناً وبستاناً ، وأجرى إليها الماء من نهر المهدي . قال ابن جرير :

وفيها جدد المنصور البيعة لنفسه ثم لولده المهدي من بعده ، ولعيسى بن موسى من بعدهما ، وجاء الأمراء والخوارج فبايعوا وجعلوا يقبلون يد المنصور ويد ابنه ويدسون يد عيسى بن موسى ولا يقبلونها . قال الواقدي : وولى المنصور معن بن زائدة سجستان .

وحج بالناس فيها محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي ، وهو نائب مكة والطائف ، وعلى المدينة الحسن بن زيد ، وعلى الكوفة محمد بن سليمان ، وعلى البصرة جابر بن زيد الكلبي ، وعلى مصر يزيد بن حاتم . ونائب خراسان حميد بن قحطبة ، ونائب سجستان معن بن زائدة . وغزا الصائفة فيها عبد الوهاب بن إبراهيم بن محمد .

وفيها توفي حنظلة بن أبي سفيان ، وعبد الله بن عون ، ومحمد بن إسحاق بن يسار ، صاحب السيرة النبوية التي جمعها وجعلها علماً يهتدى به ، ونحراً يستجلى به ، والناس كلهم عيال عليه في ذلك ، كما قال الشافعي وغيره من الأئمة .

ثم دخلت سنة ثنتين وخمسين ومائة

فيها عزل المنصور عن إمرة مصر يزيد بن حاتم وولاه محمد بن سعيد ، وبعث إلى نائب إفريقية وكان قد بلغه أنه عصي وخالف ، فلما جرى به أمر بضرب عنقه . وعزل عن البصرة جابر ابن زيد الكلبي وولاه يزيد بن منصور . وفيها قتل الخوارج معن بن زائدة بسجستان . وفيها توفي عباد بن منصور ، ويونس بن يزيد الأيلي .

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسون ومائة

وفيها غضب المنصور على كاتبه أبي أيوب المورياني وسجنه وسجن أخاه خالداً وبني أخيه الأربعة سميداً ومسعوداً ومخلداً ومحمدآ ، وطالبهم بالأموال الكثيرة . وكان سبب ذلك ما ذكره ابن عساكر في ترجمة أبي جعفر المنصور ، وهو أنه كان في زمن شبينته قد ورد الموصل وهو فقير لا شيء له ولا معه شيء ، فأجر نفسه من بعض الملاحين حتى اكتسب شيئاً تزوج به امرأة ، ثم جعل يعدها ويمنيها أنه من بيت سيصير الملك إليهم سريعاً ، فانفق حبلاً منته ، ثم تطلبه بنو أمية فهرب عنها

وتركها حاملاً ، ووضع عندها رقعة فيها نسبه ، وأنه عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وأمرها إذا بلغها أمره أن تأتيه ، وإذا ولدت غلاماً أن تسميه جعفرأ . فولدت غلاماً فسمته جعفرأ . ونشأ الغلام فتعلم الكتابة وغوى العربية والأدب ، وأتقن ذلك إتقاناً جيداً ، ثم آل الأمر إلى بني العباس ، فسألت عن السفاح فإذا هو ليس صاحبها ، ثم قام المنصور وصار الولد إلى بغداد فاختلف بكتّاب الرسائل فأعجب به أبو أيوب المورياني صاحب ديوان الانشاء للمنصور ، وحظي عنده وفداه على غيره ، فاتفق حضوره معه بين يدي الخليفة فجعل الخليفة يلاحظه ، ثم بعث يوماً الخادم ليأتيه بكتّاب فدخل ومعه ذلك الغلام ، فكتب بين يدي المنصور كتاباً وجعل الخليفة ينظر إليه ويتأمله ، ثم سأله عن اسمه فأخبره أنه جعفر ، فقال : ابن من ؟ فسكت الغلام ، فقال : مالك لا تتكلم ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن من خبري كيت وكيت ، فتغير وجه الخليفة ثم سأله عن أمه فأخبره ، وسأله عن أحوال بلد الموصل فجعل يخبره والغلام يتعجب . ثم قام إليه الخليفة فاحتضنه وقال : أنت ابني . ثم بعثه بعقد ثمين ومال جزيل وكتاب إلى أمه يعلمها بحقيقة الأمر وحال الولد . وخرج الغلام ومعه ذلك من باب سر الخليفة فأحرز ذلك ثم جاء إلى أبي أيوب فقال : ما بطأ بك عند الخليفة ؟ فقال : إنه استكتبني في رسائل كثيرة ، ثم تقاولا ، ثم فارقه الغلام مغضباً ونهض من فوره فاستأجر إلى الموصل ليعلم أمه ويحملها وأهلها إلى بغداد ، إلى أبيه الخليفة . فسار مراحل ، ثم سأل عنه أبو أيوب فقيل سافر فظن أبو أيوب أنه قد أفشى شيئاً من أسراره إلى الخليفة وفر منه ، فبعث في طلبه رسولا وقال : حيث وجدته فردّه على . فسار الرسول في طلبه فوجده في بعض المنازل نخفته وألقاه في بئر وأخذ ما كان معه فرجع به إلى أبي أيوب . فلما وقف أبو أيوب على الكتاب أسقط في يده وندم على بعثه خلفه . وانتظر الخليفة عود ولده إليه واستبطأه وكشف عن خبره فإذا رسول أبي أيوب قد لحقه وقتله . فحينئذ استحضر أبا أيوب وألزمه بأموال عظيمة ، ومازال في العقوبة حتى أخذ جميع أمواله وحواصله ثم قتله ، وجعل يقول : هذا قتل حبيبي . وكان المنصور كلما ذكر ولده حزن عليه حزناً شديداً .

وفيها خرجت الخوارج من الصفرية وغيرهم ببلاد إفريقية . فاجتمع منهم ثلاثمائة ألف وخمسون ألفاً ، ما بين فارس وراجل ، وعليهم أبو حاتم الانطاقي ، وأبو عباد . وانضم إليهم أبو قرة الصفري في أربعين ألفاً ، فقاتلوا نائب إفريقية فهزموا جيشه وقتلوه ، وهو عمر بن عثمان بن أبي صفرة الذي كان نائب السند كما تقدم ، قتله هؤلاء الخوارج رحمه الله . وأكثرت الخوارج الفساد في البلاد ، وقتلوا الحرّيم والأولاد . وفيها ألزم المنصور الناس بلبس قلانس سود طوال جداً ، حتى كانوا يستعينون على رفعها من داخلها بالقضب ، فقال أبو دلالة الشاعر في ذلك :

وكنا نرجى من إمام زيادة * فزاد الامام المرتضى في القلائس
تراها على هام الرجال كأنها * ذنان يهود جلث بالبرانس
وفيهما غزا الصائفة معيوف بن يحيى الحجورى فأسر خلقاً كثيراً من الروم ينيفه على سنة
آلاف أسير ، وغنم أموالاً جزيلة . وحجج بالناس المهدي بن المنصور [وهو ولي العهد الملقب بالمهدي .
وكان على نيابة مكة والطائف محمد بن إبراهيم ، وعلى المدينة الحسن بن زيد وعلى الكوفة محمد بن
سليمان وعلى البصرة يزيد بن منصور ، وعلى مصر محمد بن سعيد . وذكر الواقدي أن يزيد بن
منصور كان ولاء المنصور في هذه السنة اليمن . والله أعلم] (١) .
وفيهما توفي أبان بن صمعة ، وأسامة بن زيد الليثي ، وثور بن يزيد الحمصي ، والحسن بن عمارة ،
وقطر بن خليفة ، ومعمر وهشام بن الغازي والله أعلم .

ثم دخلت سنة أربع وخمسين ومائة

ففيها دخل المنصور بلاد الشام وزار بيت المقدس وجيز يزيد بن حاتم في خمسين ألفاً وولاه بلاد
إفريقية ، وأمره بقتال الخوارج ، وأنفق على هذا الجيش نحواً من ثلاث وستين ألف درهم ، وغزا
الصائفة زفر بن عاصم الهلالي . وحجج بالناس فيها محمد بن إبراهيم . ونواب البلاد والأقاليم هم
الذكورون في التي قبلها ، سوى البصرة فعليها عبد الملك بن أيوب بن ظبيان . وفيها توفي أبو
أيوب الكاتب وأخوه خالد ، وأمر المنصور ببنى أخيه أن تقطع أيديهم وأرجلهم ثم تضرب بعد
ذلك أعناقهم ففعل ذلك بهم . وفيها توفي :

أشعب الطامع

وهو أشعب بن جبير أبو العلاء ، ويقال أبو إسحاق المدني ، ويقال له أبو حميدة . وكان أبوه
مولى لآل الزبير ، قتله المختار ، وهو خال الواقدي . روى عن عبد الله بن جعفر « أن رسول الله
(س) كان يتختم في اليمن » . وأبان بن عثمان ، وسالم وعكرمة ، وكان ظريفاً ماجناً يحبه أهل زمانه
لخلاعته وطمعه ، وكان حميد الغناء ، وقد وفد على الوليد بن يزيد دمشق فترجمه ابن عساكر ترجمة
ذكر عنه فيها أشياء مضحكة ، وأسند عنه حديثين . وروى عنه أنه سئل يوماً أن يحدث فقال :
حدثني عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله (س) قال : « خصلتان من عمل بهما دخل الجنة » ثم
سكت فقليل له : وما هما ؟ فقال : نسي عكرمة الواحدة ونسيت أنا الأخرى . وكان سالم بن عبد الله
ابن عمر يستخفه ويستحليه ويضحك منه ويأخذه معه إلى الغابة ، وكذلك كان غيره من أكابر
الناس . وقال الشافعي : عبث الولدان يوماً بأشعب فقال لهم : إن ههنا أناساً يفرقون الجوز - ليطردم

عنه - فتسلوع الصبيان إلى ذلك ، فلما رآهم مسرعين قال : لعله حق فتبعهم . وقال له رجل : ما بلغ من طمعك ؟ فقال : ما زفت عروس بالمدينة إلا رجوت أن تزف إلى فأكسح داري وأنظف أبي وأكنس بيتي . واجتاز يوماً برجل يصنع طبقاً من قش فقال له : زد فيه طورا أو طورين لعله أن يهدي يوماً لنافيه هدية . وروى ابن عساكر أن أشعب غنى يوماً لسالم بن عبد الله بن عمر قول بعض الشعراء :

مضين بها والبدر يشبه وجهها * مطهرة الأثواب والدين وافر
لها حسب ذلك وعرض مهنب * وعن كل مكروه من الأمر زاجر
من الخفريات البيض لم تلق ربة * ولم يستملها عن تقي الله شاعر
فقال له سالم : أحسنت فردنا . فغناه :

ألمت بنا والليل داج كأنه * جناح غراب عنه قد نفص القطرا
فقلت أعطار توى في رحالنا * وما علمت ليلى سوى ريمحها عطرا
فقال له : أحسنت ولولا أن يتحدث الناس لأجزلت لك الجائزة ، وإنك من الأمر لممكن .
وفيها توفي جعفر بن برقان ، والحكم بن أبان ، وعبد الرحمن بن زيد بن جابر ، وقرة بن خالد ، وأبو عمرو بن العلاء أحد أئمة القراء ، واسمه كنيته ، وقيل اسمه ريان والصحيح الأول .

وهو أبو عمرو بن العلاء بن عمار بن المريان بن عبد الله بن الحصين النخعي المازني البصري ، وقيل غير ذلك في نسبه ، كان علامة زمانه في الفقه والنحو وعلم القراءات ، وكان من كبار العلماء العاملين ، يقال إنه كتب ملء بيت من كلام العرب ، ثم تزهّد فأحرق ذلك كله ، ثم راجع الأمر الأول فلم يكن عنده إلا ما كان يحفظه من كلام العرب ، وكان قد لقي خلقاً كثيراً من أعراب الجاهلية ، كان مقدماً أيام الحسن البصري ومن بعده . ومن اختياراته في العربية قوله في تفسيره الغرة في الجنين : إنها لا يقبل فيها إلا أبيض غلاماً كان أو جارية . فهم ذلك من قوله عليه السلام : « غرة عبد أو أمة » ولو أريد أي عبد كان أو جارية لما قيدته بالغرة ، وإنما الغرة البياض . قال ابن خلكان : وهذا غريب ولا أعلم هل يوافق قول أحد من الأئمة المجتهدين أم لا . وذكر عنه أنه كان إذا دخل شهر رمضان لا ينشد بيتاً من الشعر حتى يفسلخ ، وإنما كان يقرأ القرآن وأنه كان يشتري له كل يوم كوزاً جديداً وريحاً طرياً ، وقد صحبه الأصمعي نحواً من عشر سنين .

كانت وفاته في هذه السنة ، وقيل في سنة ست وخمسين ، وقيل تسع وخمسين فله أعلم . وقد قارب التسمين ، وقيل إنه جاوزها فله أعلم ، وقبره بالشام وقيل بالكوفة فله أعلم .
وقد روى ابن عساكر في ترجمة صالح بن علي بن عبد الله بن العباس عن أبيه عن جده عبد الله

ابن عباس مرفوعاً « لأن يربي أحدكم بعد أربع وخمسين ومائة جرو و كلب خير له من أن يربي ولداً لصبيه ». وهذا منكر جداً وفي إسناده نظر . ذكره من طريق تمام عن خيثمة بن سليمان عن محمد ابن عوف الحمصي عن أبي المغيرة عبد الله بن السمط عن صالح به ، وعبد الله بن السمط هذا لا أعرفه ، وقد ذكره شيخنا الحافظ الذهبي في كتابه الميزان وقال : روى عن صالح بن علي حديثاً موضوعاً .

ثم دخلت سنة خمس وخمسين ومائة

فيها دخل يزيد بن حاتم بلاد إفريقية فافتتحها عوداً على بدء ، وقتل من كان فيها ممن تغلب عليها من الخوارج ، وقتل أمراءهم وأمير كبراهم وأذل أشرفهم واستبدل أهل تلك البلاد بالخوف أمناً وسلامة ، وبالأهانة كرامة ، وكان من جملة من قتل من أمراءهم أبو حاتم وأبو عباد الخارجيان . ثم لما استقامت له وبه الأمور في البلدان دخل بعد ذلك بلاد القيروان فهدمها وأقر أهلها وقرر أمورها وأزال محنورها والله سبحانه أعلم .

بناء الرافقة وهي المدينة المشهورة

وفيها أمر المنصور ببناء الرافقة على منوال بناء بغداد في هذه السنة ، وأمر فيها ببناء سور وعمل خندق حول الكوفة ، وأخذ ما غرم على ذلك من أموال أهلها ، من كل إنسان من أهل اليسار أربعين درهما . وقد فرضها أولاً خمسة دراهم ، خمسة دراهم ، ثم جباها أربعين أربعين ، فقال في ذلك بعضهم يا قنومى ما رأينا * في أمير المؤمنين * قسم الحصة فينا * وجباها أربعين . وفيها غزا الصائفة يزيد بن أسيد السلمي . وفيها طلب ملك الروم الصلح من المنصور على أن يحمل إليه الجزية . وفيها عزل المنصور أخاه العباس بن محمد عن الجزيرة وغرمه أموالاً كثيرة . وفيها عزل محمد بن سليمان بن علي عن إمرة الكوفة ، فقبل لأمر بلفته عنه في تعاطي منكرات ، وأمور لا تليق بالعمل ، وقيل لقتله محمد بن أبي العوجاء . وقد كان ابن أبي العوجاء هذا زنديقاً . يقال إنه لما أمر بضرب عنقه اعترف على نفسه بوضع أربعة آلاف حديث يحل فيها الحرام ويحرم فيها الحلال ، ويصوم الناس يوم الفطر ويفطرون في أيام الصيام ، فأراد المنصور أن يجعل قتله ذنباً فعزله به ، وإنما أراد أن يقيد منه ، فقال له عيسى بن موسى : يا أمير المؤمنين لا تعزله بهذا ولا تقتله به ، فإنه إنما قتله على الزندقة ، ومتى عزلته به شكره العامة وضموك ، فتركه حينئذ عزله وولى مكانه على الكوفة عمرو بن زهير . وفيها عزل عن المدينة الحسن بن زيد وولى عليها عمه عبد الصمد بن علي ، وجعل معه فليح بن سليمان مشرفاً عليه . وعلى إمرة مكة محمد بن إبراهيم بن محمد ، وعلى البصرة الهيثم بن معاوية ، وعلى مصر محمد بن سعيد ، وعلى إفريقية يزيد بن حاتم . وفيها توفى صفوان

ابن عمرو وعثمان بن أبي الماتكة الدمشقيان ، وعثمان بن عطاء ، ومسمر بن كدام .
حماد الراوية

وهو ابن أبي ليلى ميسرة - ويقال سابور - بن المبارك بن عبيد الديلمي الكوفي ، مولى بكير
ابن زيد الخيل الطائي ، كان من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها ولغاتها ، وهو الذي جمع
السبع المعلقة الطوال ، وإنما سمي الراوية لكثرة روايته الشعر عن العرب ، اختبره الوليد بن
يزيد بن عبد الملك أمير المؤمنين في ذلك فأنشده تسعاً وعشرين قصيدة على حروف المعجم ، كل
قصيدة نحواً من مائة بيت ، وزعم أنه لا يسمى شاعر من شعراء العرب إلا أنشده له مالا يحفظه غيره .
فأطلق له مائة ألف درهم . وذكر أبو محمد الحريري في كتابه درة النواص ، أن هشام بن عبد الملك
استدعاه من العراق من نائبه يوسف بن عمر ، فلما دخل عليه إذا هو في دار قوراء مرخمة بالرخام
والذهب ، وإذا عنده جاريتان حسنتان جداً ، فاستنشه شيئاً فأنشده ، فقال له : سل حاجتك :
فقال : كائنة ما كانت يا أمير المؤمنين ؟ فقال : وما هي ؟ فقال تطلق لي إحدى هاتين الجاريتين .
فقال : هما وما عليهما لك ، وأخلاه في بعض داره وأطلق له مائة ألف درهم . هذا ملخص الحكاية ،
والظاهر أن هذا الخليفة إنما هو الوليد بن يزيد ، فانه ذكر أنه شرب معه الخمر ، وهشام لم يكن
يشرب . ولم يكن نائبه على العراق يوسف بن عمر ، إنما كان نائبه خالد بن عبد الله القسري ،
وبعد يوسف بن عمر بن عبد العزيز . كانت وفاة حماد في هذه السنة عن ستين سنة . قال ابن
خلكان : وقيل إنه أدرك أول خلافة المهدي في سنة ثمان وخمسين فأنشده الله أعلم .

وفيها قتل حماد عمجد على الزندقة . وهو حماد بن عمر بن يوسف بن كليب الكوفي ، ويقال إنه
واسطي ، مولى بني سواد ، وكان شاعراً ماجناً ظريفاً زنديقاً متهماً على الاسلام ، وقد أدرك
الدولتين الأموية والعباسية ، ولم يشتهر إلا في أيام بني العباس ، وكان بينه وبين بشار بن برد
مهاجرة كثيرة ، وقد قتل بشار هذا على الزندقة أيضاً كما سيأتي ، ودفن مع حماد هذا في قبره ، وقيل
إن حماداً عمجد مات سنة ثمان وخمسين ، وقيل إحدى وستين ومائة فأنشده الله أعلم .

ثم دخلت سنة ست وخمسين ومائة

فيها ظفر الهيثم بن معاوية نائب المنصور على البصرة ، بعمرو بن شداد الذي كان عاملاً لابراهيم
ابن محمد على فارس ، فقتل أمر قطعت يده ورجلاه وضربت عنقه ثم صلب . وفيها عزل المنصور
الهيثم بن معاوية هذا الذي فعل هذه الفعلة عن البصرة وولى عليها قاضيها سوار بن عبد الله ، فجمع
له بين القضاء والصلاة ، وجعل على شرطتها وأحداثها سعيد بن دعلج ، ورجع الهيثم بن معاوية
قاتل عمرو بن شداد إلى بغداد فمات فيها فجأة في هذه السنة ، وهو على بطن جارية له ، وصلى عليه

المنصور ودفن في مقابر بني هاشم ، ويقال إنه أصابته دعوة عمر بن شداد الذي قتله تلك القنلة ، فليتنق العبدُ الظلم .

وحج بالناس العباس بن محمد أخو المنصور . ونواب البلاد هم المذكورون في التي قبلها . وعلى فارس والأهواز وكور دجلة عمارة بن حمزة ، وعلى كرمان والسند هشام بن عمرو . وفيها توفي حمزة الزيات في قول . وهو أحد القراء المشهورين والعباد المذكورين ، وإليه تنسب المدود الطويلة في القراءة اصطلاحاً من عنده ، وقد تكلم فيه بسببها بعض الأئمة وأنكروها عليه . وسعيد بن أبي عروبة ، وهو أول من جمع السنن في قول ، وعبد الله بن شاذب ، وعبد الرحمن بن زياد بن أنعم الأفرقي ، وعمر بن ذر .

ثم دخلت سنة سبع وخمسين ومائة

فيها بنى المنصور قصره المسمى بالخلد في بغداد ، تفاؤلاً بالتخليد في الدنيا ، فعند كماله مات وخرب القصر من بعده ، وكان المستحث في عمارته أبان بن صدقة ، والربيع مولى المنصور وهو حاجبه . وفيها حول المنصور الأسواق من قرب دار الامارة إلى باب الكرخ . وقد ذكرنا فيما تقدم سبب ذلك . وفيها أمر بتوسعة الطرقات . وفيها أمر بعمل جسر عند باب الشعير . وفيها استعرض المنصور جنده وهم ملبسون السلاح وهو أيضاً لابس سلاحاً عظيماً ، وكان ذلك عند دجلة . وفيها عزل عن السند هشام بن عمرو وولى عليها سعيد بن الخليل . وفيها غزا الصائفة يزيد بن أسيد السلمي فأوغل في بلاد الروم ، وبعث سناناً مولى البطلان مقدمة بين يديه ففتح حصونا وسبي وغنم . وفيها حج بالناس إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي . ونواب البلاد هم المذكورون في التي قبلها . وفيها توفي الحسين بن واقد ، والامام الجليل علامة الوقت أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو والأوزاعي فقيه أهل الشام وإمامهم . وقد بقي أهل دمشق وما حولها من البلاد على منعه نحواً من مائتين وعشرين سنة .

شيء من ترجمة الأوزاعي رحمه الله

هو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد أبو عمرو الأوزاعي . والاوزاع بطن من حمير وهم من أنفسهم ، قاله محمد بن سعد . وقال غيره : لم يكن من أنفسهم وإنما نزل في محلة الأوزاع ، وهي قرية خارج باب الفرديس من قرى دمشق ، وهو ابن عم يحيى بن عمرو الشيباني . قال أبو زرعة : وأصله من سى السند فنزل الأوزاع فغلب عليه النسبة إليهما . وقال غيره : ولد يميلك ونشأ بالبقيع يوماً في حجر أمه ، وكانت تنتقل به من بلد إلى بلد ، وتادب بنفسه ، فلم يكن في أبناء الملوك واخلفاء والوزراء والتجار وغيرهم أعقل منه ، ولا أروع ولا أعلم ، ولا أفصح ولا أوفر ولا أحلم ، ولا أكثر صمتاً منه ، ما تكلم بكلمة إلا كان المتعين على من سمعها من جلسائه أن يكتبها عنه ، من حسنها ،

وكان يمانى الرسائل والكتابة ، وقد اكتب مرة في بعث إلى الإمامة فسمع الحديث من يحيى بن
أبي كثير واقطع إليه فأرشدته إلى الرحلة إلى البصرة ليعلم من الحسن وابن سيرين . فصار إليها
فوجد الحسن قد توفي من شهرين ووجد ابن سيرين مريضاً ، فجعل يتردد لعيادته ، فتوى المرض
به ومات ولم يسمع منه الأوزاعي شيئاً . ثم جاء فنزل دمشق بمحلة الأوزاع خارج باب الفراءيس ،
وساد أهلها في زمانه وسائر البلاد في الفقه والحديث والمغازي وغير ذلك من علوم الإسلام . وقد
أدرك خلقاً من التابعين وغيرهم ، وحدث عنه جماعات من سادات المسلمين ، كمالك بن أنس والثوري
والزهري ، وهو من شيوخه . وأثنى عليه غير واحد من الأئمة ، وأجمع المسلمون على عدالته وإمامته .
قال مالك : كان الأوزاعي إماماً يقتدى به . وقال سفيان بن عيينة وغيره : كان الأوزاعي إمام
أهل زمانه ، وقد حج مرة فدخل مكة وسفيان الثوري أخذ بزمام جملة ، ومالك بن أنس يسوق به ،
والثوري يقول : افسحوا للشيخ حتى أجلسه عند الكعبة ، وجلسا بين يديه يأخذان عنه . وقد
تذاكر مالك والأوزاعي مرة بالمدينة من الظهر حتى صليا العصر ، ومن المصر حتى صليا المغرب ،
فغمره الأوزاعي في المغازي ، وغمره مالك في الفقه . أو في شيء من الفقه . وتناظر الأوزاعي
والثوري في مسجد الخيف في مسألة رفع اليدين في الركوع والرفع منه . فاحتج الأوزاعي على الرفع
في ذلك بما رواه عن الزهري عن سالم عن أبيه « أن رسول الله (ص) كان يرفع يديه في الركوع
والرفع منه » . واحتج الثوري على ذلك بحديث يزيد بن أبي زياد . فغضب الأوزاعي وقال :
تعارض حديث الزهري بحديث يزيد بن أبي زياد وهو رجل ضعيف ؟ فاحمار وجه الثوري ، فقال
الأوزاعي : لعلك كرهت ما قلت ؟ قال : نعم . قال : فقم بنا حتى نلتعن عند الركن أينما على الحق .
فسكت الثوري . وقال هقل بن زياد : أفتى الأوزاعي في سبعين ألف مسألة بمحدثنا . وأخبرنا . وقال
أبو زرعة : روى عنه ستون ألف مسألة . وقال غيره : أفتى في سنة ثلاث عشرة ومائة وعمره إذ
ذاك خمس وعشرون سنة ، ثم لم يزل يفتي حتى مات وعقله زاك . وقال يحيى القطان عن مالك :
اجتمع عندي الأوزاعي والثوري وأبو حنيفة فقلت : أيهم أرجح ؟ قال : الأوزاعي . وقال محمد بن
عجلان : لم أر أحداً أنصح للمسلمين من الأوزاعي . وقال غيره : ما روي الأوزاعي ضاحكاً مقهقها
قط ، ولقد كان يعظ الناس فلا يبقى أحد في مجلسه إلا بكى بعينه أو بقلبه ، وما رأيته يبكي في مجلسه
قط وكان إذا خلى بكى حتى يرحم . وقال يحيى بن معين : العلماء أربعة : الثوري ، وأبو حنيفة ،
ومالك ، والأوزاعي . قال أبو حاتم : كان ثقة متبعاً لما سمع . قالوا : وكان الأوزاعي لا يلحن في
كلامه ، وكانت كتبه ترد على المنصور فينظر فيها ويتأملها ويتعجب من فصاحتها وحلاوة عبارتها .

وقد قال المنصور يوماً لا حظي كتابه عنده - وهو سليمان بن مجالد - : ينبغي أن نجيب الأوزاعي على ذلك دائماً ، لنستعين بكلامه فيما نكتب به إلى الأفاق إلى من لا يعرف كلام الأوزاعي . فقال : والله يا أمير المؤمنين لا يقدر أحد من أهل الأرض على مثل كلامه ولا على شيء منه . وقال الوليد ابن مسلم : كان الأوزاعي إذا صلى الصبح جلس يذكر الله سبحانه حتى تطلع الشمس ، وكان يأتى عن السلف ذلك . قال : ثم يقومون فيتذاكرون في الفقه والحديث . وقال الأوزاعي : رأيت رب العزة في المنام فقال : أنت الذى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فقلت : بفضلك أى رب . ثم قلت : يا رب أمتنى على الاسلام . فقال : وعلى السنة . وقال محمد بن شعيب بن شابور : قال لى شيخ بجامع دمشق : أنا ميت فى يوم كذا وكذا . فلما كان فى ذلك اليوم رأيته فى صحن الجامع يتفلى ، فقال لى : اذهب إلى سرير الموتى فاحرزه لى عندك قبل أن تسبق إليه . فقلت : ما تقول ؟ فقال : هو ما أقول لك ، وإنى رأيته كأن قائلاً يقول فلان قدرى ، وفلان كذا وعثمان بن العاتكة نعم الرجل ، وأبو عمرو الأوزاعي خير من يمشى على وجه الأرض ، وأنت ميت فى يوم كذا وكذا . قال محمد بن شعيب : فاجاء الظهر حتى مات وصلينا عليه بعدها وأخرجت جنازته . ذكر ذلك ابن عساكر . وكان الأوزاعي رحمه الله كثير العبادة حسن الصلاة ورعاً ناسكاً طويل الصمت ، وكان يقول : من أطال القيام فى صلاة الليل هوّن الله عليه طول القيام يوم القيامة ، أخذ ذلك من قوله تعالى [ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً ، إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً] وقال الوليد بن مسلم : ما رأيته أحداً أشد اجتهاداً من الأوزاعي فى العبادة . وقال غيره : حج فنام على الراحة ، إنما هو فى صلاة ، فإذا نفس استند إلى القتب ، وكان من شدة الخشوع كأنه أعمى . ودخلت امرأة على امرأة الأوزاعي فرأت الحصى الذى يصلّى عليه مبلولاً فقالت لها : لعل الصبي بال ههنا . فقالت : هذا أثر دموع الشيخ من بكائه فى سجوده ، هكذا يصبح كل يوم . وقال الأوزاعي : عليك بآثار من سلف وإن رفضك الناس ، وإياك وأقوال الرجال وإن زخرفوه وحسنوه ، فإن الأمر ينجلي وأنت منه على طريق مستقيم . وقال أيضاً : اصبر على السنة وقف حيث يقف القوم ، وقل ما قالوا وكف عما كفوا ، وليسعك ما وسعهم . وقال : العلم ما جاء عن أصحاب محمد ، وما لم يجهى عنهم فليس بعلم . وكان يقول : لا يجتمع حب على وعثمان إلا فى قلب مؤمن . وإذا أراد الله بقوم شرّاً فتح عليهم باب الجدل وسد عنهم باب العلم والعمل . قالوا : وكان الأوزاعي من أكرم الناس وأسخامهم ، وكان له فى بيت المال على الخلفاء أقطاع صار إليه من بنى أمية وقد وصل إليه من خلفاء بنى أمية وأقاربهم وبنى العباس نحو من سبعين ألف دينار ، فلم يمسك منها شيئاً ، ولا اقتنى شيئاً من عقار ولا غيره ، ولا ترك يوم مات سوى سبعة دنانير كانت جهازه ، بل

كان ينفق ذلك كله في سبيل الله وفي الفقراء والمساكين .

ولما دخل عبد الله بن علي - عم السفاح الذي أجلى بنى أمية عن الشام ، وأزال الله سبحانه دولتهم على يده - دمشق فطلب الأوزاعي فتغيب عنه ثلاثة أيام ثم حضر بين يديه . قال الأوزاعي : دخلت عليه وهو على سرير وفي يده خيزرانة والمسودة عن يمينه وشماله ، معهم السيوف مصلنة - والعمد الحديد - فسلمت عليه فلم يرد ونكت بتلك الخيزرانة التي في يده ثم قال : يا أوزاعي ما ترى فيما صنعنا من إزالة أيدي أولئك الظلمة عن العباد والبلاد ؟ أجهاداً ورباطاً هو ؟ قال : فقلت : أيها الأمير سمعت يحيى بن سعيد الأنصاري يقول سمعت محمد بن إبراهيم التيمي يقول سمعت علقمة بن وقاص يقول سمعت عمر بن الخطاب يقول سمعت رسول الله (س) يقول : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » . قال فنكت بالخيزرانة أشد مما كان ينكت ، وجعل من حوله يقبضون أيديهم على قبضات سيوفهم ، ثم قال : يا أوزاعي ما تقول في دماء بنى أمية ؟ فقلت : قال رسول الله (س) : « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بأحدي ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزاني ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » . فنكت بها أشد من ذلك ثم قال : ما تقول في أموالهم ؟ فقلت : إن كانت في أيديهم حراماً فهي حرام عليك أيضاً ، وإن كانت لهم حلالاً فلا تحل لك إلا بطريق شرعي . فنكت أشد مما كان ينكت قبل ذلك ثم قال : ألا نوليكَ القضاء ؟ فقلت : إن أسلافك لم يكونوا يشقون على في ذلك ، وإني أحب أن يتم ما ابتدؤني به من الاحسان . فقال : كأنك تحب الانصراف ؟ فقلت : إن ورأى حرماً وهم محتاجون إلى القيام عليهن وسترهن ، وقلوبهن مشغولة بسببي . قال : وانتظرت رأسي أن يسقط بين يدي ، فأمرني بالانصراف . فلما خرجت إذا برسوله من ورأى ، وإذا معه مائتا دينار ، فقال يقول لك الأمير : استنفق هذه . قال : فتصدقت بها ، وإنما أخذتها خوفاً . قال : وكان في تلك الأيام الثلاثة صائماً فيقال إن الأمير لما بلغه ذلك عرض عليه الفطر عنده فأبى أن يفطر عنده .

قالوا : ثم رحل الأوزاعي من دمشق فتنزل بيروت مرابطاً بأهله وأولاده ، قال الأوزاعي : وأعجبني في بيروت أني مررت بقبورها فإذا امرأة سوداء في القبور فقلت لها : أين العمارة يا هنتاه ؟ فقالت : إن أردت العمارة فهي هذه - وأشارت إلى القبور - وإن كنت تريد الخراب فأمامك - وأشارت إلى البلد - فعزمت على الإقامة بها . وقال محمد بن كثير : سمعت الأوزاعي يقول : خرجت يوماً إلى الصحراء فإذا رجل جراد وإذا شخص راكب على جرادة منها وعليه سلاح الحديد ، وكلما قال بيده هكذا إلى جهة مال الجراد مع يده ، وهو يقول : الدنيا باطل باطل باطل ، وما فيها باطل

باطل باطل . وقال الأوزاعي : كان عندنا رجل يخرج يوم الجمعة إلى الصيد ولا ينتظر الجمعة : فحسف بيغلته فلم يبق منها إلا أذناها ، وخرج الأوزاعي يوما من باب مسجد بيروت وهناك دكان فيه رجل يبيع الناطف وإلى جانبه رجل يبيع البصل وهو يقول : يا بصل أحلى من العسل ، أو قال أحلى من الناطف . فقال الأوزاعي : سبحان الله ! أيظن هذا أن شيئا من الكذب يباح ؟ فكان هذا ما يرى في الكذب بأسا .

وقال الواقدي قال الأوزاعي : كنا قبل اليوم نضح ونلمب ، أما إذ صرنا أمة يقتدى بنا فلا نرى أن يسمننا ذلك ، وينبغي أن نتحفظ . وكتب إلى أخ له : أما بعد فقد أحيط بك من كل جانب ، وإنه يسار بك في كل يوم وليلة ، فاحذر الله والقيام بين يديه ، وأن يكون آخر العهد بك والسلام .

وقال ابن أبي الدنيا : حدثني محمد بن إدريس سمعت أبا صالح - كاتب الليث - يذكر عن المهمل ابن زياد عن الأوزاعي أنه وعظ فقال في موعظته : أيها الناس ، تقوا بهذه النعم التي أصبحتم فيها على الحرب من نار الله الموقدة ، التي تطلع الأفتنة ، فانكم في دار الثواء فيها قليل ، وأنتم عما قليل عنها راحلون ، خلافت بعد القرون الماضية الذين استقبلوا من الدنيا آفتها وزهرتها ، فهم كانوا أطول منكم أعماراً وأمد أجساماً ، وأعظم أحلاماً ، وأكثر أموالاً وأولاداً ، فغمدوا الجبال وجابوا الصخر بالواد ، وتنقلوا في البلاد ، مؤيدين ببطش شديد ، وأجساد كالعماد ، فما لبثت الأيام والليالي أن طوت آثارهم ، وأخربت منازلهم وديارهم ، وأنست ذكركم ، فهل نحس منهم من أحد أو تسمع له ركزاً ؟ كانوا بلهو الأمل آمنين ، وعن ميقات يوم موتهم غافلين ، فأبوا إياب قوم ناديين ، ثم إنكم قد علمتم الذي نزل بساحتهم بيانا من عقوبة الله ، فأصبح كثير منهم في ديارهم جاثمين ، وأصبح الباقيون المتخلفون يبصرون في نعمة الله وينظرون في آثار نعمته ، وزوال نعمته عن تقديمهم من المالكين ينظرون والله في مساكن خالية خاوية ، قد كانت بالمرح محفوفة ، وبالنعم معروفة ، والقلوب إليها مصروفة ، والأعين نحوها ناظرة ، فأصبحت آية للذين يخافون العذاب الأليم ، وعبرة لمن يخشى . وأصبحتم بعمى في أجل منقوص ودنيا منقوصة ، في زمان قد ولى عفوه وذهب رخاؤه وخيره وصفوه ، فلم يبق منه إلا جهة شر ، وصباية كدر ، وأهاويل عبر ، وعقوبات غير ، وإرسال فتن ، وتتابع زلازل ، ورذالة خلف بهم ظهر الفساد في البر والبحر ، يضيقون الديار ويفنون الأسعار بما يرتكبونه من العار والشنار ، فلا تكونوا أشباها لمن خدعه الأمل ، وغره طول الأجل ، ولعبت به الأماني ، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن إذادعى بدر ، وإذا نهى انتهى ، وعقل مثواه فهد لنفسه .

وقد اجتمع الأوزاعي بالمنصور حين دخل الشام وعظه وأحبه المنصور وعظمه ، ولما أراد الانصراف من بين يديه استأذنه أن لا يلبس السواد فأذن له ، فلما خرج قال المنصور للربيع

الحاجب : الحقه فأسأله لم كره لبس السواد ؟ ولا تعلمه أنى قلت لك . فسأله الربيع فقال : لأنى لم أرمحما أحرم فيه ، ولا ميتا كفن فيه ، ولا عروسا جلست فيه ، فلهذا أكرهه . وقد كان الأوزاعي في الشام معظما مكرما أمره أعز عندهم من أمر السلطان ، وقد هم به بعض الولاة مرة فقال له أصحابه : دعه عنك والله لو أمر أهل الشام أن يقتلوك لقتلوك . ولما مات جلس على قبره بعض الولاة فقال : رحمك الله ، فوالله لقد كنت أخاف منك أكثر مما أخاف من الذى ولائى - يعنى المنصور - وقال ابن أبى العشرين : مات الأوزاعي حتى جلس وحده وسمع شتمه بأذنه .

وقال أبو بكر بن أبى خيثمة : حدثنا محمد بن عبيد الطنافسى قال : كنت جالسا عند الثورى فجاءه رجل فقال : رأيت كأن ريحانة من المغرب - يعنى قلت - . قال : إن صدقت رؤياك فقد مات الأوزاعي . فكتبوا ذلك فجاء موت الأوزاعي فى ذلك اليوم . وقال أبو مسهر : بلغنا أن سبب موته أن امرأته أغلقت عليه باب حمام فمات فيه ، ولم تكن عامدة ذلك ، فأمرها سعيد بن عبد العزيز بتقريبه . قال : وما خلف ذهب ولا فضة ولا عقاراً ، ولا متاعاً إلا ستة وثمانين ، فضلت من عطائه . وكان قد اكتتب فى ديوان الساحل . وقال غيره : كان الذى أغلق عليه باب الحمام صاحب الحمام ، أغلقه وذهب لحاجة له ثم جاء ففتح الحمام فوجده ميتا قد وضع يده اليمنى تحت خده وهو مستقبل القبلة رحمه الله .

قلت : لا خلاف أنه مات ببيروت مرابطاً ، واختلفوا فى سنه ووفاته ، فروى يعقوب بن سفيان عن سلمة قال قال أحمد : رأيت الأوزاعي وتوفى سنة خمسين ومائة . قال العباس بن الوليد البيرونى : توفى يوم الأحد أول النهار لليلتين بقيتا من صفر سنة سبع وخمسين ومائة ، وهو الذى عليه الجهور وهو الصحيح ، وهو قول أبى مسهر وهشام بن عمار والوليد بن مسلم - فى أصح الروايات عنه - ويحيى بن معين ودحيم وخليفة بن خياط وأبى عبيد وسعيد بن عبد العزيز وغير واحد . قال العباس بن الوليد : ولم يبلغ سبعين سنة . وقال غيره : جاوز السبعين ، والصحيح سبع وستون سنة ، لأن ميلاده فى سنة ثمان وثمانين على الصحيح . وقيل إنه ولد سنة ثلاث وسبعين ، وهذا ضعيف . وقد رآه بعضهم فى المنام فقال له : دلنى على عمل يقربنى إلى الله . فقال : ما رأيت فى الجنة درجة أعلا من درجة العلماء العاملين ، ثم المحزونين .

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين ومائة

ففيها تكامل بناء قصر المنصور المسمى بالخلد وسكنه أياماً يسيرة ثم مات وتركه ، وفيها مات طاغية الروم . وفيها وجه المنصور ابنه المهدي إلى الزقة وأمره بعزل موسى بن كعب عن الموصل ، وأن يولى عليها خالد بن برمك ، وكان ذلك بعد نكته غريبة اتفقت ليحيى بن خالد ، وذلك أن

المنصور كان قد غضب على خالد بن برمك ، وألزمه بحمل ثلاثة آلاف ألف ، فضاقت ذرعاً بذلك ، ولم يبق له مال ولا حال وعجز عن أكثرها ، وقد أجله ثلاثة أيام ، وأن يحمل ذلك في هذه الثلاثة الأيام وإلا قدمه هدر فجعل يرسل ابنه يحيى إلى أصحابه من الأمراء يستقرض منهم ، فكان منهم من أعطاه مائة ألف ، ومنهم أقل وأكثر . قال يحيى بن خالد : فيينا أنا ذات يوم من تلك الأيام الثلاثة على جسر بغداد ، وأنا مهموم في تحصيل ما طلب منا بما لا طاقة لنا به ، إذ وثب إلى زاجر من أولئك الذين يكونون عند الجسر من الطرقية ، فقال لي : ابشر ، فلم ألتفت إليه ، فتقدم إلى حتى أخذ بلجام فرسى ثم قال لي : أنت مهموم ، ليفرجن الله همك ولتفرن غداً في هذا الموضع واللواء بين يديك ، فإن كان ما قلت لك حقاً فلي عليك خمسة آلاف . فقلت : نعم . ولو قال خمسون ألفاً لقلت نعم ، لبعد ذلك عندي . وذهبت لشأني ، وقد بقي علينا من الحمل ثلاثمائة ألف فورد الخبر إلى المنصور بانتقاض الموصل وانتشار الأكراد فيها ، فاستشار المنصور الأمراء من يصلح للموصل ؟ فأشار بعضهم بخالد بن برمك ، فقال له المنصور : أو يصلح لذلك بعد ما فعلنا به ؟ فقال : نعم أنا الضامن أنه يصلح لها ، فأمر باحضاره فولاه إياها ووضع عنه بقية ما كان عليه ، وعقد له اللواء ، وولى ابنه يحيى أذربيجان وخرج الناس في خدمتهما . قال يحيى : فمررنا بالجسر فنار لي ذلك الزاجر فطالبني بما وعدته به ، فأمرت له به فقبض خمسة آلاف .

وفي هذه السنة خرج المنصور إلى الحج فساق الهدى معه ، فلما جاوز الكوفة بمراحل أخذه وجعه الذي مات به وكان عنده سوء مزاج فاشتد عليه من شدة الحر وركوبه في الهواجر ، وأخذته إسهال وأفرط به ، فقوى مرضه ، ودخل مكة فتوفي بها ليلة السبت لست مضين من ذي الحجة ، وصلى عليه ودفن بكندا عند ثنية باب المعلاة التي بأعلام مكة ، وكان عمره يومئذ ثلاثاً وقليل أربعاً وقليل خمساً وستين ، وقيل إنه بلغ ثمانياً وستين سنة والله أعلم . وقد أتم الربيع الحاجب موته حتى أخذ البيعة للمهدي من القواد ورؤس بني هاشم ، ثم دفن . وكان الذي صلى عليه إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي ، وهو الذي أقام للناس الحج في هذه السنة .

ترجمة المنصور

هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم أبو جعفر المنصور . وكان أكبر من أخيه أبي العباس السفاح ، وأمه أم ولد اسمها سلامة . روى عن جده عن ابن عباس « أن رسول الله (ص) كان يتختم في يمينه » أوردته ابن عساكر من طريق محمد بن إبراهيم السلمي عن المأمون عن الرشيد عن المهدي عن أبيه المنصور به ، بويح له بالخلافة بعد أخيه في ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة ، وعمره يومئذ إحدى وأربعون سنة ، لأنه ولد في سنة خمس وتسعين

على المشهور في صفر منها بالحجيمة من بلاد البلقاء ، وكانت خلافته ثنتين وعشرين سنة إلا أياماً ، وكان أسمر اللون موفر اللثة خفيف اللحية ، رحب الجبهة ، أفتى الأنف ، أعين كأن عينيه لسانان ناطقان ، يخالطه أبهة الملك ، وتقبله القلوب ، وتقبه العيون ، يعرف الشرف في مواضعه ، والعنف في صورته ، والليث في مشيته ، هكذا وصفه بعض من رآه . وقد صح عن ابن عباس أنه قال : « منا السفاح والمنصور » وفي رواية « حتى نسلها إلى عيسى بن مريم » . وقد روى مرفوعاً ولا يصح ولا وقفه أيضاً . وذكر الخطيب أن أمه سلامة قالت : رأيت حين حملت به كأنه خرج مني أسد فزأروا فاقفا على يديه ، فما بقي أسد حتى جاء فسجد له . وقد رأى المنصور في صفره مناما غريباً كان يقول : ينبغي أن يكتب في ألواح الذهب ، ويعلق في أعناق الصبيان . قال : رأيت كأنني في المسجد الحرام وإذا رسول الله (س) في الكعبة والناس مجتمعون حولها ، فخرج من عنده مناد : أين عبد الله ؟ فقام أخى السفاح يتخطى الرجال حتى جاء باب الكعبة فأخذ بيده فأدخله إيها ، فسا لبث أن خرج ومعه لواء أسود . ثم تودى أين عبد الله ؟ فقامت أنا وعمى عبد الله بن علي نستبق ، فسبقتني إلى باب الكعبة فدخلتها ، فإذا رسول الله (س) ، وأبو بكر وعمر وبلال ، فمقد لي لواء وأوصاني بأمته وعمى عمامة كورها ثلاثة وعشرون كوراً ، وقال : « خنعا إليك أبا الخلفاء إلى يوم القيامة » . وقد اتفق سجن المنصور في أيام بني أمية فاجتمع به نوبخت المنجم وتوسم فيه الرياسة فقال له : ممن تكون ؟ فقال : من بني العباس ، فلما عرف منه نسبه وكنيته قال : أنت الخليفة الذي تلى الأرض . فقال له : ويحك ماذا تقول ؟ فقال : هو ما أقول لك ، فضع لي خطك في هذه الرقعة أن تعطيني شيئاً إذا وليت . فكتب له ، فلما ولي أكرمه المنصور وأعطاه وأسلم نوبخت على يديه ، وكان قبل ذلك مجوسياً . ثم كان من أخص أصحاب المنصور . وقد حج المنصور بالناس سنة أربعين ومائة ، وأحرم من الحيرة ، وفي سنة أربع وأربعين ، وفي سنة سبع وأربعين . وفي سنة ثنتين وخسين ، ثم في هذه السنة التي مات فيها . وبني بغداد والرافقة وقصره الخلد .

قال الربيع بن يونس الحاجب : سمعت المنصور يقول : الخلفاء أربعة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي . والملك أربعة معاوية وعبد الملك بن مروان وهشام بن عبد الملك ، وأنا . وقال مالك : قال لي المنصور : من أفضل الناس بعد رسول الله (س) ؟ فقلت : أبو بكر . وعمر . فقال : أصبت وذلك رأى أمير المؤمنين . وعن إسماعيل البهرى قال سمعت المنصور على منبر عرفة يوم عرفة يقول : أيها الناس ! إنما أنا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوفيقه ورشده ، وخازنه على ماله أقسمه بأرادته وأعطيه بأذنه ، وقد جعلني الله عليه قفلاً فإن شاء أن يفتحني لأعطيتكم وقسم أرزاقكم فتحني ، وإذا شاء أن يقفلني عليه قفلني . فارجعوا إلى الله أيها الناس وسلوه في هذا اليوم الشريف الذي

وهبكم فيه من فضله ما أعلمكم به في كتابه ، إذ يقول : [اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً] . أن يوفقي للصواب ويسدني للرشاد ويلهمني الرأفة بكم والاحسان إليكم ويفتحني لاعطيائكم وقسم أرزاقكم بالعدل عليكم ، فانه مجميع مجيب .

وقد خطب يوماً فاعترضه رجل وهو يثنى على الله عز وجل ، فقال : يا أمير المؤمنين اذكر من أنت ذا كره ، واتق الله فيما تأتيه وتذره . فسكت المنصور حتى انتهى كلام الرجل فقال : أعوذ بالله أن أكون ممن قال الله عز وجل فيه [وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم] أو أن أكون جباراً عصياً ، أيها الناس ! إن الموعدة علينا نزلت ومن عندنا نبتت . ثم قال للرجل : ما أظنك في مقاتلتك هذه تريد وجه الله ، وإنما أردت أن يقال عنك وعظ أمير المؤمنين ، أيها الناس لا يفرنكم هذا فتفعلوا كفعله ثم أمر به فاحتفظ به وعاد إلى خطبته فأكملها ، ثم قال لمن هو عنده : أعرض عليه الدنيا فان قبلها فأعلمني ، وإن ردها فأعلمني ، فما زال به الرجل الذي هو عنده حتى أخذ المال ومال إلى الدنيا فولاه الحسبة والمظالم وأدخله على الخليفة في بزة حسنة ، وثياب وشارة وهيئة دنيوية ، فقال له الخليفة : ويحك ! لو كنت محققاً مريداً وجه الله بما قلت على رؤس الناس لما قبلت شيئاً مما أرى ، ولكن أردت أن يقال عنك إنك وعظ أمير المؤمنين ، وخرجت عليه ، ثم أمر به فضربت عنقه . وقد قال المنصور لابنه المهدي : إن الخليفة لا يصلحه إلا التقوى ، والسلطان لا يصلحه إلا الطاعة . والرعية لا يصلحها إلا العدل ، وأولى الناس بالمعروف أقدرهم على العقوبة ، وأنقص الناس عقلاً من ظلم من هو دونه . وقال أيضاً : يا بني استتم النعمة بالشكر ، والقسرة بالمعروف ، والطاعة بالتأليف ، والنصر بالتواضع والرحمة للناس ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ونصيبك من رحمة الله .

وحضر عنده مبارك بن فضالة يوماً وقد أمر برجل أن يضرب عنقه وأحضر النطع والسيوف ، فقال له مبارك : سمعت الحسين يقول قال رسول الله (س) : « إذا كان يوم القيامة نادى مناد ليقيم من كان أجره على الله فلا يقوم إلا من عفا » فأمر بالمعروف عن ذلك الرجل . ثم أخذ يعدد على جلسائه عظيم جرائم ذلك الرجل وما صنعه . وقال الأصمعي : أتى المنصور برجل ليعاقبه فقال : يا أمير المؤمنين الانتقام عدل والمعفو فضل ، وتموذاً أمير المؤمنين بالله أن يرضى لنفسه بأوكس النصيبين ، وأدنى القسمين ، دون أرفع الدرجتين . قال فعفا عنه .

وقال الأصمعي : قال المنصور لرجل من أهل الشام : أحمد الله يا أعرابي الذي دفع عنكم الطاعون بولايتنا . فقال إن الله لا يجمع علينا حشفاً وسوء كيل ، ولا يتكم والطاعون . والحكايات في ذكر حلمه وعفوه كثيرة جداً . [ودخل بعض الزهاد على المنصور فقال : إن الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك ببعضها ، واذا كر ليلة تبیت في القبر لم تبت قبلها ليلة ، واذا كر ليلة تمخض عن

يوم لاليلة بعده . قال : فأغم المنصور قوله وأمر له بـمال فقال : لو احتجت إلى مالك لما وعظمتك^(١) ودخل عمرو بن عبيد القدرى على المنصور فأكرمه وعظمه وقر به وسأله عن أهله وعياله ، ثم قال له : عظمي . فقرأ عليه سورة الفجر إلى [إن ربك لبالمرصاد] فبكى المنصور بكاء شديداً حتى كأنه لم يسمع بهذه الآيات قبل ذلك ، ثم قال له : زدنى . فقال : إن الله قد أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك ببعضها ، وإن هذا الأمر كان لمن قبلك ثم صار إليك ثم هو صار لمن بعدك ، وإذا كر ليلة تسفر عن يوم القيامة . فبكى المنصور أشد من بكائه الأول حتى اختلفت أجنافه . فقال له سليمان بن مجالد : رفقاً بأمر المؤمنين . فقال عمرو : وماذا على أمير المؤمنين أن يبكى من خشية الله عز وجل . ثم أمر له المنصور بمشرة آلاف درهم فقال : لا حاجة لى فيها . فقال المنصور : والله لناخذنها . فقال : والله لا آخذنها . فقال له المهدي وهو جالس في سواده وسيفه إلى جانب أبيه : أبحلف أمير المؤمنين ونحلف أنت ؟ فالتفت إلى المنصور فقال : ومن هذا ؟ فقال : هذا ابني محمد ولي العهد من بعدى . فقال عمرو : إنك سميتك اسماً لم يستحقه لعمله ، وألبسته لبوساً ما هو لبوس الأبرار ، ولقد مهدت له أمراً أمتنع ما يكون به أشغل ما يكون عنه . ثم التفت إلى المهدي فقال : يا ابن أخي ! إذا حلف أبوك وحلف عمك فلا أن يحنث أبوك أيسر من أن يحنث عمك ، لأن أباك أقدر على الكفارة من عمك . ثم قال المنصور : يا أبا عثمان هل من حاجة ؟ قال : نعم ! قال : وما هي ؟ قال : لا تبعث إلى حتى آتيك . ولا تعطني حتى أسألك . فقال المنصور : إذا والله لا نلتقي . فقال عمرو : عن حاجتي سألتني . فودعه وانصرف . فلما ولي أمده بصره وهو يقول :

كلكم يمشى رويد * كلكم يطلب صيد * غير عمرو بن عبيد

ويقال إن عمرو بن عبيد أنشد المنصور قصيدة في موعظته إياه وهي قوله :

يا أيها الذي قد غره الأمل * ودون ما يامل التنغيص والأجل
ألا ترى أنما الدنيا وزينتها * كنزل الركب حلوا نمت ارتحلوا
حنوقها رصد وعيشها نكد * وصفوها كدر وملكها دول
تظل تفرغ بالروعات ساكنها * فما يسوغ له لين ولا جنل
كأنه للنميا والردى غرض * تظل فيه بنت الدهر تنقل
تديره ما تدور به دوائرها * منها المصيب ومنها الخطي الزلل
والنفس هاربة والموت يطلبها * وكل عسرة رجل عندها جلل
والمرء يسعى بما يسعى لوارثه * والقبور وارث ما يسعى له الرجل

وقال ابن دريد عن الريثي عن محمد بن سلام قال : رأيت جارية للمنصور نوبه مرقوعاً فقالت :
خليفة وقيص مرقوع ؟ فقال : ويحك أما سمعت ما قال ابن هرمة

قد يدرك الشرف الفتي ورداؤه * خلق وبعض قيصر مرقوع

وقال بعض الزهاد للمنصور : اذكر ليلة تبيت في القبر لم تبت قبلها ليلة مثلها ، واذكر ليلة
تمنح عن يوم القيامة لاليلة بعدها فلطم المنصور قوله فأمر له بـمال . فقال : لو احتجت إلى مالك
ما وعظتك . ومن شعره لما عزم على قتل أبي مسلم : -

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة * فإن فساد الرأي أن يترددا

ولا تمهل الأعداء يوماً لفدرة * وبلدكم أن يملكو مثلها غدا

ولما قتله ورآه طريقاً بين يديه قال : -

قد اكتفكت ثلاث ثلاث * جلبن عليك محتوم الحمام

خلافك وامتناعك من يميني * وقودك للجمامير العظام

ومن شعره أيضاً : -

المرء يأمل أن يمد * ش وطول عمره قد يضره

تبلى بشاشته ويب * في بعد حلول العيش مرة

وتخونه الأيام حتى * لا يرى شيئاً يسره

كم شملت بي إن هلك * ت وقائل لله دره

قالوا : وكان المنصور في أول النهار يتصدى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والولايات والمزول
والنظر في مصالح العامة ، فإذا صلى الظهر دخل منزله واستراح إلى العصر ، فإذا صلاها جلس لأهل
بيته ونظر في مصالحهم الخاصة ، فإذا صلى العشاء نظر في الكتب والرسائل الواردة من الآفاق ،
وجلس عنده من يسامره إلى تلك الليل ، ثم يقوم إلى أهله فينام في فراشه إلى الثلث الآخر ،
فيقوم إلى وضوئه وصلاته حتى يتفجر الصباح ، ثم يخرج فيصلي بالناس ، ثم يدخل فيجلس في إخوانه .
وقد ولي بعض العمال على بلد فبلغه أنه قد تصدى للصيد وأعد لذلك كلاباً وبراة ، فكتب إليه
تكلتك أمك وعشيرتك ، ويحك إنا إنما استكفيناك واستعملناك على أمور المسلمين ، ولم نستكفك
أمر الوحوش في البراري ، فسلم ماتلى من عملنا إلى فلان والحق بأهلك ملوماً مدحوراً .

وأتى يوماً بخارجي قد هزم جيوش المنصور غير مرة فلما وقف بين يديه قال له المنصور : ويحك
يا ابن الفاعلة ! مثلك يهزم الجيوش ؟ فقال الخارجى : ويلاك سواء لك بيني وبينك أمس السيف
والقتل واليوم القذف والسب ، وما يؤمنك أن أرد عليك وقد ينست من الحياة فما استقبلها أبداً .

قال فاستحي منه المنصور وأطلقه . فما رأى له وجها إلى الحول [وقال لابنه لما ولاه العهد : يا بني
انتمم النعمة بالشكر ، والقدره بالعفو ، والنصر بالتواضع ، والتألف بالطاعة ، ولا تنس نصيبك من
الدنيا ونصيبك من رحمة الله] ^(١)

وقال أيضا : يا بني ليس العاقل من يمتثل للأمر الذي وقع فيه حتى يخرج منه ، ولكن العاقل
الذي يمتثل للأمر الذي غشيه حتى لا يقع فيه . وقال المنصور : يا بني لا تجلس مجلساً إلا وعندهك من
أهل الحديث من يحدثك ، فان الزهرى قال : علم الحديث ذكر لا يحبه إلا ذكرا الرجال ، ولا يكرهه
إلا مئة نثوم ، وصدق أخو زهرة . وقد كان المنصور في شببته يطلب العلم من مظانه والحديث والفقه
فنال جانبا جيداً وطرفاً صالحاً ، وقد قيل له يوما : يا أمير المؤمنين هل بقي شيء من اللذات لم تنله ؟
قال : شيء واحد ، قالوا : وما هو ؟ قال : قول الحديث للشيخ من ذكرت رحمتك الله . فاجتمع وزراؤه
وكتابه وجلسوا حوله وقالوا : لئيل علينا أمير المؤمنين شيئا من الحديث ، فقال : لستم بهم ، إنما هم
الدنسة ثيابهم ، المشقة أرجلهم ، الطويلة شعورهم ، رواد الآفاق وقطاع المسافات ، تارة بالعراق
وتارة بالحجاز ، وتارة بالشام ، وتارة باليمن . فهؤلاء نقلة الحديث .

وقال يوما لابنه المهدي : كم عندك من دابة ؟ فقال لا أدري . فقال : هذا هو التقصير ، فأنت لأمر
الخلافه أشد تضيياعاً فاتق الله يا بني . وقالت خالصة إحدى حظيات المهدي : دخلت يوما على
المنصور وهو يشتكى ضرره ويداه على صدغيه فقال لي : كم عندك من المال يا خالصة ؟ فقلت ألف
درهم . فقال : منى يدك على رأسي واحلني ، فقلت : عندي عشرة آلاف دينار . قال : اذهبي فاحملها
إلي . قالت : فذهبت حتى دخلت على سيدي المهدي وهو مع زوجته الخيزران فشكوت ذلك إليه
فوكزني برجله وقال : وبحك ! إنه ليس به وجع ولكني سألته بالأمس مالا قمارض ، وإنه لا يسمعك
إلا ما أمرك به . فذهبت إليه خالصة ومعه عشرة آلاف دينار ، فاستدعى بالمهدي فقال له : تشكو
الحاجة وهذا كله عند خالصة ؟ وقال المنصور لخازنه : إذا علمت بمجيء المهدي فأتني بخلقان الثياب
قبل أن يجيء ، فجاء بها فوضعها بين يديه ودخل المهدي والمنصور يقبلها ، فجعل المهدي يضحك ،
فقال : يا بني من ليس له خلق ليس له جديد ، وقد حضر الشتاء فنحتاج نعين العيال والولد . فقال
المهدي : على كسوة أمير المؤمنين وعياله ، فقال : دونك فانعل .

وذكر ابن جرير عن المهيم أن المنصور أطلق في يوم واحد لبعض أعمامه ألف ألف درهم . وفي
هذا اليوم فرق في بيته عشرة آلاف درهم ، ولا يعلم خليفة فرق مثل هذا في يوم واحد . وقرأ بعض
القراء عند المنصور [الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل] فقال : والله لولا أن المال حصن

للسلطان ودعامة للدين والدنيا وعزها مابت ليلة واحدة وأنا أحرص منه ديناراً ولا درهماً لما جد لبذل المال من اللذة ، ولما أعلم في إعطائه من جزيل المثوبة . وقرأ عنده قارئ آخر [ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط] الآية . فقال : ما أحسن ما أدبنا ربنا عز وجل . وقال المنصور : هممت أبي يقول سمعت علي بن عبد الله يقول : سادة أهل الدنيا في الدنيا الأسخياء ، وسادة أهل الآخرة في الآخرة الأتقياء .

ولما عزم المنصور على الحج في هذه السنة دعا ولده المهدي فأوصاه في خاصة نفسه وبأهل بيته وبسائر المسلمين خيراً ، وعلمه كيف تفعل الأشياء وتسد الثغور ، وأوصاه بوصايا يطول بسطها وخرج عليه أن لا يفتح شيئاً من خزائن المسلمين حتى يتحقق وفاته فان بها من الأموال ما يكفي المسلمين لو لم يجب إليهم من الخراج درهم عشرين ، وعهد إليه أن يقضى ما عليه من الدين وهو ثلاثمائة ألف دينار ، فانه لم يرقضها من بيت المال . فامتثل المهدي ذلك كله . وأحرم المنصور بحج وعمرة من الرصافة وساق بدنه وقال : يا بني إني ولدت في ذى الحجة وقد وقع لي أن أموت في ذى الحجة ، وهذا الذي جرأني على الحج عامي هذا . وودعه وسار واعتراه مرض الموت في أثناء الطريق فسا دخل مكة إلا وهو ثقيل جداً ، فلما كان بآخر منزل نزله دون مكة إذا في صدر منزله مكتوب : (بسم الله الرحمن الرحيم) .

أبا جعفر حانت وفاتك واقضت * سنوك وأمر الله لا بد واقع
أبا جعفر هل كاهن أو منجم * لك اليوم من كرب المنية مانع
فدعا بالحجة فأقرأهم ذلك فلم يروا شيئاً فعرف أن أجله قد نعى إليه . قالوا : ورأى المنصور في منامه ويقال بل هتف به هاتف وهو يقول : —

أما ورب السكون والحرك * إن النيا كثره الشرك
عليك يا نفس إن أسأت وإن * أحسنت يا نفس كان ذاك لك
ما اختلف الليل والنهار ولا * دارت نجوم السماء في الفلك
إلا بنقل السلطان عن ملك * إذا انقضى ملكه إلى ملك
حتى يصير أنه إلى ملك * ماعز سلطانهم بمشرك
ذاك بديع السماء والأرض والمر * سى الجبال المسخر الفلك

فقال المنصور : هذا أوان حضور أجل واقضاء عمري . وكان قد رأى قبل ذلك في قصره الخلد لذي بناء وتأنق فيه مناماً أفزعه فقال للزبيع : ويحك يا زبيع لقد رأيت مناماً هالتي ، رأيت قائلاً : قف في باب هذا القصر وهو يقول :

كأنى بهذا القصر قد بادأ أهله * وأوحش منه أهله ومنازله

وصار رئيس القصر من بعد بهجة * إلى جدث يبنى عليه جناده

فا أقام في الخلد إلا أقل من سنة حتى مرض في طريق الحج ، ودخل مكة مدنفًا ثقيلاً . وكانت وفاته ليلة السبت لست وقيل لسبع مضين من ذى الحجة ، وكلن آخر ما تكلم به أن قال : اللهم بارك لى فى لقاءك . وقيل : إنه قال يا رب إن كنت عصيتك فى أمور كثيرة فقد أطفئت فى أحب الأشياء إليك شهادة لئن لا إله إلا الله مخلصاً . ثم مات . وكلن ضل خاتمه . الله ثقة عبد الله وبه يؤمن . وكان عمره يوم وفاته ثلاثاً وستين سنة على المشهور ، منها ثقتان وعشرون سنة خليفة . ودفن بباب الملة رحمه الله . قال ابن جرير : ومما رثى به قول سلم الخلسر الشاعر :

عجبا للذى نعى الناعيان * كيف طاشت بموته الشفتان
ملك أن عدا على الدهر يوماً * أصبح الدهر ساقطاً للجران
ليت كفأحت عليه تراباً * لم تعد فى يمينها بينان
حين دانت له البلاد على العـ * فبرأغضى من خوفه الثقلان
أين رب الزوراء قد قلده الـ * ملك عشرين حجة واثنتان
إنما المرة كالزناد إذا ما * أخذته قوادح النيران
ليس يثنى هواه زجر ولاية * سح فى حبله ذور الأذهان
قلده أعنة الملك حتى * قاد أعداءه بغير عنان
يكسر الطرف دونه وترى الـ * مدى من خوفه على الأذهان
ضم أطراف ملكه ثم أضى * خلف أقصام ودون الداني
هاشمي التشير لا يحمل النـ * ل على غارب الشروء الهدان
ذو آفاق ينسى لها الخائف الخو * ف وعزم يلوى بكل جنان
ذهبت دونه النفوس حذاراً * غير أن الأرواح فى الأبدان

وقد دفن عند باب الملة بمكة ولا يعرف قبره لأنه أعمى قبره ، فان الربيع الحاجب جفر مائة قبر ودفنه فى غيرها لتلا يعرف .

أولاد المنصور

محمد المهدي وهو ولي عهده ، وجعفر الأكبر مات فى حياته ، وأمهما أروى بنت منصور . وعيسى ، ويعقوب ، وسليمان ، وأمهم فاطمة بنت محمد من ولد طلحة بن عبيد الله . وجعفر الأصغر من أم ولد كردية ، وصالح المسكين من أم ولد رومية . يقال لها قالى الفراشة . والقاسم من أم

ولد أيضاً . ولعالية من امرأة من بني أمية .

خلافة المهدي بن المنصور

لما مات أبوه بمكة لست أو لسبع مضي من ذي الحجة من سنة ثمان وخمسين ومائة أخذت البيعة للمهدي من رؤس بني هاشم والقواد الذين هم مع المنصور في الحج قبل دفنه ، وبعث الربيع الحاجب بالبيعة مع البرد إلى المهدي وهو ببغداد ، فدخل عليه البريد بذلك يوم الثلاثاء النصف من ذي الحجة ، فسلم عليه بالخلافة وأخطاه الكتب بالبيعة ، وبأيمه أهل بغداد ، ونفذت بيعته إلى سائر الآفاق . وذكر ابن جرير أن المنصور قبل موته بيوم تحامل وتساند واستدعى بالأمراء فحدد البيعة لابنه المهدي ، فتسارعوا إلى ذلك وتبادروا إليه . وحج بالناس في هذه السنة إبراهيم بن يحيى بن محمد ابن علي بن عبد الله بن عباس عن وصية عمه المنصور ، وهو الذي صلى عليه ، وقيل إن الذي صلى على المنصور عيسى بن موسى ولي العهد من بعد المهدي ، والصحيح الأول ، لأنه كان نائب مكة والطائف ، وعلى إمرة المدينة عبد الصمد بن علي ، وعلى الكوفة عمرو بن زهير الضبي - أخو المسيب ابن زهير أمير الشرطة للخليفة - وعلى خراسان حميد بن قحطبة ، وعلى خراج البصرة وأرضها عمارة ابن حمزة ، وعلى صلاتها وقضاها عبد الله بن الحسن العنبري ، وعلى أحداثها سعيد بن دعلج .

قال الواقدي : وأصاب الناس في هذه السنة وباء شديد فتوفي فيه خلق كثير وجم غفير ، منهم أفلح بن حميد ، وحيوة بن شريح ، ومعاوية بن صالح بمكة ، وزفر بن الهذيل بن قيس بن سليم ثم ساق نسبه إلى معد بن عدنان ، يقال له التميمي العنبري الكوفي الفقيه الحنفي ، أقدم أصحاب أبي حنيفة وفاة ، وأكثرهم استمالة للقياس ، وكان عابداً ، اشتغل أولاً بعلم الحديث ثم غلب عليه الفقه والقياس . ولد سنة ست عشرة ومائة ، وتوفي سنة ثمان وخمسين ومائة عن ثنتين وأربعين سنة رحمه الله . وإيانا .

ثم دخلت سنة تسع وخمسين ومائة

استهلت هذه السنة وخليفة الناس أبو عبد الله محمد بن المنصور المهدي ، فبعث في أولها العباس ابن محمد إلى بلاد الروم في جيش كثيف ، وركب معهم مشيماً لهم ، فساروا إليها فافتتحوا مدينة عظيمة للروم ، وغنموا غنائم كثيرة ورجعوا سالمين لم يفقد منهم أحد . وفيها توفي حميد بن قحطبة نائب خراسان ، فولى المهدي مكانه أبا عون عبد الملك بن يزيد ، وولى حمزة بن مالك سجستان ، وولى جبريل بن يحيى صرقند وفيها بنى المهدي مسجد الرصافة وخذقها . وفيها جهز جيشا كثيفا إلى بلاد الهند فوصلوا إليها في السنة الآتية ، وكان من أمرهم ما سذكروه . وفيها توفي نائب السند معبد بن الخليل فولى المهدي مكانه روح بن حاتم بمشورة وزيره أبي عبد الله . وفيها أطلق المهدي من كان في السجون إلا من كان محبوساً على دم ، أو من سعى في الأرض فساداً ، أو من كان عنده

حق لأحد . وكان في جملة من أخرج من المطبق يعقوب بن داود مولى بنى سليم ، والحسن بن إبراهيم ابن عبد الله بن حسين ، وأمر بصيرورة حسن هذا إلى نصير الخادم ليحترز عليه . وكان الحسن قد عزم على الهرب من السجن قبل خروجه منه ، فلما خرج يعقوب بن داود ناصح الخليفة بما كان عزم عليه فنقله من السجن وأودعه عند نصير الخادم ليحطاط عليه ، وحظى يعقوب بن داود عند المهدي جداً حتى صار يدخل عليه في الليل بلا استئذان ، وجعله على أمور كثيرة ، وأطلق له مائة ألف درهم . وما زال عنده كذلك حتى تمكن المهدي من الحسن بن إبراهيم فسقطت منزلة يعقوب عنده . وقد عزل المهدي نواباً كثيرة عن البلاد وولى بدلهم . وفي هذه السنة تزوج المهدي بابنة عمه أم عبد الله بنت صالح بن علي ، وأعتق جاريته الخيزران وتزوجها أيضاً ، وهي أم الرشيد . وفيها وقع حريق عظيم في السفن التي في دجلة بغداد . ولما ولي المهدي سأل عيسى بن موسى - وكان ولي العهد من بعده - أن يخلع نفسه من الأمر فامتنع على المهدي ، وسأل المهدي أن يقيم بأرض الكوفة في ضيعة له فأذن له ، وكان قد استقر على إمرة الكوفة روح بن حاتم ، فكتب إلى المهدي : إن عيسى بن موسى لا يأتي الجمعة ولا الجماعة مع الناس إلا شهرين من السنة ، وإنه إذا جاء يدخل بدوابه إلى داخل باب المسجد فتروث دوابه حيث يصلى الناس . فكتب إليه المهدي أن يعمل خشباً على أفواه السكك حتى لا يصل الناس إلى المسجد إلا مشاة . فلم بذلك عيسى بن موسى فاشترى قبل الجمعة دار المختار بن أبي عبيدة من ورثته - وكانت ملاصقة للمسجد - وكان يأتي إليها من يوم الخميس ، فإذا كان يوم الجمعة ركب حماراً إلى باب المسجد فنزل إلى هناك وشهد الصلاة مع الناس وأقام بالكلية بالكوفة بأهله ، ثم ألح المهدي عليه في أن يخلع نفسه وتوعده إن لم يفعل ، ووعدته إن فعل فأجابته إلى ذلك فأعطاه أقطاعاً عظيمة ، وأعطاه من المال عشرة آلاف ألف ، وقيل عشرين ألف ألف ، وبايع المهدي لولديه من بعده موسى الهادي ، ثم هارون الرشيد كما سيأتي .

وحج بالناس يزيد بن منصور خال المهدي ، وكان فائياً على اليمن فولاه الموسم واستقدمه عليه شوقاً إليه ، وغالب نواب البلاد عزلمهم المهدي ، غير أن إفريقية مع يزيد بن حاتم ، وعلى مصر محمد ابن سليمان أبو ضمرة ، وعلى خراسان أبوعون ، وعلى السند بسطام بن عمرو ، وعلى الأهواز وفارس عمارة بن حمزة ، وعلى اليمن رجاء بن روح ، وعلى الجامة بشر بن المنذر ، وعلى الجزيرة الفضل بن صالح ، وعلى المدينة عبيد الله بن صفوان الجمحي ، وعلى مكة والطائف إبراهيم بن يحيى ، وعلى أحداث الكوفة إسحاق بن الصباح السكندی ، وعلى خراجها ثابت بن موسى ، وعلى قضائها شريك بن عبد الله النخعي ، وعلى أحداث البصرة عمارة بن حمزة وعلى صلاحها عبد الملك بن أيوب بن ظبيان النميري ، وعلى قضائها عبيد الله بن الحسن العنبري .

وفيهما توفي عبد العزيز بن أبي رواد ، وعكرمة بن عمار ، ومالك بن مغول ، ومحمد بن عبد الرحمن ابن أبي ذيب المدني : نظير مالك بن أنس في الفقه ، وربما أنكر على مالك أشياء ترك الأخذ فيها ببعض الأحاديث ، كان يراها مالك من إجماع أهل المدينة وغير ذلك من المسائل .

ثم دخلت سنة ستين ومائة

فبها خرج رجل بخراسان على المهدي منكراً عليه أحواله وسيرته وما يتعاطاه ، يقال له يوسف البرم ، والتف عليه خلق كثير ، وتفاقم الأمر وعظم الخطب به ، فتوجه إليه يزيد بن يزيد فلقيه فاقتل قتالا شديداً حتى تنازلا وتماقيا ، فأسر يزيد بن يزيد يوسف هذا ، وأسر جماعة من أصحابه فبعثهم إلى المهدي فأدخلوا عليه ، وقد حملوا على جمال محولة وجوههم إلى ناحية أذنان الابل ، فأمر الخليفة هرمة أن يقطع يدي يوسف ورجليه ثم تضرب عنقه وأعناق من معه وصلبهم على جسر دجلة الأمامي مما يلي عسكر المهدي وأطلقا الله نائرتهم وكفى شرهم .

البيعة لموسى الهاوي

ذكرنا أن المهدي ألح على عيسى بن موسى أن يخلع نفسه وهو مع كل ذلك يمتنع وهو مقيم بالكوفة ، فبعث إليه المهدي أحد القواد الكبار وهو أبو هريرة محمد بن فروخ في ألف من أصحابه لاحضاره إليه ، وأمر كل واحد منهم أن يحمل طيلاً ، فاذا واجهوا الكوفة عند إضاءة الفجر ضرب كل واحد منهم على طبله ، ففعلوا ذلك فانجبت الكوفة ، وخاف عيسى بن موسى ، فلما انتهوا إليه دعوه إلى حضرة الخليفة فأظهر أنه يشتكي ، فلم يقبلوا ذلك منه بل أخذوه معهم فدخلوا به على الخليفة في يوم الخميس لثلاث خلون من المحرم من هذه السنة ، فاجتمع عليه وجوه بني هاشم والقضاة والأعيان وسألوه في ذلك وهو يمتنع ، ثم لم يزل الناس به بالرغبة والرغبة حتى أجاب في يوم الجمعة لأربع مضين من المحرم بعد العصر . وبويع لولدي المهدي موسى وهارون الرشيد صباحة يوم الخميس لثلاث بقين من المحرم وجلس المهدي في قبة عظيمة في إيوان الخلافة ، ودخل الأمراء فبايعوا ثم نهض فصعد المنبر وجلس ابنه موسى الهادي تحته ، وقام عيسى بن موسى على أول درجة ، وخطب المهدي فأعلم الناس بما وقع من خلع عيسى بن موسى نفسه وأنه قد حلل الناس من الإيمان التي له في أعناقهم وجمل ذلك إلى موسى الهادي . فصدق عيسى بن موسى ذلك وبايع المهدي على ذلك . ثم نهض الناس فبايعوا الخليفة على حسب مراتبهم وأسنانهم ، وكتب على عيسى بن موسى مكتوباً مؤكداً بالإيمان البالغة من الطلاق والعناق ، وأشهد عليه جماعة الأمراء والوزراء وأعيان بني هاشم وغيرهم وأعطاه ما ذكرنا من الأموال وغيرها .

وفيهما دخل عبيد الملك بن شهاب المسمعي مدينة باربد من الهند في جحفل كبير فحاصروها

ونصبوا عليها المجانيق ، ورموها بالنفط فأحرقوا منها طائفة ، وهلك بشر كثير من أهلها ، وفتحوها عنوة وأرادوا الانصراف فلم يمكنهم ذلك لاعتلاء البحر ، فأقاموا هنالك فأصابهم داء في أفواههم يقال له حمام قرّ فمات منهم ألف نفس منهم الربيع بن صبيح ، فلما أمكنهم السير ركبوا في البحر فهاجت عليهم ريح ففرق طائفة أيضاً ، ووصل بقيتهم إلى البصرة ومعه سبي كثير ، فيهم بنت ملكهم . وفيها حكم المهدي بالخاق ولد أبي بكرة الثقفي إلى ولاء رسول الله (ص) ، وقطع نسبهم من تقيف ، وكتب بذلك كتاباً إلى والي البصرة . وقطع نسبه من زياد ومن نسب نافع في ذلك يقول بعض الشعراء وهو خالد النجار : —

إن زياداً ونافعاً وأبا * بكرة عندي من أعجب العجب

ذا قرشٍ كما يقولُ وذا * مولى وهذا بزعمِ عربي

وقد ذكر ابن جرير أن نائب البصرة لم ينفذ ذلك .

وفي هذه السنة حج بالناس المهدي واستخلف على بغداد ابنه موسى الهادي ، واستصحب معه ابنه هارون الرشيد وخلقاً من الأمراء ، منهم يعقوب بن داود على منزلته ومكاته ، وكان الحسن ابن إبراهيم قد هرب من الخادم فلحق بأرض الحجاز ، فاستأمن له يعقوب بن داود فأحسن المهدي صلته وأجزل جائزته ، وفرق المهدي في أهل مكة مالا كثيراً جداً ، كان قد قدم معه ثلاثين ألف ألف درهم ومائة ألف ثوب ، وجاء من مصر ثلثمائة ألف دينار ومن اليمن مائتا ألف دينار ، فأعطاهما كلها في أهل مكة والمدينة . وشكت الحجة إلى المهدي أنهم يخافون على الكعبة أن تنهم من كثرة ما عليها من الكساوى ، فأمر بتجريدتها ، فلما انتهوا إلى كساوى هشام بن عبد الملك وجدها من ديباج نخين جداً ، فأمر بإزالتها وبقيت كساوى الخلفاء قبله وبعده ، فلما جردها طلائها بالخلاف وكساها كسوة حسنة جداً ، ويقال إنه استنفق ماله في إعادة الكعبة إلى ما كانت عليه من بناية ابن الزبير ، فقال مالك : دعها فاني أخشى أن يتخذها الملوك ملعبة . فتركها على ما هي .

وحمل له محمد بن سليمان نائب البصرة الثلج إلى مكة ، وكان أول خليفة حمل له الثلج إليها . ولما دخل المدينة وسع المسجد النبوي ، وكان فيه مقصورة فأزالها وأراد أن ينقص من المنبر ما كان زاده معاوية بن أبي سفيان فقال له مالك : إنه يخشى أن ينكسر خشبه العتيق إذا زعزع ، فتركه . وتزوج من المدينة رقية بنت عمرو العثمانية ، وانتخب من أهلها خمسمائة من أعيانها ليكونوا حوله حرساً بالعراق وأنصاراً وأجرى عليهم أرزاقاً غير أعطيتهم وأقطعهم أقطاعاً معروفة بهم .

وفيها توفي الربيع بن صبيح ، وسفيان بن حسين ، أحد أصحاب الزهري ، وشعبة بن الحجاج بن الورد العتكي الأزدي أبو بسطام الواسطي ، ثم انتقل إلى البصرة . رأى شعبة الحسن وابن سيرين ،

وروى عن أمم من التابعين ، وحدث عنه خلق من مشايخه وأقرانه وأئمة الاسلام . وهو شيخ
المحدثين الملقب فيهم بأمر المؤمنين قاله الثوري . وقال يحيى بن معين : هو إمام المتقين ، وكان في
غاية الزهد والورع والتقشف والحفظ وحسن الطريقة . وقال الشافعي : لولاه ما عرف الحديث بالعراق .
وقال الامام أحمد : كان أمة وحده في هذا الشأن ، ولم يكن في زمانه مثله . وقال محمد بن سعد : كان
ثقة مأمونا حجة صاحب حديث . وقال وكيع : إني لأرجو أن يرفع الله لشعبة في الجنة درجات بذبه
عن حديث رسول الله (ص) . وقال صالح بن محمد بن حرزة : كان شعبة أول من تكلم في الرجال
وتبسه يحيى القطان ثم أحمد وابن معين . وقال ابن مهدي : ما رأيت أعقل من مالك ، ولا أشد
تقشفا من شعبة ، ولا أنصح للأمة من ابن المبارك ، ولا أحفظ للحديث من الثوري . وقال مسلم بن
إبراهيم : ما دخلت على شعبة في وقت صلاة الا ورأيتني يصلي ، وكان أبا للفقراء وأما لهم . وقال النضر
ابن شميل : ما رأيت أرحم بمسكين منه ، كان إذا رأى مسكينا لا يزال ينظر إليه حتى يغيب عنه .
وقال غيره : ما رأيت أعبد منه لقد عبد الله حتى لصق جلده بمظلمه . وقال يحيى القطان : ما رأيت
أرق للمسكين منه ، كان يدخل المسكين في منزله فيعطيه ما أمكنه . قال محمد بن سعد وغيره : مات
في أول سنة ستين ومائة في البصرة عن ثمان وسبعين سنة .

ثم دخلت سنة إحدى وستين ومائة

فيها غزا الصائفة تمامة بن الوليد فتزل دابق ، وجاشت الروم عليه فلم يتمكن المسلمون من
الدخول إليها بسبب ذلك . وفيها أمر المهدي بحفر الركيا وعمل المصانع وبناء القصور في طريق مكة
وولى يقطين بن موسى على ذلك ، فلم يزل يعمل في ذلك إلى سنة إحدى وسبعين ومائة ، مقدار
عشر سنين ، حتى صارت طريق الحجاز من العراق من أرفق الطرقات وأمنها وأطهرها . وفيها وسع
المهدي جامع البصرة من قبلته وغربه . وفيها كتب إلى الآفاق أن لا تبقى مقصورة في مسجد
جماعة ، وأن تقصر المنابر إلى مقدار منبر رسول الله (ص) ، ففعل ذلك في المساجد كلها . وفيها
اتضعت منزلة أبي عبيد الله وزير المهدي وظهرت عنده خيافته فضم إليه المهدي من يشرف عليه ،
وكان ممن ضم إليه إسماعيل بن علي ، ثم أبعد وأقصاه وأخرجه من معسكره . وفيها ولي القضاء
عافية بن يزيد الأزدي وكان يحكم هو وابن علانة في عسكر المهدي بالرصافة . وفيها خرج رجل يقال
له المقنع بخراسان في قرية في قرى مرو ، وكان يقول بالتناسخ واتبعه على ذلك خلق كثير ، فجز
إليه المهدي عدة من أمرائه وأنفذ إليه جيوشا كثيرة ، منهم معاذ بن مسلم أمير خراسان ، وكان من
أمره وأمرهم ماسند كره .

وحج بالناس فيها موسى الهادي بن المهدي . وفيها توفي إسرائيل بن يونس بن إسحاق السبيعي

وزائدة بن قدامة و سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري أحد أئمة الاسلام وعبادهم والمفتدى به أبو عبد الله الكوفي . روى عن غير واحد من التابعين وروى عنه خلق من الأئمة وغيرهم ، قال شعبة وأبو عاصم وسفيان بن عيينة ويحيى بن معين وغير واحد : هو أمير المؤمنين في الحديث . وقال ابن المبارك : كتبت عن ألف شيخ ومائة شيخ هو أفضلهم . وقال أبوب : ما رأيت كوفياً أفضله عليه . وقال بونس بن عبيد : ما رأيت أفضل منه . وقال عبد الله : ما رأيت أقفه من الثوري . وقال شعبة : ساد الناس بالورع والعلم . وقال : أصحاب المذاهب ثلاثة : ابن عباس في زمانه والشعبي في زمانه ، والثوري في زمانه . وقال الامام أحمد : لا يتقدمه في قلبي أحد . ثم قال : تدرى من الامام ؟ الامام سفيان الثوري . وقال عبد الرزاق : سمعت الثوري يقول : ما استودعت قلبي شيئاً قط يخافني حتى إني لأمرّ بالخائفك يتغنى فأسد أذني مخافة أن أحفظ ما يقول . وقال : لأن أترك عشرة آلاف دينار بحاسبي الله عليها أحب إلى من أن أحتاج إلى الناس .

قال محمد بن سعد : أجمعوا أنه توفي بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة ، وكان عمره يوم مات أربعاً وستين سنة ، وراه بعضهم في المنام يطير في الجنة من نخلة إلى نخلة ، ومن شجرة إلى شجرة ، وهو يقرأ [الحمد لله الذي صدقنا وعده] الآية . وقال : إذا ترأس الرجل سريماً أخر بكثير من العلم . ومن توفي فيها : أبو دلالة

زيد بن الجون الشاعر المالحن ، أحد الظرفاء ، أصله من الكوفة وأقام ببغداد وحظي عند المنصور لأنه كان يضحكه وينشده الأشعار ويمدحه ، حضر يوماً جنازة امرأة المنصور - وكانت ابنة عمه - يقال لها حمادة بنت عيسى ، وكان المنصور قد حزن عليها ، فلما سورا عليها التراب وكان أبو دلالة حاضراً ، فقال له المنصور : ويحك يا أبا دلالة ، ما أعددت لهذا اليوم ؟ فقال : ابنة عم أمير المؤمنين . فضحك المنصور حتى استلقى ، ثم قال : ويحك فضحتنا . ودخل يوماً على المهدي بهنثه بقدمه من سفره وأنشده :

إني حلفتُ لئن رأيتك سالماً * بقرى العراق وأنت ذو وفرٍ
لتصلين على النبي محمدٍ * ولتملأن دراهماً حجري

فقال المهدي : أما الأول فنعيم ، تصلي على النبي محمد (ص) ، وأما الثاني فلا . فقال : يا أمير المؤمنين هما كلمتان فلا تفرق بينهما . فأمر أن يملأ حجره دراهم ، ثم قال له : قم ! فقال : ينخرق منها قميصي فأفرغت منه في أكياسها ثم قام فحملها وذهب . وذكر عنه ابن خلكان أنه مرض ابن له فداواه طبيب فلما عوفي قال له : ليس عندنا ما نعطيك ، ولكن ادع على فلان اليهودي بمبلغ ما تستحقه عندنا من أجرتك حتى أشهد أنا وولدي عليه بالمبلغ المذكور . قال : فذهب الطبيب إلى قاضي الكوفة محمد

ابن عبد الرحمن بن أبي ليلى - وقيل ابن شبرمة - فادعى عليه عنده فأنكر اليهودى فشهد عليه أبو دلامة وابنه ، فلم يستطع القاضى أن يرد شهادتهما وخاف من طلب التزكية فأعطى الطيب المدعى المال من عنده وأطلق اليهودى . وجمع القاضى بين المصالح . توفى أبو دلامة فى هذه السنة ، وقيل إنه أدرك خلافة الرشيد سنة سبعين فأنه أعلم .

ثم دخلت سنة ثنتين وستين ومائة

فيها خرج عبد السلام بن هاشم اليشكرى بأرض قنسرين واتبعه خلق كثير ، وقويت شوكته فقاتله جماعة من الأمراء فلم يقدروا عليه ، وجيز إليه المهدي جيوشا وأنفق فيهم أموالا فهزمهم مرات ثم آل الأمر به أن قتل بعد ذلك . وفيها غزا الصائفة الحسن بن قحطبة فى ثمانين ألفا من المرتزقة سوى المتطوعة ، فدمر الروم وحرق بلادا كثيرة ، وخرّب أمانا وأسروا خلقا من الذراري . وكذلك غزا يزيد بن أبي أسيد السلى بلاد الروم من باب قاليقلا فغنم وسلم وسبي خلقا كثيرا . وفيها خرجت طائفة بمرجان فلبسوا الحرّة مع رجل يقال له عبد القهار ، فغزاه عمرو بن العلاء من طبرستان ففهر عبد القهار وقتله وأصحابه . وفيها أجرى المهدي الأرزاق فى سائر الأقاليم والآفاق على المجذمين والمحبوسين ، وهذه مشوبة عظيمة ومكرمة جسيمة . وفيها حج بالناس إبراهيم بن جعفر بن المنصور . وفيها توفى من الأعيان :

إبراهيم بن آدم

أحد مشاهير العباد وأكابر الزهاد . كانت له همة عالية فى ذلك رحمه الله . فهو إبراهيم بن آدم بن منصور بن يزيد بن عامر بن إسحاق التميمي ، ويقال له البجلي ، أصله من بلخ ثم سكن الشام ودخل دمشق ، وروى الحديث عن أبيه والأعمش ومحمد بن زياد صاحب أبي هريرة وأبى إسحاق السبيعي وخلق . وحدث عنه خلق منهم بقية والثوري وأبو إسحاق الفزاري ومحمد بن حميد . وحكى عنه الأوزاعي . وروى ابن عساكر من طريق عبد الله بن عبد الرحمن الجزدي عن إبراهيم بن آدم عن محمد بن زياد عن أبي هريرة . قال : « دخلت على رسول الله (س) وهو يصلى جالسا فقلت : يا رسول الله إنك تصلى جالسا فما أصابك ؟ قال : الجوع يا أبا هريرة . قال : فبكيت فقال : لا تبك فان شدة يوم القيامة لا تصيب الجائع إذا احتسب فى دار الدنيا . » ومن طريق بقية عن إبراهيم بن آدم حدثني أبو إسحاق الهمداني عن عمارة بن غزية عن أبي هريرة . قال قال رسول الله (س) : « إن الفتنة بحبي فتتسلف العباد نسفاً ، وينجو العالم منها بعلمه » .

قال النسائي : إبراهيم بن آدم ثقة مأمون أحد الزهاد . وذكر أبو نعيم وغيره أنه كان ابن ملك من ملوك خراسان ، وكان قد حبيب إليه الصيد ، قال : فخرجت مرة فأثرت ثعلبا فهتف بي هاتف

من قريوس سرجي : ما لهذا خلقت ، ولا بهذا أمرت . قال : فوقفت وقلت : انتهيت انتهيت ، جاءني نذير من رب الملئين . فرجعت إلى أهلي فخلعت عن فرسي وجئت إلى بعض رعاة أبي فأخذت منه جبة وكساء ثم ألقيت ثيابي إليه ، ثم أقبلت إلى العراق فعملت بها أياماً فلم يصف لي بها الحلال ، فسألت بعض المشايخ عن الحلال فأرشدني إلى بلاد الشام فأتيت طرسوس فعملت بها أياماً أنظر البسائين وأحصه الحصاد ، وكان يقول : ما تهيت بالعيش إلا في بلاد الشام . أفر بديني من شاحق إلى شاحق ومن جبل إلى جبل ، فمن براني ، يقول هو موسوس . ثم دخل البادية ودخل مكة وصحب الثوري والفضيل بن عياض ودخل الشام ومات بها ، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه مثل الحصاد وعمل الفاعل وحفظ البسائين وغير ذلك . وما روى عنه أنه وجد رجلاً في البادية فملمه اسم الله الأعظم فكان يدعو به حتى رأى الخضر فقال له : إنما علمك أخى داود اسم الله الأعظم ، ذكره القشيري وابن عساكر عنه بأسناد لا يصح . وفيه أنه قال له : إن إلياس علمك اسم الله الأعظم . وقال إبراهيم : أظب مطعمك ولا عليك أن لا تقوم الليل ولا تصوم النهار .

وذكر أبو نعيم عنه أنه كان أكثر دعائه اللهم اقلني من ذل معصيتك إلى عز طاعتك . وقيل له إن اللحم قد غلا فقال : أرخصوه أي لا تشتروه فانه يرخص . وقال بعضهم : هتف به الهاتف من فوقه يا إبراهيم ما هذا العبث [ألحسبتم أنما خلقناكم عبداً وأنكم إلينا لا ترجعون] اتق الله وعليك بالزاد ليوم القيامة . فنزل عن دابته ورفض الدنيا وأخذ في عمل الآخرة ، وروى ابن عساكر بأسناد فيه نظر في ابتداء أمره قال : بينما أنا يوماً في منظر لي يبلغ وإذا شيخ حسن الهيئة حسن اللحية قد استظل بظلها فأخذ بمجامع قلبي ، فأمرت غلاماً فدعاه فدخل فمرضت عليه الطعام فأبى فقلت : من أين أقبلت ؟ قال : من وراء النهر . قلت : أين تريد ؟ قال الحج . قلت في هذا الوقت ؟ - وقد كان أول يوم من ذى الحجة أو ثانيه - فقال : يفعل الله ما يشاء . فقلت : الصعبة . قال : إن أحببت ذلك فوعنك الليل ، فلما كان الليل جاءني فقال : قم بسم الله فأخذت ثياب سفرى وسرنا نمشي كأنما الأرض تجنب من تحتنا ، ونحن نمر على البلدان ونقول : هذه فلانة هذه فلانة ، فإذا كان الصباح فارقني ويقول : موعذك الليل ، فإذا كان الليل جاءني ففعلنا مثل ذلك . فأنهيناه إلى مدينة النبي (ص) ، ثم سرنا إلى مكة فجئناها ليلاً فقصينا الحج مع الناس ثم رجعنا إلى الشام فزرتنا بيت المقدس وقال : إني عازم على المقام بالشام ، ثم رجعت أنا إلى بلدي بلخ كسائر الضعفاء حتى رجعنا إليها ولم أسأله عن اسمه ، فكان ذلك أول أمرى .

[وروى من وجه آخر فيه نظر . وقال أبو حاتم الرازي عن أبي نعيم عن سفيان الثوري قال : كان إبراهيم بن آدم يشبه إبراهيم الخليل ، ولو كان في الصحابة كان رجلاً فاضلاً له سرار وما رأيته

يظهر تسبيحاً ولا شيئاً ولا أكل مع أحد طعاماً إلا كان آخر من يرفع يديه . (١)

وقال عبد الله بن المبارك : كان إبراهيم رجلاً فاضلاً له سرائر ومعاملات بينه وبين الله عز وجل وما رأيته يظهر تسبيحاً ولا شيئاً من عمله ، ولا أكل مع أحد طعاماً إلا كان آخر من يرفع يده . وقال بشر بن الحارث الحافي : أربعة رفعهم الله بطيب المطعم ، إبراهيم بن آدم ، وسليمان بن الخواص ووهيب بن الورد ، ويوسف بن أسباط . وروى ابن عساكر من طريق معاوية بن حفص قال : إنما سمع إبراهيم بن آدم حديثاً واحداً فأخذ به فساد أهل زمانه . قال : حدثنا منصور عن ربيع بن خراش قال : جاء رجل إلى رسول الله (ص) ، فقال : يا رسول الله دلني على عمل يحبني الله عليه ويحبني الناس قال : « إذا أردت أن يحبك الله فابض الدنيا ، وإذا أردت أن يحبك الناس فما كان عندك من فضولها فانبذه إليهم » . وقال ابن أبي الدنيا : حدثنا أبو الربيع عن إدريس قال : جلس إبراهيم إلى بعض العلماء فجلسوا يتذاكرون الحديث وإبراهيم ساكت ، ثم قال : حدثنا منصور ثم سكت فلم ينطق بحرف حتى قام من ذلك المجلس : فعاتبه بعض أصحابه في ذلك ! فقال : إني لأخشى مضرة ذلك المجلس في قلبي إلى اليوم . وقال رشدين بن سعد : مر إبراهيم بن آدم بالأوزاعي وحوله حلقة فقال : لو أن هذه الحلقة على أبي هريرة لمجز عنهم . فقام الأوزاعي وتركهم . وقال إبراهيم بن بشار قيل لابن آدم : لم تركت الحديث ؟ فقال : إني مشغول عنه بثلاث ، بالشكر على النعم ، وبالاستغفار من الذنوب ، وبالاتعداد للوثة ، ثم صاح وغشى عليه فسمعوا هاتفاً يقول : لا تدخلوا بيوتنا وبين أوليائنا . وقال أبو حنيفة يوماً لإبراهيم بن آدم : قد رزقت من العبادة شيئاً صالحاً فليكن العلم من بالك فانه رأس العبادة وقوام الدين . فقال له إبراهيم : وأنت فليكن العبادة والعمل بالعلم من بالك وإلا هلك . وقال إبراهيم : ماذا أنعم الله على الفقراء لا يسألهم يوم القيامة عن زكاة ولا عن حج ولا عن جهاد ولا عن صلة رحم ، إنما يسأل ويحاسب هؤلاء المساكين الأغنياء . وقال شقيق بن إبراهيم : لقيت ابن آدم بالشام وقد كنت رأيته بالعراق وبين يديه ثلاثون شاكرًا . فقلت له : تركت ملك خراسان ، وخرجت من نعمتك ؟ فقال : اسكت ما تهنيت بالعيش إلا ههنا ، أفر بديني من شاحق إلى شاحق ، فن براني يقول هو موسوس أو محال أو ملاح ، ثم قال : بلغني أنه يؤتى بالفقير يوم القيامة فيوقف بين يدي الله فيقول له : يا عبدى مالك لم تهج ؟ فيقول : يا رب لم تعطني شيئاً أحج به . فيقول الله : صدق عبدى اذهبوا به إلى الجنة . وقال أقت بالشام أربعمائة وعشرين سنة لم أقم بها لجهاد ولا رباط إنما نزلتها لأشبع من خبز حلال . وقال : الحزن حزنان حزن لك وحزن عليك ، فحزنك على الآخرة لك . وحزنك على الدنيا وزينتها عليك . وقال : الزهد ثلاثة ، واجب ،

ومستحب ، وزهد سلامة ، فأما الواجب فالزهد في الحرام ، والزهد عن الشهوات الحلال مستحب ،
 والزهد عن الشهوات سلامة . وكان هو وأصحابه يمتنعون أنفسهم الحمام والماء البارد والحذاء ولا يجلبون
 في ملابهم أزراراً ، وكان إذا جلس على سفرة فيها طعام طيب رعى بطيها إلى أصحابه وأكل هو الخبز
 والزيتون . وقال قلة الحرص والطمع تورث الصدق والورع ، وكثرة الحرص والطمع تورث الغم
 والجزع . وقال له رجل : هذه جبة أحب أن تقبلها مني . فقال : إن كنت غنياً قبلتها ، وإن كنت
 فقيراً لم أقبلها . قال : أنا غني . قال : كم عندك ؟ قال ألفان . قال : تود أن تكون أربعة آلاف ؟ ^{عجيب}
 قال : نعم ، قال فأنت فقير ، لا أقبلها منك . وقيل له : لو تزوجت ؟ فقال : لو أمكنني أن أطلق ^{فرجه}
 نفسي لطلقتها . ومكث بمكة خمسة عشر يوماً لا شيء له ولم يكن له زاد سوى الرمل بالماء ، وصلى بوضوء
 واحد خمس عشرة صلاة ، وأكل يوماً على حافة الشريعة كسرات مبلولة بالماء وضعها بين يديه أبو
 يوسف الغسولي ، فأكل منها ثم قام فشرب من الشريعة ثم [جاء واستلقى على قفاه وقال : يا أبا يوسف
 لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من النعيم لجالدونا بالسيف أيام الحياة على ما نحن فيه من لذية
 العيش . فقال له أبو يوسف : طلب القوم الراحة والنعيم فأخطأوا الطريق المستقيم . فتبسم إبراهيم
 وقال : من أين لك هذا الكلام ؟ وبينما هو بالمصيصة في جماعة من أصحابه إذ جاءه راكب فقال :
 أيكم إبراهيم بن آدم ؟ فأرشد إليه ، فقال : يا سيدي أنا غلامك ، وإن أباك قد مات وترك مالا هو
 عند القاضي ، وقد جئت بك بعشرة آلاف درهم لتنفقها عليك إلى بلخ ، وفرس وبغلة . فسكت
 إبراهيم طويلاً ثم رفع رأسه فقال : إن كنت صادقاً فالدرهم والفرس والبغلة لك ، ولا تخبر به أحداً .
 ويقال : إنه ذهب بعد ذلك إلى بلخ وأخذ المال من الحاكم وجعله كله في سبيل الله .

وكان معه بعض أصحابه فسكنوا شهرين لم يحصل لهم شيء يأكلونه ، فقال له إبراهيم : ادخل إلى
 هذه الغيبة . وكان ذلك في يوم شات - قال : فدخلت فوجدت شجرة عليها خوخ كثير فلأت
 منه جرابي ثم خرجت ، فقال : ما مأك ؟ قلت : خوخ . فقال : يا ضعيف اليقين ! لو صبرت لوجدت
 رطباً جنياً ، كما رزقت مريم بنت عمران . وشكا إليه بعض أصحابه الجوع فصلى ركعتين فاذا حوله
 دنائير كثيرة فقال لصاحبه : خذ منها ديناراً ، فأخذه واشترى لهم به طعاماً . وذكروا أنه كان
 يعمل بالفاعل ثم يذهب فيشتري البيض والزبدة ونارة الشواء والجودبان والخبيص فيطعمه أصحابه
 وهو صائم ، فاذا أفطر يأكل من ردى الطعام ويحرم نفسه المطعم الطيب ليبر به الناس تأليفاً لهم
 وتحبباً وتودداً إليهم .

وأضاف الأوزاعي إبراهيم بن آدم فقصر إبراهيم في الأكل فقال : مالك قصرت ؟ فقال :
 لأنك قصرت في الطعام . ثم عمل إبراهيم طعاماً كثيراً ودعا الأوزاعي فقال الأوزاعي : أما تخاف

أن يكون سرفاً؟ فقال: لا! إنما السرف ما كان في معصية الله، فأما ما أنفقه الرجل على إخوانه فهو من الدين. وذكروا أنه حصده مرة بعشرين ديناراً، فجلس مرة عند حجام هو وصاحب له ليحلق رؤسهم ويحجمهم، فكأنه تبرم بهم واشتغل عنهم بغيرهم، فتأذى صاحبه من ذلك ثم أقبل عليهم الحجام فقال: ماذا تريدون؟ قال إبراهيم: أريد أن تحلق رأسي وتحجمني، ففعل ذلك فأعطاه إبراهيم العشرين ديناراً، وقال: أردت أن لا تحقر بعدها فقيراً أبداً. وقال مضاء بن عيسى: ما فاق إبراهيم أصحابه بصوم ولا صلاة ولكن بالصدق والسخاء.

وكان إبراهيم يقول: فروا من الناس كفراركم من الأسد الضاري، ولا تخلفوا عن الجمعة والجماعة. وكان إذا سافر مع أحد من أصحابه يحدّثه إبراهيم، وكان إذا حضر في مجلس فكأنما على رؤسهم الطير هيبة له وإجلالا. وربما تسامر هو وسفيان الثوري في الليلة الشاتية إلى الصباح، وكان الثوري يتحرز معه في الكلام. ورأى رجلاً قيل له: هذا قاتل خالك، فذهب إليه فسلم عليه وأهدى له وقال: بلغني أن الرجل لا يبلغ درجة اليقين حتى يأمنه عدوه. وقال له رجل: طوبى لك أفنيت عمرك في العبادة وترك الدنيا والزوجات. فقال: ألك عيال؟ قال: نعم. فقال: لروعة الرجل بعيله. يعني في بعض الأحيان من الفاقة - أفضل من عبادة كذا وكذا سنة. وراه الأوزاعي ببيروت وعلى عنقه حزمة حطب فقال: يا أبا إسحاق إن إخوانك يكفونك هذا. فقال له: اسكت يا أبا عمرو! فقد بلغني أنه إذا وقف الرجل موقف مذلة في طلب الحلال وجبت له الجنة. وخرج ابن أدم من بيت المقدس فر بطريق فأخذته المسلحة في الطريق فقالوا: أنت عبد؟ قال: نعم. قالوا: آبق؟ قال نعم. فسجنوه. فبلغ أهل بيت المقدس خبره فجأوا برمتهم إلى نائب طبرية فقالوا: علام سجنتم إبراهيم بن أدم؟ قال: ماسجنته. قالوا: بلى هو في سجنك. فاستحضره فقال: علام سجنتم. فقال: سل المسلحة، قالوا: أنت عبد؟ قلت نعم وأنا عبد الله. قالوا: آبق؟ قلت نعم وأنا عبد آبق من ذنوبي. فخلّى سبيله.

وذكروا أنه مر مع رفقة فاذا الأسد على الطريق فتقدم إليه إبراهيم بن أدم فقال له: يا قسورة إن كنت أمرت فينا بشيء فامض لما أمرت به وإلا فودك على بدئك. قالوا: فولى السبع ذاهبا يضرب بذنبه، ثم أقبل علينا إبراهيم فقال: قولوا: اللهم راعنا بعينك التي لا تنام، واكنفنا بكنفك الذي لا يرام، وارحنا بقدرتك علينا، ولا تهلك وأنت رجاؤنا يا الله، يا الله، يا الله. قال خلف بن تميم: فما زلت أقولها منذ سمعتها فما عرض لي لص ولا غيره.

وقد روى لهذا شواهد من وجوه آخر. وروى أنه كان يصلي ذات ليلة فجاءه أسد

ثلاثة فتقدم إليه أحدهم فشم ثيابه ثم ذهب فرى قريباً منه ، وجاء الثاني ففعل مثل ذلك ، وجاء الثالث ففعل مثل ذلك ، واستمر إبراهيم في صلاته ، فلما كان وقت السحر قال لهم : إن كنتم أمرتم بشئ فلهوا ، وإلا فانصرفوا فانصرفوا . وصعد مرة جبلاً بمكة ومعه جماعة فقال لهم : لو أن ولياً من أولياء الله قال لجبل زل لزال . فتحرك الجبل تحته فوكزه برجله وقال : اسكن فانما ضربتك مثلاً لأصحابي . وكان الجبل أبا قبيس . [وركب مرة سفينة فأخذهم الموج من كل مكان فلف إبراهيم رأسه بكسائه واضطجع وعج أصحاب السفينة بالضجيج والدعاء ، وأيقظوه وقالوا : ألا ترى ما نحن فيه من الشدة ؟ فقال : ليس هذه شدة ، وإنما الشدة الحاجة إلى الناس . ثم قال : اللهم أرينا قدرتك فأرانا عفوك . فصار البحر كأنه قدح زيت . وكان قد طالبه صاحب السفينة بأجرة حملة دينارين وألح عليه ، فقال له : اذهب معي حتى أعطيك ديناراً ، فأتى به إلى جزيرة في البحر فتوضأ إبراهيم وصلى ركعتين ودعا وإذا ما حوله قدمي دنائير ، فقال له : خذ حقك ولا ترد ولا تذكر هذا لأحد . وقال حذيفة المرعشي : أويت أنا وإبراهيم إلى مسجد خراب بالكوفة ، وكان قد مضى علينا أيام لم نأكل فيها شيئاً ، فقال لي : كأنك جائع . قلت : نعم . فأخذ رقعة فكتب فيها بسم الله الرحمن الرحيم أنت المقصود إليه بكل حال ، المشار إليه بكل معنى ،

أنا حامدٌ أنا ذاكرٌ أنا شاكرٌ * أنا جائعٌ أنا حاسرٌ أنا عارى
هي ستة وأنا الضمين لنصفها * فكن الضمين لنصفها يابارى
مدحى لغيرك وهج نار خضتها * فأجز عبيدك من دخول النار

ثم قال لي : اخرج بهذه الرقعة ولا تعلق قلبك بغير الله سبعاًه وتعالى ، وادفع هذه الرقعة لأول رجل تلقاه . فخرجت فإذا رجل على بغلة فدفعتها إليه فلما قرأها بكى ودفع إلى ستائة دينار وانصرف ، فسألت رجلاً من هذا الذي على البغلة ؟ فقالوا : هو رجل نصراني . فجئت إبراهيم فأخبرته فقال : الآن بجي فيسلم . فما كان غير قريب حتى جاء فأكب على رأس إبراهيم وأسلم . [وكان إبراهيم يقول : دارنا أماناً وحياتنا بعد وفاتنا . فاما إلى الجنة وإما إلى النار . مثل لبصرك حضور ملك الموت وأعوانه لقبض روحك وانظر كيف تكون حينئذ ، ومثل له هول المضجع ومساءلة منكر ونكير وانظر كيف تكون . ومثل له القيامة وأهوالها وأفزعها والعرض والحساب ، وانظر كيف تكون . ثم صرخ صرخة خر مغشياً عليه . [ونظر إلى رجل من أصحابه يضحك فقال له : لا تطمع فيما لا يكون ، ولا تنس ما يكون . فقيل له : كيف هذا يا أبا إسحاق ؟ فقال : لا تطمع في البقاء والموت يطلبك ، فكيف يضحك من يموت ولا يدري أين يذهب به إلى جنة أم إلى نار ؟ ولا تنس ما يكون الموت يأتيك صباحاً أو مساءً . ثم قال : أوه أوه ! ثم خر مغشياً عليه . [وكان يقول : مالنا نشكو فقرنا إلى

صوخته

صوخته

مثلنا ولا نسأل كشفه من ربنا . ثم يقول : ثكلت عبداً أمه أحب الدنيا ونسى ما في خزان مولاه
وقال : إذا كنت بالليل نائماً وبالتهار هائماً وفي المعاصي دائماً فكيف ترضى من هو بأمورك قائماً .
ورآه بعض أصحابه وهو بمسجد بيروت وهو يبكي ويضرب يديه على رأسه ، فقال : ما يبكيك ؟
فقال : ذكرت يوماً تنقلب فيه القلوب والأبصار } وقال : إنك كلما أمنت النظر في مرآة التوبة
بان لك قبح شين المعصية .

وكتب إلى الثوري : من سرف ما يطلب هان عليه ما ينزل ، ومن أطلق بصره طال أسفه ، ومن
أطلق أمه ساء عمله ، ومن أطلق لسانه قتل نفسه . وسأله بعض الولاة من أين معيشتك ؟ فأنشأ يقول :
ترقعُ دنياها بتزيقِ ديننا * فلا ديننا يبقى ولا ما نرفع
وكان كثيراً ما يتمثل بهذه الأبيات :

لما توعد الدنيا به من شرورها * يكون بكاء الطفل ساعة بوضع
وإلا فما يبكيه منها وإنما * لأرواح مما كان فيه وأوسع
إذا أبصر الدنيا استهل كأنما * يرى ما سيلقى من أذاها ويسمع
وكان يتمثل أيضاً :

رأيت الذنوب تميمت القلوب * وبورنها الذل إدامتها
وترك الذنوب حياة القلوب * وخير لنفسك عصيانها
وما أفسد الدين إلا ملوك * وأحبار سوء ورهبانها
وباعوا النفوس فلم يربحوا * ولم يفل بالبيع أنمانها
لقد رتع القوم في جيفة * تبين لذي اللب أنمانها

وقال : إنما يتم الورع بقسوة كل الخلق في قلبك ، والاشتغال عن عيوبهم بذنبك ، وعليك
باللفظ الجليل من قلب ذليل لرب جليل ، فكر في ذنبك وتب إلى ربك يثبت الورع في قلبك ،
واقطع الطمع إلا من ربك . وقال : ليس من أعلام الحب أن تحب ما يفضيه حبيبك ، ذم . ولانا
الدنيا فدحناها ، وأنفضها فأحبيناها ، وزهدنا فيها فأثرناها ورغبنا في طلبها ، ووعندكم خراب
الدنيا فخصتموها ، ونهاكم عن طلبها فطلبتموها ، وأنذركم الكنوز فكنتزتموها ، دعتمكم إلى هذه
الغرارة دواعيها ، فأجتمت مسرعين مناديا ، خدعتكم بفرورها ، ومنتمكم فاقدمت خاضعين لأمانها
تتمرغون في زهراتها وزخارفها ، وتتنعمون في لذاتها وتقلبون في شهواتها ، وتتلوثون ببقعاتها ،
تنبشون بمخالب الحرص عن خزائنها ، وتحفرون بعاول الطمع في معادننها . وشكى إليه رجل كثرة
عياله فقال : ابعث إلى منهم من لا رزقه على الله . فسكت الرجل . وقال : مررت في بعض جبال
فاذا حجر مكتوب عليه بالعربية :

رصويرة
للدنيا
عند الله

كلُّ حيٍّ وإن بقي • فمن العيش يستقي

فاعمل اليوم واجتهد • واحذر الموت يا شقي

قال : فبينما أنا واقف أقرأ وأبكي ، وإذا برجل أشعر أغبر عليه مدرعة من شعر فسلم وقال : مم تبكي ؟ فقلت : من هذا . فأخذ يبدى ومضى غير بعيد فاذا بصخرة عظيمة مثل الحراب فقال اقرأ وابك ولا تقصر . وقام هو يصلّي فاذا في أعلاه نقش بين عربي :

لا تبغين جاهاً وجاهك ساقط • عند المليك وكن لجاهك مصلحاً

وفي الجانب الآخر نقش بين عربي :

من لم يثق بالقضاء والقدر • لا في هموماً كثيرة الضرر

وفي الجانب الأيسر منه نقش بين عربي :

ما أزين التقى وما أقبح الخنا • وكل مأخوذ بما جنا • وعند الله الجزا
وفي أسفل الحراب فوق الأرض بذراع أو أكثر :

انما النور والظن • في ثقي الله والعمل

قال : فلما فرغت من القراءة التفت فاذا ليس الرجل هناك ، فما أدري انصرف أم حجب عني . وقال : أثقل الأعمال في الميزان أثقلها على الأبدان ، ومن وفي العمل وفي له الأجر ، ومن لم يعمل رحل من الدنيا إلى الآخرة بلا قليل ولا كثير . وقال : كل سلطان لا يكون عادلاً فهو واللص بمنزلة واحدة ، وكل عالم لا يكون ورعاً فهو والذئب بمنزلة واحدة ، وكل من خدم سوى الله فهو والكلب بمنزلة واحدة . وقال : ما ينبغي لمن ذل لله في طاعته أن يذل لغير الله في مجاعته ، فكيف بمن هو يتقلب في نعم الله وكفايته ؟ وقال : أعربنا في كلامنا فلم نلحن ، ولحنا في أعمالنا فلم نعرب . وقال : كنا إذا رأينا الشاب يتكلم في المجلس أيسنا من خير . وقال : جانبوا الناس ولا تنقطعوا عن جمعة ولا جماعة .

وقال الحافظ أبو بكر الخطيب : أخبرنا القاضي أبو محمد الحسن بن الحسن بن محمد بن زامين الأسترابادي قال : أنبأ عبد الله بن محمد الحميدي الشيرازي أنبأ القاضي أحمد بن خرزاد الأهوازي حدثني علي بن محمد القصوي حدثني أحمد بن محمد الحلبي سمعت سرياً السقطي يقول سمعت بشر ابن الحارث الحافي يقول : قال إبراهيم بن أدهم : وقفت على راهب فأشرف على فقلت له : عظمي فأنشأ يقول :

خذ عن الناس جانباً • كن بعدوك راهباً

إِنْ دَهْرًا أَظْلَى * قَدْ أَرَانِي الْمَجَانِبَا
 قَلْبَ النَّاسِ كَيْفَ شَدَّ * مَتَّ تَجِدُهُمْ عَقَارِبَا
 قَالَ بَشِّرْ قُلْتَ لَا إِبْرَاهِيمَ هَذِهِ مَوْعِظَةُ الرَّاهِبِ لَكَ ، فَعِظْنِي أَنْتَ . فَأَنْشَأَ يَقُولُ :
 تَوْحِشْ مِنَ الْإِخْوَانِ لَا تَتَّبِعْ مَوْسَا * وَلَا تَتَّخِذْ خَلَاوِلَا تَتَّبِعْ صَاحِبَا
 وَكُنْ سَامِرِي الْفَعْلِ مِنْ نَسْلِ آدَمِ * وَكُنْ أَوْحِدِيَا مَا قَدَرْتَ مَجَانِبَا
 فَقَدْ فَسَدَ الْإِخْوَانُ وَالْحُبُّ وَالْإِخَا * فَلَسْتُ تَرَى إِلَّا مَذُوقًا وَكَاذِبَا
 قُلْتَ وَتَوَلَّا أَنْ يَقَالَ مَدْهَدَةً * وَتَتَكَبَّرُ حَالَتِي لَقَدْ صَرَتْ رَاهِبَا

قَالَ سَرَى : قُلْتَ لِبَشَرٍ : هَذِهِ مَوْعِظَةُ إِبْرَاهِيمَ لَكَ فَعِظْنِي أَنْتَ ، فَقَالَ : عَلَيْكَ بِالْخَوَلِ وَلِزُومِ
 بَيْتِكَ . قُلْتَ بَلَفَنِي عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ : لَوْلَا الْإِيلُ وَمِلَاقَةُ الْإِخْوَانِ مَا بَالَيْتُ مَتَى مَتَّ . فَأَنْشَأَ بَشَرٌ
 يَقُولُ :
 يَا مَنْ يَسِرُّ بِرُؤْيَا الْإِخْوَانِ * مَهْلًا أَمْنَتْ مَكَايِدَ الشَّيْطَانِ
 خَلَّتِ الْقُلُوبُ مِنَ الْمَعَادِ وَذَكَرِهِ * وَتَشَاغَلُوا بِالْحَرْصِ وَالْخُسْرَانِ
 صَارَتْ مَجَالِسُ مَنْ تَرَى وَحْدِيهِمْ * فِي هُنَاكَ مُسْتَوْرٍ وَمَوْتِ جَنَانِ
 قَالَ الْحَلْبِيُّ قُلْتَ لِسَرَى : هَذِهِ مَوْعِظَةُ بَشَرٍ فَعِظْنِي أَنْتَ . فَقَالَ : عَلَيْكَ بِالْإِخْلَالِ قُلْتَ
 أَحَبُّ ذَاكَ ، فَأَنْشَأَ يَقُولُ :

يَا مَنْ يَرُومُ بَرْعَهُ إِخْلَالًا * إِنْ كَانَ حَقًّا فَاسْتَعِدَّ خِصَالَا
 تَرَكَ الْمَجَالِسَ وَالتَّنَادَ كَرَّ يَا أَخِي * وَاجْعَلْ خُرُوجَكَ لِلصَّلَاةِ خِيَالَا
 بَلْ كُنْ بِهَا حَيًّا كَأَنَّكَ مَيِّتٌ * لَا يَرْجِي مِنْهُ الْقَرِيبُ وَصَالَا

قَالَ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَصْرِيُّ : قُلْتَ لِلْحَلْبِيِّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ سَرَى لَكَ فَعِظْنِي أَنْتَ . فَقَالَ : يَا أَخِي
 أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ مَا صَعِدَ إِلَيْهِ مِنْ قَلْبٍ زَاهِدٍ فِي الدُّنْيَا ، فَازْهَدْ فِي الدُّنْيَا بِحُبِّكَ لِلَّهِ . ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :
 أَنْتَ فِي دَارِ شَتَاتٍ * فَتَاهَبْ لَشَتَاتِكَ * وَاجْعَلِ الدُّنْيَا كَيَوْمٍ * صَمْتُهُ عَنْ شَهَوَاتِكَ
 وَاجْعَلِ الْفَطْرَ إِذَا * مَا صَمْتُهُ يَوْمَ وَفَاتِكَ

قَالَ ابْنُ خِرَزَادٍ قُلْتَ لَعَلِّي : هَذِهِ مَوْعِظَةُ الْحَلْبِيِّ لَكَ فَعِظْنِي أَنْتَ . فَقَالَ لِي : احْفَظْ وَقْتُكَ
 وَاسْخُ بِنَفْسِكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وَانْزِعْ قِيَمَةَ الْأَشْيَاءِ مِنْ قَلْبِكَ يَصِفُوكَ بِذَلِكَ سَرَكُ وَيَذْكُوكَ بِهِ
 ذَكَرَكَ . ثُمَّ أَنْشَدَنِي :

✓ حَيَاتِكَ أَنْفَاسٌ تَعْدُ فَكَلِمَا * مَضَى نَفْسٌ مِنْهَا انْتَقَصَتْ بِهِ جِزَا
 فَتَصْبِحُ فِي نَقْصٍ وَتَمُوتُ بِمَثَلِهِ * وَمَالُكَ مَعْقُولٌ تَحْسُ بِهِ رِزَا
 بِمَيْتِكَ مَا يَحْيِيكَ فِي كُلِّ سَاعَةٍ * وَبِحَدُوكَ حَادٍ مَا يَزِيدُ بِكَ الْهَزَا

قال أبو محمد قلت لأحمد : هذه موعظة على لك فعضي . فقال : يا أخى عليك بلزوم الطاعة
وياك أن تفارق باب القناعة ، وأصلح مثواك ، ولا تؤثر هواك ، ولا تتبع آخرتك بدنياك ، واشتغل
بما يعينك بترك ما لا يعينك . ثم أنشدنى :

ندمت على ما كان منى ندامة * ومن يتبع ما تشتهى النفس يندم
نخافوا لكما تأمنوا بعد موتكم * سلة ون ربا عادلا ليس يظلم
فليس لمغروير بدنياء زاجر * سيندم إن زلت به النعل فاعلموا

قال ابن زامين قلت لأبي محمد : هذه موعظة أحمد لك فعضي أنت فقال : اعلم رحمك الله أن
الله عز وجل ينزل العبيد حيث نزلت قلوبهم بهومها ، فانظر أين ينزل قلبك ، واعلم أن الله
سبحانه يقرب من القلوب على حسب ما تقرب منه . وتقرب منه على حسب ما قرب إليها . فانظر
من القريب من قلبك . وأنشدنى :

قلوب رجال في الحجاب نزول * وأرواحهم فيما هناك حلول
تروح نعيم الأنس في عز قربه * بافراد توحيد الجليل تحول
لهم بفناء القرب من محض بره * عوائد بذل خطيئ جليل

قال الخطيب : قلت لابن زامين : هذه موعظة الحميدى لك فعضي أنت . فقال : اتق الله وثق
به ولا تهمه فان اختياره لك خير من اختيارك لنفسك وأنشدنى :

اتخذ الله صاحباً * ودع الناس جانباً
جرب الناس كيف شد * ت تجذم عقارباً

قال أبو الفرج غيث الصورى : قلت للخطيب : هذه موعظة ابن زامين لك فعضي أنت .
فقال : احذر نفسك التى هى أعدى أعدائك أن تتابعها على هواها ، فذاك أعضل دائك ، واستشرف
الخوف من الله تعالى بخلافها ، وكرر على قلبك ذكر نعمتها وأوصافها ، فانها الأمانة بالسوء والفحشاء ،
والموردة من أطاعها موارد العطب والبلاء ، واعمد فى جميع أمورك إلى تحرى الصدق ، ولا تتبع
الهوى فيضلك عن سبيل الله . وقد ضمن الله لمن خالف هواه أن يجعل الجنة الخلد قراره ومأواه
ثم أنشد نفسه :

إن كنت تبغى الرشاد محضاً * فى أمر دينك والمعاد
نخالف النفس فى هواها * إن الهوى جامع الفساد

قال ابن عساكر : المحفوظ أن إبراهيم بن آدم توفى سنة ثنتين وستين ومائة . وقال غيره : إحدى
وستين وقيل سنة ثلاث . والصحيح ما قاله ابن عساكر والله أعلم . وذكروا أنه توفى فى جزيرة من

جزائر بحر الروم وهو مرابط ، وأنه ذهب إلى الغلاء ليلة مات نحواً من عشرين مرة ، وفي كل مرة يجدد الوضوء بعدهما ، وكان به البطن ، فلما كانت غشية الموت قال : أوتروا لي قوسى ، فأوتروه فقبض عليه فمات وهو قابض عليه يريد الرمي به إلى العدو رحمه الله وأكرم مثواه .

وقد قال أبو سعيد بن الأعرابي : حدثنا محمد بن علي بن يزيد الصائغ قال سمعت الشافعي يقول : كان سفيان معجباً به :

[أجاعتهم الدنيا فخافوا ولم يزل • كذلك ذو التقوى عن العيش ملجماً
أخو طيء داود منهم وسعر • ومنهم وهيب والعريب ابن أدهم
وفي ابن سعيد قدوة البر والنهي • وفي الوارث الفاروق صدقاً مقدماً
وحسبك منهم بالفضيل مع ابنه • ويوسف أن لم يأل أن يتسلماً
أولئك أصحابي وأهل مودتي • فصلى عليهم ذو الجلال وسلماً
فما ضر ذا التقوى فصلاً أسنة • وما زال ذو التقوى أعز وأكرماً
وما زالت التقوى تريك على الفتى • إذا محض التقوى من العزم ميسماً]

وروى البخاري في كتاب الأدب عن إبراهيم بن آدم وأخرج الترمذي في جامعه حديثاً معلقاً في المسح على الخفين . والله سبحانه أعلم . [(١)

وفيها توفي أبو سليمان داود بن نصير الطائي الكوفي الفقيه الزاهد ، أخذ الفقه عن أبي حنيفة . قال سفيان بن عيينة : ثم ترك داود الفقه وأقبل على العبادة ودفن كنيته . قال عبد الله بن المبارك : وهل الأمر إلا ما كان عليه داود الطائي . وقال ابن معين : كان ثقة ، وفد على المهدي ببغداد ثم عاد إلى الكوفة . ذكره الخطيب البغدادي . وقال : مات في سنة ستين ومائة ، وقيل في سنة ست وخمسين ومائة . وقد ذكر شيخنا الذهبي في تاريخه أنه توفي في هذه السنة - أعني سنة ثنتين وستين ومائة -

فالله أعلم . ثم دخلت سنة ثلاث وستين ومائة

فيها حصر المقفع الزنديقي الذي كان قد نبغ بخراسان وقال بالتناسخ ، واتبعه على جهالته وضلالته خلق من الطغام وسفهاء الأنام ، والسفلة من العوام ، فلما كان في هذا العام لجأ إلى قلعة كش فحاصره سعيد الجريثي فألح عليه في الحصار ، فلما أحس بالغلبة تحسبى سما وسم نساء فأتوا جميعاً ، عليهم لعائن الله . ودخل الجيش الاسلامي قلعة فاحتزوا رأسه وبعثوا به إلى المهدي ، وكان المهدي بحلب . قال ابن خلدكان : كان اسم المقنع عطاء ، وقيل جكيم ، والأول أشهر . وكان أولاً قصاراً ثم ادعى الربوبية ، مع أنه كان أعور قبيح المنظر ، وكان يتخذ له وجهاً من ذهب ، وقامه على جهالته خلق

كثير ، وكان يرى الناس قرأ يرى من مسيرة شهرين ثم يغيب ، فظلم اعتقادهم له ومنعوه بالسلاح ، وكان يزعم لعنه الله وتعالى عما يقولون علواً كبيراً أن الله ظهر في صورة آدم ، ولهذا سجدت له الملائكة ، ثم في نوح ، ثم في الأنبياء واحداً واحداً ، ثم تحول إلى أبي مسلم الخراساني ، ثم تحول إليه . ولما حاصره المسلمون في قاعته التي كان جسددها بناحية كش مما وراء النهر ويقال لها سنم ، نحسى هو ونساؤه سمياً فأتوا واستحوذ المسلمون على حواصله وأمواله

وفيها جهز المهدي البعوث من خراسان وغيرها من البلاد لغزو الروم ، وأمر على الجميع ولده هارون الرشيد ، وخرج من بغداد مشياً له ، فسار معه مراحل واستخلف على بغداد ولده موسى الهادي ، وكان في هذا الجيش الحسين بن قحطبة والربيع الحجابي وخالد بن برمك - وهو مثل الوزير الرشيد ولي العهد - ويحيى بن خالد - وهو كاتبه وإليه النفقات - وما زال المهدي مع ولده مشياً له حتى بلغ الرشيد إلى بلاد الروم ، وارتاد هناك المدينة المسماة بالمهدية في بلاد الروم ، ثم رجع إلى الشام وزار بيت المقدس ، فسار الرشيد إلى بلاد الروم في جحافل عظيمة ، وفتح الله عليهم فتوحات كثيرة ، وغنموا أموالاً جزيلة جداً ، وكان لخالد بن برمك في ذلك أثر جميل لم يكن لغيره ، وبعثوا بالبشارة مع سليمان بن برمك إلى المهدي فأكرمه المهدي وأجرل عطائه .

وفيها عزل المهدي عمه عبد الصمد بن علي عن الجزيرة وولى عليها زفر بن عاصم الهلالي ، ثم عزله وولى عبد الله بن صالح بن علي . وفيها ولي المهدي ولده هارون الرشيد بلاد المغرب وأذر بيجان وأرمينية ، وجعل على رسائله يحيى بن خالد بن برمك ، وولى وعزل جماعة من النواب . وحج بالناس فيها على بن المهدي .

وفيها توفي إبراهيم بن طهمان ، وحريز بن عثمان الحمصي الرحبي ، وموسى بن علي اللخمي المصري وشعيب بن أبي حمزة ، وعيسى بن علي بن عبد الله بن عباس عم السفاح ، وإليه ينسب قصر عيسى ، ونهر عيسى ببغداد ، قال يحيى بن معين : كان له مذهب جميل ، وكان معتزلاً للسلطان . توفي في هذه السنة عن ثمان وسبعين سنة . وهمام بن يحيى ، ويحيى بن أبي أيوب المصري ، وعبيدة بنت أبي كلاب العابدة ، بكت من خشية الله أربعين سنة حتى عميت . وكانت تقول : أشتهى الموت فاني أخشى أن أجنى على نفسي جناية تكون سبب هلاكي يوم القيامة .

ثم دخلت سنة أربع وستين ومائة

فيها غزا عبد الكبير بن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب بلاد الروم ، فأقبل إليه ميائيل البطريق في نحو من تسعين ألفاً ، فهم طارذا الأرمي البطريق فقتل عنه عبد الكبير ومنع المسلمين من القتال وانصرف راجعاً - فأراد المهدي ضرب عنقه فكلّم فيه فحبسه في المطبق .

وفي يوم الأربعاء في أواخر ذي القعدة أسس المهدي قصرآ من لبن بعبسا باذ ، ثم عزم على الذهاب إلى الحج فأصابه حمى فرجع من أثناء الطريق ، ففطش الناس في الرجسة حتى كاد بعضهم يهلك ، فغضب المهدي على يقطاين صاحب المصانع ، وبعث من حيث رجع المهلب بن صالح بن أبي جعفر ليحج بالناس فحج بهم عامئذ . وفيها توفي شيبان بن عبد الرحمن النحوي ، وعبد العزيز بن أبي سلمة الملحشون ، ومبارك بن فضالة صاحب الحسن البصري .

ثم دخلت سنة خمس وستين ومائة

فيها جهز المهدي ولده الرشيد لغزو الصائفة ، وأخذ معه من الجيوش خمسة وتسعين ألفاً وسبعمائة وثلاثة وتسعين رجلاً ، وكان معه من النفقة مائة ألف دينار ، وأربعة وتسعون ألف دينار ، وأربعمائة وخمسون ديناراً ، ومن النفقة إحدى وعشرون ألف ألف وأربعمائة ألف ، وأربعة عشر ألفاً ونعمائمائة درهم . قله ابن جرير . فبلغ بجنوده خليج البحر الذي على القسطنطينية ، وصاحب الروم يومئذ أغسطة امرأة أليون ، وومها ابنها في حجرها من الملك الذي توفي عنها ، فطلبت الصلح من الرشيد على أن تدفع له سبعين ألف دينار في كل سنة ، قبل ذلك منها ، وذلك بعد ما قتل من الروم في الوقائع أربعة وخمسين ألفاً وأسرى من الذراري خمسة آلاف رأس وستمائة وأربعة وأربعين رأساً ، وقتل من الأسرى ألفي قتيل صبرآ ، وغنم من الدواب بأدواتها عشرين ألف فرس ، وذبح من البقر والغنم مائة ألف رأس . وبيع البرذون بدرهم والبغل بأقل من عشرة دراهم ، والدرع بأقل من درهم وعشرون سيفاً بدرهم . فقال في ذلك مروان بن أبي حفصة :

أطفت بـعـاطـنـيـة الروم مسندآ • إليها القنا حتى اكتفى القل سورها
وما رمتها حتى أتتك ملوكها • يجزيها والحرب تفل قنورها

وحج بالناس صالح بن أبي جعفر المنصور ، وفيها توفي سليمان بن المنيرة ، وعبد الله بن العلاء ابن دبر ، وعبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان . ووهب بن خالد .

ثم دخلت سنة ست وستين ومائة

في الحرم منها قدم الرشيد من بلاد الروم فدخل بغداد في أبهة عظيمة ومعه الروم يحملون الجزية من الذهب وغيره . وفيها أخذ المهدي البيعة لولده هارون من بعد موسى الهادي ، ولقب بالرشيد . وفيها سخط المهدي على يعقوب بن داود وكان قد حظى عنده حتى استوزره وارتفعت منزلته في الوزارة حتى فوض إليه جميع أمر الخلافة ، وفي ذلك يقول بشار بن برد :-

بني أمية هبوا طال نومكم • إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فاطلبوا • خليفة الله بين الحر والعود

(١) رواية ابن جرير : بين الدف والعود .

فلما نزل السماة والوشاة بينه وبين الخليفة حتى أخرجه عليه ، وكما سمعوا به إليه دخل إليه فأصلح أمره معه ، حتى وقع من أمره ما سأذكره ، وهو أنه دخل ذات يوم على المهدي في مجلس عظيم قد فرش بأنواع الفرش وألوان الحرير ، وحول ذلك المكاتب أصحاب مزهرة بأنواع الأزاهير ، فقال : يا يعقوب كيف رأيت مجلسنا هذا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ما رأيت أحسن منه . فقال : هو لك بما فيه ، وهذه الجارية لستم بها سروركم ، ولي إليك حاجة أحب أن تقضيها . قلت : وما هي يا أمير المؤمنين ؟ فقال : حتى تقول نعم . فقلت : نعم ! وعلى السمع والطاعة . فقال ! الله ! فقلت : الله . قال : وحياتك رأيت وحياتك راسك . فقال : ضم يدك على رأسي وقل ذلك ، فضلت . فقال : إن ههنا رجلا من العلويين أحب أن تكفينيه ، والظاهر أنه الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب . فقلت : نعم ، فقال : وعجل علي ، ثم أمر بتحويل ما في ذلك المجلس إلى منزلي وأمر لي بمائة ألف درهم وتلك الجارية ، فافرحت بشئ فرح بها . فلما صارت بمنزلي حجبها في جانب الدار في خدر ، فأمرت بذلك العلوي فجئ به فجلس إلى فتكلم ، فلما رأيت أعقل منه ولا أفهم . ثم قال لي : يا يعقوب تلقى الله بدمي وأنا رجل من ولد فاطمة بنت رسول الله (ص) . فقلت : لا والله ولكن اذهب حيث شئت وأين شئت . فقال : إني أختار بلاد كذا وكذا . فقلت : اذهب كيف شئت ، ولا يظهرن عليك المهدي قهرك وأهلك . فخرج من عندي وجهازته معه رجلين يسفرانه ويوصلانه بعض البلاد ، ولم أشعر بأن الجارية قد أحاطت علما بما جرى ، وأنها كالجاسوس على ، فبعثت بخادمها إلى المهدي فأعلمته بما جرى ، فبعث المهدي إلى تلك الطريق فردوا ذلك العلوي فحبسه عنده في بيت من دار الخلافة ، وأرسل إلي من اليوم الثاني فذهبت إليه ولم أشعر من أمر العلوي بشئ ، فلما دخلت عليه قال : ما فعل العلوي ؟ قلت : مات . قال : الله ! فقلت : الله . قال : فضع يدك على رأسي واحلف بحياته ، ففعلت . فقال : يا غلام أخرج ما في هذا البيت ، فخرج العلوي فأسقط في يدي ، فقال المهدي : دمك لي حلال . ثم أمر به فألقى في بئر في المطبق . قال يعقوب : فكنت في مكان لا أسمع فيه ولا أبصر ، فذهب بصري وطال شعري حتى صرت مثل البهائم ، ثم مضت على مدد متطاولة ، فبينما أنا ذات يوم إذ دعيت فخرجت من البئر فقيل لي : سلم على أمير المؤمنين . فسلمت وأنا أظنه المهدي ، فلما ذكرت المهدي قال : رحم الله المهدي . فقلت : الهادي ؟ فقال : رحم الله الهادي . فقلت : الرشيد ؟ قال نعم . فقلت : يا أمير المؤمنين قد رأيت ما حل بي من الضعف والعملة ، فإن رأيت أن تطلقني . فقال : أين تريد ؟ قلت : مكة . فقال : اذهب راشداً ، فسار إلى مكة فما لبث بها إلا قليلا حتى مات رحمه الله تعالى .

وقد كان يعقوب هذا يعظ المهدي في تناطيه شرب النبيذ بين يديه ، وكثرة سماع الغناء فكلن

يلومه على ذلك ويقول : ما على هذا استوزرتني ، ولا على هذا صحبتك ، أبعد الصلوات الحسن في المسجد الحرام يشرب الخمر ويعنى بين يديك ؟ فيقول له المهدي : فقد سمع عبد الله بن جعفر : فقال له يعقوب : إن ذلك لم يكن له من حسناته : ولو كان هذا قرينة لكان كلما داوم عليه العبد أفضل . وفي ذلك يقول بعض الشعراء حساً للمهدي على ذلك :

فدع عنك يعقوب بن داود جانباً * وأقبل على صهباء طيبة النشر

وفيها ذهب المهدي إلى قصره المسمى بعيسا باذ - بنى له بالآجر بعد القصر الأول الذي بناه باليمن - فسكنه وضرب هناك لدرهم والدنانير . وفيها أمر المهدي بأقامة البريد بين مكة والمدينة واليمن ولم يفعل أحد هذا قبل هذه السنة . وفيها خرج موسى الهادي إلى جرجان . وفيها ولى القضاء أبا يوسف صاحب أبي حنيفة . وفيها حج بالناس إبراهيم بن يحيى بن محمد عامل الكوفة . ولم يكن في هذه السنة صائفة للهدنة التي كانت بين الرشيد وبين الروم . وفيها توفى صدقة بن عبد الله السمين ، وأبو الأشهب المطاردى ، وأبو بكر النهشلى ، وعفير بن معدان .

ثم دخلت سنة سبع وستين ومائة

فيها وجه المهدي ابنه موسى الهادي إلى جرجان في جيش كثيف لم ير مثله ، وجعل على رسائله أبان بن صدقة . وفيها توفى عيسى بن موسى الذي كان ولى العهد من بعد المهدي : مات بالكوفة فأشهد نائبها روح بن حاتم على وفاته القاضي وجماعة من الأعيان . ثم دفن . وكان قد امتنع من الصلاة عليه فكتب إليه المهدي يعنفه أشد التعنيف ، وأمر بمحاسبته على عمله . وفيها عزل المهدي أبا عبيد الله معاوية بن عبيد الله عن ديوان الرسائل وولاه الربيع بن يونس الحاجب ، فاستخلف فيه سعيد بن واقد وكان أبو عبيد الله يدخل على مرتبته . وفيها وقع وباء شديد وسعال كثير ببغداد والبصرة ، وأظلمت الدنيا حتى كانت كالليل حتى تعالي النهار ، وكان ذلك ليال بقين من ذى الحجة من هذه السنة . وفيها تتبع المهدي جماعة من الزنادقة في سائر الآفاق فاستحضرهم وقتلهم صبراً بين يديه ، وكان المتولى أمر الزنادقة عمر الكلواذى . وفيها أمر المهدي بزيادة كثيرة في المسجد الحرام ، فدخل في ذلك دور كثيرة ، وولى ذلك ليعطين بن موسى الموكل بأمر الحرمين ، فلم يزل في عمارة ذلك حتى مات المهدي كما سيأتى . ولم يكن للناس صائفة للهدنة . وحج بالناس نائب المدينة إبراهيم بن محمد . وتوفى بعد فراغه من الحج بأيام . وولى مكانه إسحاق بن عيسى بن علي بن عبد الله بن عباس . ومن توفى فيها من الأعيان .

بشار بن برد أبو معاذ الشاعر مولى عقيل ، ولد أعمى ، وقال الشعر وهو دون عشرين سنين ، وله التشبيهات التي لم يهتد إليها البصراء . وقد أثنى عليه الأصمعي والجاحظ وأبو تمام وأبو عبيدة ، وقال

له ثلاثة عشر ألف بيت من الشعر . فلما بلغ المهدي أنه هجاه وشهد عليه قوم أنه زنديق أمر به بضرب حتى مات عن بضع وسبعين سنة . وقد ذكره ابن خلكان في الوفيات ، فقال : بشار بن برد بن برجوخ الثقلي مولايم ، وقد نسبته صاحب الأغاني فأطال نسبه . وهو بصرى قدم بغداد أصله من طخارستان ، وكان ضخماً عظيم الخلق ، وشعره في أول طبقات المولدين ، ومن شعره البيت المشهور :

هل تعلمين وراء الحب منزلة * تُدنى إليك فإن الحب أقصاى

وقوله : أنا والله أشبهى سحر عيني * لك وأخشى مصارع العشاق

وله : يا قوم أذن لبعض الحلي عاشقة * والأذن تعشق قبل العين أحيانا

قالوا لم لا نرى عينيك قلت لهم * الأذن كالمين تروى القلب بمكاه^(١)

وله : إذا بلغ الرأي المشاور فاستعن * بحزم نصيح أو نصيحة حازم

ولانجمل الشورى عليك غضاضة * فريش الخواقي قوة القوام

وما خير كفي أمسك الغل^(٢) أختها * وما خير سيف لم يؤيد جانيه

كان بشار يمدح المهدي حتى وثق إليه الوزير^(٣) أنه هجاه وقذفه ونسبه إلى شيء من الزندقة ، وأنه يقول بتفضيل النار على التراب ، وعنه إبليس في السجود لا دم ، وأنه أنشد :-

الأرض مظلمة والنار مشرقة * وللنار معبودة منذ كانت النار

فأمر المهدي بضربه فضرب حتى مات . ويقال : إنه غرق ثم نقل إلى البصرة في هذه السنة .

وفيها توفي الحسن بن صالح بن حي ، وحماد بن سلمة ، والربيع بن مسلم ، وسعيد بن عبد العزيز ابن مسلم ، وعتبة الغلام : وهو عتبة بن أبان بن صمة أحد العباد المشهورين البكائيين المذكورين ، كان يأكل من عمل يده في الخوص ، ويصوم الدهر ويفطر على الخبز والملح . والقلم الحذاء ، وأبو هلال محمد بن سليم ، ومحمد بن طلحة ، وأبو حمزة اليشكري محمد بن ميمون .

ثم دخلت سنة ثمان وستين ومائة

ففيها في رمضان منها قضت الروم ما بينهم وبين المسلمين من الصلح الذي عقده هارون الرشيد عن أمر أبيه المهدي ، ولم يستمروا على الصلح إلا ثنتين وثلاثين شهراً ، فبعث نائب الجزيرة خيلاً إلى الروم قتلوا وأسرُوا وغنمُوا وسلحُوا . وفيها اتخذ المهدي دواوين الأئمة^(٤) ولم يكن بنو أمية يعرفون ذلك . وفيها حج بالناس على بن محمد المهدي الذي يقال له ابن ربيعة . وفيها توفي الحسن

(١) في هذا البيت تحريف (٢) بهامش التركية : أي نسب الوزير لبشار .

(٣) ويسمى واحداً (ديوان الزمام) . وروى أنه لما جمعت الدواوين لعمر بن بزيع تفكر فإذا هو لا يضبطها إلا بزمام يكون له على كل ديوان فأتخذ دواوين الأئمة في خلافة المهدي .

ابن يزيد بن حسن بن علي بن أبي طالب ، ولاء المنصور المدينة خمس سنين ، ثم غضب عليه فضر به وجبسه وأخذ جميع ماله . [وحامد مجرد . كان ظريفاً ماجناً شاعراً ، وكان ممن يماثر الوليد ابن يزيد وبهاجى بشار بن برد . وقسم على المهدي ونزل الكوفة واتهم بالزندقة . قال ابن قتيبة في طبقات الشعراء : ثلاثة حمادون بالكوفة يرمون بالزندقة حماد الراوية ، وحامد مجرد ، وحامد بن الزبرقان النحوى . وكانوا يتشاعرون ويتماجنون .] (١) وخارجة بن مصعب ، وعبد الله بن الحسن ابن الحصين بن أبي الحسن البصرى ، قاضى البصرة بعد سوار . مع خالد الحذاء وداود بن أبي هند ، وسعيد الجربرى . وروى عنه ابن مهدي . وكان ثقة فقيهاً له اختيارات تمرى إليه غريبة فى الأصول والفروع ، وقد سئل عن مسألة فأخطأ فى الجواب فقال له قائل : الحكم فيها كذا وكذا . فأطرق ساعة ثم قال : إذا أرجع وأنا صاغر ، لأن أكون ذنباً فى الحق أحب إلى من أن أكون رأساً فى الباطل . توفى فى ذى القعدة من هذه السنة ، وقيل بعد ذلك بعشر سنين فأنه أعلم . غوث ابن سليمان بن زياد بن ربيعة أبو يحيى الجرمى ، قاضى مصر ، كان من خيار الحكماء ، ولى الديار المصرية ثلاث مرات فى أيام المنصور والمهدي . وفليح بن سليمان ، وقيس بن الربيع فى قول ، ومحمد بن عبد الله بن علاثة بن علقمة بن مالك ، أبو اليسر العقيلي ، قاضى الجانب الشرقى من بغداد للمهدي ، هو وعافية بن يزيد . وكان يقال لابن علاثة قاضى الجن ، لأنه كانت بثر يصاب من أخذ منها شيئاً فقال : أيها الجن ! إنا حكمنا أن لكم الليل ولنا النهار . فكان من أخذ منها شيئاً فى النهار لم يصبه شئ . قال ابن معين : كان ثقة . وقال البخارى : فى حفظه شئ .

ثم دخلت سنة تسع وستين ومائة

فبها فى الحرم منها توفى المهدي بن المنصور بمكان يقال له ما سبذان ، بالحلى ، وقيل مسموماً وقيل عضه فرس فمات . وهذه ترجمته

هو محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، أبو عبد الله المهدي ، أمير المؤمنين وإنما لقب بالمهدي رجاء أن يكون الموعود به فى الأحاديث فلم يكن به ، وإن اشتركا فى الاسم فقد افترقا فى الفعل ، ذاك يأتى فى آخر الزمان عند فساد الدنيا فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً . وقد قيل إن فى أيامه ينزل عيسى بن مريم بمشق كما سيأتى ذلك فى أحاديث الفتن والملاحم . وقد جاء فى حديث من طريق عثمان بن عفان أن المهدي من بنى العباس ، وجاء موقوفاً على ابن عباس وكعب الأخبار ولا يصح ، وبتقدير صحة ذلك لا يلزم أن يكون على التعيين ، وقد ورد فى حديث آخر أن المهدي من ولد فاطمة فهو يعارض هذا والله أعلم . وأم المهدي بن المنصور أم موسى

بنت منصور بن عبد الله الحيرى . روى عن أبيه عن جده عبد الله بن عباس « أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، رواه عنه يحيى بن حمزة النهشل قاضى دمشق ، وذكر أنه
صلى خلف المهدي حين قدم دمشق فجهز في السورتين بالبسملة ، وأسند ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
ورواه غير واحد عن يحيى بن حمزة ، ورواه المهدي عن المبارك بن فضالة ، ورواه عنه أيضا جعفر
ابن سليمان الضبي ، ومحمد بن عبد الله الرقاشى ، وأبو سفيان سعيد بن يحيى بن مهدي .

وكان مولد المهدي في سنة ست أو سبع وعشرين ومائة ، أو في سنة إحدى وعشرين ومائة
ولى الخلافة بعد موت أبيه في ذى الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة ، وعمره إذ ذاك ثلاث وثلاثون
سنة ، ولد بالحيرة من أرض البلقاء ، وتوفى في الحرم من هذه السنة . أعنى سنة تسع وستين ومائة
عن ثلاث أو ثمان وأربعين سنة ، وكانت خلافته عشرين وشهراً وبعض شهر ، وكان أسمر طويلاً
جمد الشعر ، على إحدى عينييه نكتة بيضاء ، قيل على عينه اليمنى ، وقيل اليسرى . قال الربيع
الحاجب : رأيت المهدي يصلى فى ليلة مقمرة فى بهوله عليه ثياب حسنة ، فإدري هو أحسن أم
القمر ، أم بهوه ، أم ثيابه . فقرأ [فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم]
الآية . ثم أمرنى فأحضرت رجلاً من أقاربه كان مسجوناً فأطلقه . ولما جاء خبر موت أبيه بمكة كما
تقدم ، كنتم الأمر يومئذ فى الناس يوم الخميس الصلاة جامعة ، فقام فيهم خطيباً فأعلمهم
بموت أبيه وقال : إن أمير المؤمنين دعى فأجابه فعند الله أحق سب أمير المؤمنين وأستعينه على خلافة
المسلمين . ثم بايعه الناس بالخلافة يومئذ . وقد عزاه أبو دلامة وهناه فى قصيدة له يقول فيها : —

عيناي واحدة ترى مسرورة * بأمرها جذلاً وأخرى تنفد
تبكى وتضحك تارة ويسوها * ما أنكرت ويسرها ما تعرف
فيسوها موت الخليفة محرماً * ويسرها أن قام هذا الأراف
ما إن رأيت كما رأيت ولا أرى * شعراً أرجله وآخر ينفد
هلك الخليفة يال أمة أحمد * وأنا كم من بعد من يخلف
أهدى لهذا الله فضل خلافة * ولذلك جنات النعيم تزخرف

وقد قال المهدي يوماً فى خطبة : أيها الناس أسروا مثلما تعلنون من طاعتنا تهكم العاقبة ،
وتحمدوا العاقبة ، واخفضوا جناح الطاعة لمن ينشر معتدته فيكم ، ويطوى ثوب الاصر عنكم .
وأهل عليكم السلامة ولين المعيشة من حيث أراه الله ، مقدما ذلك على فعل من تقدمه ، والله لأعفين
عمرى من عقوبتكم ، ولأحملن نفسى على الاحسان إليكم . قال : فأشرقت وجوه الناس من حسن
كلامه . ثم استخرج حواصل أبيه من الذهب والفضة التى كانت لا تحصى ولا توصف كثرة ، ففرقها

في الناس ، ولم يعط أهله ومواليه منها شيئاً ، بل أجرى لهم أرزاقاً بحسب كفايتهم من بيت المال ، لكل واحد خمسمائة في الشهر غير الأعطيات . وقد كان أبوه حريصاً على توفير بيت المال ، وإنما كان ينفق في السنة ألفي درهم من مال السراة . وأمر المهدي ببناء مسجد الرصافة وعمل خندق وسور حولها ، وبني مدناً ذكرناها فيما تقدم .

وذكر له عن شريك بن عبيد الله القاضى أنه لا يرى الصلاة خلفه ، فأحضره فتكلم معه ثم قال له المهدي في جملة كلامه : يا ابن الزانية ! فقال له شريك : مه مه يا أمير المؤمنين . فلقد كانت صوامع قوامه . فقال له : يا زنديق لأقتاتك . فضحك شريك ، فقال : يا أمير المؤمنين إن للزنادقة علامات يعرفون بها ، شربهم القهوات ، واتخاذهم القينات . فأطرق المهدي وخرج شريك من بين يديه . وذكروا أنه هاجت ريح شديدة ، فدخل المهدي بيتاً في داره فألزق خده بالتراب وقال : اللهم إن كنت أنا المطلوب بهذه العقوبة دون الناس فيها أناذا بين يديك ، اللهم لا تشمت بي الأعداء من أهل الأديان . فلم يزل كذلك حتى انجلت . ودخل عليه رجل يوماً ومعه نعل فقال : هذه نعل رسول الله (ص) . قد أهديتها لك . فقال : هاتها ، فناولها إياها ، وقبلها ووضعها على عفيه وأمر له بمشرة آلاف درهم . فلما انصرف الرجل قال المهدي : والله إنى لأعلم أن رسول الله (ص) لم ير هذه النعل ، فضلاً عن أن يلبسها ، ولكن لورددته لذهب يقول للناس : أهديت إليّ نعل رسول الله (ص) . فردها على ، فتصدقته الناس ، لأن العامة تميل إلى أمثالها ، ومن شأنهم نصر الضعيف على القوى وإن كان ظالماً ، فاشترينا لسانه بمشرة آلاف درهم ، ورأينا هذا أرجح وأصلح .

واشتهر عنه أنه كان يحب اللعب بالحمام والسباق بينها ، فدخل عليه جماعة من المحدثين فيهم عتاب بن إبراهيم فحدثه بحديث أبي هريرة : « لا سبق إلا في خف أو نعل أو حافر » . وزاد في الحديث « أو جناح » فأمر له بمشرة آلاف . ولما خرج قال : والله إنى لأعلم أن عتاباً كذب على رسول الله (ص) . ثم أمر بالحمام فذبح ولم يذكر عتاباً بعدها . وقال الواقدي : دخلت على المهدي يوماً فحدثته بأحاديث فكتبها عنى ثم قام فدخل بيوت نسائه ثم خرج وهو ممتلئ غيظاً فقلت : مالك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : دخلت على الخيزران فقامت إلى ومزقت ثوبي وقالت : ما رأيت منك خيراً ، وبني والله يا واقدي إنما اشتريتها من نخاس ، وقد نالت عندي ما نالت ، وقد بايعت لولدها بامرة المؤمنين من بعدى . فقلت : يا أمير المؤمنين إن رسول الله (ص) قال : « إنهن يغلبن الكرام ويغلبهن اللثام » . وقال : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهله ، وقد خلقت المرأة من ضلع أعوج إن قومته كسرته » . وحدثته في هذا الباب بكلام حضرنى . فأمر لى بألفي دينار ، فلما وافيت المنزل إذا رسول الخيزران قد لحقنى بألفي دينار إلا عشرة دنائير ، وإذا معه أثواب أخر ، وبعثت تشكرنى وتثنى على معروفاتى .

وذكروا أن المهدي كان قد أهدر دم رجل من أهل الكوفة وجعل لمن جاء به مائة ألف ، فدخل الرجل بغداد متنكراً فلقبه رجل فأخذ بمجامع ثوبه ونادى : هذا طلبه أمير المؤمنين . وجعل الرجل يريد أن ينفلت منه فلا يقدر ، فبينهما ، يتجاذبان وقد اجتمع الناس عليهما ، إذ مر أمير في موكبته - وهو معن بن زائدة - فقال الرجل : يا أبا الوليد خائف مستجير . فقال معن : ويحك مالك وله ؟ فقال هذا طلبه أمير المؤمنين ، جعل لمن جاء به مائة ألف . قال معن : أما علمت أنني قد أجرته ؟ أرسله من يدك . ثم أمر بعض غلمانه فترجل وأركبه وذهب به إلى منزله ، وانطلق ذلك الرجل إلى باب الخليفة وأنهى إليهم الخبر ، فبلغ المهدي فأرسل إلى معن فدخل عليه فسلم فلم يرد عليه السلام وقال : يا معن أبلغ من أمرك أن تجير علي ؟ قال : نعم قال : وأنعم أيضاً قال : نعم ! قد قتلت في دولتك أربعة آلاف مصل فلا يجار لي رجل واحد ؟ فأطرق المهدي ثم رفع رأسه إليه وقال : قد أجرنا من أجرت يامعن . فقال : يا أمير المؤمنين إن الرجل ضعيف ، فأمر له بثلاثين ألفاً . فقال : إن جريمته عظيمة وإن جوائز الخلفاء على قدر جرائم الرعية . فأمر له بمائة ألف ، فحملت بين يدي معن إلى ذلك الرجل ، فقال له معن : خذ المال وادع لأمير المؤمنين وأصلح نيتك في المستقبل .

وقدم المهدي مرة البصرة فخرج ليصلي بالناس فجاء أعرابي فقال : يا أمير المؤمنين مر هؤلاء فلينظروني حتى أتوا - يعني المؤذنين - فأمرهم بانتظاره ، ووقف المهدي في الحراب لم يكبر حتى قيل له هذا لأعرابي قد جاء . فكبر ، فتهجب الناس من سماحة أخلاقه . وقدم أعرابي ومعه كتاب مختم فحمل يقول : هذا كتاب أمير المؤمنين إلى ، أين الرجل الذي يقال له الربيع الحاجب ؟ فأخذ الكتاب وجاء به إلى الخليفة وأوقف الأعرابي وفتح الكتاب فاذا هو قطعة أديم فيها كتابة ضعيفة ، والأعرابي يزعم أن هذا خط الخليفة ، فتبسم المهدي وقال : صدق الأعرابي ، هذا خطي ، إني خرجت يوماً إلى الصيد فضمت عن الجيش وأقبل الليل فتعذت بتمويز رسول الله (ص) ، فرفع لي نار من بعيد فقصدتها فاذا هذا الشيخ وامرأته في خباء يوقدان ناراً ، فسلمت عليهما فردا السلام وفرش لي كساء وسقائي منقعة من لبن مشوب بماء ، فما شربت شيئاً إلا وهى أطيب منه ، ونمت نومة على تلك العبادة ما أذكر أنني نمت أحلى منها . فقام إلى شوية له فذبحها فسمعت امرأته تقول له : عمدت إلى مكسبك ومعيشة أولادك فذبحتها ، هلكت نفسك وعيالك . فما التفت إليها ، واستيقظت فاشتويت من لحم تلك الشوية وقلت له : أعندك شيء ؟ أكتب لك فيه كتاباً ؟ فأثاني بهنذه القطعة فكتبت له بعدد من ذلك الرماد خمسمائة ألف ، وإنما أردت خمسين ألفاً ، والله لا نفذنها له كلها ولولم يكن في بيت المال سواها . فأمر له بخمسمائة ألف فقبضها الأعرابي واستمر مقبياً في ذلك الموضع في طريق الحاج من ناحية الأنبار ، فجعل يقرى الضيف ومن مر به من الناس ، فعرف منزله بمنزل مضيف أمير المؤمنين المهدي .

وعن سوار - صاحب رجة سوار - قال : انصرفت يوماً من عند المهدي فجئت منزلي فوضع لي الغداء فلم تقبل نفسي عليه ، فدخلت خلوتي لأنام في القائلة فلم يأخذني نوم ، فاستدعيت بعض حظايي لأتلمس بها فلم تنبسط نفسي إليها ، فتهضت فخرجت من المنزل وركبت بغلتي فاجاوزت الدار إلا قليلا حتى لقيت رجلا ومعه ألف درهم ، قلت : من أين هذه ؟ فقال : من ملكك الجديد . فاستصحبته ممي وسرت في أزقة بغداد لأتشاغل عما أنا فيه من الضجر ، فحانت صلاة العصر عند مسجد في بعض الحارات ، فنزلت لأصلي فيه ، فلما قضيت الصلاة إذا برجل أعمى قد أخذ بثيابي فقال : إن لي إليك حاجة ، قلت : وما حاجتك ؟ قال : إني رجل ضريب ولكنني لما شحمت راحمة طيبك ظننت أنك من أهل النعمة والثروة ، فأحييت أن أفضي إليك بما جئني . قلت : وما هي ؟ فقال : إن هذا القصر الذي تجاه المسجد كان لأبي فساقر منه إلى خراسان فباعه وأخذني معه وأنا صغير ، فافترقنا هناك وأصابني أنا الضرر ، فرجعنا إلى بغداد بعد أن مات أبي ، فجئت إلى صاحب هذا القصر أطلب منه شيئا أتبلغ به لعل أجمع بسوار ، فانه كان صاحباً لأبي ، فله أن يكون عنه سعة يجود منها علي . قلت : ومن أبوك ؟ فذكر رجلا كان أصحب الناس إلى ، قلت : إني أنا سوار صاحب أبيك ، وقد منعني الله يومك هذا النوم والقرار والأكل والراحة حتى أخرجني من منزلي لأجتمع بك ، وأجلسني بين يديك ، وأمرت وكيل فدفع له الألفي درهم التي معه ، وقلت له : إذا كان الغد فأت منزلي في مكان كذا وكذا . وركبت فجئت دار الخلافة وقلت : ما أنحف المهدي الليلة في السر بأغرب من هذا . فلما قصصت عليه القصة تعجب من ذلك جداً وأمر لذلك الأعمى بألفي دينار ، وقال لي : هل عليك دين ؟ قلت نعم ! قال : كم ؟ قلت : خمسون ألف دينار . فسكت وحادثنى ساعة ثم لما قت من بين يديه فوصلت إلى المنزل إذا الخالون قد سبقوني بخمسين ألف دينار وألفي دينار للأعمى ، فانتظرت الأعمى أن يجيء في ذلك اليوم فتأخر فلما أمسيت عدت إلى المهدي فقال : قد فكرت في أمرك فوجدتك إذا قضيت دينك لم يبق معك شيء ، وقد أمرت لك بخمسين ألف دينار أخرى . فلما كان اليوم الثالث جاءني الأعمى قلت : قد رزقني الله بسببك خيراً كثيراً ، ودفعت له الألفي الدينار التي من عند الخليفة وزدته ألفي دينار من عندي أيضاً .

ووقفت امرأة للمهدي فقالت : يا عصابة رسول الله اقض حاجتي . فقال المهدي : ما سمعنا من أحد غيرها ، اقضوا حاجتها واعطوها عشرة آلاف درهم . ودخل ابن الخياط على المهدي فامتدحه فأمر له بخمسين ألف درهم ففرقها ابن الخياط وأنشأ يقول :-

أخضتُ بكفي كفه أبغى الغنى • ولم أدر أن الجود من كفه يُعدي
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى • أفنتُ وأعدائي فبددتُ ما عندي

قال : فبلغ ذلك المهدي فأعطاه بدل كل درهم ديناراً . وبالجملة فإن المهدي مآثر ومحاسن كثيرة ، وقد كانت وفاته بما سبذان ، كان قد خرج إليها ليعث إلى ابنه الهادي ليحضر إليه من جرجان حتى يخلمه من ولاية العهد ويحمله بمد هارون الرشيد ، فامتنع الهادي من ذلك ، فركب المهدي إليه قاصداً إحضاره ، فلما كان بما سبذان مات بها . وكان قد رأى في النوم وهو يقصره ببغداد - المسمى بقصر السلامة - كأن شيخاً وقف بباب القصر ، ويقال إنه سمع هاتفاً يقول : -

كأنى بهذا القصر قد باد أهلُهُ * وأوحشُ منه رُبْعُهُ ومنازلُهُ
وصارَ عميدُ التَّوَمِ مِنْ بعدِ بهجَةٍ * وملكِ إلى قَبْرِ عليهِ جنادُهُ
ولم يبقَ إلَّا ذِكْرُهُ وحديثُهُ * تنادى عليهِ معولاتُ حلائلُهُ
فما عاش بعدها إلا عشرًا حتى مات . وروى أنه لما قال له الهاتف : -

كأنى بهذا القصر قد باد أهلُهُ * وقد درست أعلامُهُ ومنازلُهُ
فأجابه المهدي : كذاكَ أُمُورُ النَّاسِ يَبْلِي جديدها * وكلُّ فتى يوماً سَتَبْلِي فمائلُهُ
فقال الهاتف : تزودَ من الدنيا فإنك ميتٌ * وإنك مسئولٌ فما أنت قائلُهُ
فأجابه المهدي : أقولُ بأنَّ اللهَ حقَّ شَهِدَتُهُ * وذلك قولٌ ليسَ تحصى فضائلُهُ
فقال الهاتف : تزودَ من الدنيا فإنك راحلٌ * وقد أَرَفَ الأمرُ الذي بك نازلُ
فأجابه المهدي : متى ذاكَ خبرني هديتُ فاني * سأفعلُ ما قد قلتَ لي وأعاجلُهُ
فقال الهاتف : تلبثُ ثلاثاً بعدَ عشرينَ ليلةً * إلى منتهى شهرٍ وما أنت كاملُهُ
قالوا : فلم يمش بعدها إلا تسعاً وعشرين يوماً حتى مات رحمه الله تعالى .

وقد ذكر ابن جرير اختلافاً في سبب موته ، فقيل إنه ساق خلف ظبي والكلاب بين يديه فدخل الظبي إلى خربة فدخلت الكلاب وراءه وجاء الفرس فجعل بمشواره فدخل الخربة فكسر ظهره ، وكانت وفاته بسبب ذلك . وقيل إن بعض حظاياهم بعثت إلى أخرى لبنا مسموماً فرس الرسول بالمهدي فأكل منه فمات . وقيل بل بعثت إليها بصينية فيها السمك تروى وفي أعلاها واحدة كبيرة مسمومة ، وكان المهدي يعجبه السمك تروى ، فمرت به الجارية ومعها تلك الصينية فأخذ التي في أعلاها فأكلها فمات من ساعته ، فجعلت الحظية تندبه وتقول : وأمير المؤمنين ، أردت أن يكون لي وحدي قتلته بيدي . وكانت وفاته في الحرم من هذه السنة - أعنى سنة تسع وستين ومائة - وله من العمر ثلاث وأربعون سنة على المشهور ، وكانت خلافته عشر سنين وشهراً وكسوراً ، ورتناه الشعراء بمرائي كثيرة قد ذكرها ابن جرير وابن عساکر .

وفيهما توفي عبيد الله بن زياد ، ونافع بن عمر الجمحي ، ونافع بن أبي نعيم القاري .

مخدوم موسى الهاوي بن المهدي

توفي أبوه في المحرم من أول سنة تسع وستين ومائة وكان ولي العهد من بعد أبيه ، وكان أبوه قد عزم قبل موته على تقديم أخيه الرشيد عليه في ولاية العهد ، فلم يتفق ذلك حتى مات المهدي بماسبذان . وكان الهادي إذ ذاك بجرجان ، فهم بعض الدولة منهم الربيع الحاجب وطائفة من القواد على تقديم الرشيد عليه والمبايعة له ، وكان الرشيد حاضراً ببغداد ، وعزموا على النفقة على الجند لذلك تنفيذاً لما رآه المهدي من ذلك . فأسرع الهادي السير من جرجان إلى بغداد حين بلغه الخبر ، فساق منها إليها في عشرين يوماً ، فدخل بغداد وقام في الناس خطيباً ، وأخذ البيعة منهم فبايعوه ، وتغيب الربيع الحاجب فتطلبه الهادي حتى حضر بين يديه ، فعفا عنه وأحسن إليه وأقره على حجو بيته ، وزاده الوزارة وولايات آخر . وشرع الهادي في تطلب الزنادقة من الآفاق فقتل منهم طائفة كثيرة ، واقتدى في ذلك بأبيه ، وقد كان موسى الهادي من أفكك الناس مع أصحابه في الخلوة ، فاذا جلس في مقام الخلافة كانوا لا يستطيعون النظر إليه ، لما يعلوه من المهابة والرياسة ، وكان شاباً حسناً وقوراً مهيباً .

وفيها - أعنى سنة تسع وستين ومائة - خرج بالمدينة الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، وذلك أنه أصبح يوماً وقد لبس البياض وجلس في المسجد النبوي ، وجاء الناس إلى الصلاة فلما رأوه ولوا راجعين ، والتف عليه جماعة فبايعوه على الكتاب والسنة والرضى من أهل البيت . وكان سبب خروجه أن متوليها خرج منها إلى بغداد ليهنئ الخليفة بالولاية ويعزيه في أبيه . ثم جرت أمور اقتضت خروجه ، والتف عليه جماعة وجعلوا مأواهم المسجد النبوي ، ومنعوا الناس من الصلاة فيه ، ولم يجبه أهل المدينة إلى ما أرادوه ، بل جعلوا يدعون عليه لانتهاكه المسجد ، حتى ذكر أنهم كانوا يقترون في جنبات المسجد ، وقد اقتتلوا مع المسودة مرات فقتل من هؤلاء وهؤلاء . ثم ارتحل إلى مكة فأقام بها إلى زمن الحج ، فبعث إليه الهادي جيشاً فقاتلوه بعد فراغ الناس من الموسم فقتلوه وقتلوا طائفة من أصحابه ، وهرب بقيتهم وتفرقوا شذراً من ذر . فكان مدة خروجه إلى أن قتل تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً ، وقد كان كريماً من أجود الناس : دخل يوماً على المهدي فأطلق له أربعين ألف دينار ففرقها في أهله وأصدقائه من أهل بغداد والكوفة ، ثم خرج من الكوفة وما عليه قميص ، إنما كان عليه فروة وليس تحتها قميص .

وفيها حج بالناس سليمان بن أبي جعفر عم الخليفة . وغزا الصائفة من طريق درب الراهب معتوق بن يحيى في جحفل كثيف ، وقد أقبلت الروم مع بطريقها فبلغوا الحدث . وفيها توفي الحسين بن علي بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب قتل في أيام التشريق كما تقدم .

والربيع بن يونس الحاجب ، ولى المنصور ، وكان حاجبه ووزيره ، وقد ورر للمهدى والهادى ، وكان بعضهم يظمن فى نسبه . وقد أورد الخطيب فى ترجمته حديثاً من طريقه ولكنه منكراً ، وفى صحته عنه نظر . وقد ولى الحجووية بعده ولده الفضل بن الربيع ، ولاء إياها الهادى .

ثم دخلت سنة سبعين ومائة من الهجرة النبوية

وفىها عزم الهادى على خلع أخيه هارون الرشيد من الخلافة وولاية العهد لابنه جعفر بن الهادى فانقاد هارون لذلك ولم يظهر منازعة بل أجاب ، واستدعى الهادى جماعة من الأمراء فأجابوه إلى ذلك ، وأبث ذلك أمهما الخيزران ، وكانت تميل إلى ابنها هارون أكثر من موسى ، وكان الهادى قد منعها من التصرف فى شئ من المملكة لذلك ، بعد ما كانت قد استحوزت عليه فى أول ولايته ، وانقلبت الدول إلى بابها والأمراء إلى جنبها ، خلف الهادى لئن عاد أمير إلى بابها ليضرب عنقه ولا يقبل منه شفاعاً ، فامتنعت من الكلام فى ذلك ، وحلفت لا تكلمه أبداً ، وانتقلت عنه إلى منزل آخر . وألح هو على أخيه هارون فى الخلع وبعث إلى يحيى بن خالد بن برمك - وكان من أكبر الأمراء الذين هم فى صف الرشيد - فقال له : ماذا ترى فيما أريد من خلع هارون وتولية ابنى جعفر ؟ فقال له خالد : إني أخشى أن تهون الإيمان على الناس ، ولكن المصلحة تقتضى أن نجعل جعفرأ ولى العهد من بعد هارون ، وأيضاً فاقى أخشى أن لا يجيب أكثر الناس إلى البيعة لجعفر ، لأنه دون البلوغ ، فيتفاقم الأمر ويختلف الناس . فأطرق ملياً - وكان ذلك ليلاً - ثم أمر بسجنه ثم أطلقه . وجاء يوماً إليه أخوه هارون الرشيد فجلس عن يمينه بعيداً ، فجعل الهادى ينظر إليه ملياً ثم قال : يا هارون ! أطلع أن تكون ولياً للعهد حقاً ؟ فقال : إى والله ، وأئن كان ذلك لأصلن من قطعت ، ولأن نصفن من ظلمت ، ولأن رقيبن بنيك من بناتى . فقال ذاك الظن بك . فقام إليه هارون ليقبل يده فخلف الهادى ليجلس معه على السرير فجلس معه ، ثم أمر له بألف ألف دينار ، وأن يدخل الخزانة فيأخذ منها ما أراد ، وإذا جاء الخراج دفع إليه نصفه . ففعل ذلك كله ورضى الهادى عن الرشيد . ثم سافر الهادى إلى حديقة الموصل بعد الصلح ، ثم عاد منها فأت بعيساباذ ليلة الجمعة للنصف من ربيع الأول ، وقيل لآخر سنة سبعين ومائة ، وله من العمر ثلاث وعشرون سنة ، وكانت خلافته ستة أشهر^(١) وثلاثة وعشرون يوماً . وكان طويلاً جميلاً ، أبيض ، بشفته العليا تفلص . وقد توفى هذه الليلة خليفة وهو الهادى ، وولى خليفة وهو الرشيد ، وولد خليفة وهو المأمون بن الرشيد . وقد قالت الخيزران أمهما فى أول الليل : إنه بلغنى أن يولد خليفة ويموت خليفة ويولى خليفة . يقال إنها سمعت ذلك من الأوزاعى قبل ذلك بمدة ، وقد سرها ذلك جداً . ويقال : إنها

(١) فى المصرية : سنة وشهراً وثلاثة وعشرين يوماً .

سمعت ولدها الهادي خوفاً منه على ابنها الرشيد ، ولأنه كان قد أبعدهما وأقصاهما وقرب حظيته خالصة وأدناها فله أعلم .

وهذا ذكر شيء من ترجمة الهادي

هو موسى بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أبو محمد الهادي . ولي الخلافة في محرم سنة تسع وستين ومائة . ومات في النصف من ربيع الأول أو الآخر سنة سبعين ومائة ، وله من العمر ثلاث ، وقيل أربع ، وقيل ست وعشرون سنة ، والصحيح الأول ، ويقال إنه لم يل الخلافة أحد قبله في سنة ، وكان حسناً جميلاً طويلاً ، أبيض ، وكان قوي البأس يثب على الدابة وعليه درعان ، وكان أبوه يسميه ربحانتي . ذكر عيسى بن دأب قال : كنت يوماً عند الهادي إذ جئني بطست فيه رأس جاريتين قد ذبحا وقطعا ، لم أر أحسن صوراً منهما ، ولا مثل شعورهما ، وفي شعورهما اللآليء والجواهر منضدة ، ولا رأيت مثل طيب ريحهما . فقال لنا الخليفة : أتدرون ما شأن هاتين ؟ قلت : لا . فقال : إنه ذكر أنه تركب إحداهما الأخرى يفعلان الفاحشة ، فأمرت الخادم فرصدهما ثم جاءني فقال : إنهما مجتمعتان ، فجذت فوجدتهما في لحاف واحد وهما على الفاحشة ، فأمرت بحز رقابهما . ثم أمر برفع رؤسهما من بين يديه ورجع إلى حديثه الأول كأنه لم يسمع شيئاً . وكان شهماً خبيراً بالملك كريماً ، ومن كلامه : ما أصلح الملك بمثل تعجيل العقوبة للجاني ، والعفو عن الزلات ، ليقبل الطمع عن الملك . وغضب يوماً على رجل فاسترضى عنه فرضي ، فشرع الرجل يعتذر فقال الهادي : إن الرضا كفاك مؤنة الاعتذار . وعزى رجلاً في ولده فقال له : سرّك وهو عدو وقتنة ، وساء لك وهو صلاة ورحمة . وروى الزبير بن بكار أن مروان بن أبي حفصة أنشد الهادي قصيدة له منها قوله : -

تسابة يوماً بأسو ونواله * فما أحد يدري لأيهما الفضل

فقال له الهادي : أيما أحب إليك ؟ ثلاثون ألفاً معجلة أو مائة ألف تدور في الدواوين ؟ فقال : يا أمير المؤمنين أو أحسن من ذلك ؟ قال : وما هو ؟ قال : تكون ألفاً معجلة ومائة ألف تدور بالدواوين . فقال الهادي : أو أحسن من ذلك ، نعجل الجميع لك . فأمر له بمائة ألف وثلاثين ألفاً معجلة . قال الخطيب البغدادي : حدثني الأزهرى ثنا سهل بن أحمد الديباجي ثنا الصولي ثنا الغلابي حدثني محمد بن عبد الرحمن التيمي المكي حدثني المطلب بن عكاشة المزني قال : قدمنا على أبي محمد الهادي شهوداً على رجل منا أنه شتم قریشاً ونخطى إلى رسول الله (ص) ، فجلس لنا مجلساً أحضر فيه فقهاء أهل زمانه ومن كان بالحضرة على بابه ، وأحضر الرجل وأحضرنا فشهدنا عليه بما سمعنا منه . فتغير وجه الهادي ثم نكس رأسه ثم رفعه ثم قال : إني سمعت أبي المهدي يحدث عن أبيه المنصور

عن أبيه علي بن عبد الله بن عباس قال : من أهان قريشا أهان الله ، وأنت يا عدو الله لم ترض بأن ذبت قريشا حتى تخطيت إلى ذكر رسول الله (ص) ؟ اضر بوا عنقه : فما برحنا حتى قتل .
توفي الهادي في ربيع الأول من هذه السنة ، وصلى عليه أخوه هارون ، ودفن في قصر بناء وسماه الأبيض بعيساباذ من الجانب الشرقي من بغداد ، وكان له من الولد تسعة ، سبعة ذكور وابنتان ، قائد كور جعفر ، وعباس ، وعبد الله ، وإسحاق ، وإسماعيل ، وسليمان ، وموسى الأعمى ، الذي ولد بعد وفاته فسمى باسم أبيه . والبنتان هما أم عيسى التي تزوجها المؤمنون ، وأم العباس تلعف توبة .

خلفته هارون الرشيد بن المهدي

وبيع له بالخلافة ليلة مات أخوه ، وذلك ليلة الجمعة للنصف من ربيع الأول سنة سبعين ومائة وكان عمر الرشيد يومئذ ثنتان وعشرين سنة ، فبعث إلى يحيى بن خالد بن برمك فأخرجه من السجن ، وقد كان الهادي عزم تلك الليلة على قتله وقتل هارون الرشيد ، وكان الرشيد ابنه من الرضاة ، فولاه حينئذ الوزارة ، وولى يوسف بن القاسم بن صبيح كتابة الأمانة . وكان هو الذي قام خطيباً بين يديه حتى أخلصت البيعة له على المنبر بعيساباذ ، ويقال إنه لما مات الهادي في الليل جاء يحيى ابن خالد بن برمك إلى الرشيد فوجده نائماً فقال : قم يا أمير المؤمنين . فقال له الرشيد : كم تروني ، لو سمعت هذا الرجل لكان ذلك أكبر ذنوبي عنده ؟ فقال : قد مات الرجل . فجلس هارون فقال : أشر على في الولايات . فجعل يذكر ولايات الأقاليم لرجال يسميهم فيوليهم الرشيد ، فينهماهما كذلك إذ جاء آخر فقال : أبشر يا أمير المؤمنين فقد ولد لك الساعة غلام . فقال : هو عبد الله وهو المؤمن . ثم أصبح فصلى على أخيه الهادي ، ودفنه بعيساباذ ، وحلف لا يصلي الظهر إلا ببغداد . فلما فرغ من الجنائز أمر بضرب عنق أبي عصمة القائد لأنه كان مع جعفر بن الهادي ، فزاحوا الرشيد على جسر فقال أبو عصمة : أصبر وقف حتى يجوز لي العهد . فقال الرشيد : السمع والطاعة للأمير . فجاز جعفر وأبو عصمة ووقف الرشيد مكسوراً ذليلاً . فلما ولى أمر بضرب عنق أبي عصمة ، ثم سار إلى بغداد . فلما انتهى إلى جسر بغداد استدعى بالنواصين فقال إنني سقطت مني ههنا خاتم كان والدي المهدي قد اشتراه لي بمائة ألف ، فلما كان من أيام بعث إلى الهادي يطلبه فألقته إلى الرسول فسقط ههنا . فخاص النواصون وراءه فوجدوه فسر به الرشيد سروراً كثيراً . ولما ولى الرشيد يحيى بن خالد الوزارة قال له : قد فوضت إليك أمر الرعية وخلصت ذلك من عنقي وجعلته في عنقك ، فول من رأيت واعزل من رأيت . ففي ذلك يقول إبراهيم بن الموصلي : —

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة * فلما ولى هارون أشرق نورها
بيمين أمين الله هارون ذي الندى * فهارون واليها ويحيى وزيرها

ثم إن هارون أمر يحيى بن خالد أن لا يقطع أمراً إلا بمشورة والدته الخبزران . فكانت هي المشاورة في الأمور كلها ، فنهزم وتحمل وتمضى وتحكم .

وفيها أمر الرشيد بسهم ذوى القربى أن يقسم بين بنى هاشم على السواء . وفيها تتبع الرشيد خنقاً من الزنادقة قتل منهم طائفة كثيرة . وفيها خرج عليه بعض أهل البيت . وفيها ولد الأمين محمد بن الرشيد ابن زبيدة . وذلك يوم الجمعة لست عشرة ليلة خلت من شوال من هذه السنة . وفيها كل بناء مدينة طرسوس على يدى فرج الخادم التركى ونزلها الناس . وفيها حج بالناس أمير المؤمنين الرشيد ، وأعطى أهل الحرمين أموالاً كثيرة ، ويقال إنه غزا في هذه السنة أيضاً . وفي ذلك يقول داود بن رزين الشاعر : -

بهارونَ لاحَ النورُ في كلِّ بلدةٍ * وقامَ بهِ في عدلٍ سيرتهُ النهجُ
إمامٌ بذاتِ اللهِ أصبحَ شغلُهُ * وأكثُرُ ما يعنى بهِ للغزوِ والحجُ
تضيّقُ عيونُ الناسِ عن نورِ وجههِ * إذا ما بدا للناسِ منظرُهُ البليغُ
وإنَّ أمينَ اللهِ هارونَ ذا النداءِ * ينيلُ الذى يرجوه أضعافَ ما يرجو
وغزا الصائفةَ فيها سليمان بن عبد الله البكائى .

ذكر من توفي فيها من الأعيان

الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم أبو عبد الرحمن الفراهيدى ، ويقال الفرهودى الأزدى ، شيخ للنحاة ، وعنه أخذ سيبويه والنضر بن شميل ، وغير واحد من أكابرهم ، وهو الذى اخترع علم العروض . قسمه إلى خمس دوائر وفرعه إلى خمسة عشر بجرأ ، وزاد الأخفش فيه بجرأ آخر وهو الخبيب ، وقد قال بعض الشعراء : -

قد كانَ شعرُ الورى صحيحاً * من قبلِ أن يخلقَ الخليلُ

وقد كان له معرفة بعلم النغم ، وله فيه تصنيف أيضاً ، وله كتاب العين فى اللغة ، ابتدأه وأكمله النضر بن شميل وأضرابه من أصحاب الخليل ، كئورج السدوسى ، ونصر بن على الجهمضى . فلم يناسبوا ما وضعه الخليل . وقد وضع ابن درستويه كتاباً وصف فيه ما وقع لهم من الخلل فأفاد . وقد كان الخليل رجلاً صالحاً عاقلاً وقوراً كاملاً ، وكان متقللاً من الدنيا جداً ، صبوراً على خشونة العيش وضيقه ، وكان يقول : لا يجاوزهمى ما وراء بابى ، وكان ظريفاً حسن الخلق ، وذكر أنه اشتغل رجل عليه فى العروض وكان بعيد الذهن فيه ، قال فقلت له يوماً : كيف تقطع هذا البيت ؟

إذا لم تستطع شيئاً فدعه * وجاوزهُ إلى ما تستطيعُ

فشرع معى فى تقطيعه على قدر معرفته ، ثم إنه نهض من عندى فلم يعد إلى ، وكأنه فهم ما أشرت

إليه . ويقال إنه لم يسم أحد بعد النبي (ص) ، بأحد سوى أبيه . روى ذلك عن أحمد بن أبي خيثمة والله أعلم . ولد الخليل سنة مائة من الهجرة ، ومات بالبصرة سنة سبعين ومائة على المشهور ، وقيل سنة ستين ، وزعم ابن الجوزي في كتابه شذور العقود أنه توفي سنة ثلاثين ومائة ، وهذا غريب جداً . والمشهور الأول .

وفيها توفي الربيع بن سليمان بن عبد الجبار بن كامل المرادي مولاهم ، المصري المؤدب راوية الشافعي ، وآخر من روى عنه . وكان رجلاً صالحاً تفرس فيه الشافعي وفي البيهقي والمزني وابن عبد الحكم العلم فوافق ذلك ما وقع في نفس الأمر . ومن شعر الربيع هذا :

صبراً جميلاً ما أسرع الفرجا * من صدق الله في الأمور نجاً
من خشي الله لم ينله أذى * ومن رجا الله كان حيث رجا

فأما الربيع بن سليمان بن داود الجيزي فإنه روى عن الشافعي أيضاً . وقد مات في سنة ست وخسين ومائتين والله أعلم .

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين ومائة

فيها أضاف الرشيد الخاتم إلى يحيى بن خالد مع الوزارة . وفيها قتل الرشيد أبا هريرة محمد بن فروخ نائب الجزيرة صبراً في قصر الخلد بين يديه . وفيها خرج الفضل بن سعيد الحروري قتل . وفيها قدم روح بن حاتم نائب إفريقية . وفيها خرجت الخيزران إلى مكة فأقامت بها إلى أن شهدت الحج ، وكان الذي حج بالناس فيها عبد الصمد بن علي عم الخلفاء .

ثم دخلت سنة ثنتين وسبعين ومائة

فيها وضع الرشيد عن أهل العراق العشر الذي كان يؤخذ منهم بعد النصف . وفيها خرج الرشيد من بغداد يرتاد له موضعاً يسكنه غير بغداد فتشوش فرجع . وفيها حج بالناس يعقوب بن أبي جعفر المنصور عم الرشيد . وفيها غزا الصائفة إسحاق بن سليمان بن علي .

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين ومائة

فيها توفي بالبصرة محمد بن سليمان فأمر الرشيد بالاحتياط على حواصله التي تصلح للخلفاء ، فوجدوا من ذلك شيئاً كثيراً من الذهب والفضة والأمتعة وغير ذلك ، فنضدوه ليستعان به على الحرب وعلى مصالح المسلمين . وهو محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس ، وأمه أم حسن بنت جعفر بن حسن بن علي ، وكان من رجالات قریش وشجعانهم . جمع له المنصور بين البصرة والكوفة ، وزوجه المهدي ابنته العباسية . وكان له من الأموال شيء كثير ، كان دخله في كل يوم مائة ألف . وكان له خاتم من ياقوت أحمر لم يرمثه . وروى الحديث عن أبيه عن جده الأكبر ،

وهو حديث مرفوع في مسح رأس اليتيم إلى مقدم رأسه ، ومسح رأس من له أب إلى مؤخر رأسه .
وقد وفد على الرشيد فهناه بالخلافة فأكرمه وعظمه وزاده في عمله شيئاً كثيراً . ولما أراد الخروج
خرج معه الرشيد يشيعه إلى كواذا . توفي في جمادى الآخرة من هذه السنة عن إحدى وخمسين
سنة ، وقد أرسل الرشيد من اصعافى من ماله الصامت فوجد له من الذهب ثلاثة آلاف ألف دينار ،
ومن الدراهم ستة آلاف ألف ، خارجا عن الأملك .

وقد ذكر ابن جرير أن وفاته و وفاة الخيزران في يوم واحد ، وقد وقفت جارية من جواريه على
قبره فأنشأت تقول :

أسمى التراب لمن هويت مبيتا * القى التراب قفل له حيننا
إنا نحبك يا تراب وما بنا * إلا كرامة من عليه حيننا

وفيها توفيت الخيزران جارية المهدي وأم أمير المؤمنين الهادي والرشيد ، اشتراها المهدي
وحظيت عنده جداً ثم أعتقها وتزوجها وولدت له خليفتين : موسى الهادي والرشيد . ولم يتفق هذا
لغيرها من النساء إلا الولادة بنت العباس العباسية ، زوجة عبد الملك بن مروان ، وهي أم الوليد
وسليمان . وكذلك لشاه فرند بنت فيروز بن يزجرد ، ولدت لمولاه الوليد بن عبد الملك : مروان
وإبراهيم . وكلاهما ولي الخلافة . وقد روى من طريق الخيزران عن مولاه المهدي عن أبيه عن
جده عن ابن عباس عن النبي (ص) قال : « من أتى الله وقاه كل شيء » . ولما عرضت الخيزران
على المهدي ليشتريها أعجبته لإدقة في ساقها ، فقال لها : يا جارية إنك لعل غاية المني والجمال لولا
دقة ساقيك وخوشهما . فقالت : يا أمير المؤمنين إنك أحوج ماتكون البهائم لا تراها فاستحسن
جوابها واشتراها وحظيت عنده جداً . وقد حجب الخيزران مرة في حياة المهدي فكتب إليها وهي
بمكة يستوحش لها ويقشوق إليها بهذا الشعر : -

نحن في غاية السرور ولكن * ليس إلا بكم يتم السرور
عيب ما نحن فيه يا أهل ودي * أنكم غيب ونحن حضور
فأجدوا في السير بل إن قدرتم * أن تطيروا مع الرياح فطيروا
فأجابته أو أمرت من أجابه :

قد آتانا الذي وصفنا من الشو * ق فكنا وما قدرنا فطير
ليت أن الرياح كن يؤدين * إليكم ما قد يكن الضمير
لم أزل صبة فان كنت بعدى * في سرور فدام ذاك السرور

وذكروا أنه أهدى إليها محمد بن سليمان نائب البصرة الذي مات في اليوم الذي ماتت فيه مائة

وصيفة ، مع كل وصيفة جام من فضة مملوء مسكا . فكنتبت إليه : إن كان ما بعثته ثمنا عن ظننا فيك فظننا فيك أكثر مما بعثت ، وقد نجستنا في الثمن ، وإن كنت تريد به زيادة المودة فقد اتهمتنى في المودة . وردت ذلك عليه . وقد اشترت الدار المشهورة بها بمكة المعروفة بدار الخيزران ، فزادتها في المسجد الحرام .

وكان مغلّ ضياعها في كل سنة ألف ألف وستين ألفا . واتفق موتها ببغداد ليلة الجمعة لثلاث بقين من جمادى الآخرة من هذه السنة . وخرج ابنها الرشيد في جنازتها وهو حامل سريرها يخب في الطين . فلما انتهى إلى المقبرة أتى بماء فغسل رجله ولبس خفاً وصلى عليها ، ونزل لحدها . فلما خرج من القبر أتى بسرير فجلس عليه واستدعى بالفضل بن الربيع فولاه الخاتم والنفقات . وأنشد الرشيد قول ابن نورية حين دفن أمه الخيزران :

وكنا كندمانى جذبةً برهةً * من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأنى ومالكاً • لطول اجتماع لم نبت ليلةً معا

غادر

وفها توفيت :

جارية كانت لموسى الهادى ، كان يحبها حباً شديداً جداً ، وكانت تحسن الغناء جداً ، فبينما هى يوماً تغنيه إذ أخذته فكرة غيبته عنها وتغير لونه ، فسأله بعض الحاضرين : ما هذا يا أمير المؤمنين ؟ فقال : أخذتنى فكرة أنى أموت وأخى هارون يتولى الخلافة بعدى ويتزوج جارىقى هذه . ففداه الحاضرون ودعوا له بطول العمر . ثم استدعى أخاه هارون فأخبره بما وقع فعوذه الرشيد من ذلك ، فاستحلفه الهادى بالإيمان المغلظة من الطلاق والعناق والحج ماشياً حافياً أن لا يتزوجها ، فحلف له واستحلف الجارية كذلك فحلفت له ، فلم يكن إلا أقل من شهرين حتى مات ، ثم خطبها الرشيد فقالت : كيف بالإيمان التى حلفناها أنا وأنت ؟ فقال : إنى أكفر عنى وعنك . فتزوجها وحظيت عنده جداً ، حتى كانت تنام فى حجره فلا يتحرك خشية أن يرعبها . فبينما هى ذات ليلة نائمة إذ انتبهت مذعورة تبكى ، فقال لها : ما شأنك ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين رأيت الهادى فى منامى هذا وهو

يقول :

أخلفت عهدى بعد ما * جاورت سكان المقابر
ونسيتى وحننت فى * أيمانك الكذب الفواجر
ونكحت غادرةً أخى * صدق الذى سلك غادر
أسميت فى أهل البلى * وعددت فى الموتى الغواجر
لا يهنك الألف الجديد * دولا تدر عنك الدوائر
ولحقت بى قبل الصبا * حوصرت حيث غدت صائر

فقال لها الرشيد : أضغاث أحلام . فقالت : كلا والله يا أمير المؤمنين ، فكأنما كتبت هذه الأبيات في قلبي . ثم ما زالت ترتمد وتضطرب حتى ماتت قبل الصباح . وفيها ماتت :
 هيلانة جارية الرشيد ، وهو الذي سماها هيلانة لكثرة قولها هي لانه . قال الأصمعي : وكان
 دما محبباً ، وكانت قبله لخالد بن يحيى بن برمك ، فدخل الرشيد يوماً منزله قبل الخلافة فاعترضته في
 طريقه وقالت : أماننا منك نصيب ؟ فقال : وكيف السبيل إلى ذلك ؟ فقالت : استوهبني من هذا
 الشيخ . فاستوهبها من يحيى بن خالد فوهبها له وحظيت عنده ، ومكثت عنده ثلاث سنين ثم
 توفيت فحزن عليها حزناً شديداً ورثاها وكان من قوله فيها : —

قد قلت لما ضمنوك الثرى * وجالت الحسرة في صدري
 اذهب فلاق الله لا سرنى * بمدك شيء آخر الدهر
 وقال العباس بن الأحنف في موتها :

يامن تبشرت القبور بموتها * قصد الزمان مساء في فرماك
 أبني الأنيس فما أرى لي مؤنساً * إلا التردد حيث كنت أراك
 قال : فأمر له الرشيد بأربعين ألفاً ، لكل بيت عشرة آلاف ، فله أعلم .
 ثم دخلت سنة أربع وسبعين ومائة من الهجرة

فيها وقعت عصبية بالشام ونجيبط من أهلها . وفيها استقضى الرشيد يوسف ابن القاضي أبي
 يوسف وأبوه يحيى . وفيها غزا الصائفة عبد الملك بن صالح فدخل بلاد الروم . وفيها حج بالناس
 الرشيد ، فلما اقترب من مكة بلغه أن فيها وباء فلم يدخل مكة حتى كان وقت الوقوف وقف ثم جاء
 المزدلفة ثم منى ثم دخل مكة فطاف وسعى ثم ارتحل ولم ينزل بها .

ثم دخلت سنة خمس وسبعين ومائة

فيها أخذ الرشيد بولاية العهد من بعده لولده محمد بن زبيدة وسماه الأمين ، وعمره إذ ذاك خمس
 سنين ، فقال في ذلك سلم الخامس :

قد وفق الله الخليفة إذ بني * بيت الخلافة للهجان الأزهر
 فهو الخليفة عن أبيه وجم * شهدا عليه بمنظري وبمخبر
 قد بايع الثقلان في مهد الهدى * لمحمد بن زبيدة ابنة جعفر

وقد كان الرشيد يتوهم النجاة والرجاحة في عبد الله المأمون ، ويقول : والله إن فيه حزم
 المنصور ، ونسك المهدي ، وعزة نفس الهادي . ولو شئت أن أقول الرابعة منى لقلت ، وإني لأقدم
 محمد بن زبيدة وإني لأعلم أنه متبع هواه ولكن لا أستطيع غير ذلك . ثم أنشأ يقول :

لقد بان وجه الرأي لي غير أني * غلبت على الأمر الذي كان أحزما
وكيف يرد الأمر في الضرع بعدما * نوزع حتى سار نهياً مقسما
أخاف التواء الأمر بعد استوائه * وأن ينقض الأمر الذي كان أبرما
وغزا الصائفة عبد الملك بن صالح ، في قول الواقدي . وحج بالناس الرشيد . وفيها سار يحيى
ابن عبد الله بن حسن إلى الديلم ونحرك هناك . وفيها توفي من الأعيان .

شعوانة العابدة الزاهدة

كانت أمة سوداء كثيرة العبادة ، روى عنها كلمات حسان ، وقد سألتها الفضيل بن عياض الدعاء
فقلت : أما بينك وبينه ما إن دعوته استجاب لك ؟ فشق الفضيل ووقع مفشياً عليه . وفيها توفي
الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي مولاهم . قال ابن خلكان : كان مولى قيس بن رفاعه
وهو مولى عبد الرحمن بن مسافر الفهمي ، كان الليث إمام الديار المصرية بلا مدافعة ، وولد
بقرقشدة من بلاد مصر سنة أربع وتسعين . وكانت وفاته في شعبان من هذه السنة ، ونشأ بالديار
المصرية . وقال ابن خلكان : أصله من قرقشدة وضبطه بلامين الثانية متحركة . وحكى عن بعضهم
أنه كان جيد الذهن ، وأنه ولي القضاء بمصر فلم يحمدا ذهبه بعد ذلك ، ولد سنة أربع وعشرين
ومائة ، وذلك غريب جداً . وذكروا أنه كان يدخله من ملكه في كل سنة خمسة آلاف دينار .
وقال آخرون : كان يدخله من الغلة في كل سنة ثمانون ألف دينار ، وما وجبت عليه زكاة ، وكان
إماماً في الفقه والحديث والعربية . قال الشافعي : كان الليث أفقه من مالك إلا أنه ضيعه أصحابه .
وبعث إليه مالك يستهديه شيئاً من العصف لأجل جهاز ابنته ، فبعث إليه بثلاثين حملاً ، فاستعمل
منه مالك حاجته وباع منه بخمسة دنانير ، وبقيت عنده منه بقية . وحج مرة فأهدى له مالك طبقاً
فيه رطب فرد الطبق وفيه ألف دينار . وكان يهب للرجل من أصحابه من العلماء الألف دينار وما
يقارب ذلك . وكان يخرج إلى الاسكندرية في البحر هو وأصحابه في مركب ومطبخه في مركب .
ومناقبه كثيرة جداً . وحكى ابن خلكان أنه سمع قائلاً يقول يوم مات الليث :
ذهب الليث فلا ليث لكم * ومضى العلم غريباً وقبر
فالتفتوا فلم يروا أحداً . وفيها توفي :

المنذر بن عبد الله بن المنذر

القرشي ، عرض عليه المهدي أن يلي القضاء ويعطيه من بيت المال مائة ألف درهم ، فقال : إني
عاهدت الله أن لا ألى شيئاً ، وأعيد أمير المؤمنين بالله أن أخيس بمهدي . فقال له المهدي : الله ؟
قال : الله . قال : انطلق قد أعفيتك .

ثم دخلت سنة ست وسبعين ومائة

فيها كان ظهور يحيى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب بيلاد الديلم ، واتبعه خلق كثير وجم غفير ، وقويت شوكته ، وارتحل إليه الناس من السكور والأمصار ، فارتزعج لذلك الرشيد وخلق من أمره ، فندب إليه الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك في خمسين ألفاً ، وولاه كور الجبل والري وجرجان وطبرستان وقومس وغير ذلك . فسار الفضل بن يحيى إلى تلك الناحية في أبهة عظيمة ، وكتب الرشيد تلحقه مع البرد في كل منزلة ، وأنواع التحف والبر ، وكان الرشيد صاحب الديلم ووعده بألف ألف درهم إن هو سهل خروج يحيى إليهم ، وكتب الفضل إلى يحيى بن عبد الله يمدد ويمنيه ويؤمله ويرجيه ، وأنه إن خرج إليه أن يقيم له المنزلة عند الرشيد . فامتنع يحيى أن يخرج إليهم حتى يكتب له الرشيد كتاب أمان بيده . فكتب الفضل إلى الرشيد بذلك ففرح الرشيد ووقع منه موقعا عظيما . وكتب الأمان بيده وأشهد عليه القضاة الفقهاء ومشيخة بني هاشم ، منهم عبد الصمد بن علي ، وبعث الأمان وأرسل معه جوائز ونحفا كثيرة إليهم ، ليدفعوا ذلك جميعه إليه . ففعلوا وسلمه إليه فدخلوا به بغداد ، وتلقاه الرشيد وأكرمه وأجزل له في العطاء ، وخدمه آل برمك خدمة عظيمة ، بحيث إن يحيى بن خالد كان يقول : خدمته بنفسى وولدى : وعظم الفضل عند الرشيد جداً بهذه الفعلة حيث سعى بالصلح بين العباسيين والفاطميين ، ففي ذلك يقول مروان ابن أبي حفصة يمدح الفضل بن يحيى ويشكره على صنيعه هذا :

ظفرت فلا شلت يد برمكية * رقت بها الفتق الذى بين هاشم
على حين أعيا الراغبين التمام * فكفوا وقالوا ليس بالتسلام
فأصبحت قد طارت يداك بخطرة * من المجد باق ذكرها فى المواسم
وما زال قدح الملك يخرج قاراً * لكم كلما ضمت قداح المسام

قالوا : ثم إن الرشيد تنكر ليحيى بن عبد الله بن حسن وتغير عليه ، ويقال : إنه سجنه ثم استحضره وعنده جماعات من الهاشمين ، وأحضر الأمان الذى بعث به إليه فسأل الرشيد محمد بن الحسن عن هذا الأمان أصحیح هو ؟ قال : نعم ! فتغيظ الرشيد عليه . وقال أبو البختري : ليس هذا الأمان بشئ فاحكم فيه بما شئت ، ومزق الأمان . وبصق فيه أبو البختري ، وأقبل الرشيد على يحيى بن عبد الله فقال : هيه هيه ، وهو يبسم تبسم الغضب ، وقال : إن الناس يزعمون أنا سممناك . فقال يحيى : يا أمير المؤمنين إن لنا قرابة ورحما وحقا ، فسلام تمذبنى وتجبسنى ؟ فرق له الرشيد ، فاعترض بكار بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير فقال : يا أمير المؤمنين لا يفرنك هذا الكلام من هذا ، فانه عاص شاق ، وإنما هذا منه مكر وخبت . وقد أفسد علينا مدينتنا وأظهر

ففيها العصيان فقال له يحيى : ومن أنتم عافاكم الله ؟ وإنما هاجر أبوك إلى المدينة بآبائى وآباء هذا
ثم قال يحيى : يا أمير المؤمنين لقد جاءنى هذا حين قتل أختى محمد بن عبد الله فقال : لعن الله قاتله ،
وأشدنى فيه نحواً من عشرين بيتاً ، وقال لى ، إن تحركت إلى هذا الأمر فأنا أول من يبايئك ،
وما بمنك أن تلحق بالبصرة وأيدينا معك ؟ قال : فتغير وجه الرشيد ووجه الزبيرى وأنكر وشرع
يحلف بالآيمان المغلظة إنه لكاذب فى ذلك ، وتحير الرشيد . ثم قال ليحيى : انحفظ شيئاً من
المرئية ؟ قال : نعم . وأنشده منها جانباً . فآزاد الزبيرى فى الانكار ، فقال له يحيى بن عبد الله :
فقل : إن كنت كاذباً فقد برئت من حول الله وقوته ، ووكلنى الله إلى حولى وقوته . فامتنع من
الحلف بذلك ، فعزم عليه الرشيد وتقيظ عليه ، فحلف بذلك فما كان إلا أن خرج من عند الرشيد
فرماده الله بالفالج فمات من ساعته . ويقال إن امرأته غمت وجهه بمخدة فقتله الله .

ثم إن الرشيد أطلق يحيى بن عبد الله وأطلق له مائة ألف دينار ، ويقال إنما حبسه بعض يوم
وقبل ثلاثة أيام . وكان جملة ما وصله من المال من الرشيد أربع مائة ألف دينار من بيت المال ، وعاش
بعد ذلك كله شهراً واحداً ثم مات رحمه الله .

وفيها وقعت فتنة عظيمة بالشام بين النزارية ، وهم قيس ، واليمانية وهم يمن ، وهذا كان أول بدو
أمر العشيرتين بحوران ، وهم قيس ويمن ، أعادوا ما كانوا عليه فى الجاهلية فى هذا الآن . وقتل
متهم فى هذه السنة بشر كثير . وكان على نيابة الشام كلها من جهة الرشيد ابن عمه موسى بن عيسى ،
وقيل عبد الصمد بن على فأنه أعلم . وكان على نيابة دمشق بمخصوصها سندی بن سهل أحد موالى
جمفر المنصور ، وقد هدم سور دمشق حين ثارت الفتنة خوفاً من أن يتغلب عليها أبو الهيثم المزى
رأس القيسية ، وقد كان مزى هذا دميم الخلق . قال الجاحظ : وكان لا يحلف المكارى ولا الملاح
ولا الحائك ، ويقول : القول قولهم ، ويستخير الله فى الحال ومعلم الكتاب . وقد توفى سنة أربع
ومائتين . فلما تفاقم الأمر بعث الرشيد من جهته موسى بن يحيى بن خالد ومعه جماعة من القواد
ورؤس الكتاب ، فأصلحوا بين الناس وهدأت الفتنة واستقام أمر الرعية ، وحلوا جماعات من
رؤس الفتنة إلى الرشيد فرد أمرهم إلى يحيى بن خالد فعفا عنهم وأطلقهم ، وفى ذلك يقول بعض
الشعراء :

قد هاجت الشام هيجاً * يشيب رأس وليدة

فصب موسى عليها * بخيل وجنود

فدانت الشام لما * أتى بسنح وحيدة

هذا الجواد الذى * نكح كل جود بجودة

أعداهُ جودُ أبيه * يحيى وجودُ جدوده
 فجَادَ موسى بن يحيى * بطارفٍ وتليده
 ونالَ موسى ذرى الحج * لم وهو حشو مهوده
 خصصته بمديحي * منشوره وقصيده
 من البرامك عوداً * له فأكرم بعوده
 حووا على الشعر طراً * خفيفه ومديده

وفيهما عزل الرشيد الفطريف بن عطاء عن خراسان وولاهما حمزة بن مالك بن الهيثم الخزاعي الملقب بالعروس . وفيها ولي الرشيد جعفر بن يحيى بن خالد نيابة مصر ، فاستناب عليها جعفر عمر بن مهران ، وكان ردئ الخلق ردئ الشكل زمن الكف أحول ، وكان سبب ولايته إياها أن نائبا موسى ابن عيسى كان قد عزم على خلع الرشيد . فقال الرشيد : والله لأعزلنه ولأولين عليها أحسن الناس . فاستدعى عمر بن مهران هذا فولاه عليها عن نائبه جعفر بن يحيى البرمكي . فسار إليها على بغل وغلامه أبو درة على بغل آخر ، فدخلها كذلك فأنتهى إلى مجلس نائبا موسى بن عيسى فجلس في أخريات الناس ، فلما انفض الناس أقبل عليه موسى بن عيسى وهو لا يعرف من هو ، فقال : ألك حاجة يا شيخ ؟ قال : نعم أصلح الله الأمير . ثم دفع الكتب إليه فلما قرأها قال : أنت عمر بن مهران ؟ قال : نعم ! قال : لعن الله فرعون حين قال : أليس لي ملك مصر ؟ ثم سلم إليه العمل وارتحل منها ، وأقبل عمر بن مهران على عمله ، وكان لا يقبل شيئا من الهدايا إلا ما كان ذهباً أو فضة أو قاشاء ، ثم يكتب على كل هدية اسم مهديها ، ثم يطالب بالخراج ويلج في طلبه عليهم ، وكان بعضهم يماطله به ، فأقسم لا يماطله أحد إلا فعل به وفعل . فجمع من ذلك شيئا كثيراً ، وكان يبعث ما جمعه إلى بغداد ، ومن ماطله بعثه إلى بغداد . فتأدب الناس معه . ثم جاءهم القسط الثاني فمجز كثير منهم عن الأداء فجعل يستحضر ما كانوا أدوه إليه من الهدايا ، فإن كان نقداً أداه عنهم ، وإن كان برأ باعه وأداه عنهم ، وقال لهم : إني إنما ادخرت هذا لكم إلى وقت حاجتكم . ثم أكل استخراج جميع الخراج بديار مصر ولم يفعل ذلك أحد قبله ، ثم انصرف عنها لأنه كان قد شرط على الرشيد أنه إذا مهد البلاد وجب الخراج ، فذاك إذنه في الانصراف . ولم يكن معه بالديار المصرية جيش ولا غيره سوى مولاه أبو درة وحاجبه ، وهو منفذ أموره . وفيها غزا الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك ففتح حصناً . وفيها حجت زبيدة زوجة الرشيد ومعها أخوها ، وكان أمير الحج سليمان بن أبي جعفر المنصور عم الرشيد . وفيها توفي :

إبراهيم بن صالح

ابن علي بن عبد الله بن عباس ، كان أميراً على مصر ، توفي في شعبان . وإبراهيم بن هرمة

كان شاعراً . وهو إبراهيم بن علي بن سلمة بن عامر بن هرمه أبو إسحاق الفهرى المدنى ، وقد على المنصور
فى وفد أهل المدينة حين استوفدم عليه ، فجلسوا إلى ستر دون المنصور ، يرى الناس من ورائه
ولا يرونه ، وأبو الخصيب الحاجب واقف يقول : يا أمير المؤمنين هذا فلان الخطيب ، فيأمره فيخطب ،
ويقول : هذا فلان الشاعر فيأمره فينشد . حتى كان من آخرهم ابن هرمه هذا ، فسمعتة يقول : لا مرحباً
ولا أهلاً ولا أنعم الله بك حيناً . قال : قتلت : هلكت ، ثم استنشدنى فأنشدته قصيدتى التى أقول
فيها : سرى نوبة عند الصبا المتجابل^(١) * وقرب للبين الخليل المزايل
حتى انتهيت إلى قولى :

فأما التى أمنت^٢ يامن الردى * وأما الذى حاولت بالشكل فأكل

قال : فأمر برفع الحجاب فاذا وجهه كأنه فلقه قر ، فاستنشدنى بقية القصيدة وأمر لى بالقرب
بين يديه ، والجلوس إليه ، ثم قال : ويحك يا إبراهيم الولا ذنوب بلغت عنك لفضلتك على أصحابك ،
قتلت : يا أمير المؤمنين كل ذنب بلغت عنى لم تغ عنه فأنا مقرب به . قال : فتناول المحصرة فصربنى
بها ضربتين وأمر لى بعشرة آلاف وخلمة وعقاعنى وألحقنى بنظرائى . وكان من جملة ما نتم المنصور
عليه قوله : ومهما ألام على جهنم * فانى أحب بنى طاطمة
بنى بنتر من جاء بالحكما * تر وبالدين وبالسنة القائمة
فلست أبلى بحبى لهم * سوام من النعم السائمة

قال الأخفش . قال لنا ثعلب قال الأصمى : ختمت الشعراء بابن هرمه . ذكر وفاته فى هذه السنة
أبو الفرج ابن الجوزى . وفيها توفى الجراح بن مليح والد وكيع بن الجراح ، وسعيد بن عبد الرحمن
ابن عبد الله بن جميل أبو عبد الله المدينى ، ولى قضاء بغداد سبعة عشر سنة لعسكر المهدي ، وثقه ابن
معين وغيره . وفيها توفى : صالح بن بشير المرمى

أحد العباد الزهاد ، كان كثير البكاء وكان يعظ فيحضر مجلسه سفيان الثورى وغيره من العلماء ،
ويقول : سفيان هذا نذير قوم ، وقد استدعاه المهدي ليحضر عنده فجاء إليه راكبا على حمار فدنا من
بساط الخليفة وهو راكب فأمر الخليفة ابنه - ولى العهد من بعده موسى الهادى وهارون الرشيد - أن
يقوما إليه لينزلاه عن دابته ، فابتدراه فأنزلاه ، فأقبل صالح على نفسه فقال : لقد خبت وخسرت إن
أنا داهنت ولم أصدع بالحق فى هذا اليوم ، وفى هذا المقام . ثم جلس إلى المهدي فوعظه موعظة بليغة
حتى أبكاه ، ثم قال له : أعلم أن رسول الله (ص) خصم من خالفه فى أمته ، ومن كان محمد ختمه كان
الله خصمه ، فأعد لخاصمة الله ومخاصمة رسوله حججاً تضمن لك النجاة ، وإلا فاستسلم للهلكة ، وأعلم
أن أبطأ الصرعى نهضة صريع هوى بدعته ، وأعلم أن الله قاهر فوق عباده ، وأن أثبت الناس قدما

(١) كذا ولعل فيه تحريفاً .

أخذهم بكتاب الله وسنة رسوله ، وكلام طويل . فبكى المهدي وأمر بكتابة ذلك الكلام في دواوينه . وفيها توفي عبد الملك بن محمد بن محمد بن أبي بكر عمرو بن حزم قدم قاضياً بالعراق . وفرج بن فضالة التنوخي الحنصلي ، كان على بيت المال ببغداد في خلافة الرشيد ، فتوفي في هذه السنة ، وكان مولده سنة ثمان وثمانين . مات وله ثمان وثمانون سنة . ومن مناقبه أن المنصور دخل يوماً إلى قصر الذهب فقام الناس إلا فرج بن فضالة فقال له وقد غضب عليه : لم لم تقم ؟ قال : خفت أن يسألني الله عن ذلك ويسألك لم رضيت بذلك ، وقد كره رسول الله صلى الله عليه وسلم القيام للناس . قال : فبكى المنصور وقر به وقضى حوائجه . والمسيد بن زهير بن عمرو أبو سلمة الضبي ، كان والي الشرطة ببغداد في أيام المنصور والمهدي والرشيد ، وولي خراسان مرة للمهدي . عاش ستاً وتسعين سنة . والوضاح بن عبد الله أبو عوانة السري مولاهم ، كان من أئمة المشايخ في الرواية . توفي في هذه السنة وقد جاوز الثمانين .

ثم دخلت سنة سبع وسبعين ومائة

فيها عزل الرشيد جعفر البرمكي عن مصر وولى عليها إسحاق بن سليمان ، وعزل حمزة بن مالك عن خراسان وولى عليها الفضل بن يحيى البرمكي مضافاً إلى ما كان بيده من الأعمال بالري وسجستان وغير ذلك . وذكر الواقدي أنه أصاب الناس ريح شديدة وظلمة في أواخر المحرم من هذه السنة ، وكذلك في أواخر صفر منها . وفيها حج بالناس الرشيد . وفيها توفي (شريك بن عبد الله) القاضي الكوفي النخعي ، سمع أبا إسحاق وغير واحد ، وكان مشكوراً في حكمة وتنفيذ الأحكام ، وكان لا يجلس للحكم حتى يتغدى ثم يخرج ورقة من خفه فينظر فيها ثم يأمر بتقديم الخصومة إليه ، فحرص بعض أصحابه على قراءة ما في تلك الورقة فإذا فيها يا شريك بن عبد الله اذكر الصراط وحدته يا شريك بن عبد الله اذكر الموقف بين يدي الله عز وجل . كانت وفاته يوم السبت مستهل ذي القعدة منها . وفيها توفي عبد الواحد بن زيد ، ومحمد بن مسلم وموسى بن أعين .

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين ومائة

فيها وثبت طائفة من الحوفية من قيس وقضاة على عامل مصر إسحاق بن سليمان فقاتلوه وجرت فتنة عظيمة فبعث الرشيد هرثة بن أعين نائب فلسطين في خلق من الأمراء مدداً لإسحاق ، فقاتلهم حتى أذعنوا بالطاعة وأدوا ما عليهم من الخراج والوظائف ، واستمر هرثة نائباً على مصر نحواً من شهر عوضاً عن إسحاق بن سليمان ، ثم عزله الرشيد عنها وولى عليها عبد الملك بن صالح . وفيها وثبت طائفة من أهل إفريقية فقتلوا الفضل بن روح بن حاتم وأخرجوا من كان بها من آل المهلب ، فبعث إليهم الرشيد هرثة فرجعوا إلى الطاعة على يديه . وفيها فوض الرشيد أمور الخلافة كلها إلى يحيى بن خالد بن برمك . وفيها خرج الوليد بن طريف بالجزيرة وحكم بها وقتل خلقاً من أهلها ، ثم

مضى منها إلى أرمينية فكان من أمره ما سذكروه . وفيها سار الفضل بن يحيى إلى خراسان فأحسن السيرة فيها وبنى فيها الربط والمساجد ، وغزا ما وراء النهر ، واتخذ بها جنداً من المعجم سمام العباسية ، وجعل ولادهم له ، وكانوا نحواً من خمسمائة ألف ، وبعث منهم نحواً من عشرين ألفاً إلى بغداد ، فكانوا يعرفون بها بالكرمينية ، وفي ذلك يقول مروان بن أبى حفصة :

ما الفضلُ إلا شهابٌ لا أقولُ لهُ * عند الحروب إذا ما تَأفَّلُ الشَّهْبُ
حلمٍ على مُلكِ قومٍ غرَّ سَهْمُ * من الوراثة في أيديهم سببُ
أُمتٍ يَدْرِي ساقِ الحبيبِ بها * كَنائِبَ ما لها في غيرهم أربُ
كَنائِبَ لبني العباسِ قد عرفتُ * ما أَلَفَ الفضلُ منها المعجم والعربُ
أُتِبَتْ خمسٌ مئينٍ في عدادهمُ * من الألوْفِ التي أَحصَتْ لها الكتبُ
يقارعونَ عَنِ القومِ الذين همُ * أولى بأحدٍ في الفرقانِ إنْ نسبوا
إن الجوادُ ابنُ يحيى الفضلُ لا ورقٌ * يبقى على جودٍ كَفِيهِ ولا ذهبُ
ما مرَّ يومٌ له منذُ شَدَّ مِزرَهُ * إلا تَمُولُ أقوامٌ بما يهبُ
كَمَ غايةٍ في الندى والبأسِ أحرزها * للطالِبِينَ مَداها دُونها نَعْبُ
يُعطى النهى حين لا يعطى الجوادُ ولا * يَنْبُو إذا سَلَّتِ الهِنْدِيَّةُ القُضْبُ
ولا الرضى والرضى لله غايتهُ * إلى سوى الحقِ يدعوهُ ولا الفضْبُ
قد فَاضَ عِرْفَكَ حتى ما يعادلهُ * غَيْثٌ مَغِيثٌ ولا بِحَرْلهُ حَبُ

وكان قد أنشده قبل خروجه إلى خراسان :

ألم تر أن الجودَ من يذر آدمُ * تحدّح حتى صار في راحة الفضلِ
إذا ما أبو العباسِ سَحَتْ سِماؤُهُ * فَيَالِكَ مِنْ هَظْلٍ وَيَالِكَ مِنْ وَبْلِ
وقال فيه أيضاً :

إذا أم طفلٍ راعها جوعٌ طفلها * دَعَتْهُ باسمِ الفضلِ فاعْتَصَمَ الطُفْلُ
ليحيى بكَ الاسلامَ إنك عزه * وإِنَّكَ مِنْ قومٍ صَغِيرٍ كَهْلُ
قال فأمر له بمائة ألف درهم . ذكره ابن جرير . وقال سلم الخالسر فيهم أيضاً :
وكيف تخافُ مِنْ بؤسٍ بدارٍ * يجاورها (١) البرامكةُ البحورُ
وقومٌ منهم الفضلُ بنُ يحيى * نَفِيرُهُ ما يوازنُهُ نَفِيرُ
لهُ يومانِ يومٌ ندى وبأسٍ * كأنَّ الدهرَ بينهما أُسِيرُ

(١) في المصرية والطبرى : تكنفها .

إذا ما البرمكي غدا ابنَ عشرٍ • فهمته أميرٌ أو وزيرٌ

وقد اتفق للفضل في هذه السفرة إلى خراسان أشياء غريبة ، وفتح بلادا كثيرة ، منها كابل وما وراء النهر ، وقهر ملك الترك وكان ممتعا ، وأطلق أموالا جزيلة جداً ، ثم قفل راجعا إلى بغداد ، فلما اقترب منها خرج الرشيد وجوه الناس إليه ، وقدم عليه الشعراء والخطباء وأكابر الناس ، فجعل يطلق الألف ألف ، والخمسمائة ألف ونحوها ، وأنفد في ذلك من الأموال شيئا كثيرا لا يمكن حصره إلا بتعب وكلفة ، وقد دخل عليه بعض الشعراء والبدر موضوعة بين يديه وهي تفرق على الناس فقال :

كفى الله بالفضل بن يحيى بن خالدٍ * وجودَ يديه بخُلٍ كلٍ بخيلٍ

فأمر له بمال جزيل . وغزا الصائفة في هذه السنة معاوية بن زفر بن عاصم . وغزا الشامية سليمان ابن راشد . وحج بالناس فيها محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس نائب مكة . وفيها توفي جعفر بن سليمان ، وعنتر بن القاسم ، وعبد الملك بن محمد بن أبي بكر بن عمرو بن حزم القاضي ببغداد ، وصلى عليه الرشيد ودفن بها ، وقد قيل إنه مات في التي قبلها فله الله أعلم .

ثم دخلت سنة تسع وسبعين ومائة

فيها كان قدوم الفضل بن يحيى من خراسان وقد استخلف عليها عمر بن جميل ، فولى الرشيد عليها منصور بن يزيد بن منصور الحميري . وفيها عزل الرشيد خالد بن برمك عن الحجابة وردّها إلى الفضل بن الربيع . وفيها خرج بخراسان حمزة بن أترك السجستاني ، وكان من أمره ما سيأتي طرف منه . وفيها رجع الوليد بن طريف الشاري إلى الجزيرة واشتدت شوكته وكثر أتباعه ، فبعث إليه الرشيد يزيد بن مزيد الشيباني فراوغه حتى قتله وتفرق أصحابه ، فقالت الفارعة في أخيها الوليد ابن طريف تربيته :

أيا شجرَ الخابورِ مالكٌ مُورِقاً * كأنك لم تجزعْ على ابنِ طريفٍ
فتى لا يحبُّ الزادَ إلّا منَ الثقي * ولا المالَ إلّا منَ قنأٍ وسُيوفٍ

وفيها خرج الرشيد معتمراً من بغداد شكرًا لله عز وجل ، فلما قضى عمرته أقام بالمدينة حتى حج بالناس في هذه السنة ، فشئ من مكة إلى منى ثم إلى عرفات ، وشهد المشاهد والمشاعر كلها ماشياً ، ثم انصرف إلى بغداد على طريق البصرة . وفيها توفي :

اسماعيل بن محمد

ابن يزيد بن ربيعة أبو هاشم الحميري الملقب بالسيد ، كان من الشعراء المشهورين المبرزين فيه ، ولكنه كان رافضياً خبيثاً ، وشيعياً غثيثاً ، وكان ممن يشرب الخمر ويقول بالرجعة - أي بالدور - قال يوماً لرجل : أقرضني ديناراً ولك عندي مائة دينار إذا رجعنا إلى الدنيا . فقال له

الرجل : إني أخشى أن تعود كلباً أو خنزيراً فيذهب دينارى .

وكان قبحه الله يسب الصحابة في شعره . قال الأصمى : ولولا ذلك ما قدمت عليه أحداً في طبقته ، ولا يسب الشيخين وابنيهما . وقد أورد ابن الجوزى شيئاً من شعره في ذلك كرهت أن أذكره لبشاعته وشناعته ، وقد اسود وجهه عند الموت وأصابه كرب شديد جداً . ولما مات لم يدفنه لسهبه الصحابة رضى الله عنهم . وفيها توفي . حماد بن زيد

أحد أئمة الحديث . وخالد بن عبد الله أحد الصالحاء ، كان من سادات المسلمين ، اشترى نفسه من الله أربع مرات . ومالك بن أنس الامام ، والهقل بن زياد صاحب الأوزاعي ، وأبو الأحوص . وكلهم قد ذكرناهم في التكميل .
والامام مالك

هو أشهرهم وهو أحد الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة ، فهو مالك بن أنس بن مالك بن عامر بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن غيلان بن حشد بن عمرو بن الحارث ، وهو ذو أصبح الحميري ، أبو عبد الله المدني إمام دار الهجرة في زمانه ، روى مالك عن غير واحد من التابعين ، وحدث عنه خلق من الأئمة ، منهم السفينان ، وشعبة ، وابن المبارك ، والأوزاعي ، وابن مهدي وابن جريج والليث والشافعي والزهرى شيخه ، ويحيى بن سعيد الأنصارى وهو شيخه ، ويحيى بن سعيد القطان ، ويحيى بن يحيى الأندلسى ، ويحيى بن يحيى النيسابورى . قال البخارى : أصبح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر . وقال سفينان بن عيينة : ما كان أشد انتقاده للرجال . وقال يحيى بن معين : كل من روى عنه مالك فهو ثقة ، إلا أبا أمية . وقال غير واحد : هو أثبت أصحاب نافع والزهرى . وقال الشافعى : إذا جاء الحديث فمالك النجم . وقال : من أراد الحديث فهو عيال على مالك . ومناقبه كثيرة جداً ، وثناء الأئمة عليه أكثر من أن يحصر في هذا المكان . قال أبو مصعب : سمعت مالكا يقول : ما أفئت حتى شهد لى سبعون أئى أهل لذلك . وكان إذا أراد أن يحدث تنظف وتطيب وصرح لحينه ولبس أحسن ثيابه ، وكان يلبس حسناً . وكان نقش خاتمه حسي الله ونعم الوكيل ، وكان إذا دخل منزله قال : ما شاء الله لا قوة إلا بالله . وكان منزله مبسوطاً بأنواع المفارش . ومن وقت خروج محمد بن عبد الله بن حسن لزم مالك بيته فلم يكن يأتي أحداً لالعزاء ولا لهناء ، ولا يخرج لجمعة ولا لجماعة ، ويقول : ما كل ما يعلم يقال ، وليس كل أحد يقدر على الاعتذار ولما احتضر قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، ثم جعل يقول : لله الأمر من قبل ومن بعد ، ثم قبض في ليلة أربعة عشر من صفر ، وقيل من ربيع الأول من هذه السنة ، وله خمس وثمانون سنة . قال الواقدي : بلغ سبعين سنة ودفن بالبقيع . وقد روى الترمذى عن سفينان بن عيينة عن ابن جريج عن أبي الزبير عن أبي صالح عن أبي هريرة : « يوشك أن يضرب الناس أكبداً الأبل

يطلبون العلم فلا يجدون أحداً أعلم من عالم المدينة . ثم قال : هذا حديث حسن . وقد روى عن ابن عيينة أنه قال : هو مالك بن أنس . وكذا قال عبد الرزاق . وعن ابن عيينة رواية أنه عبد العزيز بن عبد الله العمري . وقد ترجمه ابن خلدكان في الوفيات فأطنب وأتى بفوائد جمة .

ثم دخلت سنة ثمانين ومائة

ففيها هاجت الفتنة بالشام بين النزارية واليمينية ، فانزعج الرشيد لذلك فندب جعفر البرمكي إلى الشام في جماعة من الأمراء والجنود ، فدخل الشام فاتقاد الناس له ولم يدع جعفر بالشام فرساً ولا سيفاً ولا رمحاً إلا استلبه من الناس ، وأطلقاً الله به نار تلك الفتنة . وفي ذلك يقول بعض الشعراء :

لقد أوقدت بالشام نيران فتنة * فهذا أوان الشام تحمد ناراها
إذا جاش موج البحر من آل برمك * عليها خبت شهبانها وشرارها
رماها أمير المؤمنين بجعفر * وفيه تلافى صدعها وانكسارها
رماها بميمون النقيب ماجد * تراضى به قحطائها ونزارها

ثم كر جعفر راجعاً إلى بغداد بعد ما استخلف على الشام عيسى العكي ، ولما قدم على الرشيد أكرمه وقربه وأدناه ، وشرع جعفر يذ كر كثرة وحششته له في الشام ، ويحمد الله الذي من عليه برجوعه إلى أمير المؤمنين ورؤيته وجهه . وفيها ولي الرشيد جعفر آ خراسان وسجستان فاستعمل على ذلك محمد بن الحسن بن قحطبة ، ثم عزل الرشيد جعفر آ عن خراسان بعد عشرين ليلة . وفيها هدم الرشيد سور الموصل بسبب كثرة الخوارج ، وجعل الرشيد جعفر آ على الحرس ، ونزل الرشيد الرقة واستوطنتها واستناب على بغداد ابنه الأمين محمداً وولاه العراقيين ، وعزل هرثمة عن إفريقية واستدعاه إلى بغداد فاستنابه جعفر على الحرس . وفيها كانت بمصر زلزلة شديدة سقط منها رأس منارة الاسكندرية . وفيها خرج بالجزيرة خراشة الشيباني فقتله مسلم بن بكار بن مسلم العقيلي . وفيها ظهرت طائفة بمرجان يقال لها الحمرة لبسوا الحررة واتبعوا رجلاً يقال له عمرو بن محمد العمركي ، وكان ينسب إلى الزندقة ، فبعث الرشيد يأمر بقتله فقتل وأطلقاً الله نارهم في ذلك الوقت . وفيها غزا الصائفة زفر بن عاصم . وحج بالناس موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس . وفيها كانت وفاة جماعة من الأعيان :

إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري

قاري أهل المدينة ومؤدب علي بن المهدي ببغداد . وقد مات علي بن المهدي في هذه السنة أيضاً . وقد ولي إمارة الحج غير مرة ، وكان أسن من الرشيد بشهور .

حسان بن أبي سنان

ابن أبي أوفى بن عوف التنوخي الأنباري ، ولد سنة ستين ، ورأى أنس بن مالك ودعا له فجاء من

نسله قضاة ووزراء وصلحاء ، وأدرك الدولتين الأموية والعباسية . وكان نصرانياً فأسلم وحسن إسلامه
وكان يكتب بالعربية والفارسية والسريانية ، وكان يعرب الكتب بين يدي ربيعة لما ولاه السفاح
الأنبار . وفيها توفي : **عبد الوارث بن سعيد البيروتي أحد الثقات**

وعافية بن يزيد

ابن قيس القاضي للمهدى على جانب بغداد الشرقي ، هو وابن علانة ، وكانا يحكما بجماع
الرصافة ، وكان عافية عابداً زاهداً ورعاً ، دخل يوماً على المهدى في وقت الظهيرة فقال : يا أمير المؤمنين
اعفني ، فقال له المهدى : ولم أعفنيك ؟ هل اعترض عليك أحد من الأمراء ؟ فقال له : لا ولكن كان
بين اثنين خصومة عندي فعمد أحدهما إلى رطب السكر - وكأنه سمع أني أحبه - فأهدى إلى منه
طبقاً لا يصلح إلا لأمير المؤمنين ، فرددته عليه ، فلما أصبحنا : وجلسنا إلى الحكومة لم يستويا
عندي في قلبي ولا نظري ، بل مال قلبي إلى المهدى منهما ، هذا مع أني لم أقبل منه ما أهداه فكيف
لو قبلت منه ؟ فاعفني عفا الله عنك فأعفاه . وقال الأصمعي : كنت عند الرشيد يوماً وعنده عافية وقد
أحضره لأن قوماً استعدوا عليه إلى الرشيد ، فجعل الرشيد يوقفه على ما قيل عنه وهو يجيب عما يسأله .
وطال المجلس فعطس الخليفة فشتمه الناس ولم يشتمه عافية ، فقال له الرشيد : لم تشمتني مع الناس ؟
فقال : لأنك لم تحمد الله ، واحتج بالحديث في ذلك . فقال له الرشيد : أرجع لعملك فوالله ما كنت
لتفعل ما قيل عنك ، وأنت لم تسأحن في عطسة لم أحمد الله فيها . ثم رده رداً جميلاً إلى ولايته .
وفيها توفي : **سيبويه**

إمام النحاة ، واسمه عمرو بن عثمان بن قنبر أبو بشر ، المعروف بسيبويه ، مولى بني الحارث بن
كعب ، وقيل مولى آل الربيع بن زياد ، وإنما سمي سيبويه لأن أمه كانت ترقصه وتقول له ذلك ،
ومعنى سيبويه رائحة التفاح ، وقد كان في ابتداء أمره يصحب أهل الحديث والفقهاء ، وكان يستملئ
على حماد بن سلمة ، فلحن يوماً فرد عليه قوله فأنف من ذلك ، فلزم الخليل بن أحمد فبرع في النحو ،
ودخل بغداد وناظر الكسائي . وكان سيبويه شاباً حسناً جميلاً نظيفاً ، وقد تعلق من كل علم بسبب ،
وضرب مع كل أهل أدب بسهم ، مع حداثة سنه . وقد صنف في النحو كتاباً لا يلحق شأوه ، وشرحه
أئمة النحاة بعده فانغمروا في لجج بحره ، واستخرجوا من درره ، ولم يبلغوا إلى قعره . وقد زعم
ثعلب أنه لم ينفرد بتصنيفه ، بل ساعده جماعة في تصنيفه نحواً من أربعين نفساً هو أحدهم ، وهو
أصول الخليل ، فادعاه سيبويه إلى نفسه . وقد استبعد ذلك السيرافي في كتاب طبقات النحاة .
قال : وقد أخذ سيبويه اللغات عن أبي الخطاب والأخفش وغيرهما ، وكان سيبويه يقول : سعيد بن
أبي العروبة ، والعروبة يوم الجمعة ، وكان يقول : من قال عروبة فقد أخطأ . فذكر ذلك ليونس فقال

أصاب الله دره ، وقد ارتحل إلى خراسان ليحظى عند طلحة بن طاهر فانه كان يحب النحو فرض هناك مرضه الذي توفي فيه فتمثل عند الموت :

يؤملُ دنيا لتبقى له * فأتَ المؤملُ قبلَ الأملِ

ربِّي فسيلاً ليبقى له * فعاشَ الفسيلُ وماتَ الرجلُ

ويقال : إنه لما احتضر وضع رأسه في حجر أخيه فدمعت عين أخيه فاستفاق فرآه يبكي فقال :

وكنا جميعاً فرقَ الدهرُ بيننا * إلى الأمدِ الأقصى فنُ بامن الدهرا

قال الخطيب البغدادي : يقال إنه توفي وعمره ثنتان وثلاثون سنة . وفيها توفيت :

عفيرة العابدة

كانت طويلة الحزن كثيرة اليكاه . قدم قريب لها من سفر فجعلت تبكي ، فقيل لها في ذلك فقالت : لقد ذكرني قدوم هذا الفتى يوم القدوم على الله ، فسروور ومشبور . وفيها مات مسلم بن خالد الزنجي شيخ الشافعي ، كان من أهل مكة ، ولقد تكلموا فيه لسوء حفظه .

ثم دخلت سنة احدى وثمانين ومائة

فيها غزا الرشيد بلاد الروم فافتتح حصناً يقال له الصفصاف ، فقال في ذلك مروان بن أبي حفصة :
إن أمير المؤمنين المنصفا * قد ترك الصفصاف قاعاً صنفصفا

وفيها غزا عبد الملك بن صالح بلاد الروم فبلغ أنقرة وافتتح مطمورة . وفيها تغلبت المحمرة على جرجان . وفيها أمر الرشيد أن يكتب في صدور الرسائل الصلاة على رسول الله (ص) ، بعد الثناء على الله عز وجل . وفيها حج بالناس الرشيد وتمجل بالنقر ، وسأله يحيى بن خالد أن يمفيه من الولاية فأعفاه وأقام يحيى بمكة . وفيها توفي : الحسن بن قحطبة

أحد أكابر الأمراء ، وحزة بن مالك ، ولى إمرة خراسان في أيام الرشيد ، وخلف بن خليفة شيخ الحسن بن عرفة عن مائة سنة : **وعبدالله بن المبارك**

أبو عبد الرحمن المروزي ، كان أبوه تركياً مولى لرجل من التجار من بني حنظلة من أهل همدان ، وكان ابن المبارك إذا قدمها أحسن إلى ولد مولاهم ، وكانت أمه خوارزمية ، ولد ثمان عشرة ومائة ، وسمع إسماعيل بن خالد ، والأعمش ، وهشام بن عروة ، وحيد الطويل ، وغيرهم من أئمة التابعين . وحدث عنه خلائق من الناس ، وكان موصوفاً بالحفظ والفقه والعربية والزهد والكرم والشجاعة والشعر ، له التصانيف الحسان ، والشعر الحسن المتضمن حكماً حجة ، وكان كثير الغزو والحج ، وكان له رأس مال نحو أربعمائة ألف يدور يتجر به في البلدان ، فحيث اجتمع بعالم أحسن إليه ، وكان يربو كسبه في كل سنة على مائة ألف ينفقها كلها في أهل العبادة والزهد والعلم ، وربما أنفق من رأس ماله . قال

سفيان بن عيينة : نظرت في أمره وأمر الصحابة فما رأيتمهم يفضلون عليه إلا في محبتهم رسول الله (ص) . وقال إسماعيل بن عياش : ما على وجه الأرض مثله ، وما أعلم خصلة من الخير إلا وقد جعلها الله في . ابن المبارك ، ولقد حدثني أصحابي أنهم محبوبه من مصر إلى مكة فكان يطعمهم ثم الخبيص وهو الدهر صائم . وقدم مرة الرقة وبها هارون الرشيد ، فلما دخلها احتفل الناس به وازدحم الناس حوله ، فأشرفت أم ولد للرشيد من قصر هناك فقالت : ما للناس ؟ قليل لها : قدم رجل من علماء خراسان يقال له عبد الله بن المبارك فأنجفل الناس إليه . فقالت المرأة : هذا هو الملك ، لا ملك هارون الرشيد الذي يجمع الناس عليه بالسوط والعصا والرغبة والرهبة .

وخرج مرة إلى الحج فاجتاز ببعض البلاد فمات طائر معهم فأمر بالقائه على مزبلة هناك ، وسار أصحابه أمامه وتخلف هو وراءهم ، فلما مر بالمزبلة إذا جارية قد خرجت من دار قريبة منها فأخذت ذلك الطائر الميت ثم لفته ثم أسرعت به إلى الدار ، فجاء فسألها عن أمرها وأخذها الميتة ، فقالت : أنا وأخي هنا ليس لنا شيء إلا هذا الأزار ، وليس لنا قوت إلا ما يلقى على هذه المزبلة ، وقد حلت لنا الميتة منذ أيام ، وكان أبونا له مال فظلم وأخذ ماله وقتل . فأمر ابن المبارك برد الأحمال وقال لو كي له : كم معك من النعقة ؟ قال : ألف دينار . فقال : عس منها عشرين ديناراً تكفيني إلى مرو وأعطها الباقي . فهذا أفضل من حجنا في هذا العام ، ثم رجع .

وكان إذا عزم على الحج يقول لأصحابه : من عزم منكم في هذا العام على الحج فليأتني بنفقة حتى أكون أنا أنفق عليه ، فكان يأخذ منهم نفقاتهم ويكتب على كل صرة اسم صاحبها ويجمعها في صندوق ، ثم يخرج بهم في أوسع ما يكون من النفقات والركوب ، وحسن الخلق والتيسير عليهم ، فإذا قضا حاجتهم فيقول لهم : هل أوصاكم أهلكم بهدية ، فيشتري لكل واحد منهم ما وصاه أهله من الهدايا المكية والبنية وغيرها ، فإذا جاؤا إلى المدينة اشترى لهم منها الهدايا المدنية ، فإذا رجعوا إلى بلادهم بعث من أثناء الطريق إلى بيوتهم فأصلح وبيضت أبوابها ورمم شمسها ، فإذا وصلوا إلى البلد عمل وليمة بعد قدومهم ودعاهم فأكلوا وكساهم ، ثم دعا بذلك الصندوق ففتح وأخرج منه تلك الصرر ثم يقسم عليهم أن يأخذ كل واحد نفقته التي عليها اسمه ، فيأخذونها وينصرفون إلى منازلهم وهم شاكرون فاشرون لواء الشفاء الجليل . وكانت سفرته تحمل على بعير وحدها ، وفيها من أنواع المأكول من اللحم والدجاج والحلوى وغير ذلك ، ثم يطعم الناس وهو الدهر صائم في الحر الشديد . وسأله مرة سائل فأعطاه درهما فقال له بعض أصحابه : إن هؤلاء يأكلون الشواء والفولوزج ، وقد كان يكفيه قطعة . فقال : والله ما ظننت أنه يأكل إلا البقل والخبز ، فأما إذا كان يأكل الفولوزج والشواء فإنه لا يكفيه درهم . ثم أمر بعض غلمانه فقال : رده وادفع إليه عشرة دراهم . فضائله ومناقبه كثيرة جداً .

قال أبو عمر بن عبد البر : أجمع العلماء على قبوله وجلالاته وإمامته وعده . توفي عبد الله بن المبارك بهيت في هذه السنة في رمضانها عن ثلاث وستين سنة

ومفضل بن فضالة

ولى قضاء مصر مرتين ، وكان ديناً ثقة ، فسأل الله أن ينهب عنه الأمل فأذهب ، فكان بعد ذلك لا يهنئه العيش ولا شيء من الدنيا ، فسأل الله أن يرد عليه فرده فرجع إلى حاله .

ويعقوب التائب

العابد الكوفي ، قال علي بن الموفق عن منصور بن عمار : خرجت ذات ليلة وأنا أظن أنى قد أصبحت ، فإذا على ليل ، فجلست إلى باب صغير وإذا شاب يبكي وهو يقول : وعزتك وجلالك ما أردت بمصيتك مخالفتك ولكن سولت لى نفسى ، وغلبتني شقوتى ، وغرتنى سترك المرخى على فلا ز من عذابك من يستغنى ؟ وبجبل من أقصل إن أنت قطعت حبلك عني ؟ واسوأناه على ماضى من أيامى فى معصية ربى ، يا ولى كم أتوب وكم أعود ، قد حان لى أن أستحى من ربى عز وجل . قال منصور فقلت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) قال : فسمعت صوتا واضطرابا شديدا فذهبت لحاقي ، فلما رجعت مررت بذلك الباب فإذا جنازة موضوعة ، فسألت عنه فإذا ذاك الفتى قد مات من هذه الآية .

ثم دخلت سنة ثنتين وثمانين ومائة

فيها أخذ الرشيد لولده عبد الله المأمون ولاية العهد من بعد أخيه محمد الأمين بن زبيدة ، وذلك بالركة بعد مرجعه من الحج ، وضم ابنه المأمون إلى جعفر بن يحيى البرمكى وبعثه إلى بغداد ومعه جماعة من أهل الرشيد خدمة له ، وولاه خراسان وما يتصل بها ، وسماه المأمون . وفيها رجع يحيى بن خالد البرمكى من مجاورته بمكة إلى بغداد . وفيها غزا الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح فبلغ مدينة أصحاب الكهف . وفيها سملت الروم عيني ملكهم قسطنطين بن اليون وملكوا عليهم أمه ريفي وتلقب أغسطه . وحج بالناس موسى بن عيسى بن العباس .

وفيها توفي من الأعيان إسماعيل بن عياش الحمصي أحد المشاهير من أئمة الشافيين ، وفيه كلام . ومروان بن أبي حفصة الشاعر المشهور المشكور ، كان يمدح الخلفاء والبرامكة .

ومعن بن زائدة

حصل من الأموال شيئا كثيرا جدآ ، وكان مع ذلك من أبخل الناس ، لا يكاد يأكل اللحم من بخله ، ولا يشعل في بيته سراجا ، ولا يلبس من الثياب الا الكرباسى والفرو الغليظ ، وكان رفيقه

سلم الخاسر إذا ركب إلى دار الخلافة يأتي على بردون وعليه حلة تساوي ألف دينار، والطيب ينفخ من ثيابه، ويأتي هو في شر حالة وأسوأها. وخزج يوماً إلى المهدي فقات امرأة من أهله: إن أطلق لك الخليفة شيئاً فأجعل لي منه شيئاً. فقال: إن أعطاني مائة ألف درهم فلك درهم. فأعطاه ستين ألفاً فأعطاه أربعة دنانير. توفي ببغداد في هذه السنة، ودفن في مقبرة نصر بن مالك.

والقاضي أبو يوسف

واسمه يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد بن حسنة، وهي أمه، وأبوه مجير بن معاوية، استصغر يوم أحد، وأبو يوسف كان أكبر أصحاب أبي حنيفة، روى الحديث عن الأعشى وهام ابن عروة ومحمد بن إسحاق وبجي بن سعيد وغيرهم. وعنه محمد بن الحسن وأحمد بن حنبل وبجي بن معين. قال علي بن الجعد: سمعته يقول: توفي أبي وأنا صغير فأسلتني أمي إلى قصار فكنت أمر على حلقة أبي حنيفة فأجلس فيها، فكانت أمي تتبعني فتأخذ بيدي من الحلقة وتذهب بي إلى القصار، ثم كنت أخالفها في ذلك وأذهب إلى أبي حنيفة، فلما طال ذلك عليها قالت لأبي حنيفة: إن هذا صبي يتيم ليس له شيء إلا ما أطعمه من مغزلي، وإنك قد أفسدته علي. فقال لها: اسكتي يا رعناء، هاهوذا يتعلم العلم وسياً كل الفالوذج بدهن الفستق في صحن الفير وزج. فقالت له: إنك شيخ قد خرفت. قال أبو يوسف: فلما وليت القضاء - وكان أول من ولاه القضاء الهادي وهو أول من لقب قاضي القضاء، وكان يقال له: قاضي قضاة الدنيا، لأنه كان يستنيب في سائر الأقاليم التي يحكم فيها الخليفة -. قال أبو يوسف: فيينا أنا ذات يوم عند الرشيد إذ أتني بفالوذج في صحن فير وزج فقال لي: كل من هذا، فإنه لا يصنع لنا في كل وقت. وقلت: وما هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال: هذا الفالوذج. قال فتبسمت فقال: مالك تبسم؟ فقلت: لا شيء أبق الله أمير المؤمنين. فقال: لتخبرني. فقصصت عليه القصة فقال: إن العلم ينفع ويرفع في الدنيا والآخرة. ثم قال: رحم الله أبا حنيفة، فلقد كان ينظر بعين عقله ما لا ينظر بعين رأسه، وكان أبو حنيفة يقول عن أبي يوسف: إنه أعلم أصحابه. وقال المزني: كان أبو يوسف أتبعهم للحديث. وقال ابن المديني: كان صدوقاً. وقال ابن معين: كان ثقة. وقال أبو زرعة: كان سليماً من التجهم. وقال بشار الخفاف: سمعت أبا يوسف يقول: من قال القرآن مخلوق فحرام كلامه، وفرض مباينته، ولا يجوز السلام ولا رده عليه. ومن كلامه الذي ينبغي كتابته بماء الذهب قوله: من طلب المال بالكما أفسس، ومن تتبع غرائب الحديث كذب، ومن طلب العلم بالكلام تزندق. ولما تناظر هو ومالك بالمدينة بمحضرة الرشيد في مسألة الصاع وزكاة الخضراوات احتج مالك بما استدعى به من تلك الصيعان المنقولة عن آبائهم وأسلافهم، وبأنه لم يكن الخضراوات يخرج فيها شيء في زمن الخلفاء الراشدين. فقال

طلب العلم

أبو يوسف : لو رأى صاحبي ما رأيت لرجع كما رجعت . وهذا انصاف منه .

وقد كان يحضر في مجلس حكمه العلماء على طبقاتهم ، حتى إن أحمد بن حنبل كان شابا وكان يحضر مجلسه في أثناء الناس فيقنظرون ويتباحثون ، وهو مع ذلك يحكم ويصنف أيضا . وقال : ولبت هذا الحكم وأرجو الله أن لا يسألني عن جور ولا ميل إلى أحد ، إلا يوما واحداً جاءني رجل فذكر أن له بستاناً وأنه في يد أمير المؤمنين ، فدخلت إلى أمير المؤمنين فأعلمته فقال : البستان لي اشتراه لي المهدي . فقلت : إن رأى أمير المؤمنين أن يحضره لأسمع دعواه . فأحضره فادعى بالبستان فقلت : ما تقول يا أمير المؤمنين ؟ فقال : هو بستاني . فقلت للرجل : قد سمعت ما أجاب . فقال الرجل : بحلف ، فقلت ، أنحلف يا أمير المؤمنين ؟ فقال : لا ، فقلت سأعرض عليك المئين ثلاثاً فإن حلفت وإلا حكمت عليك يا أمير المؤمنين . فعرضتها عليه ثلاثاً فامتنع فحكمت بالبستان للدعي . قال : فكنت في أثناء الخصومة أو دأن ينفضل ولم يمكن أن أجلس الرجل مع الخليفة . وبعث القاضي أبو يوسف في تسليم البستان إلى الرجل .

وروى المعافي بن زكريا الجربري عن محمد بن أبي الأزهر عن حماد بن أبي إسحاق عن أبيه عن بشر بن الوليد عن أبي يوسف . قال : بينا أنا ذات ليلة قد نمت في الفراش ، إذا رسول الخليفة يطرق الباب ، فخرجت منزجاً فقال : أمير المؤمنين يدعوك ، فذهبت فإذا هو جالس ومعه عيسى ابن جعفر فقال لي الرشيد : إن هذا قد طلبت منه جارية يهذيها فلم يفعل ، أو يبعثها ، وإني أشهدك إن لم يجبني إلى ذلك قتلته . فقلت لعيسى : لم لم تفعل ؟ فقال : إني حالف بالطلاق والعناق وصدقة مالى كله أن لا أبيعها ولا أهبها . فقال لي الرشيد : فهل له من مخلص ؟ فقلت : نعم يبيعك نصفها ويهبك نصفها . فوهبه النصف وباعه النصف بمائة ألف دينار ، فقبل منه ذلك وأحضرت الجارية ، فلما رآها الرشيد قال : هل لي من سبيل عليها الآية ؟ قلت : إنها مملوكة ولا بد من استبرائها ، إلا أن تعتقها وتزوجها فإن الحرية لا تستبرأ . قال فأعتقها وتزوجها منه بمشرين ألف دينار ، وأمر لي بمائتي ألف درهم وعشرين نخعاً من ثياب ، وأرسلت إلى الجارية بعشرة آلاف دينار .

وقال يحيى بن معين : كنت عند أبي يوسف فجاءته هدية من ثياب ديبق وطيب وغانيل ند وغير ذلك ، فذا كرتي رجل في إسناد حديث «من أهديت له هدية وعنده قوم جلوس فهم شركاؤه» فقال أبو يوسف : إنما ذاك في الأقط والنمر والزبيب ، ولم تكن الهدايا في ذلك الوقت ماترون ، يا غلام ارفع هذا إلى الخزان ، ولم يعطهم منها شيئاً . وقال بشر بن غياث المريسي : سمعت أبا يوسف يقول : صحبت أبا حنيفة سبع عشرة سنة ثم انصبت على الدنيا سبع عشرة سنة ، وما أظن أجلى إلا أن اقترب . فما مكث بعد ذلك إلا شهوراً حتى مات .

وقد مات أبو يوسف في ربيع الأول من هذه السنة عن سبع وستين سنة ، ومكث في القضاء بعده ولده يوسف . وقد كان قائمه على الجانب الشرقي من بغداد . ومن زعم من الرواة أن الشافعي اجتمع بأبي يوسف كما يقوله عبد الله بن محمد البلوي الكذاب في الرحلة التي ساقها الشافعي فقد أخطأ في ذلك ، وإنما ورد [الشافعي] بغداد في أول قدمه قدمها إليها في سنة أربع وثمانين . وإنما اجتمع الشافعي بمحمد بن الحسن الشيباني فأحسن إليه وأقبل عليه ، ولم يكن بينهما شأن كما يذكره بعض من لا خبرة له في هذا الشأن والله أعلم . وفيها توفي :

يعقوب بن داوود بن طهمان

أبو عبد الله مولى عبد الله بن حازم السلمي ، استوزره المهدي وحظي عنده جداً ، وسلم إليه أزمة الأمور ، ثم لما أمر بقتل ذلك العلوي كما تقدم فأطلقه ونمت عليه تلك الجارية سجنه المهدي في بئر وبذبت عليه قبة ، ونبت شعره حتى صار مثل شعور الأنعام ، وععى ، ويقال بل غشى بصره ، ومكث نحواً من خمسة عشر سنة في ذلك البئر لا يرى ضوءاً ولا يسمع صوتاً إلا في أوقات الصلوات يعلمونه بذلك ، ويدلى إليه في كل يوم رغيف وكوز ماء ، فكث كذلك حتى انتقضت أيام المهدي وأيام الهادي وصدر من أيام الرشيد ، قال يعقوب : فأفاني آت في منامي فقال :

عسى الكرب الذي أمسيت فيه * يكون وراءه فرج قريب

فيأمن خائف ويفك عار * ويأتى أهله النائي الغريب

فلما أصبحت نوديت فظننت أني أعلم بوقت الصلاة ، ودلى إليّ حبل وقيل لي : اربط هذا الحبل في وسطك ، فأخرجوني ، فلما نظرت إلى الضياء لم أبصر شيئاً ، وأوقفت بين يدي الخليفة فقبل لي : سلم على أمير المؤمنين ، فظننته المهدي فسلمت عليه باسمه ، فقال : لست به ، قلت الهادي ؟ فقال : لست به . قلت : السلام عليك يا أمير المؤمنين الرشيد . فقال : نعم ، ثم قال : والله إنه لم يشفع فيك عندي أحد ، ولكنني البارحة حملت جارية لي صغيرة على عنقي فذكرت حملك إياي على عنقك فرحمت ما أنت فيه من الضيق فأخرجتك . ثم أنعم عليه وأحسن إليه . ففار منه يحيى بن خالد بن برمك ، وخشى أن يعيده إلى منزله التي كان عليها أيام المهدي ، وفهم ذلك يعقوب فاستأذن الرشيد في الذهاب إلى مكة فأذن له ، فكان بها حتى مات في هذه السنة رحمه الله . وقال يخشى يحيى أن أرجع إلى الولايات لا والله ما كنت لأفعل أبداً ، ولوردت إلى مكاني . وفيها (توفي يزيد بن زريع) أبو معاوية شيخ الامام أحمد بن حنبل في الحديث ، كان ثقة عالماً عابداً ورعاً ، توفي أبوه وكان والي البصرة وترك من المال خمسمائة درهم ، فلم يأخذ منها يزيد درهما واحداً ، وكان يعمل الخوص بيده ويقتات منه هو وعياله . توفي بالبصرة في هذه السنة ، وقيل قبل ذلك فأنه أعلم .

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين ومائة

ففيها خرجت الخزر على الناس من ثلثة أرمينية فعاتوا في تلك البلاد فساداً، وسبوا من المسلمين وأهل الذمة نحواً من مائة ألف، وقتلوا بشراً كثيراً، وانهزم نائب أرمينية سعيد بن مسلم، فأرسل الرشيد إليهم خازم بن خزيمه ويزيد بن يزيد في جيوش كثيرة كثيفة، فأصلحوا ما فسد في تلك البلاد. وحج بالناس العباس بن موسى الهادي.

وفيهما توفي من الأعيان علي بن الفضيل بن عياض في حياة أبيه. كان كثير العبادة والورع والخوف والخشية. ومحمد بن صبيح أبو العباس مولى بني عجل المذكر. ويعرف بابن السكاك. روى عن إسماعيل بن أبي خالد والأعمش والثوري وهشام بن عروة وغيرهم، ودخل يوماً على الرشيد فقال: إن لك بين يدي الله وقفاً فانظر أين منصرفك، إلى الجنة أم النار؟ فبكى الرشيد حتى كاد يموت.

وموسى بن جعفر

ابن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو الحسن الهاشمي، ويقال له السكاظم، ولد سنة ثمان أو تسع وعشرين ومائة، وكان كثير العبادة والورع، وإذا بلغه عن أحد أنه يؤذيه أرسل إليه بالذهب والتحف، ولد له من الذكور والانات أربعون نسمة. وأهدى له مرة عبد عسيمة فاشترى المزرعة التي هو فيها بألف دينار وأعتقه، ووهب المزرعة له. وقد استدعاه المهدي إلى بغداد فحبسه، فلما كان في بعض الليالي رأى المهدي علي بن أبي طالب وهو يقول له: يا محمد [فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم] فاستيقظ مذعوراً وأمر به فأخرج من السجن ليلاً فأجلسه معه وعانقه وأقبل عليه، وأخذ عليه المهد أن لا يخرج عليه ولا على أحد من أولاده، فقال: والله ما هذا من شأني ولا حدثت فيه نفسي، فقال: صدقت. وأمر له بثلاثة آلاف دينار، وأمر به فرداً إلى المدينة، فما أصبح الصباح إلا وهو على الطريق، فلم يزل بالمدينة حتى كانت خلافة الرشيد فخرج، فلما دخل ليسلم على قبر النبي (ص) ومعه موسى بن جعفر السكاظم، فقال الرشيد: السلام عليك يا رسول الله يا ابن عم. فقال موسى: السلام عليك يا أبت. فقال الرشيد: هذا هو الفخر يا أبا الحسين. ثم لم يزل ذلك في نفسه حتى استدعاه في سنة تسع وستين وسجنه فأطال سجنه، فكتب إليه موسى رسالة يقول فيها: أما بعد يا أمير المؤمنين إنه لم ينقض عني يوم من البلاء إلا انتفض عنك يوم من الرخاء، حتى يفضى بنا ذلك إلى يوم يخسر فيه المبطلون. توفي لخمس بقين من رجب من هذه السنة ببغداد وقبره هناك مشهور. وفيها توفي:

هاشم بن بشير بن أبي حازم

القاسم بن دينار أبو معاوية السلمي الواسطي، كان أبوه طباً خال الحجاج بن يوسف الثقفي، ثم كان

بعد ذلك يبيع الكوامخ ، وكان يمنع ابنه من طلب العلم ليساعده على شغله ، فابى إلا أن يسمع الحديث . فاتفق أن هاشما مرض فجاءه أبو شيبة قاضى واسط عائداً له ومعه خاق من الناس ، فلما رآه بشير فرح بذلك وقال : يا بنى أبلغ من أمرك أن جاء القاضى إلى منزلى ؟ لا أمنك بعد هذا اليوم من طلب الحديث . كان هاشم من سادات العلماء ، وحدث عنه مالك وشعبة والثورى وأحمد بن حنبل وخلق غير هؤلاء ، وكان من الصلحاء العباد . ومكث يصلى الصبح بوضوء العشاء قبل أن يموت بعشر سنين .

ويحيى بن زكريا

ابن أبى زائدة قاضى المدائن ، كان من الأئمة الثقات . وبنس بن حبيب أحد النحاة النجباء ، أخذ النحو عن أبى عمرو بن العلاء وغيره ، وأخذ عنه الكسائى والفراء ، وقد كانت له حلقة بالبصرة ينتابها أهل العلم والأدب والفصحاء من الحاضرين والغرباء . توفى فى هذه السنة عن ثمان وسبعين سنة .

ثم دخلت سنة اربع وثمانين ومائة

فيها رجع الرشيد من الرقة إلى بغداد فأخذ الناس بأداء بقايا الخراج الذى عليهم ، وولى رجلا يضرب الناس على ذلك ويحبسهم ، وولى على أطراف البلاد . وعزل وولى وقطع ووصل . وخرج بالجزيرة أبو عمرو الشارى فبعث إليه الرشيد من قبله شهر زور . وحج بالناس فيها إبراهيم بن محمد العباسى . وفيها توفى :

أحمد بن الرشيد

كان زاهداً عابداً قد تنسك ، وكان لا يأكل إلا من عمل يده فى الطين ، كان يعمل قاعلا فيه ، وليس يملك الامروأ وزنبلا - أى بحرقه وقعة - وكان يعمل فى كل جمعة بدرهم ودائق يتقوت بهما من الجمعة إلى الجمعة ، وكان لا يعمل إلا فى يوم السبت فقط . ثم يقبل على العبادة بقية أيام الجمعة . وكان من زبيدة فى قول بعضهم ، والصحيح أنه من امرأة كان الرشيد قد أحبها فتزوجها فحملت منه بهذا الغلام ، ثم إن الرشيد أرسلها إلى البصرة وأعطاه خاتماً من ياقوت أحمر ، وأشياء نفيسة ، وأمرها إذا أفضت إليه الخلافة أن تأتبه . فلما صارت الخلافة إليه لم تأتبه ولا ولدها ، بل اختفيا ، وبلغه أنهما ماتا ، ولم يكن الأمر كذلك ، وغص عنهما فلم يطلع لهما على خبر ، فكان هذا الشاب يعمل بيده ويأكل من كدها ، ثم رجع إلى بغداد ، وكان يعمل فى الطين ويأكل مدة زمانية . هذا وهو ابن أمير المؤمنين ، ولا يذكر للناس من هو إلى أن اتفق مرضه فى دار من كان يستعمله فى الطين فمرضه عنده ، فلما احتضر أخرج الخاتم وقال لصاحب المنزل : اذهب بهذا إلى الرشيد وقل له : صاحب هذا الخاتم يقول لك : إياك أن تموت فى سكرتك هذه فتندم حيث لا ينفع نادماً ندمه ، واحذر انصرفك من بين يدي الله إلى الدارين ، وأن يكون آخر المهدي بك ، فان ما أنت فيه لو دام لغيرك لم يصل إليك ، وسيصير إلى غيرك وقد بلغك أخبار من مضى

قال : فلما مات دفنته وطلبت الحضور عند الخليفة ، فلما أوقفت بين يديه قال : ما حاجتك ؟ قلت : هذا الخاتم دفعه إلى رجل وأمرني أن أدفعه إليك ، وأوصاني بكلام أقوله لك ، فلما نظر الخاتم عرفه فقال : ويحك وأين صاحب هذا الخاتم ؟ قال فقلت : مات يا أمير المؤمنين . ثم ذكرت الكلام الذي أوصاني به ، وذكرت له أنه كان يعمل بالفاعل في كل جمعة يوماً بدرهم وأربع دنانير ، أو بدرهم ودانق ، يتقوت به سائر الجمعة ، ثم يقبل على العبادة . قال : فلما سمع هذا الكلام قام فضرب بنفسه الأرض وجعل يتمرغ ويتقلب ظهراً لبطن ويقول : والله لقد نصحتني يا بني ، ثم بكى ، ثم رفع رأسه إلى الرجل وقال : أتعرف قبره ؟ قلت : نعم ! أنا دفنته . قال : إذا كان العشي فأتقني . قال : فأتيت فذهب إلى قبره فلم يزل يبكي دنده حتى أصبح ، ثم أمر لذلك الرجل بعشرة آلاف درهم . وكتب له ولعياله رزقاً . وفيها مات :

عبد الله بن مصعب

ابن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام ، القرشي الأسدي ، والد بكار . ألزمه الرشيد بولاية المدينة قبلها بشروط عدل اشترطها ، فأجابته إلى ذلك ، ثم أضاف إليه نيابة اليمن ، فكان من أعدل الولاة ، وكان عمره يوم تولى نحواً من سبعين سنة .

عبد الله بن عبد العزيز العمري

أدرك أبا طوالة ، وروى عن أبيه وإبراهيم بن سعد ، وكان عابداً زاهداً ، وعظ الرشيد يوماً فأطرب وأطيب . قال له وهو واقف على الصفا : أنتظركم حولها - يعني الكعبة - من الناس ؟ فقال : كثير . فقال : كل منهم يسأل يوم القيامة عن خاصة نفسه ، وأنت تسأل عنهم كلهم . فبكى الرشيد بكاء كثيراً ، وجعلوا يأتونه بمنديل بعد منديل ينشف به دموعه . ثم قال له : يا هارون إن الرجل ليسرف في ماله فيستحق الحجر عليه ، فكيف بمن يسرف في أموال المسلمين كلهم ؟ ثم تركهم وانصرف والرشيد يبكي . وله معه مواقف محمودة غير هذه . توفي عن ست وستين سنة .

ومحمد بن يوسف بن معدان

أبو عبد الله الأصهباني ، أدرك التابعين ، ثم اشتغل بالعبادة والزهادة . كان عبد الله بن المبارك يسميه عروس الزهاد . وقال يحيى بن سعيد القطان : ما رأيت أفضل منه ، كان كأنه قد عاين . وقال ابن مهدي : ما رأيت مثله ، وكان لا يشتري خبزه من خباز واحد ، ولا بقله من بقال واحد ، كان لا يشتري إلا ممن لا يعرفه ، يقول : أخشى أن يجابوني فأكون ممن يعيش بدينه . وكان لا يضع جنبه للنوم صيفاً ولا شتاء . ومات ولم يجاوز الأربعين سنة رحمه الله .

ثم دخلت سنة خمس وثمانين ومائة

فيها قتل أهل طبرستان متولهم مهرويه الرازي ، فولى الرشيد عليهم عبد الله بن سعيد الحرشي . وفيها قتل عبد الرحمن الأنباري أبان بن قحطبة الخارجي بمرج العلقة . وفيها عاث حمزة الشاري ببلاد باذغيس من خراسان ، فنهض عيسى بن علي بن عيسى إلى عشرة آلاف من جيش حمزة فقتلهم ، وسار وراء حمزة إلى كابل وزابلستان . وفيها خرج أبو الخصيب فتغلب على أبيورد وطوس ونيسابور وحاصر مرو وقوى أمره . وفيها توفي يزيد بن يزيد ببردعة ، فولى الرشيد مكانه ابنه أسد بن يزيد . واستأذن الوزير يحيى بن خالد الرشيد في أن يعتمر في رمضان فأذن له ، ثم رابط بجنده إلى وقت الحج . وكان أمير الحج في هذه السنة منصور بن محمد بن عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس . وفيها توفي :

عبد الصمد بن علي

ابن عبد الله بن عباس عم السفاح والمنصور . ولد سنة أربع ومائة ، وكان ضخماً الخلق جداً ولم يبدل أسنانه ، وكانت أصولها صفيحة واحدة ، قال يوما للرشيد : يا أمير المؤمنين هذا المجلس اجتمع فيه عم أمير المؤمنين ، وعم عمه ، وعم عم عمه ، وذلك أن سليمان بن أبي جعفر عم الرشيد ، والعباس بن محمد بن علي عم سليمان ، وعبد الصمد بن علي عم السفاح ، وتلخيص ذلك أن عبد الصمد عم عم الرشيد لأنه عم جده . روى عبد الصمد عن أبيه عن جده عبد الله بن عباس عن النبي (ص) أنه قال : « إن البر والصلة ليظيلان الأعمار ، ويعمران الديار ، ويثران الأموال ، ولو كان القوم فجاراً » . وبه أن رسول الله (ص) قال : « إن البر والصلة ليخفان الحساب يوم القيامة » ثم تلا رسول الله (ص) : [والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب] . وغير ذلك من الأحاديث .

ومحمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، المعروف بالامام ، كان على إمارة الحاج ، وإقامة سقايته في خلافة المنصور عدة سنين . توفي ببغداد فصلى عليه الأئمة في شوال من هذه السنة ، ودفن بالعباسية .

وفيها توفي من مشايخ الحديث تمام بن إسماعيل ، وعمر بن عبيد . والمطلب بن زياد . والمعافى ابن عمران . في قول . ويوسف بن الماجشون . وأبو إسحاق الفزاري إمام أهل الشام بعد الأوزاعي في المغازي والعلم والعبادة .

ورابعة العدوية

وهي رابعة بنت إسماعيل مولاة آل عتيك ، العدوية البصرية العابدة المشهورة . ذكرها أبو نعيم في الحلية والرسائل ، وابن الجوزي في صفوة الصفوة ، والشيخ شهاب الدين السهروردي في المعارف ، والقشيري . وأثنى عليها أكثر الناس ، وتكلم فيها أبو داود السجستاني ، وانهما بالزندقة ،

فلعله بلغه عنها أمر . وأنشد لها السهر وردى في المعارف : —

إني جملتكِ في الفؤادِ محدثي * وأبحثُ جسمي من أرادَ جلوسي
فالجسمُ مني للجليلِ موانسٍ * وحبيبٌ قلبي في الفؤادِ أنيسى
وقد ذكروا لها أحوالاً وأعمالاً صالحةً ، وصيامَ نهارٍ وقيامَ ليلٍ ، ورؤيتَ لها مناماتٍ صالحةً فأنه
أعلم . توفيت بالقدس الشريف وقبرها شرقيه بالطور والله أعلم .

ثم دخلت سنة ست وثمانين ومائة

فيها خرج علي بن عيسى بن ماهان من مرو لحرب أبي الخصب إلى نسا فقاتله بها ، وسبي
نساءه وذريته . واستقامت خراسان . وحج بالناس فيها الرشيد ومعه ابنه محمد الأمين ، وعبد الله
المأمون ، فبلغ جملة ما أعطى لأهل الحرمين ألف ألف دينار وخمسين ألف دينار ، وذلك أنه كان
يعطى الناس فيذهبون إلى الأمين فيعطيهـم ، فيذهبون إلى المأمون فيعطيهـم . وكان إلى الأمين
ولاية الشام والعراق ، وإلى المأمون من همدان إلى بلاد المشرق . ثم تابع الرشيد لولده القاسم من
بعد ولديه ، ولقبه المؤمنين ، وولاه الجزيرة والثغور والعواصم ، وكان الباعث له على ذلك أن ابنه
القاسم هذا كان في حجر عبد الملك بن صالح ، فلما تابع الرشيد لولديه كتب إليه : —

يا أيها الملك الذي * لو كان نجماً كان سمداً

اعقد لقاسمٍ بيعةً * واقدح له في الملك زندا

فأله فردّ واحداً * فأجعل ولاية العهد فردا

ف فعل الرشيد ذلك ، وقد حمده قوم على ذلك ، وذمه آخرون . ولم ينتظم للقاسم هذا أمر ، بل
اختطفته المذون والأقدار عن بلوغ الأمل والأوطار . ولما قضى الرشيد حجه أحضر من معه من
الأمراء والوزراء ، وأحضر ولي العهد محمداً الأمين وعبد الله المأمون . وكتب بضمون ذلك
صحيفة ، وكتب فيها الأمراء والوزراء خطوطهم بالشهادة على ذلك ، وأراد الرشيد أن يعلقها في
الكعبة فسقطت فقيل : هذا أمر سريع انتقاضه . وكذا وقع كما سيأتي . وقال إبراهيم الموصلي في
عقد هذه البيعة في الكعبة :

خيرُ الأمور مغبةً * وأحقُّ أمرٍ بالتمام

أمرُ قضى أحكامه الر * حمنُ في البلادِ الحرام

وقد أطل القول في هذا المقام أبو جعفر بن جرير واتبه ابن الجوزي في المنتظم .

وفيهما توفي من الأعيان

أصبح بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم أبوريان في رمضان منها . وحسان بن إبراهيم قاضي

كرمان عن مائة سنة . وسلم الخاسر الشاعر

وهو سلم بن عمرو بن حماد بن عطاء ، وإنما قيل له الخاسر لأنه باع مصحفًا واشترى به ديوان شعر لامرئ القيس ، وقيل لأنه أنفق مائتي ألف في صناعة الأدب . وقد كان شاعرًا منطقيًا له قدرة على الانشاء على حرف واحد ، كما قال في موسى الهادي :

موسى المطر غيث بكره ثم أنهمر كم اعتبر ثم فتر وم قدر ثم غفر عدل السير باقى الأثر
خير البشر فرع مضر بدر بدر لمن نظر هو الوزر لمن حضر والمفتخر لمن غير
وذكر الخطيب أنه كان على طريقة غير مرضية من المجون والفسق ، وأنه كان من تلاميذ بشار ابن برد ، وأن نظمه أحسن من نظم بشار ، فما غلب فيه بشاراً قوله :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته • وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

فقال سلم من راقب الناس مات غمًا * وفاز بالندرة الجسور

فغضب بشار وقال : أخذ معاني كلامي فكساها ألفاظاً أخف من ألفاظي . وقد حصل له من الخلفاء والبرامكة نحواً من أربعين ألف دينار ، وقيل أكثر من ذلك . ولما مات ترك ستة وثلاثين ألف دينار وديعة عند أبي الشعر الفسائي ، ففنى إبراهيم الموصلي يوماً الرشيد فأطرب به فقال له : سل . فقال : يا أمير المؤمنين أسألك شيئاً ليس فيه من ماله شيء ، ولا أرزأك شيئاً سواه . قال : وما هو ؟ فذكر له وديعة سلم الخاسر ، وأنه لم يترك وارثاً . فأمر له بها . ويقال إنها كانت خمسين ألف دينار .

والعباس بن محمد

ابن علي بن عبد الله بن عباس عم الرشيد ، كان من سادات قریش ، ولى إمارة الجزيرة في أيام الرشيد ، وقد أطلق له الرشيد في يوم خمسة آلاف ألف درهم ، وإليه تنسب العباسية ، وبها دفن وعمره خمس وستون سنة ، وصلى عليه الامين .

ويقطين بن موسى

كان أحد الدعاة إلى دولة بني العباس ، وكان داهية ذا رأى ، وقد احتال مرة حيلة عظيمة لما حبس مروان الحمار إبراهيم بن محمد بجرّان ، فتحيرت الشيعة العباسية فيمن يولون ، ومن يكون ولى الأمر من بعده إن قتل ؟ فذهب يقطين هذا إلى مروان فوقف بين يديه في صورة تاجر فقال : يا أمير المؤمنين إني قد بعث إبراهيم بن محمد بضاعة ولم أقبض ثمنها منه حتى أخذته رسلك ، فان رأى أمير المؤمنين أن يجمع بيني وبينه لأطالبه بمالى فعل . قال : نعم ! فأرسل به إليه مع غلام ، فلما رآه قال : يا عدو الله إلى من أوصيت بعدك آخذ مالى منه ؟ فقال له : إلى ابن الحارثية - يعنى أخاه عبد الله السفاح - فرجع يقطين إلى الدعاة إلى بني العباس فأعلمهم بما قال ، فبايعوا السفاح ، فكان من أمره

ما ذكرناه . ثم دخلت سنة سبع وثمانين ومائة

فيها كان مهلك البرامكة على يدى الرشيد ، قتل جعفر بن يحيى بن خالد البرمكى ، ودمر ديارهم واندرست آثارهم ، وذهب صغارهم وكبارهم . وقد اختلف فى سبب ذلك على أقوال ذكرها ابن جرير وغيره ، قيل إن الرشيد كان قد سلم يحيى بن عبد الله بن حسن إلى جعفر البرمكى ليسجنه عنده ، فما زال يحيى يترفق له حتى أطلقه ، فتم الفضل بن الربيع ذلك إلى الرشيد فقال له الرشيد : ويلاك لا تدخل بينى وبين جعفر ، فلعله أطلقه عن أمرى وأنا لا أشعر . ثم سأل الرشيد جعفرآ عن ذلك فصده فتنغيظ عليه وحلف ليقتلنه ، وكره البرامكة ، ثم قتلهم وقلام بعد ما كانوا أحظى الناس عنده ، وأحبهم إليه ، وكانت أم جعفر والفضل أم الرشيد من الرضاة ، وقد جعلهم الرشيد من الرفعة فى الدنيا وكثرة المال بسبب ذلك شيئاً كثيراً لم يحصل لمن قبلهم من الوزراء ولا لمن بعدهم من الأكارب والرؤساء ، بحيث إن جعفرآ بنى داراً غرم عليها عشرين ألف ألف درهم ، وكان ذلك من جملة ما نقمه عليه الرشيد . ويقال : إنما قتلهم الرشيد لأنه كان لا يمر ببلد ولا إقليم ولا قرية ولا مزرعة ولا بستان إلا قيل هذا لجعفر ، ويقال إن البرامكة كانوا يريدون إبطال خلافة الرشيد وإظهار الزندقة . وقيل إنما قتلهم بسبب العباسية . ومن العلماء من أنكر ذلك وإن كان ابن جرير قد ذكره .

وذكر ابن الجوزى أن الرشيد سئل عن سبب قتله البرامكة فقال : لو أعلم أن قيصى يعلم ذلك لأحرقته . وقد كان جعفر يدخل على الرشيد بغير إذن حتى كان يدخل عليه وهو فى الفراش مع حظايه . وهذه وجهة ومنزلة عالية . وكان عنده من أحظى المشراء على الشراب المسكر . فان الرشيد كان يستعمل فى أواخر أيام خلافته المسكر . وكان أحب أهله إليه أخته العباسية بنت المهدي ، وكان يحضرها معه ، وجعفر البرمكى حاضر أيضاً معه ، فزوجه بها ليحل النظر إليها ، واشترط عليه أن لا يطأها . وكان الرشيد ربما قام وتركها وهما تاملان من الشراب فربما واقعا جعفر خبلت منه فولدت ولداً وبغته مع بعض جوارىها إلى مكة ، وكان يربى بها .

وذكر ابن خلدكان أن الرشيد لما زوج أخته العباسية من جعفر أحبها حباً شديداً ، فراودته عن نفسه فامتنع أشد الامتناع خوفاً من الرشيد ، فاحتالت عليه . وكانت أمه تهدي له فى كل ليلة جمعة جارية حسناء بكراً . فقالت لأمه : أدخليني عليه بصفة جارية . فهابت ذلك فتهدتها حتى فعلت ذلك . فلما دخلت عليه لم يتحقق وجهها فواقعا فقالت له : كيف رأيت خديمة بنات الملوك ؟ وحملت من تلك الليلة ، فدخل على أمه فقال : بعينى والله برخيص . ثم إن والد يحيى بن خالد جعل يضيق على عيال الرشيد فى النفقة حتى شكت زبيدة ذلك إلى الرشيد مرات ، ثم أفشت له سر العباسية ، فاستشاط غيظاً ، ولما أخبرته أن الولد قد أرسلت به إلى مكة حج عام ذلك حتى تحقق الأمر . ويقال :

إن بعض الجوارى نمت عليها إلى الرشيد وأخبرته بما وقع ، وأن الولد بمكة وعنده جوار وأموال وحلى كثيرة . فلم يصدق حتى حج في السنة الخالية ، ثم كشف الأمر عن الحال ، فاذا هو كما ذكر . وقد حج في هذه السنة التي حج فيها الرشيد يحيى بن خالد ، فجعل يدعو عند الكعبة : اللهم إن كان برضيك عنى سلب جميع مالى وولدى وأهلى فافعل ذلك وأبق على منهم الفضل ، ثم خرج . فلما كان عند باب المسجد رجع فقال : اللهم والفضل معهم فإني راض برضاك عنى ولا تستثن منهم أحداً .

فلما قفل الرشيد من الحج صار إلى الحيرة ثم ركب فى السفن إلى العفر من أرض الأنبار ، فلما كانت ليلة السبت سلك المحرم من هذه السنة أرسل مسروراً الخادم ومعه حماد بن سالم أبو عصمة فى جماعة من الجند ، فأطافوا بجعفر بن يحيى ليلاً ، فدخل عليه مسرور الخادم وعنده بختيشوع المتطبب ، وأبو ركانة الأعمى المغنى الكلوزانى ، وهو فى أمره وسروره ، وأبو ركانة يفتيه :

فلا تبعه فكل فتى سباني * عليه الموت يطرق أو يفادي

فقال الخادم له : يا أبا الفضل هذا الموت قد طرقتك ، أجب أمير المؤمنين . فقام إليه يقبل قدميه ويدخل عليه أن يمكنه فيدخل إلى أهله فيوصى إليهم ويودعهم ، فقال : أما الدخول فلا سبيل إليه ، ولكن أوص . فأوصى وأعتق جميع ممالিকে أو جماعة منهم ، وجاءت رسل الرشيد تستحنه فأخرج إخراجاً عنيفاً ، فجعلوا يقودونه حتى أتوا به المنزل الذى فيه الرشيد ، فحبسه وقيد به حمار ، وأعلموا الرشيد بما كان يفعل ، فأمر بضرب عنقه ، فجاء السيف إلى جعفر فقال : إن أمير المؤمنين قد أمرنى أن آتية برأسك . فقال : يا أبا هاشم لعل أمير المؤمنين سكران ، فاذا صحا عاتبك فى ، فمأوده . فرجع إلى الرشيد فقال : إنه يقول : لعلك مشغول . فقال : يا ماص بظر أمه اثنتى برأسه . ففكر ر عليه جعفر المقالة فقال الرشيد فى الثالثة : برئت من المهدى إن لم تأتني برأسه لأبعثن من يأتيني برأسك ورأسه . فرجع إلى جعفر فحز رأسه وأتى به إلى الرشيد فألقاه بين يديه ، وأرسل الرشيد من ليلته البرد بالاحتياط على البرامكة جميعهم ببغداد وغيرها ، ومن كان منهم بسبيل . فأخذوا كلهم عن آخرهم . فلم يفلت منهم أحد . وحبس يحيى بن خالد فى منزله ، وحبس الفضل بن يحيى فى منزل آخر وأخذ جميع ما كانوا يملكونه من الدنيا ، وبعث الرشيد برأس جعفر وجثته فنصب الرأس عند الجسر الأعلى ، وشقت الجلثة باثنتين فنصب نصفها الواحد عند الجسر الأسفل ، والآخر عند الجسر الآخر ، ثم أحرقت بعد ذلك . ونودى فى بغداد : أن لا أمان للبرامكة ولا لمن آوأم ، إلا محمد بن يحيى بن خالد فإنه مستثنى منهم لنصحه للخليفة . وأتى الرشيد بانس بن أبى شيخ كان ينهم بالزندقة ، وكان مصاحباً لجعفر ، فدار بينه وبين الرشيد كلام ، ثم أخرج الرشيد من تحت فراشه سيفاً وأمر بضرب عنقه به . وجعل يتمثل ببيت قيل فى قتل أنس قبل ذلك :

تلهظ السيف من شوق إلى أنس * فالسيف يلحظ والأقدار تنتظر

فضربت عنق أنس فسبق السيف الدم فقال الرشيد : رحم الله عبد الله بن مصعب ، فقال الناس : إن السيف كان للزبير بن العوام . ثم شحنت السجون بالبرامكة واستلبت أموالهم كلها ، وزالت عنهم النعمة . وقد كان الرشيد في اليوم الذي قتل جعفرًا في آخره ، هو وإياه راكبين في الصيد في أوله ، وقد خلا به دون ولاية اليهود ، وطيبه في ذلك بالغالية بيده ، فلما كان وقت المغرب ودعه الرشيد وضمه إليه وقال : لولا أن الليلة ليسة خلوتى بالنساء ما فارقتك ، فذهب إلى منزلك واشرب واطرب وطب عيشا حتى تكون على مثل حالى ، فأكون أنا وأنت في اللذة سواء . فقال : والله يا أمير المؤمنين لا أشتهى ذلك إلا مملك . فقال : لا ! انصرف إلى منزلك . فانصرف عنه جعفر فما هو إلا أن ذهب من الليل بمضه حتى أوقع به من البأس والنكال ما تقدم ذكره . وكان ذلك ليلة السبت آخر ليلة من المحرم ، وقيل إنها أول ليلة من صفر في هذه السنة ، وكان عمر جعفر إذ ذاك سبعا وثلاثين سنة ، ولما جاء الخبر إلى أبيه يحيى بن خالد بقتله قال : قتل الله ابنه . ولما قيل له : قد خربت دارك قال : خرب الله دوره . ويقال : إن يحيى لما نظر إلى دوره وقد هتكت ستورها واستبيحت قصورها ، وانتهب ما فيها . قال : هكذا تقوم الساعة . وقد كتب إليه بعض أصحابه يعزیه فيما جرى له ، فكتب إليه جواب التعزية : أنا بقضاء الله راض ، وباختياره عالم ، ولا يؤاخذ الله العباد إلا بذنوبهم ، وما الله بظلام للعبيد . وما ينفر الله أكثر والله الحمد . وقد أكثر الشعراء من المرائى في البرامكة فمن ذلك قول الرقاشى ، وقيل إنها لأبي نواس :

الآن استرخنا واستراحت ركابنا * وأمسك من مجدي ومن كان يجتدي
نقل للمطايا قد أمنت من الشرى * وطى الفياق فدفدأ بعد فدفد
وقل للمنايا قد ظفرت بجعفر * ولن تظفري من بعدو بمسود
وقل للمطايا بعد فضل تعطى * وقل للرايا كل يوم نجدي
ودونك سيفاً برمكياً مهتداً * أصيب بسيف هاشمي مهتد

وقال الرقاشى ، وقد نظر إلى جعفر وهو على جذعه :

أما والله لولا خوف واش * وعين للخليفة لا تنام
لطفنا حول جذعك واستلنا * كما للناس بالحجر استلام
فما أبصرت قبلك يا ابن يحيى * حساما فله السيف الحسام
على اللذات والدنيا جميعاً * ودولة آل برمك السلام

قال فاستدعاه الرشيد فقال له : كم كان يعطيك جعفر كل عام ؟ قال : ألف دينار . قال : فأمر له

بألقى دينار . وقال الزبير بن بكار عن عمه مصعب الزبيري قال : لما قتل الرشيد جعفرًا وقفت امرأة على حمار فاراء فقالت بلسان فصيح : والله يا جعفر لئن صرت اليوم آية لقد كنت في المكارم غاية ، ثم أنشأت تقول :

ولما رأيتُ السيفَ خالط جعفرًا * ونادى متادٍ للخليفة في بحبي
بكيتُ على الدنيا وأيقنتُ أنما * قصارى الفتى يومًا مفارقة الدنيا
وما هي إلا دولةٌ بعد دولةٍ * تخولُ ذا نعمي وتمقبُ ذا بلوى
إذا أنزلتُ هذا منازلُ رفعةٍ * من الملكِ حطتُ ذا إلى الغاية القصوى

قال : ثم حركت حمارها فذعبت فكأنها كانت ربحا لا أثر لها ، ولا يعرف أين ذهبت . وذكر ابن الجوزي أن جعفرًا كان له جارية يقال لها فتينة مقيمة ، لم يكن لها في الدنيا نظير ، كان يشتراها عليه بمن معها من الجوارى مائة ألف دينار ، فطلبها منه الرشيد فامتنع من ذلك ، فلما قتله الرشيد اصطفى تلك الجارية فأحضرها ليلة في مجلس شرابه وعنده جماعة من جلسائه وشمّاره ، فأمر من معها أن يغنين فاندفعت كل واحدة تغني ، حتى انتهت النوبة إلى فتينة ، فأمرها بالفناء فأسبلت دمعها وقالت : أما بعد السادة فلا . فعضب الرشيد غضبًا شديدًا ، وأمر بعض الحاضرين أن يأخذها إليه فقد وهبها له ، ثم لما أراد الانصراف قال له فيما بينه وبينه : لا تطأها . ففهم أنه إنما يريد بذلك كسرهما . فلما كان بعد ذلك أحضرها وأظهر أنه قد رضى عنها وأمرها بالفناء فامتنعت وأرسلت دمعها وقالت : أما بعد السادة فلا . فعضب الرشيد أشد من غضبه في المرة الأولى وقال : النطم والسيف ، وجاء السياف فوقف على رأسها فقال له الرشيد : إذا أمرتك ثلاثا وعقدت أصابعي ثلاثا فاضرب . ثم قال لها غن : فبكت وقالت : أما بعد السادة فلا . فعقد أصبعه المخصر ، ثم أمرها الثانية فامتنعت ، فعقد اثنتين ، فارتعد الحاضرون وأشفقوا غاية الاشفاق وأقبلوا عليها يسألونها أن تغني اثلاثا تقتل نفسها ، وأن تجيب أمير المؤمنين إلى ما يريد . ثم أمرها الثالثة فاندفعت تغني كارهة :

لما رأيتُ الدنيا قد دُرست * أيقنتُ أنَّ النعيمَ لم يعد

قال فوثب إليها الرشيد وأخذ العود من يدها وأقبل يضرب به وجهها ورأسها حتى تنكسر ، وأقبلت الدماء وتطايرت الجوار من حولها ، وحملت من بين يديه فماتت بعد ثلاث .

وروى أن الرشيد كان يقول : لعن الله من أغرائني بالبرامكة ، فما وجدت بعدهم لذة ولا راحة ولا رجاء ، وددت والله أني شطرت نصف عمري وملكي وأنى تركتهم على حالهم .

وحكى ابن خلكان أن جعفرًا اشترى جارية من رجل بأربعمائة ألف دينار ، فالتفتت إلى بآئنها وقالت : اذكر العهد الذي بيني وبينك ، لا تأكل من نمني شيئًا . فبكى سيدها وقال : اشهدوا أنها

حرة ، وأنى قد تزوجتها . فقال جعفر : اشهدوا أن النمر له أيضا . وكتب إلى نائب له : أما بعد فقد
كثرت شاكوك ، وقل شاكوك ، فأما أن تعمل ، وإما تعزل . ومن أحسن ما وقع منه من التلطف
في إزالة هم الرشيد ، وقد دخل عليه منجم يهودى فأخبره أنه سيموت في هذه الليلة ، فحمل الرشيد
هما عظيما ، فدخل عليه جعفر فسأله : ما الخبر ؟ فأخبره بقول اليهودى فاستدعى جعفر اليهودى
فقال له : كم بقي لك من العمر ؟ فذكر مدة طويلة . فقال : يا أمير المؤمنين اقتله حتى تعلم كذبه فيما
أخبر عن عمره . فأمر الرشيد باليهودى فقتل ، وسرى عن الرشيد الذى كان فيه .

وبعد مقتل البرامكة قتل الرشيد إبراهيم بن عثمان بن نهيك ، وذلك أنه حزن على البرامكة ،
ولا سيما على جعفر ، كان يكثر البكاء عليهم ، ثم خرج من حيز البكاء إلى حيز الانتصار لهم والأخذ
بشارهم ، وكان إذا شرب في منزله يقول لجاريته : اتقى بسفى ، فيسله ثم يقول : والله لأقتلن قاتله ،
فأكثر أن يقول ذلك ، فخشى ابنه عثمان أن يطلع الخليفة على ذلك فيبيلكم عن آخرهم ، ورأى أن
أباه لا ينزع عن هذا ، فذهب إلى الفضل بن الربيع فأعلمه ، فأخبر الفضل الخليفة ، فاستدعى به
فاستخبره فأخبره ، فقال : من يشهد معك عليه ؟ فقال : فلان الخادم فجاء به فشهد ، فقال الرشيد :
لا يحل قتل أمير كبير بمجرد قول غلام وخصى ، لعلهما قد تواطأ على ذلك . فأحضره الرشيد معه
على الشراب ثم خلا به فقال : وبحك يا إبراهيم ! إن عندي سرا أحب أن أطلعك عليه ، أفلتني في
الليل والنهار . قال : وما هو ؟ قال : إني ندمت على قتل البرامكة ووددت أنى خرجت من نصف
ملكى ونصف عمرى ولم أكن فعلت بهم ما فعلت ، فاني لم أجِدْ بَعْدَ لَذَّةٍ وَلَا رَاحَةٍ . فقال : رحمة الله
على أبي الفضل - يعنى جعفرآ - وبكى ، وقال : والله يا سيدي لقد أخطأت في قتله . فقال له : قم
لننك الله ، ثم حبسه ثم قتله بعد ثلاثة أيام . وسلم أهله وولده .

وفي هذه السنة غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح بسبب أنه بلغه أنه يريد الخلافة ، واشتد
غضبه بسببه على البرامكة الذين هم في الحبوس ، ثم سجنه فلم يزل في السجن حتى مات الرشيد
فأخرجه الأمين وعقد له على نياحة الشام . وفيها ثارت العصية بالشام بين المضرية والجزارية ،
فبعث إليهم الرشيد محمد بن منصور بن زياد فأصلح بينهم .

وفيها كانت زلزلة عظيمة بالمصيصة فانهدم بعض سورها ونضب ماؤها ساعة من الليل . وفيها
بعث الرشيد ولده القاسم على الصائفة ، وجعله قربانا ووسيلة بين يديه ، وولاه العواصم ، فسار إلى
بلاد الروم فحاصرم حتى افتقدوا بخلق من الأسارى يطلقونهم ويرجع عنهم ، ففعل ذلك . وفيها
نقضت الروم الصلح الذى كان بينهم وبين المسلمين ، الذى كان عقده الرشيد بينه وبين رفى ملكة
الروم الملقبة أغسطه . وذلك أن الروم عزلوها عنهم وملكوا عليهم النقفور ، وكان شجاعا ، يقال إنه

من سلالة آل جفنة ، فخلعوا رنى وسملوا عينيها . فكتب نقفور إلى الرشيد : من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب ، أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلى أظمنتك مقام الرخ ، وأقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثاله إليها ، وذلك من ضعف النساء وحقهن ، فإذا قرأت كتابى هذا فاردد إلى ما حملته إليك من الأموال وافقد نفسك به ، وإلا فالسيف بيننا وبينك . فلما قرأ هارون الرشيد كتابه أخذته الغضب الشديد حتى لم يتمكن أحد أن ينظر إليه ، ولا يستطيع مخاطبته ، وأشفق عليه جلساؤه خوفاً منه ، ثم استدعى بدواة وكتب على ظهر الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم ، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم . قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام . ثم شخص من فوره وسار حتى نزل بياب هرقة ففتحها واصطفى ابنة ملكها ، وغنم من الأموال شيئاً كثيراً ، وخرب وأحرق ، فطلب نقفور منه المودة على خراج يؤديه إليه فى كل سنة ، فأجابه الرشيد إلى ذلك . فلما رجع من غزوته وصار بالركة تقضى الكافر العهد وخان الميثاق ، وكان البرد قد اشتد جداً ، فلم يقدر أحد أن يجيئ فيخبر الرشيد بذلك لخوفهم على أنفسهم من البرد ، حتى يخرج فصل الشتاء . وحج بالناس فيها عبد الله بن عباس بن محمد بن على .

ذكر من توفي فيها من الأعيان

جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك أبو الفضل البرمكى الوزير ابن الوزير ، ولاء الرشيد الشام وغيرها من البلاد ، وبعثه إلى دمشق لما ثارت الفتنة المشيران بجوران بين قيس ويمن ، وكان ذلك أول ما ظهرت بين قيس ويمن فى بلاد الاسلام ، كان خامداً من زمن الجاهلية فأثاروه فى هذا الأوان ، فلما قدم جعفر بمجيئه خمدت الشرور وظهر السرور ، وقيل فى ذلك أشعار حسان ، قد ذكر ذلك ابن عساكر فى ترجمة جعفر من تاريخه منها : -

لقد أوقدت فى الشام نيران فتنة • فهذا أوان الشام نحمدُ نارها
إذا جاش سوح البحر من الِ برمك • عليها خبت شهبانها وشرارها
رماها أمير المؤمنين بجعفر • وفيه تلاقى صدعها وأنجبارها
هو الملك المأمول قبر والتقى • وصولاته لا يستطاع خطارها

وهى قصيدة طويلة ، وكانت له فصاحة وبلاغة وذكاء وكرم زائد ، كان أبوه قد ضمه إلى القاضى أبى يوسف فتفقه عليه ، وصار له اختصاص بالرشيد ، وقد وقع ليلة بحضرة الرشيد زيادة على ألف توقيع ، ولم يخرج فى شئ منها عن موجب الفقه . وقد روى الحديث عن أبيه عن عبد الحميد الكاتب عن عبد الملك بن مروان كاتب عثمان عن زيد بن ثابت كاتب الوحي . قال قال رسول الله

« . » إذا كتبت بسم الله الرحمن الرحيم فين السنين فيه . . رواه الخطيب وابن عساكر من طريق أبي القاسم الكعبي المتكلم ، واسمه عبد الله بن أحمد البلخي - وقد كان كاتباً لمحمد بن زيد - عن أبيه عن عبد الله بن طاهر عن طاهر بن الحسين بن زريق عن الفضل بن سهل ذي الرياستين عن جعفر بن يحيى به . وقال عمرو بن بحر الجاحظ قال جعفر الرشيد : يا أمير المؤمنين ! قال لي أبي يحيى : إذا أقبلت الدنيا عليك فاعط ، وإذا أدبرت فاعط ، فاتها لا تبقي ، وأنشدني أبي :

لا تبخلنْ دنيا وهي مقبلة • فليس ينقصها التبذير والسرف
فإن تولت فأحرى أن تجود بها • فالحنسها إذا ما أدبرت خلف

قال الخطيب : ولقد كان جعفر من علو القدر وغازد الأمر وعظم المحل وجلالة المنزلة عند الرشيد على حالة انفرادها ، ولم يشاركه فيها أحد . وكان سمح الأخلاق طلق الوجه طاهر البشر . أما جوده وسخاؤه وبذله وعطاؤه فأشهر من أن يذكر . وكان أيضاً من ذوى الفصاحة والمذكورين بالبلاغة . وروى ابن عساكر عن مهنب حاجب العباس بن محمد صاحب قطيعة العباس والعباسية أنه أصابته فاقة وضائقة ، وكان عليه ديون ، فألح عليه المطالبون وعنده سبط فيه جواهر شراؤه عليه ألف ألف ، فأتى به جعفراً فعرضه عليه وأخبره بما هو عليه من الثمن ، وأخبره بالخارج المطالبين بديونهم ، وأنه لم يبق له سوى هذا السبط . فقال : قد اشتريته منك بألف ألف ثم أقبضه المال وقبض السبط منه ، وكان ذلك ليلاً . ثم أمر من ذهب بالمال إلى منزله وأجلسه معه في السر تلك الليلة ، فلما رجع إلى منزله إذا السبط قد سبقه إلى منزله أيضاً . قال فلما أصبحت غدوت إلى جعفر لأشكر له فوجدته مع أخيه الفضل على باب الرشيد يستأذنان عليه ، فقال له جعفر : إني قد ذكرت أمرك للفضل ، وقد أمر لك بألف ألف ، وما أظنها إلا قد سبقتك إلى منزلك ، وسأطوؤض فيك أمير المؤمنين . فلما دخل ذكر له أمره وما لحقه من الديون فأمر له بثلاثمائة ألف دينار .

وكان جعفر ليلة في سمره عند بعض أصحابه فجاءت الخنفساء فركبت ثياب الرجل فألقاها عنه جعفر وقال : إن الناس يقولون : من قصده الخنفساء يبشر بمال يصيبه . فأمر له جعفر بألف دينار . ثم عادت الخنفساء ، فرجعت إلى الرجل فأمر له بألف دينار أخرى

وحج مرة مع الرشيد فلما كانوا بالمدينة قال لرجل من أصحابه : انظر جارية أشتريها تكون فائمة في الجمال والغناء والطاعة ، ففتش الرجل فوجد [جارية] على النعت فطلب سيدها فيها مالا كثيراً على أن يراها جعفر ، فذهب جعفر إلى منزل سيدها فلما رآها أعجب بها ، فلما غنته أعجبته أكثر ، فسأومه صاحبها فيها ، فقال له جعفر : قد أحضرنا مالا فان أعجبك وإلا زدناك ، فقال لها سيدها : إني كنت في نعمة وكنت عندي في غاية السرور ، وإنه قد انقبض على حالي ، وإني قد أحببت أن

أبيعك لهذا الملك ، لكي تكوني عنده كما كنت عندي . فقالت له الجارية : والله يا سيدي لو ملكت منك كما ملكت مني لم أبيعك بالدنيا وما فيها ، وأين ما كنت عاهدتني أن لا تتبعني ولا تأكل من ثمنى . فقال سيدها لجعفر وأصحابه : أشهدكم أنها حرة لوجه الله ، وأني قد تزوجتها . فلما قال ذلك نهض جعفر وقام أصحابه وأمروا الحمال أن يحمل المال . فقال جعفر : والله لا يتبعني ، وقال للرجل : قد ملكتك هذا المال فأنقه على أهلك ، وذهب وتركه .

هذا وقد كان يبخل بالنسبة إلى أخيه الفضل ، إلا أن الفضل كان أكثر منه مالا . وروى ابن عساكر من طريق الدارقطني بسنده أنه لما أصيب جعفر وجندوا له في جرة ألف دينار ، زنة كل دينار مائة دينار ، مكتوب على صفحة الدينار جعفر

وأصغر من ضرب دار الملوك * يلوح على وجه جعفر
يزيد على مائة واحداً * متى تعطى معسراً بوسر

وقال أحمد بن المولى الراوية : كتبت عنان جارية الناطقي لجعفر تطلب منه أن يقول لأبيه يحيى أن يشير على الرشيد بشرائها ، وكتبت إليه هذه الأبيات من شعرها في جعفر : -

بالأني جهلاً ألا تقصر * من ذا على حر الهوى يصبر
لا تلحن إذا شربت الهوى * صرفاً فمزوج الهوى سكر
أحاط بي الحب تغلفي له * بحر وقد أوى له أبحر
تحقق رايات الهوى بالردى * فوق وحول للهوى عسكر
سيان عندي في الهوى لائم * أقل فيه والذي يكثر
أنت المصفي من بني برمك * يا جعفر الخيرات يا جعفر
لا يبلغ الوصف في وصفه * مافيك من فضل ولا يعسر
من وفر المال لأغراضه * فجعفر أغراضه أوفر
ديباجة الملك على وجهه * وفي يديه العارض المطر
سحت علينا منهما ديمة * ينهل منها الذهب الأحمر
لومسحت كفاه جلوده * نصر فيها الورق الأخضر
لا يستم المجد إلا فق * يصبر للبذل كما يصبر
يهتز تاج الملك من فوقه * غراً ورمي تحت المنبر
أشبه البدر إذا ما بدا * أو غرة في وجهه يزهر
واقفوا أدرى أبرد الدجى * في وجه أم وجه أنور

يستعطر الزوار منك الندى * وأنت بالزوار تستبشر
وكتبت تحت أبياتها حاجتها ، فركب من فوره إلى أبيه فأدخله على الخليفة فأشار عليه بشرائها
فقال : لا والله لأشتريها ، وقد قال فيها الشعراء فأكثروا ، واشتهر أمرها وهي التي يقول فيها أبو نواس :
لا يشتريها إلا ابن زانية * أو قلطان يكون من كانا
وعن ثمامة بن أشرس قال : بت ليلة مع جعفر بن يحيى بن خالد ، فانتبه من منامه يبكي مذعوراً
فقلت : ما شأنك ؟ قال : رأيت شيخاً جاء فأخذ بعضادتي هذا الباب وقال :
كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا * أنيس ولم يسر بمكة سائر
قال فأجبت : بلى نحن كنا أهلها فأبادنا * صروف الليالي والجدود العوائر
قال ثمامة : فلما كانت الليلة القابلة قتله الرشيد ونصب رأسه على الجسر ثم خرج الرشيد فنظر
إليه فتأمله ثم أنشأ يقول :

تقاضاك دهرك ما أسلفنا * وكدر عيشك بعد الصفا
فلا تعجبين فإن الزمان * رهين بتفريق ما ألفا
قال : فنظرت إلى جعفر وقلت : أما لئن أصبحت اليوم آية فلقد كنت في الكرم والجود غاية ،
قال : فنظر إلى كأنه جل صؤول ثم أنشأ يقول : -
ما يعجب العالم من جعفر * ما عاينوه فبنا كانا
من جعفر أو من أبوه ومن * كانت بنو برك لولانا
ثم حول وجهه قرسه وانصرف .

وقد كان مقتل جعفر ليلة السبت مستهل صفر من سنة سبع وثمانين ومائة ، وكان عمره سبعاً
وثلاثين سنة ، ومكث وزيراً سبع عشرة سنة . وقد دخلت عبادة أم جعفر على أناس في يوم عيد
أضحى تستمنحهم جلد كبش تدفأ به ، فسألوها عن ما كانت فيه من النعمة فقالت : لقد أصبحت في
مثل هذا اليوم وإن على رأسي أربعمائة وصيفة ، وأقول إن ابني جعفر آلق لي . وروى الخطيب
البغدادي بإسناده أن سفيان بن عيينة لما بلغه قتل الرشيد جعفرأ وما أحل بالبرامكة ، استقبل القبلة
وقال : اللهم إن جعفرأ كان قد كفاني مؤنة الدنيا فاكفه مؤنة الآخرة .

حكاية غريبة

ذكر ابن الجوزي في المنتظم أن المأمون بلغه أن رجلاً يأتي كل يوم إلى قبور البرامكة فيبكي
عليهم ويندبهم ، فبعث من جاء به فدخل عليه وقد يتس من الحياة ، فقال له : ويحك ! ما يملكك على
صنيعك هذا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إنهم أسدوا إلى معروفأ وخيراً كثيراً . فقال : وما الذي

أسدوه إليك؟ قال: أنا المنذر بن المغيرة من أهل دمشق، كنت بدمشق في نعمة عظيمة واسعة، فرالت عني حتى أفضى بي الحال إلى أن بمت داري، ثم لم يبق لي شيء، فأشار بعض أصحابي على بقصد البرامكة ببغداد، فأتيت أهلي وتحملت بعالي، فأتيت بغداد ومعي نيف وعشرون امرأة فأنزلتهم في مسجد مهجور ثم قصبت مسجدا مأهولا أصلي فيه. فدخلت مسجداً فيه جماعة لم أر أحسن وجوهاً منهم، فجلست إليهم فجعلت أدبر في نفسي كلاماً أطلب به منهم قوتاً للعيال الذين معي، فيمنعني من ذلك السؤال الحياء، فبينما أنا كذلك إذا بخادم قد أقبل فدعاهم فقاموا كلهم وقبت معهم، فدخلوا داراً عظيمة، فاذا الوزير يحيى بن خالد جالس فيها فجلسوا حوله، فمقد عقد ابنته عائشة على ابن عم له ونثروا فلق المسك وبنادق العنبر، ثم جاء الخدم إلى كل واحد من الجماعة بصينية من فضة فيها ألف دينار، ومعهما فئات المسك، فأخذها القوم ونهضوا وبقيت أنا جالساً، وبين يدي الصينية التي وضعوها لي، وأنا أهاب أن آخذها من عظمتها في نفسي، فقال لي بعض الحاضرين: ألا تأخذها وتذهب؟ فددت يدي فأخذتها فأفرغت ذهبها في جيبى وأخذت الصينية تحت إبطي وقت، وأنا خائف أن تؤخذ مني، فجعلت أتلفت والوزير ينظر إلى وأنا لا أشعر، فلما بلغت الستارة أمرهم فردوني فيئست من المال، فلما رجعت قال لي: ما شأنك خائف؟ فقصصت عليه خبري، فبكي ثم قال لأولاده: خذوا هذا فضموه إليكم. فجاءني خادم فأخذ مني الصينية والذهب وأقت عندم عشرة أيام من ولد إلى ولد، وخاطري كله عند عيالي، ولا يمكنني الانصراف، فلما اقتضت العشرة الأيام جاءني خادم فقال: ألا تذهب إلى عيالك؟ قلت: بلى والله، فقام يمشي أمامي ولم يعطني الذهب ولا الصينية، قلت: يا ليت هذا كان قبل أن يؤخذ مني الصينية والذهب، ياليت عيالي رأوا ذلك. فسار يمشي أمامي إلى دار لم أر أحسن منها، فدخلتها فاذا عيالي يتمرغون في الذهب والحريز فيها، وقد بعثوا إلى الدار مائة ألف درهم وعشرة آلاف دينار، وكتابا فيه تملك الدار بما فيها، وكتابا آخر فيه تملك قريتين جليلتين، فكنت مع البرامكة في أطيب عيش، فلما أصيدوا أخذ مني عمرو بن مسعدة القريتين وألزماني بخراجهما، فكلما لحقتني فاقة قصدت دورم وقبورهم فبكيته عليهم. فأمر المأمون برد القريتين، فبكي الشيخ بكاء شديداً فقال المأمون: مالك؟ ألم استأنف بك جيلاً؟ قال: بلى! ولكن هو من بركة البرامكة. فقال له المأمون: امض مصاحباً فان الوفاء مبارك، ومراعاة حسن العهد والصحبة من الإيمان. وفيها توفي:

الفضيل بن عياض

أبو علي التميمي أحد أئمة العباد الزهاد، وهو أحد العلماء والأولياء، ولد بخراسان بكورة دينور وقدم الكوفة وهو كبير، فسمع بها الأعمش ومنصور بن المعتمر وعطاء بن السائب وحصين بن

عبد الرحمن وغيرهم . ثم انتقل إلى مكة فتعبد بها ، وكان حسن التلاوة كثير الصلاة والصيام ، وكان سيداً جليلاً ثقة من أئمة الرواية رحمه الله ورضي عنه . وله مع الرشيد قصة طويلة ، وقد روينا ذلك مطولاً في كيفية دخول الرشيد عليه منزله ، وما قال له الفضيل بن عياض ، وعرض عليه الرشيد المال فأبى أن يقبل منه ذلك . توفي بمكة في المحرم من هذه السنة . وذكروا أنه كان شاطراً يقطع الطريق ، وكان يتمشق جارية ، فبينما هو ذات ليلة يتسور عليها جداراً إذ سمع قارئاً يقرأ [ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله] فقال : بلى ! فأتى وأقفل عما كان عليه . ورجع إلى خربة فبات بها فسمع سفاراً يقولون : خذوا حذرکم إن فضيلاً أمامكم يقطع الطريق ، فأمهم واستمر على توبته حتى كان منه ما كان من السيادة والعبادة والزهادة ، ثم صار علماً يقتدى به ويهتدى بكلامه وفعاله . قال الفضيل : لو أن الدنيا كلها حلال لأحاسب بها لكنت أتقنرها كما يتقنر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه ، وقال : العمل لأجل الناس شرك ، وترك العمل لأجل الناس رياء ، والإخلاص أن يمايك الله منهما . وقال له الرشيد يوماً : ما أزهذك ، فقال : أنت أزهد مني ، لأنني أما زهدت في الدنيا التي هي أقل من جناح بعوضة ، وأنت زهدت في الآخرة التي لا قيمة لها ، فأنا زاهد في الثاني وأنت زاهد في الباقي . ومن زهد في درة أزهد من زهد في برة . وقد روى مثل هذا عن أبي حازم أنه قال ذلك لسليمان بن عبد الملك .

وقال : لو أن لي دعوة مستجابة لجمعتها للامام ، لأن به صلاح الرعية ، فإذا صلح أمنت العباد والبلاد . وقال : إني لأعصى الله فأعرف ذلك في خلق حمارى وخادمى وامرأتى وفأريبتى [وقال في قوله تعالى : [ليلوكم أيكم أحسن عملاً] . قال : يعنى أخلصه وأصوبه ، إن العمل يجب أن يكون خالصاً لله ، وصواباً على متابعة النبي (ص)]^(١) وفيها توفي :

بشر بن المفضل . وعبد السلام بن حرب . وعبد العزيز بن محمد الدراوردي . وعبد العزيز العمى . وعلى بن عيسى ، الأمير ببلاد الروم مع القاسم بن الرشيد في الصائفة . ومعتز بن سليمان وأبو شعيب البرائى الزاهد ، وكان أول من سكن برائاً في كوخ له يتعبد فيه ، فهو يته امرأة من بنات الرؤساء فأنخلعت مما كانت فيه من الدنيا والسعادة والحشمة ، وتزوجته وأقامت معه في كوخه تتعبد حتى ماتا ، يقال إن اسمها جوهرة .

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين ومائة

فيها غزا إبراهيم بن إسرائيل الصائفة فدخل بلاد الروم من درب الصفصاف فخرج النقفور لقاته فخرج النقفور ثلاث جراح ، وانهمزم ، وقتل من أصحابه أكثر من أربعين ألفاً ، وغنموا أكثر من

أربعة آلاف دابة . وفيها رابط القاسم بن الرشيد بمرج دابق . وفيها حج بالناس الرشيد ، وكانت آخر حجاته . وقد قال أبو بكر حين رأى الرشيد منصرفاً من الحج - وقد اجتاز بالكوفة - لا يحج الرشيد بعدها ، ولا يحج بعده خليفة أبداً . وقد رأى الرشيد بهلول الموله فوعظه موعظة حسنة ، فروينا من طريق الفضل بن الربيع الحاجب قال : حججت مع الرشيد فررنا بالكوفة فاذا بهلول المجنون يهني ، فقلت : اسكت فقد أقبل أمير المؤمنين ، فسكت . فلما حاذاه الهودج قال : يا أمير المؤمنين حدثني أيمن بن قائل ثنا قدامة بن عبد الله العامري قال . رأيت النبي (ص) ، بمعنى على جمل ونحته رحل رث ، ولم يكن ثم طرد ولا ضرب ولا إليك إليك . قال الربيع فقلت : يا أمير المؤمنين إنه بهلول ، فقال : قد عرفته ، قل يا بهلول فقال :

هَبْ أَنْ قَدْ مَلَكَتِ الْأَرْضَ طَرَا • ودانَ لَكَ العبادُ فكانَ ماذا
أليسَ غداً مصيرُكَ جوفَ قبرٍ • وبخو عليكِ الترابَ هذا ثم هذا

قال : أجمت يا بهلول ، أفخير ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ! من رزقه الله مالا وجمالاً ففد في جماله ، وواسى في ماله ، كتب في ديوان الله من الأبرار . قال : فظن أنه يريد شيئاً ، فقال : إنا أمرنا بقضاء دينك . قال : لا تفعل يا أمير المؤمنين ، لا يقضى دين بدين ، اردد الحق إلى أهله واقض دين نفسك من نفسك . قال : إنا أمرنا أن يجرى عليك رزق تقتات به . قال : لا تفعل يا أمير المؤمنين فإنه سبحانه لا يعطيك وينساني . رها أنا قد عشت عمراً لم تجر على رزقا ، انصرف لأحاجة لي في جرايتك . قال : هذه ألف دينار خذها . فقال : ارددها على أصحابها فهو خير لك ، وما أصنع أنا بها ؟ انصرف عني فقد آذيتني . قال : فانصرف عنه الرشيد وقد تصاغرت عنده الدنيا . ومن توفى فيها من الأعيان :

أبو اسحاق الفزاري

إبراهيم بن محمد بن الحارث بن إسماعيل بن خارجة ، إمام أهل الشام في المغازي وغير ذلك . أخذ عن الثوري والأوزاعي وغيرهما ، توفى في هذه السنة . وقيل قبلها .

وإبراهيم الموصلي

النديم ، وهو إبراهيم بن ماهان بن بهمن أبو إسحاق ، أحد الشعراء والمفتين والندماء للرشيد وغيره ، أصله من الفرس وولد بالكوفة وصحب شبانها وأخذ عنهم الغناء ، ثم سافر إلى الموصل ثم عاد إلى الكوفة فقالوا : الموصلي . ثم اتصل بالخلفاء أولهم المهدي وحظي عند الرشيد ، وكان من جملة ساره وندمائه ومفتيه ، وقد أترى وكثر ماله جداً ، حتى قيل إنه ترك أربعة وعشرين ألف ألف

درهم ، وكانت له طرف وحكايات غريبة ، وكان مولده سنة خمس عشرة ومائة في الكوفة ، ونشأ في كفالة بنى تميم ، فتعلم منهم ونسب إليهم ، وكان فاضلاً بارعاً في صناعة الغناء ، وكان مزوجاً بأخت المنصور الملقب بزئز ، الذي كان يضرب معه ، فاذا غنى هذا وضرب هذا اهتز المجلس . توفي في هذه السنة على الصحيح ، وحكى ابن خلدكان في الوفيات أنه توفي وأبو العتاهية وأبو عمرو الشيباني ببغداد في يوم واحد من سنة ثلاث عشرة ومائتين . وصحح الأول . ومن قوله في شعره عند اختضاره قوله :

ملّ والله طيبي * من مقاساة الذي بي

سوف أنعى عن قريب * لعدوٍ وحبيب

وفيه مات جرير بن عبد الحميد . ورشد بن سعد . وعبد بن سليمان . وعقبة بن خالد . وعمر ابن أبوب العابد أحد مشايخ أحمد بن حنبل . وعيسى بن يونس في قول .

ثم دخلت سنة تسع وثمانين ومائة

فيها رجع الرشيد من الحج وسار إلى الري فولى وعزل . وفيها رد على بن عيسى إلى ولاية خراسان ، وجاءه نواب تلك البلاد بالهدايا والتحف من سائر الأشكال والألوان ، ثم عاد إلى بغداد فأدركه عيد الأضحى بقصر اللصوص فضحى عنده ، ودخل إلى بغداد لثلاث بقين من ذى الحجة ، فلما اجتاز بالجسر أمر بجثة جعفر بن يحيى البرمكي فأحرقت ودفنت ، وكانت مصلوبة من حين قتل إلى هذا اليوم ، ثم ارتحل الرشيد من بغداد إلى الرقة ليسكنها وهو متأسف على بغداد وطبيها ، وإنما مراده بمقامه بالرقة ردع المفسدين بها ، وقد قال العباس بن الأحنف في خروجهم من بغداد مع الرشيد :

ما أنحنّا حتى ارتحلنا فما : * فرّق بين المناخ والارتحال

ساءلونا عن حالنا إذ قدّمنا * قرئنا وداعهم بالسؤال

وفيها فادى الرشيد الأسارى من المسلمين الذين كانوا ببلاد الروم ، حتى يقال إنه لم يترك بها أسيراً من المسلمين . فقال فيه بعض الشعراء :

وفكت بك الأسرى التي شيدت لها * محابس ما فيها حميم يزورها

على حين أعياء المسلمين فكأكلها * وقالوا سجون المشركين قبورها

وفيها رابط القاسم بن الرشيد بمرج دابق بمحاصر الروم . وفيها حج بالناس العباس بن موسى ابن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس .

ذكر من توفي فيها من الأعيان

علي بن حمزة بن عبد الله بن فيروز أبو الحسن الأسدي مولاهم ، الكوفي المعروف بالكسائي لأحرامه في كساء ، وقيل لاشتغاله على حمزة الزياني في كساء ، كان نحوياً لغوياً أحد أئمة القراء ، أصله

من الكوفة ثم استوطن بغداد ، فأدب الرشيد وولاه الأمين ، وقد قرأ على حمزة بن حبيب الزيات قراءته ، وكان يقرئ بها ، ثم اختار لنفسه قراءة وكان يقرأ بها . وقد روى عن أبي بكر بن عياش وسفيان بن عيينة وغيرهما ، وعنه يحيى بن زياد الفراء وأبو عبيد . قال الشافعي : من أراد النحو فهو عيال على الكسائي . أخذ الكسائي عن الخليل صناعة النحو فسأله يوماً : عن من أخذت هذا العلم ؟ قال : من بوادي الحجاز . فرحل الكسائي إلى هناك فكتب عن العرب شيئاً كثيراً ، ثم عاد إلى الخليل فإذا هو قد مات وتصدر في موضعه يونس ، فجرت بينهما مناظرات أقر له فيها يونس بالفضل ، وأجلسه في موضعه .

قال الكسائي : صليت يوماً بالرشيد فأعجبني قراءتي ، فغلطت غلطة ما غلطها صبي ، أردت أن أقول لعلمهم يرجعون ، فقلت لعلمهم ترجمين ، فما تجاسر الرشيد أن يردّها . فلما سلمت قال : أي لغة هذه ؟ فقلت : إن الجواد قد يعثر . فقال : أما هذا فنعم . وقال بعضهم : لقيت الكسائي فإذا هو مهموم ، فقلت : مالك ؟ فقال : إن يحيى بن خالد قد وجه إلى ليسألني عن أشياء فأخشى من الخطأ ، فقلت : قل ما شئت فأنت الكسائي ، فقال : قطعه الله - يعني لسانه - إن قلت ما لم أعلم . وقال الكسائي يوماً قلت لنجار : بكم هذان البابان ؟ فقال : بسالجيان يا مصفعان .

توفي الكسائي في هذه السنة على المشهور ، عن سبعين سنة . وكان في صحبة الرشيد ببلاد الري فأتى بنواحيها هو ومحمد بن الحسن في يوم واحد ، وكان الرشيد يقول : دفنت الفقه والعريبة بالري . قال ابن خلكان : وقيل إن الكسائي توفي بطوس سنة ثنتين وثمانين ومائة ، وقد رأى بعضهم الكسائي في المنام ووجهه كالبرق فقال : ما فعل بك ربك ؟ فقال : غفر لي بالقرآن . فقلت : ما فعل حمزة ؟ قال : ذاك في عليين ، ما نراه إلا كما نرى الكوكب . وفيها توفي :

محمد بن الحسن بن زفر

أبو عبد الله الشيباني مولاهم ، صاحب أبي حنيفة . أصله من قرية من قرى دمشق ، قدم أبوه العراق فولد بواسط سنة ثنتين وثلاثين ومائة ، ونشأ بالكوفة فسمع من أبي حنيفة ومسلم والثوري وعمر بن ذر ومالك بن مغول ، وكتب عن مالك بن أنس والأوزاعي وأبي يوسف ، وسكن بغداد وحدث بها ، وكتب عنه الشافعي حين قدمها في سنة أربع وثمانين ومائة ، وولاه الرشيد قضاء الرقة ثم عزله . وكان يقول لأهله : لا تسألوني حاجة من حاجات الدنيا فتشغلوا قلبي . وخذوا ما شئتم من مالي فإنه أقل لمني وأفرغ لقلبي . وقال الشافعي : ما رأيت حبراً سمياً مثله ، ولا رأيت أخف روحاً منه ، ولا أفصح منه . كنت إذا سمعته يقرأ القرآن كأنما ينزل القرآن بلغته . وقال أيضاً : ما رأيت أعقل منه ، كان يملأ العين والقلب ، قال الطحاوي : كان الشافعي قد طلب من محمد بن الحسن

كتاب السير فلم يجبه إلى الاعارة فكتب إليه :-

قل للذي لم تَرَ عَيْنَيْ مثله * حتى كأنَّ مَنْ رَأَاهُ قَدْ رَأَى مِنْ قَبْلِهِ
العلمُ ينهى أهله أَنْ يَمْنُوهُ أهله * لعله بينه لأهله لعله

قال : فوجه به إليه في الحال هدية لاعارية . وقال إبراهيم الحربي : قيل لأحمد بن حنبل : هذه المسائل الدقاق من أين هي لك ؟ قال : من كتب محمد بن الحسن رحمه الله . وقد تقدم أنه مات هو والسكاسي في يوم واحد من هذه السنة . فقال الرشيد : دفنت اليوم اللغة والفقه جميعاً . وكان عمره ثمانية وخمسين سنة . ثم دخلت سنة تسعين ومائة من الهجرة

فيها خلع رافع بن ليث بن نصر بن سيار نائب سمرقند الطاعة ودعا إلى نفسه ، وتابعه أهل بلده وطائفة كثيرة من تلك الناحية ، واستفعل أمره ، فسار إليه نائب خراسان علي بن عيسى فهزمه رافع وتفاقم الأمر به . وفيها سار الرشيد ليز وبلاد الروم لعشر بقين من رجب ، وقد لبس على رأسه قلنسوة فقتل فيها أبو المعلل الكلبي :

فمن يطلب لقاءك أو يرده * فبالحرمين أو أقصى الثغور
ففي أرض العدو على طمر * وفي أرض الترفه فوق كور
وما حاز الثغور سواك خلق * من المتخلفين على الأمور

فسار حتى وصل إلى الطوانة فمسكرها وبعث إليه تغفور بالطاعة وحمل الخراج والجزية حتى عن رأس ولده ورأسه ، وأهل مملكته ، في كل سنة خمسة عشر ألف دينار ، وبعث يطلب من الرشيد جارية قد أسروها وكانت ابنة ملك هرقة ، وكان قد خطبها على ولده ، فبعث بها الرشيد مع هدايا ونحف وطيب بعث يطلبه من الرشيد ، واشترط عليه الرشيد أن يحمل في كل سنة ثلثمائة ألف دينار ، وأن لا يعمد هرقة . ثم انصرف الرشيد راجعاً واستناب على الغزو عقبة بن جعفر . ونقض أهل قبرص العهد فزاحم معيوف بن يحيى ، فسبى أهلها وقتل منهم خلقاً كثيراً . وخرج رجل من عبد القيس فبعث إليه الرشيد من قتله . وحج بالناس فيها عيسى بن موسى الهادي .

من توفي فيها من الأعيان والمشاهير

أسد بن عمرو بن عامر أبو المنذر البجلي الكوفي صاحب أبي حنيفة ، حكم ببغداد وبواسط ، فلما انكف بصره عزل نفسه عن القضاء . قال أحمد بن حنبل : كان صدوقاً . ووثقه ابن معين ، وتكلم فيه علي بن المديني والبخاري وسعدون المجنون صام ستين سنة نخف دماغه فسماء الناس

مجنونا ، وقف يوماً على حلقة ذي النون المصري فسمع كلامه فصرخ ثم أنشأ يقول :

ولاخير في شكوى إلى غير مشتكى * ولا بد من شكوى إذا لم يكن صبر

وقال الأصمعي : مررت به وهو جالس عند رأس شيخ سكران يندب عنه ، فقلت له : مالي أراك عند رأس هذا الشيخ ؟ فقال : إنه مجنون . فقلت : أنت مجنون أو هو ؟ قال : لا بل هو ، لأنني صليت الظهر والعصر في جماعة وهو لم يصل جماعة ولا فرادى . وهو مع هذا قد شرب الخمر وأنا لم أشربها . قلت : فهل قلت في هذا شيئاً ؟ قال : نعم ، ثم أنشأ يقول : -
 تركت النبيذ لأهل النبيذ * وأصبحت أشرب ماء قراحا
 لأن النبيذ يذل العزير * ويكسو السواد الوجوه الصباها
 فان كان ذا جائزاً للشباب * فما العذر منه إذا الشيب لاحا
 قال الأصمعي : فقلت له : صدقت ، أنت العاقل وهو المجنون .

وعبيدة بن حميد بن صهيب ، أبو عبد الرحمن التميمي الكوفي ، مؤدب الأمين . روى عن الأعمش وغيره ، وعنه أحمد بن حنبل . وكان يثنى عليه . وفيها توفي :

بجى بن خالدة بن برمك

أبو علي الوزير والد جعفر البرمكي ، ضم إليه المهدي ولده الرشيد فرباه ، وأرضعته امرأته مع الفضل بن بجى ، فلما ولي الرشيد عرف له حقه ، وكان يقول : قال أبي ، قال أبي . وفوض إليه أمور الخلافة وأزمتهما ، ولم يزل كذلك حتى نكبت البرامكة فقتل جعفر وخلد أباه بجى في الحبس حتى مات في هذه السنة . وكان كريماً فصيحاً ، ذا رأى سديد ، يظهر من أموره خير وصلاح . قال يوماً لولده : خذوا من كل شيء طرفاً ، فان من جهل شيئاً عاده . وقال لأولاده : اكتبوا أحسن ما تسمعون ، واحفظوا أحسن ما تكتبون ، وتحدثوا بأحسن ما تحفظون . وكان يقول لهم : إذا أقبلت الدنيا فأنفقوا منها فانها لا تبقى ، وإذا أدبرت فأنفقوا منها فانها لا تبقى ، وكان إذا سأله سائل في الطريق وهو راكب أقل ما يأمر له بمائتي درهم فقال رجل يوماً : -

يا سمي الحصورِ بجى * أتبحث لك من فضل ربنا جنتان
 كل من مر في الطريق عليكم * فله من نوالكم مائتان
 مائتا درهم لمثل قليله * هي للفراس العجلان

فقال : صدقت . وأمر فسبق به إلى الدار ، فلما رجع سأل عنه فإذا هو قد تزوج وهو يريد أن يدخل على أهله فأعطاه صداقها أربعة آلاف ، وعن دار أربعة آلاف ، وعن الأمتعة أربعة آلاف . وكلفة الدخول أربعة آلاف ، وأربعة آلاف يستظهر بها . وجاء رجل يوماً فسأله شيئاً فقال : وبجك لقد جئتني في وقت لا أملك فيه مالا ، وقد بعث إلى صاحب لي يطلب مني أن يهدي إلى ما أحب ، وقد بلغني أنك تريد أن تبسج جارية لك ، وأنت قد أعطيت فيها ثلاثة آلاف دينار ، وإني سأطلبها

فلا تبعها منه بأقل من ثلاثين ألف دينار . فجاؤني فبلغوا معي بالمساومة إلى عشرين ألف دينار ، فلما سمعتها ضعف قلبي عن ردها ، وأجبت إلى بيعها ، فأخذها وأخذت العشرين ألف دينار . فأهداها إلى يحيى ، فلما اجتمعت بيحيى قال : بكم بيعتها ؟ قلت : بعشرين ألف دينار . قال : إنك لخسيس خذ جاريتك إليك وقد بعث إلى صاحب فارس يطلب منى أن أستهديه شيئاً ، وإني سأطلبها منه . فلا تبعها بأقل من خمسين ألف دينار . فجاؤني فوصلوا في ثمنها إلى ثلاثين ألف دينار ، فبعتها منهم . فلما جئته لأمنى أيضاً وردها على ، فقلت : أشهدك أنها حرة وأنى قد تزوجتها ، وقلت : جارية قد أفادتنى خمسين ألف دينار لا أفرط فيها بعد اليوم .

وذكر الخطيب أن الرشيد طلب من منصور بن زياد عشرة آلاف ألف درهم ، ولم يكن عنده منها سوى ألف ألف درهم ، فضاق ذرعاً ، وقد توعدته بالقتل وخراب الديار إن لم يحملها في يومه ذلك ، فدخل على يحيى بن خالد وذكر أمره فأطلق له خمسة آلاف ألف ، واستطلق له من ابنه الفضل ألفي ألف ، وقال لابنه : يا بني بلغنى أنك تريد أن تشتري بها ضيعة . وهذه ضيعة تغل الشكر وتبقى مدى الدهر . وأخذ له من ابنه جعفر ألف ألف ، ومن جاريته دنانير عقداً اشتراه بمائة ألف دينار ، وعشرون ألف دينار ، وقال للرسم عليه : قد حسبناه عليك بألفي ألف . فلما عرضت الأموال على الرشيد رد العقد ، وكان قد وهبه لجارية يحيى ، فلم يعد فيه بمد إذ وهبه . وقال له بعض بنييه وم في السجن والقيود : يا أبت بعد الأمر والنهى والنعمة صرنا إلى هذا الحال ، فقال : يا بني دعوة مظلوم سرت بليل ونحن عنها غافلون ولم يفعل الله عنها . ثم أنشأ يقول :

ربِّ قومٍ قد غدوا في نعمة * زمناً والدهر ريانُ غدق
سكت الدهر زماناً عنهم * ثم أبكاهم دماحين نطق

وقد كان يحيى بن خالد هذا يجرى على سفيان بن عيينة كل شهر ألف درهم ، وكان سفيان يدعو له في سجوده يقول : اللهم إنه قد كفاني المؤنة وفرغني للعبادة فاكفه أمر آخرته . فلما مات يحيى رآه بعض أصحابه في المنام فقال : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي بدعاء سفيان .

وقد كانت وفاة يحيى بن خالد رحمه الله في الحبس في الرافقة لثلاث خلون من المحرم من هذه السنة عن سبعين سنة ، وصلى عليه ابنه الفضل ، ودفن على شط الفرات ، وقد وجد في جيبه رقعة مكتوب فيها بخطه : قد تقدم الخصم والمدعى عليه بالأثر ، والحاكم الحكم العدل الذي لا يجوز ولا يحتاج إلى بينة . فحملت إلى الرشيد فلما قرأها بكى يومه ذلك ، وبقى أياماً يتبين الأسى في وجهه . وقد قال بعض الشعراء في يحيى بن خالد : -

سألت النداء هل أنت حرٌّ فقال لا * ولكنني عبده ليحيى بن خالد

قلت شراء قال لا بل ورائة * توارث رقي والده بعد والده
ثم دخلت سنة احدى وتسعين ومائة

فيها خرج رجل بسواد العراق يقال له ثروان بن سيف ، وجعل يتنقل فيها من بلد إلى بلد ، فوجه إليه الرشيد طوق بن مالك فهزمه وجرح ثروان وقتل عامة أصحابه ، وكتب بالفتح إلى الرشيد . وفيها خرج بالشام أبو النداء فوجه إليه الرشيد يحيى بن معاذ واستنابه على الشام . وفيها وقع التلج ببغداد . وفيها غزا بلاد الروم يزيد بن مخلد الهبيري في عشرة آلاف ، فأخذت عليه الروم المضيق فقتلوه في خمسين من أصحابه على مرحلتين من طرسوس ، وانهمزم الباقون ، وولى الرشيد غزو الصائفة هرثمة بن أعين ، وضم إليه ثلاثين ألفاً فيهم مسرور الخادم ، وإليه النفقات .

وخرج الرشيد إلى الحدث ليكون قريباً منهم . وأمر الرشيد بهدم الكنائس والديور ، وألزم أهل الذمة بتمييز لباسهم وهياتهم في بغداد وغيرها من البلاد . وفيها عزل الرشيد على بن موسى عن إمرة خراسان وولاه هرثمة بن أعين . وفيها فتح الرشيد هرقة في شوال وخرّبها وسبى أهلها وبث الجيوش والسرايا بأرض الروم إلى عين زربة ، والكنيسة السوداء . وكان دخل هرقة في كل يوم مائة ألف وخمسة وثلاثين ألف مرتزق ، وولى حميد بن معيوف سواحل الشام إلى مصر ، ودخل جزيرة قبرص فسبى أهلها وحملهم حتى باعهم بالرافقة ، فبلغ ثمن الأسقف ألفي دينار ، باعهم أبو البختري القاضي .

وفيها أسلم الفضل بن سهل على يدى المأمون . وحج بالناس فيها الفضل بن عباس بن محمد بن على العباسي ، وكان والى مكة ، ولم يكن للناس بعد هذه السنة صائفة إلى سنة خمس عشرة ومائتين . وفيها توفى من الأعيان :

سلمة بن الفضل الأبرش . وعبد الرحمن بن القاسم الفقيه الراوى عن مالك بن يونس بن أبي إسحاق ، قدم على الرشيد فأمر له بمال جزيل ، نحواً من خمسين ألفاً فلم يقبله . والفضل بن موسى الشيباني . ومحمد بن سلمة . ومحمد بن الحسين المصيصي أحد الزهاد الثقات . قال لم أتكلم بكلمة أحتاج إلى الاعتذار منها منذ خمسين سنة . وفيها توفى معمر الرقي .

ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين ومائة

فيها دخل هرثمة بن أعين إلى خراسان نائباً عليها ، فقبض على علي بن عيسى فأخذ أمواله وحواصله وأركبه على بعير وجهه لذنبه ونادى عليه ببلاد خراسان ، وكتب إلى الرشيد بذلك فشكره على ذلك ، ثم أرسله إلى الرشيد بعد ذلك فحبس بداره ببغداد . وفيها ولى الرشيد ثابت بن نصر بن مالك نيابة الثغور فسفل بلاد الروم وفتح مطمورة . وفيها كان الصلح بين المسلمين والروم على يد ثابت

ابن نصر . وفيها خرجت الخرمية بالجليل و بلاد أذربيجان . فوجه الرشيد إليهم عبد الله بن مالك بن الهيثم الخزاعي في عشرة آلاف فارس قتل منهم خلقا وأمر وسبي ذراريهم ، وقدم بهم بغداد فأمر له الرشيد بقتل الرجال منهم ، وبالذرية فبيعوا فيها . وكان قد غزام قبل ذلك خزيمة بن خازم . وفي ربيع الأول منها قدم الرشيد من الرقة إلى بغداد في السفن وقد استخلف على الرقة ابنه القاسم وبين يديه خزيمة بن خازم ، ومن نية الرشيد الذهاب إلى خراسان لغزو رافع بن ليث الذي كان قد خلع الطاعة واستحوذ على بلاد كثيرة من بلاد سمرقند وغيرها ، ثم خرج الرشيد في شعبان قاصداً خراسان ، واستخلف على بغداد ابنه محمداً الأمين ، وسأل المأمون من أبيه أن يخرج معه خوفاً من غدر أخيه الأمين ، فأذن له فسار معه وقد شكا الرشيد في أثناء الطريق إلى بعض أمرائه جفاء بنيه الثلاثة الذين جعلهم ولاية للعهد من بعده ، وأراه داء في جسده ، وقال إن لسكل واحد من الأميين والمأمون والقاسم عندي عينا على ، وهم يعدون أنقاسي ويتمنون انقضاء أيامي ، وذلك شر لهم لو كانوا يعلمون . فدعا له ذلك الأمير ثم أمر له الرشيد بالانصراف إلى عمله وودعه ، وكان آخر العهد به .

وفيها تحرك ثروان الحروري وقتل عامل السلطان بطف البصرة . وفيها قتل الرشيد الهيصم اليماني . ومات عيسى بن جعفر وهو يريد اللحاق بالرشيد فمات في الطريق . وفيها حج بالناس العباس ابن عبد الله بن جعفر بن أبي جعفر المنصور . وفيها توفي :

اسماعيل بن جامع

ابن إسماعيل بن عبد الله بن المطلب بن أبي وداعة أبو القاسم ، أحد المشاهير بالفناء ، كان ممن يضرب به المثل ، وقد كان أولاً يحفظ القرآن ثم صار إلى صناعة الغناء وترك القرآن ، وذكر عنه أبو الفرج بن علي بن الحسين صاحب الأغاني حكايات غريبة ، من ذلك أنه قال كنت يوماً مشرفاً من غرفة بمحزان إذ أقبلت جارية سوداء معها قرابة تستقي الماء ، فجلست ووضعت قربتها واندفعت تغني :

إلى الله أشكو بخلها وسماحتي * لها عسلٌ مِنِّي وتبذلُ عَلَمًا

فرددي مصاب القلب أنتِ قتلتي * ولا تتركه هام القلب مغرمًا

قال : فسمعت مالا صبر لي عنه ورجوت أن تعيده فقامت وانصرفت ، فترلت وانطلقت وراءها وسألتها أن تعيده فقالت : إن علي خراجاً كل يوم درهمين ، فأعطيتها درهمين فأعادته فحفظته وسلكته يومئذ ذلك ، فلما أصبحت أنسيته فأقبلت السوداء فسألتها أن تعيده فلم تفعل إلا بدرهمين ، ثم قالت : كأنك تستكثر أربعة دراهم ، كأنني بك وقد أخذت عليه أربعة آلاف دينار . قال فتنبته ليلة للرشيد فأعطاني ألف دينار ، ثم استعادنيه ثلاث مرات أخرى وأعطاني ثلاثة آلاف دينار ، فنبست فقال : مم تبست ؟ فذكرت له القصة فضحك وألقى إلي كيساً آخر فيه ألف دينار . وقال :

لا أكذب السوداء . وحكى عنه أيضاً قال : أصبحت يوماً بالمدينة وليس معي إلا ثلاثة دراهم ، فإذا جارية على رقبته جرة تريد الركي وهي تسعى وترنم بصوت شجي : -

شكونا إلى أحبابنا طولَ ليلنا * فقالوا لنا ما أقصرَ الليلُ عندنا
وذاك لأنَّ النومَ يغشى عيونهم * سريماً ولا يغشى لنا النومُ أعيننا
إذا مادنا الليلَ المضربُ بذى الهوى * جزعنا وهم يستبشرونَ إذا دنا
فلو أنهم كانوا يلاقونَ مثلنا * فلاقوا لكانوا في المضاجعِ مثلنا

قال : فاستعدته منها وأعطيتها الدراهم الثلاثة فقالت : لتأخذن بدلها ألف دينار ، وألف دينار وألف دينار . فأعطاني الرشيد ثلاثة آلاف دينار في ليلة على ذلك الصوت . وفيها توفي :

بكر بن النطاح أبو وائل الحنفي البصري الشاعر المشهور ، نزل بغداد زمن الرشيد ، وكان يخالط أبا العتاهية . قال أبو عوفان : أشعر أهل العدل من المحدثين أربعة ، أولهم بكر بن النطاح . وقال المبرد : سمعت الحسن بن رجاء يقول اجتمع جماعة من الشعراء ومعهم بكر بن النطاح يتناشدون ، فلما فرغوا من طوالهم أنشد بكر بن النطاح لنفسه :

ما ضرها لو كتبت بالرضى * فحَفَّ جفنُ العينِ أو أغمضها
شفاعَةً مردودةً عندها * في عاشقٍ يودُ لو قد قضى
يانفسُ صبراً واعلمي أنما * يأملُ منها مثلما قد مضى
لَمْ تَمْرُضِ الأُجْفَانُ مِنْ قَاتِلٍ * بلحظٍ إلا لأنَّ أَمْرَضَا
قال : فابتدروه بقلون رأسه . ولما مات رثاه أبو العتاهية فقال :

ماتَ ابنُ نطاحٍ أبو وائلٍ * بكري فأمسى الشعرُ قد بانا

وفيها توفي بهلول المجنون ، كان يأوي إلى مقابر الكوفة ، وكان يتكلم بكلمات حسنة ، وقد وعظ الرشيد وغيره كما تقدم . وعبد الله بن إدريس .

الأودي الكوفي ، سمع الأعمش وابن جريج وشعبة ومالكاً وخلقاء سوام . وروى عنه جماعات من الأئمة ، وقد استدعاه الرشيد ليؤليه القضاء فقال : لا أصلح ، وامتنع أشد الامتناع ، وكان قد سأل قبله وكيعاً فامتنع أيضاً ، فطلب حفص بن غياث قبل . وأطلق لكل واحد خمسة آلاف عوضاً عن كلفته التي تكلفها في السفر ، فلم يقبل وكيع ولا ابن إدريس ، وقبل ذلك حفص ، فخلف ابن إدريس لا يكلمه أبداً . وحجج الرشيد في بعض السنين فاجتاز بالكوفة ومعه القاضي أبو يوسف والأمين والمأمون ، فأمر الرشيد أن يجتمع شيوخ الحديث ليسمعوا ولديه ، فاجتمعوا إلا ابن إدريس هذا ، وعيسى بن يونس . فركب الأمين والمأمون بعد فراغهما من سماعهما على من اجتمع من

المشايع إلى ابن إدريس فأسمعها مائة حديث ، فقال له المأمون : يا عم إن أردت أعدتها من حفظي ، فأذن له فأعادها من حفظه كما سمعها ، فتعجب لحفظه . ثم أمر له المأمون بمال فلم يقبل منه شيئاً ، ثم سارا إلى عيسى بن يونس فسمعا عليه ثم أمر له المأمون بمشرة آلاف فلم يقبلها ، فظن أنه استقلها فأضعفها فقال : والله لو ملأت لي المسجد مالا إلى سقفه ما قبلت منه شيئاً على حديث رسول الله (ص) . ولما احتضر ابن إدريس بكت ابنته فقال : علام تبكي ؟ فقد ختمت في هذا البيت أربعة آلاف ختمه .

صعصعة بن سلام

ويقال ابن عبد الله أبو عبد الله الدمشقي ، ثم تحول إلى الأندلس فاستوطنها في زمن عبد الملك ابن معاوية وابنه هشام ، وهو أول من أدخل علم الحديث ومذهب الأوزاعي إلى بلاد الأندلس ، وولى الصلاة بقرطبة ، وفي أيامه غرست الأشجار بالمسجد الجامع هناك كما براه الأوزاعي والشاميون ويكرهه مالك وأصحابه . وقد روى عن مالك والأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز . وروى عنه جماعة منهم عبد الملك بن حبيب الفقيه ، وذكره في كتاب الفقهاء ، وذكره ابن يونس في تاريخه - تاريخ مصر - والحيدى في تاريخ الأندلس ، وحرر وفاته في هذه السنة . وحكى عن شيخه ابن حزم أن صمصمة هذا أول من أدخل مذهب الأوزاعي إلى الأندلس . وقال ابن يونس : أول من أدخل علم الحديث إليها . وذكر أنه توفي قريبا من سنة ثمانين ومائة ، والذي حرره الحيدى في هذه السنة أثبت

علي بن ظبيان

أبو الحسن العباسي قاضي الشرقية من بغداد ، ولاء الرشيد ذلك . كان ثقة عالماً من أصحاب أبي حنيفة ، ثم ولاء الرشيد قضاء القضاة ، وكان الرشيد يخرج معه إذا خرج من عنده ، مات بقوميسين في هذه السنة .

العباس بن الأحنف

ابن الأسود بن طلحة الشاعر المشهور ، كان من عرب خراسان ونشأ ببغداد ، وكان لطيفاً ظريفاً مقبولا حسن الشعر . قال أبو العباس قال عبد الله بن المعتز : لو قيل لي من أحسن الناس شعراً تعرفه ؟ لقلت العباس : —

قد سَحَبَ الناسُ أذيالَ الظنونِ بنا * وفرَّقَ الناسُ فينا قَوْلهم فِرْقاً

فكاذِبٌ قد رمى بالظنِّ غيرَكم * وصادقٌ ليسَ يَدري أَنه صَدَقا

وقد طلبه الرشيد ذات ليلة في أثناء الليل فترجع لذلك وخاف نساؤه ، فلما وقف بين يدي الرشيد قال له : ويحك إنه قد عن لي بيت في جارية لي فأحببت أن تشفعه بمنله ، فقال : يا أمير المؤمنين ما خفت أعظم من هذه الليلة ، فقال : ولم ؟ فذكر له دخول الحرس عليه في الليل ، ثم جلس حتى سكن روعه ثم قال : ما قلت يا أمير المؤمنين ؟ فقال :

حنانٌ قد رأيناها فلم نرَ مثلها بشراً * يزيدك وجهها حسناً إذا مازدته نظراً
قال الرشيد : زد . فقال :

إذا ما الليلُ مالَ عليك بالاظلام واعتكرا * ودجٍ فلم ترَ فجراً فابرزها ترَ قرا
قال : إنا قد رأيناها ، وقد أمرنا لك بمشرة . آلاف درهم . ومن شعره الذي أقر له فيه بشار
ابن برد وأثبتته في سلك الشعراء بسببه قوله :

أبكي الذين أذاقوني مودتهم * حتى إذا أيقظوني للهوى رقدوا
واستهضوني فلما قتُ منتصباً * بنقل ما حملوني منهم قعدوا
وله أيضاً وحدتني يا سعدُ عنها فردتني * جنونا فزدني من حديتك يا سعدُ
هواها هوى لم يعرف القلبُ غيره * فليس له قبلُ وليس له بعدُ

قال الأصمعي : دخلت على العباس بن الأحنف بالبصرة وهو طريح على فراشه يجود بنفسه وهو
يقول :
يا بعيدَ الدارِ عن وطني * مفرداً يبكي على شجته
كلما جدَّ النحيبُ به * زادت الأسقامُ في بدنه
ثم أغمى عليه ثم انقبه بصوت طائر على شجرة فقال :

ولقد زادَ الفؤادُ شجاً * هاتفَ يبكي على فتنه
شاقه ما شاقني فبكي * كلنا يبكي على سكنه

قال ثم أغمى عليه أخرى فحركته فاذا هو قد مات . قال الصولي : كانت وفاته في هذه السنة ،
وقيل بمسما ، وقيل قبلها في سنة ثمان وثمانين ومائة فله أعلم . وزعم بعض المؤرخين أنه بقى بعد
الرشيد . عيسى بن جعفر بن أبي جعفر المنصور

أخو زيدة ، كان نائباً على البصرة في أيام الرشيد فمات في أثناء هذه السنة . وفيها توفي :

الفضل بن يحيى

ابن خالد بن برمك أخو جعفر وأخوته ، كان هو والرشيد يتراضعان . أرضعت الخيزران فضلاً ،
وأرضعت أم الفضل وهي زبيدة بنت بن بويه هارون الرشيد . وكانت زبيدة هذه من مولدات بقبين
البرية ، وقد قال في ذلك بعض الشعراء :

كفى لك فضلاً أن أفضل حرة * غدتك بشدى والخليفة واحدة
لقد زنت يحيى في المشاهر كلها * كما زان يحيى خالداً في المشاهد

قالوا : وكان الفضل أكرم من أخيه جعفر ، ولكن كان فيه كبر شديد ، وكان عبوساً ، وكان
جعفر أحسن بشراً منه وأطلق وجهها ، وأقل عطاء . وكان الناس إليه أميل ، ولكن خصلة الكرم

تمطى جميع القبايح ، فهي تستر تلك الخصلة التي كانت في الفضل . وقد وهب الفضل لطلبه مائة ألف درهم فمابه أبوه على ذلك ، فقال : يا أبت إن هذا كان يصحبنى في العسر واليسر والعيش الخشن ، واستمر معي في هذا الحال فأحسن صحبتي ، وقد قال بعض الشعراء :

إِنَّ السَّكْرَامَ إِذَا مَا أَيْسَرُوا ذَكَرُوا • مَن كَانَ يَمْنَادُهُمْ فِي الْمَنْزِلِ الْخَشِنِ

ووهب يوماً لبعض الأدياء عشرة آلاف دينار فبكى الرجل فقال له : مم تبكي ، أستقلتها ؟ قال : لا والله ، ولكنني أبكي أن الأرض تأكل مثلك ، أو توارى مثلك .

وقال علي بن الجهم عن أبيه : أصبحت يوماً لا أملك شيئاً حتى ولا علف الدابة . فقصدت الفضل ابن يحيى ، فإذا هو قد أقبل من دار الخلافة في موكب من الناس ، فلما رآني رجب بي وقال : هلم . فسرت معه ، فلما كان ببعض الطريق مع غلاماً يدعو جارية من دار ، وإذا هو يدعوها باسم جارية له يحبها ، فانزعج لذلك وشكا إلى ما لقي من ذلك ، فقلت : أصابك ما أصاب أخى بنى عامر حيث يقول :
وَدَاعَ دَعَا إِذْ نَحْنُ بِالْخَيْفِ مِنْ مَوْتٍ • فَبَيَّجَ أَحْزَانُ الْفَوَادِ وَلَا يَدْرِي
دَعَا بِاسْمِ لَيْلَى غَيْرَهَا وَكَأَنَّمَا • أَطَارَ بَلِيلَى طَائِراً كَانَ فِي صَدْرِي

فقال : اكتب لي هذين البيتين . قال : فذهبت إلى يقال فرهنت عنده خاتمي على ثمن ورقة وكتبتهما له ، فأخذهما وقال : انطلق راشداً . فرجعت إلى منزلي فقال لي غلامي : هات خاتمك حتى نرهنه على طعام لنا وعلف للدابة ، فقلت : إني رهنته . فما أمسينا حتى أرسل إلى الفضل بثلاثين ألفاً من الذهب ، وعشرة آلاف من الورق ، أجراه على كل شهر ، وأسلفني شهراً .

ودخل على الفضل يوماً بعض الأكارب فأكرمه الفضل وأجلسه معه على السرير ، فشكا إليه الرجل ديناً عليه وسأله أن يكلم في ذلك أمير المؤمنين . فقال : نعم ، وكم دينك ؟ قال ثلاثمائة ألف درهم . فخرج من عنده وهو مهوم لضعف رده عليه ، ثم مال إلى بعض إخوانه فاستراح عنده ثم رجع إلى منزله فإذا المال قد سبقه إلى داره . وما أحسن ما قال فيه بعض الشعراء :

لَكَ الْفَضْلُ يَا فَضْلُ بْنُ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ • وَمَا كُلُّ مَنْ يَدْعِي بِفَضْلٍ لَهُ فَضْلٌ
رَأَى اللَّهُ فَضْلًا مِنْكَ فِي النَّاسِ وَأَسْمًا • فَمَا كَ فَضْلًا فَالْتَقَى الْأَسْمُ وَالْفَعْلُ

وقد كان الفضل أكبر رتبة عند الرشيد من جعفر ، وكان جعفر أحظى عند الرشيد منه وأخص . وقد ولي الفضل أعمالاً كباراً ، منها نيابة خراسان وغيرها . ولما قتل الرشيد البرامكة وحبسهم جلد الفضل هذا مائة سوط وخلده في الحبس حتى مات في هذه السنة ، قبل الرشيد بشهور خمسة في الرقة وصلى عليه بالقصر الذي مات فيه أصحابه ، ثم أخرجت جنازته فصلى عليها الناس ، ودفن هناك وله خمس وأربعون سنة ، وكان سبب موته قتل أصابه في لسانه اشتد به يوم الخميس ويوم الجمعة ، وتوفي

قبل أذان الفداء من يوم السبت . قال ابن جرير : وذلك في المحرم من سنة ثلاث وتسعين ومائة ، وقال ابن الجوزي : في سنة ثنتين وتسعين فآله أعلم .

وقد أطل ابن خلكان ترجمته وذكر طرفاً صالحاً من محاسنه ومكارمه ، من ذلك أنه ورد بلخ حين كان نائباً على خراسان ، وكان بها بيت النار التي كانت تعبد بها المجوس ، وقد كان جده برمك من خدامها ، فهدم بعضه ولم يتمكن من هدمه كله ، لقوة إحكامه ، وبني مكانه مسجداً لله تعالى . وذكر أنه كان يتمثل في السجن بهذه الأبيات ويبيكي :

إلى الله فيما نالنا نرفع الشكوى * ففي يدو كشف المضرة والبلوى

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها * فلانحن في الأموات فيها ولا الأحياء

إذا جاءنا السجن يوماً لحاجة * عجبتنا وقتلنا جاء هذا من الدنيا

ومحمد بن أمية الشاعر الكاتب ، وهو من بيت كلهم شعراء ، وقد اختلط أشعار بعضهم في بعض
١ ومنصور بن الزبرقان

ابن سلمة أبو الفضل الفيرزي الشاعر ، امتدح الرشيد ، وأصله من الجزيرة وأقام ببغداد ويقال لجسده مطعم الكباش الرخم ، وذلك أنه أضاف قوماً فجعلت الرخم يحوم حولهم ، فأمر بكباش يذبح للرخم حتى لا يتأذى بها ضيفائه ، فعلم له ذلك . فقال الشاعر فيه :

أبوك زعيم بن قاسط * وخالك ذو الكباش يفتدي الرخم

وله أشعار حسنة ، وكان يروى عن كلثوم بن عمرو ، وكان شيخه الذي أخذ عنه الفناء .

يوسف بن القاضي أبي يوسف

مع الحديث من السري بن يحيى ويونس بن أبي إسحاق ، ونظر في الرأي وتفقته ، وولى قضاء الجانب الشرقي ببغداد في حياة أبيه أبي يوسف ، وصلى بالناس الجمعة بجامع المنصور عن أمر الرشيد . توفي في رجب من هذه السنة وهو قاض ببغداد .

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين ومائة

قال ابن جرير : في المحرم منها توفي الفضل بن يحيى ، وقال ابن الجوزي توفي الفضل في سنة ثنتين وتسعين كما تقدم . وما قاله ابن جرير أقرب . قال : وفيها توفي سعيد الجوهري ، قال : وفيها وافى الرشيد جرجان وانتهت إليه خزائن علي بن عيسى تحمل على ألف وخمسمائة بعير ، وذلك في صفر منها ، ثم تحول منها إلى طوس وهو عليل ، فلم يزل بها حتى كانت وفاته فيها . وفيها توقع هرثمة نائب العراق هو ورافع بن الليث فكسره هرثمة وافتتح بخاري وأسر أخاه بشير بن الليث ، فبعثه إلى الرشيد وهو بطوس قد ثقل عن السير ، فلما وقف بين يديه شرع يترقق له فلم يقبل منه ، بل قال :

والله لو لم يبق من عمري إلا أن أحرك شفتي بقتلك لقتلتك ، ثم دعا بقصاب فجزأه بين يديه أربعة عشر عضواً ، ثم رفع الرشيد يديه إلى السماء يدعو الله أن يمكنه من أخيه رافع كما يمكنه من أخيه بشير .

وفاة الرشيد

كان قد رأى وهو بالكوفة رؤيا أفزعته وغمه ذلك ، فدخل عليه جبريل بن مجتديشوع فقال : مالك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : رأيت كفا فيها تربة حراء خرجت من تحت سريري وقائلا يقول : هذه تربة هارون . فهون عليه جبريل أمرها وقال : هذه من أضغاث الأحلام من حديث النفس ، فتناسها يا أمير المؤمنين . فلما سار يريد خراسان وصر بطوس واعتقلته العلة بها ، ذكر رؤياه فهاله ذلك وقال لجبريل : ويحك ! أما تذكر ما قصصته عليك من الرؤيا ؟ فقال : بلى . فدعا مسروراً الخادم وقال : ائتني بشئ من تربة هذه الأرض ، فجاءه بتربة حراء في يده ، فلما رآها قال : والله هذه الكف التي رأيت ، والتربة التي كانت فيها . قال جبريل : فوالله ما أتت عليه ثلاث حتى توفي ، وقد أمر بحفر قبره قبل موته في الدار التي كان فيها ، وهي دار حميد بن أبي غانم الطائي ، فجعل ينظر إلى قبره وهو يقول : يا ابن آدم تصير إلى هذا . ثم أمر أن يقرأوا القرآن في قبره ، فقرأوه حتى ختموه وهو في محفة على شفير القبر . ولما حضرته الوفاة احتجى بمائة وجلس يقاسي سكرات الموت ، فقال له بعض من حضر : لو اضطجعت كان أهون عليك . فضحك ضحكا صحيحاً ثم قال : أما سمعت قول الشاعر :

وإني من قوم كرام يزيدهم • شامساً وصبراً شدة الحدائن

مات ليلة السبت ، وقيل ليلة الأحد مستهل جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة ، عن خمس ، وقيل سبع وأربعين سنة . وكان ملكه ثلاثاً وعشرين سنة .

وهذه ترجمته

هو هارون الرشيد أمير المؤمنين ابن المهدي محمد بن المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، القرشي الهاشمي ، أبو محمد ، ويقال أبو جعفر . وأمه الخيزران أم ولد . كان مولده في شوال سنة ست وقيل سبع ، وقيل ثمان وأربعين ومائة ، وقيل إنه ولد سنة خمسين ومائة ، وبويع له بالخلافة بعد موت أخيه موسى الهادي في ربيع الأول سنة سبعين ومائة ، بعهد من أبيه المهدي . روى الحديث عن أبيه وجده ، وحدث عن المبارك بن فضالة عن الحسن عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اتقوا النار ولو بشق تمرة » . وأورده وهو على المنبر وهو يخطب الناس ، وقد حدث عنه ابنه وسليمان الهاشمي والد إسحاق ، ونباتة بن عمرو . وكان الرشيد أبيض طويلاً سميناً جميلاً ، وقد غزا الصائفة في حياة أبيه مراراً ، وعقد الهدنة بين المسلمين والروم بعد محاصرته القسطنطينية ، وقد لقي المسلمون من ذلك جهداً جهيداً وخوفاً شديداً ، وكان

الصلح مع امرأة ليون وهي الملقبة بأغسطه على حمل كثير تبذله للمسلمين في كل عام ، ففرح المسلمون بذلك ، وكان هذا هو الذي حدا أباه على البيعة له بعد أخيه في سنة ست وستين ومائة ، ثم لما أفضت إليه الخلافة في سنة سبعين كان من أحسن الناس سيرة وأكثرهم غزوا وحجبا ، ولهذا قال فيه أبو السعلى :

فمن يطلب لقاءك أو يرده * فيالحرمين أو أقصى الثغور
ففي أرض العدو على طمر * وفي أرض الترفه فوق كور
وما حاز الثغور سواك خلقه * من المتخلفين على الأمور

وكان يتصدق من صلب ماله في كل يوم بألف درهم ، وإذا حج أحج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم وإذا لم يحج أحج ثلاثمائة بالنفقة السابغة والكسوة التامة ، وكان يحب التشبه بجده أبي جعفر المنصور إلا في العطاء ، فإنه كان سريع العطاء جزيله ، وكان يحب الفقهاء والشعراء ويمطهم ، ولا يضيع لديه بر ومعرف ، وكان نقش خاتمه لا إله إلا الله . وكان يصلي في كل يوم مائة ركعة تطوعا ، إلى أن فارق الدنيا ، إلا أن تعرض له علة ، وكان ابن أبي مريم هو الذي يضحكه ، وكان عنده فضيلة بأخبار الحجاز وغيرها ، وكان الرشيد قد أنزله في قصره وخلطه بأهله . نبه الرشيد يوماً إلى صلاة الصبح فقام فتوضأ ثم أدرك الرشيد وهو يقرأ [وما لي لا أعبد الذي فطرني] فقال ابن أبي مريم : لا أدري والله . فضحك الرشيد وقطع الصلاة ، ثم أقبل عليه وقال : ويحك اجتنب الصلاة والقرآن وقل فيما عدا ذلك . ودخل يوماً العباس بن محمد على الرشيد ومعه برنية من فضة فيها غالية من أحسن الطيب ، فجعل يمدحها ويزيد في شكرها ، وسأل من الرشيد أن يقبلها منه فقبلها فاستوهبها منه ابن أبي مريم فوهبها له ، فقال له العباس : ويحك اجث بشئ منعت نفسي وأهلي وآثرت به أمير المؤمنين سيدي فأخذته . فحلف ابن أبي مريم ليطيبين به استه ، ثم أخذ منها شيئاً فطلى به استه ودهن جوارحه كلها منها ، والرشيد لا يتماك نفسه من الضحك . ثم قال لخادم قائم عندهم يقال له خاقان : اطلب لي غلامى . فقال الرشيد : ادع له غلامه . فقال له : خذ هذه الغالية واذهب بها إلى ستك فرها فلتطيب منها إستها حتى أرجع إليها فأنيكها . فذهب الضحك بالرشيد كل مذهب ، ثم أقبل ابن أبي مريم على العباس بن محمد فقال له : جثت بهذه الغالية تمدحها عند أمير المؤمنين الذي ما تمطر السماء شيئاً ولا تنبت الأرض شيئاً إلا وهو تحت تصرفه وفي يده ؟ وأعجب من هذا أن قيل للملك الموت : ما أمرك به هذا فأنفذه . وأنت تمدح هذه الغالية عنده كأنه يقال أو خباز أو طبّاخ أو تمار ، فكاد الرشيد يهلك من شدة الضحك . ثم أمر لابن أبي مريم بمائة ألف درهم .

وقد شرب الرشيد يوماً دواء فسأله ابن أبي مريم أن يلى الحجابة في هذا اليوم ، ومهما حصل له كان بينه وبين أمير المؤمنين ، فولاه الحجابة ، فجاءت الرسل بالهدايا من كل جانب ، من عند زبيدة

والبرامكة وكبار الأمراء ، وكان حاصله في هذا اليوم ستين ألف دينار ، فسأله الرشيد في اليوم الثاني عما تحصل فأخبره بذلك ، فقال له : فأين نصيبي ؟ فقال ابن أبي مرزوق : قد صالحتك عليه بعشرة آلاف تفاعحة .

وقد استدعى إليه أبا معاوية الضرير محمد بن حازم ليسمع منه الحديث قال أبو معاوية : ما ذكرت عنده حديثاً إلا قال صلى الله وسلم على سيدى ، وإذا سمع فيه موعظة بكى حتى يبيل الثرى ، وأكلت عنده يوماً ثم قلت لأغسل يدي فصب الماء على وأنا لا أراه . ثم قال : يا أبا معاوية أتدري من يصب عليك الماء ؟ قلت : لا . قال : يصب عليك أمير المؤمنين . قال أبو معاوية : فدعوت له ، فقال : إنما أردت أعظم العلم . وحدثه أبو معاوية يوماً عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة بحديث احتجاج آدم ، موسى ، فقال عم الرشيد : أين التقيا يا أبا معاوية ؟ فغضب الرشيد من ذلك غضباً شديداً ، وقال : أتعترض على الحديث ؟ على بالنطع والسيف ، فأحضر ذلك فقام الناس إليه يشفعون فيه فقال الرشيد : هذه زندقة . ثم أمر بسجنه وأقسم أن لا يخرج حتى يخبرنى من ألقى إليه هذا ، فأقسم عمه بالإيمان المغالطة ما قال هذا له أحد ، وإنما كانت هذه الكلمة بادرة منى وأنا أستغفر الله وأتوب إليه منها . فأطلقه .

وقال بعضهم : دخلت على الرشيد وبين يديه رجل مضروب العنق والسياف يمسح سيفه في قفا الرجل المقتول ، فقال الرشيد : قتلته لأنه قال القرآن مخلوق ، فقتله على ذلك قرابة إلى الله عز وجل . وقال بعض أهل العلم : يا أمير المؤمنين أنظر هؤلاء الذين يحبون أبا بكر وعمر ويقدمونهما فأكرمهم بمر سلطانك ، فقال الرشيد : أولست كذلك ؟ أنا والله كذلك أحبهما وأحب من يحبهما وأعاقب من يبغضهما . وقال له ابن السماك : إن الله لم يجعل أحداً فوقك فاجتهد أن لا يكون فيهم أحد أطوع إلى الله منك . فقال : لئن كنت أقصرت في الكلام لقد أبلغت في الموعظة .

وقال له الفضيل بن عياض - أو غيره - إن الله لم يجعل أحداً من هؤلاء فوقك في الدنيا ، فاجتهد نفسك أن لا يكون أحد منهم فوقك في الآخرة ، فأكدح لنفسك وأعملها في طاعة ربك . ودخل عليه ابن السماك يوماً فاستسقى الرشيد فألقى بقله فيها ماء مبرد فقال لابن السماك : عظمى . فقال : يا أمير المؤمنين ! بكم كنت تشتري هذه الشرية لو منعها ؟ فقال : بنصف ملكى . فقال : اشرب هنيئاً ، فلما شرب قال : أرايت لو منعنا خروجهما من بلدك بكم كنت تشتري ذلك ؟ قال بنصف ملكى الآخر . فقال : إن ملكاً قيمة نصفه شرية ماء ، وقيمة نصفه الآخر بولة ، فخلق أن لا يتنافس فيه . فبكى هارون .

وقال ابن قتيبة : ثنا الرياشي سمعت الأصمعي يقول : دخلت على الرشيد وهو يقلم أظفاره يوم الجمعة فقلت له في ذلك فقال : أخذ الأظفار يوم الخميس من السنة ، وبلغني أن أخذها يوم الجمعة ينفي الفقر . فقلت : يا أمير المؤمنين أو نخشى الفقر ؟ فقال : يا أصمعي وهل أحد أخشى للفقر مني ؟ وروى ابن عساكر عن إبراهيم المهدى قال : كنت يوماً عند الرشيد فدعا طبأه فقال : أعندك في الطعام لحم جزور ؟ قال : نعم ، ألوان منه . فقال : أحضره مع الطعام فلما وضع بين يديه أخذ لقمة منه فوضعا في فيه فضحك جعفر البرمكي ، فترك الرشيد مضغ اللقمة وأقبل عليه فقال : مم تضحك ؟ قال : لا شيء يا أمير المؤمنين ، ذكرت كلاماً بيني وبين جاريتي الباردة . فقال له : بحق عليك لما أخبرتني به . قال : حتى تأكل هذه اللقمة ، فألقاها من فيه وقال : والله لتخبرني . فقال : يا أمير المؤمنين بكم تقول إن هذا الطعام من لحم الجزور يقوم عليك ؟ قال : بأربعة دراهم . قال : لا والله ، يا أمير المؤمنين بل بأربعمائة ألف درهم . قال : وكيف ذلك ؟ قال : إنك طلبت من طبأك لحم جزور قبل هذا اليوم بمدة طويلة فلم يوجد عنده ، فقلت : لا يخلون المطبخ من لحم جزور ، فنحن نتحر كل يوم جزوراً لأجل مطبخ أمير المؤمنين ، لأننا لا نشترى من السرق لحم جزور . فصرف في لحم الجزور من ذلك اليوم إلى هذا اليوم أربعمائة ألف درهم ، ولم يطلب أمير المؤمنين لحم جزور إلا هذا اليوم . قال جعفر : فضحكت لأن أمير المؤمنين إنما ناله من ذلك هذه اللقمة . فهي على أمير المؤمنين بأربعمائة ألف .

قال : فبكى الرشيد بكاء شديداً وأمر برفع السباط من بين يديه ، وأقبل على نفسه يوبخها ويقول : هلكت والله يا هارون . ولم يزل يبكي حتى آذنه المؤذنون بصلاة الظهر ، فخرج فصلى بالناس ثم رجع يبكي حتى آذنه المؤذنون بصلاة العصر ، وقد أمر بألفي ألف تصرف إلى فقراء الحرمين في كل حرم ألف ألف صدقة ، وأمر بألفي ألف يتصدق بها في جانبي بغداد الغربي والشرقي ، وبألف ألف يتصدق بها على فقراء الكوفة والبصرة . ثم خرج إلى صلاة العصر ثم رجع يبكي حتى صلى المغرب ، ثم رجع ، فدخل عليه أبو يوسف القاضي فقال : ما شأنك يا أمير المؤمنين يا كيا في هذا اليوم ؟ فذكر أمره وما صرف من المال الجزيل لأجل شهوته ، وإنما ناله منها لقمة . فقال أبو يوسف لجعفر : هل كان ماتدبجونه من الجزور يفسد ، أو يأكله الناس ؟ قال : بل يأكله الناس . فقال : أبشر يا أمير المؤمنين بثواب الله فيما صرفته من المال الذي أكله المسلمون في الأيام الماضية ، وبما يسره الله عليك من الصدقة ، وبما رزقك الله من خشيته وخوفه في هذا اليوم ، وقد قال تعالى [ولن خاف مقام ربه جنات] . فأمر له الرشيد بأربعمائة ألف . ثم استدعى بطعام فأكل منه فكان غداؤه في هذا اليوم عشاء .

وقال عمرو بن بحر الجاحظ : اجتمع للرشيـد من الجد والهزل ما لم يجتمع لغيره من بـده ، كان أبو يوسف قاضيه ، والبرامكة وزراءه ، وحاجبه الفضل بن الربيع أنبه الناس وأشدهم تعاضما ، ونديـه عمر بن العباس بن محمد صاحب العباسية . وشاعره مروان بن أبي حفصة ، ومغنيـه إبراهيم الموصلي واحد عصره في صناعته ، ومضحكه ابن أبي مريم ، وزامره برصوما . وزوجته أم جعفر - يعني زبيدة - وكانت أرغب الناس في كل خير وأسرعهم إلى كل برو معروف ، أدخلت الماء الحرم بمد امتناعه من ذلك ، إلى أشياء من المعروف أجراها الله على يدها .

وروى الخطيب البغدادي أن الرشيد كان يقول : إنا من قوم عظمت رزيتهم ، وحسنت بعنتهم ، ورتنا رسول الله (ص) ، وبقيت فينا خلافة الله . وبينما الرشيد يطوف يوماً بالبيت إذ عرض له رجل فقال : يا أمير المؤمنين إني أريد أن أكلـك بكلام فيه غلظة ، فقال لا ولا نعمت عين قد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني فأمره أن يقول له قولاً لنا . وعن شعيب بن حرب قال : رأيت الرشيد في طريق مكة فقلت في نفسي : قد وجب عليك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فخوفتني فقالت : إنه الآن يضرب عنقك . فقلت : لا بد من ذلك ، فناديته فقلت : يا هارون ! قد أتعبت الأمة والبهايم . فقال : خذوه . فأدخلت عليه وفي يده لت من حديد يلعب به وهو جالس على كرسي ، فقال : ممن الرجل ؟ فقلت : رجل من المسلمين . فقال ثكلتك أمك ممن أنت ؟ فقلت : من الأنبار . فقال : ما حملك على أن دعوتني باسمي ؟ قال : فخطرت بي إلى شيء لم يخطر قبل ذلك ، فقلت : أنا أدعو الله باسمه يا الله ، أفلا أدعوك باسمك ؟ وهذا الله سبحانه قد دعا أحب خلقه إليه بأسمائهم : يا آدم ، يا نوح ، يا هود ، يا صالح ، يا إبراهيم ، يا موسى يا عيسى ، يا محمد ، وكنت أبغض خلقه إليه فقال : ثبت يداي لـهـب . فقال الرشيد : أخرجوه أخرجوه .

وقال له ابن السماك يوماً : إنك تموت وحدك ، وتدخل القبر وحدك ، وتبعث منه وحدك ، فاحذر المقام بين يدي الله عز وجل ، والوقوف بين الجنة والنار ، حين يؤخذ بالكظم وتزل القدم ، ويقع الندم ، فلا توبة تقبل ، ولا عثرة تقال ، ولا يقبل فداء بـمال . فجعل الرشيد يبكي حتى علا صوته فقال يحيى بن خالد له : يا ابن السماك ! لقد شقت على أمير المؤمنين الليلة . فقام فخرج من عنده وهو يبكي . وقال له الفضيل بن عياض - في كلام كثير ليسـة وعظه بمكة - : يا صبيح الوجه إنك مسؤول عن هؤلاء كلهم ، وقد قال تعالى [وتقطعت بهم الأسباب] قال حدثنا ليث عن مجاهد : الوصلات التي كانت بينهم في الدنيا . فبكي حتى جعل يشق . وقال الفضيل : استدعاني الرشيد يوماً وقد رخرف منزله وأكثر الطعام والشراب واللذات فيها ، ثم استدعني أبا العتاهية فقال له : صف لنا ما نحن فيه من العيش والنعيم فقال : -

عِشْ مَا بَدَا لَكَ سَالِماً • فِي ظِلِّ شَاهِقَةِ الْقُصُورِ
تَسْعَى عَلَيْكَ بِمَا اشْتَهَى • تَلْدَى الرُّوَّاحِ إِلَى الْبُكُورِ
فَإِذَا النُّفُوسُ تَقَعَّقَتْ • عَنْ ضَبْقِ حَشْرَجَةِ الْأَصْدُورِ
فَهَنَّاكَ تَعْلَمُ مَوْقِعاً • مَا كُنْتَ إِلَّا فِي غُرُورِ

قال : فبكى الرشيد بكاءً كثيراً شديداً . فقال له الفضل بن يحيى : دعاك أمير المؤمنين تسر ، فأحزنته ؟ فقال له الرشيد : دعه فإنه رأى في عي فكره أن يزيدنا عي . ومن وجه آخر أن الرشيد قال لأبي العتاهية : عظمى بأبيات من الشعر وأوجز فقال : —

لَا تَأْمَنْ الْمَوْتَ فِي طَرْفٍ وَلَا نَفْسٍ • وَلَوْ تَمَتَّعْتَ بِالْحِجَابِ وَالْحَرَسِ
وَأَعْلَمَ بَأَنْ سَهَامَ الْمَوْتِ صَائِبَةً • لَكُلِّ مَدْرَعٍ مِنْهَا وَمَتْرَسٍ •
تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا • إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْيَبَسِ
قال : نغر الرشيد مغشياً عليه . وقد حبس الرشيد مرة أبا العتاهية وأرصد عليه من يأتيه بما يقول ، فكتب مرة على جدار الحبس :

أَمَّا وَاللَّهِ إِنَّ الظُّلْمَ شَوْمٌ • وَمَا زَالَ الْمُسَىءُ هُوَ الظُّلُومُ
إِلَى دِيَانِ يَوْمِ الدِّينِ نَمَضَى • وَعِنْدَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ الْخُصُومُ
قال : فاستدعاه واستجمعه في حل ووهبه ألف دينار وأطلقه . وقال الحسن بن أبي الفهم : ثنا محمد بن عباد عن سفيان بن عيينة قال : دخلت على الرشيد فقال : ما خبرك ؟ فقلت :
بِعَيْنِ اللَّهِ مَا تَخْفَى الْبُيُوتُ • فَقَدْ طَالَ التَّحْمَلُ وَالسَّكُوتُ
فقال : يا فلان مائة ألف لابن عيينة تغنيه وتغني عقبه ، ولا تضر الرشيد شيئاً . وقال الأصمعي كنت مع الرشيد في الحج فررنا بواد فاذا على شفيره امرأة حسناء بين يديها قصعة وهي تسال منها وهي تقول : —

طَحَطَحْتَنَا طَحَاطُحُ الْأَعْوَامِ • وَرَمَتْنَا حَوَادِثُ الْأَيَّامِ
فَاتَيْنَاكُمْ نَمْدُ أَكْفَأَ • نَائِلَاتِ لَزَادِكُمْ وَالطَّعَامِ
فَاطْلُبُوا الْأَجْرَ وَالْمُتَوَبَةَ فِينَا • أَبْهَا الزَّائِرُونَ بَيْتَ الْحَرَامِ
مَنْ رَأَى قَدْ رَأَى وَرَحَلَى • فَارْحَمَا غُرْبَتِي وَذَلَّ مَقَامِي

قال الأصمعي : فذهبت إلى الرشيد فأخبرته بأمرها فجاء بنفسه حتى وقف عليها فسمعها فرحمها وبكى وأمر مسروراً الخادم أن يملأ قصعتها ذهباً ، فلأها حتى جعلت تفيض يمينا وشمالاً . وسمع مرة الرشيد أعرابياً يحدو إبله في طريق الحج :

أَيُّهَا الْجَمِيعُ هُمَا لَا يَهْمُ * أَنْتَ تَقْضِي وَلَكَ الْحَيَى نَحْمُ
كَيْفَ تَرْقِيكَ وَقَدْ جَفَّ الْقَلَمُ * حَطَّتْ الصَّحْفَةُ مِنْكَ وَالسَّقَمُ

فقال الرشيد لبعض خدمه : ما معك ؟ قال : أربعمائة دينار ، فقال : ادفعها إلى هذا الأعرابي .

فلما قبضها ضرب رقيقه بيده على كتفه وقال متمثلاً :

وَكُنْتُ جَلِيسَ قَمْعَاقِ بْنِ عَمْرٍو * وَلَا يَشْقَى بِقَمْعَاقٍ جَلِيسُ

فأمر الرشيد بعض الخدم أن يعطى المتمثل ما معه من الذهب فإذا ماثنا دينار . قال أبو عبيد
إن [أصل] هذا المثل أن معاوية بن أبي سفيان أهديت له هدية جامات من ذهب فرقها على
جلسائه وإلى جانبه قمعاق بن عمرو ، وإلى جانب القمعاق أعرابي لم يفضل له منها شيء . فأطرق
الأعرابي حياء فدفعت إليه القمعاق الجام الذي حصل له ، فتهض الأعرابي وهو يقول وكنت جليس
قمعاق بن عمرو إلى آخره .

وخرج الرشيد يوماً من عند زبيدة وهو يضحك فقبل له مم تضحك يا أمير المؤمنين ؟ فقال :
دخلت اليوم إلى هذه المرأة - يعني زبيدة - فأقلت عندها وبت ، فما استيقظت إلا على صوت
ذهب يصب ، قالوا : هذه ثلثمائة ألف دينار قدمت من مصر ، فقالت زبيدة : هبالي يا ابن عم ،
فقلت : هي لك ، ثم ما خرجت حتى عربدت على وقالت : أي خير رأيته منك ؟ وقال الرشيد مرة
للمفضل الضبي : ما أحسن ما قيل في الذئب ، ولك هذا الخاتم ، وشراؤه ألف وستمائة دينار ، فأنشد
قول الشاعر :
يَنَامُ بِأَحَدِي مَقْلَبُهُ وَيَتَّقِي * بِأُخْرَى الرِّزَايَا فَهُوَ يَقْظَانُ نَائِمُ
فقال : ما قلت هذا إلا لتسلبنا الخاتم . ثم ألقاه إليه فبعثت زبيدة فاشترته منه بألف وستمائة
دينار ، وبعثت به إلى الرشيد وقالت : إني رأيته معجباً به . فردته إلى المفضل والدنانير ، وقال :
ما كنا نهب شيئاً ونرجع فيه .

وقال الرشيد يوماً للعباس بن الأحنف : أي بيت قالت العرب أرق ؟ فقال : قول جميل في بئينة :

أَلَا لَيْتَنِي أَعْمَى أَسْمُ تَقْوُدُنِي * بُئِينَةُ لَا يَخْفَى عَلَيَّ كَلَامُهَا

فقال له الرشيد : أرق منه قولك في مثل هذا :

طَافَ الْهَوَى فِي عِبَادِ اللَّهِ كُلِّهِمْ * حَتَّى إِذَا مَرَّ بِي مِنْ بَيْنِهِمْ وَقَفَا

فقال له العباس : فقولك يا أمير المؤمنين أرق من هذا كله :

أَمَّا يَكْفِيكَ أَنْكَرُ تَمْلِكُنِي * وَأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عَيْيِدِي

وَأَنَّكَ لَوْ قَطَعْتَ يَدِي وَرَجَلِي * لَقُلْتُ مِنَ الْهَوَى أَحْسَنَتْ زَيْدِي

قال : فضحك الرشيد وأعجبه ذلك . ومن شعر الرشيد في ثلاث حظيات كن عنده من الخواص

قوله : ملكُ الثلاثِ الناشأتُ عناني * وحلّان من قلبي بكلِّ مكانٍ
مالي تطاوعني البريةُ كلّها * وأطعمهنَّ وهنَّ في عصياني
ماذاكَ إلا أنَّ سلطانَ الهوى * وبه قوين أعزُّ من سلطانِي
ومما أورد له صاحبُ المقد في كتابه :

تبدى الصدودُ وتحنّى الحبُّ عاشقةً * فالنفسُ راضيةٌ والطرفُ غضبانُ
وذكر ابن جرير وغيره أنه كان في دار الرشيد من الجوارى والحظايا وخدمهن وخدم زوجته
وأخواته أربعة آلاف جارية ، وأنهن حضرن يوماً بين يديه فغنته المطربات منهن فطرب جداً ،
وأمر بمال ففثر عليهن . وكان مبلغ ما حصل لكل واحدة منهن ثلاثة آلاف درهم في ذلك اليوم .
رواه ابن عساكر أيضاً

وروى أنه اشترى جارية من المدينة فأعجب بها جداً فأمر باحضار موالها ومن يلوذ بهم ليقضى
حوائجهم ، فقدموا عليه بنائين نفساً فأمر الحاجب - وهو الفضل بن الربيع - أن يتلقاهم ويكتب
حوائجهم ؛ فكان فيهم رجل قد أقام بالمدينة لأنه كان يهوى تلك الجارية ، فبعثت إليه فأتى به فقال
له الفضل : ما حاجتك ؟ قال : حاجتي أن يجلسني أمير المؤمنين مع فلانة فأشرب ثلاثة أرطال من
خمر ، وتغني ثلثة أصوات . فقال : أجنون أنت ؟ فقال : لا ولكن أعرض حاجتي هذه على
أمير المؤمنين . فذكر للرشيد ذلك فأمر باحضاره وأن تجلس معه الجارية بحيث ينظر إليهما ولا يريانه
فجلس على كرسي والخدام بين يديها ، وأجلس على كرسي فشرب رطلا وقال لها غني :

خَلِيلِي عَوْجا بَارِكُ اللهُ فِيكَما * وإن لم تكنْ هنداَ بأَرْضِكَما قَصداَ

وقولا لها ليس الضلالُ أجازنا * ولكننا جزنا لنلقاكمْ عَمداَ

غداً يكثرُ البادونُ مِنّا ومنكمْ * وتزدادُ داري مِن ديارِكُمْ بُعداَ

قال : فغنته ثم استعجله الخدم فشرب رطلاً آخر ، وقال : غني جعلت فداك :

تَكَلَّمْ مِنّا في الوجوه عيوننا * فنحنُ سكوتُ الهوى يتكلمُ

ونغضبُ أحياناً ونرضى بطرفنا * وذلك فيما بيننا ليس يعلمُ

قال : فغنته : ثم شرب رطلاً ثالثاً وقال : غني جعلني الله فداك :

أحسنُ ما كنّا تفرّقنا * وخاننا الدهرُ وما خنا

فليت ذا الدهرُ لنا مرةً * عادَ لنا يوماً كما كنّا

قال ثم قام الشاب إلى درجة هناك ثم ألقى نفسه من أعلاها على أم رأسه فمات . فقال الرشيد :
عجل الفتى ، والله لو لم يجعل لوهبتها له .

وفضائل الرشيد ومكارمه كثيرة جداً . قد ذكر الأئمة من ذلك شيئاً كثيراً فذكرنا منه أنموذجاً صالحاً . وقد كان الفضيل بن عياض يقول : ليس موت أحد أعز علينا من موت الرشيد ، لما تخوف بعده من الحوادث ، وإني لأدعو الله أن يزيد في عمره من عمري قالوا : فلما مات الرشيد وظهرت تلك الفتن والحوادث والاختلافات ، وظهر القول بخلق القرآن ، فمرقنا ما كان تخوفه الفضيل من ذلك . وقد تقدمت رؤياه لذلك الكف وتلك التربة الحمراء وقائل يقول : هذه تربة أمير المؤمنين . فكان موته بطوس . وقد روى ابن عساكر أن الرشيد رأى في منامه قائلاً يقول : كأتى بهذا القصر قد باد أهله . الشعر إلى آخره .

وقد تقدم أن ذلك إنما رآه أخوه موسى الهادي . وأبوه محمد المهدي فأنه أعلم . وقد سمنا أنه أمر بحفر قبره في حياته ، وأن تقرأ فيه ختمه تامة ، وحمل حتى نظر إليه فجعل يقول : إلى هنا تصير يا ابن آدم . ويبكي ، وأمر أن يوسع عند صدره وأن يمد من عند رجله ، ثم جعل يقول : [ما أغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه] ويبكي . وقيل : إنه لما احتضر قال : اللهم انفعنا بالاحسان ، واغفر لنا الاساءة ، يا من لا يموت ارحم من يموت . وكان مرضه بالدم ، وقيل بالسل ، وجبريل الطبيب يكتّم ما به من الدلة ، فأمر الرشيد رجلاً أن يأخذ مائه في قارورة وينهب به إلى جبريل فيريه إياه ، ولا يذكر له بول من هو ، فان سأله قال : هو بول مريض عندنا . فلما رآه جبريل قال لرجل عنده : هذا مثل ماء ذلك الرجل . ففهم صاحب القارورة من عنى به ، فقال له : بالله عليك أخبرني عن حال صاحب هذا الماء . فان لى عليه مالا ، فان كان به رجاء وإلا أخنت مالي منه . فقال : اذهب فتخلص منه فانه لا يعيش إلا أياماً . فلما جاء وأخبر الرشيد بعث إلى جبريل فغيب حتى مات الرشيد . وقد قال الرشيد وهو في هذه الحال :

إني بطوس مقيم مالي بطوس حميم أرجو إلهي لما بي فانه بي رحيم
لقد أتى بي طوساً قضاؤه المحتوم وليس إلا رضائي والصبر والتسليم

مات بطوس يوم السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة ، وقيل إنه توفي في جمادى الأولى ، وقيل في ربيع الأول ، وله من العمر خمس ، وقيل سبع ، وقيل ثمان وأربعون سنة . ومدة خلافته ثلاث وعشرون سنة وشهر وثمانية عشر يوماً . وقيل ثلاثة أشهر . وصلى عليه ابنه صالح ودفن بقرية من قرى طوس يقال لها سناباد . وقال بعضهم : قرأت على خيام الرشيد بسناباد والناس منصرفون من طوس من بعده .

منازل العسكر معمورة * والمنزل الأعظم مهجور

خليفة الله بدار البلى * تسعى على أجدائه المور

أقبلت العيرُ تباهى به * وانصرفت تنذبة العيرُ

وقد رثاه أبو الشيص فقال :

غربت في الشرقِ شمسه * فلها العينانِ تدمع

ما رأينا قطُّ شمساً * غربت من حيث تطلع

وقد رثاه الشعراء بقصائد . قال ابن الجوزي : وقد خلف الرشيد من الميراث ما لم يخلفه أحد من الخلفاء ، خلف من الجواهر والأثاث والأمتعة سوى الضياع والدور ما قيمته مائة ألف ألف دينار ، وخمسة وثلاثون ألف دينار . قال ابن جرير : وكان في بيت المال سبعمائة ألف ألف ونيف .

ذكر زوجاته وبنه وبناته

تزوج أم جعفر زبيدة بنت عمه جعفر بن أبي جعفر المنصور ، تزوجها في سنة خمس وستين ومائة في حياة أبيه المهدي ، فولدت له محمداً الأمين . وماتت زبيدة في سنة ست عشرة ومائتين كما سيأتي . وتزوج [أمة الميز] أم ولد كانت لأخيه موسى الهادي فولدت له علي بن الرشيد . وتزوج أم محمد بنت صالح المسكين ، والعباسة بنت عمه سليمان بن أبي جعفر فزفنا إليه في ليلة واحدة سنة سبع وثمانين ومائة بالرق ، وتزوج عزيزة بنت الغطريف ، وهي بنت خاله أخي أمه الخيزران ، وتزوج ابنة عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان العنابية ، ويقال لها الجرشيّة ، لأنها ولدت بجرش باليمن . وتوفى عن أربع : زبيدة ، وعباسة ، وابنة صالح ، والعنابية هذه . وأما الخطايا من الجوار فكثير جداً حتى قال بعضهم : إنه كان في داره أربعة آلاف جارية سراري حسان .

وأما أولاده الذكور فمحمد الأمين بن زبيدة ، وعبد الله المأمون من جارية اسمها مراحل ، ومحمد أبو إسحاق المعتصم من أم ولد يقال لها ماردة ، والقاسم المؤتمن من جارية يقال لها قصف . وعلى أمه أمة الميز . وصالح من جارية اسمها رثم . ومحمد أبو يعقوب . ومحمد أبو عيسى . ومحمد أبو العباس . ومحمد أبو علي كل هؤلاء من أمهات أولاد . وكان من الإناث سكينه من قصف . وأم حبيب من ماردة . وأروى . وأم الحسن . وأم محمد وهي حمدونة وفاطمة وأما غصص . وأم سلمة . وخديجة . وأم القاسم رملة . وأم علي . وأم الغالية . وريطة كلهن من أمهات أولاد .

خلفته محمد الأمين

لما توفي الرشيد بطوس في جمادى الآخرة من هذه السنة - أعنى سنة ثلاث وتسعين ومائة - كتب صالح بن الرشيد إلى أخيه ولي العهد من بعد أبيه محمد الأمين بن زبيدة وهو ببغداد يعلمه بوفاته أبيه ويعزيه فيه ، فوصل الكتاب صحبة رجاء الخادم ومعه الخاتم والقضيب والبردة ، يوم

الخمس الرابع عشر من جمادى الآخرة ، فركب الأمين من قصره الخلد إلى قصر أبي جعفر المنصور - وهو قصر الذهب - على شط بغداد ، فصلى بالناس ثم صعد المنبر فخطبهم وعزاهم في الرشيد ، وبسط آمال الناس ووعدهم الخير . فبايعه الخواص من قومه ووجوه بني هاشم والأمراء ، وأمر بصرف أعطيات الجند عن سنتين ، ثم نزل وأمر عمه سليمان بن جعفر أن يأخذ له البيعة من بقية الناس فلما انتظم أمر الأمين واستقام حاله حسده أخوه المأمون ووقع الخلف بينهما على ماسند كره إن شاء الله تعالى .

اختلاف الأمين والمأمون

كان السبب في ذلك أن الرشيد لما وصل إلى أول بلاد خراسان وهب جميع ما فيها من الخواص والدواب وال سلاح لولده المأمون ، وجدد له البيعة ، وكان الأمين قد بعث بكر بن المعتز بكتب في خفية ليوصلها إلى الأمراء إذا مات الرشيد ، فلما توفى الرشيد نفدت الكتب إلى الأمراء وإلى صالح بن الرشيد ، وفيها كتاب إلى المأمون يأمره بالسمع والطاعة ، فأخذ صالح البيعة من الناس إلى الأمين ، وأرسل الفضل بن الربيع بالجيش إلى بغداد وقد بقي في نفوسهم تخرج من البيعة التي أخذت للمأمون ، وكتب إليهم المأمون يدعوهم إلى بيعته فلم يجيبوه ، فوقعت الوحشة بين الأخوين ، ولكن تحول عامة الجيش إلى الأمين ، فعند ذلك كتب المأمون إلى أخيه الأمين بالسمع والطاعة والتعظيم ، وبعث إليه من هدايا خراسان وتحفها من الدواب والمسك وغير ذلك ، وهو نائبه عليها ، وقد أمر الأمين في صبيحة يوم السبت بعد أخذ البيعة يوم الجمعة ببناء ميدانين للصيد ، فقال في ذلك بعض الشعراء : -

بني أمينُ الله ميداناً * وصيرَ الساحةَ بستاناً

وكانتَ الغزلاً فيهِ بانا * يهْدِي إليه فيه غزلاًنا

وفي شعبان من هذه السنة قدمت زبيدة من الرقة بالخرائن وما كان عندها من التحف والقماش من الرشيد ، فتلقاها ولدها الأمين إلى الأنبار ومعه وجوه الناس . وأقر الأمين أخاه المأمون على ما تحت يده من بلاد خراسان والري وغير ذلك ، وأقر أخاه القاسم على الجزيرة والثغور ، وأقر عمال أبيه على البلاد إلا القليل منهم .

وفيها مات قنقور ملك الروم ، قتله البرجان ، وكان ملكه تسع سنين ، وأقام بعده ولده استبراق شهرين فمات ، فملكهم ميخائيل زوج أخت قنقور لعنهم الله . وفيها تواقع هرثة نائب خراسان ورافع ابن الليث فاستجاش رافع بالترك ثم هربوا وبقي رافع وحده فضعف أمره . وحج بالناس نائب الحجاز داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي . وفيها توفى :

إسماعيل بن عليّة

وهو من أئمة العلماء والمحدثين الرفعاء ، روى عنه الشافعي وأحمد بن حنبل ، وقد ولى المظالم ببغداد ، وكان ناظر الصدقات بالبصرة ، وكان ثقة نبيلًا جليلاً كبيراً ، وكان قليل التبسم وكان يتجر في البرز وينفق على عياله منه ويحج منه ، ويبر أصحابه منه مثل السفينانيين وغيرهما ، وقد ولاه الرشيد القضاء فلما بلغ ابن المبارك أنه تولى القضاء كتب إليه يلومه نظماً ونثراً ، فاستعفى ابن عليّة من القضاء فأعفاه . وكانت وفاته في ذي القعدة من هذه السنة ، ودفن في مقابر عبد الله بن مالك . وفيها مات :

محمد بن جعفر

الملقب بفنندر . روى عن شعبة وسعيد بن أبي عروبة وعن خلق كثير ، وعنه جماعة منهم أحمد بن حنبل ، وكان ثقة جليلاً حافظاً متقناً . وقد ذكر عنه حكايات تدل على تفهيمه في أمور الدنيا ، كانت وفاته بالبصرة في هذه السنة ، وقيل في التي قبلها ، وقيل في التي بعدها . وقد لقب بهذا اللقب جماعة من المتقدمين والمتأخرين . وفيها توفي :

أبو بكر بن العياش

أحد الأئمة ، سمع أبا إسحاق السبيعي والأعمش وهشام وهمام بن عروة وجماعة . وحدث عنه خلق منهم أحمد بن حنبل . وقال يزيد بن هارون : كان حبراً فاضلاً لم يضع جنبه إلى الأرض أربعين سنة ، قالوا : ومكث ستين سنة يختم القرآن في كل يوم ختمة كاملة ، وصام ثمانين رمضاناً ، وتوفي وله ست وتسعون سنة . ولما احتضر بكى عليه ابنه فقال : يا بني علام تبكي ؟ والله ما أتى أبوك فاحشة قط .

ثم دخلت سنة أربع وتسعين ومائة

فيها خلع أهل حمص نائبهم فعزله عنهم الأمين وولى عليهم عبد الله بن سعيد الحرشي فقتل طائفة من وجوه أهلها وحرق نواحيها ، فسألوه الأمان فأمنهم ثم هاجوا فضرب أعناق كثير منهم أيضاً . وفيها عزل الأمين أخاه القاسم عن الجزيرة والثغور ، وولى على ذلك خزيمه بن خازم ، وأمر أخاه بالمقام عنده ببغداد . وفيها أمر الأمين بالدعاء لولده موسى على المنابر في سائر الأمصار ، وبالإمرة من بعده ، وسماه الناطق بالحق ، ثم يدعى من بعده لأخيه المأمون ثم لأخيه القاسم ، وكان من نية الأمين الوفاء لأخويه بما شرط لهما ، فلم يزل به الفضل بن الربيع حتى غير نيته في أخويه ، وحسن له خلع المأمون والقاسم ، وصغر عنده شأن المأمون . وإنما حمله على ذلك خوفه من المأمون إن أفضت إليه الخلافة أن يخلعه من الحجابة . فوافقه الأمين على ذلك وأمر بالدعاء لولده موسى وبولاية العهد من بعده ، وذلك في ربيع الأول من هذه السنة . فلما بلغ المأمون قطع البريد عنه وترك ضرب اسمه على السكة والطرز ، وتنكر للأمين . وبعث رافع بن الليث إلى المأمون يسأل منه الأمان فأمنه

فسار إليه بمن معه فأكرمه المأمون وعظمه ، وجاء هرثمة على إثره فلقاه المأمون ووجوه الناس وولاه الحرس ، فلما بلغ الأمين أن الجنود التفت على أخيه المأمون ساءه ذلك وأنكره ، وكتب إلى المأمون كتاباً وأرسل إليه رسلاً ثلاثة من أكابر الأمراء ، سأله أن يجيبه إلى تقديم ولده عليه ، وأنه قد سمىه الناطق بالحق ، فأظهر المأمون الامتناع فشرع الأمراء في مطايبته وملايقته ، وأن يجيبهم إلى ذلك فأبى كل الإباء ، فقال له العباس بن موسى بن عيسى : فقد خلع أبي نفسه فإذا كان ؟ فقال المأمون إن أباك كان امرأاً مكرهاً ، ثم لم يزل المأمون يعد العباس ويمنيه حتى بايعه بالخلافة ، ثم لما رجع إلى بغداد كان يرايه بما كان من أمر الأمين ويناصحه ، ولما رجع الرسل إلى الأمين أخبروه بما كان من قول أخيه ، فعند ذلك صمم الفضل بن الربيع على الأمين في خلع المأمون ، فخلعه وأمر بالدعاء لولده في سائر البلاد ، وأقاموا من يتكلم في المأمون ويذكر مساويه ، وبعثوا إلى مكة فأخذوا الكتاب الذي كتبه الرشيد وأودعه في الكعبة ، فزقه الأمين وأكد البيعة إلى ولده الناطق بالحق على ما ولاءه من الأعمال ، وجرت بين الأمين والمأمون مكاتبات ورسل يطول بسطها . وقد استقصاها ابن جرير في تاريخه ، ثم آل بهما الأمر إلى أن احتفظ كل منهما على بلاده وحصنها وهيا الجيوش والجنود وتآلف الرعايا . وفيها غسدت الروم بملكهم ميخائيل فراوا خلعهم وقتله فترك الملك وترهب وولوا عليهم اليون . وحج بالناس فيها نائب الحجاز داود بن عيسى ، وقيل على بن الرشيد . وفيها توفي من الأعيان :

سالم بن سالم أبو بحر البلخي

قدم بغداد وحدث بها عن إبراهيم بن طهمان والثوري . وعنه الحسن بن عرفة . وكان عابداً زاهداً ، مكث أربعين سنة لم يفرش له فراش ، وصامها كلها إلا يوم العيد ، ولم يرفع رأسه إلى السماء ، وكان داعية الأرجاء ضعيف الحديث ، إلا أنه كان رأساً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكان قد قدم بغداد فأنكر على الرشيد وشنع عليه فحبسه وقيده باثني عشر قيداً ، فلم يزل أبو معاوية يشفع فيه حتى جعلوه في أربعة قيود ، ثم كان يدعو الله أن يرده إلى أهله . فلما توفي الرشيد أطلقته زبيدة فرجع . وكانوا بمكة قد جاؤا حجاجاً - فرض بمكة . واشتهى يوماً برداً فسقط في ذلك الوقت برد حين اشتهاه فأكل منه . مات في ذي الحجة من هذه السنة .

وعبد الوهاب بن عبد المجيد

التقى كانت غلته في السنة قريباً من خمسين ألفاً ينفعها كلها على أهل الحديث . توفي عن أربع وثمانين سنة .

وابو النصر الجهني المصাব

كان مقياً بالمدينة النبوية بالصفة من المسجد في الحائط الشمالي منه ، وكان طويل السكوت ، فإذا سئل أجاب بجواب حسن ، ويتكلم بكلمات مفيدة تؤثر عنه وتكتب ، وكان يخرج يوم الجمعة

قبل الصلاة فيقف على مجامع الناس فيقول : [يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا] و [يوم لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منه عدل] ثم ينتقل إلى جماعة أخرى ثم إلى أخرى ، حتى يدخل المسجد فيصلّي فيه الجمعة ثم لا يخرج منه حتى يصلي العشاء الآخرة .

وقد وعظ مرة هارن الرشيد بكلام حسن فقال : اعلم أن الله سائلك عن أمة نبيه فأعد لذلك جوابا ، وقد قال عمر بن الخطاب لو ماتت سخة بالعراق ضياعاً لخشيت أن يسألني الله عنها . فقال الرشيد : إني لست كعمر ، وإن دهرى ليس كدهره . فقال : ما هذا بمن عنك شيئا . فأمر له بشئمة دينار ، فقال : أنا رجل من أهل الصفة فربها فلتقسم عليهم وأنا واحد منهم .

ثم دخلت سنة خمس وتسعين ومائة

فيها في صفر منها أمر الأمين الناس أن لا يتعاملوا بالدرهم والدنانير التي عليها اسم أخيه المأمون ونهى أن يدعى له على المنابر ، وأن يدعى له ولولده من بعده : وفيها تسمى المأمون بامام المؤمنين . وفي ربيع الآخر فيها عقد الأمين لعلي بن عيسى بن ماهان الامارة على الجبل وهمدان واصبهان وقم وتلك البلاد ، وأمره بحرب المأمون وجهاز معه جيشا كثيرا ، وأنفق فيهم نفقات عظيمة ، وأعطاه مائتي ألف دينار ، ولولده خمسين ألف دينار وألفي سيف محلي ، وستة آلاف ثوب للخلع . فخرج على بن موسى بن ماهان من بغداد في أربعين ألف مقاتل فارس ، ومعه قيد من فضة ليأتي فيه بالمأمون . وخرج الأمين معه مشيعا فسار حتى وصل الرى فلقاه الأمير طاهر في أربعة آلاف ، فجرت بينهم أمور آل الحال فيها أن اقتتلوا ، فقتل على بن عيسى وأنهم أصحابه وحمل رأسه وجنته إلى الأمير طاهر فكتب بذلك إلى وزير المأمون ذى الرياستين ، وكان الذى قتل على بن عيسى رجل يقال له طاهر الصغير فسمى ذا اليمينين ، لأنه أخذ السيف بيديه الثنتين فذبح به على بن عيسى بن ماهان ، ففرح بذلك المأمون وذووه ، وانتهى الخبر إلى الأمين وهو يصيد السمك من دجلة ، فقال : ويحك دعني من هذا فإن كثرأ قد صاد محكتين . ولم أصد بعد شيئا . وأرجف الناس ببغداد وخافوا غائلة هذا الأمر ، وندم محمد الأمين على ما كان منه من نكث العهد وخلع أخيه المأمون ، وما وقع من الأمر الفظيع . وكان رجوع الخبر إليه في شوال من هذه السنة . ثم جهز عبد الرحمن بن جبلة الأنباري في عشرين ألفاً من المقاتلة إلى همدان ليقاتلوا طاهر بن الحسين بن مصعب ومن معه من الخراسانية ، فلما اقتربوا منهم تواجها فقتلوا قتالا شديدا حتى كثرت القتلى بينهم ، ثم انهزم أصحاب عبد الرحمن ابن جبلة فلجئوا إلى همدان فحاصروهم بها طاهر حتى اضطروهم إلى أن دعوا إلى الصلح ، فصالحهم وأمنهم ووفى لهم ، وانصرف عبد الرحمن بن جبلة على أن يكون راجعا إلى بغداد ، ثم غدروا بأصحاب

طاهر وحلوا عليهم وهم غافلون قتلوا منهم خلقاً وصبر لهم أصحاب طاهر ثم نهضوا إليهم وحلوا عليهم فنهزمهم وقتل أميرهم عبد الرحمن بن جبلة ، وفر أصحابه خائبين .

فلما رجعوا إلى بغداد اضطربت الأمور وكثرت الأراجيف ، وكان ذلك في ذى الحجة من هذه السنة ، وطرده طاهر عمال الأمين عن قزوین وتلك النواحي ، وقوى أمر المأمون جداً بتلك البلاد . وفي ذى الحجة من هذه السنة ظهر أمر السفيناني بالشام ، واسمه علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، فعزل نائب الشام عنها ودعا إلى نفسه ، فبعث إليه الأمين جيشاً فلم يقدموا عليه بل أقاموا بالرقه ، ثم كان من أمره ما سندر . وحج بالناس فيها نائب الحجاز داود ابن عيسى . وفيها كانت وفاة جماعة من الأعيان منهم :

إسحاق بن يوسف الأزرق

أحد أئمة الحديث . روى عنه أحمد وغيره . ومنهم :

بكار بن عبدالله

ابن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير ، كان نائب المدينة للرشيد ثنتي عشرة سنة وشهراً ، وقد أطلق الرشيد على يديه لأهلها ألف دينار ومائتي ألف دينار ، وكان شريفاً جواداً معظماً .

وفيها توفي :

أبو نفيس رستم

واسمه الحسن بن هانيء بن صباح بن عبد الله بن الجراح بن هنب بن داود بن غنم بن سليم ، ونسبه عبد الله بن سعد إلى الجراح بن عبد الله الحكيم ، ويقال له أبو نواس البصري ، كان أبوه من أهل دمشق من جند مروان بن محمد ، ثم صار إلى الأهواز وتزوج امرأة يقال لها خلبان ، فولدت له أبا نواس وابناً آخر يقال له أبا معاذ ، ثم صار أبو نواس إلى البصرة فتأدب بها على أبي زيد وأبي عبيدة ، وقرأ كتاب سيديويه ولزم خلفاً الأحمر ، وصحب يونس بن حبيب الجرمي النحوي . وقد قال القاضي ابن خلكان : صحب أبا أسامة وابن الحباب الكوفي ، وروى الحديث عن أزهر بن سعد وحامد بن زيد وحامد بن سلمة وعبد الواحد بن زياد ومعتز بن سليمان ، ويحيى القطان . وعنه محمد بن إبراهيم بن كثير الصوفي . وحدث عنه جماعة منهم الشافعي وأحمد بن حنبل وغندر ومشاهير العلماء ومن مشاهير حديثه ما رواه محمد بن إبراهيم بن كثير الصوفي عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله (ص) : « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله ، فإن حسن الظن بالله تمن الجنة » . وقال محمد بن إبراهيم : دخلنا عليه وهو في الموت فقال له صالح بن علي الهاشمي : يا أبا علي ! أنت اليوم في آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة ، وبينك وبين الله هنات ، فنب إلى الله من عملك . فقال : إياي تخوف ؟ بالله اسندوني . قال : فأسندناه فقال : حدثني حماد بن سلمة

عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال قال رسول الله (ص) : « لكل نبي شفاعة وإني اختبأت شفاعتي لأهل الكبار من أمتي يوم القيامة ». ثم قال : أفلا تراني منهم . وقال أبو نواس : ما قلت الشعر حتى رويت عن ستين امرأة منهن خنساء ولبلى ، فما الظن بالرجال ؟ وقال يعقوب بن السكيت : إذا رويت الشعر عن امرئ القيس والأعشى من أهل الجاهلية ، ومن الاسلاميين جرير والفرزدق ، ومن المحدثين عن أبي نواس فحسبك . وقد أنثى عليه غير واحد منهم الأصمعي والجاحظ والنظام . قال أبو عمرو والشيباني : لولا أن أبا نواس أفسد شعره بما وضع فيه من الأقدار لاحتججنا به - يعني شعره الذي قاله في الخريات والمردان ، وقد كان يميل إليهم - ونحو ذلك مما هو معروف في شعره . واجتمع طائفة من الشعراء عند المأمون ف قيل لهم : أيكم القائل :

فلما تحسّاهما وقفنا كأننا * نرى قرآ في الأرض يبلغ كوكبا

قالوا : أبو نواس . قال : فأيكم القائل : -

إذا نزلت دون اللهاة من الفتى * دعى همّة عن قلبه برحيل

قالوا أبو نواس . قال : فأيكم القائل : -

فتمشيت في مفاصلهم * كنتشي البرؤ في السقيم

قالوا : أبو نواس . قال : فهو أشعركم . وقال سفيان بن عيينة لابن منذر : ما أشعر ظريفكم أبا نواس في قوله :

يا قرآ أبصرت في مائتم * يندب شجوا بين أتراب

أبرزه المائتم لي كارهها * برغم ذي باب وحجاب

بيكي فينري الدرّ من عينه * ويلطم الوزد بعناب

لا زال موقفاً دأب أحبابه * ولم تزل رؤيته داي

قال ابن الأعرابي أشعر الناس أبو نواس في قوله : -

تسترت من دهري بكل جناحه * فعيني ترى دهري وليس براني

فلو تسأل الأيام عني مادرت * وأين مكاني ما عرفن مكاني

وقال أبو العتاهية : قلت في الزهد عشرين ألف بيت ، وددت أن لي مكانها الأبيات الثلاثة

التي قالها أبو نواس وهي هذه ، وكانت مكتوبة على قبره :

يا نواسي توقّر * أو تغير أو نصبر

إن يكن ساءك دهر * فلما سرك أكثر

يا كثير الذنب * عفو الله من ذنبك أكبر

ومن شعر أبي نواس يمدح بعض الأمراء : -

أَوْجَدَهُ اللهُ فَا مِثْلُهُ * بِطَالِبِ ذَاكَ وَلَا نَاشِدِ
لَيْسَ عَلَى اللهِ بِمُسْتَكْرٍ * أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمُ فِي وَاحِدٍ
وَأَنشَدُوا سَفِيَانُ بْنُ عَيْنَةَ قَوْلَ أَبِي نَوَاسٍ :

مَا هَوَى إِلَّا لَهُ سَبَبٌ * يَبْتَدِي مِنْهُ وَيَنْشَعِبُ
فَنَنْتَ قَلْبِي مَحْجَبَةٌ * وَجْهَهَا بِالْحَسَنِ مَتَّقِبُ
خِلْتَهُ وَالْحَسَنُ تَأْخُذُهُ * تَنْتَقِي مِنْهُ وَتَنْتَجِبُ
فَا كَتَسَتْ مِنْهُ طَرَائِفُهُ * وَاسْتَرَدَّتْ بَعْضَ مَا نَهَبُ
فَهَبِي لَوْ صَبَّرْتُ فِيهِ لَهَا * عَوْدَةٌ لَمْ يَنْفُهَا أَرْبُ
صَارِجِدًا مَا مَرَحْتُ بِهِرٍ * رَبِّ جِدِّ جَرُّهُ اللَّعْبُ

فَقَالَ ابْنُ عَيْنَةَ : آمَنْتُ بِالَّذِي خَلَقَهَا . وَقَالَ ابْنُ دَرِيدٍ قَالَ أَبُو حَاتِمٍ : لَوْ أَنَّ الْعَامَةَ بَدَلَتْ هَذَيْنِ
الْبَيْتَيْنِ كَتَبْتُهُمَا بِمَاءِ الذَّهَبِ :

وَلَوْ آتَى اسْتَرَدَّتْكَ فَوْقَ مَا بِي * مِنْ الْبَلَوِ لَا عَوَزَكَ الْمَزِيدُ

وَلَوْ عَرَضَتْ عَلَى الْمَوْتِ حَيَاتِي * بِعَيْشٍ مِثْلَ عَيْشِي لَمْ يُرِيدُوا

وَقَدْ سَمِعَ أَبُو نَوَاسٍ حَدِيثَ سَهِيلٍ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ (ص) قَالَ : « الْقُلُوبُ
جُنُودٌ مَجْنُونَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا اثْنَلَفَ وَمَا تَنَاقَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ » . فَنَظُمَ ذَلِكَ فِي قَصِيدَةٍ لَهُ فَقَالَ :

إِنَّ الْقُلُوبَ لِأَجْنَادَ مَجْنُونَةٍ * اللهُ فِي الْأَرْضِ بِالْأَهْوَاءِ تَعْتَرِفُ

فَمَا تَنَاقَرَ مِنْهَا فَهُوَ مُخْتَلَفٌ * وَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا فَهُوَ مُؤْتَلَفٌ

وَدَخَلَ يَوْمًا أَبُو نَوَاسٍ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ عَلَى عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ زِيَادٍ فَقَالَ لَهُمْ عَبْدُ الْوَاحِدِ
لِيَخْتَرُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ عَشْرَةَ أَحَادِيثَ أَحَدُثَةٍ بَيِّنَةٍ ، فَاخْتَارَ كُلُّ وَاحِدٍ عَشْرَةَ إِلَّا أَبَا نَوَاسٍ ، فَقَالَ لَهُ :
مَالِكُ لَا تَخْتَارُ كَمَا اخْتَارُوا ؟ فَأَنشَأَ يَقُولُ :

وَلَقَدْ كُنَّا رَوَيْنَا * عَنْ سَعِيدٍ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ * عَنْ سَعِيدِ بْنِ عُبَادَةَ
وَعَنِ الشَّعْبِيِّ وَالشَّهْرِ * بِي شَيْخٍ ذُو جِلَادَةٍ وَعَنِ الْأَخْيَارِ نَحْكِي * وَهَذَا عَنْ أَهْلِ الْإِفَادَةِ
أَنْ مَنْ مَاتَ حَبَابًا * فَلَهُ أَجْرُ شَهَادَةٍ

فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْوَاحِدِ : قُمْ عَنِّي يَا فَاجِرُ ، لِأَحَدِثْتُكَ وَلَا حَدَّثْتُكَ أَحَدًا مِنْ هَؤُلَاءِ مِنْ أَجْلِكَ . فَبَلَغَ
ذَلِكَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ أَبِي يَحْيَى فَقَالَا : كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يُحَدِّثَهُ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَهُ .

قَالَتْ : وَهَذَا الَّذِي أَنشَدَهُ أَبُو نَوَاسٍ قَدْ رَوَاهُ ابْنُ عَدَى فِي كِتَابِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مُوقُوفًا وَمَرْفُوعًا
« مَنْ عَشَقَ فَعَفَ فِكْتُمْ فَمَاتَ شَهِيدًا » . وَمَعْنَاهُ أَنْ مَنْ ابْتَلَى بِالْعَشْقِ مِنْ غَيْرِ اخْتِيَارٍ مِنْهُ فَصَبَرَ

وعف عن الفاحشة ولم يفش ذلك فمات بسبب ذلك حصل له أجر كثير . فان صح هذا كان ذلك له نوع شهادة والله أعلم .

وروى الخطيب أيضاً أن شعبة لقي أبا نواس فقال له : حدثنا من طرفك ، فقال مرتجلاً : حدثنا الخفاف عن وائل وخالد الحذاء عن جابر ومسمر عن بعض أصحابه يرفعه الشيخ إلى عامر قالوا جميعاً : أيما طفلة علمها ذو خالق طاهر فواصلته ثم دامت له على وصال الحافظ إذا كر ، كانت له الجنة مفتوحة يرتع في مرتعها الزاهر ، وأي معشوق جفا عاشقاً بعد وصال دائم ناصر ا في عذاب الله بعداً له نعم وسحفا دائماً ذاخر . فقال له شعبة : إنك لجميل الأخلاق ، وإني لأرجو لك . وأنشد أبو نواس أيضاً

يا ساحرَ المقلتين والجيد * وقاتلي منك بالمواعيد
تُوعِدُنِي الوصلَ ثم تُخْلِفُنِي * ويلايَ مِنْ خُلُفِكَ موعودِي
حدثني الأزرَقُ المحدثُ عن * شهر وعوفٍ عن ابنِ مسمودٍ
ما يُخْلِفُ الوعدَ غيرَ كافرةٍ * وكافِرٍ في الجحيمِ مصفودٍ

فبلغ ذلك إسحاق بن يوسف الأزرَقُ فقال : كذب عدو الله على وعلى التابعين وعلى أصحاب محمد (س) . وعن سليم بن منصور بن عمار قال : رأيت أبا نواس في مجلس أبي يبيك بكاء شديداً فقلت : إني لأرجو أن لا يعذبك الله بعد هذا البكاء فأنشأ يقول :

لم أبلِك في مجلسٍ منصور * شوقاً إلى الجنةِ والخورِ
ولا مِنْ القبرِ وأهوالهِ * ولا من النفخةِ في الصورِ
ولا مِنْ النارِ وأغلالها * ولا مِنْ الخذلانِ والجورِ
لكنْ بكائي لسكا شادين * تقيهِ نفسي كلَّ محذورِ

ثم قال : إنما بكيت لبكاء هذا الأمر الذي إلى جانب أبيك - وكان صبياً حسن الصورة يسمع الوعظ فيبكي خوفاً من الله عز وجل -

قال : أبو نواس : دعاني يوماً بعض الحاكة وألح علي ليضيفني في منزله ، ولم يزل بي حتى أجبته فصار إلى منزله وسرت معه فاذا منزل لا بأس به ، وقد احتفل الحائك في الطعام وجمع جمعاً من الحياك ، فأكلنا وشربنا ثم قال : ياسيدي أشتبهى أن تقول في جاريتي شيئاً من الشعر - وكان مغرمًا بجارية له -

قال فقلت أرنيها حتى أنظم على شكلها وحسنها ، فكشف عنها فاذا هي أمتع خلق الله وأوحشهم ، سوداء شمطاء ديدانية يسيل لعابها على صدرها . فقلت لسيدها : ما اسمها ؟ فقال تسنيم ، فأنشأت

أقول : أسهرَ ليلى حبُّ تسنيم * جارية في الحسنِ كالبحر
كأنما نكحتها كأمخ * أو حزمة من حزم الثوم

صَرَطْتُ مِنْ حَبِّي لَهَا صُرْطَةً * أَفْزَعْتُ مِنْهَا مَلِكَ الرُّومِ
قال فقام الحائك يرقص ويصفق ساير يومه ويفرح ويقول : إنه شبيهها والله بملك الروم . ومن
شعره أيضاً (١) أَرْمَنِي النَّاسُ يَهْلُونَ * بِزَعْمِهِمْ كَثُرَتْ أَوْزَارِيهِ
إِنْ كُنْتُ فِي النَّارِ أَمْ فِي جَنَّةٍ * مَاذَا عَلَيْكُمْ يَا بَنِي الزَّانِيَةِ

وبالجملة فقد ذكرناه أموراً كثيرة ، ويجونا وأشعاراً منكراً ، وله في الحمريات والقاذورات
والتشبيب بالمردان والفسوان أشياء بشعة شنيعة ، فمن الناس من يفسقه ويرميه بالفاحشة ، ومنهم من
يرميه بالزندقة ، ومنهم من يقول : كان إنمّا يخرب على نفسه ، والأول أظهر ، لما في أشعاره . فأما
الزندقة فبهيمة عنه ، ولكن كان فيه مجون وخلاعة كثيرة . وقد عزوا إليه في صغره وكبره أشياء
منكرة الله أعلم بصحتها ، والعامّة تنقل عنه أشياء كثيرة لا حقيقة لها . وفي صحن جامع دمشق قبة
يفور منها الماء يقول الدماشقة قبة أبي نواس ، وهي مبنية بعد موته بأزيد من مائة وخمسين سنة ، فما
أدرى لأى شئ نسبت إليه فإله أعلم بهذا .

وقال محمد بن أبي عمر : سمعت أبا نواس يقول : والله ما فتحت سراويلي لحرام قط . وقال له
محمد الأمين بن الرشيد : أنت زنديق . فقال : يا أمير المؤمنين لست بزنديق وأنا أقول :

أَصْلَى الصَّلَاةِ الْحَسَنُ فِي حِينِ وَقْتِهَا * وَأَشْهَدُ بِالتَّوْحِيدِ لِلَّهِ خَاضِعَا
وَأَحْسَنُ غَسْلِي إِنْ رَكِبْتُ جَنَابَةً * وَإِنْ جَاءَنِي الْمُسْكِينُ لَمْ أَكُ مَانِعَا
وَإِنِّي وَإِنْ حَانَتْ مِنَ الْكَاسِ دَعْوَةٌ * إِلَى بَيْعَةِ السَّاقِ أُجِبْتُ مَسَارِعَا
وَأَشْرَبَهَا صَرَفًا عَلَى جَنْبِ مَا عَزَّ * وَجَدَيْ كَنْزِ الشَّخْمِ أَصْبَحَ رَاضِعَا
وَجُودَابِ حَوَارِي وَلَوْ زَوْسُكَرَةً * وَمَا زَالَ لِلْخَمَارِ ذَلِكَ نَافِعَا
وَأَجْمَلُ تَخْلِيطِ الرِّوَاغِضِ كُلِّهِمْ * لِنَفْخَةِ بَخْتِشُوعٍ فِي النَّارِ طَائِعَا

فقال له الأمين : ويحك ! وما الذى ألك إلى نفخة بختيشوع ؟ فقال : به تمت القافية . فأمر له
بمجازرة . وبختيشوع الذى ذكره هو طبيب الخلفاء . وقال الجاحظ : لا أعرف فى كلام الشعراء أرق
ولا أحسن من قول أبي نواس حيث يقول :

أَيَّةُ نَارٍ قَدَحُ الْقَادَحُ * وَأَيُّ جَدٍّ بَلَغَ الْمَازِحُ
لِلَّهِ دَرُّ الشَّيْبِ وَنِ وَاعْظِ * وَنَاصِحٍ لَوْ خَطِيئُ النَّاصِحُ
يَأْبَى الْفَتَى إِلَّا اتِّبَاعَ الْهَوَى * وَمَنْهَجُ الْحَقِّ لَهُ وَاضِحُ
فَاسْمُ بَعِينِكَ إِلَى نِسْوَةٍ * مُهَوَّهِنُ الْعَمَلِ الصَّالِحُ
لَا يَجْتَلِي الْحَوَارَاءُ فِي خَيْرِهَا * إِلَّا أَمْرُؤُ مِزَانُهُ رَاجِحُ

بُنِ اتقى الله فذاك الذى • سيقُ إنيمة المتجرِ الرابع
 فاغْدُ فا في الدينِ أغلوطة • ورخ لما أنت له راع
 وقد استنشدته أبو عفان قصيدته التى فى أولها : لاتنس ليلى ولا تنظر إلى هند . فلما فرغ منها
 سجد له أبو عفان ، فقال له أبو نواس : والله لا أكلمك مدة . قال : فغمضى ذلك ، فلما أردت
 الانصراف قال : متى أراك ؟ قلت : ألم تقسم ؟ فقال : الدهر أقصر من أن يكون معه هجر .
 ومن مستجاد شعره قوله :

الأرب وجه في التراب عتيق • ويارب حسن في التراب رقيق
 ويارب حزم في التراب ونجدة • ويارب رأى في التراب وثيق
 قل لتريب الدار إنك ظائع • إلى سفر نائي المحل سحيق
 أرى كل حي هالك وابن هالك • وذا نسب في الهالكين عريق
 إذا امتحن الدنيا لبب تكشفت • له عن عدو في لباس صديق
 لا تشبهن فان الدل في الشره • والعز في الحلم لافى العيش والسفر
 وقل لمنبسط في التيه من حق • لو كنت تعلم ما في التيه لم تنه
 التيه مفسدة للدين منقصة • للعقل مهلكة للعرض فانتبه
 وقوله }
 وجلس أبو العنابية القاسم بن إسماعيل على دكان وراق فكتب على ظهر دفتر هذه الأبيات :
 أبا عجبا كيف يعصى الال • له أم كيف يجعده الجاحد
 وفي كل شئ له آية • تدل على أنه الواحد
 ثم جاء أبو نواس فقرأها فقال : أحسن قائله والله . والله لوددت أنها لي بجميع شئ قلته ، لمن
 هذه ؟ قيل له : لأبي العنابية ، فأخذ فكتب في جانبها :

سبحان من خلق الخلق • ق من ضعف مهين
 يسوقه من قرار • إلى قرار مكين
 يخلق شيئا فشيئا • في الحجب دون العيون
 حتى بدت حركات • مخلوقة في سكون

ومن شعره المستجاد قوله :

انقطعت شدى فعمت الملاهي إذ • رمى الشيب مفرق بالدواهي
 ونهتني النهى فملت إلى المدل • وأشقت من مقالة ناهي
 أبها الغافل المقر على السهو • ولا عذر في المعاد لساهي

لا بأعمالنا نُطيقُ خلاصاً • يومَ تبدو السماءُ فوقَ الجبابرِ
على أننا على الاساءةِ والتف • ريطرِ نرجو من حسنِ عفوِ الاله
نموتُ ونبلى غيرَ أنْ ذُنوبنا • إذا نحنُ متنا لا نموتُ ولا نبلى

الارثُ ذي عَيْنينِ لا تنفعانه • وما تنفعُ العَيْنانِ مَنْ قلبه أعمى
وقوله : لو أنْ عينا أوْهمتها نفسها • يومَ الحسابِ ممثلاً لم تطرفِ

سبحانَ ذى الملكوتِ آيةَ ليلةٍ • محمتُ صبيحتها بيومِ الموقفِ
كتبَ الفناءَ على البريةِ ربها • فالناسُ بينَ مقدمٍ ومُخلفِ

وذكر أن أبا نواس لما أراد الاحرام بالحج قال :

يا مالِكاً ما أعْذَلَك مَلِكٌ كلِّ مَنْ مالِكٌ • لبيكُ إنَّ الحمدَ لكُ والمَلِكُ لا شريكَ لكُ
عَبْدُكَ قَدْ أَهْلُكَ لَكَ أَنْتَ لَهُ حَيْثُ سَلَكَ • لولاكَ يا رَبِّ هَلَاكَ لبيكُ إنَّ الحمدَ لكُ
والمَلِكُ لا شريكَ لكُ والهِيلُ لما أنْ حَلَكَ • والسابحاتُ في الفَلَكِ على مجاري تنسَلُكَ
كلُّ نَجِيٍّ وَهَلَاكَ • وكلُّ مَنْ أَهْلُكَ سَبَحَ أوْ صَلَّى فَلكُ لبيكُ إنَّ الحمدَ لكُ
والمَلِكُ لا شريكَ لكُ يا عَظُمًا ما أَجْهَلَكَ • عَصِيَّتَ رَبًّا عَدَلَكَ وَأَقْرَبَكَ وَأَمْهَلَكَ
عَجَلَهُ وَبَادَرَهُ أَمَلُكَ • واخْضَمَّ بِخَيْرِ عَمَلِكَ لبيكُ إنَّ الحمدَ لكُ والمَلِكُ لا شريكَ لكُ

وقال المعافي بن زكريا الحريري : ثنا محمد بن العباس بن الوليد سمعت أحمد بن يحيى بن ثعلب يقول : دخلت على أحمد بن حنبل فرأيت رجلا تهمة نفسه لا يحب أن يكثر عليه كأن النيران قد سمعت بين يديه ، فازلت أترفق به وتوسلت إليه أنى من موالى شيبان حتى كلمنى ، فقال : فى أى شئ نظرت من العلوم ؟ فقلت : فى اللغة والشعر . قال : رأيت بالبصرة جماعة يكتبون عن رجل الشعر ، قيل لى هذا أبو نواس . فتخلت الناس ورأى فلما جلست إليه أملى علينا :

إذا ما خلوت الدهرَ يوماً فلا تقل • خلوتُ ولكنى فى الخلاءِ رقيبُ
ولا تحسبن اللهَ يغفلُ ساعةً • ولا آثماً يخفى عليه يغيبُ
لهو ناعن الآثامِ حتى تتابعتُ • ذنوبُ على آثامهن ذنوبُ
فيا ليت أن اللهَ يغفرَ ما مضى • ويأذنُ فى توباتنا فتتوبُ

وزاد بعضهم فى رواية عن أبى نواس بعد هذه الأبيات :

أقولُ إذا ضاقتْ عليّ مذاهبي • وحلتْ بقلبي للهمومِ ندوبُ
لطولِ جنائياتي وعظمِ خطيئتي • هلكتُ ومالي فى المتابِ نصيبُ
واغرقُ فى بحرِ الخفاةِ آيساً • وترجعُ نفسى تارةً فتتوبُ

وتذكرني عفو الكريم عن الوري • فأحيا وأرجو عفوه فأنيب

وأخضع في قولي وأرغب سائلاً • عسى كاشف البلوى على يتوب

قال ابن طراز الجريري : وقد رويت هذه الأبيات لمن ؟ قيل لأبي نواس وهي في زهدياته .
وقد استشهد بها النحاة في أما كن كثيرة قد ذكرناها . وقال حسن بن الداية : دخلت على أبي نواس
وهو في مرض الموت فقلت : عظمي . فأنشأ يقول :

فكثرت ما استطعت من الخطايا • فأنك لاقياً رباً غفوراً

ستبصر إن وردت عليه عفواً • وتلقى سيداً ملكاً قديراً

تعض ندامة كفيك مما • تركت مخافة النار الشرورا

فقلت : ويحك ! يمثل هذا الحال تعظي بهذه الموعظة ؟ فقال : اسكت حدثنا حماد بن سلمة عن
ثابت عن أنس قال قال النبي (ص) : « ادخرت شفاعتي لأهل الكبار من أمتي » . وقد تقدم بهذا
الاسناد عنه « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله » . وقال الربيع وغيره عن الشافعي قال :
دخلنا على أبي نواس في اليوم الذي مات فيه وهو يجود بنفسه فقلنا : ما أعددت لهذا اليوم ؟ فأنشأ
يقول :

تعاظمي ذنبي فلما قرنته • بعفوك ربي كأن عفوك أعظما

ومازلت ذاعفوه عن الذنب لم تزل • نجود وتمفو منة وتكرما

ولولاك لم يقدر لابليس عابداً • وكيف وقد أغوى صفيك آدماء

رواه ابن عساكر . وروى أنهم وجدوا عند رأسه رقعة مكتوبة فيها بخطه :

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة • فلقد علمت بأن عفوك أعظم

أدعوك ربي كما أمرت تضرعاً • فاذا رددت يدي فمن ذا يرحم

إن كان لا يرجوك إلا بحسن • فمن الذي يرجو المسىء المجرم

مالي إليك وسيلة إلا الرجا • وجيئل عفوك ثم أنى مسلم

وقال يوسف بن الداية : دخلت عليه وهو في السياق فقلت : كيف نجيتك ؟ فأطرق ملياً ثم رفع

رأسه فقال : دب في الفناء سفلاً وعلواً • وأرائي أموت عضواً فعضواً

ليس يمضي من لحظة بي إلا • تقصتنى بمرها في جزواً

ذهبت جدي بلقة عيشي • وتذكرت طاعة الله نضواً

قد أسأنا كل الإساءة فلا • هم صفحاً عنا وغفراً وعفواً

ثم مات من ساعته ساعنا الله وإياه آمين .

وقد كان نقش خاتمه لا إله إلا الله مخلصاً ، فأوصى أن يجعل في فمه إذا غسلوه ففعلوا به ذلك . ولما

مات لم يجدوا له من المال سوى ثلثمائة درهم وثيابه وأثاثه ، وقد كانت وفاته في هذه السنة ببغداد ودفن في مقابر الشونيزي في تل اليهود . وله خمسون سنة . وقيل ستون سنة ، وقيل تسع وخمسون سنة . وقد رآه بعض أصحابه في المنام فقال له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لي بأبيات قلتها في النرجس :

{ تفكر في نبت الأرض وانظر * إلى آثار ما صنع الملك
عيون من تجلبن شاخصات * بأبصار هي الذهب السبك
على قضب الزبرجد شاهدات * بأن الله ليس له شريك }

وفي رواية عنه أنه قال : غفر لي بأبيات قلتها وهي تحت وسادتي فجاؤا فوجدوها برقعة في خطه يارب إن عظمت ذنوبي كثرة * فلقد علمت أن عفوك أعظم
الآيات . وقد تقدمت . وفي رواية لابن عساكر قال بعضهم : رأيت في المنام في هيئة حسنة ونعمة عظيمة فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي ، قلت : بماذا وقد كنت مخطئا على نفسك ؟ فقال : جاء ذات ليلة رجل صالح إلى المقابر فبسط رداءه وصلى ركعتين قرأ فيهما ألقى قل هو الله أحد ثم أهدى نواب ذلك لأهل تلك المقابر فدخلت أنا في جلتهم ، فغفر الله لي . وقال ابن خلكان : أول شعر قاله أبو نواس لما صحب أبا أسامة والبة بن الحباب :

حامل الهوى تعب يستخفه الطرب * إن بكى بحق له ليس ما به لعب
تضحكين لاهية والمحبة ينتحب * تعجيبين من سقي صحتي هي المعجب
وقال المأمون : ما أحسن قوله :

وما الناس إلا هالك وابن هالك * وذو نسب في المالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لبس تكشف * له عن عدو في لباس صديق
قال ابن خلكان : وما أشد رجاءه بربه حيث يقول :

نحمل ما استطعت من الخطايا * فانك لاقيا رباً غفورا
ستبصر إن قدمت عليه عفواً * وتلقى سيّداً ملكاً كبيراً
تمض ندامة كفئك مما * تركت مخافة النار الشرورا

ثم دخلت سنة ست وتسعين ومائة

فيها توفي أبو معاوية الضرير أحد مشايخ الحديث الثقات المشهورين . والوليد بن مسلم الدمشقي تلميذ الأوزاعي . وفيها حبس الأمين أسد بن يزيد لأجل أنه نقم على الأمين لعبه وتهاونه في أمر الرعية ، وارتكابه للصيد وغيره في هذا الوقت . وفيها وجه الأمين أحمد بن يزيد وعبد الله بن حميد ابن قحطبة في أربعين ألفاً إلى حلوان لقتال طاهر بن الحسين من جهة المأمون ، فلما وصلوا إلى قريب

من حلوان خندق طاهر على جيشه خندقاً وجعل يعمل الحيلة في إيقاع الفتنة بين الأميرين ، فاختلفا فرجما ولم يقاتلاه ، ودخل طاهر إلى حلوان وجاءه كتاب المأمون بتسليم ما تحت يده إلى هرنمة بن أعين ، وأن يتوجه هو إلى الأهواز . ففعل ذلك . وفيها رفع المأمون وزيره الفضل بن سهل وولاه أعمالاً كباراً وسماه ذا الرياستين . وفيها ولي الأمين نيابة الشام لعبد الملك بن صالح بن علي - وقد كان أخرجه من سجن الرشيد - وأمره أن يبعث له رجالاً وجنوداً لقتال طاهر وهرنمة ، فلما وصل إلى الرقة أقام بها وكتب إلى رؤساء الشام يتألفهم ويدعوهم إلى الطاعة ، فقدم عليه منهم خلق كثير ، ثم وقعت حروب كان مبدؤها من أهل حمص ، وتفاقم الأمر وطال القتال بين الناس ، ومات عبد الملك ابن صالح هناك فرجع الجيش إلى بغداد بحجة الحسين بن علي بن ماهان ، فتلقاه أهل بغداد بالأكرام ، وذلك في شهر رجب من هذه السنة . فلما وصل جاء رسول الأمين يطلبه فقال : والله ما أنا بمسامر ولا مضحك ، ولا وليت له عملاً ولا جبي على يدي مالا ، فلماذا يطلبني في هذه الليلة ؟

سبب خلع الأمين وكيف افضت الخلافة إلى أخيه المأمون

لما أصبح الحسين بن علي بن ماهان ولم يذهب إلى الأمين لما طلبه ، وذلك بعد مقدمه بالجيش من الشام ، قام في الناس خطيباً وألبهم على الأمين ، وذكر لعبه وما يتعاطاه من اللهو وغير ذلك من المعاصي ، وأنه لا تصلح الخلافة لمن هذا حاله ، وأنه يريد أن يوقع البأس بين الناس ، ثم خنهم على القيام عليه والنهوض إليه ، وندبهم لذلك ، فالتف عليه خلق كثير وجم غفير ، وبعث محمد الأمين إليه خيلاً فاقتتلوا ملياً من النهار ، فأمر الحسين أصحابه بالترجل إلى الأرض وأن يقاتلوا بالسيوف والرماح ، فانهمز جيش الأمين وخلعه وأخذ البيعة لعبد الله المأمون ، وذلك يوم الأحد الحادي عشر من شهر رجب من هذه السنة ، ولما كان يوم الثلاثاء نقل الأمين من قصره إلى قصر أبي جعفر وسط بغداد ، وضيق عليه وقيدوا واضطهدوه ، وأمر العباس بن عيسى بن موسى أمه زبيدة أن تنتقل إلى هناك فامتنعت فضر بها بالسوط وقهرها على الانتقال فانقلبت مع أولادها ، فلما أصبح الناس يوم الأربعاء طلبوا من الحسين بن علي أعطيائهم واختلفوا عليه وصار أهل بغداد فرقتين ، فرقة مع الأمين وفرقة عليه ، فاقتتلوا قتالاً شديداً فقلب حزب الخليفة أولئك ، وأسروا الحسين بن علي ابن عيسى بن ماهان وقيدوه ودخلوا به على الخليفة ففكوا عنه قيوده وأجلسوه على سريرته ، فعند ذلك أمر الخليفة من لم يكن معه سلاح من العامة أن يعطى سلاحاً من الخزانة ، فانتهب الناس الخزائن التي فيها السلاح بسبب ذلك ، وأمر الأمين فأتى بالحسين بن علي بن عيسى فلامه على ما صدر منه فاعتذر إليه بأن عفو الخليفة حمله على ذلك . ففعا عنه وخلع عليه واستوزره وأعطاه

الختام وولاه ما وراء بابه ، وولاه الحرب وسيره إلى حلوان ، فلما وصل إلى الجسر هرب في حاشيته وخدمه فبعث إليه الأمين من يرده ، فركبت الخيول وراه فأدركوه فقاتلهم وقتلوه فقتلوه لمنتصف رجب ، وجاؤا برأسه إلى الأمين ، وجدد الناس البيعة للأمين يوم الجمعة ، ولما قتل الحسين بن علي بن عيسى هرب الفضل بن الربيع الحاجب واستحوذ طاهر بن الحسين على أكثر البلاد للمأمون ، واستناب بها النواب ، وخلع أكثر أهل الأقاليم الأمين وبايعوا المأمون ، ودنا طاهر إلى المدائن فأخذها مع واسط وأعمالها ، واستناب من جهته على الحجاز واليمن والجزيرة والموصل وغير ذلك ، ولم يبق مع الأمين من البلاد إلا القليل . وفي شعبان منها عقد الأمين أربعمائة لواء مع كل لواء أمير ، وبعثهم لقتال هرثة ، فالتقوا في شهر رمضان فكسروهم هرثة وأسر مقدمهم علي بن محمد بن عيسى بن نهيك ، وبعث به إلى المأمون . وهرب جماعة من جند طاهر فساروا إلى الأمين فأعطاهم أموالا كثيرة ، وأكرمهم وغلف لحامهم بالغالية فسموا جيش الغالية . ثم ندبهم الأمين وأرسل معهم جيشا كشيفاً لقتال طاهر فهزمهم طاهر وفرق شملهم ، وأخذ ما كان معهم . واقترب طاهر من بغداد فحاصرها وبعث القصاد والجواسيس يلقون الفتنة بين الجند حتى تفرقوا شيعاً ، ثم وقع بين الجيش وتشتت الأصاغر على الأكابر واختلفوا على الأمين في سادس ذي الحجة فقال بعض البغاددة :

قل لأمين الله في نفسه * ماشقت الجند سوى الغالية
وطاهر نفسى فدا طاهر * برسله والعدو الكافية
أضحى زمام الملك في كفهِ * مقاتلاً للفتور الباغية
يا ناكثاً أسلمهُ نكثهُ * عيوبهُ في خبثهِ فاشية
قد جاءك الليثُ بشدائهِ * مستكلباً في أسدٍ ضارية
فاهرب ولا مهرب من مثله * إلا إلى النار أو الهاوية

فتفرق على الأمين شمله ، وحار في أمره ، وجاء طاهر بن الحسين بجيوشه فقتل على باب الأنبار يوم الثلاثاء لثنتي عشرة ليلة خلت من ذي الحجة ، واشتد الحال على أهل البلد وأخاف الدعار والشطار أهل الصلاح ، وخربت الديار ، ونارت الفتنة بين الناس ، حتى قاتل الأخ أخاه للاهواء المختلفة ، والابن أباه ، وجرت شرور عظيمة ، واختلفت الأهواء وكثر الفساد والقتل داخل البلد .

وحج بالناس فيها العباس بن موسى بن عيسى الهاشمي من قبل طاهر ، ودعا للمأمون بالخلافة بمكة والمدينة ، وهو أول موسم دعى فيه للمأمون .
وفيهما توفي بقية بن الوليد الحمصي إمام أهل حمص وقيتها ومحدثها .

وحفص بن غياث القاضي

عاش فوق التسعين ، ولما احتضر بكى بعض أصحابه فقال له : لا تبك ! والله ما حلت سراويلي على حرام قط ، ولا جلس بين يدي خصمان فباليث على من وقع الحكم عليه منهما ، قريبا كان أو بعيداً ، ملكاً أو سوقاً .

وعبد الله بن مرزوق أبو محمد الزاهد ، كان وزيراً للرشد فترك ذلك كله وتزهد وأوصى عند موته أن يطرح قبل موته على مزبلة لعل الله أن يرجه .

أبو شيبص

الشاعر محمد بن رزين بن سليمان ، كان أستاذ الشعراء ، وإنشاء الشعر ونظمه أسهل عليه من شرب الماء ، كذا قال ابن خلكان وغيره . وكان هو وأبو مسلم بن الوليد - الملقب صريع الغواني - وأبو نوح ودعبل يجتمعون ويتناشدون . وقد عى أبو الشيبص في آخر عمره ، ومن جيد شعره قوله :

وقف الهوى بي حيث أنتِ فليس لي * متأخرٌ عنه ولا متقدمٌ
أجد الملامة في هوائكِ لذيدة * حباً لذكركِ فليعلمني اللومُ
أشبهت أعدائي فصرتُ أحبهم * إذ كان حظي منك حظي منهم
وأهنتني فأهنت نفسي صاغراً * ما من يهونُ عليكِ ممن تكرمُ

ثم دخلت سنة سبع وتسعين ومائة

استهلت هذه السنة وقد ألح طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين ومن معهما في حصار بغداد والتضييق على الأمين ، وهرب القاسم بن الرشيد وعنه منصور بن المهدي إلى المأمون فأكرهما ، وولى أخاه القاسم جرجان ، واشتد حصار بغداد ونصب عليها الجانيق والعرادات . وضاق الأمين بهم ذرعاً ، ولم يبق معه ما ينفق في الجند ، فاضطر إلى ضرب آنية الفضة والذهب دراهم ودنانير ، وهرب كثير من جنده إلى طاهر ، وقتل من أهل البلد خلق كثير ، وأخذت أموال كثيرة منهم ، وبعث الأمين إلى قصور كثيرة ودور شهيرة مزخرفة وأما كن ومحال كثيرة فخرقها بالنار لما رأى في ذلك من المصلحة ، فمل كل هذا فراراً من الموت ولتدوم الخلافة له فلم تدم ، وقتل وخربت دياره كما سيأتي قريباً ، وفعل طاهر مثل ما فعل الأمين حتى كادت بغداد تنحرب بكاملها ، فقال بعضهم في ذلك :

من ذا أصابك يا بغدادُ بالعين * ألم تسكوني زماناً قرّة العين
ألم يكن فيك قومٌ كان مسكنهم * وكان قريهم زيناً من الزين
صاح الغراب بهم بالبين فافتروا * ماذا لقيت بهم من لوعة البين
استودع الله قوماً ما ذكرتهم * إلا تحدر ماء العين من عيني

كانوا ففرقهم دهرٌ وصدعهم * والدهرُ يصدعُ ما بينَ الفريقينِ
وقد أكثر الشعراء في ذلك . وقد أورد ابن جرير من ذلك طرفاً صالحاً ، وأورد في ذلك قصيدة
طويلة جداً فيها بسط ما وقع ، وهي هول من الأحوال اقتصرناها بالكلية .

واستحوذ طاهر على ما في الضياع من الغلات والحواصل للأمرء وغيرهم ، ودعاهم إلى الأمان
والبيعة للمأمون فاستجابوا جميعهم ، منهم عبد الله بن حميد بن قحطبة ، ويحيى بن علي بن ماهان ،
ومحمد بن أبي العباس الطوسي ، وكتابه خلق من الهاشميين والأمرء ، وصارت قلوبهم معه . واتفق في
بعض الأيام أن ظفر أصحاب الأئمين ببعض أصحاب طاهر فقتلوا منهم طائفة عند قصر صالح ، فلما
سمع الأئمين بذلك بطر وأشر وأقبل على اللهو والشرب واللعب ، ووكل الأمور وتديرها إلى محمد بن
عيسى بن نهيك ، ثم قويت شوكة أصحاب طاهر وضعف جانب الأئمين جداً ، وانحاز الناس إلى
جيش طاهر - وكان جانبه آمناً جداً لا يخاف أحد فيه من سرقة ولا نهب ولا غير ذلك - وقد أخذ
طاهر أكثر محال بغداد وأرباضها ، ومنع الملاحين أن يحملوا طعاماً إلى من خالفه ، فغلت الاسعار
جداً عند من خالفه ، وندم من لم يكن خرج من بغداد قبل ذلك ، ومنعت التجار من القدوم إلى
بغداد بشئ من البضائع أو الدقيق ، وصرفت السفن إلى البصرة وغيرها ، وجرت بين الفريقين
حروب كثيرة ، فمن ذلك وقعة درب الحجارة كانت لأصحاب الأئمين ، قتل فيها خلق من أصحاب
طاهر كلن الرجل من العيارين والحرافشة من البغاددة يأتي عريافاً ومعه بارية مقيرة ، وتحت كتفه
مخلاة فيها حجارة ، فاذا ضربه الفارس من بعيد بالسهم انقاه بياريته فلا يؤذيه ، وإذا اقترب منه
رماه بمحجر في المقلع أصابه ، فهزموم لذلك . ووقعة الشمسية أسرفها هرثمة بن أعين ، فشق ذلك
على طاهر وأمر بعقد جسر على دجلة فوق الشمسية ، وعبر طاهر بنفسه ومن معه إلى الجانب الآخر
فقاتلهم بنفسه أشد القتال حتى أزالهم عن مواضعهم ، واسترد منهم هرثمة وجماعة ممن كانوا أسروهم
من أصحابه ، فشق ذلك على محمد الأئمين وقال في ذلك : -

منيتُ بأشجع الثقلين قلباً * إذا ما طالَ ليسَ كما يطولُ

له مع كل ذي بدرٍ رقيبٌ * يشاهدُ ويعلمُ ما يقولُ

فليسَ بمنفِلٍ أمراً عناداً * إذا ما الأمرُ ضيعةُ الفولِ

وضعف أمر الأئمين جداً ولم يبق عنده مال ينقعه على جنده ولا على نفسه ، وتفرق أكثر
أصحابه عنه ، وبقي مضطهداً ذليلاً . ثم انقضت هذه السنة بكملها والناس في بغداد في قلاقل وأهوية
مختلفة ، وقتال وحريق ، وسرقات ، وساءت بغداد فلم يبق فيها أحد يرد عن أحد كما هي عادة الفتن .
وحج بالناس فيها العباس بن موسى الهاشمي من جهة المأمون . وفيها توفي شعيب بن حرب أحد

الزهاد . وعبد الله بن وهب إمام أهل الديار المصرية . وعبد الرحمن بن مسهر أخو علي بن مسهر .
وعثمان بن سعيد الملقب بورش أحد القراء المشهورين الرواة عن نافع بن أبي نعيم . ووكيع بن
الجراح الرواسي أحد أعلام المحدثين . مات عن ست وستين سنة .

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين ومائة

فيها خامر خزيمه بن خازم على محمد الأمين وأخذ الأمان من طاهر . ودخل هرثمة بن أعين من
الجانب الشرقي . وفي يوم الأربعاء ثمان خلون من المحرم وثب خزيمه بن خازم ومحمد بن علي بن
عيسى على جسر بغداد فقطعاه ونصبا رأيتهما عليه . ودعوا إلى بيعة عبد الله المأمون وخلع محمد
الأمين ، ودخل طاهر يوم الخميس إلى الجانب الشرقي فباشر القتال بنفسه ، ونادى بالأمان لمن لزم
منزله ، وجرت عند دار الرقيق والكرخ وغيرهما وقعت ، وأحاطوا بمدينة أبي جعفر والخلد وقصر
زبيدة ، ونصب المجانيق حول السور وحذاء قصر زبيدة ، ورماه بالمنجنيق ، فخرج الأمين بأمه
وولده إلى مدينة أبي جعفر ، وتفرق عنه عامة الناس في الطريق ، لا يلوى أحد على أحد ، حتى دخل
قصر أبي جعفر وانتقل من الخلد لكثرة ما يأتيه فيه من رمى المنجنيق ، وأمر بتحريق ما كان فيه
من الأثاث والبسط والأمتعة وغير ذلك ، ثم حصر حصراً شديداً . ومع هذه الشدة والضيق وإشرافه
على الهلاك خرج ذات ليلة في ضوء القمر إلى شاطئ دجلة واستدعى بنبيذ وجارية فغنته فلم ينطلق
لسانها إلا بالفراقيات وذكر الموت وهو يقول : غير هذا ، وتذكر نظيره حتى غنته آخر ما غنته :

أما ورب السكون والحرك * إن المنايا كثيرة الشرك
ما اختلف الليل والنهار ولا * دارت نجوم السماء في الفلك
إلا لنقل السلطان من ملك * قد انقضى ملكه إلى ملك
وملك ذي العرش دائم أبداً * ليس بفاني ولا بمشترك

قال : فسبها وأقامها من عنده فعثرت في قبح كان له من بلور فكسرتة فتطير بذلك . ولما ذهبت
الجارية سمع صارخاً يقول [قضى الأمر الذي فيه تستفتيان] فقال لجليسه : ويحك ألا تسمع ،
فتسمع فلا يسمع شيئاً ، ثم عاد الصوت بذلك فما كان إلا ليلة أو ليلتان حتى قتل في رابع صفر يوم
الأحد ، وقد حصل له من الجهد والضيق في حصره شيئاً كثيراً بحيث إنه لم يبق له طعام يأكله
ولا شراب يبيث إنه جاع ليلة فما أتى برغيف ودجاجة إلا بعد شدة عظيمة ، ثم طلب ماء فلم يوجد
له فبات عطشاً فلما أصبح قتل قبل أن يشرب الماء .

كيفية مقتله

لما اشتد به الأمر اجتمع عنده من يقي معه من الأمراء والخدم والجند ، فشاورهم في أمره فقالت

طائفة : تنهب بمن بقي ملك إلى الجزيرة أو الشام فتتقوى بالأموال وتستخدم الرجال . وقال بعضهم تخرج إلى طاهر وتأخذ منه أماناً وتبايع لأخيك ، فإذا فعلت ذلك فإن أخاك سيأمر لك بما يكفيك ويكفي أهلك من أمر الدنيا ، وغاية مرادك الدعة والراحة ، وذلك يحصل لك تاماً . وقال بعضهم : بل هرمة أولى بأن يأخذ لك منه الأمان فإنه مولاكم وهو أحنى عليكم . قال إلى ذلك ، فلما كانت ليلة الأحد الرابع من صفر بعد عشاء الآخرة واعد هرمة أن يخرج إليه ، ثم لبس ثياب الخلافة وطيلساناً واستدعى بولديه فشمهما وضمهما إليه وقال : أستودعكما الله ، ومسح دموعه بطرف كفه ، ثم ركب على فرس سوداء وبين يديه شمعة ، فلما انتهى إلى هرمة أكرمه وعظمه وركبا في حراقة في دجلة ، وبلغ ذلك طاهراً فغضب من ذلك وقال : أنا الذي فعلت هذا كله ويذهب إلى غيري ، وينسب هذا كله إلى هرمة ؟ فلحقهما وهما في الحراقة فأمالها أصحابه ففرق من فيها ، غير أن الأمين سبى إلى الجانب الآخر وأمره بعض الجنود . وجاء فأعلم طاهراً فبعث إليه جنداً من المعجم فجاءوا إلى البيت الذي هو فيه وعنده بعض أصحابه وهو يقول له : ادن مني فأجد وحشة شديدة ، وجعل يلنف في ثيابه شديداً وقلبه يخفق خفقاناً عظيماً ، كاد يخرج من صدره . فلما دخل عليه أولئك قال : إنا لله وإنا إليه راجعون . ثم دنا منه أحدهم فضربه بالسيف على مفرق رأسه فجعل يقول : ويحكم أنا ابن عم رسول الله (ص) ، أنا ابن هارون ، أنا أخو المأمون ، الله الله في دمي . فلم يلتفتوا إلى شيء من ذلك ، بل تكاثروا عليه وذبحوه من قفاه وهو مكبوب على وجهه وذهبوا برأسه إلى طاهر وتركوا جثته ، ثم جاءوا بكرة إليها فلفوها في جل فرس وذهبوا بها . وذلك ليلة الأحد لأربع ليال خلت من صفر من هذه السنة .

شيء من ترجمته

هو محمد الأمين بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن المنصور ، أبو عبد الله ويقال أبو موسى الهاشمي العباسي ، وأمه أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور ، كان مولده بالرصافة سنة سبعين ومائة [قال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا عياش بن هشام عن أبيه قال : ولد محمد الأمين بن هارون الرشيد في شوال سنة سبعين ومائة ^(١)] . وأنته الخلافة بمدينة السلام بغداد ثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين وقبل ليلة الأحد لخمس بقين من المحرم ، وقتل سنة ثمان وتسعين ومائة ، قتله قریش الدنداني ، وحمل رأسه إلى طاهر بن الحسين فنصبه على ربح وتلاه هذه الآية [قل اللهم مالك الملك] وكانت ولايته أربع سنين وسبعة أشهر وثمانية أيام ، وكان طويلاً سميناً أبيض أفتى الأنف صغير العينين ، عظيم الكراديس بعيداً ما بين المنكبين . وقد رماه بعضهم بكثرة اللعب والشرب وقلة الصلاة . وقد ذكر ابن جرير طرفاً من سيرته في إكثاره من

(١) زيادة من المصرية .

قتناه السودان والخصيان ، وإعطائه الأموال والجواهر ، وأمره باحضار الملاحى والمغنين من سائر
لبلاذ ، وأنه أمر بعمل خمس حراقات على صورة الفيل والأسد والعقاب والحية والفرس ، وأنفق
على ذلك أموالاً جزيلة جداً ، وقد امتدحه أبو نواس بشعر أصبح فى معناه من صنيع الأمين فانه قال
فى أوله : سخرَ اللهَ للأمين مطايا • لم تسخرْ لصاحبِ الحرابِ
فاذا ماركابهُ سرنَ برآ • سارَ فى الماءِ راكباً ليثَ غلبِ

ثم وصف كلا من تلك الحراقات . واعتنى الأمين بينايات هائلة للفرقة وغيرها ، وأنفق فى ذلك
أموالاً كثيرة جداً . فكثير التكثير عليه بسبب ذلك .

وذكر ابن جرير أنه جلس يوماً فى مجلس أنفق عليه مالا جزيلاً فى الخلد ، وقد فرش له بأنواع
الحريز ، ونضد بآنية الذهب والفضة ، وأحضر ندماءه وأمر القهرمانه أن تهى له مائة جارية حسناء
وأمرها أن تبعثن إليه عشرآ بعد عشر يغنيهن ، فلما جاءت العشر الأول اندفن يغنين بصوت واحد :
هُمُو قتلوه كي يكونوا مكانه • كما غدرت يوماً بكسرى مرابضة
فغضب من ذلك وتبرم وضرب رأسها بالكأس ، وأمر بالقهرمانه أن تلقى إلى الأسد فأكلها .
ثم استدعى بعشرة فاندفن يغنين :

من كانَ مسروراً بمقتلِ مالكِ • فليأتِ نسوتنا بوجهِ نهارِ
يجدُ النساءُ حواسراً يندبنهُ • يلطنُ قبلَ تبلجِ الأسعارِ
فلردهن واستدعى بعشر غيرهن ، فلما حضرن اندفن يغنين بصوت واحد :
كليبَ لعمري كانَ أكثرَ ناصراً • وأيسرُ ذنباً منكَ ضرجَ بالدمِ
فطردهن وقام من فوره وأمر بتخريب ذلك المجلس وتحويل مافيه .

وذكر أنه كان كثير الأدب فصيحاً يقول الشعر ويعطى عليه الجوائز الكثيرة ، وكان شاعره
أبا نواس ، وقد قال فيه أبو نواس مدائح حسنا ، وقد وجدته مسجوناً فى حبس الرشيد مع الزنادقة
فأحضره وأطلقه وأطلق له مالا وجعله من ندمائه ، ثم حبسه مرة أخرى فى شرب الخمر وأطال حبسه
ثم أطلقه وأخذ عليه العهد أن لا يشرب الخمر ولا يأتى الذكور من المردان فامتنل ذلك ، وكان
لا يفعل شيئاً من ذلك بعد ما استتابه الأمين ، وقد تأدب على الكسائى وقرأ عليه القرآن . وروى
الخطيب من طريقه حديثاً أورده عنه لما عزى فى غلام له توفى بمكة فقال : حدثنى أبى عن أبيه
عن المنصور عن أبيه عن على بن عبد الله عن أبيه قال : سمعت رسول الله (س) ، يقول . « من
مات محرماً حشر مليباً » .

وقد قدمنا ما وقع بينه وبين أخيه من الاختلاف والفرقة ، حتى أفضى ذلك إلى خلمه وعزله ، ثم

إلى التضيق عليه ، ثم إلى قتله ، وأنه حصر في آخر أمره حتى احتاج إلى مصانعة هرثمة ، وأنه ألقى في حراقة ثم ألقى منها فسبح إلى الشط الآخر فدخل دار بعض العامة وهو في غاية الخوف والدهش والجوع والعري ، فجعل الرجل يلقيه الصير والاستغفار ، فاشتغل بذلك ساعة من الليل ، ثم جاء الطلب وراءه من جهة طاهر بن الحسين بن مصعب ، فدخلوا عليه وكان الباب ضيقاً فتدافعوا عليه وقام إليهم فجعل يدافعهم عن نفسه بمخدة في يده ، فما وصلوا إليه حتى عرقبوه وضربوا رأسه وأخاضرته بالسيف ، ثم ذبحوه وأخذوا رأسه وجثته فأتوا بهما طاهراً ، ففرح بذلك فرحاً شديداً ، وأمر بنصب الرأس فوق رمح هناك حتى أصبح الناس ينظرون إليه فوق الرمح عند باب الأنبار ، وكثر عدد الناس ينظرون إليه . ثم بعث طاهر برأس الأمين مع ابن عمه محمد بن مصعب ، وبعث معه بالبردة والتضييب والنمل - وكان من خواص مبطن - فسله إلى ذى الرياستين ، فدخل به على المأمون على ترس ، فلما رآه سجد وأمر لمن جاء به بألف ألف درهم . وقد قال ذو الرياستين حين قدم الرأس يؤلب على طاهر : أمرناه بأن يأتي به أسيراً فأرسل به إلينا عقيراً . فقال المأمون : مضى ما مضى . وكتب طاهر إلى المأمون كتاباً ذكر فيه صورة ما وقع حتى آل الحال إلى ما آل إليه . ولما قتل الأمين هدأت الفتن وخمدت الشرور ، وأمن الناس ، وطابت النفس ، ودخل طاهر بغداد يوم الجمعة وخطبهم خطبة بليغة ذكر فيها آيات كثيرة من القرآن ، وأن الله يفعل ما يشاء وبمحكم ما يريد ، وأمرهم فيها بالجماعة والسمع والطاعة ثم خرج إلى مسكره فأقام به وأمر بتحويل زبيدة من قصر أبي جعفر إلى قصر الخلد ، فخرجت يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول من هذه السنة ، وبعث موسى وعبد الله ابني الأمين إلى عههما المأمون بخراسان ، وكان ذلك رأياً سديداً . وقد وثب طائفة من الجند على صاهر بعد خمسة أيام من مقتل الأمين وطلبوا منه أرواقهم فلم يكن عنده إذ ذاك مال ، فتحزبوا واجتمعوا ونهبوا بعض متاعه ونادوا : يا موسى يا منصور ، واعتقدوا أن موسى بن الأمين الملقب بالملقب بالناطق هناك ، وإذا هو قد سيره إلى عمه . وانحاز طاهر بمن معه من القواد فاحية وعزم على قتالهم بمن معه ، ثم رجعوا إليه واعتذروا وندسوا ، فأمر لهم برزق أربعة أشهر بمشرين ألف دينار اقترضها من بعض الناس ، فطابت الخواطر . ثم إن إبراهيم بن المهدي قد أسف على قتل محمد الأمين بن زبيدة ورفاه بأبيات ، فبلغ ذلك المأمون فبعث إليه يعنفه ويلومه على ذلك . وقد ذكر ابن جرير مراني كثيرة للناس في الأمين ، وذكر من أشمار الذين هجوه طرطاً ، وذكر من شعر طاهر بن الحسين حين قتله قوله : —

ملكك الناس قسراً واقتداراً • وقتلت الجبارة الكبارا
ووجهت الخلافة نحو مرو • إلى المأمون تبندر ابتدارا

خلافة عبد الله المأمون بن الرشيد هارون

لما قتل أخوه محمد في ربيع صفر من سنة ثمان وتسعين ومائة وقيل في المحرم ، استوسقت البيعة شرقاً وغرباً للمأمون : فولى الحسن بن سهل نيابة المراق وفارس والأهواز والكوفة والبصرة والحجاز واليمن ، وبعث نوابه إلى هذه الأقاليم ، وكتب إلى طاهر بن الحسين أن ينصرف إلى الرقة لحرب نصر بن شيبث ، وولاه نيابة الجزيرة والشام والموصل والمغرب . وكتب إلى هرثمة بن أعين بنيابة خراسان . وفيها حج بالناس العباس بن عيسى الهاشمي . وفيها توفي سفيان بن عيينة . وعبد الرحمن ابن مهدي . ويحيى القطان . فهؤلاء الثلاثة سادة العلماء في الحديث والفقه وأسماء الرجال .

ثم دخلت سنة تسع وتسعين ومائة .

فيها قدم الحسن بن سهل بغداد نائبا عليها من جهة المأمون ، ووجه نوابه إلى بقية أعماله ، وتوجه طاهر إلى نيابة الجزيرة والشام ومصر وبلاد المغرب . وسار هرثمة إلى خراسان نائبا عليها ، وكان قد خرج في أواخر السنة الماضية في ذى الحجة منها ، الحسن الهرش يدعو إلى الرضى من آل محمد ، فجبي الأموال وانتهب الأنعام وعلث في البلاد فساداً فبعث إليه المأمون جيشاً فقتلوه في المحرم من هذه السنة . وفيها خرج بالكوفة محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة ، يدعو إلى الرضى من آل محمد ، والعمل بالكتاب والسنة ، وهو الذي يقال له ابن طباطبا ، وكان القائم بأمره وتبدير الحرب بين يديه أبو السرايا النخعي بن منصور الشيباني ، وقد اتفق أهل الكوفة على موافقته واجتمعوا عليه من كل فج عميق ، ووفدت إليه الأعراب من نواحي الكوفة ، وكان النائب عليها من جهة الحسن بن سهل سليمان ابن أبي جعفر المنصور ، فبعث الحسن بن سهل يلومه ويؤنبه على ذلك ، وأرسل إليه بمشرة آلاف فارس محبة زاهر بن زهير بن المسيب ، فقتلوا خارج الكوفة فهزموا زاهرا واستباحوا جيشه ونهبوا ما كان معه ، وذلك يوم الأربعاء سلخ جمادى الآخرة ، فلما كان الفد من الوقعة توفي ابن طباطبا أمير الشيعة فجأة ، يقال إن أبا السرايا سمه وأقام مكانه غلاماً أمرد يقال له محمد بن محمد بن زيد بن علي ابن الحسين بن علي بن طالب . وانزل زاهر بمن بقي معه من أصحابه إلى قصر ابن هبيرة ، وأرسل الحسن بن سهل مع عبدوس بن محمد أربعة آلاف فارس ، صورة مدد زاهر ، فالتقوا وأبو السرايا فهزمهم أبو السرايا ولم يفلت من أصحاب عبدوس أحد ، وانتشر الطالبيون في تلك البلاد ، وضرب أبو السرايا الدراهم والدنانير في الكوفة ، ونقش عليه (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا) الآية . ثم بعث أبو السرايا جيوشه إلى البصرة وواسط والمدائن فهزموا من فيها من النواب ودخلوها قهراً ، وقويت شوكتهم ، فأمر ذلك الحسن بن سهل وكتب إلى هرثمة يستدعيه لحرب أبي السرايا

فمنع ثم قدم عليه فخرج إلى أبي السرايا فهزم أبا السرايا غير مرة وطرده حتى رده إلى الكوفة ووثب الطالبيون على دور بني العباس بالكوفة فتهبوا وخرى أضياعهم ، وفعلوا أفعالا قبيحة . وبعث أبو السرايا إلى المدائن فاستجابوا ، وبعث إلى أهل مكة حسين بن حسن الأفطس ليقم لهم الموسم فخاف أن يدخلها جهرة ، ولما سمع نائب مكة - وهو داود بن عيسى بن موسى بن علي بن عبد الله بن عباس - هرب من مكة طالبا أرض العراق ، وبقي الناس بلا إمام فمثل مؤذنها أحمد ابن محمد بن الوليد الأزرق أن يصلى بهم فأتى ، فقبل لقاضها محمد بن عبد الرحمن الخزومي فامتنع ، وقال : لمن أدعو وقد هرب نواب البلاد . فقدم الناس رجلا منهم فصلى بهم الظهر والعصر ، وبلغ الخبر إلى حسين الأفطس فدخل مكة في عشرة أنفس قبل الغروب فطاف بالبيت ، ثم وقف بعرفة ليلا وصلى بالناس الفجر بمردلفة وأقام بقية المناسك في أيام منى ، فدفع الناس من عرفة بغير إمام . وفيها توفي إسحاق بن سليمان . وابن نمير . وابن سابور . وعمر والعنبري ، والد مطيع البلخي . ويونس بن بكير .

ثم دخلت سنة مائتين من الهجرة

في أول يوم منها جلس حسين بن حسن الأفطس على طنفسة مثلثة خلف المقام وأمر بتجريد الكعبة مما عابها من كساوى بني العباس ، وقال : نظرها من كساويهم . وكساها ملاءتين صفراوتين عليهما اسم أبي السرايا ، ثم أخذ ما في كنز الكعبة من الأموال ، وتبّع ودائع بني العباس فأخذها ، حتى أنه أخذ مال ذوى المال ويزعم أنه للمسودة . وهرب منه الناس إلى الجبال ، وسبك ما على رؤس الأساطين من الذهب ، وكان ينزل مقدار يسير بعد جهد ، وقلعوا ما في المسجد الحرام من الشبايك وباعوها بالبخس ، وأسأوا السيرة جداً . فلما بلغه مقتل أبي السرايا كتم ذلك وأمر رجلا من الطالبين شيخاً كبيراً ، واستمر على سوء السيرة ، ثم هرب في سادس عشر المحرم منها ، وذلك لما قهر هرثمة أبا السرايا وهزم جيشه وأخرجه ومن معه من الطالبين من الكوفة ، ودخلها هرثمة ومنصور بن المهدي فأمنوا أهلها ولم يتعرضوا لأحد . وسار أبو السرايا بمن معه إلى القادسية ، ثم سار منها فاعترضهم بعض جيوش المأمون فهزمهم أيضاً وجرح أبو السرايا جراحة منكرة جداً ، وهربوا يريدون الجزيرة إلى منزل أبي السرايا برأس العين ، فاعترضهم بعض الجيوش أيضاً فأسروهم وأتوا بهم الحسن بن سهل وهو بالنهر وان حين طرده الحريرة ، فأمر بضرب عنق أبي السرايا فجزع من ذلك جزعاً شديداً جداً وطيف برأسه وأمر بجسده أن يقطع اثنتين وينصب على جسرى بغداد ، فكان بين خروجه وقتله عشرة أشهر . فبعث الحسن بن سهل بن محمد إلى المأمون مع رأس أبي السرايا . وقال بعض الشعراء :

ألم تر ضربة الحسن بن سهل * بسيفك يا أمير المؤمنين

أدارت مرو رأس أبي السرايا * وأبقت عبرة للعالمينا

وكان الذي في يده البصرة من الطالبين زيد بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين ابن علي ، ويقال له زيد النار ، لكثرة ما حرق من البيوت التي للمسودة ، فأمره علي بن سعيد وأمنه وبعث به وبمن معه من القواد إلى اليمن لقتال من هناك من الطالبين .

وفيها خرج باليمن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي ، ويقال له الجزار لكثرة من قتل من أهل اليمن ، وأخذ من أموالهم . وهو الذي كان بمكة وفعل فيها ما فعل كما تقدم ، فلما بلغه قتل أبي السرايا هرب إلى اليمن ، فلما بلغ نائب اليمن خبره ترك اليمن وسار إلى خراسان واجتاز بمكة وخذ أمه منها . واستحوذ إبراهيم هذا على بلاد اليمن وجرت حروب كثيرة يطول ذكرها ، ورجع محمد بن جعفر العلوي عما كان يزعمه ، وكان قد ادعى الخلافة بمكة ، وقال : كنت أظن أن المأمون قد مات وقد تحققت حياته ، وأنا استغفر الله وأتوب إليه مما كنت ادعيت من ذلك ، وقد رجعت إلى الطاعة وأنا رجل من المسلمين . ولما هزم هرثة أبا السرايا ومن كان معه من ولاية الخلافة وهو محمد بن محمد وشي بعض الناس إلى المأمون أن هرثة راسل أبا السرايا وهو الذي أمره بالظهور ، فاستدعاه المأمون إلى مرو فأمر به فضرب بين يديه ووطئ بطنه ثم رفع إلى الحبس ثم قتل بعد ذلك بأيام ، وانطوى خبره بالكافة . ولما وصل خبر قتله إلى بغداد عثقت العامة والحربية بالحسن ابن سهل نائب العراق وقالوا : لا نرضى به ولا بعلمه ببلادنا ، وأقاموا إسحاق بن موسى المهدي نائباً ، واجتمع أهل الجانبين على ذلك ، والتفت على الحسن بن سهل جماعة من الأمراء والأجناد ، وأرسل من وافق العامة على ذلك من الأمراء يحرضهم على القتال ، وجرت الحروب بينهم ثلاثة أيام في شعبان من هذه السنة . ثم اتفق الحال على أن يعطيهم شيئاً من أرزاقهم ينفقونها في شهر رمضان ، فزال بمطلبهم إلى ذي القعدة حتى يدرك الزرع ، فخرج في ذي القعدة زيد بن موسى الذي يقال له زيد النار ، وهو أخو أبي السرايا ، وقد كان خروجه هذه المرة بناحية الأنبار ، فبعث إليه علي بن هشام نائب بغداد عن الحسن بن سهل والحسن بالمداخنة إذ ذاك فأخذ وأتى به إلى علي ابن هشام ، وأطفا الله نارته .

بعث المأمون في هذه السنة يطلب من بقي من العباسيين ، وأحصى كم العباسيون فبلغوا ثلاثة وثلاثين ألفاً ، ما بين ذكور وإناث . وفيها قتلت الروم ملكهم اليون ، وقد ملكهم سبع سنين ، وملكوا عليهم ميخائيل نائبه . وفيها قتل المأمون يحيى بن عامر بن إسماعيل ، لأنه قال للمأمون : يا أمير الكافرين . فقتل صبراً بين يديه . وفيها حج بالناس محمد بن المعتصم بن هارون الرشيد . وفيها توفي من الأعيان :

أسباط بن محمد . وأبوضرة أنس بن عياض . ومسلم بن قتيبة . وعمر بن عبد الواحد . وابن أبي فديك . ومبشر بن إسماعيل . ومحمد بن جبير . ومعاذ بن هشام .

ثم دخلت سنة إحدى ومائتين

فيها راود أهل بغداد منصور بن المهدي على الخلافة فامتنع من ذلك ، فراودوه على أن يكون نائباً للآمور يدعو له في الخطبة فأجابهم إلى ذلك ، وقد أخرجوا على بن هشام نائب الحسن بن سهل من بين أظهرهم بعد أن جرت حروب كثيرة بسبب ذلك . وفيها عم البلاء بالعيارين والشارط والفساق ببغداد وما حولها من القرى ، كانوا يأتون الرجل يسألونه ما لا يقضهم أو يضلمهم به فيمتنع عليهم فيأخذون جميع ما في منزله ، وربما تمرضوا للعلمان والنسوان ، ويأتون أهل القرية فيستاقون من أدنعام والمواشي ويأخذون ما شاؤوا من العلمان والنسوان ، ونهبوا أهل قطر بل ولم يدعوا لهم شيئاً أصلاً ، فانتدب لهم رجل يقال له خالد الدريوش ، وآخر يقال له سهل بن سلامة أبو حاتم الأنصاري من أهل خراسان . والتف عليهم جماعة من العامة فكفروا شرهم وقابلوهم ومنهزم من الفساد في الأرض ، واستقرت الأمور كما كانت ، وذلك في شعبان ورمضان . وفي شوال منها رجع الحسن بن سهل إلى بغداد وصالح الجند ، وانفصل منصور بن المهدي ومن واقفه من الأمراء . وفيها بايع المأمون لعل الرضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد بن الحسين الشهيد بن علي بن أبي طالب أن يكون ولي العهد من بعده ، وسماه الرضى من آل محمد ، وطرح لبس السواد وأمر باللبس الخضرة ، فلبسها هو وجنده ، وكتب بذلك إلى الآفاق والأقاليم ، وكانت مبايعته له يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من شهر رمضان سنة إحدى ومائتين ، وذلك أن المأمون رأى أن علياً الرضى خير أهل البيت وليس في بني العباس مثله في عمله ودينه ، فجعله ولي عهده من بعده .

بيعة أهل بغداد لإبراهيم بن المهدي

لما جاء الخبر أن المأمون بايع لعل الرضى بالولاية من بعده اختلفوا فيما بينهم ، فمن مجيب مبايع ، ومن آب ممانع ، وجهور العباسيين على الامتناع من ذلك ، وقام في ذلك ابن المهدي إبراهيم ومنصور ، فلما كان يوم الثلاثاء لحس بقين من ذى الحجة أظهر العباسيون البيعة لإبراهيم بن المهدي ولقبوه المبارك . وكان أسود اللون . ومن بعده لابن أخيه إسحاق بن موسى بن المهدي ، وخلعوا المأمون . فلما كان يوم الجمعة لليلتين بقيتا من ذى الحجة أرادوا أن يدعوا للآمور ثم من بعده لإبراهيم فقالت العامة : لا تدعوا إلا إلى إبراهيم فقط ، واختلفوا واضطربوا فيما بينهم ، ولم يصلوا الجمعة ، وصلى الناس فرادى أربع ركعات .

وفيها افتتح نائب طبرستان جبالها وبلاد اللارز والشيرز . وذكر ابن حزم أن سلماً الخلسر

قال في ذلك شعرا . وقد ذكر ابن الجوزي وغيره أن سلماً توفي قبل ذلك بسنين فأنه أعلم .
وفيهما أصاب أهل خراسان والري وأصبهان مجاعة شديدة وغلا الطعام جداً . وفيها تحرك بابك
الخرمي واتبعه طوائف من السفلة والجهلة وكان يقول بالناسخ . وسيأتي ما آل أمره إليه . وفيها حج
بالناس إسحاق بن موسى بن عيسى الهاشمي .

وفيهما توفي من الأعيان : أبو أسامة حماد بن أسامة . وحامد بن مسعدة . وحرسى بن عمارة .
وعلى بن عاصم . ومحمد بن محمد صاحب أبي السرايا الذي قد كان بإيه أهل الكوفة بعد ابن طباطبا .

ثم دخلت سنة ثنتين ومائتين

في أول يوم منها يبيع لأبراهيم بن المهدي بالخلافة ببغداد وخلع المأمون ، فلما كان يوم الجمعة
خامس المحرم صعد إبراهيم بن المهدي المنبر فبايعه الناس ولقب بالمبارك ، وغلب على الكوفة وأرض
السواد ، وطلب منه الجند أرزاقهم فإطلمهم ثم أعطاهم مائتي درهم لكل واحد ، وكتب لهم بتعويض
من أرض السواد ، فخرجوا لا يملكون بشئ إلا أنهم يهود ، وأخذوا حاصل الفلاح والسلطان ، واستناب
على الجانب الشرقي العباس بن موسى الهادي ، وعلى الجانب الغربي إسحاق بن موسى الهادي .
وفيهما خرج خارجي يقال له مهدي بن علوان ، فبعث إليهم إبراهيم جيشاً عليهم أبو إسحاق المنعم
ابن الرشيد في جماعة من الأمراء فكسره ورد كيده . وفيها خرج أخو أبي السرايا فبيض بالكوفة
فأرسل إليه إبراهيم بن المهدي من قاتله فقتل أخو أبي السرايا وأرسل برأسه إلى إبراهيم ، ولما كان
ليلة أربع عشرة من ربيع الآخر من هذه السنة ظهرت في السماء حمرة ثم ذهبت وبقي بعدها
عمودان أحمران في السماء إلى آخر الليل ، وجرت بالكوفة حروب بين أصحاب إبراهيم وأصحاب
المأمون ، واقتتلوا قتلاً شديداً . وعلى أصحاب إبراهيم السواد ، وعلى أصحاب المأمون الخضر ،
واستمر القتال بينهم إلى أواخر رجب .

وفيهما ظفر إبراهيم بن المهدي بسهل بن سلامة المطوع فسجنه ، وذلك أنه التف عليه جماعة من الناس
يقومون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولكن كانوا قد جاوزوا الحد وأنكروا على السلطان
ودعوا إلى القيام بالكتاب والسنة ، وصار باب داره كأنه باب دار السلطان ، عليه السلاح والرجال
وغير ذلك من أهبة الملك ، فقاتله الجند فكسروا أصحابه فألقى السلاح وصار بين النساء والنظارة
ثم اختفى في بعض الدور ، فأخذ وجيء به إلى إبراهيم فسجنه سنة كاملة . وفيها أقبل المأمون من
خراسان قاصداً العراق ، وذلك أن علي بن موسى الرضى أخبر المأمون بما الناس فيه من الفتن
والاختلاف بارض العراق ، وبأن الهاشميين قد أنهموا إلى الناس بأن المأمون مسحور ومسجون ،
وأنهم قد قمعوا عليك ببيعتك لعلي بن موسى ، وأن الحرب قائمة بين الحسن بن سهل وبين إبراهيم

ابن المهدي . فاستدعى المأمون بجماعة من أمرائه وأقربائه فسألهم عن ذلك فصدقوا علياً فيما قال ، بعد أخذهم الأمان منه ، وقالوا له : إن الفضل بن سهل حسن لك قتل هريرة ، وقد كان ناصحاً لك . فعاجله بقتله ، وإن طاهر بن الحسين مهد لك الأمور حتى قاد إليك الخلافة بزمامها فطردته إلى الرقة فقمع لأعماله ولا تستنهضه في أمر ، وإن الأرض تفتت بالشُرور والفتن من أقطارها . فلما تحقق ذلك المأمون أمر بالرحيل إلى بغداد ، وقد فطن الفضل بن سهل بما عملاً عليه أولئك الناصحون ، فضرب قوماً وتنف لحي بعضهم . وسار المأمون فلما كان بسر خس عدا قوم على الفضل بن سهل وزير المأمون وهو في الحمام فقتلوه بالسيوف ، وذلك يوم الجمعة لليلتين خلتا من شوال وله ستون سنة ، فبعث المأمون في آثارهم نجى بهم وهم أربعة من المالِك فقتلهم ، وكتب إلى أخيه الحسن بن سهل يعزیه فيه ، وولاه الوزارة مكانه ، وارتحل المأمون من سرخس يوم عيد الفطر نحو العراق وإبراهيم بن المهدي بالمداين ، وفي مقابلته جيش يقاتلونه من جهة المأمون .

وفيهما تزوج المأمون بوران بنت الحسن بن سهل ، وزوج علي بن موسى الرضى بابنته أم حبيب وزوج ابنه محمد بن علي بن موسى بابنته الأخرى أم الفضل . وحج بالناس إبراهيم بن موسى بن جعفر أخو علي الرضى ، ودعا لأخيه بعد المأمون ، ثم انصرف بعد الحج إلى اليمن ، وقد كان تغلب عليها خدويه بن علي بن موسى بن ماهان . وفيها توفي : أيوب بن سويد . وضمرة . وعمر بن حبيب . والفضل بن سهل الوزير . وأبو يحيى الحائلي .

ثم دخلت سنة ثلاث ومائتين

ففيها وصل المأمون العراق ومر بطوس فنزل بها وأقام عند قبر أبيه أياماً من شهر صفر ، فلما كان في آخر الشهر أكل علي بن موسى الرضى عنبا فمات فجأة فصرى عليه المأمون ودفنه إلى جانب أبيه الرشيد ، وأسف عليه أسفاً كثيراً فيها ظهر ، وكتب إلى الحسن بن سهل يعزیه فيه ويخبره بما حصل له من الحزن عليه ، وكتب إلى بني العباس يقول لهم : إنكم إنما تقيم على بسبب توليتي المهدي من بعدى لعلي بن موسى الرضى ، وها هو قد مات فارجعوا إلى السمع والطاعة . فأجابوه بأغلظ جواب كتب به إلى أحد . وفيها تغلبت الثوار على الحسن بن سهل حتى قيد بالحديد وأودع في بيت ، فكتب الأمراء بذلك إلى المأمون ، فكتب إليهم إني واصل على إثر كتابي هذا . ثم جرت حروب كثيرة بين إبراهيم وأهل بغداد ، وتنكروا عليه وأبغضوه . وظهرت الفتن والشطار والفساق ببغداد وتفاقم الحال ، وصلوا يوم الجمعة ظهرآ ، أمهم المؤذنون فيها من غير خطبة ، صلوا أربع ركعات ، واشتد الأمر واختلف الناس فيما بينهم في إبراهيم والمأمون ، ثم غلبت المأمونية عليهم .

خلع أهل بغداد إبراهيم بن المهدي

لما كان يوم الجمعة المقبلة دعا الناس المأمون وخلعوا إبراهيم ، وأقبل حميد بن عبد الحميد في جيش

من جهة المأمون فحاصر بغداد . وطمع جندها في العطاء إذا قدم فطاوعوه على السمع والطاعة للمأمون . وقد قاتل عيسى بن محمد بن أبي خالد في جماعة من جهة إبراهيم بن المهدي ، ثم احتال عيسى حتى صار في أيدي المأمونية أسيراً ، ثم آل الحال إلى اختفاء إبراهيم بن المهدي في آخر هذه السنة . وكانت أيامه سنة واحد عشر شهراً وأثنى عشر يوماً . وقدم المأمون في هذا الوقت إلى همدان وجيوشه قد استغنوا ببغداد إلى طاعته . وحج بالناس في هذه السنة سليمان بن عبد الله بن سليمان ابن علي . وفيها توفي من الأعيان :

علي بن موسى

ابن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، القرشي الهاشمي العلوي الملقب بالرضي ، كان المأمون قدّم أن ينزل له عن الخلافة فأبى عليه ذلك ، فجعله ولي العهد من بعده كما قدمنا ذلك . توفي في صفر من هذه السنة بطوس . وقد روى الحديث عن أبيه وغيره ، وعنه جماعة منهم المأمون وأبو السلط المروزي وأبو عثمان المازني النحوي ، وقال سمعته يقول : الله أعدل من أن يكلف العباد مالا يطيقون ، وهم أعجز من أن يفعلوا ما يريدون . ومن شعره :

كلنا يأملُ مدّاً في الأجل * والمنايا هنَّ آفاتُ الأملِ
لا تنفركَ أباطيلُ المني * والزمِ القصدَ ودعْ عنك العملَ
إنما الدنيا كظلي زائلٍ * حلّ فيه راكبٌ ثم ارتحلُ

ثم دخلت سنة أربع ومائتين

فيها كان قدوم المأمون أرض العراق ، وذلك أنه مر بمرجان فأقام بها شهراً ، ثم سار منها وكان ينزل في المنزل يوماً أو يومين ، ثم جاء إلى النهر وان فأقام بها ثمانية أيام ، وقد كتب إلى طاهر بن الحسين وهو بالرقّة أن يوافيه إلى النهر وان فوافاه بها وتلقاه رؤس أهل بيته والقواد وجهور الجيش ، فلما كان يوم السبت الآخر دخل بغداد حين ارتفع النهار لأربع عشرة ليلة خلت من صفر ، في أبهة عظيمة وجيش عظيم ، وعليه وعلى جميع أصحابه وفتيانه الخضر ، فلبس أهل بغداد وجميع بني هاشم الخضر ، ونزل المأمون بالرصافة ثم تحول إلى قصر على دجلة ، وجعل الأمراء ووجوه الدولة يترددون إلى منزله على العادة ، وقبلة تحول لباس البغدادية إلى الخضر ، وجعلوا يحرقون كل ما يجذونه من السواد ، فكثروا كذلك ثمانية أيام . ثم استعرض حوائج طاهر بن الحسين فكان أول حاجة سألهما أن يرجع إلى لباس السواد ، فانه لباس آبائهم من دولة وريثة الأنبياء . فلما كان السبت الآخر وهو الثامن والعشرين من صفر جلس المأمون للناس وعليه الخضر ، ثم إنه أمر بخلع سواده فألبسها طاهراً ، ثم ألبس بمهدة جماعة من الأمراء السواد ، فلبس الناس السواد وعادوا إلى

ذلك ، فلم منهم بذلك الطاعة والمواقفة ، وقيل إنه مكث يلبس الخضر بعد قدومه بفداد سبعا وعشرين يوماً ، فأنه أعلم .

ولما جاء إليه عمه إبراهيم بن المهدي بعد اختفائه ست سنين وشهوراً قال له المأمون : أنت الخليفة الأسود ، فأخذ في الاعتذار والاستغفار ، ثم قال : أنا الذي مننت عليه يا أمير المؤمنين بالعفو ، وأنشد المأمون عند ذلك :

ليس يزري السواد بالرجل الشهم * ولا بالفتى الأديب الأريب

إن يكن للسواد منك نصيب * فببياض الأخلاق منك نصيب

قال ابن خلدكان : وقد نظم هذا المعنى بعض المتأخرين وهو نصر الله بن قلانس الاسكندري فقال :

رب سوادٍ وهي بياضٌ قل * حسد المسك عندها الكافورُ

مثل حب العيون بحسبه الناس * سواداً وإنما هو نورُ

وكان المأمون قد شاور في قتل عمه إبراهيم بن المهدي بعض أصحابه فقال له أحمد بن خالد الوزير الأحول : يا أمير المؤمنين إن قتلته فلك نظراء في ذلك ، وإن عفوت عنه فإلك نظير . ثم شرع المأمون في بناء قصور على دجلة إلى جانب قصره ، وسكنت الفتن وانزاحت الشرور ، وأمر بمقاسمة أهل السواد على الحسين ، وكانوا يقاسمون على النصف . واتخذ القفيز الملاحم وهو عشرة مكاي بالملك الأهوازي ، ووضع شيئاً كثيراً من خراجات بلاد شتى ، ورفق بالناس في مواضع كثيرة ، وولى أخاه أبا عيسى بن الرشيد الكوفة ، وولى أخاه صالحا البصرة ، وولى عبيد الله بن الحسين ابن عبد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب نيابة الحرمين ، وهو الذي حج بالناس فيها . وواقع يحيى بن معاذ بابك الخرمي فلم يظفر به . وفيها توفي من الأعيان جماعة منهم :

أبو عبدالله محمد بن إدريس الشافعي

وقد أوردنا له ترجمة مطولة في أول كتابنا طبقات الشافعيين ، ولنذكر ههنا ما خلاصاً من ذلك وبالله المستعان .

هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم ابن المطلب بن عبد مناف بن قصي ، القرشي المطالي ، والسائب بن عبيد أسلم يوم بدر ، وابنه شافع ابن السائب من صغار الصحابة ، وأمه أزدية . وقد رأت حين حملت به كأن المشتري خرج من فرجها حتى انقض بمصر ، ثم وقع في كل بلد منه شظية . وقد ولد الشافعي بفزة ، وقيل بمسقلان ، وقيل باليمن سنة خمسين ومائة ، ومات أبوه وهو صغير فحملته أمه إلى مكة وهو ابن سنتين اثلاً يضيع نسبه ، فنشأ بها وقرأ القرآن وهو ابن سبع سنين ، وحفظ الموطأ وهو ابن عشر ، وأفتى وهو ابن

خمس عشرة سنة . وقيل ابن ثمانى عشرة سنة ، أذن له شيخه مسلم بن خالد الزنجي ، وعنى باللغة والشعر ، وأقام في هذيل نحواً من عشر سنين ، وقيل عشرين سنة ، فتعلم منهم لغات العرب وفصاحتها ، وسمع الحديث الكثير على جماعة من المشايخ والأئمة ، وقرأ بنفسه الموطأ على مالك من حفظه فأعجبت قراءته وسمته ، وأخذ عنه علم الحجازيين بعد أخذه عن مسلم بن خالد الزنجي . وروى عنه خلق كثير قد ذكرنا أسماءهم مرتبين على حروف المعجم ، وقرأ القرآن على إسماعيل بن قسطنطين عن شبل عن ابن كثير عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله (ص) عن جبريل عن الله عز وجل .

وأخذ الشافعي الفقه عن مسلم بن خالد عن ابن جريح عن عطاء عن ابن عباس وابن الزبير وغيرهما عن جماعة من الصحابة ، منهم عمرو بن علي وابن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وغيرهم . وكلامهم عن رسول الله (ص) . وتفقه أيضاً على مالك عن مشايخه ، وتفقه به جماعة قد ذكرناهم ومن بعدهم إلى زماننا في تصنيف مفرد . وقد روى ابن أبي حاتم عن أبي بشر الدولابي عن محمد بن إدريس وراق الحميدي عن الشافعي أنه ولي الحكم بنجران من أرض اليمن ، ثم تعصبوا عليه ووشوا به إلى الرشيد أنه يروم الخلافة . فحمل على بقل في قيد إلى بغداد فدخلها في سنة أربع وثمانين ومائة وعمره ثلاثون سنة ، فاجتمع بالرشيد فتنظر هو ومحمد بن الحسن بين يدي الرشيد ، وأحسن القول فيه محمد بن الحسن ، وتبين للرشيد براءته مما نسب إليه ، وأنزله محمد بن الحسن عنده . وكان أبو يوسف قيد مات قبل ذلك بسنة ، وقيل بسنتين ، وأكرمه محمد بن الحسن وكتب عنه الشافعي وقر بغيره ، ثم أطلق له الرشيد ألفي دينار وقيل خمسة آلاف دينار . وعاد الشافعي إلى مكة ففرق عامة ما حصل له في أهله وذوي رحمه من بنى عمه ، ثم عاد الشافعي إلى العراق في سنة خمس وتسعين ومائة ، فاجتمع به جماعة من العلماء هذه المرة منهم أحمد بن حنبل وأبو نور والحسين بن علي الكرابيسي ، والحارث بن شريح البقال ، وأبو عبد الرحمن الشافعي ، والزعفراني ، وغيرهم . ثم رجع إلى مكة ثم رجع إلى بغداد سنة ثمان وتسعين ومائة ، ثم انتقل منها إلى مصر فأقام بها إلى أن مات في هذه السنة ، سنة أربع ومائتين . وصنف بها كتابه الأم وهو من كتبه الجديدة لأنها من رواية الربيع ابن سليمان ، وهو مصري . وقد زعم إمام الحرمين وغيره أنها من القديم ، وهذا بعيد وعجيب من مثله والله أعلم .

وقد أثنى على الشافعي غير واحد من كبار الأئمة منهم عبد الرحمن بن مهدي وسأله أن يكتب له كتاباً في الأصول فكتب له الرسالة ، وكان يدعو له في الصلاة دائماً ، وشيخه مالك بن أنس وقتيبة ابن سعيد . وقال : هو إمام . وسفيان بن عيينة ، ويحيى بن سعيد القطان ، وكان يدعو له أيضاً في

صلاته . وأبو عبيد ، وقال : ما رأيت أفصح ولا أعقل ولا أروع من الشافعي . ويحيى بن اكنم القاضي ، وإسحاق بن راهويه ، ومحمد بن الحسن ، وغير واحد ممن يطول ذكرهم وشرح أقوالهم .

وكان أحمد بن حنبل يدعوه في صلاته نحواً من أربعين سنة ، وكان أحمد يقول في الحديث الذي رواه أبو داود من طريق عبد الله بن وهب عن سعيد بن أبي أيوب عن شراحيل بن يزيد عن أبي غلقمة عن أبي هريرة عن النبي (س) : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها » . قال فصر بن عبد العزيز على رأس المائة الأولى ، والشافعي على رأس المائة الثانية . وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا جعفر بن سليمان عن نصر بن معبد الكندي - أو العبدى - عن الجارود عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله (س) : « لا تسبوا قریشاً فان عالمها بملأ الأرض علماً ، اللهم إنك إذ أذقت أولها عذاباً ودبالاً فأذق آخرها نوالاً » . وهذا غريب من هذا الوجه ، وقد رواه الحاكم في مستدرکه عن أبي هريرة عن النبي (س) بنحوه . قال أبو نعيم عبد الملك بن محمد الاسفراييني : لا ينطبق هذا إلا على محمد بن إدريس الشافعي . حكاه الخطيب . وقال يحيى بن معين عن الشافعي : هو صدوق لا بأس به . وقال مرة : لو كان الكذب له مباحاً مطلقاً لكانت مروته تمنحه أن يكذب . وقال ابن أبي حاتم سمعت أبي يقول : الشافعي فقيه البدن ، صدوق اللسان . وحكى بعضهم عن أبي زرعة أنه قال : ما عند الشافعي حديث غلط فيه . وحكى عن أبي داود نحوه .

وقال إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة - وقد سئل هل سنة لم تبلغ الشافعي ؟ - فقال : لا . ومعنى هذا أنها تارة تبلغه بسندها ، وتارة مرسله ، وتارة منقطعة كما هو الموجود في كتبه والله أعلم . وقال حرمة : سمعت الشافعي يقول : سميت ببغداد ناصر السنة . وقال أبو ثور : ما رأينا مثل الشافعي ولا هو رأى مثل نفسه . وكذا قال الزعفراني وغيره . وقال داود بن علي الظاهري في كتاب جمعه في فضائل الشافعي : للشافعي من الفضائل ما لم يجتمع لغيره ، من شرف نسبه ، وصحة دينه ومعتقده ، وسخاوة نفسه ، ومعرفته بصحة الحديث وسقمه وناسخه ومنسوخه ، وحفظه الكتاب والسنة وسيرة الخلفاء وحسن التصنيف ، وجودة الأصحاب والتلامذة ، مثل أحمد بن حنبل في زهده وورعه ، وإقامته على السنة . ثم سرد أعيان أصحابه من البغدادية والمصريين ، وكذا عبد أبو داود من جملة تلاميذه في الفقه أحمد بن حنبل . وقد كان الشافعي من أعلم الناس بمعاني القرآن والسنة ، وأشد الناس نزاعاً للدلائل منهما ، وكان من أحسن الناس قصداً وإخلاصاً ، كان يقول : وددت أن الناس تعلموا هذا العلم ولا ينسب إلي شيء منه أبداً فأوجر عليه ولا يحمدونني . وقد قال غير واحد عنه : إذا صح عندكم الحديث عن رسول الله (س) ، فقولوا به ودعوا قولي ، فإني أقول به ، وإن لم تسمعوا مني .

وفي رواية فلا تقلدوني . وفي رواية فلا تلتفتوا إلى قولي . وفي رواية فاضربوا بقولي عرض الحائط ، فلا قول لي مع رسول الله (س) . وقال : لأن ياتي الله العبد بكل ما خلا الشرك بالله خير له من أن يلقاه بشئ من الأهواء . وفي رواية خير من أن يلقاه بعلم الكلام . وقال : لو علم الناس مافي الكلام من الأهواء لفروا منه كما يفرون من الأسد . وقال : حكى في أهل الكلام أن يضربوا بالجرید ، ويطاف بهم في القبائل وينادى عليهم هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام .

وقال البويطی : سمعت الشافعی يقول : عليكم بأصحاب الحديث فانهم أكثر الناس صواباً . وقال : إذا رأيت رجلاً من أصحاب الحديث فكأنما رأيت رجلاً من أصحاب رسول الله (س) ، جزاهم الله خيراً ، حفظوا لنا الأصل ، فلهم علينا الفضل . ومن شعره في هذا المعنى قوله :

كل العلوم سوى القرآن مشغلة * إلا الحديث وإلا الفقه في الدين
العلم ما كان فيه قال حدثنا * وما سوى ذلك وسواس الشياطين

وكان يقول : القرآن كلام الله غير مخلوق ، ومن قال مخلوق فهو كافر . وقد روى عن الربيع وغير واحد من رؤس أصحابه ما يدل على أنه كان يمر بآيات الصفات وأحاديثها كما جاءت من غير تكيف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تحريف ، على طريقة السلف . وقال ابن خزيمة : أنشدني المزني وقال أنشدنا الشافعي لنفسه قوله :

ما شئتَ كنَّ وإن لم أشأ * وما شئتَ إن لم تشأ لم يكن
خلقت العباد على ما علمت * ففي العلم يجري الفتى والمنس
فهم شقي ومنهم سعيد * ومنهم قبيح ومنهم حسن
على ذا منت وهذا خذل * وهذا أعنت وذا لم تمن

وقال الربيع : سمعت الشافعي يقول : أفضل الناس بعد رسول الله (س) ، أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي . وعن الربيع قال : أنشدني الشافعي :

قد عوج الناس حتى أخذوا بدعاً * في الدين بال رأي لم تبعث بها الرسل
حتى استخف بحق الله أكثرهم * وفي الذي حلوا من حق شغل

وقد ذكرنا من شعره في السنة وكلامه فيها وفيما قال من الحكم والمواعظ طرفاً صالحاً في الذي كتبناه في أول طبقات الشافعية . وقد كانت وفاته بمصر يوم الخميس ، وقيل يوم الجمعة ، في آخر يوم من رجب سنة أربع ومائتين ، وعن أربع وخمسين سنة ، وكان أبيض جميلاً طويلاً مهييلاً يخضب بالحناء ، مخالفاً للشيعة رحمه الله وأكرم مثواه .

وفيهما توفي : إسحاق بن الفرات . وأشهب بن عبد العزيز المصري المالكي . والحسن بن زياد اللؤلؤي الكوفي الحنفي . وأبو داود سليمان بن داود الطيالسي صاحب المسند ، أحد الحفاظ . وأبو بدر شجاع بن الوليد . وأبو بكر الحنفي . وعبد الكريم . وعبد الوهاب بن عطا الخفاف . والنضر بن شمير أحد أئمة اللغة . وهشام بن محمد بن السائب الكلبي أحد علماء التاريخ .

ثم دخلت سنة خمس ومائتين

فبها ولى المأمون طاهر بن الحسين بن مصعب نيابة بغداد والعراق وخراسان إلى أقصى عمل المشرق ، ورضى عنه ورفع منزلته جداً ، وذلك لأجل مرض الحسن بن سهل بالسواد . وولى المأمون مكان طاهر على الرقة والجزيرة بحري بن معاذ . وقدم عبد الله بن طاهر بن الحسين إلى بغداد في هذه السنة ، وكان أبوه قد استخلفه على الرقة وأمره بمقاتلة نصر بن شبث . وولى المأمون عيسى ابن يزيد الجلودى مقاتلة الزط . وولى عيسى بن محمد بن أبي خالد أذربيجان . ومات نائب مصر السري بن الحكم بها . ونائب السند داود بن يزيد ، فولى مكانه بشر بن داود على أن يحمل إليه في كل سنة ألف درهم . وحج بالناس فيها عبيد الله بن الحسن نائب الحرمين . وفيها توفي من الأعيان : إسحاق بن منصور السلولى . وبشر بن بكر الدمشقي . وأبو عامر العقدي . ومحمد بن عبيد الطنافسي . ويعقوب الحضري . وأبو سليمان الداراني عبد الرحمن بن عطية ، وقيل عبد الرحمن ابن أحمد بن عطية ، وقيل عبد الرحمن بن عسكر أبو سليمان الداراني ، أحد أئمة العلماء العاملين ، أصله من واسط سكن قرية غربي دمشق يقال لها داريا .

وقد سمع الحديث من سفيان الثوري وغيره ، وروى عنه أحمد بن أبي الحواري وجماعة . وأسند الحفاظ ابن عساكر من طريقه قال : سمعت علي بن الحسن بن أبي الربيع الزاهد يقول سمعت إبراهيم بن آدم يقول سمعت ابن عجلان يذكر عن القعقاع بن حكيم عن أنس بن مالك قال قال رسول الله (ص) : « من صلى قبل الظهر أربعمائة غفر الله ذنوبه يومه ذلك » . وقال أبو القاسم القشيري : حكى عن أبي سليمان الداراني قال : اختلفت إلى مجلس قاص فآثر كلامه في قلبي ، فلما قمت لم يبق في قلبي منه شيء ، فعدت إليه ثانية فآثر كلامه في قلبي بعد ما قمت وفي الطريق ، ثم عدت إليه ثالثة فآثر كلامه في قلبي حتى رجعت إلى منزلي ، فكسرت آلات المخالقات ولزمت الطريق ، فحكيت هذه الحكاية ليعحي بن معاذ فقال : عصفور اصطاد كركيا - يعني بالمصفور القاص والكركي أبا سليمان - وقال أحمد بن أبي الحواري سمعت أبا سليمان يقول : ليس لمن ألهم شيئاً من الخبر أن يعمل به حتى يسمع به في الأثر ، فإذا سمع به في الأثر عمل به فكان نوراً على نور . وقال الجنيد قال أبو سليمان ربما يقع في قنبي النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين : الكتاب والسنة .

قال : وقال أبو سليمان : أفضل الأعمال خلاف هوى النفس . وقال لكل شيء علم وعلم الخذلان ترك البكاء من خشية الله . وقال : لكل شيء صداً وصداً نور القلب شبع البطن . وقال كل ما شغلك عن الله من أهل أو مال أو ولد فهو شؤم . وقال : كنت ليلة في الحراب أدعو ويداي ممدودتان فلبني البرد فضممت إحداهما وبقيت الأخرى مبسوطة أدعوبها ، وغلبني عيني فمت فهتف بي هاتف : يا أبا سليمان قد وضعنا في هذه ما أصابها ، ولو كانت الأخرى لوضعنا فيها . قال : فأليت - على نفسي ألا أدعو إلا ويداي خارجتان ، حرّاً كان أو برداً . وقال : تمت ليلة عن وردى فاذا أنا بحوراء تقول لي : تنام وأنا أربي لك في الخدور منذ خمسمائة عام ؟ وقال أحمد بن أبي الحواري سمعت أبا سليمان يقول : إن في الجنة أنهاراً على شاطئها خيام فيهن الحور ، ينشئ الله خلق الحوراء إنشاءً ، فاذا تكامل خلقها ضربت الملائكة عليهن الخيام ، الواحدة منهن جالسة على كرسى من ذهب ميل في ميل ، قد خرجت عجزتها من جانب الكرسى ، فيجئ أهل الجنة من قصورهم ينتزهون على شاطئ تلك الأنهار ما شاؤوا ثم يخلو كل رجل بواحدة منهن . قال أبو سليمان : كيف يكون في الدنيا حال من يريد اقتضاض الأبقار على شاطئ تلك الأنهار في الجنة .

وقال : سمعت أبا سليمان يقول : ربما مكثت خمس ليال لا أقرأ بعد الفاتحة بآية واحدة أتفكر في معانيها ، وربما جاءت الآية من القرآن فيطير العقل ، فسبحان من يردّه بعد . وسمعت يقول : أصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله عز وجل ، ومفتاح الدنيا الشبع ، ومفتاح الآخرة الجوع . وقال لي يوماً : يا أحمد جوع قليل وعري قليل وفقر قليل وصبر قليل وقد انقضت عنك أيام الدنيا . وقال أحمد : اشتهى أبو سليمان يوماً رغيفاً حاراً بملح فجثته به فعض منه عضه ثم طرحه وأقبل يبكي ويقول : يارب عجبت لي شهوتي ، لقد أطالت جهدي وشقوتي وأنا قائب ؟ فلم يبق الملح حتى لحق بالله عز وجل . قال : وسمعت يقول : ما رضيت عن نفسي طرفة عين ، ولو أن أهل الأرض اجتمعوا على أن يضعوني كأتضاعى عند نفسي ما قدروا . وسمعت يقول : من رأى لنفسه قيمة لم يبق حلاوة الخدمة . وسمعت يقول : من حسن ظنه بالله ثم لم يخفّه ويطمه فهو مخدوع . وقال : ينبغي للخوف أن يكون على العبد أغلب الرجاء ، فاذا غلب الرجاء على الخوف فسد القلب . وقال لي يوماً : هل فوق الصبر منزلة ؟ فقلت : نعم - يعني الرضا - فصرخ صرخة غشى عليه ثم أفاق فقال : إذا كان الصابرون يوفون أجورهم بغير حساب ، فما ظنك بالآخرى وهم الذين رضى عنهم . وقال : ما يسرنى أن لي الدنيا وما فيها من أولها إلى آخرها أنفقته في وجوه البر ، وإني أغفل عن الله طرفة عين . وقال : قال زاهد زاهد : أوصني ، فقال : لا براك الله حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك ، فقال : زدني . فقال : ما عندي زيادة . وقال من أحسن في نهاره كوفي في ليله ، ومن أحسن في ليله كوفي في نهاره ، ومن صدق في

ترك شهوة أذهبها الله من قلبه ، والله أكرم من أن يمدب قلباً بشهوة تركت له . وقال : إذا سكنت الدنيا القلب ترحلت منه الآخرة ، وإذا كانت الآخرة في القلب جاءت الدنيا تراحمها ، وإذا كانت الدنيا في القلب لم تراحمها الآخرة ، لأن الدنيا لثيمة والآخرة كريمة ، وما ينبغي للكريم أن يراحم لثيماً . وقال أحمد بن أبي الخوارى : بت ليلة عند أبي سليمان فسمعتة يقول : وعزتك وجلالك لئن طالبتني بذنوبي لأطالبنك بمفوك ، وإن طالبتني ببغلي لأطالبك بكرمك ، وإن أمرتني إلى النار لأخبرن أهل النار أنني أحبك . وكان يقول : لو شك الناس كلهم في الحق ما شككت فيه وحدي . وكان يقول : ما خلق الله خلقاً أهون عليّ من إبليس ، ولولا أن الله أمرني أن أتعوذ منه . أتعوذت منه أبداً ، ولو تبدي لي ما لعلمت إلا صفحة وجهه . وقال : إن اللص لا يجيئ إلى خربة يتقب حيطانها وهو قادر على الدخول إليها من أى مكان شاء ، وإنما يجيئ إلى البيت المعمور ، كذلك إبليس لا يجيئ إلا إلى كل قلب عامر ليستنزله وينزله عن كرسية ويسلبه أعز شئ . وقال : إذا أخلص العبد انقطعت عنه الوسواس والرؤيا . وقال : الرؤيا - بمعنى الجنابة - . وقال : مكثت عشرين سنة لم أحتلم فدخلت مكة فباتتني صلاة المشاء جماعة فاحتلت تلك الليلة . وقال : إن من خلق الله قوماً لا يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه فكيف يشتغلون بالدنيا عنه ؟ وقال : الدنيا عند الله أقل من جناح بعوضة فما الزهد فيها ، وإنما الزهد في الجنان والخور العيين ، حتى لا يرى الله في قلبك غيره . وقال الجنيد : شئ يروى عن أبي سليمان أنا استحسنته كثيراً قوله : من اشتغل بنفسه شغل عن الناس ، ومن اشتغل بربه شغل عن نفسه وعن الناس . وقال : خير السخاء ما وافق الحاجة . وقال : من طلب الدنيا حلالاً واستغناء عن المسألة واستغناء عن الناس لقي الله يوم يلقاه ووجهه كالقمر ليلة البدر ، ومن طلب الدنيا حلالاً ، فآخراً ومكافئاً لقي الله يوم يلقاه وهو عليه غضبان . وقد روى نحو هذا مرفوعاً . وقال : إن قوماً طلبوا الفنى في المال وجمعه فأخطأوا من حيث ظنوا ، ألا وإنما المعنى في القناعة ، وطلبوا الراحة في الكثرة وإنما الراحة في القلة ، وطلبوا الكرامة من الخلق وإنما هي في التقوى ، وطلبوا التشم في اللباس الرقيق الآلين ، والطعام الطيب ، والمسكن الأنيق المنيف ، وإنما هو في الاسلام والايمان والعمل الصالح والستر والعافية وذكر الله . وقال : لولا قيام الليل ما أحببت البقاء في الدنيا وما أحب الدنيا لغرس الأشجار ولا لكرى الأنهار . وإنما أحبها لصيام المواجر وقيام الليل . وقال : أهل الطاعة في ليالهم أذن أهل اللهو في لهوهم . وقال : ربما استقبلني الفرح في جوف الليل ، وربما رأيت القلب يضحك ضحكاً . وقال : إنه لتمر بالقلب أوقات برقص فيها طرباً فأقول : إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب .

وقال أحمد بن أبي الخوارى : سمعت أبا سليمان يقول : بينا أنا ساجد إذ ذهب بي النوم فاذا

أنا بها - يعنى الحوراء - قد ركضتني برجلها فقالت : حبيبي أترقد عينك والملاك يقظان ينظر إلى المتهمجين في تهجدهم ؟ يؤسا لعين آثرت لذة نومة على لذة مناجاة العزيز ، قم فقد دنا الفراغ ولقي المحبون بعضهم بعضا ، فما هذا الرقاد ؟! حبيبي ورقة عيني أترقد عينك وأنا أترقب لك في الحدود ومنذ كذا وكذا ؟ قال : فوثبت فزعا وقد عرقت حياه من توييخها إياي ، وإن حلاوة منطقها التي سمى وقلبي . وقال أحمد : دخلت على أبي سليمان فاذا هو يبكي فقلت : مالك ؟ فقال : زجرت البارحة في منامي . قلت : ما الذي زجرك ؟ قال : بينا أنا نائم في محرابي إذ وقفت على جارية تفوق الدنيا حسنا ، ويدها ورقة وهي تقول : أأنام يا شيخ ؟ فقلت : من غلبت عينه نام . قالت : كلا إن طالب الجنة لا ينام ، ثم قالت : أقرأ ؟ قلت : نعم ، فأخذت الورقة من يدها فاذا فيها مكتوب :

لمت بك لذة عن حسن عيش * مع الخيرات في غرف الجنان
تميش مخلد لا موت فيها * وتنعم في الجنان مع الحسان
تقطع من منامك إن خيرا * من النوم التهجد في القرآن

وقال أبو سليمان : أما يستحي أحدكم أن يلبس عباءة بثلاثة دراهم وفي قلبه شهوة بخمسة دراهم ؟ وقال أيضاً : لا يجوز لأحد أن يظهر للناس الزهد والشهوات في قلبه ، فاذا لم يبق في قلبه شيء من الشهوات جازله أن يظهر إلى الناس الزهد بلبس العبا فانها علم من أعلام الزهاد ، ولو لبس ثوبين أبيضين ليستر بهما أبصار الناس عنه وعن زهده كان أسلم زهده من لبس العبا . وقال : إذا رأيت الصوفي يتنوق في لبس الصوف فليس بصوفي : وخيار هذه الأمة أصحاب القطن ، أبو بكر الصديق وأصحابه ، وقال غيره : إذا رأيت ضوه الفقير في لباسه فاعسل يديك من فلاحه . وقال أبو سليمان : الأخ الذي يعطك برؤيته قبل كلامه ، وقد كنت أنظر إلى الأخ من أصحابي بالعراق فأتفتع برؤيته شهراً . وقال أبو سليمان قال الله تعالى : عبدي إنك ما استحييت مني أنسيت الناس عيوبك ، وأنسيت بقاع الأرض ذنوبك ومحوت زلاتك من أم الكتاب ولم أناقشك الحساب يوم القيامة . وقال أحمد : سألت أبا سليمان عن الصبر فقال : والله إنك لا تقدر عليه في الذي تحب فكيف تقدر عليه فيما تكره ؟ وقال أحمد تنهت عنده يوما فقال : إنك مسؤول عنها يوم القيامة ، فان كانت على ذنب سلف فطوبى لك ، وإن كنت على فوت دنيا أو شهوة فويل لك . وقال إنما رجع من رجع من الطريق قبل وصول ، ولو وصلوا إلى الله ما رجعوا . وقال إنما عصي الله من عصاه لموانهم عليه ، ولو عزوا عليه وكرموا لحجزهم عن معاصيه وحال بينهم وبينها . وقال : جلساء الرحمن يوم القيامة من جعل فيهم خصالا الكرم والخلم والعلم والحكمة والرأفة والرحمة والفضل والصفح والاحسان والبر والعفو واللفظ .

وذكر أبو عبد الرحمن السلي في كتاب محن المشايخ أن أبا سليمان الداراني أخرج من دمشق

وقالوا : إنه يرى الملائكة ويكلمونه ، فخرج إلى بعض الثنور فرأى بعض أهل الشام في منامه أنه إن لم يرجع إليهم هلكوا . فخرجوا في طلبه وتشفعوا له وتذللوا له حتى رده .

وقد اختلف الناس في وفاته على أقوال فقيل : مات سنة أربع ومائتين ، وقيل سنة خمس ومائتين ، وقيل خمس عشرة ومائتين ، وقيل سنة خمس وثلاثين ومائتين والله أعلم . وقد قال مروان الطاطري يوم مات أبو سليمان : لقد أصيب به أهل الاسلام كاهم . قلت : وقد دفن في قرية داريا في قبلتها ، وقبره بها مشهور وعاليه بناء ، وقبانه مسجد بناه الأمير فاهض الدين عمر النهر واني ، ووقف على المقيمين عنده وفقاً يدخل عليهم منه غلة ، وقد جدد مزاره في زماننا هذا ولم أر ابن عساكر تعرض لموضع دفنه بالسكية ، وهذا منه عجيب . وروى ابن عساكر عن أحمد بن أبي الخوارى قال كنت أشتكى أن أرى أباسليمان في المنام فرأيت به بعد سنة فقلت له : ما فعل الله بك يا معلم ؟ فقال : يا أحمد دخلت يوماً من باب الصغير فرأيت حمل شيخ فأخذت منه عوداً فما أدري نخلت به أوريته ، فأنا في حسابه إلى الآن . وقد توفي ابنه سليمان بعده بنحو من سنتين رحمه الله تعالى

ثم دخلت سنة ست ومائتين

ففيها ولي المأمون داود بن ماسجور بلاد البصرة وكور دجلة والجمامة والبحرين ، وأمره بمحاربة الزط . وفيها جاء مد كثير ففرق أرض السواد وأهلك للناس شيئاً كثيراً . وفيها ولي المأمون عبد الله ابن طاهر بن الحسين أرض الرقة وأمره بمحاربة نصر بن شيبث ، وذلك أن فائها يجبي بن معاذ مات وقد كان استخلف مكانه ابنه أحمد فلم يمض ذلك المأمون ، واستناب عليها عبد الله بن طاهر لشهامته وبصره بالأمر ، وخنه على قتال نصر بن شيبث ، وقد كتب إليه أبوه من خراسان بكتاب فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واتباع الكتاب والسنة . وقد ذكره ابن جرير بطوله ، وقد تداوله الناس بينهم واستحسنوه ونهادوه بينهم ، حتى بلغ أمره إلى المأمون فأمر فخرى بين يديه فاستنجاهه جداً ، وأمر أن يكتب به نسخ إلى سائر العمال في الأقاليم . وحج بالناس عبيد الله بن الحسن نائب الحرمين . وفيها توفي إسحاق بن بشر الكاهلي أبو حذيفة صاحب كتاب المبتدأ . وحجاج بن محمد الأعور . وداود بن الحبر الذي وضع كتاب العقل . وسبابة بن سوار (شبابة) ومحاضر بن الموردي . وقطرب صاحب المثلث في اللغة . وذهب بن جرير . ويزيد بن هارون شيخ الامام أحمد .

ثم دخلت سنة سبع ومائتين

ففيها خرج عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب ببلاد عك في اليمن يدعو إلى الرضى من آل محمد ، وذلك لما أساء العمال السيرة وظلموا الرعايا ، فلما ظهر باليمن الناس فبعث إليه المأمون دينار بن عبد الله في جيش كثيف ومعه كتاب أمان لعبد الرحمن هذا إن هو سمع

وأطاع ، فحضروا الموسم ثم ساروا إلى اليمن . وبعثوا بالكتاب إلى عبد الرحمن فسمع وأطاع وجاء حتى وضع يده في يد دينار ، فساروا به إلى بغداد ولبس السواد فيها .

وفي هذه السنة توفي طاهر بن الحسين بن مصعب نائب العراق وخراسان بكاملها ، وجد في فراشه ميتاً بعد ما صلى العشاء الآخرة والتف في الفراش ، فاستبطن أهل أخروجه لصلاة الفجر فدخل عليه أخوه وعمه فوجداه ميتاً ، فلما بلغ موته المأمون قال : لليدين ولانعم الحمد لله الذي قدمه وأخرنا . وذلك أنه بلغه أن طاهراً خطب يوماً ولم يدع للمأمون فوق المنبر ، ومع هذا ولي ولده عبد الله مكانه وأضاف إليه زيادة على ما كان ولاه أباه الجزيرة والشام نيابة فاستخلف على خراسان أخاه طلحة بن طاهر سبع سنين ، ثم توفي طلحة فاستقل عبد الله بجميع تلك البلاد ، وكان نائبه على بغداد إسحاق ابن إبراهيم وكان طاهر بن الحسين هو الذي انتزع بغداد والعراق من يد الأمين وقتله ، وقد دخل طاهر يوماً على المأمون فسأله حاجة فقضاها له ، ثم نظر إليه المأمون واغمر ورقت عيناه فقال له طاهر : ما يبكيك يا أمير المؤمنين ؟ فلم يجبه ، فأعطى طاهر خسينا الخادم مائتي ألف درهم حتى استعلم له بما بكى أمير المؤمنين فأخبره المأمون وقال لا تجرببه أحداً [أو إلاً] أفتلك ، إنى ذكرت قتله لأخى وما ناله من الإهانة على يدى طاهر ، ووالله لا تفوته منى . فلما تحقق طاهر ذلك سعى في النقلة من بين يدى المأمون ، ولم يزل حتى ولاه خراسان وأطلق له خادماً من خدامه ، وعهد المأمون إلى الخادم إن رأى منه شيئاً يريه أن يسمه ، ودفع إليه سماً لا يطاق . فلما خطب طاهر ولم يدع للمأمون معه الخادم في كاهن فأت من ليلته . وقد كان طاهر هذا يقال له ذو اليمينين ، وكان أعور بفرد عين . فقال فيه عمرو بن نباتة :

يا ذا اليمينين وعين واحدة * قصصاً عينين وعين زائدة

واختلف في معنى قوله ذو اليمينين فقيل لأنه ضرب رجلاً بشماله فقدمه نصفين ، وقيل لأنه ولي العراق وخراسان . وقد كان كريماً ممدحاً يحب الشعراء ويعطيهم الجزيل ، ركب يوماً في حراقة فقال فيه شاعر : -

عجبت لحراقة ابن الحسين * لا غرقت كيف لا تفرق

وبحران من فوقها واحدة * وآخر من تحبها مطبق

وأعجب من ذلك أعوادها * وقد مشها كيف لا تورق

فأجازه بثلاثة آلاف دينار . وقال إن زدتنا زدناك . قال ابن خلكان : وما أحسن ما قاله بعض

الشعراء في بعض الرؤساء وقد ركب البحر :

ولما امتطى البحر ابتهل نضرعاً * إلى الله يا مجري الرياح بلطفه

جمعت الندمان كفو مثل وجهه * فسلمه واجمل موجه مثل كفه

مات طاهر بن الحسين هذا يوم السبت لخمس بقين من جمادى الآخرة سنة سبع ومائتين ، وكان مولده سنة سبع وخمسين ، وكان الذي سار إلى ولده عبد الله إلى الرقة يعزیه في أبيه ويهنيه بولاية تلك البلاد ، القاضي يحيى بن أكنم عن أمر المأمون . وفيها غلا السعر ببغداد والكوفة والبصرة ، حتى بلغ سعر القفيز من الخنطة أربعين درهما . وفيها حج بالناس أبو علي بن الرشيد أخو المأمون . وفيها توفي بشر بن عمر الزهراني . وجعفر بن عون . وعبد الصمد بن عبد الوارث . وقراد ابن نوح . وكثير بن هشام . ومحمد بن كناسة . ومحمد بن عمر الواقدي قاضي بغداد وصاحب السير والمغازي . وأبو النضر هاشم بن القاسم . والهيثم بن عدي صاحب التصانيف .

يحيى بن زياد بن عبد الله بن منصور

أبوزكريا الكوفي نزيل بغداد مولى بني سعد المشهور بالفراء شيخ النحاة واللغويين والقراء ، كان يقال له أمير المؤمنين في النحو ، وروى الحديث عن حازم بن الحسن البصري عن مالك بن دينار عن أنس بن مالك . قال : « قرأ رسول الله ص ، وأبو بكر وعمر وعثمان مالك يوم الدين بألف » رواه الخطيب قال : وكان ثقة إماماً . وذكر أن المأمون أمره بوضع كتاب في النحو فأملأه وكتبه الناس عنه ، وأمر المأمون بكتبه في الخزائن ، وأنه كان يؤدب ولديه ولبي المهدي من بعده ، فقام يوماً فابتدراه أيهما يقدم نعليه ، فتنازعا في ذلك ثم اصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما أملاً ، فأطلق لهما أبوهما عشرين ألف دينار ، والفراء عشرة آلاف درهم . وقال له : لا أعز منك اذ يقدم نعليك ولدا أمير المؤمنين ووليا المهدي من بعده . وروى أن بشر المريسي أو محمد بن الحسن سأل الفراء عن رجل سها في سجدتي السهو فقال : لا شيء عليه . قال : ولم ؟ قال : لأن أصحابنا قالوا المصغر لا يصغر . فقال : ما رأيت أن امرأة تلد مثلك . والمشهور أن محمداً هو الذي سأله عن ذلك وكان ابن خالة الفراء ، وقال أبو بكر بن محمد بن يحيى الصولي : توفي الفراء سنة سبع ومائتين . قال الخطيب : كانت وفاته ببغداد ، وقيل بطريق مكة ، وقد امتدحوه وأثنوا عليه في مصنفاته .

ثم دخلت سنة ثمان ومائتين

فيها ذهب الحسن بن الحسين بن مصعب أخو طاهر فاراً من خراسان إلى كرمان فعصى بها ، فسار إليه أحمد بن أبي خالد فحاصره حتى نزل قهراً ، فذهب به إلى المأمون ففعا عنه فاستحسن ذلك منه . وفيها استغنى محمد بن سباعة من القضاء فأعفاه المأمون وولى مكانه إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة . وفيها ولى المأمون محمد بن عبد الرحمن الخزومي القضاء بمسكن المهدي في شهر الحرم ، ثم عزله عن قريب وولى مكانه بشر بن سعيد بن الوليد الكندي في شهر ربيع الأول منها . فقال الخزومي في ذلك : -

ألا أيها الملك الموحد ربّه • قاضيك بشر بن الوليد حمار
ينفى شهادة من يدين بما به • نطق الكتاب وجاءت الأخبار
ويعتد عدلاً من يقول بأنه • شيخ تحيط بجسمه الأقطار
وفيها حج بالناس صالح بن هارون الرشيد عن أمر أخيه المأمون .

وفيها توفي من الأعيان : الأسود بن عامر . وسعيد بن عامر . وعبد الله بن بكر أحد مشايخ
الحديث . والفضل بن الربيع الحجاب . ومحمد بن مصعب . وموسى بن محمد الأيمن الذي كان قد
ولاه المهد من بعده ولقبه بالناطق فلم يتم له أمره حتى قتل أبوه وكان ما كان كما تقدم . ويحيى بن
أبي بكر . ويحيى بن حسان . ويعقوب بن إبراهيم الزهرى . ويونس بن محمد المؤدب .

وفاة السيدة نفيسة

وهي نفيسة بنت أبي محمد الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، القرشية الهاشمية ،
كان أبوها نائباً للمنصور على المدينة النبوية خمس سنين ، ثم غضب المنصور عليه فعزله عنها وأخذ
منه كل ما كان يملكه وما كان جمعه منها ، وأودعه السجن ببغداد . فلم يزل به حتى توفي المنصور
فأطلقه المهدي وأطلق له كل ما كان أخذ منه ، وخرج معه إلى الحج في سنة ثمان وستين ومائة ، فلما
كان بالحاجر توفي عن خمس وثمانين سنة . وقد روى له النسائي حديثه عن عكرمة عن ابن عباس
« أن رسول الله (ص) احتجم وهو محرم » . وقد ضمه ابن معين وابن عدى ، ووثقه ابن حبان .
وذكره الزبير بن بكار وأثنى عليه في رياسته وشهامته . والمقصود أن ابنته نفيسة دخلت الديار
المصرية مع زوجها المؤمن إسحاق بن جعفر ، فأقامت بها وكانت ذات مال فأحسن إلى الناس والجذوى
والزمنى والمرضى وعموم الناس ، وكانت عابدة زاهدة كثيرة الخير . ولما ورد الشافعى مصر أحسنت
إليه وكان ربما صلى بها في شهر رمضان . وحين مات أمرت بمجنازته فأدخلت إليها المنزل فصلت
عليه . ولما توفيت عزم زوجها إسحاق بن جعفر أن ينقلها إلى المدينة النبوية ففنع أهل مصر من
ذلك وسألوه أن يدفنها عندهم ، فدفنت في المنزل الذى كانت تسكنه بمحلة كانت تعرف قديماً بدرب
السباع بين مصر والقاهرة ، وكانت وفاتها في شهر رمضان من هذه السنة فيما ذكره ابن خلكان .
قال : ولأهل مصر فيها اعتقاد . قلت : وإلى الآن قد بالغ العامة في اعتقادهم فيها وفي غيرها كثيراً
جداً ، ولا سيما عوام مصر فاتهم يطلقون فيها عبارات بشيعة مجازفة تؤدى إلى الكفر والشرك ،
والغلطاً كثيرة ينبغى أن يعرفوا أنها لا تجوز . وربما نسبها بعضهم إلى زين العابدين وليست من
سلالته . والذى ينبغى أن يعتقد فيها ما يليق بمثلها من النساء الصالحات ، وأصل عبادة الأصنام من
الغلاة في القبور وأصحابها ، وقد أمر النبي (ص) بقسوية القبور وطمسها ، والغلاة في البشر حرام .

ومن زعم أنها تفك من الخشب أو أنها تنفع أو تضر بغير مشيئة الله فهو مشرك . رحما الله وأكرمها .

الفضل بن الربيع

ابن يونس بن محمد بن عبد الله بن أبي فروة كيسان مولى عثمان بن عفان ، كان الفضل هذا متمكناً من الرشيد ، وكان زوال دولة البرامكة على يديه ، وقد وزر مرة للرشيد ، وكان شديد التشبه بالبرامكة ، وكانوا يتشبهون به ، فلم يزل يعمل جهده فيهم حتى هلكوا كما تقدم . وذكر ابن خلكان أن الفضل هذا دخل يوماً على يحيى بن خالد وابنه جعفر يوقع بين يديه ، ومع الفضل عشر قصص فلم يقض له منها واحدة ، فجمعهم الفضل بن الربيع وقال : ارجعن خائبات خاسبات ثم نهض وهو يقول :

عَسَى وَعَسَى يَنْتَهِى الزَّمَانُ عِثَانَهُ * بِتَصْرِيفِ حَالٍ وَالزَّمَانُ عَنُورُ

فَتُقْضَى لُبَانَاتٌ وَتَشْفَى حَزَائِرُ * وَتُحَدَّثُ مِنْ بَعْدِ الْأُمُورِ أُمُورُ

فسمعه الوزير يحيى بن خالد فقال له : أقسمت عليك لما رجعت ، فأخذ منه القصص فوقع عليها .

ثم لم يزل يحفر خافهم حتى تمكن منهم وتولى الوزارة بعدهم ، وفي ذلك يقول أبو نواس :

مَا رَعَى الدَّهْرُ آلَ بَرْمَكٍ لَمَّا * أَنْ رَمَى مَلِكُهُمْ بِأَمْرِ فُطَيْعٍ

إِنْ دَهْرًا لَمْ يَرَعْ ذِمَّةَ لِيَجِي * غَيْرُ رَاعٍ ذِمَامُ آلِ الرَّبِيعِ

ثم وزر من بعد الرشيد لابنه الأمين فلما دخل المأمون بغداد اختفى فأرسل له المأمون أماناً فخرج فجاء فدخل على المأمون بعد اختفاء مدة فأمنه ، ثم لم يزل خاملاً حتى مات في هذه السنة ، وله ثمان وستون سنة .

ثم دخلت سنة تسع ومائتين

فيها حصر عبد الله بن طاهر نصر بن شيبث بعد ما حاربه خمس سنين وضيق عليه جداً حتى أُلجأ إلى أن طلب منه الأمان ، فكتب ابن طاهر إلى المأمون يعلمه بذلك ، فأرسل إليه أن يكتب له أماناً عن أمير المؤمنين . فكتب له كتاب أمان فترّل فأمر عبد الله بتخريب المدينة التي كان متحصناً بها ، وذهب شره وجرورها جرت حروب مع بابك الخرمي فأسر بابك بعض أمراء الأسلام وأحد مقدمي المساكر ، فاشتد ذلك على المسلمين . وفيها حج بالناس صالح بن العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وهو والي مكة . وفيها توفي ملك الروم ميخائيل بن نقفور (جرجس) وكان له عليهم تسع سنين ، فهلكوا عليهم ابنه توفيل بن ميخائيل .

وفيها توفي من مشايخ الحديث : الحسن بن موسى الأشيب ، وأبو علي الحنفي . وحفص بن عبد الله قاضي نيسابور . وعثمان بن عمر بن فارس . ويعلى بن عبيد الطنافسي .

ثم دخلت سنة عشر ومائتين

في صفر منها دخل نصر بن شيبث بغداد ، بعثه عبد الله بن طاهر فدخلها ولم يتلقاه أحد من

الجنبدل دخلها وحده ، فأنزل في مدينة أبي جعفر ثم حول إلى موضع آخر . وفي هذا الشهر ظفر المأمون بجماعة من كبراء من كان بايع إبراهيم بن المهدي فعاقبهم وحبسهم في المطبق ، ولما كان ليلة الأحد لثلاث عشرة من ربيع الآخر اجتاز إبراهيم بن المهدي - وكان مختلفاً مدة ست سنين وشهوراً متتبعاً في زى امرأة ومعه امرأتان - في بعض دروب بغداد في أثناء الليل ، فقام الحارس فقال : إلى أين هذه الساعة ؟ ومن أين ؟ ثم أراد أن يسكن فاعطاه إبراهيم خاتماً كان في يده من ياقوت ، فلما نظر إليه استراب وقال : إنما هذا خاتم رجل كبير الشأن ، فذهب بهن إلى متولى الليل فأمرهن أن يسفرن عن وجوههن ، فتمنع إبراهيم فكشفن عن وجهه فاذا هو هو ، ففرقه فذهب به إلى صاحب الجسر فسلمه إليه فرفعه الآخر إلى باب المأمون ، فأصبح في دار الخلافة وتقا به على رأسه والملحفة في صدره ليراه الناس ، وليعلموا كيف أخذ . فأمر المأمون بالاحتفاظ به والاحتراس عليه مدة ، ثم أطلقه ورضى عنه . هذا وقد صلب جماعة ممن كان سجنهم بسببه لكونهم أرادوا الفتك بالموكلين بالسجن ، فصلب منهم أربعة .

وقد ذكروا أن إبراهيم لما وقف بين يدي المأمون أنبه على ما كان منه فترقق له عمه إبراهيم كثيراً ، وقال : يا أمير المؤمنين إن تعاقب فبحقك ، وإن تمع فبفضلك . فقال : بل أعفوا إبراهيم إن القدرة تنهب الحفيظة ، والتدم توبة وبينهما عفو الله عز وجل ، وهو أكبر مما تسأل ، فكبر إبراهيم وسجد شكراً لله عز وجل .

وقد امتدح إبراهيم بن المهدي ابن أخيه المأمون بقصيدة بالغ فيها ، فلما سمعها المأمون قال : أقول كما قال يوسف لأخوته [لا تعريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين] وذكر ابن عساكر أن المأمون لما عفا عن عمه إبراهيم أمره أن يقنيه شيئاً فقال : إني تركته . فأمره فأخذ العود في حجره وقال : هذا مقام سرور خربت منازل ودوره * نمت عليه عدائه كنباً فعاقبه أميره
ثم عاد فقال :

ذهبت من الدنيا وقد ذهبت عني * لوى الدهر بي عنها وولّى بها عني
فإن أبك نفسي أبك نفساً عزيزة * وإن أحقرها أحقرها على ضنني
وإني وإن كنت السيء بعين * فإني بربي موقن حسن الظن
عدوت على نفسي فعاد بعفوه * علي فعاد العفو متاً على من

فقال المأمون : أحسنت يا أمير المؤمنين حقاً . فرمى العود من حجره ووثب قائماً فرعاً من هذا الكلام ، فقال له المأمون : اجلس واسكن مرحباً بك وأهلاً ، لم يكن ذلك لشئ تنوّه ، والله لا رأيت طول أيامي شيئاً تنكره . ثم أمر له بعشرة آلاف دينار وخلع عليه ، ثم أمر له برد جميع

ما كان له من الأموال والضياع والدور فردت إليه ، وخرج من عنده مكرماً معظماً .

عمر بن لوذان

وفي رمضان منها بنى المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل ، وقيل إنه خرج في رمضان إلى معسكر الحسن بن سهل بفهم الصلح ، وكان الحسن قد عوفي من مرضه ، فنزل المأمون عنده بمن معه من وجوه الأمراء والرؤساء وأكابر بني هاشم ، فدخل ببوران في شوال من هذه السنة في ليلة عظيمة وقد أشعلت بين يديه شموع العنبر ، ونثر على رأسه الدر والجوهر ، فوق حصر منسوجة بالذهب الأحمر . وكان عدد الجوهر منه ألف درة ، فأمر به فجمع في صيدية من ذهب كان الجوهر فيها فقالوا : يا أمير المؤمنين إنا نثرناه لتتلقطه الجوارى ، فقال : لا أنا أعوضن من ذلك . فجمع كله ، فلما جاءت العروس ومعها جدتها زبيدة أم أخيه الأمين - من جملة من جاء معها - فأجلست إلى جانبه فصب في حجرها ذلك الجوهر وقال : هذا نحلة مني إليك وسلي حاجتك ، فأطرقت حياء . فقالت جدتها : كلني سيدك وسليه حاجتك فقد أمرك . فقالت : يا أمير المؤمنين أسألك أن ترضى عن عمك إبراهيم بن المهدي ، وأن ترده إلى منزله التي كان فيها ، فقال : نعم ! قالت : وأم جعفر - أمي زبيدة - تأذن لها في الحج . قال نعم ! فخلعت عليها زبيدة بذلتها الأميرية وأطلقت له قرية مقورة . وأما والد العروس الحسن بن سهل فانه كتب أسماء قراه وضياعه وأملأه في رفاع ونثرها على الأمراء ووجوه الناس ، فن وقعت بيده رقعة في قرية منها بمث إلى القرية التي فيها نوابه فسلها إليه ملكاً خالصاً . وأنفق على المأمون ومن كان معه من الجيش في مدة إقامته عنده سبعة عشر يوماً ما يعادل خمسين ألف ألف درهم . ولما أراد المأمون الانصراف من عنده أطلق له عشرة آلاف ألف درهم ، وأقطعه البلد الذي هو نازل بها ، وهو إقليم فم الصلح مضافاً إلى ما بيده من الاقطاعات . ورجع المأمون إلى بغداد في أواخر شوال من هذه السنة . وفي هذه السنة ركب عبيد الله بن طاهر إلى مصر فاستنقذها بأمر المأمون من يد عبيد الله بن السري بن الحكم المنقلب عليها ، واستعادها منه بعد حروب يطول ذكرها . وفيها توفي من الأعيان أبو عمرو والشيباني اللغوي واسمه إسحاق بن مراد . ومروان بن محمد الطاطري . ويحيى بن إسحاق والله سبحانه أعلم .

ثم دخلت سنة إحدى عشرة ومائتين

فيها توفي أبو الجواب . وطلق بن غنام . وعبيد الرزاق بن همام الصنعائي صاحب المصنف والمسند . وعهد الله بن صالح المعلى .

أبو العتاهية الشاعر المشهور

واسمه إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان أصله من الحجاز ، وقد كان تمشق جارية للمهدي

اسمها عتبة ، وقد طلبها منه غير مرة فاذا سمح له بها لم ترده الجارية ، وتقول للخليفة : أنعطيني لرجل
دميم الخلق كان يبيع الجرار ؟ فكان يكثر التغزل فيها ، وشاع أمره واشتهر بها ، وكان المهدي
يفهم ذلك منه . واتفق في بعض الأحيان أن المهدي استدعى الشعراء إلى مجلسه وكان فيهم أبو
العتاهية و بشار بن برد الأعمى ، فسمع صوت أبي العتاهية . فقال بشار لجليسه : أتم ههنا أبو العتاهية ؟
قال : نعم . فانطلق يذكر قصيدته فيها التي أولها :

ألا ما لسيّدني مالها * أدلت فأجمل إدلالها

فقال بشار لجليسه : ما رأيت أجسر من هذا . حتى انتهى أبو العتاهية إلى قوله :

أنته الخلافه منقادة * إليه تجرّ أذيالها

فلم تك تصلح إلا له * ولم يك يصلح إلا لها

ولو رامها أحد غيرهُ * لزلت الأرض زلزالها

ولولم تطفئ بنات القلوب * لما قبل الله أعمالها

فقال بشار لجليسه : انظروا أطار الخليفة عن فراشه أم لا ؟ قال : فوالله ما خرج أحد من
الشعراء يومئذ بجائزة غيره . قال ابن خلكان : اجتمع أبو العتاهية بأبي نواس - وكان في طبقة
وطبقة بشار - فقال أبو العتاهية لأبي نواس : كم تعمل في اليوم من الشعر ؟ قال : بيتاً أو بيتين .
فقال : لكني أعمل المائة والمائتين . فقال أبو نواس : لعلك تعمل مثل قولك :

يا عتبُ مالي ولك * يا ليتني لم أرك

ولو عملت أنا مثل هذا لعملت الألف والألفين وأنا أعمل مثل قولي :

من كف ذات حر في زبي ذي ذكر * لها محبّات لوطي وزنّاء

ولو أردت مثلي لا محزك الدهر . قال ابن خلكان : ومن لطيف شعر أبي العتاهية :

إني صبوْتُ إليك * في صرت من فرط التصابي

يحدّ الجليس إذا دنا * ريح التصابي في ثيابي

وكان مولده سنة ثلاثين ومائة . وتوفي يوم الاثنين ثالث جمادى الآخرة سنة إحدى عشرة وقيل
ثلاث عشرة ومائتين ، وأوصى أن يكتب على قبره ببغداد :

إن عيشاً يكون آخره الموت * تلعيش معجل التنفيس

ثم دخلت سنة ثلثي عشرة ومائتين

فيها وجه المأمون محمد بن حميد الطوسي على طريق الموصل لمحاربة بابك الخرمي في أرض
أذربيجان ، فأخذ جماعة من الملتفين عليه فبعث بهم إلى المأمون . وفي ربيع الأول أظهر المأمون

في الناس بدعتين فظيمنتين إحداهما أطم من الأخرى ، وهي القول بخلق القرآن ، والثانية تفضيل
على بن أبي طالب على الناس بعد رسول الله . . . وقد أخطأ في كل منهما خطأ كبيراً فاحشاً ،
وأثم إنهما عظيماً . وفيها حج بالناس عبد الله بن عبيد الله بن العباس العباسي . وفيها توفي أسد بن
موسى الذي يقال له أسد السنة . والحسن بن جعفر . وأبو عاصم النبيل واسمه الضحاك بن مخلد . وأبو
المغيرة عبد القدوس بن الحجاج الشامي الدمشقي . ومحمد بن يونس الفريابي شيخ البخاري .

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة ومائتين

فيها تار رجلان عبد السلام وابن جليس نخلما المأمون واستحوذا على الديار المصرية ، وتابعهما
طائفة من القيسية واليمانية ، فولى المأمون أخاه أبا إسحاق نيابة الشام ، وولى ابنه العباس نيابة
الجزيرة والثغور والوادم ، وأطلق لكل منهما ولعبد الله بن طاهر ألف دينار وخمسمائة ألف
دينار . فلم يربوم أكثر إطلاقاً منه ، أطلق فيه لهؤلاء الأمراء الثلاثة ألف ألف دينار وخمسمائة ألف
دينار . وفيها ولى السند غسان بن عباد . وحج بالناس أمير السنة الماضية . وفيها توفي عبد الله بن
داود الجريفي . وعبد الله بن يزيد المقرئ المصري . وعبد الله بن موسى العباسي . وعمرو بن أبي سلمة
الدمشقي . وحكى ابن خلكان أن بعضهم قال : وفيها توفي إبراهيم بن ما هان الموصلى النديم . وأبو
العناهيم . وأبو عمرو الشيباني النحوي في يوم واحد ببيغداد ، ولكنه صحح أن إبراهيم النديم توفي سنة
ثمان وثمانين ومائة . قال السهيلي : وفيها توفي عبد الملك بن هشام راوى السيرة عن ابن إسحاق .
حكاه ابن خلكان عنه ، والصحيح أنه توفي سنة ثمان عشرة ومائتين . كما نص عليه أبو سعيد بن
يونس في تاريخ مصر .

العكوك الشاعر

أبو الحسن بن علي بن جبلة الخراساني يلقب بالعكوك ، وكان من الموالي ولد أعمى وقيل بل
أصابه جذري وهو ابن سبع سنين ، وكان أسود أبرص ، وكان شاعراً مطبقاً فصيحاً بليغاً ، وقد أثنى
عليه في شعره الجاحظ فن بعده . قال : ما رأيت بدوياً ولا حضرياً أحسن إنشاء منه . فن ذلك قوله :

بأبي من زارني مُتَكَنِّمًا * حَذَرًا من كل شيء جزعا
زاراً نَمَ عليه حُسْنُهُ * كيف يُخْفِي الليلُ بدرًا طلعا
رصد الخلوّة حتى أمكنت * ورعى السامرَ حتى هجما
ركب الأهوالَ في زوّرتي • ثم ما سلّم حتى رجعا

وهو القائل في أبي دلف القاسم بن عيسى العجلي :

إنما الدنيا أبو دلفٍ * بين مغزاه ومختصره
فاذا ولّى أبو دلفٍ * ولّت الدنيا على أثره

كُلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ * بَيْنَ بَادِيَةٍ إِلَى حَضْرَةٍ
بِرَنْجِيهِ نَيْلٍ مَكْرُمَةٍ * يَأْتِسِبُهَا يَوْمَ مَفْتَحَرَةٍ

ولما بلغ المأمون هذه الأبيات - وهي قصيدة طويلة - عارض فيها أبا نواس فتطلبه المأمون فهرب منه ثم أحضر بين يديه فقال له : ويحك فضلت القاسم بن عيسى علينا . فقال : يا أمير المؤمنين أنتم أهل بيت اصطفاكم الله من بين عباده ، وآتاكم ملكاً عظيماً ، وإنما فضلت على أشكاله وأقرانه . فقال : والله ما أبقيت أحداً حيث تقول :

كُلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ * بَيْنَ بَادِيَةٍ إِلَى حَضْرَةٍ

ومع هذا فلا أستحل قتلك بهذا ، ولكن بشركك وكفرك حيث تقول في عبد ذليل :
أَنْتَ الَّذِي تَنْزِلُ الْأَيَّامَ مِنْزِلَهَا * وَتَنْقُلُ الْأَهْرَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ
وَمَامَدَتْ مَدَى طَرْفٍ إِلَى أَحَدٍ * إِلَّا قَضَيْتَ بِأَرْزَاقٍ وَأَجَالٍ
ذاك الله يفعل ، أخرجوا لسانه من قفاه . فأخرجوا لسانه في هذه السنة فأت . وقد امتدح حميد بن عبد الحميد الطوسي :

إِنَّمَا الدُّنْيَا حَمِيدٌ * وَأَيَادِيهِ جَسَامٌ * فَذَا وَلَّى حَمِيدٌ * فَعَلَى الدُّنْيَا السَّلَامُ
ولما مات حميد هذا رثاه أبو العتاهية بقوله :

أَبَا غَانِمٍ أَمَا ذَرَاكَ فَوَاسِعٌ * وَقَبْرُكَ مَعْمُورُ الْجَوَانِبِ مُحْكَمٌ
وَمَا يَنْفَعُ الْقَبُورَ عِمْرَانُ قَبْرِهِ * إِذَا كَانَ فِيهِ جِسْمُهُ يَتَهَدَّمُ
وقد أورد ابن خلكان لمكوك هذا أشعاراً جيدة تركناها اختصاراً .

ثم دخلت سنة اربع عشرة ومائتين

في يوم السبت لحس بقين من ربيع الأول منها التقى محمد بن حميد وبابك الخرمي لعنه الله ، فقتل الخرمي خالفاً كثيراً من جيشه ، وقتله أيضاً وانهزم بقية أصحاب ابن حميد ، فبعث المأمون إسحاق بن إبراهيم ويحيى بن أكرم إلى عبيد الله بن طاهر بخيرانه بين خراسان ، ونيابة الجبال وأذربيجان وأرمينية ومحاربة بابك ، فاختار المقام بخراسان لكثرة احتياجها إلى الضبط ، وللخوف من ظهور الخوارج . وفيها دخل أبو إسحاق بن الرشيد الديار المصرية فاتتزعها من يد عبيد السلام وابن جليس وقتلها . وفيها خرج رجل يقال له بلال الضبابي فبعث إليه المأمون ابنه العباس في جماعة من الأمراء فقتلوا بلالاً ورجعوا إلى بغداد . وفيها ولي المأمون علي بن هشام الجبل وقم وأصبهان وأذربيجان . وفيها حج بالناس إسحاق بن العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس . وفيها توفي أحمد بن خالد الموهبي .

أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح

أبو جعفر الكاتب ولى ديوان الرسائل للمأمون . ترجمه ابن عساكر وأورد من شعره قوله :

قد برزق المرء من غير حيلة صدرت * ويصرف الرزق عن ذنى الحيلة الداهي
مامسى من غنى يوماً ولا عدم * إلا وقولى عليه الحمد لله
وله أيضاً : إذا قلت فى شئ نعم فآتمه * فإن نعم دين على الحر واجب
والآ قل لا تستريح بها * لتلايقول الناس إنك كاذب
وله : إذا المرء أفشى سره بلسانه * فلام عليه غيره فهو أحق
إذا ضلقت صدر المرء عن سر نفسه * فصدر الذى يستودع السر أضيق

وحسن بن محمد المروزي شيخ الامام أحمد . وعبد الله بن الحكم المصري . ومملوكة بن عمر .

أبو محمد عبد الله بن أعين بن ليث بن رافع المصري

أحد من قرأ الموطأ على مالك وتفقه بمذهبه ، وكان معظماً ببلاد مصر ، وله بها ثروة وأموال وافرة . وخين قدم الشافعى مصر أعطاه ألف دينار ، وجمع له من أصحابه ألفى دينار ، وأجرى عليه وهو والد محمد بن عبد الله بن الحكم الذى صحب الشافعى . ولما توفى فى هذه السنة دفن إلى جانب قبر الشافعى . ولما توفى ابنه عبد الرحمن دفن إلى جانب قبر أبيه من القبلة . قال ابن خلكان فمى ثلاثة أقبر الشافعى شامياً . وهما قبلته . رحمهم الله .

ثم دخلت سنة خمس عشرة ومائتين

فى أواخر المحرم منها ركب المأمون فى المسافر من بغداد قاصداً بلاد الروم لغزوهم . واستخلف على بغداد وأعمالها إسحاق بن إبراهيم بن مصعب ، فلما كان بشكر يتلقاه محمد بن على بن موسى ابن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب من المدينة النبوية ، فأذن له المأمون فى الدخول على ابنته أم الفضل بنت المأمون . وكان معقود العقد عليها فى حياة أبيه على بن موسى ، فدخل بها ، وأخذها معه إلى بلاد الحجاز . وتلقاه أخوه أبو إسحاق بن الرشيد من الديار المصرية قبل وصوله إلى الموصل . وسار المأمون فى جهافل كثيرة إلى بلاد طرسوس فدخلها فى جمادى الأولى ، وفتح حصناً هناك عنوة وأمر بهدمه ، ثم رجع إلى دمشق فترها وعمر دبر مرات بسفح قيسون ، وأقام بدمشق مدة . وحج بالناس فيها عبد الله بن عبيد الله بن العباس العباسى .

وفىها توفى أبو زيد الأنصارى . ومحمد بن المبارك الصورى . وقبيصة بن عقبة . وعلى بن الحسن بن

أبو زيد الأنصارى . ومكى بن إبراهيم .

فهو سعيد بن أوس بن ثابت البصرى اللغوى أحد الثقات الاثبات ويقال إنه كان يرى ليلة

القدر . قال أبو عثمان المازني : رأيت الأصمعي جاء إلى أبي زيد الأنصاري وقبل رأسه وجلس بين يديه وقال : أنت رئيسنا وسيدنا منذ خمسين سنة . قال ابن خلكان : وله مصنفات كثيرة ، منها خلق الانسان ، وكتاب الابل ، وكتاب المياه ، وكتاب الفرس والفرس ، وغير ذلك توفي في هذه السنة ، وقيل في التي قبلها أو التي بعدها ، وقد جاوز التسعين ، وقيل إنه قارب المائة . وأما أبو سليمان فقد قدمنا ترجمته . ثم دخلت سنة ست عشرة ومائتين

ففيها عدا ملك الروم وهو توفيل بن ميخائيل على جماعة من المسلمين فقتلهم في أرض طرسوس نحواً من ألف وستمائة إنسان ، وكتب إلى المأمون فبدأ بنفسه ، فلما قرأ المأمون كتابه نهض من فوره إلى بلاد الروم عوداً على بده وصحبته أخوه أبو إسحاق بن الرشيد نائب الشام ومصر ، فافتتح بلدانا كثيرة صلحا وعنوة ، وافتتح أخوه ثلاثين حصنا ، وبعث يحيى بن أكنم في سرية إلى طوانة فافتتح بلاداً كثيرة وأسر خلقا وحرق حصونا عدة ، ثم عاد إلى العسكر . وأقام المأمون ببلاد الروم من نصف جمادى الآخرة إلى نصف شعبان ، ثم عاد إلى دمشق وقد وثب رجل يقال له عبدوس الفهرى في شعبان من هذه السنة ببلاد مصر ، فغلب على نواب أبي إسحاق بن الرشيد واتباعه خلق كثير ، فركب المأمون من دمشق يوم الأربعاء لثلاثة ليال خلت من ذى الحجة إلى الديار المصرية ، فكان من أمره ما سنذكره

وفيها كتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم نائب بغداد يأمره أن يأمر الناس بالتكبير عقيب الصلوات الخمس ، فكان أول ما بدئ بذلك في جامع بغداد والرصافة يوم الجمعة لأربع عشر ليلة خلت من رمضان ، وذلك أنهم كانوا إذا قضاوا الصلاة قام الناس قياماً فكبروا ثلاث تكبيرات ، ثم استمروا على ذلك في بقية الصلوات . وهذه بدعة أحدثها المأمون أيضاً بلا مستند ولا دليل ولا معتمد ، فإن هذا لم يفعله قبله أحد ، ولكن ثبت في الصحيح عن ابن عباس أن رفع الصوت بالذكر كان على عهد رسول الله (ص) ، ليعلم حين ينصرف الناس من المكتوبة ، وقد استحب هذا طائفة من العلماء كابن حزم وغيره . وقال ابن بطال : المذاهب الأربعة على عدم استحبابه . قال النووي : وقد روى عن الشافعي أنه قال : إنما كان ذلك ليعلم الناس أن الذكر بعد الصلوات مشروع ، فلما علم ذلك لم يبق للجهر معنى . وهذا كما روى عن ابن عباس أنه كان يجهر في الفاتحة في صلاة الجنائز ليعلم الناس أنها سنة ، ولهذا نظرنا والله أعلم

وأما هذه البدعة التي أمر بها المأمون فإنها بدعة محدثة لم يعمل بها أحد من السلف . وفيها وقع برد شديد جداً . وفيها حج بالناس الذي حج بهم في العام الماضي ، وقيل غيره والله أعلم . وفيها توفي حبان ابن هلال . وعبد الملك بن قريب الأصمعي صاحب اللغة والنحو والشعر وغير ذلك . ومحمد بن بكار بن

هلال . وهوذة بن خليفة . زبيدة امرأة الرشيد وابنة عمه

وهي ابنة جعفر أم العزيز الملقبة زبيدة بنت جعفر بن المنصور العباسية الهاشمية القرشية ، كانت أحب الناس إلى الرشيد ، وكانت ذات حسن بلهر وجمال طاهر ، وكان له معها من الخطايا والجوارى والزوجات غيرها كثيراً كما ذكرنا ذلك في ترجمته ، وإنما لقبت زبيدة لأن جدها أبا جعفر المنصور كلن يلاعبها ويرقصها وهي صغيرة ويقول : إنما أنت زبيدة ، لبياضها ، فغلب ذلك عليها فلا تعرف إلا به ، وأصل اسمها أم العزيز . وكان لها من الجلال والمال والخير والديانة والصدقة والبر شئ كثير . وروى الخطيب أنها حجت فلبت نفقتها في ستين يوماً أربعة وخمسين ألف ألف درهم ، ولما هنأت المأمون بالخلافة قالت : هنأت نفسي بها عنك قبل أن أراك ، وإن كنت فقدت ابناً خليفة لقد عوضت ابناً خليفة لم أده ، وما خسر من اعتاض منك ، ولا ثكلت أم ملأت يدها منك ، وأنا أسأل الله أجراً على ما أخذ ، وإمتاعاً بما عوض . توفيت ببغداد في جمادى الأولى سنة ست عشرة ومائتين .

ثم قال الخطيب : حدثني الحسين بن محمد الخلال لفظاً قال : وحدث أبا الفتح القواس قال ثنا صدقة بن هبيرة الموصلي ثنا محمد بن عبد الله الواسطي قال قال عبد الله بن المبارك : رأيت زبيدة في المنام فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقالت غفر لي في أول معول ضرب في طريق مكة . قلت : فما هذه الصفرة ؟ قالت : دفن بين ظهراني رجل يقال له بشر المريسي زفرت عليه جهنم زفرة فاقشمر لها جسد في هذه الصفرة من تلك الزفرة . وذكر ابن خلكان أنه كان لها مائة جارية كلن يحفظن القرآن العظيم ، غير من قرأ منه ما قدر له وغير من لم يقرأ ، وكان يسمع لمن في القصر دوى كدوى النحل ، وكان ورد كل واحدة عشر القرآن ، وورد أنها رؤيت في المنام فسلت عما كانت تصنع من المعروف والصدقات وما عملته في طريق الحج فقالت : ذهب ثواب ذلك كله إلى أهله ، وما نفعت إلا ركعات كنت أركعين في السحر . وفيها جرت حوادث وأمور يطول ذكرها .

ثم دخلت سنة سبع عشرة ومائتين

في الحرم منها دخل المأمون مصر وظفر بعميدوس الفهرى فأمر فضربت عنقه ، ثم كر راجعاً إلى الشام . وفيها ركب المأمون إلى بلاد الروم أيضاً فحاصر لؤلؤة مائة يوم ، ثم ارتحل عنها واستخلف على حصارها عجيفاً فخدعته الروم فأسروه فأقام في أيديهم ثمانية أيام ، ثم انفلت منهم واستمر محاصراً لهم ، فجاء ملك الروم بنفسه فأحاط بجيشه من ورائه ، فبلغ المأمون فساد إليه ، فلما أحس توفيل بقدمه هرب وبعث وزيره صنغل فسأله الأمان والمصالحة ، لكنه بدأ بنفسه قبل المأمون فرد عليه المأمون كتاباً بليغاً مضمونه التفرع والتوبيخ ، وإني إنما أقبل منك الدخول في الحنيفة

وإلا فالسيف والقتل والسلام على من اتبع الهدى وفيها حج بالناس سليمان بن عبد الله بن سليمان ابن علي . وفيها توفي الحجاج بن منهال . وشريح بن النعمان . وموسى بن داود الضبي والله سبحانه أعلم .

ثم دخلت سنة ثمان عشرة ومائتين

في أول يوم من جمادى الأولى وجه المأمون ابنه العباس إلى بلاد الروم لبناء الطوانة وتجديد عمارتها . وبث إلى سائر الأقاليم في تجهيز الفعلة من كل بلد إليها ، من مصر والشام والعراق ، فاجتمع عليها خلق كثير ، وأمره أن يجعلها ميسلا في ميل ، وأن يجعل سورها ثلاث فراسخ ، وأن يجعل لها ثلاثة أبواب .

ذكر أول المحنة والفتنة

في هذه السنة كتب المأمون إلى نائبه ببغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب يأمره أن يمتحن القضاة والمحدثين بالقول بخلق القرآن وأن يرسل إليه جماعة منهم ، وكتب إليه يستحنه في كتاب مطول وكتب غيره قد سردها ابن جرير كلها ، ومضمونها الاحتجاج على أن القرآن محدث وكل محدث مخلوق ، وهذا احتجاج لا يوافق عليه كثير من المتكلمين فضلا عن المحدثين ، فان القائمين بأن الله تعالى يقوم به الأفعال الاختيارية لا يقولون بأن فعله تعالى القائم بذاته المقدسة مخلوق ، بل لم يكن مخلوقا ، بل يقولون هو محدث وليس بمخلوق ، بل هو كلام الله القائم بذاته المقدسة ، وما كان قائما بذاته لا يكون مخلوقا ، وقد قال الله تعالى [ما يأتهم من ذكر من ربهم محدث] وقال تعالى [ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم] فالأمر بالسجود صدر منه بعد خلق آدم ، فالكلام القائم بالذات ليس مخلوقا ، وهذا له موضع آخر . وقد صنف البخاري كتابا في هذا المعنى سماه خلق أفعال العباد . والمقصود أن كتاب المأمون لما ورد ببغداد قرئ على الناس ، وقد عين المأمون جماعة من المحدثين ليحضرهم إليه ، وهم محمد بن سعد كاتب الواقدي ، وأبو مسلم المستملي ، ويزيد بن هارون^(١) وبجي بن معين وأبو خيثمة زهير بن حرب ، وإسماعيل بن أبي مسعود . وأحمد ابن الدورقي . فبعث بهم إلى المأمون إلى الرقة فامتنعهم بخلق القرآن فأجابوه إلى ذلك وأظهروا موافقته وهم كلهم ، فقدم إلى بغداد وأمر بأشهار أمرهم بين الفقهاء ، ففعل إسحاق ذلك . وأحضر خلقا من مشايخ الحديث والفقهاء وأئمة المساجد وغيرهم ، فدعاهم إلى ذلك عن أمر المأمون ، وذكر لهم موافقة أولئك المحدثين له على ذلك ، فأجابوا بمثل جواب أولئك موافقة لهم ، ووقعت بين الناس فتنة عظيمة فأتاه الله وإنا إليه راجعون . ثم كتب المأمون إلى إسحاق أيضا بكتاب ثان يستدل به على القول بخلق القرآن بشبه من الدلائل أيضا لا تحقيق تحتها ولا حاصل لها ، بل هي من المتشابهة

(١) قد ذكر المؤلف وفاة يزيد بن هارون في سنة ست ومائتين ، ثم ذكره هنا في المحضرين

فلا وجه إلا أن يكون غالطا هنا أو هناك .

وأورد من القرآن آيات هي حجة عليه . اورد ابن جرير ذلك كله . وأمر نائبه أن يقرأ ذلك على الناس وأن يدعوهم إليه وإلى القول بخلق القرآن ، فأحضر أبو إسحاق جماعة من الأئمة وهم أحمد بن حنبل . وقتيبة . وأبو حيان الزبدي . وبشر بن الوليد الكندي . وعلى بن أبي مقاتل . وسعدويه الواسطي . وعلى بن الجعد . وإسحاق بن أبي إسرائيل ، وابن الهرش ، وابن عليّة الأكبر ، وبجي ابن عبد الحميد العمري . وشيخ آخر من سلالة عمر كان قاضياً على الرقة ، وأبو نصر التمار ، وأبو معمر القطيعي ، ومحمد بن حاتم بن ميمون . ومحمد بن نوح الجندي سابوري المضروب ، وابن الفرخان ، والنضر بن شمل . وأبو علي بن عاصم ، وأبو العوام البارد ، وأبو شجاع ، وعبد الرحمن بن إسحاق وجماعة . فلما دخلوا على أبي إسحاق قرأ عليهم كتاب المأمون . فلما فهموه قال لبشر بن الوليد : ما تقول في القرآن ؟ فقال : هو كلام الله . قال : ليس عن هذا أسألك . وإنما أسألك أهو مخلوق ؟ قال : ليس بخلق . قال : ولا عن هذا أسألك . فقال : ما أحسن غير هذا . وصمم على ذلك . فقال : تشهد أن لا إله إلا الله أحداً فرداً لم يكن قبله شيء ولا بعده شيء ولا يشبهه شيء من خلقه في معنى من المعاني ولا وجه من الوجوه ؟ قال : نعم ! فقال للكاتب : اكتب بما قال . فكتب . ثم امتحنهم رجلاً رجلاً فأكثرهم امتنع من القول بخلق القرآن ، فكان إذا امتنع الرجل منهم امتحنه بالرقعة التي وافق عليها بشر بن الوليد الكندي ، من أنه يقال لا يشبهه شيء من خلقه في معنى من المعاني ولا وجه من الوجوه فيقول : نعم كما قال بشر . ولما انتهت النوبة إلى امتحان أحمد بن حنبل فقال له : أتقول إن القرآن مخلوق ؟ فقال : القرآن كلام الله لا أزيد على هذا . فقال له : ما تقول في هذه الرقعة ؟ فقال أقول [ليس كئله شيء وهو السميع البصير] فقال رجل من المعتزلة : إنه يقول : سميع بأذن بصير بعين . فقال له إسحاق : ما أردت بقولك سميع بصير ؟ فقال : أردت منها ما أراده الله منها وهو كما وصف نفسه ولا أزيد على ذلك . فكتب جوابات القوم رجلاً رجلاً وبعث بها إلى المأمون . وكان من الحاضرين من أجاب إلى القول بخلق القرآن مصانعة مكرها لأنهم كانوا يعزلون من لا يجيب عن وظائفه ، وإن كان له رزق على بيت المال قطع ، وإن كان مفتقراً منع من الاقتاء ، وإن كان شيخ حديث ردع عن الاسماع والأداء . ووقعت فتنة صماء ومحنة شنعاء وداهية دهياء فلا حول ولا قوة إلا بالله .

فَضِيحَةُ الْإِثْمَانِ

فلما وصلت جوابات القوم إلى المأمون بعث إلى نائبه يمدحه على ذلك ويرد على كل فرد فرد ما قال في كتاب أرسله . وأمر نائبه أن يمتحنهم أيضاً فمن أجاب منهم شهر أمره في الناس ، ومن لم يجب منهم فابعثه إلى عسكر أمير المؤمنين مقيداً محتفظاً به حتى يصل إلى أمير المؤمنين فيرى فيه

رأيه ، ومن رأيه أن يضرب عنق من لم يقل بقوله . فعند ذلك عقد النائب ببغداد مجلساً آخر وأحضر أولئك وفيهم إبراهيم بن المهدي ، وكان صاحباً لبشر بن الوليد الكندي ، وقد نص المأمون على قتلها إن لم يجيبا على الفور ، فلما امتحنهم إسحاق أجابوا كلهم مكرهين متأولين قوله تعالى [إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان] الآية . إلا أربعة وهم : أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح ، والحسن ابن حماد سجادة ، وعبيد الله بن عمر القواريري . فقبضهم وأرصدتهم ليبحث بهم إلى المأمون ، ثم استدعى بهم في اليوم الثاني فامتحنهم فأجاب سجادة إلى القول بذلك فأطلق . ثم امتحنهم في اليوم الثالث فأجاب القواريري إلى ذلك فأطلق قيده . وآخر أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح الجنديسابوري لأنهما أصرّا على الامتناع من القول بذلك ، فأكد قيودهما وجمعهما في الحديد وبعث بهما إلى الخليفة وهو بطرسوس ، وكتب كتاباً بارسالهما إليه . فسارا مقيدين في محارة على جمل متعادلين رضى الله عنهما . وجعل الأمام أحمد يدعو الله عز وجل أن لا يجمع بينهما وبين المأمون ، وأن لا يراه ولا يراها . ثم جاء كتاب المأمون إلى نائبه أنه قد بلغني أن القوم إنما أجابوا مكرهين متأولين قوله تعالى [إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان] الآية . وقد أخطأوا في تأويلهم ذلك خطأ كبيراً ، فarsلهم كلهم إلى أمير المؤمنين . فاستدعاهم إسحاق والزهمهم بالمسير إلى طرسوس فساروا إليها ، فلما كانوا ببعض الطريق بلغهم موت المأمون فردوا إلى الرقة ، ثم أذن لهم بالرجوع إلى بغداد . وكان أحمد ابن حنبل وابن نوح قد سبقا الناس ، ولكن لم يجتمعا به . بل أهلكه الله قبل وصولهما إليه ، واستجاب الله سبحانه دعاء عبده ووليّه الأمام أحمد بن حنبل ، فلم يريا المأمون ولا رأهما ، بل ردوا إلى بغداد . وسيأتي تمام ما وقع لهم من الأمر الفظيع في أول ولاية المعتصم بن الرشيد ، وتمام باقي الكلام على ذلك في ترجمة الأمام أحمد عند ذكر وفاته في سنة إحدى وأربعين ومائتين وبالله المستعان .

عبد الله المأمون

هو عبد الله المأمون بن هارون الرشيد العباسي القرشي الهاشمي أبو جعفر أمير المؤمنين ، وأمه أم ولد يقال لها مراحل الباذغيسية ، وكان مولده في ربيع الأول سنة سبعين ومائة ليلة توفي عمه الهادي ، وولى أبوه هارون الرشيد ، وكان ذلك ليلة الجمعة كما تقدم ، قال ابن عسّاكر : روى الحديث عن أبيه وهاشم بن بشر ، وأبي معاوية الضرير ، ويوسف بن قحطبة ، وعباد بن الدوام ، وإسماعيل بن علية ، وحجاج بن محمد الأعور . وروى عنه أبو حذيفة إسحاق بن بشر . وهو أسن منه . ويحيى بن أكنم القاضي وابنه الفضل بن المأمون ومعمّر بن شبيب وأبو يوسف القاضي وجمع من أبي عثمان الطيالسي وأحمد بن الحارث الشعبي . أو البريدي . وعمر بن مسعدة وعبد الله بن طاهر بن الحسين ، ومحمد بن إبراهيم السلمي ودعبل بن علي الخزاعي . قال : وقدم دمشق مرات وأقام بها مدة ، ثم روى ابن عسّاكر

من طريق أبي القاسم البغوي حدثنا أحمد بن إبراهيم الموصلي قال : سمعت المأمون في الشامية وقد أجرى الحلبة فجعل ينظر إلى كثرة الناس فقال ليحيى بن أكنم : أما ترى كثرة الناس ؟ قال : حدثنا يوسف بن عطية عن ثابت عن أنس أن النبي (ص) قال : « اخلق كلهم عيال الله فأحبهم إليه أنفعهم لعياله » . ومن حديث أبي بكر المصباحي عن الحسين بن أحمد المالكي عن يحيى بن أكنم القاضي عن المأمون عن هشيم عن منصور عن الحسن عن أبي بكرة أن رسول الله (ص) قال : « الحياء من الإيمان » . ومن حديث جعفر بن أبي عثمان الطيالسي أنه صلى العصري يوم عرفة خلف المأمون بالرفافة فلما سلم كبر الناس فجعل يقول : لا يا غوغاء لا يا غوغاء ، غدا التكبير سنة أبي القاسم (ص) . فلما كان الغد صعد المنبر فكبر ثم قال : أنبا هشيم بن بشير ثنا ابن شبرمة عن الشعبي عن البراء بن عازب عن أبي بردة بن دينار . قال قال رسول الله (ص) : « من ذبح قبل أن يصلي فأنما هو لحم قدمه لأهله ، ومن ذبح بعد أن يصلي الغداة فقد أصاب السنة » . الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً ، اللهم اصلحني وأصلحني وأصلح على يدي . تولى المأمون الخلافة في الحرم الحس بقين منه بعد ال أخيه سنة ثمان وتسعين ومائة ، واستمر في الخلافة عشرين سنة وخمسة أشهر . وقد كان فيه تشيع واعتزال وجهل بالسنة الصحيحة ، وقد بايع في سنة إحدى ومائتين بولاية العهد من بعده لمولى الرضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، وخلع السواد ولبس الخضرة كما تقدم ، فأعظم ذلك العباسيون من البغاددة وغيرهم ، وخلعوا المأمون وولوا عليهم إبراهيم بن المهدي ، ثم ظفر المأمون بهم واستقام له الحال في الخلافة ، وكان على مذهب الاعتزال لأنه اجتمع بجماعة منهم بشر بن غياث المريسي فغدعوه وأخذ عنهم هذا المذهب الباطل ، وكان يحب العلم ولم يكن له بصيرة نافذة فيه ، فدخل عليه بسبب ذلك الداخل ، وراج عنه الباطل . ودعا إليه وحمل الناس عليه قهراً . وذلك في آخر أيامه وانهضاء دولته . وقال ابن أبي الدنيا : كان المأمون أبيض ربعة حسن الوجه قد وخطه الشيب يعلوه صفرة أعين طويل اللحية رقيقة ضيق الجبين ، على خده خال . أمه أم ولد يقال لها مراحل . وروى الخطيب عن القاسم بن محمد بن عباد قال : لم يحفظ القرآن أحد من الخلفاء غير عثمان بن عفان والمأمون ، وهذا غريب جداً لا يوافق عليه ، فقد كان يحفظ القرآن عدة من الخلفاء . قالوا : وقد كان المأمون : لو في شهر رمضان ثلاثاً وثلاثين ختمة ، وجلس يوماً لأملاء الحديث فاجتمع حوله القاضي يحيى ابن أكنم وجماعة فأملى عليهم من حفظه ثلاثين حديثاً . وكانت له بصيرة بعلوم متعددة ، فقهاً وطباً وشعراً وفرائض وكلاماً ونحواً وغيره ، وغريب حديث ، وعلم النجوم . وإليه ينسب الزيج المأموني . وقد اختبر مقدار الدرجة في وطنه سنجار فاختلف عمله وعمل الأوائل من الفقهاء . وروى ابن عساكر

أن المأمون جلس يوماً للناس وفي مجلسه الأمراء والعلماء ، فجاءت امرأة تتظلم إليه فذكرت أن أخاها توفي وترك ستائة دينار ، فلم يحصل لها سوى دينار واحد . فقال لها المأمون على البديهة : قد وصل إليك خنك ، كان أخاك قد ترك بفتين وأما وزوجة وأثني عشر أخاً وأختاً واحدة وهي أنت ، قالت : نعم يا أمير المؤمنين . فقال : للبنتين الثلاثين أربعمائة دينار ، وللأم السدس مائة دينار ، وللزوجة الثمن خمسة وسبعون ديناراً ، بقي خمسة وعشرون ديناراً لكل أخ ديناران ديناران ، ولك دينار واحد . فمجب العلماء من فطنته وحدة ذهنه وسرعة جوابه . وقد رويت هذه الحكاية عن علي بن أبي طالب . ودخل بعض الشعراء على المأمون وقد قال فيه بيتاً من الشعر يراه عظيماً ، فلما أنشده إياه لم يقع منه موقعاً طائلاً ، فخرج من عنده محروماً ، فلقبه شاعر آخر فقال له : ألا أعجبك ! ألفت المأمون هذا البيت فلم يرفع به رأساً . فقال : وما هو ؟ قال قلت فيه :

أضحي إمام الهدى المأمونُ مشغلاً • بالدين والناسُ بالدنيا مشاغِلُ

فقال له الشاعر الآخر : ما زدت على أن جعلته عجوزاً في محرابها . فهلا قلت كما قال جرير في عبد العزيز بن مروان :

فلا هو في الدنيا مُضِيعٌ نصيبُهُ • ولا عرضُ الدنيا عن الدينِ شاغلُهُ

وقال المأمون يوماً لبعض جلسائه : بيتان اثنان لاثنين ما يلحق بهما أحد ، قول أبي نواس :

إذا اختبر الدنيا لبيبٌ تكشفتْ • له عن عدوِّ في لباسِ صديقِ

وقول شريح : تهوُّ على الدنيا الملامةُ إنه • حريصٌ على استصلاحها من يلومها

قال المأمون : وقد ألجأني الزحام يوماً وأنا في الموكب حتى خالطت السوق فرأيت رجلاً في دكان عليه أثواب خلقة ، فنظر إلى نظار من يرحني أو من يتعجب من أمرى فقال :

أرى كلَّ مغرورٍ تمنيه نفسه • إذا ما مضى عامٌ سلامةً قابلِ

وقال يحيى بن أكنم : سمعت المأمون يوم عيّد خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وصلى على الرسول (ص) ، ثم قال : عباد الله ! عظم أمر الدارين وارتفع جزاء العالمين ، وطالت مدة الفريقين ، فوالله إنه للجد لا اللعب ، وإنه للحق لا الكذب ، وما هو إلا الموت والبعث والحساب والفصل والميزان والصراط ثم العقاب أو الثواب ، فمن نجا يومئذ فقد فاز . ومن هوى يومئذ فقد خاب ، الخير كله في الجنة ، والشر كله في النار . وروى ابن عساكر من طريق النضر بن شميل قال : دخلت على المأمون فقال : كيف أصبحت يا نضر ؟ قلت : بخير يا أمير المؤمنين . فقال : ما الأرجاء ؟ قلت دين يوافق الملوك يصيبون به من دنياهم وينقصون به من دينهم . قال : صدقت . ثم قال : يا نضر أتدرى ما قلت في صبيحة هذا اليوم ؟ قلت : إني لمن علم الغيب لبعيد . فقال قلت أيّاماً وهي :

أصبح ديني أدينُ به • ولستُ منه الغداة معتذرا
 حب عليّ بعد النبي ولا • أشتَمُ صديقاً ولا عمراً
 ثم ابن عفان في الجنان مع الـ • أبرارِ ذاك القَتيلِ مصطبراً
 ألا ولا أشتَمُ الزبيرَ ولا • طلحة إن قال قائلٌ غدراً
 وعائشُ الامِ لستُ أشتَمُها • من يفترها فنحن منه برا

وهذا المذهب ثاني مراتب الشيعة وفيه تفضيل عليّ على الصحابة . وقد قال جماعة من السلف والدارقطني : من فضل علياً على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأَنْصار - يعني في اجتهادهم ثلاثة أيام ثم اتفقوا على عثمان وتقدمه على عليّ بعد مقتل عمر - وبعد ذلك ست عشرة مرتبة في التشيع ، على ما ذكره صاحب كتاب البلاغ الأكبر ، والناموس الأعظم ، وهو كتاب ينتهي به إلى أ كفر الكفر . وقد روينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال : لا أوتى بأحد فضلى على أبي بكر وعمر إلا جلده جلد المفترى . وتواتر عنه أنه قال : خير الناس بعد النبي (ص) ، أبو بكر ثم عمر . فقد خالف المأمون الصحابة كلهم حتى علي بن أبي طالب . وقد أضاف المأمون إلى بدعته هذه التي أزرى فيها على المهاجرين والأَنْصار ، البدعة الأخرى والطامة الكبرى وهي القول بخلق القرآن مع ما فيه من الانهماك على تماطي المسكر وغير ذلك من الأفعال التي تعدد فيها المنكر . ولكن كان فيه شهامة عظيمة وقوة جسيمة في القتال وحصار الأعداء ومصابرة الروم وحصرهم ، وقتل رجالهم وسبي نساءهم ، وكان يقول : كان لعمر بن عبد العزيز وعبد الملك حجاب وأنا بنفسي ، وكان يتحرى العدل ويتولى بنفسه الحكم بين الناس والفصل ، جاءته امرأة ضعيفة قد تظلمت على ابنه العباس وهو قائم على رأسه ، فأمر الحاجب فأخذه بيده فأجلسه معها بين يديه ، فادعت عليه بأنه أخذ ضيعة لها واستحوذ عليها ، فتناظرا ساعة فجعل صوتها يملو على صوته ، فزجرها بعض الحاضرين فقال له المأمون : اسكت فإن الحق أنطقها والباطل أسكته ، ثم حكم لها بحقتها وأغرم ابنه لها عشرة آلاف درهم

وكتب إلى بعض الأمراء : ليس المروءة أن يكون بيتك من ذهب وفضة وغريمك عار ، وجارك طاو و الفقير جائع . ووقف رجل بين يديه فقال له المأمون : والله لأقتلنك . فقال : يا أمير المؤمنين تأن على فان الرفق نصف العفو ، فقال : ويلك ويحك لقد حلفت لأقتلنك ، فقال : يا أمير المؤمنين إنك إن تلق الله حائثاً خير من أن تلقاه قاتلاً . فعفا عنه . وكان يقول : ليت أهل الجرائم يعرفون أن مذهبي العفو حتى يذهب الخوف عنهم ويدخل السرور إلى قلوبهم . وركب يوماً في حراقة فسمع ملاحاً يقول لأصحابه : ترون هذا المأمون ينبل في عيني وقد قتل أخاه الأمين - يقول ذلك وهو لا يشعر بإمكان المأمون - فجعل المأمون يتبسم ويقول : كيف ترون الحيلة حتى أنبل في عين هذا الرجل الجليل

القدر؟ وحضر عند المأمون هدية بن خالد ليتغدى عنده فلما رفعت المائدة جعل هدية يلتقط ما تنثر منها من الباب وغيره ، فقال له المأمون : أما شبعث يا شيخ؟ فقال : بلى ، حدثني حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن رسول الله (س) قال : « من أكل مائتة مائتته آمن من الفقر » . قال فأمر له المأمون بألف دينار .

وروى ابن عساكر أن المأمون قال يوماً لمحمد بن عباد بن المهلب : يا أبا عبد الله قد أعطيتك ألف ألف ، وألف ألف ، وألف ألف وأعطيتك ديناراً . فقال : يا أمير المؤمنين إن منع الموجود سوء ظن بالمعبود . فقال : أحسنت يا أبا عبد الله ! أعطوه ألف ألف وألف ألف وألف ألف . ولما أراد المأمون أن يدخل بيوران بنت الحسن بن سهل جعل الناس يهدون لأبيها الأشياء النفيسة ، وكان من جملة من يعتز به رجل من الأدباء . فأهدى إليه مزوداً فيه ملح طيب ، ومزوداً فيه أشنان جيد ، وكتب إليه : إني كرهت أن تطوى صحيفة أهل البر ولا أذكر فيها ، فوجهت إليك بالمبتدأ به ليمنه وبركته ، وبالمختوم به لطيبه ونظافته . وكتب إليه :

بِضَاعَتِي تَقْصُرُ عَنْ هَمِّي * وَهَمِّي تَقْصُرُ عَنْ مَالِي
فَالْمِلْحُ وَالْأَشْنَانُ يَأْسِدِي * أَحْسَنُ مَا يَهْدِيهِ أُمَالِي

قال : فدخل بها الحسن بن سهل على المأمون فأعجبه ذلك وأمر بالمزودين ففرغا وملكا دنانير وبعث بهما إلى ذلك الأديب . وولد للمأمون ابنه جعفر فدخل عليه الناس يهتثونه بصنوف التهاني ، ودخل بعض الشعراء فقال يهنيه بولده :

مَدَّ لَكَ اللَّهُ الْحَيَاةَ مَدًّا * حَتَّى تَرَى ابْنَكَ هَذَا جَدًّا
ثُمَّ يُفَدِّيْ مِثْلَ مَا تُفَدِّي * كَأَنَّهُ أَنْتَ إِذَا تَبَدَّى
أَشْبَهُ مِنْكَ قَامَةً وَقَدَا * مُؤَزَّرًا بِمَجْدِهِ مُرَدًّا

قال فأمر له بعشرة آلاف درهم . وقدم عليه وهو بدمشق مال جزيل بعد ما كان قد أفلس وشكى إلى أخيه الممتصم ذلك ، فوردت عليه خزان من خراسان ثلاثون ألف ألف درهم ، فخرج يستعرضها وقد زينت الجمال والأحمال ، ومعه يحيى بن أكرم القاضي ، فلما دخلت البلد قال : ليس من المروءة أن نحوز نحن هذا كله والناس ينظرون . ثم فرق منه أربعة وعشرين ألف ألف درهم ورجله في الركاب لم ينزل عن فرسه . ومن لطيف شعره : -

لِسَانِي كَتَمْتُ لِأَسْرَارِكُمْ * وَدُمِّي نَوْمٌ لِسِرِّيْ مَذْبِغٌ
فَلَوْلَا دُمُوعِي كَتَمْتُ الْهَوَى * وَلَوْلَا الْهَوَى لَمْ تَكُنْ لِي دُمُوعٌ

بعث خادماً ليلة من الليالي ليأتيه بجارية فأطال الخادم عندها المكث ، وتمنعت الجارية من

الجبى* إليه حتى يأتى إليها المأمون بنفسه ، فانشأ المأمون يقول :

بمشتك مشتاقاً ففرت بنظرة • وأغفلتني حتى أسأت بك الظناً
فناجيت من أهوى وكنت مباعدآ • فباليت شعري عن دنوك ما أغنى
ورددت طرقاتاً في محاسن وجهها • ومثقت باستماع نغماتها أذناً
أرى أثراً منه بعينيك بيناً • لقد رقت عيناك من عيناها حسناً

ولما ابتدع المأمون ما ابتدع من التشيع والاعتزال ، فرح بذلك بشر المريسى - وكان بشر هذا شيخ المأمون - فانشأ يقول :

قد قال مأموننا وسيئنا • قولاً له في الكتب تصديق
إنّ علياً أعني أبا حسن • أفضل من قد أفلت النوق
بعد نبي الهدى وإنّ لنا • أعمالنا ، والقرآن مخلوق
فأجابه بعض الشعراء من أهل السنة :

يا أيها الناس لا قول ولا عمل • لمن يقول : كلام الله مخلوق
ما قال ذلك أبو بكر ولا عمر • ولا النبي ولم يذكره صديق
ولم يقل ذلك إلا كل مبتدع • على الرسول وعند الله زنديق
بشر أراد به إحقاق دينهم • لأنّ دينهم والله محق
يا قوم أصبح عقل من خليفكم • مقيداً وهو في الاغلال موثق

يتقد سأل بشر من المأمون أن يطلب قاتل هذا فيؤدبه على ذلك ، فقال : ويحك لو كان قتيلاً لأدبته ولكنه شاعر فلست أعرض له . ولما تجهز المأمون للغزو في آخر سفره سافرهما إلى طرسوس استدعى بجارية كان يحبها وقد اشتراها في آخر عمره ، فضمها إليه فبكت الجارية وقالت : قتلتنى يا أمير المؤمنين بسفرك ثم أنشأت تقول :

سأدعوك دعوة المضطر رباً • يثيب على الدعاء ويسنجيب
لعل الله أن يكفيك حزناً • ويجمعنا كما تهوى القلوب

فضمها إليه وأنشأ يقول متمثلاً : -

فيا حسنها إذ يفسل الدمع كحلها • وإذ هي تذرى الدمع منها الإنامل
صبيحة قالت في العتاب قتلتنى • وقتلى بما قالت هناك تحاول

ثم أمر مسروراً الخادم بالاحسان إليها والاحتفاظ عليها حتى يرجع ، ثم قال : نحن كما قال الأخطل قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم • دون الفسار ولو باتت باطهار

ثم ودعها وسار ففرضت الجارية في غيبته هذه ، ومات المأمون أيضاً في غيبته هذه ، فلما جاء نعيه إليها تنفست الصعداء وحضرتها الوفاة وأنشأت تقول وهي في السياق :

إن الزمان سقانا من مرارتِهِ * بعدَ الحلاوةِ كاساتِ فأروانا
أبدى لنا نارةً منه فأضحكنا * ثم انثنى نارةً أخرى فأبكنا
إنا إلى الله فيما لا يزالُ بنا * من القضاء ومن تلوينِ دنيانا
دنيا تراها ترينا من تصرفها * ما لا يدومُ مصافاةً وأحزاننا
ونحنُ فيها كأننا لا يزالنا * للعيشِ أحياء وما يسكون موتانا

كانت وفاة المأمون بطرسوس في يوم الخميس وقت الظهر وقيل بعد العصر ، لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب من سنة ثمانئى عشرة ومائتين ، وله من العمر نحو من ثمان وأربعين سنة ، وكانت مدة خلافته عشرين سنة وأشهرآ ، وصلى عليه أخوه المعتصم وهو ولى العهد من بعده ، ودفن بطرسوس في دار خاقان الخادم ، وقيل كانت وفاته يوم الثلاثاء ، وقيل يوم الأربعاء لثمان بقين من هذه السنة . وقيل إنه مات خارج طرسوس بأربع مراحل فحمل إليها فدفن بها ، وقيل إنه نقل إلى أذنة في رمضان فدفن بها فالله أعلم . وقد قال أبو سعيد الخزومي : —

هل رأيتَ النجومَ أغنت عن الأ * مون شيئاً أو مُلكِ المأسوسِ
خلقوه بمرصتي طرسوس * مثل ما خلفوا أباه بطوس

وقد كان أوصى إلى أخيه المعتصم وكتب وصيته بمحضرتة وبمحضرة ابنه العباس وجماعة القضاة والأمراء والوزراء والكتّاب . وفيها القول بخناق القرآن ولم يتب من ذلك بل مات عليه وانقطع عمله وهو على ذلك لم يرجع عنه ولم يتب منه ، وأوصى أن يكبر عليه الذى يصلى عليه خمساً ، وأوصى المعتصم بتقوى الله عز وجل والرفق بالرعية ، وأوصاه أن يعتقده ما كان يعتقده أخوه المأمون في القرآن ، وأن يدعو الناس إلى ذلك ، وأوصاه بعبد الله بن طاهر وأحمد بن إبراهيم وأحمد بن أبي دواد ، وقال شاوره في أمورك ولا تفارقه ، وإياك وبمجي بن أكنم أن تصحبه ، ثم نهاه عنه وذمه وقال : خانني ونفر الناس عنى ففارقته غير راض عنه . ثم أوصاه بالعلوين خيراً ، أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم ، وأن يواصلهم بصلاتهم في كل سنة

وقد ذكر ابن جرير للمأمون ترجمة حافلة أورد فيها أشياء كثيرة لم يذكرها ابن عساكر مع كثرة ما بورده ، وفوق كل ذى علم عليهم .

خلفه من المعتصم بالله إلى راسخ بن هارون

بويح له بالخلافة يوم مات أخوه المأمون بطرسوس يوم الخميس الثاني عشر من رجب من سنة

ثمانى عشرة ومائتين ، وكان إذ ذاك مريضاً ، وهو الذى صلى على أخيه المأمون ، وقد سعى بعض الأمراء فى ولاية العباس بن المأمون فخرج عليهم العباس فقال : ما هذا الخلف البارد ؟ أنا قد بايعت عمى المعتصم . فسكن الناس وخذت الفتنة وركب البرد بالبيعة للمعتصم إلى الآفاق ، وبالتعزية بالمأمون . فأمر المعتصم بهدم ما كان بناه المأمون فى مدينة طوالة ، ونقل ما كان حول إليها من السلاح وغيره إلى حصون المسلمين ، وأذن الفعلة بالانصراف إلى بلدانهم ، ثم ركب المعتصم بالجنود قاصداً بغداد وصحبته العباس بن المأمون ، فدخلها يوم السبت مستهل رمضان فى أبهة عظيمة وتجمل قام . وفيها دخل خلق كثير من أهل همدان وأصبهان وماسبذان ومهرجان فى دين الخرمية ، فتجمع منهم بشر كثير ، فجهز إليهم المعتصم جيوشاً كثيرة آخرهم إسحاق بن إبراهيم بن مصعب فى جيش عظيم ، وعقد له على الجبال ، فخرج فى ذى القعدة وقرئ كتابه بالفتح يوم التروية ، وأنه قهر الخرمية وقتل منهم خلقاً كثيراً ، وهرب بقيتهم إلى بلاد الروم ، وعلى يدي هذا جرت فتنة الامام أحمد وضرب بين يديه كما سيأتى بسط ذلك فى ترجمة أحمد فى سنة إحدى وأربعين ومائتين . وفيها توفى من الأعيان :

بشر المريسي

وهو بشر بن غياث بن أبى كريمة أبو عبد الرحمن المريسي المتكلم شيخ المعتزلة ، وأحد من أضل المأمون ، وقد كان هذا الرجل ينظر أولاً فى شئ من الفقه ، وأخذ عن أبى يوسف القاضى ، وروى الحديث عنه وعن حماد بن سلمة وسفيان بن عيينة وغيرهم ، ثم غلب عليه علم الكلام ، وقد نهى الشافعى عن تعلمه وتعاطيه فلم يقبل منه ، وقال الشافعى : لئن يلقى الله العبد بكل ذنب ما عدا الشرك أحب إلى من أن يلقاه بعلم الكلام . وقد اجتمع بشر بالشافعى عند ما قدم بغداد . قال ابن خالكان : جدد القول بخلق القرآن وحكى عنه أقوال شنيعة ، وكان مرجئاً وإليه تنسب المريسية من المرجئة ، وكان يقول : إن السجود للشمس والقمر ليس بكفر ، وإنما هو علامة للكفر ، وكان يناظر الشافعى وكان لا يحسن النحو ، وكان يلحن لحناً فاحشاً . ويقال : إن أباه كان يهودياً صباغاً بالكوفة ، وكان يسكن درب المريسي ببغداد . والمريس عندهم هو الخبز الرقاق يمرس بالسمن والتمر . قال : ومريس فاحية ببلاد النوبة تهب عليها فى الشتاء ريح باردة وفيها توفى عبد الله بن يوسف الشيبى . وأبو مسهر عبد الأعلى بن مسهر الفسائى الدمشقى . ويحيى بن عبد الله البابلقي .

وأبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الماعفري

راوى السيرة عن زياد بن عبد الله البكائى عن ابن إسحاق مصنفها ، وإنما نسبت إليه فيقال سيرة ابن هشام ، لأنه هذبها وزاد فيها ونقص منها ، وحرر أماناً واستدرك أشياء . وكان إماماً فى

اللغة والنحو ، وقد كان مقبلاً بمصر واجتمع به الشافعي حين و ردها ، وتناشدا من أشعار العرب شيئاً كثيراً . كانت وفاته بمصر لثلاث عشرة خلت من ربيع الآخر من هذه السنة ، قاله ابن يونس في تاريخ مصر . وزعم السهيلي أنه توفي في سنة ثلاث عشرة كما تقدم فأن الله أعلم .

ثم دخلت سنة تسع عشرة ومائتين

فيها ظهر محمد بن القاسم بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بالطالقان من خراسان يدعو إلى الرضى من آل محمد ، واجتمع عليه خلق كثير وقتله قواد عبد الله بن طاهر مرات متعددة ، ثم ظهر وا عليه وهرب فأخذتم بمث به إلى عبد الله بن طاهر فبعث به إلى المعتصم فدخل عليه للنصف من ربيع الآخر فأمر به فحبس في مكان ضيق طوله ثلاثة أذرع في ذراعين ، فكث فيه ثلاثاً ، ثم حول لأوسع منه وأجرى عليه رزق ومن يخدمه ، فلم يزل محبوساً هناك إلى ليلة عيد الفطر فاشتغل الناس بالعيد فدلى له جبل من كوة كان يأتيه الضوء منها ، فذهب فلم يدر كيف ذهب وإلى أين صار من الأرض .

وفي يوم الأحد لحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى دخل إسحاق بن إبراهيم إلى بغداد راجعاً من قتال الخرمية ، ومعه أسارى منهم ، وقد قتل في حربه منهم مائة ألف مقاتل . وفيها بعث المعتصم عجيلاً في جيش كثيف لقتال الزط الذين عاثوا فساداً في بلاد البصرة ، وقطعوا الطريق ونهبوا الفسلات ، فكث في قتالهم تسعة أشهر فقهرهم وقمع شرهم وأباد خضراهم . وكان القائم بأمرهم رجل يقال له محمد بن عثمان ومعه آخر يقال له صماق ، وهو داهيتهم وشيطانهم ، فأراح الله المسلمين منه ومن شره .

وفيها توفي سليمان بن داود الهاشمي شيخ الامام أحمد . وعبد الله بن الزبير الحميدي صاحب المسند وتلميذ الشافعي وعلي بن عياش . وأبو نعيم الفضل بن دكين شيخ البخاري . وأبو بشار الهندي .

ثم دخلت سنة عشرين ومائتين من الهجرة

في يوم عاشوراء منها دخل عجيبي في السفن إلى بغداد ومعه من الزط سبعة وعشرون ألفاً قد جاؤا بالأمان إلى الخليفة ، فأنزلوا في الجانب الشرقي ثم نقام إلى عين رومة ، فأغار الروم عليهم فاجتاحوهم عن آخرهم ، ولم يفلت منهم أحد . فكان آخر العهد بهم . وفيها عقد المعتصم للأفشين واسمه حيدر بن كلوس على جيش عظيم لقتال بابك الخرمي لئله الله ، وكان قد استفحل أمره جداً ، وقويت شوكته ، وانتشرت أتباعه في أذربيجان وما والاها ، وكان أول ظهوره في سنة إحدى ومائتين ، وكان زنديقاً كبيراً وشيطاناً رجياً ، فسار الأفشين وقد أحكم صناعة الحرب في الأرصاد وعمارة الحصون وإرصاد المدد ، وأرسل إليه المعتصم مع بغا الكبير أموالاً جزيلة نفقة لمن معه من

الجند والأتباع ، فالتقى هو وبابك فاقنتلا قتالا شديداً ، قتل الأفشين من أصحاب بابك خلقاً كثيراً
أزيد من مائة ألف ، وهرب هو إلى مدينته فأوى فيها مكسوراً ، فكان هذا أول ما تضعضع من
أمر بابك ، وجرت بينهما حروب يطول ذكرها ، وقد استقصاها ابن جرير .

وفيها خرج المعتصم من بغداد قزلاً القاطول فأقام بها . وفيها غضب المعتصم على الفضل بن
مروان بعد المسكنة العظيمة ، وعزله عن الوزارة وحبس وأخذ أمواله وهدم مكانه محمد بن عبد الملك
ابن الزيات . وحج بالناس فيها صالح بن علي بن محمد أمير السنة الماضية في الحج .
وفيها توفي آدم بن أبي إياس . وعبد الله بن رجاء . وغفان بن مسلمة . وقانون أحد مشاهير
القراء . وأبو حذيفة الهندي .

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين ومائتين

فيها كانت وقعة هائلة بين بفا الكبير وبابك فهزم بابك بفا وقتل خلقاً من أصحابه . ثم أقتل
الأفشين وبابك فهزمه أفشين وقتل خلقاً من أصحابه بعد حروب طويلة قد استقصاها ابن جرير .
وحج بالناس فيها نائب مكة محمد بن داود بن عيسى بن موسى العباسي .

وفيها توفي عاصم بن علي . وعبد الله بن مسلم القعني . وعبدان . وهشام بن عبيد الله الرازي .

ثم دخلت سنة ثنتين وعشرين ومائتين

فيها جهز المعتصم جيشاً كثيراً مدداً للأفشين على محاربة بابك وبعث إليه ثلاثين ألف ألف
درهم نفقة للجند ، فاقنتلا قتالا عظيماً ، وافتتح الأفشين البلد مدينة بابك واستباح ما فيها ، وذلك
يوم الجمعة لعشر بقين من رمضان . وذلك بعد محاصرة وحروب هائلة وقتال شديد وجهد جهيد .
وقد أطال ابن جرير بسط ذلك جداً . وحاصل الأمر أنه افتتح البلد وأخذ جميع ما فيه من الأموال
مما قدر عليه .

ذكر مسك بابك

لما احتوي المسلمون على بلده المسمى بالبد وهي دار ملكه وصر سلطنته هرب بمن معه من أهله
وولده ومعه أمه وامراته ، فانفرد في شزيمة قليلة ولم يبق معهم طعام ، فاجتازوا بمحراث فبعث غلامه
إليه وأعطاه ذهباً فقال : أعطه الذهب وخذ ما معه من الخبز ، فنظر شريك الحراث إليه من بعيد
وهو يأخذ منه الخبز ، فظن أنه قد اغتصبه منه ، فذهب إلى حصن هناك فيه نائب للخليفة يقال له
سهل بن سنباط ليستعدى على ذلك الغلام ، فركب بنفسه وجاء فوجد الغلام فقال : ما خبرك ؟
فقال : لا شيء ، إنما أعطيت دنانير وأخنت منه الخبز . فقال : ومن أنت ؟ فأراد أن يعنى عليه
الخبز فأخ عليه فقال : من غلمان بابك ، فقال : وأين هو ؟ فقال : ها هو ذا جالس يريد الغداء . فسار
إليه سهل بن سنباط فلما رآه ترجل وقبل يده وقال : يا سيدي أين تريد ؟ قال : أريد أن أدخل بلاد

الروم ، فقال : إلى عند من تذهب أحرز من حصني وأنا غلامك وفي خدمتك ؟ وما زال به حتى خدعه وأخذه معه إلى الحصن فأنزله عنده وأجرى عليه النفقات الكثيرة والتحف وغير ذلك ، وكتب إلى الأفشين يعلمه ، فأرسل إليه أميرين لقبضه ، فنزلا قريباً من الحصن وكتبوا إلى ابن سنباط فقال : أقبنا مكانكما حتى يأتيناكم أمرى . ثم قال لبابك : إنه قد حصل لك هم وضيق من هذا الحصن وقد عزمت على الخروج اليوم إلى الصيد ومعنا بزاة وكلاب ، فان أجببت أن تخرج معنا لتشرح صدرك وتذهب همك فافعل . قال : نعم ! فخرجوا وبعث ابن سنباط إلى الأميرين أن كونوا مكان كذا وكذا في وقت كذا وكذا من النهار ، فلما كانا بذلك الموضع أقبل الأميران بمن معهما من الجنود فأحاطوا ببابك وهرب ابن سنباط ، فلما رأوه جاؤا إليه فقالوا : ترجل عن دابتك ، فقال : ومن أنا ؟ فدكرا أنهما من عند الأفشين ، فترجل حينئذ عن دابته وعليه دراعة بيضاء وخف قصير وفي يده باز ، فنظر إلى ابن سنباط فقال : قبحك الله فهلا طلبت مني من المال ما شئت كنت أعطيتك أكثر مما يعطيك هؤلاء ! ثم أركبوه وأخذوه معهم إلى الأفشين ، فلما اقتربوا منه خرج فتلقيهم وأمر الناس أن يصطفوا صفين ، وأمر بابك أن يترجل فيدخل بين الناس وهو ماش ، ففعل ذلك ، وكان يوماً مشهوداً جداً . وكان ذلك في شوال من هذه السنة . ثم احتفظ به وسجنه عنده . ثم كتب الأفشين إلى المعتصم بذلك فأمره أن يقدم به وبأخيه ، وكان قد مسكه أيضاً . وكان اسم أخى بابك عبد الله ، فتجهز الأفشين بهما إلى بغداد في تمام هذه السنة ففرغت ولم يصل بهما إلى بغداد . وحج بالناس فيها الأمير المتقدم ذكره في التي قبلها .

وفيهما توفي أبو اليمان الحكم بن نافع . وعمر بن حفص بن عياش . ومسلم بن إبراهيم . ويحيى بن صالح الوحاظي . ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين ومائتين

في يوم الخميس ثالث صفر منها دخل الأفشين وصحبته بابك على المعتصم سامرا ، ومعه أيضاً أخو بابك في تجمل عظيم ، وقد أمر المعتصم ابنه هارون الوائلي أن يتلقى الأفشين وكانت أخباره تفد إلى المعتصم في كل يوم من شدة اعتناء المعتصم بأمر بابك ، وقد ركب المعتصم قبل وصول بابك بيومين على البريد حتى دخل إلى بابك وهو لا يعرفه ، فنظر إليه ثم رجع ، فلما كان يوم دخوله عليه تأهب المعتصم واصطف الناس سباطين وأمر بابك أن يركب على فيل ليظهر أمره ويعرفوه ، وعليه قباء ديباج وقلنسوة ممورة مدورة ، وقد هيئوا الفيل وخضبوا أطرافه ولبسوه من الحرير والأمتعة التي تليق به شيئاً كثيراً ، وقد قال فيه بعضهم :

قد خُضِبَ الفيلُ كَمَادَاتِهِ * يَجْمَلُ شَيْطَانُ خُرَاسَانَ
والفيلُ لا يُخْضَبُ أَعْضَاؤُهُ * إلا لذي شأنٍ من الشانِ

ولما أحضر بين يدي المعتصم أمر بقطع يديه ورجليه وجز رأسه وشق بطنه ، ثم أمر بحمل رأسه إلى خراسان وصلب جثته على خشبة بسامرا ، وكان بابك قد شرب الخمر ليلة قتله وهي ليلة الخميس لثلاث عشرة خلت من ربيع الآخر من هذه السنة . وكان هذا الملعون قد قتل من المسلمين في مدة ظهوره - وهي عشرون سنة - مائتي ألف وخمسة وخمسين ألفا وخمسمائة إنسان - قاله ابن جرير - وأسر خلقا لا يحصون ، وكان جملة من استنقذه الأفشين من أسره نحواً من سبعة آلاف وستمائة إنسان ، وأسر من أولاده سبعة عشر رجلاً ، ومن حلائله وحلائل أولاده ثلاثة وعشرين امرأة من الخواتين ، وقد كان أصل بابك من جارية زرية الشكل جداً ، فأل به الحال إلى ما آل به إليه ، ثم أراح الله المسلمين من شره بعد ما افتتن به خلق كثير وجم غفير من العوام الطغام .

ولما قتله المعتصم توج الأفشين وقلده وشاحين من جوهر ، وأطلق له عشرين ألف ألف درهم ، وكتب له بولاية السند ، وأمر الشعراء أن يدخلوا عليه فيمدحوه على ما فعل من الخير إلى المسلمين ، وعلى تحريبه بلاد بابك التي يقال لها البند وتركه إياها قيماناً خراباً . فقالوا في ذلك فأحسنوا ، وكان من جملتهم أبو تمام الطائي وقد أورد قصيدته بتامها ابن جرير وهي قوله :

بَدَّ الْجِلَادُ الْبَدْنَ فَهُوَ دَفِينٌ * مَا إِنَّ بِهَا إِلَّا الْوَحْشُ قَطِينُ
لَمْ يَقْرِهِ هَذَا السِّيفُ هَذَا الصَّبْرُ فِي * هَيْجَاءٍ إِلَّا عَزَّ هَذَا الدِّينُ
قَدْ كَانَ عُدْرَةً سَوْدَدٍ فَانْقَضَتْهَا * بِالسِّيفِ فَحُلَّ الْمَشْرِقُ الْأَفْشِينُ
فَأَعَادَهَا تَعْوِي الثَّعَالِبِ وَسَطَهَا * وَلَقَدْ تَرَى بِالْأَسْرِ وَهْيَ عَرِينُ
هَطَلَتْ عَلَيْهَا مِنْ جَحَايِمِ أَهْلِهَا * دِيمٌ إِمَارَتُهَا طُلَى وَشُؤُونُ
كَانَتْ مِنَ الْمُهْجَاتِ قَبْلَ مَفَازَةٍ * عُسْرًا فَأَضْحَتْ وَهْيَ مِنْهُ مَعِينُ

وفي هذه السنة - أعني سنة ثلاث وعشرين ومائتين - أوقع ملك الروم توفيل بن ميخائيل بأهل ملطية من المسلمين وما والاها ملحمة عظيمة ، قتل فيها خلقا كثيرا من المسلمين ، وأسر مالا يحصون كثرة ، وكان من جملة من أسر ألف امرأة من المسلمات . ومثل بمن وقع في أسره من المسلمين فقطع آذانهم وأنوفهم وشمل أعينهم قبحه الله . وكان سبب ذلك أن بابك لما أحيط به في مدينة البند استوسقت الجيوش حوله وكتب إلى ملك الروم يقول له : إن ملك العرب قد جهز إلى جمهور جيشه ولم يبق في أطراف بلاده من يحفظها ، فإن كنت تريد الغنيمة فانهض سريعا إلى ماحولك من بلاده نخذهما فانك لا تجد أحداً يمانعك عنها . فركب توفيل بمائة ألف وانضاف إليه الحمرة الذين كانوا قد خرجوا في الجبال وقاتلهم إسحاق بن إبراهيم بن مصعب ، فلم يقدر عليهم لأنهم تحصنوا بتلك الجبال فلما قدم ملك الروم صاروا معه على المسلمين فوصلوا إلى ملطية فقتلوا من أهلها خلقا كثيرا

وأُسروا نساءهم ، فلما بلغ ذلك المعتصم انزعج لذلك جداً وصرخ في قصره بالنفير ، ثم نهض من فوره وأمر بتعبئة الجيوش واستدعى القاضي والشهود فأشهدهم أن ما يملكه من الضياع ثلثه صدقة وثلثه لولده وثلثه لمواليه . وخرج من بغداد فمسكراً غربى دجلة يوم الاثنين لليلتين خلتا من جمادى الأولى ووجه بين يديه عجيفاً وطائفة من الأمراء ومعهم خلق من الجيش إعانة لأهل زبطرة ، فأسرعوا السير فوجدوا ملك الروم قد فعل ما فعل وانشمر راجعاً إلى بلاده ، وتفرط الحال ولم يمكن الاستدراك فيه ، فرجعوا إلى الخليفة لأعلامه بما وقع من الأمر ، فقال للأمراء : أى بلاد الروم أمتنع ؟ قالوا : عمورية لم يعرض لها أحد منذ كان الاسلام ، وهى أشرف عندهم من القسطنطينية .

فتح عمورية على يبر الموصى

لما تفرغ المعتصم من بابك وقتله وأخذ بلاده استدعى بالجيوش إلى بين يديه وتجهز جهازاً لم يجهزه أحد كان قبله من الخلفاء ، وأخذ معه من آلات الحرب والآحمال والجمال والقرب والدواب والنفط والخيول والبغال شيئاً لم يسمع بمثله ، وسار إلى عمورية في جحافل أمثال الجبال ، وبعث الأفشين حيدر بن كاوس من ناحية مروج ، وعبي جيوشه تعبئة لم يسمع بمثلهما ، وقدم بين يديه الأمراء المعروفين بالحرب ، فأنتهى في سيره إلى نهر اللسى وهو قريب من طرسوس ، وذلك في رجب من هذه السنة . وقد ركب ملك الروم في جيشه فقصده نحو المعتصم فتقاربا حتى كان بين الجيشين نحو من أربعة فراسخ ، ودخل الأفشين بلاد الروم من ناحية أخرى ، فجاءوا في أثره وضاق ذرعه بسبب ذلك إن هو ناجز الخليفة جاءه الأفشين من خلفه فالتقى عليه فيهلك ، وإن اشتغل بأحدهما وترك الآخر أخذه من خلفه . ثم اقترب منه الأفشين فسار إليه ملك الروم في شزيمة من جيشه واستخاف على بقية جيشه قريباً له فالتقى هو والأفشين في يوم الخميس لخمس بقين من شعبان منها ، فثبت الأفشين في ثأى الحال وقتل من الروم خلقاً وجرح آخرين ، وتغلب على ملك الروم وبلغه أن بقية الجيش قد شردوا عن قرابته وذهبوا عنه وتفرقوا عليه فأسرع الأوبة فاذا نظام الجيش قد انحل ، فغضب على قرابته وضرب عنقه وجاءت الأخبار بذلك كله إلى المعتصم فسره ذلك وركب من فوره وجاء إلى أنقرة ووافاه الأفشين بمن معه إلى هناك ، فوجدوا أهلها قد هربوا منه فتقوا منها بما وجدوا من طعام وغيره ، ثم فرق المعتصم جيشه ثلاث فرق فالمينة عليها الأفشين ، والميسرة عليها أشناس ، والمعتصم في القلب ، وبين كل عسكري فرسخان ، وأمر كل أمير من الأفشين وأشناس أن يجعل لجيشه ميسرة وقلبا ومقدمة وساقة ، وأنهم مهمموا عليه من القرى حرقوه وخرّبوه وأسروا وغنموا ، وسار بهم كذلك قاصداً إلى عمورية ، وكان بينهما وبين مدينة أنقرة سبع مراحل ، فأول من وصل إليها من الجيش أشناس أمير الميسرة ضحوة يوم الخميس لخمس خلون من رمضان

من هذه السنة ، فدار حولها دورة ثم نزل على ميلين منها ، ثم قدم المعتصم صبيحة يوم الجمعة بعده ، فدار حولها دورة ثم نزل قريباً منها ، وقد تحصن أهلها تحصناً شديداً وملؤا أبراجها بالرجال والسلاح ، وهي مدينة عظيمة كبيرة جداً ذات سور منيع وأبراج عالية كبار كثيرة . وقسم المعتصم الأبراج على الأمراء فنزل كل أمير تجاه الموضع الذى أقطعه وعينه له ، ونزل المعتصم قبالة مكان هناك قد أرشد إليه ، أرشده إليه بعض من كان فيها من المسلمين ، وكان قد تنصر عندهم وتزوج منهم ، فلما رأى أمير المؤمنين والمسلمين رجع إلى الأسلام وخرج إلى الخليفة فأسلم وأعلمه بمكان فى السور كان قد هدمه السيل وبني بناء ضعيفاً بلا أساس ، فنصب المعتصم المجانيق حول عمورية فكان أول موضع أنهدم من سورها ذلك الموضع الذى دلم عليه ذلك الأسير ، فبادر أهل البلد فسدوه بالخشب الكبار المتلاصقة فألح عليها المنجنيق فجعلوا فوقها البرادع ليردوا حدة الحجر فلم تغن شيئاً ، وأنهدم السور من ذلك الجانب وتفسخ . فكتب نائب البلد إلى ملك الروم يعلمه بذلك ، وبعث ذلك مع غلامين من قومهم فلما اجتازوا بالجيش فى طريقهما أنكر المسلمون أمرهما فسألوهما من أنهما ؟ فقالا : من أصحاب فلان - لأمير سمويه من أمراء المسلمين - فجعلوا إلى المعتصم فقررها فاذا معهما كتاب مناطس نائب عمورية إلى ملك الروم يعلمه بما حصل لهم من الحصار ، وأنه عازم على الخروج من أبواب البلد بمن معه بفترة على المسلمين ومناجزهم القتال كائناً فى ذلك ما كان . فلما وقف المعتصم على ذلك أمر بالغلابين فخلع عليهما ، وأن يعطى كل غلام منهما بدرة ، فأسلما من فورهما فأمر الخليفة أن يطاف بهما حول البلد وعليهما الخلع ، وأن يوقفا تحت حصن مناطس فينثر عليهما الدراهم والخلع ، ومعهما الكتاب الذى كتب به مناطس إلى ملك الروم فجعلت الروم تلعنهما وتسبهما . ثم أمر المعتصم عند ذلك بتجديد الحرس والاحتياط والاحتفاظ من خروج الروم بفترة ، فضاقت الروم ذرعاً بذلك ، وألح عليهم المسلمون فى الحصار ، وقد زاد المعتصم فى المجانيق والدبابات وغير ذلك من آلات الحرب . ولما رأى المعتصم عمق خندقها وارتفاع سورها ، أعمل المجانيق فى مقاومة السور ، وكان قد غنم فى الطريق غنائم كثيرة جداً ففرقها فى الناس وأمر أن يأكل كل رجل رأساً ويحشى بملء جلده تراباً فيطرحه فى الخندق ، ففعل الناس ذلك فتساوى الخندق بوجه الأرض من كثرة ما طرح فيه من الأغنام ثم أمر بالتراب فوضع فوق ذلك حتى صار طريقاً ممهداً ، وأمر بالدبابات أن توضع فوقه فلم يحوج الله إلى ذلك . وبينما الناس فى الجسر المردوم إذ هدم المنجنيق ذلك الموضع المغيب ، فلما سقط ما بين البرجين سمع الناس هدة عظيمة فظنوا من لم يرها أن الروم قد خرجوا على المسلمين بفترة ، فبعث المعتصم من نادى فى الناس : إنما ذلك سقوط السور . ففرح المسلمون بذلك فرحاً شديداً ، لكن لم يكن ما هدم يسع الخليل والرجال إذا دخلوا . وقوى الحصار وقد وكلت الروم بكل برج من أبراج السور أميراً يحفظه ،

فضعف ذلك الأمير الذي هدمت ناحيته من السور عن مقاومة ما يلقاه من الحصار ، فذهب إلى مناطس فسأله نجدة فامتنع أحد من الروم أن ينجده وقالوا : لا نترك ما نحن موكلون في حفظه . فلما يئس منهم خرج إلى المعتصم ليجمع به . فلما وصل إليه أمر المعتصم المسلمين أن يدخلوا البلد من تلك الثغرة التي قد دخلت من المقاتلة ، فركب المسلمون نحوها فجعلت الروم يشيرون إليهم ولا يقدرّون على دفاعهم ، فلم يلتفت إليهم المسلمون ، ثم تكاثروا عليهم ودخلوا البلد قهراً وتنازع المسلمون إليها يكبرون ، وتفرقت الروم عن أماكنها فجعل المسلمون يقتلونهم في كل مكان حيث وجدوهم ، وقد حشروهم في كنيسة لهم هائلة ففتحوها قسراً وقتلوا من فيها وأحرقوا عليهم باب الكنيسة فاحترقت فأحرقوا عن آخرهم ، ولم يبق فيها موضع محصن سوى المكان الذي فيه النائب ، وهو مناطس في حصن منيع ، فركب المعتصم فرسه وجاء حتى وقف بمحذا الحصن الذي فيه مناطس فناداه المنادي ويحك يا مناطس ! هذا أمير المؤمنين واقف تجاهك . فقالوا : ليس بمناطس ههنا مرتين . فغضب المعتصم من ذلك وولى فتادى مناطس هذا مناطس هذا مناطس . فرجع الخليفة ونصب السلام على الحصن وطلعت الرسل إليه فقالوا له : ويحك انزل على حكم أمير المؤمنين . فتمنع ثم نزل متقلداً سيفاً فوضع السيف في عنقه ثم جرى به حتى أوقف بين يدي المعتصم فضربه بالسوط على رأسه ثم أمر به أن يمشی إلى مضرب الخليفة مهاناً إلى الوطاق الذي فيه الخليفة نازل ، فأوثق هناك . وأخذ المسلمون من عمورية أموالاً لا تحصى ولا توصف فحملوا منها ما أمكن حمله ، وأمر المعتصم بإحراق ما بقي من ذلك ، وإحراق ما هنالك من المجانيق واللبابات وآلات الحرب لئلا يتوكل بها الروم على شيء من حرب المسلمين ، ثم انصرف المعتصم راجعاً إلى ناحية طرسوس في آخر شوال من هذه السنة . وكانت إقامته على عمورية خمسة وعشرين يوماً .

مقتل العباس بن المأمون

كان العباس مع عمه المعتصم في غزوة عمورية ، وكان عجيف بن عنبسة قد ندمه إذ لم يأخذ الخلافة بعد أبيه المأمون بطرسوس حين مات بها ، ولأمره على مبايعته عمه المعتصم ، ولم يزل به حتى أجابه إلى الفتنك بعمه وأخذ البيعة من الأمراء له ، وجيز رجلاً يقال له الحارث السمرقندي وكان نديماً للعباس ، فأخذ له البيعة من جماعة من الأمراء في الباطن ، واستوثق منهم وتقدم إليهم أنه يلي الفتنك بعمه ، فلما كانوا بدرب الروم وهم قاصدون إلى أنقرة ومنها إلى عمورية ، أشار عجيف على العباس أن يقتل عمه في هذا المضيق ويأخذ له البيعة ويرجع إلى بغداد ، فقال العباس : إني أكره أن أعطل على الناس هذه الغزوة ، فلما فتحوا عمورية واشتغل الناس بالغنائم أشار عليه أن يقتله فوعده مضيق الدرب إذا رجعوا ، فلما رجعوا فطن المعتصم بالخبر فأمر بالاحتفاظ وقوة الحرس وأخذ بالحزم

واجتهد بالعزم ، واستدعى بالحارث السمرقندي فاستقره فأقر له بجملة الأمر ، وأخذ البيعة للعباس بن المأمون من جماعة من الأمراء أسامهم له ، فاستكثرهم المعتصم واستدعى بابن أخيه العباس فقيد ، وغضب عليه وأهانته ، ثم أظهر له أنه قد رضى عنه وعفا عنه ، فأرسله من القيد وأطلق سراحه ، فلما كان من الليل استدعاه إلى حضرته في مجلس شرابه واستغلى به حتى سقاء واستحكاكه عن الذي كان قد دبره من الأمر ، فشرح له القضية ، وذكر له القصة ، فلما ذكر الحارث السمرقندي . فلما أصبح استدعى بالحارث فأخلاه وسأله عن القضية ثانياً فذكرها له كما ذكرها أول مرة ، فقال : وبمحك إني كنت حريصاً على ذلك فلم أجِدْ إلى ذلك سبيلاً بصديقك إياي في هذه القصة . ثم أمر المعتصم حينئذ بابن أخيه العباس فقيد وسلم إلى الأفشين ، وأمر بهجيف وبقية الأمراء الذين ذكروهم فاحتفظ عليهم ، ثم أخذهم بأنواع الدنمات التي اقترحها لهم ، فقتل كل واحد منهم بنوع لم يقتل به الآخر ، ومات العباس بن المأمون بمنسج فدفن هناك ، وكان سبب موته أنه أجاعه جوعاً شديداً ، ثم جىء بأكل كثير فأكل منه وطلب الماء فنع منه حتى مات ، وأمر المعتصم بلمنه على المنبر وسماه الامين . وقتل جماعة من ولد المأمون أيضاً

وحج بالناس فيها محمد بن داود . وفيها توفي من الأعيان . بابك الخرمي قتل وصلب كما قدمنا . و خالد بن خراش وعبد الله بن صالح كاتب الليث بن سعد . ومحمد بن سنان العوفي . وموسى ابن إسماعيل . ثم دخلت سنة أربع وعشرين ومائتين

فيها خرج رجل بأمل طبرستان يقال له مازيار بن قارن بن يزداهرمز ، وكان لا يرضى أن يدفع الخراج إلى نائب خراسان عبد الله بن طاهر بن الحسين ، بل يبعثه إلى الخليفة ليقبضه منه ، فيبعث الخليفة من يتلقى الحمل إلى بعض البلاد ليقبضه منه ثم يدفعه إلى ابن طاهر ، ثم آل أمره إلى أن وثب على تلك البلاد وأظهر الخالفة للمعتصم . وقد كان المازيار هذا ممن يكاتب بابك الخرمي ويعده بالنصر . ويقال إن الذي قوى رأس مازيار على ذلك الأفشين ليعجز عبد الله بن طاهر عن مقاومته فيؤليه المعتصم بلاد خراسان مكانه ، فبعث إليه المعتصم محمد بن إبراهيم بن مصعب - أخا إسحاق بن إبراهيم - في جيش كثيف فجرت بينهم حروب طويلة استقصاها ابن جرير ، وكان آخر ذلك أسر المازيار وحمله إلى ابن طاهر ، فاستقره عن الكتب التي بعثها إليه الأفشين فأقر بها ، فأرسله إلى المعتصم وما معه من أمواله التي احتفظت للخليفة ، وهي أشياء كثيرة جداً ، من الجواهر والذهب والنياب . فلما أوقف بين يدي الخليفة سأله عن كتب الأفشين إليه فأنكرها ، فأمر به فضرب بالسياط حتى مات وصلب إلى جانب بابك الخرمي على جسر بغداد ، وقتل عيون أصحابه وأتباعه . وفيها تزوج الحسين بن الأفشين بآترجة بنت أشناس ودخل بها في قصر المعتصم بسامرا في جمادى ،

وكان عرساً حافلاً ، ولله المعتصم بنفسه ، حتى قيل إنهم كانوا يخضبون لحا العامة بالغالية . وفيها خرج منكجور الأشروسى قرابة الأفشين بأرض أذربيجان وخلع الطاعة ، وذلك أن الأفشين كان قد استنابه على بلاد أذربيجان حين فرغ من أمر بابك ، فظفر منكجور بال عظيم مخزون لبابك فى بعض البلدان ، فأخذته لنفسه وأخفاه عن المعتصم ، وظهر على ذلك رجل يقال له عبد الله بن عبد الرحمن ، فكتب إلى الخليفة فى ذلك فكتب منكجور يكذبه فى ذلك ، وهم به ليقتله فامتنع منه بأهل أردبيل . فلما تحقق الخليفة كذب منكجور بعث إليه بغا الكبير فخار به وأخذته بالأمان وجاء به إلى الخليفة . وفيها مات مناطس الرومى نائب عمورية ، وذلك أن المعتصم أخذته معه أسيراً فاعتقله بسامرا حتى مات فى هذه السنة . وفى رمضان منها مات إبراهيم بن المهدي بن المنصور عم المعتصم ويعرف بابن شكله ، وكان أسود اللون ضخماً فصيحاً فاضلاً ، قال ابن ماكولا : وكان يقال له الصيى - يعنى لسواده - وقد كان ترجمه ابن عساكر ترجمة حافلة ، وذكر أنه ولى إمرة دمشق نيابة عن الرشيد أخيه مدة سنتين ثم عزله عنها ثم أعاده إليها الثانية فأقام بها أربع سنين . وذكر من عدله وصرامته أشياء حسنة ، وأنه أقام للناس الحج سنة أربع وثمانين ، ثم عاد إلى دمشق ، ولما بويع بالخلافة فى أول خلافة المأمون سنة ثنتين ومائتين قاتله الحسن بن سهل نائب بغداد ، فهزمه إبراهيم هذا ، فقصده حميد الطوسى فهزم إبراهيم واختفى إبراهيم ببغداد حين قسما المأمون ، ثم ظفر به المأمون فعفا عنه وأكرمه . وكانت مدة ولايته بالخلافة سنة وإحدى عشر شهراً واثنا عشر يوماً ، وكان بدء اختفائه فى أواخر ذى الحجة سنة ثلاث ومائتين ، فكث تخفياً ست سنين وأربعة أشهر وعشراً . قال الخطيب : كان إبراهيم بن المهدي هذا وافر الفضل غزير الأدب واسع النفس سخى الكف ، وكان معروفًا بصناعة الغناء ، حافظاً فيها وقد قل المال عليه فى أيام خلافته ببغداد فألح الأعراب عليه فى أعطياتهم فجعل يسوف بهم . ثم خرج إليهم رسوله يقول : إنه لا مال عنده اليوم ، فقال بعضهم : فليخرج الخليفة إلينا فليمن لاهل هذا الجانب ثلاثة أصوات ، ولأهل هذا الجانب ثلاثة أصوات . فقال فى ذلك دعبل شاعر المأمون يذم إبراهيم بن المهدي :

يامعشر الأعراب لا تغفلوا * خذوا عطايكم ولا تسخطوا
فسوف يعطيكم حنينة * لا تدخل الكيس ولا تربط
والمعصديات لقوادكم * وما بهذا أحد يعبط
فهكذا يرزق أصحابه * خليفة مصحفه الربط

وكتب إلى ابن أخيه المأمون حين طال عليه الاختفاء : ولئى النار محكم فى القصاص والعفو أقرب للتقوى ، وقد جعل الله أمير المؤمنين فوق كل عفو ، كما جعل كل ذى نسب دونه ، فان عفا

فبفضله وإن عاقب فبحقه . فوقع المأمون في جواب ذلك . القدرة تذهب الحفيظة وكفى بالدم إنابة وعفو الله أوسع من كل شيء . ولما دخل عليه أنشأ يقول :

إن أكن مذنباً فخطي أخطأت * فنع عنك كثرة التائب
قل كما قال يوسف لبني يعقوب * ب لمّا أتوه لا تريب

فقال المأمون : لا تريب . وروى الخطيب أن إبراهيم لما وقف بين يدي المأمون شرع يؤنبه على ما فعل فقال : يا أمير المؤمنين حضرت أبي وهو جدك وقد أتى برجل ذنبه أعظم من ذنبي فأمر بقتله فقال مبارك بن فضالة : يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تؤخر قتل هذا الرجل حتى أحدثك حديثاً ، فقال : قل . فقال : حدثني الحسن البصري عن عمران بن حصين أن رسول الله (ص) قال : « إذا كان يوم القيامة نادى مناد من بطنان العرش : ليقم العافون عن الناس من الخلفاء إلى أكرم الجزاء ، فلا يقوم إلا من عفا . فقال المأمون : قد قبلت هذا الحديث بقوله وعفوت عنك يا عم . وقد ذكرنا في سنة أربع ومائتين زيادة على هذا . وكانت أشعاره جيدة بليغة سامحة الله . وقد ساق من ذلك ابن عساکر جانباً جيداً .

كان مولد إبراهيم هذا في مستهل ذي القعدة سنة ثنتين وستين ومائة ، وتوفي يوم الجمعة لسبع خلون من هذه السنة عن ثنتين وستين سنة .

وفيهما توفي سعيد بن أبي مریم المصري . وسليمان بن حرب . وأبو معمر المقعد . وعلي بن محمد المدائني الأخباري أحد أئمة هذا الشأن في زمانه . وعمر بن مرزوق شيخ البخاري . وقد تزوج هذا الرجل ألف امرأة . وأبو عبيد القاسم بن سلام البغدادي أحد أئمة اللغة والفقه والحديث والقرآن والأخبار وأيام الناس ، له المصنفات المشهورة المنتشرة بين الناس ، حتى يقال إن الامام أحمد كتب كتابه في الغريب بيده ، ولما وقف عليه عبيد الله بن طاهر رتب له في كل شهر خمسمائة درهم ، وأجراها على ذريته من بعده . وذكر ابن خلكان أن ابن طاهر استحسّن كتابه وقال : ما ينبغي لمقل بمثل صاحبه على تصنيف هذا الكتاب أن نحوج صاحبه إلى طلب المعاش . وأجرى له عشرة آلاف درهم في كل شهر . وقال محمد بن وهب المسعودي : مكثت في تصنيف هذا الكتاب أربعين سنة . وقال هلال بن المعلى الرقي : من الله على المسلمين بهؤلاء الأربعة : الشافعي تفقه في الفقه والحديث ، وأحمد بن حنبل في الحنفة . ويحيى بن معين في نفي الكذب . وأبو عبيد في تفسير غريب الحديث . ولولا ذلك لافتحم الناس المهالك .

وذكر ابن خلكان أن أبا عبيد ولي القضاء بطرسوس ثمانين سنة ، وذكر له من العبادة والاجتهاد في العبادة شيئاً كثيراً . وقد روى الغريب عن أبي زيد الأنصاري والأصمعي وأبي

عبيدته معمر بن المثنى ، وابن الأعرابي ، والفراء والكسائي وغيرهم . وقال إسحاق بن راهويه : نحن محتاج إليه وهو لا يحتاج إلينا . وقدم بغداد وجمع الناس منه ومن تصانيفه . وظل إبراهيم الحربي : كان كأنه جبل تنفخ فيه روح ، يحسن كل شيء . وقال أحمد بن كامل القاضى : كان أبو عبيد قاضياً ديناراً بانياً عالماً متقناً فى أصناف علوم أهل الإيمان والافتقار والاسلام : من القرآن والفقه والمروية والأحاديث ، حسن الرواية صحيح النقل ، لا أعلم أحداً طعن عليه فى شيء من علمه وكتبه ، وله كتاب الأموال وكتاب فضائل القرآن ومعانيه ، وغير ذلك من الكتب المنتفع بها رحمه الله . توفى فى هذه السنة قاله البخارى . وقيل فى التى قبلها بمكة ، وقيل بالمدينة . وله سبع وستون سنة . وقيل جاوز السبعين فافقه أعلم .

ومحمد بن عثمان أبو الجاهر الدمشقى الكفرتوتى أحد مشايخ الحديث . ومحمد بن الفضل أبو النعمان السدوسى الملقب بمارم شيخ البخارى ومحمد بن عيسى بن الطباع . ويزيد بن عبد ربه الجرجسى الحمصى شيخها فى زمانه .

ثم دخلت سنة خمس وعشرين ومائتين

ففىها دخل بفا الكبير ومعه منكجور قد أعطى الطاعة بالأمان . وفىها عزل المعتصم جعفر بن دينار عن نيابة اليمن وغضب عليه وولى اليمن أيتاخ . وفىها وجه عبد الله بن طاهر بالمزيار فدخل بغداد على بغل بالكاف فضر به المعتصم بين يديه أربع مائة وخمسين سوطاً ثم سقى الماء حتى مات ، وأمر بإصليه إلى جنب بابك ، وأقر فى ضربه أن الأفشين كان يكتبه ويحسن له خلع الطاعة ، فغضب المعتصم على الأفشين وأمر بسجنه ، فبنى له مكان كالمنارة من دار الخلافة تسمى الكوة ، إنما تسمعه فقط ، وذلك لما تحقق أنه يريد مخالفته والخروج عليه ، وأنه قد عزم على الذهاب لبلاد الخزر ليستجيش بهم على المسلمين فعاجله الخليفة بالقبض عليه قبل ذلك كله ، وعقد له المعتصم مجلساً فيه قاضيه أحمد ابن أبى دؤاد المعتزلى ، ووزيره محمد بن عبد الملك بن الزيات ، ونايبه إسحاق بن إبراهيم بن مصعب ، فاتهم الأفشين فى هذا المجلس بأشياء تدل على أنه باقى على دين أجداده من الفرس . منها أنه غير مختنن فاعتذر أنه يخاف ألم ذلك ، فقال له الوزير - وهو الذى كان يناظره من بين القوم - فأنت تطاعن بالرماح فى الحروب ولا تخاف من طعنها وتخاف من قطع قلعة بيدك ؟ ومنها أنه ضرب رجلين إماماً ومؤذناً كل واحد ألف سوط لأنهما هدمتا بيت أصنام فأنخذاه مسجداً . ومنها أنه عنده كتاب كليله ودمنه مصوراً فيه الكفر وهو محلى بالجواهر والذهب ، فاعتذر أنه ورثه من آبائهم . واتهم بأن الأعاجم يكتبونه وتكتب إليه فى كتبها : أنت إله الآلهة من العبيد ، وأنه يقرم على ذلك . فجعل يستنر بأنه أجرام على ما كانوا يكتبون به أباه وأجداده ، وخاف أن يأمرهم بترك ذلك فينضع عندهم

قال له الوزير : ويحك فإذا أبقيت لفرعون حين قال : أنا ربكم الأعلى ؟ وأنه كان يكتب المازيار بأن يخرج عن الطاعة وأنه في ضيق حتى ينصر دين المجوس الذي كان قديماً ويظهره على دين العرب ، وأنه كان يستطيع المنخقة على المذبوحة ، وأنه كان في كل يوم أربعاء يستدعى بشاة سوداء فيضربها بالسيف نصفين ويمشي بينهما ثم يأكلها ، فمذ ذلك أمر المعتصم بغا الكبير أن يسجنه مهاتاً ذليلاً فجعل يقول : إني كنت أتوقع منكم ذلك .

وفي هذه السنة حل عبد الله بن طاهر الحسن بن الأفشين وزوجته أترجة بنت أشناس إلى سامرا . وحج بالناس فيها محمد بن داود .

وفيهما توفي من الأعيان أصبغ بن الفرج ، وسعدويه ، ومحمد بن سلام البيكندی شيخ البخاري ، وأبو عمر الجرمي . وأبودلف العجلي القمي الأمير أحد الأجداد .

وسعيد بن مسعدة

أبو الحسن الأخفش الأوسط البليخي ثم البصري النحوي ، أخذ النحو عن سيبويه وصنف كتباً كثيرة منها كتاب في معاني القرآن ، وكتاب الأوسط في النحو وغير ذلك ، وله كتاب في العروض زاد فيه بحر الخبب على الخليل ، وسمى الأخفش لصغر عينيه وضعف بصره ، وكان أيضاً أدلع ، وهو الذي لا يغم شفتيه على أسنانه ، كان أولاً يقال له الأخفش الصغير بالنسبة إلى الأخفش الكبير ، أبي الخطاب عبد الحميد بن عبد الحميد المجرى ، شيخ سيبويه وأبي عبيدة ، فلما ظهر على بن سليمان ولقب بالأخفش أيضاً صار سعيد بن مسعدة هو الأوسط ، والمجرى الأكبر ، وعلى ابن سليمان الأصغر . وكانت وفاته في هذه السنة ، وقيل سنة إحدى وعشرين ومائتين .

الجرمي النحوي

وهو صالح بن إسحاق البصري ، قدم بغداد وناظر بها الفراء ، وكان قد أخذ النحو عن أبي عبيدة وأبي زيد والأصمعي وصنف كتباً منها الفرخ - يعني فرخ كتاب سيبويه - وكان قهها فاضلاً نحوياً بارعاً علماً بالغة حافظاً لها ، دينا ورعاً حسن المنهج ، صحيح الاعتقاد وروى الحديث . ذكره ابن خلكان وروى عنه المبرد ، وذكره أبو نعيم في تاريخ أصبهان .

ثم دخلت سنة ست وعشرين ومائتين

في شعبان منها توفي الأفشين في الحبس فأمر به المعتصم فصلب ثم أحرق وفدى رماده في دجلة واختيط على أمواله وحواصله فوجدوا فيها أصناماً مكللة بنهب وجواهر ، وكتباً في فضل دين المجوس وأشياء كثيرة كان ينهم بها ، تدل على كفره وزندقته ، وتحقق بسببها ما ذكر عنه من الانبعاث إلى

دين آباءه المجوس . وحج بالناس فيها محمد بن داود .

وفيهما توفي إسحاق القروي . وإسماعيل بن أبي أوس . ومحمد بن داود صاحب التفسير . وغسان
ابن الربيع . ويحيى بن يحيى التميمي شيخ مسلم بن الحجاج . ومحمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين

وأبو دلف العجلي

عيسى بن إدريس بن معقل بن عمير بن شيخ بن معاوية بن خزاعي بن عبد العزيز بن دلف
ابن جشم بن قيس بن سعد بن عجل بن لحيم الأمير أبو دلف العجلي أحد قواد المأمون والمعتصم وإليه
ينسب الأمير أبو نصر بن ماكولا ، صاحب كتاب الاكمال . وكان القاضي جلال الدين خطيب
دمشق القزويني يزعم أنه من سلالة ، ويذكر نسبه إليه ، وكان أبو دلف هذا كريماً جواداً ممدحاً ،
قد قصده الشعراء من كل أوب ، وكان أبو تمام الطائي من جملة من يغشاه ويستمنح نداه ، وكانت
لديه فضيلة في الأدب والفناء ، وصنف كتباً منها سياسة الملوك ، ومنها في الصيد والنبزاة . وفي السلاح
وغير ذلك . وما أحسن ما قال فيه بكر بن النطاع الشاعر :

يا طالباً للكيماو وعلمه * مدح ابن عيسى الكيماو الأعظم

لوم يكن في الأرض إلا درهم * ومدحتك لا تأك ذلك الدرهم

فيقال : إنه أعطاه على ذلك عشرة آلاف درهم ، وكان شجاعاً فائقاً ، وكان يستدين ويعطى ،
وكان أبوه قد شرع في بناء مدينة الكرخ فمات ولم يتمها فأتىها أبو دلف ، وكان فيه تشيع ، وكان يقول :
من لم يكن متغالياً في التشيع فهو ولد زنا . فقال له ابنه دلف : لست على مذهبك يا أبة . فقال :
والله لقد وطئت أملك قبل أن أشتريها ، فهذا من ذاك . وقد ذكر ابن خلكان أن ولده رأى في المنام
بعد وفاة أبيه أن آتياً أنه فقال : أجب الأمير ! قال فتمت معه فأدخلني داراً وحشة وعرة سوداء
الحيطان مغلقة السقوف والأبواب . ثم أصدمني في درج مهاثم أدخلني غرفة ، وإذا في حيطانها
أثر النيران ، وفي أرضها أثر الرماد ، وإذا بأبي فيها وهو عريان واضع رأسه بين ركبتيه فقال لي
كالستفهم : أدلف ؟ فقلت دلف . فأنشأ يقول :

أبلغن أهلنا ولا تخف عنهم * ما لقينا في البرزخ الخناق

قد سئلنا عن كل ما قد فعلنا * فأرحموا وحشتي وما قد ألقى

ثم قال : أفهمت ؟ قلت : نعم ! ثم أنشأ يقول :

فلو أنا إذا متنا نرُكنا * لسكان الموت راحة كل حي

ولكننا إذا متنا بُعِثنا * ونسأل بعده عن كل شيء

ثم قال : أفهمت ؟ قلت : نعم . وانتهت .

ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومائتين

فيها خرج رجل من أهل الثفور بالشام يقال له أبو حرب المبرقع البماقي ، تغلمع الطاعة ودعا إلى نفسه . وكان سبب خروجه أن رجلاً من الجند أراد أن ينزل في منزله عند امرأته في غيبته فلانته المرأة فضربها الجندى في يدها فأثرت الضربة في معصمها . فلما جاء بعلمها أبو حرب أخبرته فذهب إلى الجندى وهو غافل فقتله ثم تحصن في رؤس الجبال وهو مبرقع ، فاذا جاء أحد دعاه إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويذم من السلطان ، فاتبعه على ذلك خلق كثير من الحرابين وغيرهم ، وقالوا : هذا هو السفياقي المذكور أنه يملك الشام ، فاستفحل أمره جداً ، واتبعه نحو من مائة ألف مقاتل ، فبعث إليه المعتصم وهو في مرض موته جيشاً نحواً من مائة ألف مقاتل ، فلما قدم أمير المعتصم بمن معه وجدهم أمة كثيرة وطائفة كبيرة ، قد اجتمعوا حول أبي حرب ، فخشى أن يواقعهم والحالة هذه ، فانتظر إلى أيام حرث الأراضى فتفرق عنه الناس إلى أراضهم ، وبقي في شردمة قليلة فناهضه فأسرهم وتفرق عنه أصحابه ، وحمله أمير السرية وهو رجاى بن أيوب حتى قدم به على المعتصم ، فلامه المعتصم في تأخره عن مناجزته أول ما قدم الشام ، فقال : كان معه مائة ألف أو يزيدون ، فلم أزل أطاوله حتى أمكن الله منه ، فشكره على ذلك .

وفيها في يوم الخميس الثامن عشر من ربيع الأول من هذه السنة كانت وفاة أبي إسحاق محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور .

وهذه ترجمته

هو أمير المؤمنين أبو إسحاق محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور العباسي يقال له المثنى لأنه ثامن ولد العباس ، وأنه ثامن الخلفاء من ذريته ، ومنها أنه فتح ثمان فتوحات ، ومنها أنه أقام في الخلافة ثمانى سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام . وقيل ويومين ، وأنه ولد سنة ثمانين ومائة في شعبان وهو الشهر الثامن من السنة ، وأنه توفي وله من العمر ثمانية وأربعون سنة ، ومنها أنه خلف ثمانية بنين وثمانى بنات ، ومنها أنه دخل بغداد من الشام في مستهل رمضان سنة ثمان عشرة ومائتين بعد استكمال ثمانية أشهر من السنة بعد موت أخيه المأمون ، قالوا : وكان أمياً لا يحسن الكتابة ، وكان سبب ذلك أنه كان يتردد معه إلى الكتاب غلام فمات الغلام فقال له أبوه الرشيد : ما فعل غلامك ؟ قال : مات فاستراح من الكتاب ، فقال الرشيد : وقد بلغ منك كراهه الكتاب إلى أن تجعل للموت راحة منه ؟ والله يا بني لا تنذهب بعد اليوم إلى الكتاب . فتركه فكان أمياً ، وقيل بل كان يكتب كتابة ضعيفة . وقد أسند الخطيب من طريقه عن آبائه حديثين منكرين أحدهما في ذم بني أمية ومدح بني العباس من الخلفاء . والثاني في النهي عن الحجامة يوم الخميس . وذكر بسنده

عن المنعم أن ملك الروم كتب إليه كتاباً يتهده فيه فقال للكتاب اكتب : قد قرأت كتابك وفهمت خطابك والجواب ما ترى لا ما تسمع ، وسيعلم الكفار لمن عقي الدار . قال الخطيب : غزا المنعم بلاد الروم في سنة ثلاث وعشرين ومائتين ، فأنتكى نكاية عظيمة في العدو ، وفتح عمورية وقتل من أهلها ثلاثين ألفاً وسبى مثلهم ، وكان في سببه ستون بطريقاً ، وطرح النار في عمورية في سائر نواحيها فأحرقها وجاء بنائها إلى العراق وجاء بيابها أيضاً معه وهو منصوب حتى الآن على أحد أبواب دار الخلافة مما يلي المسجد الجامع في القصر . وروى عن أحمد بن أبي دؤاد القاضي أنه قال : ربما أخرج المنعم ساعده إلى وقال لي : عض يا أبا عبد الله بكل ماتقدر عليه ، فأقول إنه لا تطيب نفسى يا أمير المؤمنين أن أعض ساعدك ، فيقول : إنه لا يضرني . فأكدم بكل ما أقدر عليه فلا يؤثر ذلك في يده . ومر يوماً في خلافة أخيه بمخيم الجند فإذا امرأة تقول : ابني ابني ، فقال لها : ما شأنك ؟ قالت : ابني أخذه صاحب هذه الخيمة . فجاء إليه المنعم فقال له : أطلق هذا الصبي ، فامتنع عليه قبض على جسده بيده فسمع صوت عظامه من تحت يده ، ثم أرسله فسقط ميتاً وأمر بأخراج الصبي إلى أمه . ولما ولي الخلافة كان شهماً وله همة عالية في الحرب ومهابة عظيمة في القلوب ، وإنما كانت نهمة في الاتفاق في الحرب لاني البناء ولا في غيره .

وقال أحمد بن أبي دؤاد : تصدق المنعم على يدي وذهب ما قيمته مائة ألف ألف درهم . وقال غيره : كان المنعم إذا غضب لا يبالي من قتل ولا ما فعل . وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي : دخلت يوماً على المنعم وعنده قينة له تفنيه فقال لي : كيف تراها ؟ قلت له : أراها تقهره بحنق ، ونجمله برفق ، ولا تخرج من شيء إلا إلى أحسن منه ، وفي صوتها قطع شذور ، أحسن من نظم الدر على النحور . فقال : والله لصفئك لها أحسن منها ومن غنائها . ثم قال لابنه هارون الوائق ولي عهده من بعده : اسمع هذا الكلام . وقد استخدم المنعم من الأتراك خلقاً عظيماً كان له من الممالك الترك قريب من عشرين ألفاً ، وملك من آلات الحرب والدواب ما لم يتفق لغيره . ولما حضرته الوفاة جعل يقول [حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون] وقال : لو علمت أن عمرى قصير ما فعلت . وقال : إني أحدث هذا الخلق ، وجعل يقول : ذهبت الخيل فلا حيلة . وروى عنه أنه قال في مرض موته : اللهم إني أخافك من قبلي ولا أخافك من قبلك ، وأرجوك من قبلك ولا أرجوك من قبلي .

كانت وفاته بسر من رأى في يوم الخميس ضحى سبعة عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من هذا السنة - أعني سنة سبع وعشرين ومائتين - وكان مولده يوم الاثنين لعشر خلون من شعبان سنة ثمانين ومائة ، وولى الخلافة في رجب سنة ثمان عشرة ومائتين ، وكان أبيض أصهب اللحية

طويلها مروجاً مشرب اللون ، أمه أم ولد اسمها ماردة ، وهو أحد أولاد سنة من أولاد الرشيد ، كل منهم اسمه محمد ، وهم أبو إسحاق محمد المعتصم ، وأبو العباس محمد الأمين ، وأبو عيسى محمد ، وأبو احمد ، وأبو يعقوب ، وأبو أيوب . قاله هشام بن الكلبي . وقد ولي الخلافة بعده ولده هارون الواثق . وقد ذكر ابن جرير أن وزيره محمد بن عبد الملك بن الزيات رثاه فقال :

قَدْ فَلَتْ إِذْ غَيَّبُوكَ وَاصْطَفَيْتَ * عَلَيْكَ أَيْدِي التُّرَابِ وَالطِّينِ

إِذْ هَبْتُ فَتَعَمُّ الْحَفِيطُ كُنْتُ عَلَى الْإِ * دُنْيَا وَنِعَمُ الظَّهِيرُ لِلَّذِينَ

لَا جَبَرُ اللَّهُ أُمَّةً قَدَّتْ * مِنْكَ إِلَّا بِمَثَلِ هَارُونَ

وقال مروان بن أبي الجنوب - وهو ابن أخت حفصة - :

أَبُو إِسْحَاقَ مَا تَ ضَحَى فِتْنًا * وَأَمْسَيْنَا بِهَارُونَ حِينَا

لَنْ جَاءَ الْحَيْسُ بِمَا كَرِهْنَا * لَقَدْ جَاءَ الْحَيْسُ بِمَا هَوَيْنَا

خلافة هارون الواثق بن المعتصم

بويح له بالخلافة قبل موت أبيه يوم الاربعاء لثمان خلون من ربيع الأول من هذه السنة - أغنى سنة سبع وعشرين ومائتين - ويكنى أبا جعفر ، وأمّه أم ولد رومية يقال لها قراطيس ، وقد خرجت في هذه السنة قاصدة الحج فماتت بالحيرة ودفنت بالكوفة في دار داود بن عيسى ، وذلك لأربع خلون من ذي القعدة من هذه السنة ، وكان الذي أقام للناس الحج فيها جعفر بن المعتصم وفيها توفي ملك الروم توفيل بن ميخائيل ، وكانت مدة ملكه ثلثي عشرة سنة ، فملك الروم بعده امرأته تدور . وكان ابنها ميخائيل بن توفيل صغيراً . وفيها توفي :

بشر الحافي الزاهد المشهور

وهو بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال بن ماهان بن عبد الله المروزي أبو نصر الزاهد المعروف بالحافي ، نزيل بغداد . قال ابن خلكان : وكان اسم جده عبد الله الفيور ، أسلم على يدي علي بن أبي طالب . قلت : وكان مولده ببغداد سنة خمسين ومائة ، وسمع بها شيئاً كثيراً من حماد بن زيد ، وعبد الله بن المبارك ، وابن مهدي ، ومالك ، وأبي بكر بن عياش ، وغيرهم . وعنه جماعة منهم أبو خيثمة ، وزهير بن حرب ، وسري السقطي ، والعباس بن عبيد العظيم ، ومحمد بن حاتم . قال محمد بن سعيد : سمع بشر كثيراً ثم اشتغل بالعبادة واعتزل الناس ولم يحدث ، وقد أثنى عليه غير واحد من الأئمة في عبادته وزهادته وورعه ونسكه وتقشفه . قال الأمام أحمد يوم بلغه موته : لم يكن له نظير إلا طاهر بن عبيد قيس ، ولو تزوج لثم أمره . وفي رواية عنه أنه قال : ما ترك بعده مثله . وقال إبراهيم الحربي : ما أخرجت بغداد أئمة عقلائه ، ولا أحفظ لسانه منه ، ما عرف له غيبة

للسلم ، وكان في كل شجرة منه عقل . ولو قسم عقله على أهل بغداد لصاروا عقلاء وما نقص من عقله شيء . وذكر غير واحد أن بشراً كان شاطراً في بده أمره ، وأن سبب توبته أنه وجد رقعة فيها اسم الله عز وجل في أتون حمام فرفعها ورفع طرفه إلى السماء وقال : سيدي اسمك ههنا ملق يداس ! ثم ذهب إلى عططار فاشترى بدرهم غالية وضخ تلك الرقعة منها ووضعها حيث لا تتال ، فاحيي الله قلبه وألهمه رشده وصار إلى ما صار إليه من العبادة والزهادة .

ومن كلامه : من أحب الدنيا فليتيأ للذل . وكان بشرياً كل الخبز وحده قليل له : أما لك آدم ؟ فقال : بلى أذكر العافية فأجعلها أدماً . وكان لا يلبس نعلاً بل يمشي حافياً ، فجاء يوماً إلى باب فطرقة قليل من ذا ؟ فقال : بشر الحافي . فقالت له جارية صغيرة : لو اشترى نعلاً بدرهم لذهب عنه اسم الحافي . قالوا : وكان سبب تركه النعل أنه جاء مرة إلى أحداء فطلب منه شراً كالنعله فقال : ما أكثر كلفتكم يا فقراء على الناس ؟ ! فطرح النعل من يده وخلع الأخرى من رجله وحلف لا يلبس نعلاً أبداً .

قال ابن خلكان : وكانت وفاته يوم عاشوراء ، وقيل في رمضان ببغداد ، وقيل بمر . قلت : الصحيح ببغداد في هذه السنة ، وقيل في سنة ست وعشرين والأول أصح والله أعلم . وحين مات اجتمع في جنازته أهل بغداد عن بكرة أبيهم ، فأخرج بعد صلاة الفجر فلم يستقر في قبره إلا بعد العتمة . وكان على المدائني وغيره من أئمة الحديث يصيح بأعلا صوته في الجنازة : هذا والله شرف الدنيا قبل شرف الآخرة . وقد روى أن الجن كانت تتوح عليه في بيته الذي كان يسكنه . وقد رآه بعضهم في المنام فقال : ما فعل الله بك ؟ فقال غفر لي ولكل من أحبنى إلى يوم القيامة . وذكر الخطيب أنه كان له أخوات ثلاث وهن : حجة . ومضفة ، وزبدة . وكلهن عابدات زاهدات مثله وأشد ورعاً أيضاً . ذهبت إحداهن إلى الإمام أحمد بن حنبل فقالت : إني ربما طغى السراج وأنا أغزل على ضوء القمر فهل على عند البيع أن أميز هذا من هذا ؟ فقال : إن كان بينهما فرق فيبزي للمشتري . وقالت له مرة إحداهن : ربما تمر بنا مشاعل بني طاهر في الليل ونحن نغزل فنغزل الطاق والطاقين والطاقات فخلصني من ذلك . فأمرها أن تتصدق بذلك الغزل كله لما اشتبه عليها من معرفة ذلك المقدار . وسألته عن أنين المريض أفييه شكوى ؟ قال لا ! إنما هو شكوى إلى الله عز وجل . ثم خرجت فقال لابنه عبد الله : يا بني اذهب خلفها فاعلم لي من هذه المرأة ؟ قال عبد الله : فذهبت وراءها فإذا هي قد دخلت دار بشر ، وإذا هي أخته حجة .

وروى الخطيب أيضاً عن زبدة قالت : جاء ليلة أخى بشر فدخل برجله في الدار وبقيت

الأخرى خارج الدار ، فاستمر كذلك ليلته حتى أصبح ، فقيل له فم تفكرت ليلتك ؟ فقال :
تفكرت في بشر النصراني وبشر اليهودى وبشر المجوسى وفى نفسى لأن اسمى بشر ، فقلت فى
نفسى : ما الذى سبق لى من الله حتى خصنى بالاسلام من بينهم ؟ فتفكرت فى فضل الله على وحدته
أن هدانى للاسلام ، وجعلنى ممن خصه به ، وألبسنى لباس أحبابه . وقد ترجمه ابن عساكر فأنطب
وأطيب وأطال من غير ملال ، وقد ذكر له أشعاراً حسنة ، وذكر أنه كان يتمثل بهذه الأبيات :

تمأق القذى فى الماء لا تستطيعه • وتكرع من حوض الذنوب فتشرب
وتؤثر من أكل الطعام أذنه • ولا تذكر المختار من أين يكسب
وترقد يامسكين فوق نمارق • وفى حشوها نازع عليك تلهب
فحتى متى لا تستفيق جهالة • وأنت ابن سبعين بدينك تلهب

ومن توفى فيها أحمد بن يونس . وإسماعيل بن عمرو البجلي . وسعيد بن منصور صاحب السنن
المشهوره التى لا يشاركه فيها إلا القليل . ومحمد بن الصباح الدولابى . وله سنن أيضاً . وأبو الوليد
الطبالسى . وأبو الهذيل العلاف المتكلم المعتزلى . والله أعلم .

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين ومائتين

فى رمضان منها خلع الواثق على اشناش الأمير ، وتوجه وألبسه وشاحين من جوهر وحج بالناس
فيها محمد بن داود الأمير . وغلا السعر على الناس فى طريق مكة جداً ، وأصابهم حر شديد وم
بعرفة ، ثم أعقبه برد شديد ومطر عظيم ، كل ذلك فى ساعة واحدة ، ونزل عليهم وممى مطر لم ير
مثله ، وسقطت قطعة من الجبل عند جرة العقبة فقتلت جماعة من الحجاج .

قال ابن جرير : وفيها مات أبو الحسن المدائنى أحد أئمة هذا الشأن فى منزل إسحاق بن إبراهيم
الموصلى . وحبيب بن أوس الطائى أبو تمام الشاعر

قلت أما أبو الحسن المدائنى فاسمه على بن المدائنى أحد أئمة هذا الشأن ، وإمام الأخباريين فى
زمانه ، وقد قدمنا ذكر وفاته قبل هذه السنة . وأما

أبو تمام الطائى الشاعر

صاحب الحماسة التى جمعها فى فضل النساء بهمدان فى دار وزيرها . فهو حبيب بن أوس بن
الحارث بن قيس بن الأشج بن يحيى أبو تمام الطائى الشاعر الأديب . ونقل الخطيب عن محمد بن
يحيى الحمولى أنه حكى عن بعض الناس أنهم قالوا : أبو تمام حبيب بن تدرس النصراني ، فسماه
أبوه حبيب أوس بدل تدرس . قال ابن خلكان : وأصله من قرية جاسم من عمل الجيدور بالقرب من
طبرية ، وكان بدمشق يعمل عند حائك ، ثم سار به إلى مصر فى شببته . وابن خلكان أخذ ذلك

من تاريخ ابن عساکر ، وقد ترجم له أبو تمام ترجمة حسنة . قال الخطيب : وهو شامي الأصل ، وكان بمصر في حدائقه يسقي الماء في المسجد الجامع ، ثم جالس بمض الأدباء فاخذ عنهم وكان فطناً فمماً ، وكان يحب الشعر فلم يزل يمانيه حتى قال الشعر فأجاد ، وشاع ذكره وبلغ المعتمد خبره فحمله إليه وهو بسر من رأي ، فعمل فيه قصائد فاجازه وقدمه على شعراء وقته ، قدم بغداد فجالس الأدباء وعاشر العلماء ، وكان موصوفاً بالظرف وحسن الأخلاق . وقد روى عنه أحمد بن أبي طاهر أخباراً بسنده . قال ابن خلكان : كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب غير القصائد والمفاطيع وغير ذلك ، وكان يقال : في طي ثلاثة : حاتم في كرمه ، ودأود الطائي في زهره ، وأبو تمام في شعره . وقد كان الشعراء في زمانه جماعة فمن مشاهيرهم أبو الشيب ، ودعبل ، وابن أبي قيس ، وكان أبو تمام من خيارهم ديناً وأدباً وأخلاقاً . ومن رقيق شعره قوله : —

يَا حَلِيفَ النَّدى وَيَا مَعِينَ الْجُودِ * وَيَا خَيْرَ مَنْ حَوِيَتْ الْقَرِيضَا
لَيْتَ حُمَاكَ بِي وَكَانَ لَكَ الْأَجْ * رُفَا تَشْنِكِي وَكُنْتُ الْمَرِيضَا

وقد ذكر الخطيب عن إبراهيم بن محمد بن عرفة أن أبا تمام توفي في سنة إحدى وثلاثين ومائتين وكذا قال ابن جرير . وحكى عن بعضهم أنه توفي في سنة إحدى وثلاثين ، وقيل سنة ثنتين وثلاثين فافقه أعلم . وكانت وفاته بالموصل ، وبنيت على قبره قبة ، وقد رثاه الوزير محمد بن عبد الملك الزيات فقال :
نَبَأَ أَنِّي مِنْ أَعْظَمِ الْأَنْبَاءِ * لَمَّا أَلَمْتُ مَقْلَقَ الْأَحْشَاءِ
قَالُوا حَبِيبٌ قَدْ نَوَى فَأَجَبْنَاهُمْ * فَاشْدُتْكُمْ لَا تَجْمَلُوهُ الطَّائِي
وَقَالَ غَيْرُهُ : رَجَعَ الْقَرِيضُ بِخَاتَمِ الشُّعْرَاءِ * وَغَدِيرٌ وَضَعَهَا حَبِيبُ الطَّائِي
مَاذَا مَعَا فَتَجَاوَرَا فِي حُفْرَةٍ * وَكَذَلِكَ كَانَا قَبْلَ فِي الْأَحْيَاءِ
وقد جمع الصولي شعر أبي تمام على حروف المعجم . قال ابن خلكان : وقد امتدح أحمد بن المعتصم ويقال ابن المأمون بقصيدته التي يقول فيها :

إِقْدَامُ عَمْرٍو فِي سَبَاحِ حَاتِمٍ * فِي جِلْمٍ أَحْنَفٍ فِي ذِكْرِ إِيَّاسٍ
فَقَالَ لَهُ بَعْضُ الْحَاضِرِينَ : أَتَقُولُ هَذَا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ أَكْبَرُ قَدْرًا مِنْ هَؤُلَاءِ ؟ فَانْكَ مَا زِدْتَ عَلَى أَنْ شَبِهْتَهُ بِأَجْلَافٍ مِنَ الْعَرَبِ الْبَوَادِي . فَأَطْرَقَ إِطْرَاقَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ :
لَا تُنْكَرُوا ضَرْبِي لَهُ مِنْ دُونِهِ * مَثَلُ شُرُودَا فِي النَّدى وَالْبَاسِ
فَافْهَمْ قَدْ ضَرَبَ الْأَقْلَ لِلنُّورِ * مَثَلًا مِنَ الْمَشْكَاةِ وَالنَّبْرَاسِ
قَالَ : فَلَمَّا اخْتَلَا الْقَصِيدَةَ لَمْ يَجِدُوا فِيهَا هَذِينَ الْبَيْتَيْنِ ، وَإِنَّمَا قَالَهُمَا أَرْجَبَالَا . قَالَ : وَلَمْ يَعِشْ بَعْدَ هَذَا إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى مَاتَ . وَقِيلَ إِنَّ الْخَلِيفَةَ أَعْطَاهُ الْمَوْصِلَ لِمَا مَدَحَهُ بِهِ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ ، فَأَقَامَ بِهَا أَرْبَعِينَ

يوماً ثم مات . وليس هذا بصحيح ، ولا أصل له ، وإن كان قد لُحج به بعض الناس كالزُّنْشَرِي وغيره . وقد أورد له ابن عساكر أشياء من شعره مثل قوله : -

ولو كانت الأرزاق تُجْزَى على الجحَا • هَلْ كُنْ إِذَا مِنْ جَهْلَمِنْ الْبَهَامُ
ولم يجتمع شرقٌ وغربٌ لقاصِدٍ • ولا المجدُ في كَفِّ امرئٍ ووالدِ الدَّامِ
ومنه قوله : وما أنا بالغيْرَانِ مِنْ دُونِ غَرْبِهِ • إِذَا أَنَا لَمْ أَصْبِحْ غَيْرَآ عَلَى الْعِلْمِ
طبيبٌ فَوَادِي مُدَّةٍ ثَلَاثِينَ حِجَّةً • وَمُذْهَبٌ هَمِيٍّ وَالْمَفْرَجُ لِلْعَمِ

وفيهما توفي أبو نصر الفارابي . والعيسى . وأبو الجهم . ومسدد . وداود بن عمرو الضبي . وبمحي بن عبد الحميد الحناني . ثم دخلت سنة تسع وعشرين ومائتين

فيها أمر الواثق يعقوبة الدواوين وضربهم واستخلاص الأموال منهم ، لظهور خيانتهم وإسرافهم في أمورهم ، فنههم من ضرب ألف سوط وأكثر من ذلك وأقل ، ومنهم من أخذ منه ألف ألف دينار ، ودون ذلك ، وجاهر الوزير محمد بن عبد الملك لسائر ولاية الشرط بالمدواة ففسفوا وحبسوا ولقوا شراً عظيماً ، وجهماً جليلاً ، وجلس إسحاق بن إبراهيم للنظر في أمرهم ، وأقيموا للناس واقتضواهم والدواوين فضيحة بليغة . وكان سبب ذلك أن الواثق جلس ليلة في دار الخلافة وجلسوا يسرون عنده ، فقال : هل منكم أحد يعرف سبب عقوبة جدى الرشيد للبرامكة ؟ فقال بعض الحاضرين : نعم يا أمير المؤمنين ! سبب ذلك أن الرشيد عرضت له جارية فأعجبها جمالها فساوم سيدها فيها فقال : يا أمير المؤمنين إني أقسمت بكل عين أن لا أبيعها بأقل من مائة ألف دينار ، فاشترها منه بها وبعث إلى يحيى بن خالد الوزير ليعث إليه بالمال من بيت المال ، فاعتل بأنها ليست عنده ، فأرسل الرشيد إليه يؤنبه ويقول : أما في بيت مالى مائة ألف دينار ؟ وألح في طلبها فقال يحيى بن خالد : أرسلوها إليه دراهم ليستكثرها ، ولعله يرد الجارية . فبعثوا بمائة ألف دينار دراهم ووضعوها في طريق الرشيد وهو خارج إلى الصلاة ، فلما اجتاز به رأى كوماً من دراهم ، فقال : ما هذا قالوا : ثمن الجارية ، فاستكثر ذلك وأمر بخزنها عند بعض خديمه في دار الخلافة ، وأعجبه جمع المال في حواصله ، ثم شرع في تتبع أموال بيت المال فإذا البرامكة قد استهلكوها ، فجعل يهيم بهم تارة يريد أخذهم وهلاكهم ، وتارة يحجم عنهم ، حتى إذا كان في بعض الليالي سمر عنده رجل يقال له أبو العود فأطلق له ثلاثين ألفاً من الدراهم ، فذهب إلى الوزير يحيى بن خالد بن برمك فطلبها منه فاطله مدة طويلة ، فلما كان في بعض الليالي في السمر عرض أبو العود بذلك للرشيد في قول عمر بن أبي ربيعة :

وعدتُ هنداً وما كادتُ تمُدُّ • لبتُ هنداً أنْجِزَنا ما كُتِبَ
واستبَدَّتْ مرةً واحدةً • إنما العاجزُ منْ لا يستبَدُّ

فجعل الرشيد يكرر قوله : إنما العاجز من لا يستبد ، و يمجبه ذلك . فلما كان الصباح دخل عليه يحيى بن خالد فأنشده الرشيد هذين البيتين وهو يستحسنهما ، ففهم ذلك يحيى بن خالد وخاف وسأل عن من أنشد ذلك للرشيد ؟ فقيل له أبو العود . فبعث إليه وأعطاه الثلاثين ألفاً وأعطاه من عنده عشرين ألفاً ، وكذلك ولداه الفضل وجمعهم ، فما كان عن قريب حتى أخذ الرشيد البرامكة ، وكان من أمرهم ما كان .

فلما سمع ذلك الواثق أعجبه ذلك وجعل يكرر قول الشاعر : إنما العاجز من لا يستبد . ثم بطش بالكتاب وهم الدواوين على إثر ذلك ، وأخذ منهم أموالاً عظيمة جداً . وفيها حج بالناس أمير السنة الماضية وهو أمير الحجيج في السنتين الماضيتين .

وفيها توفي خلف بن هشام البزار أحد مشاهير القراء ، وعبد الله بن محمد السندی ، ونعيم بن حماد الخزازي أحد أئمة السنة بعد أن كان من أكابر الجهمية ، وله المصنفات في السنن وغيرها ، وبشار بن عبد الله المنسوب إليه النسخة المكذوبة عنه أو منه ، ولكنها عالية الاسناد إليه ، ولكنها موضوعة . ثم دخلت سنة ثلاثين ومائتين

في جمادى منها خرجت بنو سليم حول المدينة النبوية فعاثوا في الأرض فساداً ، وأخافوا السبيل ، وقتلهم أهل المدينة فهزموا أهلها واستحوذوا على ما بين المدينة ومكة من المناهل والقرى ، فبعث إليهم الواثق بغا الكبير أبا موسى التركي في جيش قاتلهم في شعبان فقتل منهم خمسين فارساً وأمر منهم وانهمز بقيتهم ، فدعاهم إلى الأمان وأن يكونوا على حكم أمير المؤمنين ، فاجتمع إليه منهم خلق كثير ، فدخل بهم المدينة وسجن رؤسهم في دار يزيد بن معاوية وخرج إلى الحج في هذه السنة ، وشهد معه الموسم إسحاق بن إبراهيم بن مصعب نائب العراق . وفيها حج بالناس محمد بن دواد المتقدم . وفيها توفي : عبد الله بن طاهر بن الحسين

نائب خراسان وما والاها . وكان خراج ما تحت يده في كل سنة ثمانية وأربعين ألف ألف درهم ، فولى الواثق مكانه ابنه طاهر . وتوفي قبله أشناس التركي بقسمة أيام ، يوم الاثنين لأحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول من هذه السنة . وقال ابن خلكان : توفي سنة ثمان وعشرين بمرور ، وقيل بنيسابور . وكان كريماً جواداً ، وله شعر حسن ، وقد ولي نيابة مصر بعد العشرين ومائتين . وذكر الوزير أبو القاسم بن المعزى أن البطيخ العبدلوى الذي بمصر منسوب إلى سعد الله بن طاهر هذا . قال ابن خلكان : لأنه كان يستطيعه ، وقيل لأنه أول من زرعه هناك والله أعلم . ومن جيد شعره :

اغتنرَ زَلَّتِي لتحرزَ فَضْلُ الشُّ • كَرُمْنِي ولا يفوتكَ أجري

لا تَكَلِّفِي إِلَى التَّوَسُّلِ بِالْعُدِّ * رَ لَعْلَى إِنْ لَا أَقُومُ بِمَذَرِي
وَمِنْ شَعْرَةٍ قَوْلُهُ: نَحْنُ قَوْمٌ يُلَيِّنُنَا الْخَدَّ وَالنَّحْضَ * رَ عَلَى أَتْنَا نُلَيِّنُ الْحَدِيدَا
طَوْرُ عَ أَيْدِي الصَّبَا تَصِيدُنَا الْعِي * نَ وَمِنْ شَأْنِنَا نَصِيدُ الْأَسُودَا
نَمْلَكَ الصَّيْدَ نَم تَمْلِكُنَا إِلَيَّ * ضَ الْمَضِيئَاتُ أَغْيَانًا وَخُدُودَا
تَتَنِي سَخَطُنَا الْأَسُودُ وَنَحْشَى * سَقَطَ الْخَشْفُ حِينَ تُبْدِي الْقَعُودَا
فَتَرَانَا يَوْمَ الْكَرْبَةِ أَحْرَا * رَا وَفِي السَّلْمِ لِلْعَوَانِي عَيْبِدَا

قال ابن خلكان : وكان خزاعياً من موالى طلحة الطلحات الخزاعي ، وقد كان أبو تمام يمدحه ،
فدخل إليه مرة فأضافه الملح بهمدان فصنف له كتاب الحاسة عند بعض نساء . ولما ولاد المأمون
نيابة الشام ومصر صار إليها وقد رسم له بما في ديار مصر من الحواري ، فحمل إليه وهو في أثناء الطريق
ثلاثة آلاف ألف دينار ، ففرقها كلها في مجلس واحد ، وأنه لما واجه مصر نظر إليها فاحتقرها وقال :
قبيح الله فرعون ، ما كان أخس وأضعف همته حين تبجح وتعاظم بملك هذه القرية ، وقال : أنا ربكم
الأعلى . وقال : أليس لي ملك مصر . فكيف لورأى بغداد وغيرها .

وفيهما توفي علي بن جعد الجوهري . ومحمد بن سعد كاتب الواقدي مصنف كتاب الطبقات
وغیره . وسعيد بن محمد الجرمي

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين ومائتين

ففيها وقعت مفاداة الأسارى المسلمين الذين كانوا في أيدي الروم على أيدي الأمير خاقان الخادم
وذلك في المحرم من هذه السنة ، وكان عدة الأسارى أربعة آلاف وثلثمائة واثنين وستين أسيراً .
وفيها كان مقتل أحمد بن نصر الخزاعي رحمه الله وأكرم مثواه

وكان سبب ذلك أن هذا الرجل وهو أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي وكان جده مالك
ابن الهيثم من أكبر الدعاة إلى دولة بني العباس الذين قتلوا ولده هذا ، وكان أحمد بن نصر هذا له
وجاهة ورياسة ، وكان أبوه نصر بن مالك يغشاه أهل الحديث ، وقد بايعه العلما في سنة إحدى
ومائتين على القيام بالأمر والنهي حين كثرت الشطار والدعار في غيبة المأمون عن بغداد كما تقدم
ذلك ، وبه تعرف سويقة نصر ببغداد ، وكان أحمد بن نصر هذا من أهل العلم والديانة والعمل الصالح
والاجتهاد في الخير ، وكان من أئمة السنة الآمرين بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكان ممن يدعو
إلى القول بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، وكان الواقف من أشد الناس في القول بخلق
القرآن ، يدعو إليه ليلاً ونهاراً ، سراً وجهاراً ، اعتماداً على ما كان عليه أبوه قبله وعنه المأمون ، من

غير دليل ولا برهان ، ولا حجة ولا بيان ، ولا سنة ولا قرآن . فقام أحمد بن نصر هذا يدعو إلى الله وإلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقول بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، في أشياء كثيرة دعا الناس إليها . فاجتمع عليه جماعة من أهل بغداد ، والتف عليه من الألوف أعداد ، وانتصب للدعوة إلى أحمد بن نصر هذا رجلان وهما أبو هارون السراج يدعو أهل الجانب الشرقي ، وآخر يقال له طالب يدعو أهل الجانب الغربي فاجتمع عليه من الخلائق ألوف كثيرة ، وجماعات غزيرة ، فلما كان شهر شعبان من هذه السنة انتظمت البيعة لأحمد بن نصر الخراساني في السر على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والخروج على السلطان لبدعته ودعوته إلى القول بخلق القرآن ، ولما هو عليه وأمرأؤه وحاشيته من المعاصي والفواحش وغيرها . فتواعدوا على أنهم في الليلة الثالثة من شعبان - وهي ليلة الجمعة - يضرب طبل في الليل فيجتمع الذين يابعدوا في مكان اتفقوا عليه ، وأنفق طالب وأبو هارون في أصحابه ديناراً ديناراً ، وكان من جملة من أعطوه رجلان من بني أشرس ، وكافا يتعاطيان الشراب ، فلما كانت ليلة الخميس شربا في قوم من أصحابهم واعتقدا أن تلك الليلة هي ليلة الوعد ، وكان ذلك قبله بليلة ، فقاما يضربان على طبل في الليل ليجتمع إليهما الناس ، فلم يجمع أحد وانحزم النظام وسمع الحرس في الليل فأعلموا نائب السلطنة ، وهو محمد بن إبراهيم بن مصعب ، وكان نائباً لأخيه إسحاق بن إبراهيم ، لفبيته عن بغداد ، فأصبح الناس متخبطين ، واجتهد نائب السلطنة على إحضار ذينك الرجلين فاحضرا فعاقبهما فأقرا على أحمد بن نصر ، فطلبه وأخذ خادماً له فاستقره فأقر بما أقر به الرجلان ، فجمع جماعة من رؤس أصحاب أحمد بن نصر معه وأرسل بهم إلى الخليفة بسر من رأى ، وذلك في آخر شعبان ، فأحضر له جماعة من الأعيان وحضر القاضي أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي ، وأحضر أحمد بن نصر ولم يظهر منه على أحمد ابن نصر عتب ، فلما أوقف أحمد بن نصر بين يدي الوائق لم يماثبه على شيء مما كان منه في مبايعته العوام على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيره ، بل أعرض عن ذلك كله وقال له : ما تقول في القرآن ؟ فقل : هو كلام الله . قال : المخلوق هو ؟ قال هو كلام الله . ولكن أحمد بن نصر قد استقتل وباع نفسه وحضر وقد فحظ وتور وشد على عورته ما يسترها فقال له . فما تقول في ربك ، أترآه يوم القيامة ؟ فقال : يا أمير المؤمنين قد جاء القرآن والأخبار بذلك ، قال الله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) وقال رسول الله (س) : « إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته » . فنحن على الخبر . زاد الخطيب قال الوائق : ويحك ! أيرى كابرى المحدث المتجسم ؟ ويحويه مكان ويحصره الناظر ؟ أما أ كفر برب هذه صفته .

قلت : وما قاله الوائق لا يجوز ولا يلزم ولا يرد به هذا الخبر الصحيح والله أعلم . ثم قال أحمد بن

نصر للوائق : وحدثنى سفیان بمحدث يرفعه « إن قلب ابن آدم بأصبعين من أصابع الله يقبله كيف شاء » وكان النبي (ص) يقول : « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » . فقال له إسحاق بن إبراهيم : ويحك ، انظر ما تقول . فقال : أنت أمرتني بذلك . فأشفق إسحاق من ذلك وقال : أنا أمرتك ؟ قال : نعم ، أنت أمرتني أن أنصح له . فقال اللوائق لمن حوله : ماتقولون في هذا الرجل ؟ فأكثروا القول فيه . فقال عبيد الرحمن بن إسحاق - وكان قاضياً على الجانب الغربي ف عزل وكان واداً لأحمد بن نصر قبل ذلك - يا أمير المؤمنين هو حلال الدم . وقال أبو عبد الله الأرمي صاحب أحمد بن أبي دؤاد : استخى دمه يا أمير المؤمنين . فقال اللوائق : لا بد أن يأتي ما تريد . وقال ابن أبي دؤاد : هو كافر يستتاب لعل به عاهة أو نقص عقل . فقال اللوائق : إذا رأيتموني قمت إليه فلا يقوم أحد معي ، فأتى أحتسب خطاي . ثم نهض إليه بالصمصامة - وقد كانت سيفاً لعمر بن معديكرب الزبيدي أهديت لموسى الهادي في أيام خلافته وكانت صفيحة مسحورة في أسفلها مسمورة بمسامير - فلما انتهى إليه ضربه بها على عاتقه وهو مربوط بحبل قد أوقف على نطع ، ثم ضربه أخرى على رأسه ثم طعنه بالصمصامة في بطنه فسقط سريراً رحمه الله على النطع ميتاً ، فأتاه الله وإنا إليه راجعون . رحمه الله وعفا عنه . ثم انتضى سبيل الدمشقي سيفه فضرب عنقه وحز رأسه وحمل معترضا حتى أتى به الحظيرة التي فيها بابك الخرمي فصلب فيها ، وفي رجله زوج قيود وعليه سراويل وقميص ، وحمل رأسه إلى بغداد فنصب في الجانب الشرقي أياماً ، وفي الغربي أياماً ، وعنده الحرس في الليل والنهار ، وفي أذنه رقعة مكتوب فيها : هذا رأس الكافر المشرك الضال أحمد بن نصر الخزاعي ، ممن قتل على يدي عبد الله هارون الامام اللوائق بالله أمير المؤمنين بعد أن أقام عليه الحجبة في خلق القرآن ، ونفي التشبيه وعرض عليه التوبة ومكنه من الرجوع إلى الحق فأبى إلا الممانعة والتصریح ، فالحمد لله الذي عجله إلى ناره وأليم عقابه بالكفر ، فاستحل بذلك أمير المؤمنين دمه ولعنه .

ثم أمر اللوائق بتسيع رؤس أصحابه فأخذ منهم نحواً من تسع وعشرين رجلاً فأودعوا في السجون وسموا الظلمة ، ومنعوا أن يزورهم أحد وقيدوا بالحديد ، ولم يجر عليهم شيء من الأرزاق التي كانت تجري على المحبوسين ، وهذا ظلم عظيم .

وقد كان أحمد بن نصر هذا من أكابر العلماء العاملين القائمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وسمع الحديث من حماد بن زيد ، وسفيان بن عيينة ، وهاشم بن بشير ، وكانت عنده مصنفاته كلها ، وسمع من الامام مالك بن أنس أحاديث جيدة ، ولم يحدث بكثير من حديثه ، وحدث عنه أحمد بن إبراهيم الدورقي ، وأخوه يعقوب بن إبراهيم ويحيى بن معين ، وذكره يوماً فترحم عليه وقال : قد ختم الله له بالشهادة ، وكان لا يحدث ويقول إني لست أهلاً لذلك . وأحسن يحيى بن معين الثناء

عليه جداً . وذكره الامام أحمد بن حنبل يوماً فقال : رحمه الله ما كان أسخاه بنفسه الله ، لقد جاد بنفسه له . وقال جعفر بن محمد الصائغ : بصرت عيناي وإلا فقتلنا ومممت أذنای وإلا فصمتنا أحمد ابن نصر الخزاعي حين ضربت عنقه يقول رأسه : لا إله إلا الله . وقد سمعته بعض الناس وهو مصلوب على الجذع ورأسه يقرأ [ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون] قال : فاقشمر جلدي . وراه بعضهم في النوم فقال له : ما فعل بك ربك ؟ فقال : ما كانت إلا غفوة حتى لقيت الله عز وجل فضحك إلي . ورأى بعضهم رسول الله (ص) في المنام ومعه أبو بكر وعمر ، قد مروا على الجذع الذي عليه رأس أحمد بن نصر ، فلما جاوزوه أعرض رسول الله (ص) بوجهه الكريم عنه فقيل له : يا رسول الله مالك أعرضت عن أحمد بن نصر ؟ فقال : « أعرضت عنه استحياء منه حين قتل رجل يزعم أنه من أهل بيتي » .

ولم يزل رأسه منصوباً من يوم الخميس الثامن والعشرين من شعبان من هذه السنة - أعني سنة إحدى وثلاثين ومائتين - إلى بعد عيد الفطر بيوم أو يومين من سنة سبع وثلاثين ومائتين ، فجمع بين رأسه وجثته ودفن بالجانب الشرقي من بغداد بالمقبرة المعروفة بالمالكية رحمه الله . وذلك بأمر المتوكل على الله الذي ولي الخلافة بعد أخيه الواثق ، وقد دخل عبد العزيز بن يحيى الكنتاني - صاحب كتاب الحيدة - على المتوكل وكان من خيار الخلفاء لأنه أحسن الصنيع لأهل السنة ، بخلاف أخيه الواثق وأبيه المعتصم وعنه المأمون ، فانهم أسأوا إلى أهل السنة وقربوا أهل البدع والضلال من المعتزلة وغيرهم ، فأمره أن ينزل جثة محمد بن نصر ويدفنه ففعل ، وقد كان المتوكل يكرم الامام أحمد بن حنبل إكراماً زائداً جداً كما سيأتي بيانه في موضعه . والمقصود أن عبد العزيز صاحب كتاب الحيدة قال للمتوكل : يا أمير المؤمنين ما رأيت أو مار في أعجب من أمر الواثق ، قتل أحمد بن نصر وكان لسانه يقرأ القرآن إلى أن دفن . فوجل المتوكل من كلامه وسأه ما سمع في أخيه الواثق ، فلما دخل عليه الوزير محمد بن عبد الملك بن الزيات قال له المتوكل : في قلبي شيء من قتل أحمد بن نصر . فقال : يا أمير المؤمنين أحرقتني الله بالنار إن قتله أمير المؤمنين الواثق إلا كافراً . ودخل عليه هرثمة فقال له في ذلك فقال : قطعني الله إرباً بلا با إن قتله إلا كافراً . ودخل عليه القاضي أحمد بن أبي دؤاد فقال له مثل ذلك فقال : ضربني الله بالفالج إن قتله الواثق إلا كافراً . قال المتوكل : فأما ابن الزيات فأما أحرقت بالنار . وأما هرثمة فانه هرب فاجتاز بقبيلة خزاعة فعرفه رجل من الحلي فقال : يا معشر خزاعة هذا الذي قتل ابن عمكم أحمد بن نصر قطعوه . قطعوه إرباً بلا با . وأما ابن أبي دؤاد فقد سجنه الله في جلده - يعني بالفالج - ضربه الله قبل موته بأربع سنين ، وصودر من صلب ماله بمال جزيل جداً كما سيأتي بيانه في موضعه .

وروى أبو داود في كتاب المسائل عن أحمد بن إبراهيم الدورقي عن أحمد بن نصر قال : سألت
سفيان بن عيينة « القلوب بين إصبعين من أصابع الله ، وإن الله يضحك ممن يذكره في الأسواق » .
فقال : أروها كما جاءت بلا كيف .

وفيها أراد الوراق أن يحج واستعد لذلك فذكر له أن الماء بالطريق قليل فترك الحج عامداً .
وفيها تولى جعفر بن ^(١) دينار نائب اليمن فصار إليها في أربعة آلاف فارس . وفيها عدا قوم من العامة
على بيت المال فأخذوا منه شيئاً من الذهب والفضة ، فأخذوا وسجنوا . وفيها ظهر خارجي ببلاد
ربيعة فقاتله نائب الموصل فكسره وانهزم أصحابه . وفيها قدم وصيف الخادم بجماعة من الأكراد نحو
من خمسمائة في القيود ، كانوا قد أفسدوا في الطرقات وقطعوا ، فأطلق الخليفة لوصيف الخادم خمسة
وسبعين ألف دينار ، وخلع عليه . وفيها قدم خاقان الخادم من بلاد الروم وقد تم الصلح والمفاداة بينه
وبين الروم ، وقدم معه جماعة من رؤس الثغور ، فأمر الوراق بامتحانهم بخلق القرآن وأن الله لا يرى
في الآخرة فأجابوا إلا أربعة فأمر بضرب أعناقهم إن لم يجيبوا بالقول بخلق القرآن وأن الله لا يرى
في الآخرة . وأمر الوراق أيضاً بامتحان الأسارى الذين فودوا من أسر الفرنج بالقول بخلق القرآن
وأن الله لا يرى في الآخرة فمن أجاب [إلى القول بخلق القرآن وأن الله لا يرى في الآخرة فودى
وإلا ترك في أيدي الكفار ، وهذه بدعة صلاء شعاء عبياء صماء لا مستند لها من كتاب ولا سنة ولا
عقل صحيح ، بل الكتاب والسنة والعقل الصحيح بخلافها كما هو مقرر في موضعه . والله المستعان] ^(٢)
وكان وقوع المفاداة عند نهر يقال له اللامس ، عند سلوقية بالقرب من طرسوس ، بدل كل مسلم
أو مسلمة في أيدي الروم أو ذمي أو ذمية كان تحت عقد المسلمين أسير من الروم كان بأيدي المسلمين
من لم يسلم ، فنصبوا جسرين على النهر فاذا أرسل الروم مسلماً أو مسلمة في جسرم فأنهى إلى المسلمين
كبير وكبير المسلمين ، ثم يرسل المسلمون أسيراً من الروم على جسرم فاذا انتهى إليهم تكلم بكلام
يشبه التكبير أيضاً . ولم يزالوا كذلك مدة أربعة أيام بدل كل نفس نفس ، ثم بقي مع خاقان جماعة
من الروم الأسارى فأطلقهم للروم حتى يكون له الفضل عليهم .

قال ابن جرير : وفيها مات الحسن بن الحسين أخو طاهر بطبرستان في شهر رمضان . وفيها مات
الخطاب بن وجه القلس . وفيها مات أبو عبد الله بن الأعرابي الراوية يوم الأربعاء لثلاث عشرة
خلت من شعبان ، وهو ابن ثمانين سنة . وفيها ماتت أم أبيها بنت موسى أخت علي بن موسى الرضا .
وفيها مات مخارق المغني . وأبو نصر أحمد بن حاتم راوية الأصمعي . وعمر بن أبي عمرو الشيباني .
ومحمد بن سمدان النحوي . قلت : ومن توفي فيها أيضاً أحمد بن نصر الخزاعي كما تقدم . وإبراهيم

ابن محمد بن عرعة . وأمية بن بسطام . وأبو تمام الطائي في قول . والمشهور ما تقدم . وكامل بن طلحة . ومحمد بن سلام الجمحي . وأخوه عبد الرحمن . ومحمد بن منهل القريري . ومحمد بن منهل أخو حجاج . وهارون بن معروف . والبويطي صاحب الشافعي مات في السجن مقيدا على القول بخلق القرآن فامتنع من ذلك . ويحيى بن بكير راوى الموطأ عن مالك .

ثم دخلت سنة ثنتين وثلاثين ومائتين

فيها عاثت قبيلة يقال لها بنو نمير بالجماعة فساداً فكتب الواثق إلى بذا الكبير وهو مقيم بأرض الحجاز فحاربهم قتل منهم جماعة وأسروهم آخرين ، وهزم بقيتهم ، ثم التقى مع بني تميم وهو في ألقي فارس وم ثلاثة آلاف ، فجرت بينهم حروب ثم كان الظفر له عليهم آخراً ، وذلك في النصف من جمادى الآخرة . ثم عاد بعد ذلك إلى بغداد ومعهم من أعيان رؤسهم في القيود والأسر جماعة ، وقد قدم من أعيانهم في الواقع ما ينيف على ألقي رجل من بني سليم ونمير ومرة وكلاب وفزارة وتعلبة وطى وتميم وغيرهم . وفي هذه السنة أصاب الحجبيج في رجوعهم عطش شديد حتى بيعت الشربة بالدينار الكثيرة ، ومات خلق كثير من العطش . وفيها أمر الواثق بترك جباية أعشار سفن البحر . وفيها كانت وفاة الخليفة الواثق بن محمد المعتصم ابن هارون الرشيد أبي جعفر هارون الواثق . كان هلاكه في ذى الحجة من هذه السنة بيلة الاستسقاء ، فلم يقدر على حضور العيد عاشد ، فاستناب في الصلاة بالناس قاضيه أحمد بن أبي دؤاد الأيادي المعتزلى . توفى لست بقين من ذى الحجة ، وذلك أنه قوى به الاستسقاء فأفعد في تنور قد أحمى له بحيث يمكنه الجلوس فيه ليسكن وجهه ، فلان عليه بعض الشيء اليسير ، فلما كان من الغد أمر بأن يحمى أكثر من العادة فأجلس فيه ثم أخرج فوضع في محفة فحمل فيها وحوله أمراؤه ووزراؤه وقاضيه ، فمات وهو محمول فيها ، فاشد روا حتى سقط جبينه على المحفة وهو ميت ، فمض القاضى عينيه بعد سقوط جبينه ، وولى غسله والصلاة عليه ودفنه في قصر الهادى ، عليهما من الله ما يستحقانه . وكان أبيض اللون مشرباً حرة بهجمل المنظر خبيث القلب حسن الجسم سى الطوية ، قام العين اليسرى ، فيها نكتة بيضاء ، وكان مولده سنة ست وتسعين ومائة بطريق مكة ، فمات وهو ابن ست وثلاثين سنة ، ومدة خلافته خمس سنين وتسعة أشهر وخمسة أيام ، وقيل سبعة أيام وثنتي عشرة ساعة . فهكذا أيلم أهل الظلم والفساد والبدع قليلة قصيرة . وقد جمع الواثق أصحاب النجوم في زمانه حين اشتدت علته ، وإنما اشتدت بعد قتله أحمد بن نصر الخزاعى ليلحقه إلى بين يدي الله ، فلما جمعهم أمرهم أن ينظروا في مولده وما تقتضيه صناعة النجوم كم تدوم أيام دولته ، فاجتمع عنده من رؤسهم جماعة منهم الحسن بن سهل والفضل ابن إسحاق الهاشمي ، وإسماعيل بن نويخت . ومحمد بن موسى الخوارزمي المجوسى القطر بلى وسند

صاحب محمد بن المهيم ، وعامة من ينظر في النجوم ، فنظروا في مولده وما يقتضيه الحال عندهم فأجمعوا على أنه يعيش في الخلافة دهرًا طويلا ، وقدروا له خمسين سنة مستقبلة من يوم نظروا نظر من لم يبصر ، فانه لم يعيش بعد قوفهم وتقديرهم إلا عشرة أيام حتى هلك . ذكره الامام أبو جعفر بن جرير الطبري رحمه الله .

قال ابن جرير : وذكر الحسين بن الضحاك أنه شهد الوراق بعد أن مات المعتصم بأيام وقد قدم مجلسا كان أول مجلس قعده ، وكان أول ما غنى به في ذلك المجلس أن غنثه شارية جارية لإبراهيم بن المهدي :
مادرني الحاملون يوم استقلوا * نعتي لتواي أمه لقاء
فليقل فيك با كيائك ما شئ * ن صياحا في وقت كل مساو

قال : فبكى وبكىنا حتى شغلنا البكاء عن جميع ما كنا فيه . ثم اندفع بعضهم يغني :
ودع هزيرة إن الركب مرتحل * وهل تطيق وداعا أيها الرجل
فازداد بكاءه وقال : ما سمعت كالיום قط تمزية بأب وبني نفس ، ثم ارفض ذلك المجلس . وروى الخطيب أن دعبل بن علي الشاعر لما تولى الوراق عهد إلى طومار فكتب فيه أبيات شعر ثم جاء إلى الحاجب فدفعه إليه وقال : اقرأ أمير المؤمنين السلام وقل : هذه أبيات امتدحك بها دعبل فلما فضا الوراق إذا فيها :

الحمد لله لا صبر ولا جلد * ولا عزاء إذا أهل الهوى رقدوا
خليفة مات لم يحزن له أحد * وآخر قام لم يفرح به أحد
فر هذا ومر الشؤم يتبعه * وقام هذا فقام الويل والنكد

قال : فتطلبه الوراق بكل ما يقدر عليه من الطالب فلم يقدر عليه حتى مات الوراق . وروى أيضا أنه لما استخلف الوراق ابن أبي دؤاد على الصلاة في يوم العيد ورجع إليه بعد أن قضاها قال له : كيف كان عيدكم يا أبا عبد الله ؟ قال : كنا في نهار لا شمس فيه . فضحك وقال : يا أبا عبد الله أنا مؤيد بك . قال الخطيب : وكان ابن أبي دؤاد استولى على الوراق وحمله على التشديد في الحنة ودعا الناس إلى القول بخلق القرآن . قال ويقال : إن الوراق رجع عن ذلك قبل موته فأخبرني عبد الله ابن أبي الفتح أنبا أحمد بن إبراهيم بن الحسن ثنا إبراهيم بن محمد بن عرفة حدثني حامد بن العباس عن رجل عن المهدي أن الوراق مات وقد تاب من القول بخلق القرآن . وروى أن الوراق دخل عليه يوما مؤدبه فأكرمه إكراما كثيرا فقبل له في ذلك فقال : هذا أول من فتح لساني بكلام الله وأدناني برحمة الله . وكتب إليه بعض الشعراء : —

جذبك دواعي النفس عن طلب الفنى * وقلت لها عني عن الطلب التزنى

فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِكَتَمِهِ * مدارُ رَحَا الْأَرْزَاقِ دَائِمَةٌ تَجْرِي
فوقه له في رفته جذبتك نفسك عن امتها ، ودعتك إلى صونها فخذ ما طلبته هينا . وأجزل
ه انطاء . ومن شعره قوله :

هي المقادير تجري في أعينها * فأصبر فليس لها صبر على حال
ومن شعر الوراق قوله :

تَنَحَّ عَنْ الْقَبِيحِ وَلَا تُرِدْهُ * وَمَنْ أُولَيْتَهُ حُسْنًا فَرُدْهُ
سُكِّنِي مِنْ عَذَابِكِ كُلِّ كَيْدٍ * إِذَا كَاذَ الْعَدُوِّ وَلَمْ تُكَيِّدْهُ

وقال القاضي بجي بن أكنم : ما أحسن أحد من خلفاء بني العباس إلى آل أبي طالب ما أحسن
إليهم الوراق : ما مات وفيهم فقير . ولما احتضر جعل يردد هذين البيتين :

الموتُ فِيهِ جَمِيعُ الْخَلْقِ مُشْتَرِكٌ * لَا سَوْفَةَ مِنْهُمْ يَبْقَى وَلَا مَلِكُ
مَا ضَرَّ أَهْلَ قَلِيلٍ فِي تَفَاقُرِهِ * وَلَيْسَ يَفْنَى عَنِ الْأَمْلاكِ مَا مَلَكَوا

ثم أمر بالبسط فطاويت ثم ألصق خده بالأرض وجعل يقول : يا من لا يزول ملكه ارحم من قد
زال ملكه . وقال بعضهم : لما احتضر الوراق ونحن حوله غشى عليه فقال بعضهم لبعض : انظروا هل
قضى ؟ قال : فدنوت من بينهم إليه لا أنظر هل هذا نفسه ، فأفاق فلحظ إلى بعينه فرجعت القهقري
خوفاً منه ، فتعلقت قائمة سبفي بشئ فكدت أن أهلك ، فما كان عن قريب حتى مات وأغلق عليه
الباب الذي هو فيه وبقى فيه وحده واشتغلوا عن تجهيزه بالبيعة لأخيه جعفر المتوكل ، وجلست أنا
أحرس الباب فسمعت حركة من داخل البيت فدخلت فإذا جرد قد أكل عينه التي لحظ إلى بها ،
وما كان حولها من الخدين .

وكانت وفاته بسر من رأى التي كان يسكنها في القصر الماروني ، في يوم الأربعاء لست بقين من
ذى الحجة من هذه السنة - أعلن سنة ثنتين وثلاثين ومائتين - عن ست وثلاثين سنة ، وقيل ثنتين
وثلاثين سنة . وكانت خلافته خمس سنين وتسعة أشهر وخمسة أيام ، وقيل خمس سنين وشهران
وإحدى وعشرين يوماً ، وصلى عليه أخوه جعفر المتوكل على الله والله أعلم .

خلافة المتوكل على الله جعفر بن المعتصم

بويج له بالخلافة بعد أخيه الوراق وقت الزوال من يوم الأربعاء لست بقين من ذى الحجة .
وكانت الأتراك قد عزموا على تولية محمد بن الوراق فاستصغروه فتركوه وعدلوا إلى جعفر هذا ،
وكان عمره إذ ذاك ستاً وعشرين سنة ، وكان الذي ألبسه خلمة الخلافة أحمد بن أبي دؤاد القاضي ،
وكان هو أول من سلم عليه بالخلافة وبايعه الخاصة والعامة ، وكانوا قد اتفقوا على تسميته بالمنصور بالله ،

إلى صبيحة يوم الجمعة فقال ابن أبي دؤاد رأيت أن يلقب بالمتوكل على الله ، فانفقوا على ذلك ، وكتب إلى الآفاق وأمر بإعطاء الشاكرية من الجند ثمانية شهور ، والمغاربة أربعة شهور ، ولغيرهم ثلاثة شهور ، واستبشر الناس به . وقد كان المتوكل رأى في منامه في حياة أخيه هارون الواثق كأن شيئاً نزل عليه من السماء مكتوب فيه جعفر المتوكل على الله ، فعبره قتيل له هي الخلافة ، فبلغ ذلك أخاه الواثق فسجنه حينئذ وأرسله .

وفيها حج بالناس أمير الحجيج محمد بن داود . وفيها توفي الحكم بن موسى . وعمر بن محمد .

الناقد ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين ومائتين

في يوم الأربعاء سابع صفر منها أمر الخليفة المتوكل على الله بالقبض على محمد بن عبد الملك ابن الزيات وزير الواثق ، وكان المتوكل يفضه لأموار ، منها أن أخاه الواثق غضب على المتوكل في بعض الأوقات وكان ابن الزيات يزيد غضباً عليه ، فبقى ذلك في نفسه ، ثم كان الذي استرضى الواثق عليه أحمد بن أبي دؤاد فخطى بذلك عنده في أيام ملكه ، ومنها أن ابن الزيات كان قد أشار بخلافة محمد بن الواثق بعد أبيه ، ولف عليه الناس ، وجعفر المتوكل في جنب دار الخلافة لم يلتفت إليه ولم يتم الأمر إلا لجعفر المتوكل على الله ، رغم أنف ابن الزيات . فلهذا أمر بالقبض عليه سريراً فطلبه فركب بعد غدائه وهو يظن أن الخليفة بمث إليه ، فانهى به الرسول إلى دار إنتاج أمير الشرطة فاحتبط به وقيد وبعثوا في الحال إلى داره فأخذ جميع ما فيها من الأموال والآلئ والجواهر والحواصل والجواري والآثاث ، ووجدوا في مجلسه الخاص به آلات الشرب ، وبمث المتوكل في الحال أيضاً إلى حواصله بسمرا وضياحه وما فيها فاحتاط عليها ، وأمر به أن يمسب ومنعوه من الكلام ، وجعلوا يساهرونه كلما أراد الرقاد نخس بالحديد ، ثم وضعه بعد ذلك كله في تنور من خشب فيه مسامير قائمة في أسفله فأقيم عليها ووكل به من يمنعه من القعود والرقاد ، فكث كذلك أياماً حتى مات وهو كذلك . ويقال إنه أخرج من التنور وفيه رمق فضرب على بطنه ثم على ظهره حتى مات وهو تحت الضرب ، ويقال إنه أحرق ثم دفنت جثته إلى أولاده فدفنوه ، فنبشت عليه الكلاب فأكلت ما بقي من لحمه وجلده . وكانت وفاته لاحدى عشرة من ربيع الأول منها . وكان قيمة ما وجد له من الحواصل نحواً من تسعين ألف دينار . وقد قسمنا أن المتوكل سأله عن قتل أحمد بن نصر الخراسي فقال : يا أمير المؤمنين أحرقتني الله بالنار إن قتل الواثق إلا كافراً . قال المتوكل : فأنا أحرقتك بالنار .

وفيها في جمادى الأولى منها بعد مهلك ابن الزيات فليج أحمد بن أبي دؤاد القاضي المعتزلى . فلم يزل مفلوجاً حتى مات بعد أربع سنين وهو كذلك ، كما دعا على نفسه حين سأله المتوكل عن

قتل حمد بن نصر كما تقدم . ثم غضب المتوكل على جماعة من الدواوين والعمال ، وأخذ مهمهم أموالاً جزيلة جداً . وفيها ولي المتوكل ابنه محمد المنتصر الحجاز واليمن وعقد له على ذلك كله في رمضان منها .

وفيها عمده ملك الروم ميخائيل بن توفيل إلى أمه تدورة فأقامها بالشمس وألزمها الدبر وقتل الرجل الذي اتهمها به ، وكان ملكها ست سنين . وفيها حج بالناس محمد بن داود أمير مكة . وفيها توفي إبراهيم بن الحاج الشامي . وحيان بن موسى العربي . وسليمان بن عبد الرحمن الدمشقي وسهل بن عثمان العسكري . ومحمد بن مائة القاضي . ومحمد بن عائذ الدمشقي صاحب المنازي . ويحيى المقابري . ويحيى بن معين أحد أئمة الجرح والتعديل ، وأستاذ أهل هذه الصناعة في زمانه .

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين ومائتين

فيها خرج نجد بن البغيث بن حلبس عن الطاعة في بلاده أذربيجان ، وأظهر أن المتوكل قد مات والنف عليه جماعة من أهل تلك الرساتيق ، ولجأ إلى مدينة مرند فخصنها ، وجاءته البعوث من كل جانب ، وأرسل إليه المتوكل جيوشاً يتبع بعضها بعضاً ، فنصبوا على بلده الحجانق من كل جانب ، وحاصروه محاصرة عظيمة جداً ، وقتلهم مقاتلة هائلة ، وصبر هو وأصحابه صبراً بليفاً ، وقدم بفنا الشرابي لمحاصرته ، فلم يزل به حتى أسره واستباح أمواله وحرّبه وقتل خلقاً من رؤس أصحابه ، وأمر سائرهم وانحسرت مادة ابن البغيث . وفي جمادى الأولى منها خرج المتوكل إلى المدائن .

وفيها حج إيتاخ أحد الأمراء الكبار وهو والي مكة ، ودعى له على المنابر ، وقد كان إيتاخ هذا غلاماً خزياً طبائخاً ، وكان لرجل يقال له سلام الأبرش ، فاشتراه منه المتعصم في سنة تسع وتسعين ومائة ، فرفع منزله وحظي عنده ، وكذلك الوائق من بعده ، ضم إليه أعمالاً كثيرة ، وكذلك عامله المتوكل وذلك لفروسيته ورجلته وشهامته ، ولما كان في هذه السنة شرب ليلة مع المتوكل فمر به عليه المتوكل فهم إيتاخ بقتله . فلما كان الصباح اعتذر المتوكل إليه وقال له : أنت أبي وأنت ربيتي ، ثم دس إليه من يشير إليه بأن يستأذن للحج فاستأذن فأذن له ، وأمره على كل بلدة بحمل بها ، وخرج القواد في خدمته إلى طريق الحج حين خرج ، ووكّل المتوكل الحجابة لوصيف الخادم عوضاً عن إيتاخ . وحج بالناس فيها محمد بن داود أمير مكة وهو أمير الحجيج من سنين متقدمة .

وفيها توفي أبو خيشمة زهير بن حرب . وسليمان بن داود الشاركوني أحد الحفاظ . وعبد الله ابن محمد النفيلي . وأبو ربيع الزهراني . وعلى بن عبد الله بن جعفر المديني شيخ البخاري في صناعة الحديث . ومحمد بن عبد الله بن نمير . ومحمد بن أبي بكر المدهمي . والماعاني الرسييني . ويحيى بن يحيى الليثي راوي الموطأ عن مالك .

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين ومائتين

في جمادى الآخرة منها كان هلاك إيتاخ في السجن ، وذلك أنه رجع من الحج فتلقته هدايا الخليفة ، فلما اقترب يريد دخول سامرا التي فيها المتوكل بعث إليه إسحاق بن إبراهيم نائب بغداد عن أمر الخليفة يستدعيه إليها ليلتقاه وجوء الناس وبنى هاشم ، فدخلها في أبهة عظيمة ، فقبض عليه إسحاق بن إبراهيم وعلى ابنه مظفر ومنصور وكتابه سليمان بن وهب وقدامة بن زياد النصراني فأسلم تحت العقوبة ، وكان هلاك إيتاخ بالعطش ، وذلك أنه أكل أكلا كثيرا بعد جوع شديد ثم استسقى الماء فلم يسق حتى مات ليلة الأربعاء لخمس خلون من جمادى الآخرة منها . ومكث ولده في السجن مدة خلافة المتوكل ، فلما ولي المنتصر ولد المتوكل أخرجهما . وفي شوال منها قدم بها سامرا ومعه محمد بن البعيث وأخواه صقر وخالد ، ونائبه العلاء ومعهم من رؤس أصحابه نحو من مائة وثمانين إنسانا فأدخلوا على الجلال ليرام الناس ، فلما أوقف ابن البعيث بين يدي المتوكل أمر بضرب عنقه ، فأحضر السيف والنطع فجاء السيافون قوقفوا حوله ، فقال له المتوكل : ويلاك مادعك إلى ما فعلت ؟ فقال : الشقوة يا أمير المؤمنين ، وأنت الحبل الممدود بين الله وبين خلقه ، وإن لي فيك لظنين أسبقهما إلى قلبي أولا هما بك ، وهو العفو . ثم اندفع يقول بديهة :

أبي الناس إلا أنك اليوم قاتلي * إدام الهدى والصفح بالمرء أجمل
وهل أنا إلا جيلة من خطيئة * وعفوك من نور النبوة يُجَلِّ
فالك خير السابقين إلى العلى * ولا شك أن خير الفعّالين تفعل

فقال المتوكل : إن معه لأدبا . ثم عفا عنه . ويقال بل شفع فيه المعتز بن المتوكل فشغفه ، ويقال بل أودع في السجن في قيوده فلم يزل فيه حتى هرب بعد ذلك ، وقد قال حين هرب : -

كم قد قضيت أمورا كأن أهلها * غيري وقد أخذ الافلاس بالكظم
لا تمنليني فيما ليس ينفعني * إليك عني جرى المقدور بالقلم
سألتك المال في عسر وفي يسر * إن الجواد الذي يُعطي على العدم

وفيهما أمر المتوكل أهل الذمة أن يتميزوا عن المسلمين في لباسهم وعماهم وثيابهم ، وأن يتطيلسوا بالمصبوغ بالقلبي وأن يكون على عماهم رقع مخالفة للون ثيابهم من خلفهم ومن بين أيديهم ، وأن يلزموا بالزنانير الخاصة لثيابهم كزنانير الفلاحين اليوم ، وأن يحملوا في رقابهم كرات من خشب كثيرة ، وأن لا يركبوا خيلا ، ولتكن ركبهم من خشب ، إلى غير ذلك من الأمور المنلة لهم المهيئة لنفوسهم ، وأن لا يستعملوا في شيء من الدواوين التي يكون لهم فيها حكم على مسلم ، وأمر بتخريب كنائسهم المحدثه ، وبتضييق منازلهم المقدسة ، فيؤخذ منها العشر ، وأن يعمل مما كان متسما من منازلهم

مسجد ، وأمر بتسوية قبورهم بالأرض ، وكتب بذلك إلى سائر الأقاليم والأقالق ، وإلى كل بلد ورستاق .

وفيها خرج رجل يقال له محمود بن الفرج النيسابوري ، وهو ممن كان يتردد إلى خشية بابك وعو مصلوب فيتعهد قريباً منه ، وذلك بقرب دار الخلافة بسر من رأى ، فادعى أنه نبي ، وأنه ذو القرنين وقد اتبعه على هذه الضلالة وواقفه على هذه الجبهة جماعة قليلون ، وهم تسعة وعشرون رجلاً ، وقد نظم لهم كلاماً في مصحف له قبحه الله ، زعم أن جبريل جاءه به من الله ، فأخذ فرغ أمره إلى المتوكل فأمر فضرب بين يديه بالسياط ، فاعترف بما نسب إليه وما هو معول عليه ، وأظهر التوبة من ذلك والرجوع عنه ، فأمر الخليفة كل واحد من أتباعه التسعة والعشرين أن يصفعه فصفعوه عشر صفعات فعليه وعليهم لعنة رب الأرض والسماوات . ثم اتفق موته في يوم الأربعاء لثلاث خلون من ذي الحجة من هذه السنة .

وفي يوم السبت ثلاث بقين من ذي الحجة أخذ المتوكل على الله العهد من بعده لأولاده الثلاثة وهم : محمد المنتصر ، ثم أبو عبد الله المعتز ، واسمه محمد ، وقيل الزبير ، ثم لإبراهيم وسماه المؤيد بالله ، ولم يل الخلافة هذا . وأعطى كل واحد منهم طائفة من البلاد يكون نائباً عليها ويستقرب فيها ويضرب له السكة بها ، وقد عين ابن جرير ما لكل واحد منهم من البلدان والأقاليم ، وعقد لكل واحد منهم لواءين لواء أسود للعهد ، ولواء للعلالة ، وكتب بينهم كتاباً بالرضى منهم ومبايعته لأكثر الأمراء على ذلك وكان يوماً مشهوداً . وفيها في شهر ذي الحجة منها تغير ماء دجلة إلى الصفرة ثلاثة أيام ثم صار في لون ماء الدردى ففرع الناس لذلك . وفيها أتى المتوكل ببجي بن عمر بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب من بعض النواحي ، وكان قد اجتمع إليه قوم من الشيعة فأمر بضربه فضرب ثمان عشرة مقرة ثم حبس في المطبق . وحبس بالناس محمد بن داود .

قال ابن جرير : وفيها توفي إسحاق بن إبراهيم صاحب الجسر - يعني نائب بغداد - يوم الثلاثاء لسبع بقين من ذي الحجة وجعل ابنه محمد مكانه ، وخلع عليه خمس خلع وقلده سيفاً . قلت : وقد كان نائباً في العراق من زمن المأمون ، وهو من الدعاة تبعاً لسادته وكبرائه إلى القول بخلق القرآن الذي قال الله تعالى فيهم [ربنا إنا أظننا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل] الآية . وهو الذي كان يمنح الناس ويرسلهم إلى المأمون . وفيها توفي :

إسحاق بن ماهان

الموصلى النديم الأديب ابن الأديب النادر الشكل في وقته ، المجموع من كل فن يعرفه أبناء عصره ، في الفقه والحديث والجدل والكلام واللغة والشعر ، ولكن اشتهر بالفناء لأنه لم يكن له في الدنيا

نظير فيه . قال المتعم : إن إسحاق إذا غنى يخيل لي أنه قد زيد في ملكي . وقال المأمون : لولا
اشتهاره بالفناء لوليت القضاء لما اعلمه من عفته وزهده وأمانته . وله شعر حسن ودبيان كبير .
وكانت عنده كتب كثيرة من كل فن . توفي في هذه السنة وقيل في التي قبلها ، وقيل في التي بعدها .
وقد ترجمه ابن عساکر ترجمة حافلة وذكر عنه أشياء حسنة وأشماراً رائعة وحكايات مدحثة يطول
استقصاؤها . فن غريب ذلك أنه غنى يوماً يحيى بن خالد بن برمك فوقع له بألف ألف ووقع له ابنه
جعفر بمنزلها ، وابنه الفضل بمنزلها ، في حكايات طويلة .

وفيهما توفي شريح بن يونس . وشيدان بن فروخ . وعبيد الله بن عمر الفواريري . وأبو بكر بن
أبي شيبة أحد الأعلام وأئمة الإسلام وصاحب المصنف الذي لم يصنف أحد مثله قط لا قبله ولا بعده .
ثم دخلت سنة ست وثلاثين ومائتين

فيها أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن علي بن أبي طالب وما حوله من المنازل والدور ، ونودي
في الناس من وجدنا بعد ثلاثة أيام ذهبت به إلى المطبق . فلم يبق هناك بشر ، وانخذ ذلك الموضع
مزرعة تحرث وتستغل . وفيها حج بالناس محمد بن المنتصر بن المتوكل . وفيها توفي محمد بن إبراهيم
ابن مصعب سمى ابن أخيه محمد بن إسحاق بن إبراهيم ، وكان محمد بن إبراهيم هذا من الأمراء
الكبار . وفيها توفي الحسن بن سهل الوزير والد بوران زوجة المأمون التي تتقدم ذكرها ، وكان من
سادات الناس ، ويقال إن إسحاق بن إبراهيم الملقب توفي في هذه السنة فله أعلم . وفيها توفي أبو سعيد
محمد بن يوسف المروزي فجأة ، فولى ابنه يوسف مكانه على نيابة أرمينية . وفيها توفي إبراهيم بن المنذر
الحرابي . ومصعب بن عبد الله الزبيري . وهديبة بن خالد القيسي . وأبو الصلت الهروي أحد
الضعفاء . ثم دخلت سنة سبع وثلاثين ومائتين

فيها قبض يوسف بن محمد بن يوسف نائب أرمينية على البطريق الكبير بها وبعثه إلى نائب
الخليفة ، واتفق بعد بعثه إياه أن سقط ثلج عظيم على تلك البلاد ، فتحزب أهل تلك الطريق وجاؤا
فحاصروا البلد التي بها يوسف فخرج إليهم ليقاتلهم فقتلوه وطائفة كبيرة من المسلمين الذين معه وهلك
كثير من الناس من شدة البرد ، ولما بلغ المتوكل ما وقع من هذا الأمر الفظيع أرسل إلى أهل تلك
الناحية بقا الكبير في جيش كثيف جداً قتل من أهل تلك الناحية ممن حاصر المدينة نحواً من
ثلاثين ألفاً وأسروا منهم طائفة كبيرة ، ثم سار إلى بلاد ألبان من كور البُسُرْجان وسلك إلى مدن
كثيرة بار ومهد الممالك ووطد البلاد والنواحي . وفي صفر منها غضب المتوكل على ابن أبي دؤاد
القاضي المعتزلي وكان على المظالم ، فمزله عنها واستدعى يحيى بن أكنم فولاه قضاء القضاة والمظالم
أيضاً . وفي ربيع الأول أمر الخليفة بالاحتياط على ضياع ابن أبي دؤاد وأخذ ابنه أبا الوليد محمد

غيبه في يوم السبت لثلاث خلون من ربيع الآخر ، وأمر بمصادرته فحمل مائة ألف وعشرين ألف دينار ، ومن الجواهر النفيسة ما يقوم بعشرين ألف دينار ، ثم صولح على ستة عشر ألف ألف درهم . وكان ابن أبي دؤاد قد أصابه الفالج كما ذكرنا ، ثم نفى أهله من سامرا إلى بغداد مهانين قال ابن جرير فقال في ذلك أبو العتاهية :

لو كنت في الرأي منسوبا إلى رشد * وكان عزمك عزما فير توفيق
لكان في الفقر شغل لو قنعت به * عن أن تقول كتاب الله مخلوق
ماذا عليك وأصل الدين يجمعهم * ما كان في الفرع لولا الجهل والموق

وفي عيد الفطر منها أمر المتوكل بأنزال جثة أحمد بن نصر الخزازي والجمع بين رأسه وجسده وأن يسلم إلى أوليائه ، وفرح الناس بذلك فرحا شديدا ، واجتمع في جنازته خلق كثير جدا ، وجملوا يتسحون بها وبأعواد نعشه ، وكان يوما مشهودا . ثم أتوا إلى الجذع الذي صلب عليه فجمعوا يتسحون به ، وأرهج العامة بذلك فرحا وسرورا ، فكتب المتوكل إلى نائبه يأمره بردهم عن تعطى مثل هذا وعن المغالة في البشر ، ثم كتب المتوكل إلى الآفاق بالنع من الكلام في مسألة الكلام والكف عن القول بخلق القرآن ، وأن من علم علم الكلام لو تكلم فيه فاعطى ماواه إلى أن يموت . وأمر الناس أن لا يشتغل أحد إلا بالكتاب والسنة لا غير ، ثم أظهر إكرام الامام أحمد بن حنبل واستدعاه من بغداد إليه ، فاجتمع به فأكرمه وأمر له بجائزة سنوية فلم يقبلها ، وخلع عليه خلمة سنوية من ملابسه فاستحيا منه أحمد كثيرا فلبسها إلى الموضع الذي كان نازلا فيه ثم نزعها نزعاً عنيفا وهو يبكي رحمه الله تعالى . وجعل المتوكل في كل يوم يرسل إليه من طعامه الخاص ويظن أنه يأكل منه ، وكان أحمد لا يأكل لهم طعاما بل كان صائما مواصلا طاولا تلك الأيام ، لأنه لم يقيسر له شيء يرضى أكله ، ولكن كان ابنه صالح وعبد الله يقبلان تلك الجوائز وهو لا يشعر بشيء من ذلك ، ولولا أنهم أسرعوا الأوبة إلى بغداد لخشي على أحمد أن يموت جوعا ، وارتفعت السنة جدا في أيام المتوكل عفا الله عنه ، وكان لا يولي أحدا إلا بعد مشورة الامام أحمد ، وكان ولاية يحيى بن أكنم قضاء القضاة موضع ابن أبي دؤاد عن مشورته ، وقد كان يحيى بن أكنم هذا من أئمة السنة ، وعلماء الناس ، ومن المعظمين للفقهاء والحديث وأتباع الأثر ، وكان قد ولي من جهته حبان بن بشر قضاء الشرقية ، وسوار ابن عبد الله قضاء الجانب الغربي ، وكان كلاهما أعورا . فقال في ذلك بعض أصحاب ابن أبي دؤاد :

رأيت من العجائب قاضيين * هما أحدهما في الخاقين
هما اقتسما العمى نصفين قدآ * كما اقتسما قضاء الجانبين
ويحسب منهما من هز رأسا * لينظر في واريث ودين

كَأَنَّكَ قَدْ وَضَعْتَ عَلَيْهِ دَنًا * فَنَحَتْ بِرَأْسِهِ مِنْ فَرْدٍ عَيْنٍ
هَذَا قَالَ الزَّمَانُ بِهَلْكَ يَحْيَى * إِذَا افْتَتَحَ الْقَضَاءُ بِأَعْوَرَيْنِ

وَعَزَا الصَّائِفَةُ فِي هَذِهِ السَّنَةِ عَلَى بَنِي يَحْيَى الْأَرْمَنِ . وَحُجَّ بِالنَّاسِ عَلَى بَنِي عَيْسَى بْنِ جَعْفَرٍ بَنِي أَبِي
جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ أَمِيرِ الْحِجَازِ . وَفِيهَا تَوَفَّى حَاتِمُ الْأَصَمِ . وَبَيْنَ تَوَفَّى فِيهَا عَبْدِ الْأَعْلَى بْنِ حَمَادٍ . وَعَبِيدُ اللَّهِ
ابْنُ مَعَاذِ الْعَنْبَرِيِّ وَأَبُو كَامِلٍ الْفَضِيلُ بْنُ الْحَسَنِ الْجَحْدَرِيُّ .

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةُ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ وَمِائَتَيْنِ

فِي رَبِيعِ الْأَوَّلِ مِنْهَا حَاصِرُ بَغَا مَدِينَةِ تَفْلَيْسَ وَعَلَى مَقْدَمَتِهِ زَبْرُكُ التُّرْكِيِّ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ صَاحِبُ
تَفْلَيْسَ إِسْحَاقُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ فَقَاتَلَهُ فَأَمْسَرَ بَغَا إِسْحَاقَ فَأَمْسَرَ بَغَا بِضَرْبِ عُنُقِهِ وَصَلَبَهُ ، وَأَمَرَ بِالنَّارِ
فِي النَّفْطِ إِلَى نَحْوِ الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ أَكْثَرُ بَنَائِهَا مِنْ خَشَبِ الصَّنُوبَرِ ، فَأُحْرِقَ أَكْثَرُهَا وَأُحْرِقَ مِنْ أَهْلِهَا
نَحْوُ ثَمَانِينَ أَلْفًا ، وَطَفَّتِ النَّارُ بَعْدَ يَوْمَيْنِ ، لِأَنَّ نَارَ الصَّنُوبَرِ لَا بَقَاءَ لَهَا . وَدَخَلَ الْجَنْدُ فَأَمْسَرُوا
مَنْ بَقِيَ مِنْ أَهْلِهَا وَاسْتَلَبُوا حَتَّى اسْتَلَبُوا الْمَوَاشِيَ . ثُمَّ سَارَ بَغَا إِلَى عَدْنٍ أُخْرَى مِمَّنْ كَانَ يَمَالَى أَهْلَهَا
مَعَ مَنْ قَتَلَ نَائِبَ أَرْمِينِيَّةِ يَوْسُفَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ يَوْسُفَ ، فَأَخَذَ بَتَّارَهُ وَعَاقِبَ مِنْ تَجَرُّأٍ عَلَيْهِ .
وَفِيهَا جَاءَتِ الْفَرَنْجُ فِي نَحْوِ ثَلَاثِينَ مَرْكَبَ قَاصِدِينَ مِصْرَ مِنْ جِهَةِ دِمِشْقَ ، فَدَخَلُوهَا فَجَاةً فَقَتَلُوا مِنْ
أَهْلِهَا خَلْقًا وَحَرَقُوا الْمَسْجِدَ الْجَامِعَ وَالْمَنْبَرَ ، وَأَسْرَوْا مِنَ النِّسَاءِ نَحْوُ ثَمَانِينَ امْرَأَةً ، مِنَ الْمُسْلِمَاتِ
مِائَةً وَخَمْسَةَ عَشْرِينَ امْرَأَةً ، وَسَاطَرَهُنَّ مِنْ نِسَاءِ الْقُبُطِ ، وَأَخَذُوا مِنَ الْأَمْثَةِ وَالْمَالِ وَالْأَسْلِحَةِ شَيْئًا
كَثِيرًا جَدًّا ، وَفَرَّ النَّاسُ مِنْهُمْ فِي كُلِّ جِهَةٍ ، وَكَانَ مِنْ غَرَقَ فِي بَحِيرَةِ تَنْبَسِ أَكْثَرُ مَنْ أَمْسَرُوهُ ، ثُمَّ
رَجَعُوا عَلَى حِمْيَةٍ وَلَمْ يَمْرُضْ لَهُمْ أَحَدٌ حَتَّى رَجَعُوا بِلَادِهِمْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ . وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ غَزَا الصَّائِفَةُ عَلَى
ابْنِ يَحْيَى الْأَرْمَنِ . وَفِيهَا حُجَّ بِالنَّاسِ الْأَمِيرُ الَّذِي حُجَّ بِهِمْ قَبْلَهَا .

وَفِيهَا تَوَفَّى إِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوِيَةَ أَحَدُ الْأَعْلَامِ وَعُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ ، وَالْمُجْتَهِدِينَ مِنَ الْأَنْبَاءِ . وَبَشَرُ بْنُ
الْوَلِيدِ الْفَقِيهِ الْحَنْفِيُّ . وَطَالُونُ بْنُ عَبَّادٍ . وَمُحَمَّدُ بْنُ بَكَّارِ بْنِ الزِّيَّاتِ . وَمُحَمَّدُ بْنُ الْبَرْجَانِيِّ . وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي
السَّرِيِّ الْعَسْقَلَانِيُّ . ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةُ تِسْعٍ وَثَلَاثِينَ وَمِائَتَيْنِ

فِي الْحَرَمِ مِنْهَا زَادَ الْمُتَوَكِّلُ فِي التَّغْلِيظِ عَلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ فِي التَّمِيزِ فِي الْإِبَاسِ وَأَكْبَدَ الْأَمْرَ بِتَخْرِيبِ
الْكِنَانِيسِ الْمُحَدَّثَةِ فِي الْإِسْلَامِ . وَفِيهَا تَوَفَّى الْمُتَوَكِّلُ عَلَى بْنِ الْجَهْمِ إِلَى خُرَاسَانَ . وَفِيهَا اتَّفَقَ شَمَانُ بْنُ
النَّصَارِيِّ وَيَوْمَ النِّيرُوزِ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ وَهُوَ يَوْمُ الْأَحَدِ لِعِشْرِينَ لَيْلَةً خَلَّتْ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ ، وَزَعَمَتْ
النَّصَارَى أَنَّ هَذَا لَمْ يَتَّفَقْ مِثْلُهُ فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا فِي هَذَا الْعَامِ . وَغَزَا الصَّائِفَةُ عَلَى بَنِي يَحْيَى الْمَذْكُورِ .
وَفِيهَا حُجَّ بِالنَّاسِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدَ بْنِ دَاوُدَ وَالْمَكَّةَ .

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَفِيهَا تَوَفَّى أَبُو الْوَلِيدِ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاضِي أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دَوَّادٍ الْأَيْدِيُّ الْمُعْتَزَلِيُّ .

قلت.. ومن توفي فيها داود بن رشيد . وصفوان بن صالح مؤذن أهل دمشق . وعبد الملك بن حبيب
الفتية المالكي ، أحد المشاهير . وعثمان بن أبي شيبة صاحب التفسير والمسند المشهور . ومحمد بن مهران
الرازي . ومحمود بن غيلان . ووهب بن نفيه . وفيها توفي :

أحمد بن عاصم الأنطاكي

أبو علي الواعظ الزاهد أحد العباد والزهاد ، له كلام حسن في الزهد ومعاملات القلوب ، قال
أبو عبد الرحمن السلمي : كان من طبقة الحارث المحاسبي ، وبشر الحافي . وكان أبو سليمان الداراني
يسميه جاسوس القلوب لحدة فراسته . روى عن أبي معاوية الضرير وطبقته ، وعنه أحمد بن
الحواري ، ومحمود بن خالد ، وأبو زرعة الدمشقي . وغيرهم . روى عنه أحمد بن الحواري عن مخلد
ابن الحسين عن هشام بن حسان قال : مررت بالحسن البصري وهو جالس وقت السحر فقلت : يا أبا
سعيد مثلك يجلس في هذا الوقت ؟ قال : إني توضأت وأردت نفسي على الصلاة فأبى علي ، وأرادتني
على أن تنام فأبيت عليها . ومن مستجاد كلامه قوله : إذا أردت صلاح قلبك فاستمع عليه بحفظ
جوارحك . وقال : من الغنيمة الباردة أن تصلح ما بقي من عمرك فيخبرك ما مضى منه . وقال :
يسير اليقين يخرج الشك كله من قلبك ، ويسير الشك يخرج اليقين كله منه . وقال : من كان بالله
أعرف كان منه أخوف . وقال : خير صاحب لك في دنياك الهم ، يقطعك عن الدنيا ويوصلك إلى
الآخرة . ومن شعره :

همت ولم أعزم ولو كنت صادقاً * عزمْتُ ولكنَّ الفطامَ شديد
ولو كان لي عقل وإيقان موقنٍ * لما كنتُ عن قصد الطريقِ أحيدهُ
ولو كان في غير السلوك مطامعي * ولكنَّ عن الأقدار كيف أميدُ
ومن شعره أيضاً :

قد بقينا مذنبين حيارى * نطلبُ الصدقَ ما إليه سبيلُ
فندواعي الهوى نخفُّ علينا * وخلاف الهوى علينا ثقلُ
قد صدق في الأماكن حتى * وضَّعه اليومَ ما عليه دليلُ
لا نرى خائفاً فيلزمنا الخوفُ * ولشنا نرى صادقاً على مايقولُ

ومن شعره أيضاً :

هوّن عليك فكل الأمر ينقطع * وخلّ عنك ضباب الهمّ يندفعُ
فكل ممّ له من بعمد فرج * وكلّ كرب إذا ما ضاق يتسعُ
إن البلاء وإن طال الزمان بهر * الموت يقطعه أو سوف ينقطعُ

وقد أطل الحافظ ابن عساكر ترجمته ولم يؤرخ وفاته ، وإنما ذكرته ههنا تقریباً والله أعلم .

ثم دخلت سنة أربعين ومائتين

فيها عدا أهل حمص على عاملهم أبي الفيث موسى بن إبراهيم الرافقي لأنه قتل رجلاً من اشرافهم فقتلوا جماعة من أصحابه وأخرجوه من بين أظهرهم ، فبعث إليهم المتوكل أميراً عليهم وقال للسفير معه : إن قبلوه وإلا فأعلمني . فقبلوه فعمل فيهم الأعاجيب وأهانهم غاية الأهانة . وفيها عزل المتوكل يحيى بن أكنم القاضي عن قضاء القضاة وصاد به ما مبلغه ثمانون ألف دينار ، وأخذ منه أراضى كثيرة في أرض البصرة ، وولى مكانه جعفر بن عبد الواحد بن جعفر بن سليمان بن علي على قضاء القضاة قال ابن جرير : وفي الحرم منها توفي أحمد بن أبي دؤاد بعد ابنه بعشرين يوماً .

وهذه ترجمته

هو أحمد بن أبي دؤاد واسمه الفرج - وقيل دعي ، والصحيح أن اسمه كنيته - الأيادي المعتزلي . قال ابن خلكان في نسبه : هو أبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد فرج بن جرير بن مالك بن عبد الله بن عباد بن سلام بن عبد هند بن عبد نجم بن مالك بن فيض بن منعة بن برجان بن دوس الهذلي بن أمية بن حذيفة بن زهير بن إياد بن أد بن معد بن عدنان . قال الخطيب : ولي ابن أبي دؤاد قضاء القضاة للمعتصم ، ثم للوائق . وكان موصوفاً بالجود والسخاء وحسن الخلق ووفور الأدب ، غير أنه أعلن بمذهب الجهمية وحمل السلطان على امتحان الناس بخلق القرآن ، وأن الله لا يرى في الآخرة . قال الصولي : لم يكن بعد البرامكة أكرم منه ، ولولا ما وضع من نفسه من محبة الحنة لاجتمعت عليه الانس . قالوا : وكان مولده في سنة ستين ومائة ، وكان أسن من يحيى بن أكنم بعشرين سنة . قال ابن خلكان : وأصله من بلاد قنسرين ، وكان أبوه تاجراً ينفذ إلى الشام ثم وفد إلى العراق وأخذ ولده هذا معه إلى العراق ، فاشتغل بالعلم وصحب هياج بن الملاء السلمي أحد أصحاب وأصل بن عطاء فأخذ عنه الاعتزال ، وذكر أنه كان يصحب يحيى بن أكنم القاضي ويأخذ عنه العلم . ثم سردله ترجمة طويلة في كتاب الوفيات ، وقد امتدحه بعض الشعراء فقال : -

رسولُ الله والخلفاءُ منا * ومنا أحمدُ بنُ أبي دؤادِ

فرد عليه بعض الشعراء فقال :

قلْ للفاخرين على نزارٍ * وهم في الأرضِ ساداتُ العبادِ

رسولُ الله والخلفاءُ منا * ونبرأ من دعي بني إيادِ

وما منا إيادُ إذا أقرتْ * بدعوة أحمد بن أبي دؤادِ

قال : فلما بلغ ذلك أحمد بن أبي دؤاد قال : لولا أني أكره العقوبة لما قبلت هذا الشاعر عقوبة

ما فعلها أحد . وعفا عنه . قال الخطيب : حدثني الأزهرى ثنا أحمد بن عمر الواعظ حدثنا عمر بن الحسن بن علي بن مالك حدثني جرير بن أحمد أبو مالك قال : كان أبي - يعني أحمد بن أبي دؤاد - إذا صلى رفع يديه إلى السماء وخاطب ربه وأنشأ يقول :

ما أنت بالسبب الضعيف وإنما * نجيح الأمور بقوة الأسباب
واليوم حاجتنا إليك وإنما * يدعى الطبيب لساعة الاوصاب

ثم روى الخطيب أن أبا تمام دخل على ابن أبي دؤاد يوماً فقال له : أحسبك عاتباً ، فقال : إنما يعتب على واحد وأنت الناس جميعاً . فقال له : أنى لك هذا ؟ فقال : من قول أبي نواس :
وليس على الله بمستنكر * أن يجمع العالم في واحد
وامتدحه أبو تمام يوماً فقال :

لقد أنست مساوى كل دهر * محاسن أحمد بن أبي دؤاد
وما سافرت في الآفاق إلا * ومن جدواك راحلتى وزادى
نعم الظن عندك والأمانى * وإن قلقت ركابي في البلاد

فقال له : هذا المعنى تفردت به أو أخذته من غيرك ؟ فقال : هولى ، غير أنى ألحت بقول أبي نواس :
وإن جرث الألفاظ يوماً بمسحة * لغيرك إنساناً فأنت الذى نعى
وقال محمد بن الصولى : ومن مختار مدح أبي تمام لأحمد بن أبي دؤاد قوله :

أحمد إن الحاسدين كثير * ومالك إن عد الكرام نظير
حلت محلاً فاضلاً متقدماً * من المجدد والفخر القديم غفور
فكل غني أو فقير فانه * إليك وإن قال السماء فقير
إليك تنامى المجد من كل وجهة * يصير فما يمدوك حيث يصير
وبدر إباد أنت لا ينكرونه * كذلك إباد للأنام بدور
نحبت أن تدعى الأمير تواضعاً * وأنت لمن يدعى الأمير
فما من يد إلا إليك ممدّة * وما رفة إلا إليك تشير

قلت : قد أخطأ الشاعر في هذه الأبيات خطأ كبيراً ، وأغش في المبالغة فخشا كثيراً ، ولعله إن اعتقد هذا في مخلوق ضعيف مسكين ضال مضل ، أن يكون له جهنم وساءت مصيراً . وقال ابن أبي دؤاد يوماً لبعضهم : ليا لم لاتسألني ؟ فقال له : لأنى لو سألتك أعطيتك نعم صلتك . فقال له : صدقت . وأرسل إليه بخمسة آلاف درهم .

وقال ابن الأعرابي : سأل رجل ابن أبي دؤاد أن يجعله على غير فقال : يا غلام اعطه غيراً وبنلاً

و برذونا و فرسا و جارية . وقال له : لو أعلم مكرهاً غير هذا لأعطيتك . ثم أورد الخطيب بأسانيد
عن جماعة أخباراً تدل على كرمه و فصاحته و أدبه و حلمه و مبادرته إلى قضاء الحاجات ، و عظيم منزلته
عند الخلفاء . و ذكر عن محمد المهدي بن الوائلي أن شيخاً دخل يوماً على الوائلي فسلم فلم يرد عليه
الوائلي بل قال : لا سلم الله عليك . فقال : يا أمير المؤمنين بنس ما أدبك مملك . قال الله تعالى
[إذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها] فلا حييتني بأحسن منها ولا رددتها . فقال ابن أبي
دؤاد يا أمير المؤمنين الرجل منكلم . فقال : ناظره . فقال ابن أبي دؤاد : ما تقول يا شيخ في القرآن
أنخلق هو ؟ قال الشيخ : لم تنصني ، المسألة لي . فقال : قل . فقال : هذا الذي تقوله علمه رسول الله
(س) و أبو بكر و عمر و عثمان و علي و ما علموه ؟ قال ابن أبي دؤاد : لم يعلموه . قال : فانت علمت ما لم
يعلموا ؟ فنجعل وسكت . ثم قال أفلني بل علموه ، قال : فلم لا دعوا الناس إليه كما دعوتهم أنت ، أما
يسمك ما وسعهم ؟ فنجعل وسكت و أمر الوائلي له بجائزة نحو أر بعائة دينار فلم يقبلها . قال المهدي :
فدخل أبي المنزل فاستأق على ظهره و جعل يكرر قول الشيخ على نفسه و يقول : أما وسعك
ما وسعهم ؟ ثم أطلق الشيخ و أعطاه أر بعائة دينار و رده إلى بلاده ، و سقط من عينيه ابن أبي دؤاد
و لم يمتحن بعده أحداً . ذكره الخطيب في تاريخه بأسناد فيه بعض من لا يعرف ، و ساق قصته
مطولة . وقد أنشد ثعلب عن أبي حجاج الأغراني أنه قال في ابن أبي دؤاد :

نكست الدين يا ابن أبي دؤاد • فأصبح من أطاعك في ارتداد
زعمت كلام ربك كان خلقاً • أما لك عند ربك من معاد
كلام الله أنزله بعلم • على جبريل إلى خير العباد (١)
ومن أسمى يبابك مستضيئاً • كن حل الفلاة بنير زاد
لقد أطرفت يا ابن أبي دؤاد • بقولك إنني رجل إيادي

ثم قال الخطيب : أنبأ القاضي أبو الطيب طاهر بن عبد الله الطبري قال : أنشدنا المصافي بن
زكريا الجربري عن محمد بن يحيى الصولي لبعضهم يهجو ابن أبي دؤاد :
لو كنت في الرأي منسوباً إلى رشد • وكان عزمك عزماً فيه توفيق
وقد تقدمت هذه الأبيات .

وروى الخطيب عن أحمد بن الموفق أو يحيى الجلاء أنه قال : ناظرني رجل من الواقفية في خلق
القرآن فنالني منه ما أكره ، فلما أمسيت أتيت امرأتني فوضعت لي المشاء فلم أقدر أن أقال منه شيئاً ،
فتمت فرأيت رسول الله (س) في المسجد الجامع وهناك حلقة فيها أحمد بن حنبل و أصحابه ، فجعل
رسول الله (س) يقرأ هذه الآية [فان يكفر بها هؤلاء] ويشير إلى حلقة ابن أبي دؤاد [فقد كلنا

(١) كذا في الأصل والوزرة غير مستقيم .

بها قوماً ليسوا بها بكافرين] ويشير إلى أحمد بن حنبل وأصحابه . وقال بعضهم : رأيت في المنام كأن قائلاً يقول : هلك الليلة أحمد بن أبي دؤاد . قلت له : وما سبب هلاكه ؟ فقال : إنه أغضب الله عليه فغضب عليه من فوق سبع سموات . وقال غيره : رأيت ليلة مات ابن أبي دؤاد كأن النار زفرت زفرة عظيمة فخرج منها لهب قللت : ما هذا ؟ فقلت هذا أنجزت لابن أبي دؤاد .

وقد كان هلاكه في يوم السبت لسبع بقين من المحرم من هذه السنة ، وصلى عليه ابنه العباس ودفن في داره ببغداد وعمره يومئذ ثمانون سنة ، وابتلاه الله بالفالج قبل موته بأربع سنين حتى بقي طريحاً في فراشه لا يستطيع أن يحرك شيئاً من جسده ، وحرمت لذة الطعام والشراب والنكاح وغير ذلك . وقد دخل عليه بعضهم فقال : والله ما جنتك عائدآ وإنما جنتك لأعزيتك في نفسك وأحمد الله الذي سجنك في جسدي الذي هو أشد عليك عقوبة من كل سجن ، ثم خرج عنه داعياً عليه بأن يزيد الله ولا ينقصه مما هو فيه ، فازداد مرضاً إلى مرضه . وقد صودر في العام الماضي بأموال جزيلة جداً ، ولو كان يحمل العقوبة لوضعها عليه المتوكل . قال ابن خلكان : كان مولده في سنة ستين ومائة . قلت : فعلى هذا يكون أسن من أحمد بن حنبل ومن يجي بن أكنم الذي ذكر ابن خلكان أن ابن أكنم كان سبب اتصال ابن أبي دؤاد بالخليفة المأمون ، فخطى عنده بحيث إنه أوصى به إلى أخيه المنعم ، فولاه المنعم القضاء والمظالم ، وكان ابن الزيات الوزير يفضيه ، وجرت بينهما منافسات وهجو ، وقد كان لا يقطع أمراً بدونه . وعزل ابن أكنم عن القضاء وولاه مكانه ، وهذه الحنة التي هي أس ما بعدها من الحن ، والفتنة التي فتحت على الناس باب الفتن .

ثم ذكر ابن خلكان ما ضرب به الفالج وما صودر به من المال ، وأن ابنه أبا الوليد محمد صودر بألف ألف دينار ومائتي ألف دينار ، وأنه مات قبل أبيه بشهر . وأما ابن عساكر فانه بسط القول في ترجمته وشرحها شرحاً جيداً . وقد كان الرجل أديباً فصيحاً كريماً جواداً ممدحاً يؤثر العطاء على المنع ، والتفرقة على الجمع . وقد روى ابن عساكر بإسناده أنه جلس يوماً مع أصحابه ينتظرون خروج الواثق فقال ابن أبي مرزاد إنه ليعجبني هذان البيتان :

ولي نظرة لو كان يُجبلُ ناظرٌ • بنظرته أني لقد جِئتُ مني
فإن ولدت بين تسعة أشهر • إلى نظرٍ ابنًا فان ابنها مني

ومن توفي فيها من الأعيان أبو ثور إبراهيم بن خالد الكلبي أحد الفقهاء المشاهير . قال الامام أحمد : هو عندنا في مسلاخ الثوري . وخليفة بن خياط أحد أئمة التاريخ وسويد بن سعد الحداني وسويد بن نصر . وعبد السلام بن سعيد الملقب بسخون أحد فقهاء المالكية المشهورين . وعبد الوحد ابن غياث . وقتيبة بن سعيد شيخ الأئمة والسنة . وأبو العميش عبد الله بن خالد كاتب عبد الله بن

طاهر وشاعره ، كان عالماً باللغة وله فيها مصنفات عديدة أورد منها ابن خلكان جملة ، ومن شعره
بمسح عبد الله بن طاهر :

يَا مَنْ يَحَاوُلُ أَنْ تَكُونَ صِفَاتُهُ • كَصِفَاتِ عَبْدِ اللَّهِ أَنْصَحَ وَاصْبَحَ
فَلَا نَصْحَكَ فِي خَصَالٍ وَالَّذِي • حَيَّ الْحَجِيحُ إِلَيْهِ فَاصْبَحْ أَوْ دَعِ
أَصْدُقْ وَعَفْ وَبَرٍّ وَاصْبِرْ وَاحْتَمِلْ • وَاصْفَحْ وَكَافَى دَارَ وَاحِلٍ وَاشْجَعِ
وَالطَفَ وَلِئِنْ وَتَأَنَّ وَارْفَقْ وَاتَّقِ • وَاحْزَمْ وَجَدَّ وَحَامِ وَاحْمِلْ وَادْفَعْ
فَلَقَدْ نَصَحْتُكَ إِنْ قَبِلْتَ نَصِيحَتِي • وَهَدَيْتُ لِنَهْجِ الْأَسَدِ الْمُبِيعِ
أَمَّا سَحْنُونُ الْمَالِكِيِّ صَاحِبُ الْمَدُونَةِ

فهو أبو سعيد عبد السلام بن سعيد بن جندب بن حسان بن هلال بن بكار بن ربيعة التتوخي ،
أصله من مدينة حمص ، فدخل به أبوه مع جندها بلاد المغرب فأقام بها ، وانتهت إليه رئاسة مذهب
مالك هناك ، وكان قد تفقه على ابن القاسم ، وسببه أنه قدم أسد بن الفرات صاحب الإمام مالك
من بلاد العرب إلى بلاد مصر فسأل عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك عن أسئلة كثيرة فأجابه
عنها ، فقلها عنه ودخل بها بلاد المغرب فانتسخها منه سحنون ، ثم قدم على ابن القاسم مصر فأعاد
أسئلته عليه فزاد فيها ونقص ، ورجع عن أشياء منها ، فرتبها سحنون ورجع بها إلى بلاد المغرب ،
وكتب معه ابن القاسم إلى أسد بن الفرات أن يمرض نسخته على نسخة سحنون ويصلحها بها
فلم يقبل ، فدعى عليه ابن القاسم فلم ينتفع به ولا بكتابه ، وصارت الرحلة إلى سحنون ، وانتشرت
عنه المدونة ، وساد أهل ذلك الزمان ، وتولى القضاء بالقيروان إلى أن توفى في هذه السنة عن ثمانين
سنة رحمه الله وإياداً .

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين ومائتين

في جمادى الأولى أو الآخرة من هذه السنة وثب أهل حمص أيضاً على عاملهم محمد بن عبدويه
فأرادوا قتله ، وساعدهم نصارى أهلها أيضاً عليه ، فكتب إلى الخليفة يعلمه بذلك ، فكتب إليه يأمره
بمناهضتهم ، وكتب إلى متولى دمشق أن يمدد بجيش من عنده ليساعده على أهل حمص ، وكتب
إليه أن يضرب ثلاثة منهم معروفين بالشر بالسياط حتى يموتوا ، ثم يصلبهم على أبواب البلد ، وأن
يضرب عشرين آخرين منهم كل واحد ثلثمائة ، وأن يرسلهم إلى ساحراً مقيدين في الحديد ، وأن
يخرج كل نصراني بها ويهدم كنيسة العظمى التي إلى جانب المسجد الجامع ، وأن يضيقها إليه ،
وأمره بخمسين ألف درهم ، وللأمراء الذين ساعدوه بصلات سنوية . فامتثل ما أمره به الخليفة
فيهم . وفيها أمر الخليفة المتوكل على الله بضرب رجل من أعيان أهل بغداد يقال له عيسى بن

جعفر بن محمد بن عاصم ، فضرب ضرباً شديداً مبرحاً ، يقال إنه ضرب ألف سوط حتى مات .
وذلك أنه شهد عليه سبعة عشر رجلاً عند قاضي الشرقية أبي حسان الزياتي أنه يشتم أبا بكر وعمر
وعائشة وحفصة رضي الله عنهم . فرفع أمره إلى الخليفة فجاء كتاب الخليفة إلى محمد بن عبد الله بن
طاهر بن الحسين نائب بغداد يأمره أن يضربه بين الناس حد السب ، ثم يضرب بالسياط حتى
يموت ويلقى في دجلة ولا يصل على عليه ، ليرتدع بذلك أهل الاحاد والمعاينة . ففعل معه ذلك فتمعه
الله ولعنه . ومثل هذا يكفر إن كان قد قذف عائشة بالاجماع ، وفيمن قذف سواها من أمهات المؤمنين
قولان ، والصحيح أنه يكفر أيضاً ، لأنهن أزواج رسول الله (ص) ، ورضي عنهن .

قال ابن جرير : وفي هذه السنة انقضت الكواكب ببغداد وتناثرت ، وذلك ليلة الخميس ليلة
خلت من جمادى الآخرة . قال : وفيها مطر الناس في آب مطراً شديداً جداً . قال : وفيها مات من
الدواب شيء كثير ولاسيما البقر . قال : وفيها أغارت الروم على عين زربة فأسروا من بها من الزط
وأخذوا نساءهم وذرايرهم ودوابهم . قال : وفيها كان الفداء بين المسلمين والروم في بلاد طرسوس
بمحصرة قاضي القضاة جعفر بن عبد الواحد ، عن إذن الخليفة له في ذلك ، واستنابته ابن أبي الشوارب .
وكانت عدة الأسرى من المسلمين سبعمائة وخمسة وثمانين رجلاً ، ومن النساء مائة وخمسة وعشرين
امراً ، وقد كانت أم الملك تدور لعنها الله عرضت النصرانية على من كان في يدها من الأسارى ،
وكانوا نحواً من عشرين ألفاً فن أجابها إلى النصرانية وإلا قتلته ، فقتلت اثني عشر ألفاً وتنصر
بعضهم ، وبقي منهم هؤلاء الذين فودوا وهم قريب من التسعمائة رجلاً ونساء .

وفيها أغارت البجة على جيش من أرض مصر ، وقد كانت البجة لا يفزون المسلمين قبل ذلك ،
لمدة كانت لهم من المسلمين ، فنقضوا الهدنة وصرحوا بالخلاف . والبجة طائفة من سودان بلاد
المغرب ، وكذا النوبة وشنون وزغبر ويكسوم وأم كثيرة لا يعلمهم إلا الله . وفي بلاد هؤلاء معادن
الذهب والجوهر ، وكان عليهم حمل في كل سنة إلى ديار مصر من هذه المعادن ، فلما كانت دولة
المتوكل امتنعوا من أداء ما عليهم سنين متعددة ، فكتب نائب مصر - وهو يعقوب بن إبراهيم
البادغيسي مولى الهادي وهو المعروف بقوصرة - بذلك كله إلى المتوكل ، فنضب المتوكل من ذلك
غضباً شديداً ، وشاور في أمر البجة فقبل له : يا أمير المؤمنين إنهم قوم أهل إبل وبادية ، وإن بلادهم
بيدة ومعطشة ، ويحتاج الجيش الذاهبون إليها أن يتزودوا لمقامهم بها طعاماً وماء ، فصد ذلك عن
البت إليهم ، ثم بلغه أنهم يغيرون على أطراف الصعيد ، ويخشى أهل مصر على أولادهم منهم ،
فجهز لحرهم محمد بن عبد الله القمي ، وجعل إليه نيابة تلك البلاد كلها المتاخمة لأرضهم ، وكتب إلى
عمال مصر أن يعينوه بكل ما يحتاج إليه من الطعام وغير ذلك ، فتخلص وتخلص معه من الجيوش

الذين انضافوا إليه من تلك البلاد حتى دخل بلادهم في عشرين ألف فارس وراجل ، وحمل معه الطعام
الآدم في مراكب سبعة ، وأمر الذين هم بها أن يلجوا بها في البحر فيوافوه بها إذا توسط بلاد
البجة ، ثم صار حتى دخل بلادهم وجاوز معادتهم وأقبل إليه ملك البجة - واسمه على بابا - في جمع
عظيم أضاعف من مع محمد بن عبد الله القمي ، وهم قوم مشركون يعبدون الأصنام ، فجعل الملك يطاول
المسلمين لعله تنفذ أرواحهم فيأخذونهم بالأيدي ، فلما نفذ ما عند المسلمين طمع فيهم السودان فيسر
الله وله الحمد بوصول تلك المراكب وفيها من الطعام والتمر والزيت وغه . فلك مما يحتاجون إليه شيء
كثير جداً فقسمه الأمير بين المسلمين بحسب حاجاتهم ، فيئس السودان من هلاك المسلمين
جوعاً فشرعوا في التأهب لقتال المسلمين ، ومركبهم الابل شبيهة بالهجن زعرة جداً كثيرة النفار ،
لا تكاد ترى شيئاً ولا تسمع شيئاً إلا جفلت منه . فلما كان يوم الحرب عمد أمير المسلمين إلى جميع
الأجراس التي معهم في الجيش فجعلها في رقاب الخيول ، فلما كانت الوقعة حمل المسلمون حملة رجل
واحد ، فنفرت بهم إبلهم من أصوات تلك الأجراس في كل وجه ، وتفرقوا شذراً منبر ، واتبعهم
المسلمون يقتلون من شاؤوا ، لا يمتنع منهم أحد ، فلا يعلم عدد من قتلوا منهم إلا الله عز وجل . ثم
أصبحوا وقد اجتمعوا رجاله فكبسهم القمي من حيث لا يشعرون فقتل عامة من بقي منهم وأخذ
ملكهم بالأمان ، وأدى ما كان عليه من الحل ، وأخذته معه أسيراً إلى الخليفة . وكانت هذه الوقعة
في أول يوم من هذه السنة ، فولاه الخليفة على بلاده كما كان ، وجعل إلى ابن القمي أمر تلك الناحية
والنظر في أمورها وفقه الحمد والمنة .

قال ابن جرير : ومات في هذه السنة يعقوب بن إبراهيم المعروف بقوصرة في جمادى الآخرة .
قلت : وهذا الرجل كان نائباً على الديار المصرية من جهة المتوكل . وفيها حج بالناس عبد الله بن محمد
ابن داود ، وحج جعفر بن دينار وهو والي طريق مكة وأحداث الموسم ، ولم يتعرض ابن جرير لوفاة
أحد من المحدثين في هذه السنة ، وقد توفي من الأعيان الإمام أحمد بن حنبل . وجبارة بن الفضل
الحفاني . وأبو ثوبة الحلبي . وعيسى بن حماد سجادة . ويعقوب بن حميد بن كاسب . ولندكر شيئاً من

للسام محمد بن حنبل

فنعول وبالله المستعان : هو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن عبد الله بن
حيان بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن
صعب بن علي بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أقصى بن دعي بن جديلة بن أسد بن ربيعة
ابن نزار بن معد بن عدنان بن أد بن أدد بن الميسع بن حهل بن النبت بن قيدر بن إسماعيل بن
إبراهيم الخليل عليهما السلام - أبو عبد الله الشيباني ثم المروزي ثم البغدادي ، هكنا ساق نسبه

الحافظ الكبير أبو بكر البيهقي في الكتاب الذي جمعه في مناقب أحمد عن شيخه الحافظ أبي عبد الله الحاكم صاحب المستدرک، وروى عن صالح ابن الامام أحمد قال: رأى أبي هذا النسب في كتاب لي يقال: وما تصنع به؟ ولم ينكر النسب. قالوا: وقدم به أبوه من مرو وهو حمل فوضعت أمه ببغداد في ربيع الأول من سنة أربع وستين ومائة، وتوفي أبوه وهو ابن ثلاث سنين فكفلته أمه. قال صالح عن أبيه: فنقبت أذني وجعلت فيها لؤلؤتين فلما كبرت دفعتهما إلى فبعتهما بثلاثين درهما. وتوفي أبو عبد الله أحمد بن حنبل يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين ومائتين، وله من العمر سبع وسبعون سنة رحمه الله.

وقد كان في حدائنه يختلف إلى مجلس القاضي أبي يوسف، ثم ترك ذلك وأقبل على سماع الحديث، فكان أول طلبه للحديث وأول سماعه من مشايخه في سنة سبع وثمانين ومائة، وقد بلغ من العمر ست عشرة سنة، وأول حجة حجها في سنة سبع وثمانين ومائة، ثم سنة إحدى وتسعين. وفيها حج الوليد بن مسلم، ثم سنة ست وتسعين، وجاور في سنة سبع وتسعين، ثم حج في سنة ثمان وتسعين، وجاور إلى سنة تسع وتسعين سافر إلى عند عبد الرزاق إلى اليمن، فكتب عنه هو وبجبي بن معين وإسحاق بن راهويه. قال الامام أحمد: حججت خمس حجج منها ثلاث راجلا، أفقت في إحدى هذه الحجج ثلاثين درهما. قال: وقد ضللت في بعضها عن الطريق وأنا ماش فجعلت أقول: يا عباد الله دلوني على الطريق، فلم أزل أقول ذلك حتى وقفت على الطريق. قال: وخرجت إلى الكوفة فكنت في بيت تحت رأسي لينة، ولو كان عندي تسعون درهما كنت زحلت إلى جبر بن عبد الحميد إلى الري وخرج بهض أصحابنا ولم يمكني الخروج لأنه لم يمكن عندي شيء. وقال ابن أبي حاتم عن أبيه عن حرمة: سمعت الشافعي قال: وعدني أحمد بن حنبل أن يقدم على مصر فلم يقدم. قال ابن أبي حاتم: يشبه أن تكون خفة ذات اليد منعت أن يفي بالعدة. وقد طاف أحمد بن حنبل في البلاد والآفاق، وجمع من مشايخ مصر، وكانوا يجلونه ويحترمونه في حال سماعه منهم، وقد سرد شيخنا في تهذيبه أسماء شيوخه مرتبين على حروف المعجم، وكذلك الرواة عنه. قال البيهقي بعد أن ذكر جماعة من شيوخ الأمام أحمد: وقد ذكر أحمد بن حنبل في المسند وغيره الرواية عن الشافعي، وأخذ عنه جملة من كلامه في أنساب قريش، وأخذ عنه من الفقه ما هو مشهور، وحين توفي أحمد وجدوا في تركته رسالتى الشافعي القديمة والجديدة.

قلت: قد أفرد ما رواه أحمد عن الشافعي وهي أحاديث لا تبلغ عشرين حديثا، ومن أحسن ما روياه عن الأمام أحمد عن الشافعي عن مالك بن أنس عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب ابن مالك عن أبيه قال قال رسول الله (ص): «نسمة المؤمن طائر تعلق في شجر الجنة حتى يرجعه

إلى جسده يوم بعث . وقد قال الشافعي لأحمد لما اجتمع به في الرحلة الثانية إلى بغداد سنة تسعين^(١) ومائة وعمر أحمد إذ ذاك نيف وثلاثون سنة . قال له : يا أبا عبد الله إذا صح عندكم الحديث فأعلمني به أذهب إليه حجازياً كان أو شامياً أو عراقياً أو يمنياً - يعني لا يقول بقول فقهاء الحجاز الذين لا يقبلون إلا رواية الحجازيين وينزلون أحاديث من سوام منزلة أحاديث أهل الكتاب - وقول الشافعي له هذه المقالة تعظيم لأحمد وإجلال له وأنه عنده بهذه المثابة إذا صحح أو ضعف يرجع إليه . وقد كان الامام أحمد بهذه المثابة عند الأئمة والعلماء كما سيأتي ثناء الأئمة عليه واعترافهم له بفضله المكانة في العلم والحديث ، وقد بعد صيته في زمانه واشتهر اسمه في شيبته في الآفاق .

ثم حكى البيهقي كلام أحمد في الإيمان وأنه قول وعمل ويزيد وينقص ، وكلامه في القرآن كلام الله غير مخلوق ، وإنكاره على من يقول : إن لفظه بالقرآن مخلوق يريد به القرآن . قال : وفيها حكى أبو عمار وأبو جعفر أخبرنا أحمد شيخنا السراج عن أحمد بن حنبل أنه قال : اللفظ محدث . واستدل بقوله [ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد] قال : فاللفظ كلام الآدميين . وروى غيرهما عن أحمد أنه قال : القرآن كيف ما تصرف فيه غير مخلوق ، وأما أفعالنا فهي مخلوقة . قلت : وقد قرر البخاري في هذا المعنى في أفعال العباد وذكره أيضاً في الصحيح ، واستدل بقوله عليه السلام : « زينوا القرآن بأصواتكم » . ولهذا قال غير واحد من الأئمة : الكلام كلام الباري ، والصوت صوت القاري . وقد قرر البيهقي ذلك أيضاً .

[وروى البيهقي من طريق إسماعيل بن محمد بن إسماعيل السلمي عن أحمد أنه قال : من قال : القرآن محدث فهو كافر . ومن طريق أبي الحسن الميموني عن أحمد أنه أجاب الجهمية حين احتجوا عليه بقوله تعالى : [ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون] . قال : يحتمل أن يكون تنزيله إلينا هو المحدث ، لا الذي ذكر نفسه هو المحدث . وعن حنبل عن أحمد أنه قال : يحتمل أن يكون ذكر آخر غير القرآن ، وهو ذكر رسول الله (ص) ، أو وعظه بإمام . ثم ذكر البيهقي كلام الإمام أحمد^(٢) في رؤية الله في الدار الآخرة ، واحتج بحديث صهيب في الرؤية وهي زيادة ، وكلامه في نفى التشبيه وترك الخوض في الكلام والتمسك بما ورد في الكتاب والسنة عن النبي (ص) . وعن أصحابه [وروى البيهقي عن الحاكم عن أبي عمرو بن السلك عن حنبل أن أحمد بن حنبل تناول قول الله تعالى : [وجاء ربك] أنه جاء ثوابه . ثم قال البيهقي : وهذا إسناد لا غبار عليه]^(٣) وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو بكر بن عباس ثنا عاصم عن زر عن عبد الله - هو ابن مسعود -

(١) تقدم أن الرحلة الثانية للشافعي كانت سنة ثمان وتسعين ومائة .

(٢) ، (٣) زيادة من المصرية .

قال : ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رآوه سيئاً فهو عند الله سيئ . وقد رأى الصحابة جميعاً أن يستخافوا أبا بكر رضي الله عنه إسناده صحيح . قلت : وهذا الأثر فيه حكاية إجماع عن الصحابة في تقديم الصديق . والأمر كما قاله ابن مسعود ، وقد نص على ذلك غير واحد من الأئمة . وقد قال أحمد حين اجتاز بمصر وقد حل إلى المأمون في زمن الحنة ودخل عليه عمرو بن عثمان الحمصي فقال له : ما تقول في الخلافة ؟ قال : أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ، ومن قدم علياً على عثمان قد أزرى بأصحاب الشورى لأنهم قدموا عثمان رضي الله عنه .

ورعه وتشفه وزهده رحمه الله

روى البيهقي من طريق المزني عن الشافعي أنه قال للرشيد : إن الين يحتاج إلى قاض ، فقال له : اختر رجلاً نوله إياها . فقال الشافعي لأحمد بن حنبل وهو يتردد إليه في جملة من يأخذ عنه : ألا تقبل قضاء الين ؟ فامتنع من ذلك امتناعاً شديداً وقال للشافعي : إني إنما أختلف إليك لأجل العلم المرهف في الدنيا ، فتأمرني أن ألي القضاء ؟ ولولا العلم لما أكلت بعد اليوم . فاستحى الشافعي منه . وروى أنه كان لا يصلح خلف عمه إسحاق بن حنبل ، ولا خلف بنيه ولا يكلمهم أيضاً ، لأنهم أخذوا جائزة السلطان . ومكث مرة ثلاثة أيام لا يجد ما يأكله حتى بعث إلى بعض أصحابه فاستقرض منه دقيقتاً فعرف أهله حاجته إلى الطعام فمجلوا وعجنوا وخبزوا له سريعاً فقال : ما هذه العجلة ! كيف خبزتم ؟ فقالوا : وجدنا تنور بيت صالح مسجوراً فخبزنا لك فيه . فقال : ارفعوا ، ولم يأكل وأمر بسد بابه إلى دار صالح . قال البيهقي : لأن صالحاً أخذ جائزة السلطان ، وهو المتوكل على الله . وقال عبد الله ابنه : مكث أبي بالمسكر عند الخليفة ستة عشر يوماً لم يأكل فيها إلا ربيع مدسويقاً ، يفطر بعد كل ثلاث ليال على سفة منه حتى رجع إلى بيته ، ولم ترجع إليه نفسه إلا بعد ستة أشهر . وقد رأيت موقه دخلا في حديثه . قال البيهقي : وقد كان الخليفة يبعث إليه المائدة فيها أشياء كثيرة من الأنواع وكان أحمد لا يتناول منها شيئاً . قال : وبعث المأمون مرة ذهباً يقسم على أصحاب الحديث فباقي منهم أحد إلا أخذ إلا أحمد بن حنبل فانه أبي .

وقال سليمان الشاذلي : حضرت أحمد وقد رهن سطلا له عند قاضي بالين ، فلما جاءه بفكاكه أخرج له سطلين فقال : خذ متادلك منهما . فاشتبه عليه أيهما له فقال : أنت في حل منه ومن الفسك ، وتركه وذهب . وحكى ابنه عبد الله قال : كنا في زمن الواثق في ضيق شديد ، فكسب رجل إلى أبي : إن دندى أربعة آلاف درهم ورثتها من أبي وليت صدقة ولا زكاة ، فان رأيت أن تقبلها . فامتنع من ذلك ، وكرر عليه فأبى ، فلما كان بعد حين ذكرنا ذلك فقال أبي : لو كنا قبلناها كانت ذهبت وأكلناها ، وعرض عليه بعض التجار عشرة آلاف درهم ربحها من بضاعة حملها

باسمه فأبى أن يقبلها وقال : نحن في كفاية وجزاك الله عن قصدك خيراً . وعرض عليه تاجر آخر ثلاثة آلاف دينار فامتنع من قبولها وقام وتركه . ونفدت نفقة أحمد وهو في اليمن فعرض عليه شيخه عبد الرزاق ملء كفه دنانير فقال : نحن في كفاية ولم يقبلها . وسرقت ثيابه وهو باليمن فجلس في بيته ورد عليه الباب وقدمه أصحابه فجاءوا إليه فسألوه فأخبرهم فعرضوا عليه ذهباً فلم يقبله ولم يأخذ منهم إلا ديناراً واحداً ليكتب لهم به فكتب لهم بالأجر رحمه الله . وقال أبو داود : كانت مجالس أحمد بمجالس الآخرة لا يذكر فيها شيء من أمر الدنيا ، وما رأيت أحمد بن حنبل ذكر الدنيا قط . ودروى البيهقي أن أحمد سئل عن التوكل فقال : هو قطع الاستشراف باليأس من الناس ، فقيل له : هل من حجة على هذا ؟ قال : نعم ! إن إبراهيم لما رمى به في النار في المنجنيق عرض له جبريل فقال : هل لك من حاجة ؟ قال : أما إليك فلا ، قال : فسل من لك إليه حاجة . فقال : أحب الأمرين إلى أحبهما إليه .

وعن أبي جعفر محمد بن يعقوب الصفار قال : كنا مع أحمد بن حنبل بسر من رأى قلنا : ادع الله لنا فقال : اللهم إنك تعلم أنك على أكثر مما نحب فاجعلنا على ما نحب دائماً . ثم سكت . قلنا : زدنا فقال : اللهم إنا نسألك بالقدره التي قلت للسماوات والأرض [اثنيًا طوعاً أو كرهاً قلنا أتينا طائعين] اللهم وفقنا لمرضايتك ، اللهم إنا نعوذ بك من الفقر إلا إليك ، ونعوذ بك من الذل إلا لك ، اللهم لا تكثر لنا فطنى ولا تقل علينا فننسى ، وهب لنا من رحمتك وسعة رزقك ما يكون بلاغا لنا في دنيانا ، وغنى من فضلك . قال البيهقي : وفي حكاية أبي الفضل التميمي عن أحمد : وكان يدعو في السجود : اللهم من كان من هذه الأمة على غير الحق وهو يظن أنه على الحق فردّه إلى الحق ليكون من أهل الحق . وكان يقول : اللهم إن قبلت عن عصاة أمة محمد (ص) فداء فاجعلني فداء لهم . وقال صالح بن أحمد : كان أبي لا يدع أحداً يستقي له الماء للوضوء ، بل كان يلى ذلك بنفسه ، فإذا خرج الدلو ملأ قال : الحمد لله . قللت : يا أبة ما الفائدة بذلك ؟ فقال : يا بني أما سمعت قول الله عز وجل [أرايتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين] والأخبار عنه في هذا الباب كثيرة جداً . وقد صنف أحمد في الزهد كتاباً حافلاً عظيماً لم يسبق إلى مثله ، ولم يلحقه أحد فيه . والمظنون بل المقطوع به أنه إنما كان يأخذ بما أمكنه منه رحمه الله .

وقال إسماعيل بن إسحاق السراج : قال لي أحمد بن حنبل : هل تستطيع أن تربى الحارث الحاسي إذا جاء منزلك ؟ قللت : نعم ! وفرحت بذلك ، ثم ذهبت إلى الحارث قللت له : إني أحب أن تحضر الليلة عندي أنت وأصحابك . فقال : إنهم كثير فأحضر لهم التمر والكسب . فلما كان بين العشاءين جاؤا وكان الأمام أحمد قد سبقهم فجلس في غرفة بحيث يراهم ويسمع كلامهم ولا يرونه ، فلما صلوا العشاء الآخرة لم يصلوا بعدها شيئاً ، بل جاؤا فجلسوا بين يدي الحارث سكوتاً

مطرق الرأس ، كأنما على رؤسهم الطير ، حتى إذا كان قريباً من نصف الليل سأل رجل مسألة فشرع الحارث يتكلم عليها وعلى ما يتعلق بها من الزهد والورع والوعظ ، فجعل هذا يبكي وهذا يئن وهذا يزعم ، قال : فصعدت إلى الأمام أحمد إلى الغرفة فإذا هو يبكي حتى كاد يغشى عليه ، ثم لم يزلوا كذلك حتى الصباح ، فلما أرادوا الانصراف قلت : كيف رأيتم هؤلاء يا أبا عبد الله ؟ فقال : ما رأيتم أحداً يتكلم في الزهد مثل هذا الرجل ، وما رأيتم مثل هؤلاء ، ومع هذا فلا أرى لك أن تجتمع بهم . قال البيهقي : يحتمل أنه كره له محبتهم لأن الحارث بن أسد ، وإن كان زاهداً ، فإنه كان عنده شيء من علم الكلام ، وكان أحمد يكره ذلك ، أو كره له محبتهم من أجل أنه لا يطبق سلوك طريقتهن ومأم عليه من الزهد والورع . قلت : بل إنما كره ذلك لأن في كلامهم من التشف وشدة السلوك التي لم يرد بها الشرع والتدقيق والمحاسبة الدقيقة البليغة ما لم يأت بها أمر ، ولهذا لما وقف أبو زرعة الرازي على كتاب الحارث المسمى بالرعاية قال : هذا بدعة . ثم قال للرجل الذي جاء بالكتاب : عليك بما كان عليه مالك والثوري والأوزاعي والليث ، ودع عنك هذا فإنه بدعة . وقال إبراهيم الحربي : سمعت أحمد بن حنبل يقول : إن أحببت أن يدوم الله لك على ما تحب فدم له على ما يجب . وقال : الصبر على الفقر مرتبة لا ينالها إلا الأكابر . وقال : الفقر أشرف من الغنى ، فإن الصبر عليه مرارة وانزعاجه أعظم حالا من الشكر . وقال : لا أعدل بفضل الفقر شيئاً . وكان يقول : على العبد أن يقبل الرزق بعد اليأس ، ولا يقبله إذا تقدمه طمع أو استشراف . وكان يحب التقلل من الدنيا لأجل خفة الحساب . وقال إبراهيم قال رجل لأحمد : هذا العلم تعلمته لله ؟ فقال له أحمد : هذا شرط شديد ولكن حجب إلى شيء فجتمته . وفي رواية أنه قال : أما لله فعزيز ، ولكن حجب إلى شيء فجتمته . وروى البيهقي أن رجلاً جاء إلى الأمام أحمد فقال : إن أمي زمنة مقعدة منذ عشرين سنة ، وقد بمنتني إليك لتدعو لها ، فكأنه غضب من ذلك وقال : نحن أحوج أن تدعوهي لنا من أن ندعو لها . ثم دعا الله عز وجل لها . فرجع الرجل إلى أمه فدق الباب فخرجت إليه على رجلها وقالت : قد وهبني الله العافية . وروى أن سائلاً سأل فأعطاه الامام أحمد قطعة قمام رجل إلى السائل فقال : هبني هذه القطعة حتى أعطيك عوضها ، ما تساوى درهما . فأبى فراه إلى خمسين درهماً وهو يأبى وقال : إني أرجو من بركتها ما أرجوه أنت من بركتها . ثم قال البيهقي رحمه الله :

ذكر ما جاء في محنة أبي عبد الله أحمد بن حنبل

في أيام المأمون ثم المعتصم ثم الواثق بسبب القرآن العظيم وما أصابه من الحبس الطويل والضرب الشديد والتهديد بالقتل بسوء العذاب وأليم العقاب ، وقلة مبالاته بما كان منهم في ذلك إليه وصبر . عليه وتمسكه بما كان عليه من الدين القويم والصراط المستقيم ، وكان أحمد علماً بما ورد بمثل حاله من

الآيات المتلوة ، والأخبار الماثورة ، وبلغه ما أوصى به في المنام واليقظة فرضى وسلم إيماناً واحتساباً ، وفاز بخير الدنيا ونعيم الآخرة ، وهياه الله بما آتاه من ذلك ليلوغ أعلى منازل أهل البلاء في الله من أوليائه ، وألحق به محبيه فيما نال من كرامة الله تعالى إن شاء الله من غير بلية وبالله التوفيق والعصمة .

قال الله تعالى [بسم الله الرحمن الرحيم ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين] وقال الله تعالى [واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور] في سواها في معنى ما كتبنا . وقد روى الامام أحمد الممتحن في مسنده قائلا فيه : حدثنا محمد بن جعفر عن شعبة عن عاصم بن بهدلة سمعت مصعب بن سعد يحدث عن سعد قال : سألت رسول الله (ص) : أي الناس أشد بلاء ؟ قال : « الأنبياء » ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الله الرجل على حسب دينه ، فإن كان رقيق الدين ابتلى على حسب ذلك ، وإن كان صلب الدين ابتلى على حسب ذلك ، وما يزال البلاء بالرجل حتى يمشی على الأرض وما عليه خطيئة . وقد روى مسلم في صحيحه قال : حدثنا عبد الوهاب الثقفي ثنا أبو بوب عن أبي قلابة عن أنس . قال قال رسول الله (ص) : « ثلاثة من كن فيه فقد وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يقذف في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه » . أخرجه في الصحيحين :

وقال أبو القاسم البغوي : حدثنا أحمد بن حنبل ثنا أبو المنيرة ثنا صفوان بن عمرو السكسكي ثنا عمرو بن قيس السكوني ثنا عاصم بن حبيد قال : سمعت معاذ بن جبل يقول : « إنكم لم تروا إلا بلاء وفتنة ، ولن يزداد الأمر إلا شدة ، ولا الأنفس إلا شحاً » . وبه قال معاذ : « لن تروا من الأئمة إلا غلظة ولن تروا أمر آهولكم ويشتد عليكم إلا حضر بعده ما هو أشد منه » . قال البغوي : سمعت أحمد يقول : اللهم رضا . وروى البيهقي عن الربيع قال بعثني الشافعي بكتاب من مصر إلى أحمد بن حنبل ، فأتيته وقد اغتفل من صلاة الفجر فندمعت إليه الكتاب فقال : أقرأته ؟ فقلت : لا ! فأخذته فقرأه فدمعت عيناه ، فقلت : يا أبا عبد الله وما فيه ؟ فقال : يدكر أنه رأى رسول الله (ص) في المنام فقال : اكتب إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل واقرا عليه من السلام وقل له : إنك ستمتحن وتدعى إلى القول بخلق القرآن فلا تنجبهم ، يرفع الله لك علما إلى يوم القيامة . قال الربيع : فقلت حلاوة البشارة ، فخلع قيصره الذي يلي جلده فأعطانيه ، فلما رجعت إلى الشافعي أخبرته قال : إني لست أجعلك فيه ، ولكن بله بالماء وأعطينيه حتى أتبرك به

ملخص الفتنة والمحنة من كلام أئمة السنة

قد ذكرنا فيما تقدم أن المأمون كان قد استحوذ عليه جماعة من المعتزلة فأزاعوه عن طريق الحق

إلى الباطل ، وزينوا له القول بخلق القرآن ونفى الصفات عن الله عز وجل . قال البيهقي : ولم يكن في الخلفاء قبله من بني أمية وبني العباس خليفة الأعلى منهج السلف ومنهجهم ، فلما ولي هو الخلافة اجتمع به هؤلاء فخلعوه على ذلك وزينوا له ، واتفق خروجه إلى طرسوس لغزو الروم فكتب إلى نائبه ببغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب يأمره أن يدعو الناس إلى القول بخلق القرآن ، واتفق له ذلك آخر عمره قبل موته بشهر من سنة ثمان مائة عشرة ومائتين . فلما وصل الكتاب كما ذكرنا استدعى جماعة من أئمة الحديث فدخلهم إلى ذلك فامتنعوا ، فتهتدم بالضرب وقطع الأرزاق فأجاب أكثرهم مكرهين : واستمر على الامتناع من ذلك الإمام أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح الجند يسابوري ، فحلبا على بعير وسيرا إلى الخليفة عن أمره بذلك ، وهما مقيدان متعادلان في محل على بعير واحد فلما كانا ببلاد الرحبة جاءهما رجل من الأعراب من عبادهم يقال له جابر بن عامر ، فسلم على الإمام أحمد وقال له : يا هذا إنك وافد الناس فلا تكن شؤماً عليهم ، وإنك رأس الناس اليوم فأياك أن نجيبهم إلى ما يدعونك إليه فيجيبوا ، فتحمل أوزارهم يوم القيامة ، وإن كنت تحب الله فاصبر على ما أنت فيه ، فانه ما بينك وبين الجنة إلا أن تقتل ، وإنك إن لم تقتل تمت ، وإن عشت عشت حبيداً . قال أحمد : وكان كلامه مما قوى عزمي على ما أنا فيه من الامتناع من ذلك الذي يدعونني إليه . فلما اقتربا من جيش الخليفة ونزلوا دونه بمرحلة جاء خادم وهو يسح دموعه بطرف توبه ويقول : يمر على يا أبا عبد الله إن المأمون قد سل سيفاً لم يسله قبل ذلك ، وأنه يقسم بقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لئن لم نجبه إلى القول بخلق القرآن ليقنلنك بذلك السيف . قال : فجئ الإمام أحمد على ركبتيه ورمق بطرفه إلى السماء وقال : سيدي غر حلك هذا الفاجر حتى تجرأ على أوليائك بالضرب والقتل ، اللهم فإن يكن القرآن كلامك غير مخلوق فاكفنا مؤنته . قال : فجاءهم الصريح بموت المأمون في الثالث الأخير من الليل . قال أحمد : ففرحنا ، ثم جاء الخبر بأن المعتصم قد ولي الخلافة وقد انضم إليه أحمد بن أبي دؤاد ، وأن الأمر شديد ، فردونا إلى بغداد في سفينة مع بعض الأسارى ، وقالوا منهم أذى كثير ، وكان في رجله القيود ، ومات صاحبه محمد بن نوح في الطريق وصلى عليه أحمد ، فلما رجع أحمد إلى بغداد دخلها في رمضان ، فأودع في السجن نحواً من ثمانية وعشرين شهراً ، وقيل نيفاً وثلاثين شهراً ، ثم أخرج إلى الضرب بين يدي المعتصم . وقد كان أحمد وهو في السجن هو الذي يصلي في أهل السجن والقيود في رجله .

ذكر ضربه رضي الله عنه بين يدي المعتصم

لما أحضره المعتصم من السجن زاد في قيوده ، قال أحمد : فلم أستطع أن أمشي بها فربطتها في

النسكة وحملتها بيدي ، ثم جاؤني بدابة فحملت عليها فكنت أن أسقط على وجهي من ثقل القيود وليس معي أحد بمسكني ، فسلم الله حتى جئنا دار المعتصم ، فأدخلت في بيت وأغلق عليّ وليس عندي سراج ، فأردت الضوء فهددت يدي فاذا إناه فيه ماء فتوضأت منه ، ثم قمت ولا أعرف القبلة ، فلما أصبحت إذا أنا على القبلة والله الحمد . ثم دعيت فأدخلت على المعتصم ، فلما نظر إليّ وعنده ابن أبي دؤاد قال : أليس قد زعمت أنه حدث السن وهذا شيخ مكهل ؟ فلما دنوت منه وسلمت قال لي : ادنه ، فلم يزل يدنيني حتى قربت منه ثم قال : اجلس ! فجلست وقد أثقلتني الحديد ، فكنت ساعة ثم قلت : يا أمير المؤمنين إلى م دعا إليه ابن عمك رسول الله (س) ؟ قال : إلى شهادة أن لا إله إلا الله . قلت : فاني أشهد أن لا إله إلا الله . قال : ثم ذكرت له حديث ابن عباس في وفد عبد القيس ثم قلت : فهذا الذي دعا إليه رسول الله (س) . قال : ثم تكلم ابن أبي دؤاد بكلام لم أفهمه ، وذلك أني لم أفقهه كلامه ، ثم قال المعتصم : لولا أنك كنت في يد من كان قبلي لم أترض إليك ، ثم قال : يا عبد الرحمن ألم آمرك أن ترفع الحنة ؟ قال أحمد : قلت ، الله أكبر ، هذا فرج للمسلمين ، ثم قال : فآظره يا عبد الرحمن ، كله . فقال لي عبد الرحمن : ماتقول في القرآن ؟ فلم أجبه ، فقال المعتصم : أجبه قلت : ما تقول في العلم ؟ فسكت ، قلت : القرآن من علم الله ، ومن زعم أن علم الله مخلوق فقد كفر بالله ، فسكت فقالوا فيما بينهم : يا أمير المؤمنين كفرك وكفرنا ، فلم يلتفت إلى ذلك ، فقال عبد الرحمن : كان الله ولا قرآن ، قلت : كان الله ولا علم ؟ فسكت . فجعلوا يتكلمون من ههنا وههنا ، قلت : يا أمير المؤمنين اعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة رسوله حتى أقول به ، فقال : ابن أبي دؤاد : وأنت لاتقول إلا بهذا وهذا ؟ قلت : وهل يقوم الاسلام إلا بهما . وجرت مناظرات طويلة ، واحتجوا عليه بقوله [ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث] وبقوله [الله خالق كل شيء] وأجاب بما حاصله أنه عام مخصوص بقوله [تدمر كل شيء بأمر ربها] فقال ابن أبي دؤاد : هو والله يا أمير المؤمنين ضال مضل مبتدع ، وهنا قضائك والفقهاء فسلمهم ، فقال لهم : ما تقولون ؟ فأجابوا بمثل ما قال ابن أبي دؤاد ، ثم أحضروه في اليوم الثاني وناظروه أيضاً في اليوم الثالث ، وفي ذلك كله يملو صوته عليهم وتقلب حجته حججهم . قال : فاذا سكتوا فتع الكلام عليهم ابن أبي دؤاد ، وكان من أجبلهم بالعلم والكلام ، وقد تنوعت بهم المسائل في المجادلة ولا علم لهم بالنقل ، فجعلوا ينكرون الآثار ويردون الاحتجاج بها ، وسمعت منهم مقالات لم أكن أظن أن أحداً يقولها ، وقد تكلم معي ابن غوث (١) بكلام طويل ذكر فيه الجسم وغيره بما لا فائدة فيه ، قلت : لا أدرى ما تقول ، إلا أني أعلم أن الله أحد صمد ، ليس كمثله شيء ، فسكت عني . وقد أوردت لهم حديث

(١) في هامش الأصل : لعله ابن غياث وهو المريسي .

لرؤية في الدار الآخرة فحاولوا أن يضعفوا إسناده ويلفقوا عن بعض الحديثين كلاماً يتسلقون به إلى الطعن فيه ، وهبهات ، وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ؟ وفي غيبن ذلك كله يتلطف به لل خليفة ويقول : يا أحمد أجبني إلى هذا حتى أجهلك من خاصي ومن يظاً بساطي . فأقول : يا أمير المؤمنين يأتوني بآية من كتاب الله أو سنة عن رسول الله ص ، حتى أجيهم إليها .

واحتج أحمد عليهم حين أنكروا الآثار بقوله تعالى [يا أبا له لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً] وبقوله [وكلم الله موسى تكليماً] وبقوله [إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني] وبقوله : [إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون] ونحو ذلك من الآيات . فلما لم يقم لهم معه حجة عدلوا إلى استعمال جاه الخليفة ، فقالوا : يا أمير المؤمنين هذا كافر ضال مضل . وقال له إسحاق بن إبراهيم نائب بغداد : يا أمير المؤمنين ليس من تدبير الخلافة أن نخلي سبيله ويغلب خليفته ، فنند ذلك حتى واشتد غضبه ، وكان أليهم عريكة ، وهو يظن أنهم على شيء . قال أحمد فنند ذلك قال لي : لعنك الله ، طمعت فيك أن تجيبني فلم تجبني ، ثم قال : خذوه واخلموه واسحبوه . قال أحمد : فأخنت وسحبت وخلمت وجي بالمعاقبين والسياط وأنا أنظر ، وكان معي شعرات من شعرات النبي ص ، معرودة في ثوبي ، فجردوني منه وصرت بين المعاقبين ، قلت : يا أمير المؤمنين الله الله ، إن رسول الله ص ، قال : « لا يحمل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله إلا بأحدي ثلاث » وتلوت الحديث ، وأن رسول الله ص ، قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم » : فبم تستحل دمي ولم آت شيئاً من هذا ؟ يا أمير المؤمنين اذكر وقوفك بين الله كوقوفي بين يديك ، فكأنه أمسك . ثم لم يزالوا يقولون له : يا أمير المؤمنين إنه ضال مضل كافر ، فأمر بي فهدت بين المعاقبين وجي بكرسي فأقت عليه وأمرني بعضهم أن آخذ بيدي بأي الخشبين فلم أفهم ، فتخلت يداي وجي بالضرايين ومعهم السياط فجعل أحدهم يضربني سوطين ويقول له - يعني المعتصم - : شد قطع الله يديك ، وبجني الآخر فيضربني سوطين ثم الآخر كذلك ، فضربوني أسواطاً فأغنى على وذهب عقلي مراراً ، فإذا سكن الضرب يعود على عقلي ، وقام المعتصم إلى يدعووني إلى قولهم فلم أجبه ، وجعلوا يقولون : وبحك ! الخليفة على رأسك ، فلم أقبل وأعادوا الضرب ثم عاد إلى فلم أجبه ، فأعادوا الضرب ثم جاء إلى الثالثة ، فدعاني فلم أعقل ما قال من شدة الضرب ، ثم أعادوا الضرب فذهب عقلي فلم أحس بالضرب وأرعبه ذلك من أمرى وأمر بي فأطلقت ولم أشعر إلا وأنا في حجرة من بيت ، وقد أطلقت الأقياد من رجلي ، وكان ذلك في اليوم الخامس والعشرين من رمضان من سنة إحدى وعشرين ومائتين ، ثم أمر الخليفة بإطلاقه إلى أهله ، وكان جملة ما ضرب نيفاً وثلاثين سوطاً ، وقيل ثمانين سوطاً ، لكن كان ضرباً مبرحاً

شدبداً جداً . وقد كان الامام أحمد رجلاً طويلاً رقيقاً أسمر اللون كثير التواضع رحمه الله .
ولما حل من دار الخلافة إلى دار إسحاق بن إبراهيم وهو صائم ، أتوه بسويق ليفطر من الضمر
فامنع من ذلك وأنتم صومه ، وحين حضرت صلاة الظهر صلى معهم فقال له ابن سماعة القاضي
وصلبت في دمك ! فقال له أحمد : قد صلى عمر وجرحه يشعب دماً ، فسكت . وروى أنه لما أتته
ليضم بانهطت نكة سراويله فغشى أن يسقط سراويله فتكشف عورته فحرك شفتيه فدعا الله
فعاد سراويله كما كان ، وروى أنه قال : يا غياث المستغيثين ، يا إله العالمين ، إن كنت تعلم أني مأم
لك بحق فلا تنك لي عورة .

ولما رجع إلى منزله جاءه الجراحي فقطع لهما ميتاً من جسده وجعل يداويه والنائب في كل وقت
يسأل عنه ، وذلك أن المعتصم ندم على ما كان منه إلى أحمد ندماً كثيراً ، وجعل يسأل النائب عنه
والنائب يستعلم خبره ، فلما عوفي فرح المعتصم والمسلمون بذلك ، ولما شفاه الله بالعافية بقي مدة
وإبهامه يؤذيها البرد ، وجعل كل من آذاه في حل إلا أهل البدعة ، وكان يتلو في ذلك قوله تعالى
[وليعفوا وليصغحوا] الآية . ويقول : ماذا ينفعك أن يعذب أخوك المسلم بسببك ؟ وقد قال تعالى
[فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين] وينادي المنادي يوم القيامة : « ليقم من
أجره على الله فلا يقوم إلا من عفا » وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله (ص) :
« ثلاث أقسم عليهن : ما نقص مال من صدقة ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، ومن تواضع لله رفعه الله »
وكان الذين ثبتوا على الفتنة فلم يجيبوا بالكلية أربعة ^(١) : أحمد بن حنبل وهو رئيسهم ، ومحمد بن
نوح بن ميمون الجند يسابوري ، ومات في الطريق . ونعيم بن حاد الخزاعي ، وقد مات في السجن ،
وأبو يعقوب البويطي وقد مات في سجن الواثق على القول بخلق القرآن . وكان مثقلاً بالحديد .
وأحمد بن نصر الخزاعي وقد ذكرنا كيفية مقتله .

ثناء الأئمة على الامام أحمد بن حنبل

قال البخاري : لما ضرب أحمد بن حنبل كناً بالبصرة فسمعت أبا الوليد الطيالسي يقول :
لو كان أحمد في بني إسرائيل لكان أحدوثه . وقال إسماعيل بن الخليل : لو كان أحمد في بني إسرائيل
لكان نبياً . وقال المزني : أحمد بن حنبل يوم المحنة ، وأبو بكر يوم الردة ، وعمر يوم السقيفة ، وعثمان
يوم الدار ، وعلى يوم الجمل وصفين . وقال حرمله : سمعت الشافعي يقول : خرجت من العراق فإني
تركته رجلاً أفضل ولا أعلم ولا أروع ولا أتقى من أحمد بن حنبل . وقال شيخ أحمد يحيى بن سعيد
القطان : ما قدم على بفساد أحد أحب إلي من أحمد بن حنبل . وقال قتيبة : مات سفيان الثوري
ومات الورع ، ومات الشافعي ومات السنن ، ويموت أحمد بن حنبل وتظهر البدع . وقال إن أحمد

ابن حنبل قام في الأمة مقام النبوة . قال البيهقي - يعني في صبره على ما أصابه من الأذى في ذات الله - وقال أبو عمر بن النحاس - وذكر أحمد يوماً - فقال رحمه الله : في الدين ما كان أبصره ، وعن الدنيا ما كان أبصره ، وفي الزهد ما كان أخبره ، وبالصالحين ما كان ألحقه ، وبالمؤمنين ما كان أشبهه ، عرضت عليه الدنيا فأبأها ، والبدع فتنهاها . وقال بشر الحافي بعد ما ضرب أحمد بن حنبل : أدخل أحمد الكبير فخرج ذهباً أحر . وقال الميموني قال لي علي بن المديني بعد ما امتحن أحمد وقيل قبل أن يمتحن : يا ميمون ما قام أحد في الاسلام ما قام أحمد بن حنبل . فعجبت من هذا عجبا شديداً وذهبت إلى أبي عبيد القاسم بن سلام فحكيت له مقالة علي بن المديني فقال : صدق ، إن أبا بكر وجد يوم الردة أنصاراً وأعواناً ، وإن أحمد بن حنبل لم يكن له أنصار ولا أعوان . ثم أخذ أبو عبيد يطري أحمد ويقول : لست أعلم في الاسلام مثله . وقال إسحاق بن راهويه : أحمد حجة بين الله وبين عبيده في أرضه . وقال علي بن المديني : إذا ابتليت بشيء فأفئني أحمد بن حنبل لم أبال إذا لقيت ربي كيف كان . وقال أيضاً : إني اتخذت أحمد حجة فيما بيني وبين الله عز وجل ، ثم قال : ومن يقوى على ما يقوى عليه أبو عبد الله ؟ وقال يحيى بن معين : كان في أحمد بن حنبل خصال ما رأيتهما في عالم قط ، كان محدثاً ، وكان حافظاً ، وكان عالماً ، وكان ورعاً ، وكان زاهداً ، وكان عاقلاً . وقال يحيى بن معين أيضاً : أراد الناس منا أن نكون مثل أحمد بن حنبل ، والله ما تقوى أن نكون مثله ولا نطيق سلوك طريقه . وقال الذهلي : اتخذت أحمد حجة فيما بيني وبين الله . وقال هلال بن المولى الرقي : من الله على هذه الأمة بأربعة : بالشافعي فهم الأحاديث وفسرها ، وبين مجملها من مفصلها ، والخاص العام والناسخ والمنسوخ . وبأبي عبيد بن غريبها . وبيحيى بن معين نفي الكذب عن الأحاديث ، وبأحمد بن حنبل ثبت في الحجة لولا هؤلاء الأربعة هلك الناس . وقال أبو بكر ابن أبي داود : أحمد بن حنبل مقدم على كل من يحمل بيده قلماً ومحررة - يعني في عصره - وقال أبو بكر محمد بن محمد بن رجاء : ما رأيت مثل أحمد بن حنبل ولا رأيت من رأى مثله . وقال أبو زرعة الرازي : ما أعرف في أصحابنا أسود الرأس أفقه منه . وروى البيهقي عن الحاكم عن يحيى بن محمد العنبري قال : أنشدنا أبو عبد الله البوسندي في أحمد بن حنبل رحمه الله : -

إِنَّ ابْنَ حَنْبَلٍ إِنْ سَأَلْتَ إِمَامَنَا • وَبِهِ الْأَثْمَةُ فِي الْأَنْامِ تَمَسَّكُوا
خَلْفَ النَّبِيِّ مُحَمَّدًا بَعْدَ الْأُولَى • خَلَفُوا الْخُلَافَةَ بَعْدَهُ وَاسْتَهْلَكُوا
حَقَّوْا الشَّرَاكَ عَلَى الشَّرَاكِ وَإِنَّمَا • يَحْنُو الْمَثَالُ مِثْلَهُ الْمُسْتَمْسِكُ

وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله (ص) أنه قال : « لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك » . وروى البيهقي عن

أبي سعيد الماليني عن ابن عدي عن أبي القاسم البغوي عن أبي الربيع الزهراني عن حماد بن زيد عن بنية بن الوليد عن معاذ بن رفاعة عن إبراهيم بن عبد الرحمن المنري ح . قال البغوي : وحدثني زياد بن أيوب حدثنا مبشر عن معاذ عن إبراهيم بن عبد الرحمن المنري ح . قال البغوي قال قال رسول الله (ص) : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » وهذا الحديث مرسل وإسناده فيه ضعف . والعجب أن ابن عبد البر صححه واحتج به على عدالة كل من حمل العلم ، والامام أحمد من أئمة أهل العلم رحمه الله واكرم منواه .

ما كان من أمر الامام احمد بعد المحنة

حين خرج من دار الخلافة صار إلى منزله فدوى حتى برأ الله الحد ، ولزم منزله فلا يخرج منه إلى جمعة ولا جماعة ، وامتنع من التحديث ، وكانت غلته من ملك له في كل شهر سبعة عشر درهما ينفقها على عياله ويتنقع بذلك رحمه الله صابرا محتسبا . ولم يزل كذلك مدة خلافة المعتصم ، وكذلك في أيام ابنه محمد الواثق ، فلما ولي المتوكل على الله الخلافة استبشر الناس بولايته ، فانه كان محبا للسنة وأهلها ، ورفع المحنة عن الناس ، وكتب إلى الآفاق لا يتكلم أحد في القول بخلق القرآن ، ثم كتب إلى نائبه ببغداد - وهو إسحاق بن إبراهيم - أن يبعث بأحمد بن حنبل إليه ، فاستدعى إسحاق بالامام أحمد إليه فأكرمه وعظمه ، لما يعلم من إعظام الخليفة له وإجلاله إياه ، وسأله فيما بينه وبينه عن القرآن فقال له أحمد : سؤالك هذا سؤال نعمت أو استرشاد . فقال : بل سؤال استرشاد . فقال : هو كلام الله منزل غير مخلوق ، فسكن إلى قوله في ذلك ، ثم جهزه إلى الخليفة إلى سر من رأى ثم سبقه إليه . وبلغه أن أحمد اجتاز بابنه محمد بن إسحاق فلم يأت به ولم يسلم عليه ، فغضب إسحاق بن إبراهيم من ذلك وشكاه إلى الخليفة فقال المتوكل : برد وإن كان قد وطئ بساطي ، فرجع الامام أحمد من الطريق إلى بغداد . وقد كان الامام أحمد كرها لحجيته إليهم ولكن لم يهن ذلك على كثير من الناس وإنما كان رجوعه عن قول إسحاق بن إبراهيم الذي كان هو السبب في ضربه . ثم إن رجلا من المبتدعة يقال له ابن البلخي وشي إلى الخليفة شيئا فقال : إن رجلا من العلويين قد أوى إلى منزل أحمد بن حنبل وهو يبايع له الناس في الباطن . فأمر الخليفة نائب بغداد أن يكبس منزل أحمد من الليل . فلم يشعروا إلا والمشاعل قد أحاطت بالدار من كل جانب حتى من فوق الأسطحة ، فوجدوا الامام أحمد جالسا في داره مع عياله فسألوه عما ذكر عنه فقال : ليس عندي من هذا علم ، وليس من هذا شيء ولا هذا من نيتي ، وإني لأرى طاعة أمير المؤمنين في السر والعلانية ، وفي عسري ويسري ومنشطى ومكرهى ، وأثره على ، وإني لأدعو الله له بالتسديد والتوفيق ، في الليل والنهار ، في كلام كثير . ففتشوا منزله حتى مكان الكتب وبيوت النساء والأسطحة وغيرها فلم يروا شيئا . فلما بلغ

المتوكل ذلك وعلم برأته مما نسب إليه علم أنهم يكذبون عليه كثيراً ، فبعث إليه يعقوب بن إبراهيم المعروف بقوصرة - وهو أحد الحجة - بعشرة آلاف درهم من الخليفة ، وقال : هو يقرأ عليك السلام ويقول : استبقي هذه ، فامتنع من قبولها . فقال : يا أبا عبد الله إني أخشى من ردك إياها أن يقع وحشة بينك وبينه ، والمصلحة لك قبولها ، فوضعها عنده ثم ذهب فلما كان من آخر الليل استدعى أحمد أهله وبنى عمه وعياله وقال : لم أتم هذه الليلة من هذا المال ، فجلسوا وكتبوا أسما جماعة من المحتاجين من أهل الحديث وغيرهم من أهل بغداد والبصرة ، ثم أصبح ففرقها في الناس ما بين الحسين إلى المائة والمائتين ، فلم يبق منها درهما ، وأعطى منها لأبي أيوب وأبي سعيد الأشج ، وتصدق بالكيس الذي كانت فيه ، ولم يمت منها لأهله شيئاً وهم في غاية الفقر والجهد ، وجاء بنو ابنه فقال : أعطى درهما . فنظر أحمد إلى ابنه صالح فتناول صالح قطعة فأعطاهما الصبي فسكت أحمد . وبلغ الخليفة أنه تصدق بالجائزة كلها حتى كيسها ، فقال علي بن الجهم : يا أمير المؤمنين إنه قد قبلها منك وتصدق بها عنك ، وماذا يصنع أحمد بالمال ؟ إنما يكفيه رغيف فقال : صدقت .

فلما مات إسحاق بن إبراهيم وابنه محمد ولم يكن بينهما إلا القريب ، وتولى نيابة بغداد عبد الله ابن إسحاق ، كتب المتوكل إليه أن يحمل إليه الامام أحمد ، فقال لأحمد في ذلك فقال : إني شيخ كبير وضعيف ، فرد الجواب على الخليفة بذلك ، فأرسل يعزم عليه لتأنيته ، وكتب إلى أحمد : إني أحب أن آنس بقربك وبالتنظر إليك ، ويحصل لي بركة دعائك . فسار إليه الامام أحمد - وهو عليل - في بنيه وبعض أهله ، فلما قارب المسكر تلقاه وصيف الخادم في موكب عظيم ، فسلم وصيف على الامام أحمد فرد السلام وقال له وصيف : قد أمكنك الله من عدوك ابن أبي دؤاد . فلم يرد عليه جواباً ، وجعل ابنه يدعو الله للخليفة ولوصيف . فلما وصلوا إلى المسكر بسر من رأى ، أنزل أحمد في دار إيتاخ ، فلما علم بذلك ارتحل منها وأمر أن يستكرى له دار غيرها . وكان رؤس الأمراء في كل يوم يحضرون عنده ويبلغونه عن الخليفة السلام ، ولا يدخلون عليه حتى يقلعون ما عليهم من الزينة والسلاح . وبعث إليه الخليفة بالمفارش الوطيفة وغيرها من الآلات التي تليق بتلك الدار العظيمة ، وأراد منه الخليفة أن يقيم هناك ليحدث الناس عوضاً عما فاتهم منه في أيام الحنة وما بعدها من السنين المتطاولة ، فاعتذر إليه بأنه عليل وأسنانة تتحرك وهو ضعيف ~~كان~~ الخليفة يبعث إليه في كل يوم مائدة فيها ألوان الأطلعة والفاكهة والتلج ، مما يقاوم مائة وعشرين درهماً في كل يوم ، والخليفة يحسب أنه يأكل من ذلك ، ولم يكن أحمد يأكل شيئاً من ذلك بالكلية ، بل كان صائماً يطوى ، فكث ثمانية أيام لم يستطع بطعام ، ومع ذلك هو مريض ، ثم أقسم عليه ولده حتى شرب قليلاً من السويق بعد ثمانية أيام . وجاء عبيد الله بن يحيى بن خاقان بتمال جزيل من الخليفة جائزة له فامتنع

من قبوله ، فألح عليه الأمير فلم يقبل . فأخذها الأمير ففرقها على بنيه وأهله ، وقال : إنه لا يمكن ردها على الخليفة . وكتب الخليفة لأهله وأولاده في كل شهر بأربعة آلاف درهم ، فأنع أبو عبد الله الخليفة ، فقال الخليفة : لا بد من ذلك ، وما هذا إلا لولدك . فأمسك أبو عبد الله عن مما نفعه ثم أخذ يلوم أهله وعه ، وقال لهم : إنما بقي لنا أيام قلائل ، وكأنتا قد نزل بنا الموت ، فاما إلى جنة وإما إلى نار ، فنخرج من الدنيا وبطوننا قد أخذت من مال هؤلاء . في كلام طويل يعظمهم به . فاحتجوا عليه بالحديث الصحيح « ما جاءك من هذا المال وأنت غير سائل ولا مستشرف نغنه » . وأن ابن عمر وابن عباس قبلوا جوائز السلطان . فقال : وما هذا وذاك سواء ، ولو أعلم أن هذا المال أخذ من حقه وليس بظلم ولا جور لم أبال .

ولما استمر ضعفه جعل المتوكل يبعث إليه بآبن ماسويه المتطبيب لينظر في مرضه ، فرجع إليه فقال : يا أمير المؤمنين إن أحمد ليس به علة في بدنه ، وإنما علته من قلة الطعام وكثرة الصيام والعبادة . فسكت المتوكل ثم سألت أم الخليفة منه أن ترى الامام أحمد ، فبعث المتوكل إليه يسأله أن يجتمع بابنه المعتز ويدعوه ، وليكن في حجره . فتمنع من ذلك ثم أجاب إليه رجا أن يعجل برجوعه إلى أهله ببغداد . وبعث الخليفة إليه بخلة سنية ومركوب من مراكبه ، فامتنع من ركوبه لأنه عليه ميثة نمور ، فجئ ببغل لبعض التجار فركبه وجاء إلى مجلس المعتز ، وقد جلس الخليفة وأمه في ناحية في ذلك المجلس ، من وراء ستر رقيق . فلما جاء أحمد قال : سلام عليكم . وجلس ولم يسلم عليه بالأمرة ، فقالت أم الخليفة : الله الله يا بني في هذا الرجل ترده إلى أهله ، فان هذا ليس بمن يريد ما أنتم فيه . وحين رأى المتوكل أحمد قال لأمه : يا أمه قد تأنست الدار . وجاء الخادم ومعه خلعة سنية مبطنه وثوب وقلنسوة وطيلسان ، فألبسها أحمد بيده ، وأحمد لا يتحرك بالكلية . قال الامام أحمد : ولما جاست إلى المعتز قال مؤدبه : أصلح الله الأمير هذا الذي أمر الخليفة أن يكون مؤدبك . فقال : إن علمني شيئا تعلمته ، قال أحمد : فتمعجت من ذكائه في صفه لأنه كان صغيراً جداً فخرج أحمد عنهم وهو يستغفر الله ويستعيذ بالله من مقتنه وغضبه .

ثم بعد أيام أذن له الخليفة بالانصراف وهياً له خزاقة فلم يقبل أن ينحدر فيها ، بل ركب في زورق فدخل بغداد مخفياً ، وأمر أن تباع تلك الخلعة وأن يتصدق بشمها على الفقراء والمساكين . وجعل أياماً يتألم من اجتماعه بهم ويقول : سلمت منهم طول عمرى ثم ابتليت بهم في آخره . وكان قد جاع عندهم جوعاً عظيماً كثيراً حتى كاد أن يقتله الجوع . وقد قال بعض الأمراء للمتوكل : إن أحمد لا يأكل لك طعاماً ، ولا يشرب لك شراباً ، ولا يجلس على فرشك ، ويحرم ما تشربه . فقال : والله لو نشر المعتصم وكلني في أحمد ما قبلت منه . وجعلت رسل الخليفة تفتد إليه في كل يوم تستعلم أخباره

وكيف حاله . وجعل يستفتيه في أموال ابن أبي دؤاد فلا يجيب بشئ ، ثم إن المتوكل أخرج ابن أبي دؤاد من سر من رأى إلى بغداد بعد أن أشهد عليه نفسه ببيع ضياعه وأملاكه وأخذ أمواله كلها . قال عبد الله بن أحمد : وجين رجع أبي من سامرا وجدنا عفيفه قد دخلنا في موقيه ، وما رجعت إليه نفسه إلا بعد ستة أشهر ، وامتنع أن يدخل بيت قرابته أو يدخل بيناهم فيه أو يفتنع بشئ مما هم فيه لأجل قبولهم أموال السلطان .

وكان مسير أحمد إلى المتوكل في سنة سبع وثلاثين ومائتين ، ثم مكث إلى سنة وفاته وكل يوم إلا ويسأل عنه المتوكل ويوفد إليه في أمور يشاوره فيها ، ويستشير في أشياء تقع له . ولما قدم المتوكل بغداد بعث إليه ابن خاقان ومعه ألف دينار ليفرقها على من يرى ، فامتنع من قبولها وتفرقها ، وقال : إن أمير المؤمنين قد أعفاني مما أكره فردها . وكتب رجل رقعة إلى المتوكل يقول : يا أمير المؤمنين إن أحمد يشتم أبائك وبريهم بالزندقة . فكتب فيها المتوكل : أما المأمون فانه خلط فسلط الناس على نفسه ، وأما أبي المنصور فانه كان رجل حرب ولم يكن له بصير بالكلام ، وأما أخى الوائق فانه استحق ما قيل فيه . ثم أمر أن يضرب الرجل الذي رفع إليه الرقعة مائتي سوط ، فأخذ عبد الله بن إسحاق ابن إبراهيم فضربه خمسمائة سوط . فقال له الخليفة : لم ضربته خمسمائة سوط ؟ فقال : مائتين لطاعتك ومائتين لطاعة الله ، ومائة لكونه قنف هذا الشيخ الرجل الصالح أحمد بن حنبل .

وقد كتب الخليفة إلى أحمد يسأله عن القول في القرآن سؤال استرشاد واستفادة لا سؤال تمت ولا امتحان ولا عناد . فكتب إليه أحمد رحمه الله رسالة حسنة فيها آثار عن الصحابة وغيرهم ، وأحاديث مرفوعة . وقد أودعها ابنه صالح في الخنة التي ساقها ، وهي مروية عنه ، وقد نقلها غير واحد من الحفاظ .

وفاة الإمام أحمد بن حنبل

قال ابنه صالح : كان مرضه في أول شهر ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين ومائتين ، ودخلت عليه يوم الأربعاء ثاني ربيع الأول وهو محموم يتنفس الصعداء وهو ضعيف ، فقلت : يا أبت ما كان غداؤك ؟ فقال : ماء الباقلا . ثم إن صالحا ذكر كثرة بحجى الناس من الأكابر وعموم الناس لميادته وكثرة حرج الناس عليه ، وكان معه خريقة فيها قطيعات ينفق على نفسه منها ، وقد أمر ولده عبد الله أن يطالب سكان ملسكه وأن يكفر عنه كفارة يمين ، فأخذ شيئا من الأجرة فاشترى تمرًا وكفر عن أبيه ، وفضل من ذلك ثلاثة دراهم . وكتب الإمام أحمد وصيته :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أوصى به أحمد بن محمد بن حنبل ، أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . وأوصى من أطاعه من أهله وقرابته أن يعبدوا الله في العبادين ، وأن يحمده في

الحامدين ، وأن ينصحوا جماعة المسلمين ، وأوصى أنى قد رضى الله ربا وبالإسلام ديننا وبمحمد نبياً ، وأوصى لعبد الله بن محمد المعروف ببوران على نحواً من خمسين ديناراً وهو مصلى فيها فيقضى ماله على من غلة الدار إن شاء الله ، فإذا استوفى أعطى ولد صالح كل ذكر وأنتى عشرة دراهم . ثم استدعى بالصبيان من ورثته فجعل يبتعولهم ، وكان قد ولد له صبي قبل موته بخمسين يوماً فسماه سعيداً ، وكان له ولد آخر اسمه محمد قد مشى حين مرض فدعا ، فالتزمه وقبله ثم قال : ما كنت أصنع بالولد على كبر السن ؟ فقيل له : ذرية تكون بك يدعون لك . قال وذاك إن حصل . وجعل يحمده الله تعالى . وقد بلغه في مرضه عن طائوس أنه كان يكره أنين المريض فترك الأنين فلم يئن حتى كانت الليلة التي توفى في صبيحتها أن ، وكانت ليلة الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول من هذه السنة ، فأن حين اشتد به الوجع . وقد روى عن ابنه عبد الله وروى عن صالح أيضاً أنه قال : حين احتضر أبى جعل يكثر أن يقول : لا بعد ، لا بعد ، فقلت : يا أبة ماهذه اللفظة التي تلهج بها في هذه الساعة ؟ فقال : يا بنى إن إبليس واقف في زواية البيت وهو عاض على أصبعه وهو يقول : فنى يا أحمد ؟ فأقول لا بعد لا بعد - يعنى لا يفوته حتى يخرج نفسه من جسده على التوحيد - كما جاء في بعض الأحاديث قال إبليس : يارب وعزتك وجلالك ما أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم . فقال الله : وعزتى وجلالى ولا أزال أغفر لهم ما استغفرونى .

وأحسن ما كان من أمره أنه أشار إلى أهله أن يوضؤوه فجعلوا يوضؤونه وهو يشير إليهم أن خللوا أصابعى وهو يذكر الله عز وجل في جميع ذلك ، فلما أكلوا وضؤوه توفى رحمه الله ورضى عنه . وقد كانت وفاته يوم الجمعة حين مضى منه نحو من ساعتين ، فاجتمع الناس في الشوارع وبعث محمد بن طاهر حاجبه ومعه غلمان ومعهم مناديل فيها أكفان ، وأرسل يقول : هذا نيابة عن الخليفة ، فإنه لو كان حاضراً لبعث بهذا . فأرسل أولاده يقولون : إن أمير المؤمنين كان قد أعفاه في حياته مما يكره وأبوا أن يكفنوه بذلك الأكفان ، وأنى بثوب كان قد غزلته جاريته فكفنوه واشتروا معه عوز لفافة وحنوطاً واشتروا له راوية ماء وامتنعوا أن يفسلوه بماء بيوتهم ، لأنه كان قد هجر بيوتهم فلا يأكل منها ولا يستعير من أمتعتهم شيئاً ، وكان لا يزال متنضباً عليهم لأنهم كانوا يقتاتلون ما رتب لهم على بيت المال ، وهو في كل شهر أربعة آلاف درهم . وكان لهم عيال كثيرة وهم فقراء . وحضر غسله نحو من مائة من بيت الخلافة من بنى هاشم ، فجعلوا يقبلون بين عينيه ويدعون له ويترحمون عليه رحمه الله . وخرج الناس بنعشه والخلائق حوله من الرجال والنساء ما لم يعلم عددهم إلا الله ، ونائب البلد محمد بن عبد الله بن طاهر واقف في جملة الناس ، ثم تقدم فمضى أولاد الامام أحمد فيه ، وكان هو الذى أم الناس في الصلاة عليه ، وقد أعاد جماعة الصلاة عليه عند القبر وعلى القبر بعد أن دفن من أجل

ذلك ، ولم يستقر في قبره رحمه الله إلا بعد صلاة العصر وذلك لكثرة الخلق .

وقد روى البيهقي وغير واحد أن الأمير محمد بن طاهر أمر بحزر الناس فوجدوا ألف ألف وثلثمائة ألف ، وفي رواية وسبعمائة ألف سوى من كان في السفن . وقال ابن أبي حاتم : سمعت أبا زرعة يقول بلغني أن المتوكل أمر أن يمسح الموضع الذي وقف الناس فيه حيث صلوا على الإمام أحمد بن حنبل فبلغ مقاسه ألفي ألف وخمسمائة ألف . قال البيهقي عن الحاكم سمعت أبا بكر أحمد بن كامل القاضي يقول سمعت محمد بن يحيى الزنجاني سمعت عبد الوهاب الوراق يقول : ما بلغنا أن جماعاً في الجاهلية ولا في الاسلام اجتمعوا في جنازة أكثر من الجمع الذي اجتمع على جنازة أحمد بن حنبل . فقال عبد الرحمن بن أبي حاتم سمعت أبي يقول حدثني محمد بن العباس المكي سمعت الوركاني - جارا أحمد ابن حنبل - قال : أسلم يوم مات أحمد عشرون ألفاً من اليهود والنصارى والمجوس ، وفي بعض النسخ أسلم عشرة آلاف بدل عشرين ألفاً قاله أعلم .

وقال الدارقطني : سمعت أبا سهل بن زياد سمعت عبد الله بن أحمد يقول سمعت أبي يقول : قولوا لاهل البدع بيننا وبينكم الجنائز حين تمر . وقد صدق الله قول أحمد في هذا ، فإنه كان إمام السنة في زمانه ، وعيون مخالفيه أحمد بن أبي دؤاد وهو قاضي قضاة الدنيا لم يحتفل أحد بموته ، ولم يلتفت إليه . ولما مات ما شيعه إلا قليل من أعوان السلطان . وكذلك الحارث بن أسد المحاسبي مع زهده وورعه وتنقيده ومحاسبته نفسه في خطراته وحركاته ، لم يصل عليه إلا ثلاثة أو أربعة من الناس . وكذلك بشر بن غياث المريسي لم يصل عليه إلا طائفة يسيرة جداً ، فله الأمر من قبل ومن بعد . وقد روى البيهقي عن حجاج بن محمد الشاعر أنه قال : ما كنت أحب أن أقتل في سبيل الله ولم أصل على الإمام أحمد . وروى عن رجل من أهل العلم أنه قال يوم دفن أحمد : دفن اليوم سادس خمسة ، وهم أبو بكر ، وعمر ، وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز وأحمد . وكان عمره يوم مات سبعاً وسبعين سنة وأياماً أقل من شهر رحمه الله تعالى .

ذكر ما روي له من المنامات

وقد صح في الحديث : « لم يبق من النبوة إلا المبشرات » . وفي رواية « إلا الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له » . وروى البيهقي عن الحاكم سمعت علي بن محشاد سمعت جعفر بن محمد بن الحسين سمعت سلمة بن شبيب يقول : كنا عند أحمد بن حنبل وجاءه شيخ ومعه عكازة فسلم وجلس فقال : من منكم أحمد بن حنبل ؟ فقال أحمد : أنا ما حاجتك ؟ فقال ضربت إليك من أربع مائة فرسخ ، أريت الخضر في المنام فقال لي : سر إلى أحمد بن حنبل وسل عنه وقل له : إن ساكن العرش والملائكة راضون بما صبرت نفسك لله عز وجل . وعن أبي عبد الله محمد بن خزيمة الاسكندراني . قال : لما

مات أحمد بن حنبل اغتممت غما شديداً فرأيتيه في المنام وهو يتبختر في مشيته فقلت له : يا أبا عبد الله أى مشية هذه ؟ فقال : مشية الخدام في دار السلام . فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال : أغفر لي وتوجني وألبسني نعلين من ذهب ، وقال لي : يا أحمد هذا بقولك القرآن كلامي ، ثم قال لي : يا أحمد ادعني بتلك الدعوات التي بلغتك عن سفيان الثوري وكنت تدعونهن في دار الدنيا ، فقلت : يا رب كل شيء ، بقدرتك على كل شيء اغفر لي كل شيء حتى لا تسألني عن شيء . فقال لي : يا أحمد هذه الجنة قم فادخلها . فدخلت فإذا أنا بسفيان الثوري وله جناحان أخضران يطير بهما من نخلة إلى نخلة ، ومن شجرة إلى شجرة ، وهو يقول [الحمد لله الذي أورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين] . قال فقلت له : ما فعل بشر الحافي ؟ فقال يخ يخ ، ومن مثل بشر ؟ تركته بين يدي الجليل وبين يديه مائدة من الطعام والجليل مقبل عليه وهو يقول : كل يا من لم يأكل ، واشرب يا من لم يشرب ، وانعم يا من لم ينعم ، أو كما قال . وقال أبو محمد بن أبي حاتم عن محمد بن مسلم ابن وارة قال : لما مات أبو زرعة رأيته في المنام فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال قال الجبار : ألحقوه بأبي عبد الله وأبي عبد الله وأبي عبد الله ، مالك والشافعي وأحمد بن حنبل . وقال أحمد بن خرزاد الانطاكي : رأيت في المنام كأن القيامة قد قامت وقد برز الرب جل جلاله ، لفصل القضاء ، وكأن مناديا ينادي من تحت العرش : أدخلوا أبا عبد الله وأبا عبد الله وأبا عبد الله الجنة . قال فقلت للملك إلى جنبي : من هؤلاء ؟ فقال : مالك ، والثوري ، والشافعي وأحمد بن حنبل . وروى أبو بكر بن أبي خيثمة عن يحيى بن أيوب المقدسي قال : رأيت رسول الله (س) في النوم وهو قائم وعليه ثوب منطى به وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين يذبان عنه . وقد تقدم في ترجمة أحمد بن أبي دؤاد عن يحيى الجلاء أنه رأى كأن أحمد بن حنبل في حلقة بالمسجد الجامع وأحمد بن أبي دؤاد في حلقة أخرى وكأن رسول الله (س) واقف بين الحلقتين وهو يتلو هذه الآية [فإن يكفربها هؤلاء] ويشير إلى حلقة ابن أبي دؤاد [فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين] ويشير إلى أحمد بن حنبل وأصحابه

ثم دخلت سنة ثنتين وأربعين ومائتين

فبها كانت زلازل هائلة في البلاد ، فبها ما كان بمدينة قوس ، تهدمت منها دور كثيرة ، ومات من أهلها نحو من خمسة وأربعين ألفاً وستة وتسعين نفساً . وكانت باليمن وخراسان وپارس والشام وغيرها من البلاد زلازل منكرة . وفيها أغارت الروم على بلاد الجزيرة فأنهبوا شيئاً كثيراً وأسروا نحواً من عشرة آلاف من الذراري . فانا لله وإنا إليه راجعون . وفيها حج بالناس عبد الصمد بن موسى بن إبراهيم الامام بن محمد بن علي نائب مكة .

وفيها توفي من الأعيان الحسن بن علي بن الجعد قاضي مدينة المنصور .

وأبو حسان الزيادي

قاضي الشرقية ، واسمه الحسن بن عثمان بن حماد بن حسان بن عبد الرحمن بن يزيد البغدادي ،
 مع الوليد بن مسلم ، ووكيع بن الجراح ، والواقدي ، وخلقا سوام . وعنه أبو بكر بن أبي الدنيا وعلى
 ابن عبد الله الفرغاني الحافظ المعروف بطفل ، وجماعة . ترجمه ابن عساكر في تاريخه . قال : وليس
 هو من سلالة زياد بن أبيه ، إنما تزوج بعض أجداده بأُم ولد لزياد ، فليل له الزيادي . ثم أورد من
 حديثه بسنده عن جابر « الحلال بين والحرام بين » . الحديث . وروى عن الخطيب أنه قال :
 كان من العلماء الأفاضل من أهل المعرفة والثقة والأمانة ، ولي قضاء الشرقية في خلافة المتوكل ، وله
 تاريخ على السنين ، وله حديث كثير . وقال غيره : كان صالحا دينيا قد عمل الكتب ، وكانت له
 معرفة جيدة بأيام الناس ، وله تاريخ حسن ، وكان كريما مفضالا . وقد ذكر ابن عساكر عنه أشياء
 حسنة ، منها أنه أنفذ إليه بعض أصحابه يذكر له أنه قد أصابته ضائقة في عيد من الأعياد ، ولم يكن
 عنده غير مائة دينار ، فأرسلها بصرتها إليه ، ثم سأل ذلك الرجل صاحب له أيضا وشكا إليه مثلها
 شكّا إلى الزيادي ، فأرسل بها الآخر إلى ذلك الآخر . وكتب أبو حسان إلى ذلك الرجل الأخير
 الذي وصلت إليه أخيرا يستقرض منه شيئا وهو لا يشعر بالأمر ، فأرسل إليه بالمائة في صرتها ، فلما
 رآها تعجب من أمرها وركب إليه يسأله عن ذلك فذكر أن فلانا أرسلها إليه ، فاجتمعوا الثلاثة
 واقتسموا المائة الدينار رحمهم الله وجزاهم عن مروتهم خيرا .

وفيها توفي أبو مصعب الزهري أحد رواة الموطأ عن مالك ، وعبد الله بن ذكوان أحد القراء
 المشاهير . ومحمد بن أسلم الطوسي . ومحمد بن رمج . ومحمد بن عبد الله بن عمار الموصلي أحد أئمة
 الجرح والتعديل . والقاضي يحيى بن أكرم .

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين ومائتين

في ذي القعدة منها توجه المتوكل على الله من العراق قاصداً مدينة دمشق ليجمعها له دار إقامة
 ومحلة إمامة فأدركه عيد الأضحى بها ، وتأسف أهل العراق على ذهاب الخليفة من بين أظهرهم ، فقال
 في ذلك يزيد بن محمد المهلبى :

أظنَّ الشامَ تشمتُ بالعراقِ * إذ اعزَمَ الإمامُ على انطلاقِ
 فانَّ يدعِ العراقَ وساكنيها * فقد تَبَيَّ المصلحةُ بالطلاقِ

وحج بالناس فيها الذي حج بهم في التي قبلها وهو نائب مكة .

وفيها توفي من الأعيان كما قال ابن جرير :

إبراهيم بن العباس

متولى ديوان الضيع . قلت : هو إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول الصولي الشاعر الكاتب ،

وهو عم محمد بن يحيى الصولي ، وكان جده صول بكر ملك جرجان وكان أصله منها ، ثم تعمس ثم أسلم على يدي يزيد بن المهلب بن أبي صفرة ، ولا إبراهيم هذا ديوان شعر ذكره ابن خلكان واستجاد من شعره أشياء منها قوله :

ولربك نازلة يضيق بها الفتى • ذرعاً وعند الله منها مخرج
ضائق فلما استحكت حلقاًها • فرجت وكنت أظنها لا تفرج
ومنها قوله : كنت السواد لملقي • فبكي عليك الناظر
من شاء بعدك فليمت • فعليك كنت أحاذر

ومن ذلك ما كتب به إلى وزير المعتمد محمد بن عبد الملك بن الزيت .

وكنت أنخي بإخاء الزمان • فلما نفي صرت حروباً عوانا
وكنت أدم إليك الزمان • فأصبحت منك أدم الزمان
وكنت أعدك للنائب • فها أنا أطلب منك الأمان
وله أيضاً : لا يمنحك خفض العيش في دعة • نزوع نفسي إلى أهل وأوطان
تلقى بكل بلاد إن حلت بها • أهلاً بأهل وأوطاناً بأوطان

كانت وفاته بمنصف شعبان من هذه السنة . بسر من رأى . والحسن بن محمد بن الجراح خليفة إبراهيم بن شعبان . قال : ومات هاشم بن فيجور في ذي الحجة . قلت : وفيها توفي أحمد بن سعيد الرابلي . والحارث بن أسد المحاسبي . أحد أئمة الصوفية . وحرمة ابن يحيى التجيبي صاحب الشافعي . وعبد الله بن معاوية الجمعي . ومحمد بن عمر العدني . وهارون ابن عبد الله الحائي . وهناد بن السري .

ثم دخلت سنة أربع وأربعين ومائتين

في صفر منها دخل الخليفة المتوكل إلى مدينة دمشق في أبهة الخلافة وكان يوماً مشهوداً ، وكان عازماً على الإقامة بها ، وأمر بنقل دواوين الملك إليها ، وأمر ببناء القصور بها فبنيت بطريق داريا ، فأقام بها مدة ، ثم إنه استوخمها ورأى أن هواها بارد ندى وماءها ثقيل بالنسبة إلى هواء العراق ومائه ، ورأى الهواء بها يتحرك من بعد الزوال في زمن الصيف ، فلا يزال في اشتداد وغبار إلى قريب من ثلث الليل ، ورأى كثرة البراغيث بها ، ودخل عليه فصل الشتاء فرأى من كثرة الأمطار والثلوج أمراً عجيبي ، وغلت الأسعار وهو بها لكثرة الخلق الذين معه ، وانقطعت الأجلاب بسبب كثرة الأمطار والثلوج ، فضجر منها ثم جهز بفا إلى بلاد الروم ، ثم رجع من آخر السنة إلى سامرا بعد ما أقام بدمشق شهرين وعشرة أيام ، وفرح به أهل بغداد فرحاً شديداً . وفيها أتى المتوكل بالحرية

التي كانت تحمل بين يدي رسول الله (س)، ففرح بها فرحاً شديداً ، وقد كانت تحمل بين يدي رسول الله (س)، يوم العيد وغيره ، وقد كانت للنجاشي فوهها للزبير بن العوام ، فوهها الزبير للنبي (س)، ثم إن المتوكل أمر صاحب الشرطة أن يحملها بين يديه كما كانت تحمل بين يدي رسول الله (س)، وفيها غضب المتوكل على الطيب بختيشوع ونفاه وأخذ ماله . وحج بالناس فيها عبد الصمد المتقدم ذكره قبلها . واتفق في هذه السنة يوم عيد الأضحى وخمس فطر اليهود وشعانين النصراني وهذا عجيب غريب .

وفيها توفي أحمد بن منيع . وإسحاق بن موسى الخطمي . وحيد بن مسعدة . وعبد الحميد بن سنان . وعلى بن حجر . والوزير محمد بن عبد الملك الزيات . ويعقوب بن السكيت صاحب إصلاح المنطق . ثم دخلت سنة خمس وأربعين ومائتين

فيها أمر المتوكل ببناء مدينة الماحوزة وحفر نهرها ، فيقال إنه أنفق على بنائها وبناء قصر الخلافة بها الذي يقال له « اللؤلؤة » ألفي ألف دينار . وفيها وقعت زلازل كثيرة في بلاد شتى ، فمن ذلك بمدينة إنطاكية سقط فيها ألف وخمسمائة دار ، وانهدم من سورها نيف وتسعون برجاً ، وصممت من كوى دورها أصوات مزجة جداً فخرجوا من منازلهم سراعاً يهرعون ، وسقط الجبل الذي إلى جانبها الذي يقال له الاقرع فساخ في البحر ، فهاج البحر عند ذلك وارتفع دخان أسود مظلم منتن ، وغار نهر على فرسخ منها فلا يدرى أين ذهب . ذكر أبو جعفر بن جرير قال : وسمع فيها أهل تنيس ضجة دائمة طويلة مات منها خلق كثير . قال : وزلزلت فيها الرها والرقعة وحران ورأس العين وحمص ودمشق وطرسوس والمصيصة ، وأذنة وسواحل الشام ، ورجفت اللاذقية بأهلها فما بقي منها منزل إلا انهدم ، وما بقي من أهلها إلا اليسير ، وذهبت جيلة بأهلها . وفيها غارت مشاش - عين - مكة حتى بلغ ثمن القرية بمكة ثمانين درهماً . ثم أرسل المتوكل فأنتق عليها مالا جزيلا حتى خرجت . وفيها مات إسحاق بن أبي إسرائيل وسوار بن عبد الله القاضي . وهلال الرازي .

وفيها هلك نجاح بن مسلمة وقد كان على ديوان التوقيع . وقد كان حظيا عند المتوكل ، ثم جرت له حكاية أفضت به إلى أن أخذ المتوكل أمواله وأملاكه وحواصله ، وقد أورد قصته ابن جرير مطولة . وفيها توفي أحمد بن عبدة الضبي ، وأبو الحيس القواس مقي مكة ، وأحمد بن نصر النيسابوري . وإسحاق بن أبي إسرائيل ، وإسماعيل بن موسى ابن بنت السدي . وذو النور المصري ، وعبد الرحمن بن إبراهيم دحيم ، ومحمد بن رافع ، وهشام بن عمار ، وأبو تراب النخشي .

وَأَبْنُ الرَّاوَنْدِي

الزنديق ، وهو أحمد بن يحيى بن إسحاق أبو الحسين بن الراوندي ، نسبة إلى قرية ببلاد طاشان

ثم نشأ ببغداد ، كان بها يصنف الكتب في الزندقة ، وكانت لديه فضيلة ، ولكنه استعملها فيما يضره ولا ينفعه في الدنيا ولا في الآخرة . وقد ذكرناه ترجمته مطولة حسب ما ذكرها ابن الجوزي في سنة ثمان وتسعين ومائتين وإنما ذكرناه هنا لأن ابن خلكان ذكر أنه توفي في هذه السنة ، وقد تلبس عليه ولم يجرحه بل مدحه فقال : هو أبو الحسين أحمد بن إسحاق الراوندي العالم المشهور ، له مقالة في علم الكلام ، وكان من الفضلاء في عصره ، وله من الكتب المصنفة نحو من مائة وأربعة عشرة كتاباً ، منها فضيحة المعتزلة ، وكتاب التاج ، وكتاب الزمردة ، وكتاب القصب ، وغير ذلك . وله محاسن ومحاضرات مع جماعة من علماء الكلام ، وقد انفرد بمذاهب تقلها عنه أهل الكلام . توفي سنة خمس وأربعين ومائتين ، برجة مالك بن طوق التغلبي ، وقيل ببغداد . قلت ذلك عن ابن خلكان بحروفه وهو غلط . وإنما أرخ ابن الجوزي وفاته في سنة ثمان وتسعين ومائتين كما سيأتي له هناك ترجمة مطولة .

فؤاد النون المصري

نوبان بن إبراهيم ، وقيل ابن الفيز بن إبراهيم ، أبو الفيز المصري أحد المشايخ المشهورين ، وقد ترجمه ابن خلكان في الوفيات ، وذكر شيئاً من فضائله وأحواله ، وأرخ وفاته في هذه السنة ، وقيل في التي بعده ، وقيل في سنة ثمان وأربعين ومائتين فله أعلم . وهو معدود في جملة من روى الموطأ عن مالك . وذكره ابن بونس في تاريخ مصر ، قال : كان أبوه نوبياً ، وقيل إنه كان من أهل اخميم ، وكان حكيماً فصيحاً ، قيل وسئل عن سبب توبته فذكر أنه رأى قبرة عمياء نزلت من وكرها فانشقت لها الأرض عن سكرتين من ذهب وفضة في إحداهما شمسم وفي الأخرى ماء ، فأكلت من هذه وشربت من هذه . وقد شكى عليه مرة إلى المتوكل فأحضره من مصر إلى العراق ، فلما دخل عليه وعظه فأبكاها ، فردّه مكرماً . فكان بعد ذلك إذا ذكر عند المتوكل يشنى عليه

ثم دخلت سنة ست وأربعين ومائتين

في يوم عاشوراء منها دخل المتوكل الماحوزة فنزل بقصر الخلافة فيها ، واستدعى بالقراء ثم بالمطربين وأعطى وأطلق ، وكان يوماً مشهوداً ، وفي صفر منها وقع الفداء بين المسلمين والروم ، ففدى من المسلمين نحو من أربعة آلاف أسير . وفي شعبان منها أمطرت بغداد مطراً عظيماً استمر نحواً من أحد وعشرين يوماً ، ووقع بأرض بلخ مطر ماؤه دم عبيط . وفيها حج بالناس محمد بن سليمان الزنبي ، وحج فيها من الأعيان محمد بن عبد الله بن طاهر وولي أمر الموسم .

ومن توفي فيها من الأعيان أحمد بن إبراهيم الدورقي . والحسين بن أبي الحسن المروزي . وأبو عمرو الدورقي . أحد القراء المشاهير . ومحمد بن مصفى الحمصي .

ودعبل بن علي

ابن رزين بن سليمان الخزامي ، مولاهم الشاعر الماخن البليغ في المسح ، وفي المجاء أكثر . حضر يوماً عند سهل بن هارون الكاتب وكان بخيلاً ، فاستدعى بفدائه فإذا ديك في قصعة ، وإذا هو قاس لا يقطعه سكين إلا بشدة ، ولا يعمل فيه ضرر . فلما حضريين يديه فقد رأسه فقال للطباخ ويلك ، ماذا صنعت ؟ أين رأسه ، قال : ظننت أنك لا تأكله فآلقيته ، فقال : وبحك ، والله إني لأعيب علي من يلقي الرجلين فكيف بالرأس ، وفيه الحواس الأربع ، ومنه يصوت وبه ، فضل عينيه وبهما يضرب المثل ، وعرفه وبه يتبرك ، وعظمه أهني العظام ، فان كنت رغبت عن أكله فأحضره . فقال : لا أدرى أين هو ؟ فقال : بل أنا أدرى ، هو في بطنك فأنك الله . فجهاه بأبيات ذكر فيها بخله ومسكه .

أحمد بن أبي الحواري

واسمه^(١) عبد الله بن ميمون بن عياش بن الحارث أبو الحسن التغلبي الغطفاني ، أحد العلماء الزهاد المشهورين ، والعباد المذكورين ، والأبرار المشكورين ، فوى الأحوال الصالحة ، والكرامات الواضحة ، أصله من الكوفة وسكن دمشق وتخرج بأبي سليمان الداراني رحمه الله . وروى الحديث عن سفيان بن عيينة ووكيع وأبي أسامة وخلق . وعنه أبو داود وابن ماجه وأبو حاتم وأبو زرعة الدمشقي ، وأبو زرعة الرازي وخلق كثير . وقد ذكره أبو حاتم فأنى عليه . وقال يحيى بن معين : إني لأظن أن الله يسقي أهل الشام به . وكان الجنيد بن محمد يقول : هو ريحانة الشام .

وروى ابن عساكر أنه كان قد عاهد أبا سليمان الداراني ألا يفضبه ولا يخالفه ، فجاءه يوماً وهو يحدث الناس فقال : يا سيدي هذا قد سجدوا التنور فإذا تأمر ؟ فلم يرد عليه أبو سليمان ، لشغله بالناس ، ثم أعادها أحمد ثانية ، وقال له في الثالثة : اذهب فاقعد فيه . ثم اشتغل أبو سليمان في حديث الناس ثم استفاق فقال لمن حضره : إني قلت لأحمد : اذهب فاقعد في التنور ، وإني أحسب أن يكون قد فعل ذلك ، فقوموا بنا إليه . فذهبوا فوجدوه جالساً في التنور ولم يحترق منه شيء ولا شعرة واحدة . وروى أيضاً أن أحمد بن أبي الحواري أصبح ذات يوم وقد ولد له ولداً لا يملك شيئاً يصلح به الولد ، فقال غلامه : اذهب فاستدن لنا وزنة من دقيق ، فبينما هو في ذلك إذ جاءه رجل بمائتي درهم فوضمها بين يديه ، فدخل عليه رجل في تلك الساعة فقال : يا أحمد إنه قد ولد لي الليلة ولد ولا أملك شيئاً ، فرفع طرفه إلى السماء وقال : يا مولاي هكذا بالعجلة . ثم قال للرجل : خذ هذه الدراهم ، فأعطاه إياها كلها ، ولم يبق منها شيئاً ، واستدان لأهله دقيقاً . وروى عنه خادمه أنه خرج للتنزّل لأجل الرباط فزالت الهدايا تقد إليه من بكرة النهار إلى الزوال ، ثم فرقها كلها إلى وقت

(١) أي إسم أبي الحواري والد أحمد .

الغروب ثم قال لي : كن هكذا لا ترد على الله شيئاً ، ولا تدخر عنه شيئاً .

ولما جاءت المحنة في زمن المأمون إلى دمشق بخلق القرآن عين فيها أحمد بن أبي الخوارى وهشام ابن عمار ، وسليمان بن عبد الرحمن ، وعبد الله بن ذكوان ، فكلهم أجابوا إلا ابن أبي الخوارى فحبس بدار الحجارة ، ثم هدد فأجاب تورية مكرها ، ثم أطلق رحمه الله . وقد قام ليلة بالثغر يكرر هذه الآية [إياك نعبد وإياك نستعين] حتى أصبح . وقد ألقى كتبه في البحر وقال : نعم الدليل كنت لي على الله وإليه ، ولكن الاشتغال بالدليل بعد معرفة المدلول عليه والوصول إليه محال . ومن كلامه لا دليل على الله سواه ، وإنما يطلب العلم لا آداب الخدمة . وقال : من عرف الدنيا زهد فيها ، ومن عرف الآخرة رغب فيها ، ومن عرف الله آثر رضاه . وقال : من نظر إلى الدنيا نظر إرادة حب لها أخرج الله نور اليقين والزهد من قلبه . وقال : قلت لأبي سليمان في ابتداء أمرى : أوصنى ، فقال : اتستوص أنت ؟ فقلت نعم إن شاء الله تعالى . فقال : خالف نفسك في كل مراداتها فانها الأمانة بالسوء ، وإياك أن تحقر إخوانك المسلمين ، واجمل طاعة الله ذناراً ، والخوف منه شعاراً ، والاخلاص له زاداً ، والصدق حسنة ، واقبل مني هذه الكلمة الواحدة ولا تفارقها ولا تغفل عنها : من استحي من الله في كل أوقاته وأحواله وأفعاله ، بلغه الله إلى مقام الأولياء من عباده . قال فجعلت هذه الكلمات أمامي في كل وقت أذكرها وأطالب نفسي بها . والصحيح أنه توفي في هذه السنة ، وقيل في سنة ثلاثين ومائتين ، وقيل غير ذلك فالحق أعلم .

ثم دخلت سنة سبع وأربعين ومائتين

في شوال منها كان مقتل الخليفة المتوكل على الله على يد ولده المنتصر ، وكان سبب ذلك أنه أمر ابنه عبد الله المعز الذي هو ولي العهد من بعده أن يخاطب بالناس في يوم الجمعة ، فأذاها أداء عظيمًا بليغًا ، فبلغ ذلك من المنتصر كل مبلغ ، وحنق على أبيه وأخيه ، فأحضره أبوه وأهانته وأمر بضربه في رأسه وصفعه ، وصرح بعزله عن ولاية العهد من بعده أخيه ، فاشتد أيضاً حنقه أكثر مما كان . فلما كان يوم عيد الفطر خطب المتوكل بالناس وعنده بعض ضعف من علة به ، ثم عدل إلى خيام قد ضربت له أربعة أميال في مثلها ، فنزل هناك ثم استدعى في يوم ثالث شوال بندمائه على عادته في سمه وحضرته وشربه ، ثم تمالأ ولده المنتصر وجماعة من الأمراء على الفتك به فدخلوا عليه ليلة الأربعاء لأربع خلون من شوال ، ويقال من شعبان من هذه السنة ، وهو على السباط فابتدروا بالسيوف فقتلوه ثم ولوا بعده ولده المنتصر .

ترجمة المتوكل على الله

جعفر بن المعتصم بن الرشيد بن محمد المهدي بن المنصور العباسي ، وأم المتوكل أم ولد يقال لها

شجاع ، وكانت من سرورات النساء سنحاً وحزماً . كان مولده بقم الصلح سنة سبع ومائتين ، وبويع له بالخلافة بعد أخيه الواصل في يوم الأربعاء لست بقين من ذي الحجة لسنة ثنتين وثلاثين ومائتين . وقد روى الخطيب من طريقه عن يحيى بن أكنم عن محمد بن عبد الوهاب عن سفيان عن الأعمش عن موسى بن عبد الله بن يزيد عن عبد الرحمن بن هلال عن جرير بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من حرم الرفق حرم الخير » . ثم أنشأ المتوكل يقول :

الرفقُ بمنَّ والأناةُ سعادةٌ * فاستأن في رفقٍ تلاقٍ نجاحاً
لا خيرَ في حزمٍ بغيرِ رويةٍ * والشكُّ وهنٌ إن أردتَ سراحاً

وقال ابن عساكر في تاريخه : وحدث عن أبيه المعتصم ويحيى بن أكنم القاضي . وروى عنه على ابن الجهم الشاعر ، وهشام بن عمار الدمشقي ، وقدم المتوكل دمشق في خلافته وبنى بها قصرًا بارض داريا . وقال يوماً لبعضهم : إن الخلفاء تنغضب على الرعية لتطيعها ، وإني ألين لهم ليمحبوني ويطيعوني . وقال أحمد بن مروان المالكي : ثنا أحمد بن علي البصري قال : وجه المتوكل إلى أحمد بن المفضل وغيره من العلماء فجمعهم في داره ثم خرج عليهم قدام الناس كلهم إليه إلا أحمد بن المفضل . فقال المتوكل لعبيد الله : إن هذا لا يرى بيعتنا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين بلى ! ولكن في بصره سوء . فقال أحمد بن المفضل : يا أمير المؤمنين ما في بصرى سوء ، ولكن زهتك من عذاب الله . قال النبي (ص) : « من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار » . فجاء المتوكل فجلس إلى جنبه . وروى الخطيب أن علي بن الجهم دخل على المتوكل وفي يده درتان يقلبهما فأنشده قصيدته التي يقول فيها : —

وإذا مرت بيتر عروة فاستقي من ماها

فأعطاه التي في يمينه وكانت تساوي مائة ألف . ثم أنشده :

بسرٍّ من رأى أميره * تعرف من بحر البحر
برجى ويخشى لكل خطبى * كأنه جنة وفاء
الملك فيه وفي بنيه * ما اختلف الليل والنهار
يداه في الجود ضربان * عليه كلتاها كفار
لم تأت منه اليمن شيئاً * إلا أتت مثله اليسار

قال : فأعطاه التي في يساره أيضاً . قال الخطيب : وقد رويت هذه الأبيات لعلى بن هارون

البحترى في المتوكل . وروى ابن عساكر عن علي بن الجهم قال : وقفت فتحية حظية المتوكل بين يديه وقد كتبت على خدها بالغالية جعفر فأمل ذلك ثم أنشأ يقول :

وكتابة في الخبز بالسك جعفرًا * بنفسى تحط المسك من حيث أنزا
لئن أودعت سطرًا من المسك خنّها * لقد أودعت قلبي من الحب أسطرًا
فيا من منها في السيرة جعفرًا * سقا الله من سقيا ثيالِك جعفرًا
ويا من لمسلوك بملك يمسره * مطيع له فيما أنتر وأظهرًا

قال ثم أمر المتوكل عربا فقتل به . وقال الفتح بن خاقان : دخلت يوما على المتوكل فاذا هو مطرق مفكر قلت : يا أمير المؤمنين مالك مفكر ؟ فوالله ما على الأرض أطيب منك عيشا ، ولا أنم منك بالا . قال : بلى أطيب مني عيشا رجل له دار واسعة وزوجة سالحة ومعيشة حاضرة ، لا يعرفنا فتؤذيه ، ولا يحتاج إلينا فتزدريه . وكان المتوكل محببا إلى رعيته فأثما في نصرة أهل السنة ، وقد شبهه بعضهم بالصديق في قتله أهل الردة ، لأنه نصر الحق ورده عليهم حتى رجعوا إلى الدين . وبعمر بن عبد العزيز حين رد مظالم بني أمية . وقد أظهر السنة بعد البدعة ، وأخذ أهل البدع وبدعتهم بعد انتشارها واشتبارها فرحمه الله . وقد رآه بعضهم في المنام بعد موته وهو جالس في نور قال قلت : المتوكل ؟ قال : المتوكل . قلت : فما فعل بك ربك ؟ قال : غفر لي . قلت : بماذا ؟ قال : بقليل من السنة أحييتها . وروى الخطيب عن صالح بن أحمد أنه رأى في منامه ليلة مات المتوكل كأن رجلا يصعد به إلى السماء وقائلا يقول :

ملك يُقاد إلى ملك عادل * متفضل في العفو ليس بجائر

وروى عن عمرو بن شيان الحلبي قال : رأيت ليلة المتوكل قائلا يقول : -

يا قائم العين في أوطان جنان * أفض دموعك يا عمر بن شيان
أما ترى الفتن الأرجاس ما فعلوا * بالهاشمي وبالفتح بن خاقان
وافى إلى الله مظلوما فضج له * أهل السموات من مثني ووجدان
وسوف يأتيكم من بعده قتن * توقعوها لها شأن من الشأن
فابكوا على جعفر وابكوا خليفكم * فقد بكاه جميع الإنس والجان

قال : فلما أصبحت أخبرت الناس برؤياي فجاء نعي المتوكل أنه قد قتل في تلك الليلة ، قال ثم رأيته بعد هذا بشهر وهو واقف بين يدي الله عز وجل قلت : ما فعل بك ربك ؟ فقال : غفر لي . قلت بماذا ؟ قال : بقليل من السنة أحييتها . قلت فما تصنع هنا ؟ قال : أنتظر ابني محمدا أخاصه إلى الله الحليم العظيم الكريم

وذكرنا قريبا كيفية مقتله وأنه قتل في ليلة الأربعاء أول الليل لأربع خلت من شوال من هذه السنة - أعني سنة سبع وأربعين ومائتين - بالتوكلية وهي الماحوزية ، وصلى عليه يوم الأربعاء ،

ودفن بالجعفرية وله من العمر أربعون سنة، وكانت مدة خلافته أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وثلاثة أيام . وكان أسمى حسن العيينين نحيف الجسم خفيف العارضين أقرب إلى القصر والله سبحانه اعلم .

خلافة محمد المنتصر بن المتوكل

قد تقدم أنه تملأ هو وجماعة من الأمراء على قتل أبيه ، وحين قتل بويج له بالخلافة في الليل ، فلما كان الصباح من يوم الأربعاء رابع شوال أخذت له البيعة من العامة وبعث إلى أخيه المعتز فأحضره إليه فبايعه المعتز ، وقد كان المعتز هو ولي العهد من بعد أبيه ، ولكنه أكرهه وخافه فسلم وبايع . فلما أخذت البيعة له كان أول ما تكلم به أنه اتهم الفتح بن خاقان على قتل أبيه ، وقتل الفتح أيضاً ، ثم بعث البيعة له إلى الآفاق . وفي ثاني يوم من خلافته ولي المظالم لأبي عمرة أحمد ابن سعيد مولى بني هاشم فقال الشاعر :

يَا ضَيْعَةَ الْإِسْلَامِ لِمَاؤِي * مَظَالِمِ النَّاسِ أَبُو عَمْرٍ
صَبْرٌ مَأْمُوناً عَلَى أُمَّةٍ * وَلَيْسَ مَأْمُوناً عَلَى بَعْرَةٍ

وكانت البيعة له بالمتوكلية ، وهي المأحوزة ، فأقام بها عشرة أيام ثم تحول هو وجميع قواده وحشمه منها إلى سامرا . وفيها في ذي الحجة أخرج المنتصر عمه علي بن المعتصم من سامرا إلى بغداد ووكل به . وحج بالناس محمد بن سليمان الزينبي . وفيها توفي من الأعيان إبراهيم بن سعيد الجوهري . وسفيان بن وكيع بن الجراح ، وسلمة بن شبيب .

وأبو عثمان المازني النحوي

واسمه بكر بن محمد بن عثمان البصري شيخ النحاة في زمانه ، أخذه عن أبي عبيدة والاصمعي وأبي زيد الأنصاري وغيرهم ، وأخذ عنه أبو العباس المبرد وأكثر عنه ، وللمازني مصنفات كثيرة في هذا الشأن . وكان شبيهاً بالفقهاء ورعاً زاهداً ثقة مأموناً . روى عنه المبرد أن رجلاً من أهل الذمة طلب منه أن يقرأ عليه كتاب سيبويه ويعطيه مائة دينار فامتنع من ذلك . فلما بهض الناس في ذلك فقال : إنما تركت أخذ الأجرة عليه لما فيه من آيات الله تعالى . فاتفق بعد هذا أن جارية غنت بحضرة الوائق :
أُظْلِمُوا إِنَّمَا صَابَكُمْ رَجُلًا * رَدُّ السَّلَامِ نَجِيَّةٌ ظُلْمُ

فاختلف من بحضرة الوائق في إعراب هذا البيت ، وهل يكون رجلاً مرفوعاً أو منصوباً ، وبم نصب ؟ أهواسم أو ماذا ؟ وأصرت الجارية على أن المازني حفظها هذا هكذا . قال فأرسل الخليفة إليه ، فلما مثل بين يديه قال له : أنت المازني ؟ قال : نعم . قال من مازن تميم أم من مازن ربيعة أم مازن قيس ؟ فقلت من مازن ربيعة . فأخذ يكلمني بلفظي ، فقال : باسمك ؟ وهم يقلبون الباء ميماً والميم باء ، فكرهت أن أقول مكر فقلت : بكر ، فأعجبته إعراضه عن المكر إلى البكر ، وعرف ما أردت .

فقال : على م انتصب رجلاً ؟ فقلت : لأنه معمول المصدر بمصائبكم فأخذ البريدي يعارضه فعلاه المازني بالحجة فأطلق له الخليفة ألف دينار ورده إلى أهله مكرماً . فعوضه الله عن المائة الدينار . لما تركها لله سبحانه ولم يمكن الذمي من قراءة الكتاب لأجل ما فيه من القرآن - ألف دينار عشرة أمثالها . روى المبرد عنه قال : أقرأت رجلاً كتاب سيبويه إلى آخره ، فلما انتهى إلى آخره قال لي : أما أنت أيها الشيخ فجزاك الله خيراً ، وأما أنا فوالله ما فهمت منه حرفاً . توفي المازني في هذه السنة وقيل في سنة ثمان وأربعين .

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين ومائتين

فبها أغزى المنتصر وصيفاً التركي الصائفة لقتال الروم ، وذلك أن ملك الروم فصد بلاد الشام ، فعند ذلك جهز المنتصر وصيفاً وجهز معه نفقات وعددا كثيرة ، وأمره إذا فرغ من قتال الروم أن يقيم بالشعر أربع سنين ، وكتب له إلى محمد بن عبد الله بن طاهر نائب العراق كتاباً عظيماً فيه آيات كثيرة في التحريض للناس على القتال والترغيب فيه . وفي ليلة السبت لسبع بقين من صفر خلع أبو عبد الله المعتز والمؤيد إبراهيم أنفسهما من الخلافة ، وأشهدا عليهما بذلك ، وأنها عاجزان عن الخلافة ، والمسولين في حل من بيعتهما ، وذلك بعد ما تهديهما أخوهما المنتصر وتوعدهما بالقتل إن لم يفعلا ذلك ، ومقصوده تولية ابنه عبد الوهاب بإشارة أمراء الأتراك بذلك . وخطب بذلك على رؤس الأَشهاد بمحاضرة القواد والقضاة وأعيان الناس والعوام ، وكتب بذلك إلى الآفاق ليعلموا بذلك ويخطبوا له بذلك على المنابر ، ويتوالى على محال الكتابة ، والله غالب على أمره ، فأراد أن يسلمهما الملك ويجهله في ولده ، والأقدار تكذبه وتخالفه ، وذلك أنه لم يستكمل بعد قتل أبيه سوى ستة أشهر ، ففي أواخر صفر من هذه السنة عرضت له علة كان فيها حتفه ، وقد كان المنتصر رأى في منامه كأنه يصعد سلماً فبأخ إلى آخر خمس وعشرين درجة . فقصصها على بعض المعبرين فقال : تلي خمساً وعشرين سنة الخلافة ، وإذا هي مدة عمره قد استكملها في هذه السنة . وقال بعضهم : دخلنا عليه يوماً فإذا هو يبكي وينتعب شديداً ، فسأله بعض أصحابه عن بكائه فقال : رأيت أبي المتوكل في منامي هذا وهو يقول : ويلك يا محمد قتلتنى وظلمتنى وغصبتنى خلافتى ، والله لا أمتعت بها بعدى إلا أياماً يسيرة ثم مصيرك إلى النار . قال : فما أملك عيني ولا جزعى . فقال له أصحابه من الفرارين الذين يغرون الناس ويفتنونهم : هذه رؤيا وهي تصدق وتكذب ، قم بنا إلى الشراب ليذهب همك وحزنك . فأمر بالشراب فأحضر وجاء ندماءؤه فأخذ في الخمر وهو منكسر الهمة ، وما زال كذلك مكسوراً حتى مات .

وقد اختلفوا في علته التي كان فيها هلاكه ، فقيل داء في رأسه قططر في أذنه فلما وصل

إلى دماغه عوجل بالموت ، وقيل بل ورمت معدته فأنتهى الورم إلى قلبه فمات ، وقيل بل أصابته ذبحة فاستمرت به عشرة أيام فمات ، وقيل بل فصدته الحجام بمقصده مسموم فمات من يومه . قال ابن جرير : أخبرني بعض أصحابنا أن هذا الحجام رجع إلى منزله وهو محموم فدعا تلميذاً له حتى يفصده فأخذ مبيض أستاذة ففصده به وهو لا يشعر وأنسى الله سبحانه الحجام فما ذكر حتى رآه قد فصد به وتحكم فيه السم ، فأوصى عند ذلك ومات من يومه . وذكر ابن جرير أن أم الخليفة دخلت عليه وهو في مرضه الذي مات فيه فقالت له : كيف حالك ؟ فقال : ذهبت مني الدنيا والآخرة ، ويقال إنه أنشد لما أحيط به وأيس من الحياة :

فما فرحت نفسي بدنيا أصبْتُها * ولكن إلى الرب الكريم أُصيرُ

فمات يوم الأحد لخمس بقين من ربيع الآخر من هذه السنة ، وقت صلاة العصر ، عن خمس وعشرين سنة ، قيل وستة أشهر . ولا خلاف أنه إنما مكث بالخلافة ستة أشهر لا أزيد منها . وذكر ابن جرير عن بعض أصحابه أنه لم يزل يسمع الناس يقولون - العامة وغيرهم حين ولى المنتصر - إنه لا يمكث في الخلافة سوى ستة أشهر ، وذلك مدة خلافة من قتل أباه لأجلها ، كما مكث شبرويه بن كسرى حين قتل أباه لأجل الملك . وكذلك وقع ، وقد كان المنتصر أعين أفنى قصيراً مهيباً جيد البدن ، وهو أول خليفة من بني العباس أبرز قبره بأشارة أمه حبشية الرومية . ومن جيد كلامه قوله : والله ما عز ذو باطل قط ، ولو طلع القمر من جبينه ، ولا ذل ذو حق قط ولو أصفق العالم عليه .



بحمد الله تعالى قد تم طبع الجزء العاشر من البداية والنهاية ويليهِ الجزء الحادى عشر وأوله خلافة أحمد المستعين بالله . والله نسأل المعونة والتوفيق .



فهرست الجزء العاشر من كتاب البداية والنهاية

صفحة	مقتل مروان بن محمد بن مروان	صفحة	٢ خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك	صفحة
٤٢	صفحة مقتل مروان	٤٤	محمد بن علي	٥
٤٦	وهذا شيء من ترجمة مروان الحمار	٤٨	وأما يحيى بن يزيد	٦
٤٨	ما ورد في انقضاء دولة بني أمية	٥٢	ثم دخلت سنة ست وعشرين ومائة	٨
٥٢	وابتداء بني العباس من الأخبار النبوية	٥٤	فيها كان مقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك وهذه ترجمته	١٦
٥٤	استقرار أبي العباس السفاح	٥٦	مقتله وزوال دولته	١٧
٥٦	ذكر من توفي فيها من الأعيان	٥٧	قتل يزيد بن الوليد الناقص للوليد بن يزيد	٢١
٥٧	ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين ومائة	٥٨	خلافه يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان	٢٢
٥٨	ثم دخلت سنة أربع وثلاثين ومائة	٦١	ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومائة	٢٦
٦١	ثم دخلت سنة ست وثلاثين ومائة	٦٣	دخول مروان الحمار دمشق وولايته الخلافة	٢٩
٦٣	ترجمة أبي العباس السفاح أول خلفاء بني العباس	٦٧	ثم دخلت سنة ثمان وعشرين ومائة	٣٠
٦٧	خلافه أبي جعفر المنصور	٧٣	ثم دخلت سنة تسع وعشرين ومائة	٣٢
٧٣	ثم دخلت سنة سبع وثلاثين ومائة	٧٤	أول ظهور أبو مسلم الخراساني	٣٤
٧٤	ذكر خروج عبد الله بن علي	٧٥	مقتل ابن الكرماني	٣٥
٧٥	أبن أخيه المنصور	٧٧	سنة ثلاثين ومائة	٣٧
٧٧	مهلك أبي مسلم الخراساني		مقتل شيبان بن سامة الحروري	٣٨
	ترجمة أبي مسلم الخراساني		ذكر دخول أبي حمزة الخارجي	٣٩
	ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين ومائة		المدينة النبوية واستلأته عليها	٤٠
	ثم دخلت سنة تسع وثلاثين ومائة		ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين ومائة	
	ثم دخلت سنة أربعين ومائة		ثم دخلت سنة ثنتين وثلاثين ومائة	
	ثم دخلت سنة إحدى وأربعين ومائة		ذكر مقتل إبراهيم بن محمد الأمام	
	ثم دخلت سنة ثنتين وأربعين ومائة		خلافه أبي العباس السفاح	

- ٨٠ ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين ومائة
٨٢ ثم دخلت سنة أربع وأربعين ومائة
ثم دخلت سنة خمس وأربعين ومائة
٨٦ **فَضْلُ اللَّهِ**
مقتل محمد بن عبد الله بن حسن
٨٧ خروج إبراهيم بن عبد الله بن حسن
٩١ ذكر خروج إبراهيم بن عبد الله بن
حسن بالبصرة
٩٥ ذكر من توفي فيها من الأعيان
٩٦ وفيها توفي من المشاهير والأعيان
ثم دخلت سنة ست وأربعين ومائة
١٠١ ما ورد في مدينة بغداد من الآثار
وما فيها من الأخبار
١٠٢ **فَضْلُ اللَّهِ**
محاسن بغداد ومساوئها وما روى
في ذلك عن الأئمة
١٠٣ ثم دخلت سنة سبع وأربعين ومائة
١٠٥ ثم دخلت سنة ثمان وأربعين ومائة
ثم دخلت سنة تسع وأربعين ومائة
١٠٦ ثم دخلت سنة خمسين ومائة من الهجرة
١٠٧ **أذكر ترجمته أبو جعفر**
١٠٨ ثم دخلت سنة إحدى وخمسين ومائة
١٠٩ بناء الرصافة
ثم دخلت سنة ثنتين وخمسين ومائة
ثم دخلت سنة ثلاث وخمسون ومائة
ثم دخلت سنة أربع وخمسين ومائة
- صحيفة
أشعب الطامع
١١٣ ثم دخلت سنة خمس وخمسين ومائة
بناء الرافقة وهي المدينة المشهورة
١١٤ حماد الراوية
ثم دخلت سنة ست وخمسين ومائة
١١٥ ثم دخلت سنة سبع وخمسين ومائة
شيء من ترجمة الأوزاعي رحمه الله
١٢٠ ثم دخلت سنة ثمان وخمسين ومائة
١٢١ ترجمته المنصور
ثم دخلت سنة تسع وخمسين ومائة
١٢٨ أولاد المنصور
١٢٩ خلافة المهدي بن المنصور
١٣١ ثم دخلت سنة ستين ومائة
ذكر البيعة لموسى الهادي
١٣٣ ثم دخلت سنة إحدى وستين ومائة
أبو دلامة
١٣٥ ثم دخلت سنة ثنتين وستين ومائة
إبراهيم بن أدهم
١٤٥ ثم دخلت سنة ثلاث وستين ومائة
١٤٦ ثم دخلت سنة أربع وستين ومائة
١٤٧ ثم دخلت سنة خمس وستين ومائة
ثم دخلت سنة ست وستين ومائة
١٤٩ ثم دخلت سنة سبع وستين ومائة
١٥٠ ثم دخلت سنة ثمان وستين ومائة
١٥١ ثم دخلت سنة تسع وستين ومائة
١٥٧ خلافة موسى الهادي بن مهدي

مصحفة

مصحفة

- ١٥٨ ثم دخلت سنة سبعين ومائة
 ١٥٩ وهذا ذكر شيء من ترجمة الهادي
 ١٦٠ خلافة هارون الرشيد بن المهدي
 ١٦١ ذكر من توفي فيها من الأعيان
 ١٦٢ ثم دخلت سنة إحدى وسبعين ومائة
 ثم دخلت سنة ثنتين وسبعين ومائة
 ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين ومائة
 ١٦٤ غادر
 ١٦٥ ثم دخلت سنة أربع وسبعين ومائة
 ثم دخلت سنة خمس وسبعين ومائة
 ١٦٦ شعوانة العابدة الزاهدة
 المنذر بن عبد الله بن المنذر
 ١٦٧ ثم دخلت سنة ست وسبعين ومائة
 ١٦٩ إبراهيم بن صالح
 ١٧٠ صالح بن بشير المرتي
 ١٧١ ثم دخلت سنة سبع وسبعين ومائة
 ثم دخلت سنة ثمان وسبعين ومائة
 ١٧٢ ثم دخلت سنة تسع وسبعين ومائة
 اسماعيل بن محمد
 ١٧٤ حماد بن زيد
 والأمام مالك
 ١٧٥ ثم دخلت سنة ثمانين ومائة
 اسماعيل بن جعفر بن أبي كثير يرم
 الأنصاري
 حسان بن أبي سنان
 ١٧٦ عبد الوارث بن سعيد البيروتي أحد
 الثقات
- وعافية بن يزيد
 سيويه
 ١٧٧ عفيرة العابدة
 ثم دخلت سنة إحدى وثمانين ومائة
 الحسن بن قحطبة
 وعبد الله بن المبارك
 ١٧٩ ومفضل بن فضالة
 ويعقوب التائب
 ثم دخلت سنة ثنتين وثمانين ومائة
 ومعن بن زائدة
 ١٨٠ والقاضي أبو يوسف أطلب العلم
 ١٨٢ يعقوب بن داود بن طهمان
 ١٨٣ ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين ومائة
 علي بن الفضيل بن عياض
 ومحمد بن صبيح
 وموسى بن جعفر
 هاشم بن بشير بن أبي حازم
 ويحيى بن زكريا
 ١٨٤ ثم دخلت سنة أربع وثمانين ومائة
 أحمد بن الرشيد
 ١٨٥ عبدالله بن مصعب
 عبدالله بن عبد العزيز العمري
 ومحمد بن يوسف بن معدان
 ١٨٦ ثم دخلت سنة خمس وثمانين ومائة
 عبد الصمد بن علي
 ورابعة العدوية
 ١٨٧ ثم دخلت سنة ست وثمانين ومائة
 وفيها توفي من الأعيان

صحيفة

١٨٨ وسلم الخاسر الشاعر

والعباس بن محمد

ويقطين بن موسى

١٨٩ ثم دخلت سنة سبع وثمانين ومائة

١٩٤ ذكر من توفي فيها من الأعيان

١٩٧ حكاية غريبة

١٩٨ الفضيل بن عياض

١٩٩ ثم دخلت سنة ثمان وثمانين ومائة

٢٠٠ ابو اسحاق الفزاري

ولإبراهيم الموصلي

٢٠١ ثم دخلت سنة تسع وثمانين ومائة

ذكر من توفي فيها من الأعيان

٢٠٢ محمد بن الحسن بن زفر

٢٠٣ ثم دخلت سنة تسعين ومائة من الهجرة

من توفي فيها من الأعيان والمشاهير

٢٠٤ يحيى بن خالد بن برمك

٢٠٦ ثم دخلت سنة احدى وتسعين ومائة

ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين ومائة

٢٠٧ اسماعيل بن جامع

٢٠٨ وعبد الله بن ادريس

٢٠٩ صمصمة بن سلام

علي بن ظبيان

العباس بن الأحنف

٢١٠ عيسى بن جعفر بن ابي جعفر

١٨٣ المنصور

الفضل بن يحيى

٢١٢ ومنصور بن الزبرقان

صحيفة

يوسف بن القاضي ابي يوسف

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين ومائة

٢١٣ وفاة الرشيد

وهذه ترجمته

٢٢٣ ذكر زوجاته وبنه وبناته

خلافة محمد الأمين ابن الرشيد

٢٢٣ إختلاف الأمين والمأمون

٢٢٤ إسماعيل بن علي

محمد بن جعفر

ابو بكر بن الغياش

ثم دخلت سنة أربع وتسعين ومائة

٢٢٥ سالم بن سالم ابو بحر البلخي

٢٠٤ وعبد الوهاب بن عبد المجيد

٢٠٦ وابو النصر الجبني المصاب

٢٢٦ ثم دخلت سنة خمس وتسعين ومائة

٢٢٧ إسحاق بن يوسف الأزرق

٢١٠ بكار بن عبد الله

٢١٢ أبو نواس الشاعر

٢٢٥ ثم دخلت سنة ست وتسعين ومائة

٢٣٦ سبب خلع الأمين وكيف افضت

الخلافة الى اخيه المأمون

٢٣٨ وحفص بن غياث القاضي

ابو شيص

ثم دخلت سنة سبع وتسعين ومائة

٢٤ ثم دخلت سنة ثمان وتسعين ومائة

كيفية مقتله

٢٤١ شيء من ترجمته

٢٤٤ خلافة عبد الله المأمون بن الرشيد

هارون

ثم دخلت سنة تسع وتسعين ومائة

٢٤٥ ثم دخلت سنة مائتين من الهجرة

٢٤٧ ثم دخلت سنة إحدى ومائتين

بيعة أهل بغداد لأبراهيم بن المهدي

٢٤٨ ثم دخلت سنة ثنتين ومائتين

٢٤٩ ثم دخلت سنة ثلاث ومائتين

خلع أهل بغداد لأبراهيم بن المهدي

علي بن موسى

٢٥٠ ثم دخلت سنة أربع ومائتين

٢٥١ أبو عبدالله محمد بن إدريس الشافعي

٢٥٥ ثم دخلت سنة خمس ومائتين

٢٥٩ ثم دخلت سنة ست ومائتين

ثم دخلت سنة سبع ومائتين

٢٦١ يحيى بن زياد بن عبدالله بن منصور

ثم دخلت سنة ثمان ومائتين

٢٦٢ وفاة السيدة نفيسة

٢٦٣ الفضل بن الربيع

ثم دخلت سنة تسع ومائتين

ثم دخلت سنة عشر ومائتين

٢٦٥ عرس يوران

ثم دخلت سنة إحدى عشرة ومائتين

أبو العتاهية الشاعر المشهور

٢٦٦ ثم دخلت سنة ثلثي عشرة ومائتين

٢٦٧ ثم دخلت سنة ثلاث عشرة ومائتين

٢٦٨ العكوك الشاعر

ثم دخلت سنة أربع عشرة ومائتين

٢٦٩ أحمد بن يوسف بن القاسم بن

صبيح

أبو محمد عبد الله بن أعين

بن ليث بن رافع المصري

ثم دخلت سنة خمس عشرة ومائتين

أبو زيد الأنصاري

٢٧٠ ثم دخلت سنة ست عشرة ومائتين

زبيدة امرأة الرشيد وابنة عمه

٢٧١ ثم دخلت سنة سبع عشرة ومائتين

ثم دخلت ثمان عشرة ومائتين

٢٧٢ ذكر أول المحنة والفتنة

٢٧٣ فضيحة

٢٧٤ عبد الله المأمون

٢٨١ بشر المريسي

وأبو محمد عبد الملك بن هشام بن

أيوب المعافري

ثم دخلت سنة تسع عشرة ومائتين

٢٨٢ ثم دخلت سنة عشرين ومائتين من

الهجرة

٢٨٣ ثم دخلت سنة إحدى وعشرين ومائتين

ثم دخلت سنة ثنتين وعشرين ومائتين

ذكر مسك بابك

٢٨٤ ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين ومائتين

٢٨٦ فتح عمورية على يد المعتصم

٢٨٨ مقتل العباس بن المأمون

٢٨٩ ثم دخلت سنة أربع وعشرين ومائتين

٢٩٢ ثم دخلت سنة خمس وعشرين ومائتين

وسعيد بن مسعدة

الجرمي النحوي

٢٩٣ ثم دخلت سنة ست وعشرين ومائتين

٢٩٤ وأبو دلف العجلي

٢٩٥ ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومائتين

وهذه ترجمته

٢٩٧ خلافة هارون الواثق بن المعتصم

بشر الحافي الزاهد المشهور

٢٩٩ ثم دخلت سنة ثمان وعشرين ومائتين

أبو تمام الطائي الشاعر

٣٠١ ثم دخلت سنة تسع وعشرين ومائتين

٣٠٢ ثم دخلت سنة ثلاثين ومائتين

٣١٥ عبد الله بن طاهر بن الحسين

٣٠٢ ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين ومائتين

٣٠٨ ثم دخلت سنة ثنتين وثلاثين ومائتين

٣١٠ خلافة المتوكل على الله جعفر بن

المعتصم

٣١١ ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين ومائتين

٣١٢ ثم دخلت سنة أربع وثلاثين ومائتين

٣١٢ ثم دخلت سنة خمس وثلاثين ومائتين

٣١٤ إسحاق بن ماهان

٣١٥ ثم دخلت سنة ست وثلاثين ومائتين

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين ومائتين

٣١٧ ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين ومائتين

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين ومائتين

٣١٨ أحمد بن عاصم الأنطاكي

٣١٩ ثم دخلت سنة أربعين ومائتين

٣٢٢ أما سحنون المالكي صاحب المدونة

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين ومائتين

٣٢٥ الإمام أحمد بن حنبل

٣٢٨ ورعه وتقشفه وزهده رحمه الله

٣٣٠ ذكر ما جاء في محنة أبي حنبل

٣٣١ ملخص الفتنة والمحنة

٣٣٢ ذكر ضربه رضي الله عنه بين يدي

٤٣ المعتصم

٣٣٥ ثناء الأئمة على الإمام أحمد بن حنبل

٣٣٧ ما كان من أمر الإمام أحمد بعد المحنة

٣٤٠ وفاة الإمام أحمد بن حنبل

٣٤٢ ذكر ما رثى له من المنامات

٣٤٣ ثم دخلت سنة ثنتين وأربعين ومائتين

٣٤٤ وأبو حسان الزبيدي

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين ومائتين

٣٤٩ إبراهيم بن العباس

ثم دخلت سنة أربع وأربعين ومائتين

٣٤٦ ثم دخلت سنة خمس وأربعين ومائتين

وأبن الراوندي

٣٤٧ ذو النون المصري

٣٤٨ ثم دخلت سنة ست وأربعين ومائتين

ودعبل بن علي أحمد بن أبي الحوراني

٣٤٩ ثم دخلت سنة سبع وأربعين ومائتين

٣٥٢ محمد المنتصر وأبو عثمان المازني النحوي

٣٥٣ ثم دخلت سنة ثمان وأربعين ومائتين